صحح الطالب ما طلب منه

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

قاعدة كمال الدين بين السلف والطوائف المخالفة

إعداد الطالب :

مولاي بوجمعة أمدجار

إشراف :

فضيلة الدكتور عبد الله بن سليمان الغفيلي

رسالة ماجستير

عام ١٤٢٢هـ

مُقَدِّمَة

توطئة :

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٠٢) .

(٢) سورة النساء، الآية (١) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ ﴾[1].

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله عز وجل، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد :

فإن الله جل وعلا أحسن إلى الخلق عامة، من غير أن تكون لهم عليه يد أو منة، ولم يسألهم على إحسانه المكافأة، ولم يطلب منهم الجزاء، ما خلا الشكر والثناء، ووعد عليه بالزيادة والنماء ، كما لم يمنعه تفريطهم فيما أوجبه، وتضييعهم لما فرضه أن يمن عليهم بنعمة تتبعها نعمة، ومنة تتلوها أخرى، وآلاء لا تدرك بالعد ولا تستقصى بالإحصاء، كل ذلك تفضلا منه وإنعاما، وتكرما وإحسانا، قال تعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾[2].

ولقد خص الله هذه الأمة من بين الأمم بمزيد فضله، وبالغ نعمه، فجعلها خير الأمم، وشرفها بأفضل الشرائع، وأحسن الملل، وأكرمها بأن بعث فيها سيد الأنبياء والرسل ﷺ، الذي حُمِّل أعباء الرسالة فقام بواجبها، واجتهد في تبليغها حتى انتشرت في مشارق الأرض ومغاربها، والذي دل أمته على ما فيه خيرها، وحذرها مما فيه ضيرها، وشيد لها صرح الكمال لتلجه، وترك الحق بينا لمن التمسه، والباطل واضحا لمن رام تجنبه، والنهج معبدا لمن أراد أن يسلكه، فظهرت به المحجة، وقامت على الأمة الحجة، ولم يفارقها ﷺ ليلحق بالرفيق الأعلى حتى أتم الله عليه النعمة، وأكمل له الدين، ووعده أن يتولى حفظه بنفسه حتى يأذن في آخر الزمان برفعه، قال تعالى :

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان (٧٠-٧١) .

(٢) سورة النحل، الآية (١٨) .

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[1].

فكانت هذه النعمة الواردة في هذه الآية من أعظم ما خص الله به المسلمين؛ لأن الله جل وعلا لم يحوجهم إلى كتاب سابق، ولا إلى نبي لاحق، و لم يحلهم على محدث أو ملهم، أو صاحب كشف أو منام، أو صاحب رأي أو كلام، بل أغناهم بدينهم عن كل شيء آخر سواه؛ لذا كان من أهل الملل السابقة من يغبطهم، ويذكر أن هذه الآية لو نزلت على قومه لاتخذوا يوم نزولها عيدا، وذلك تعظيما لشأنها، وإظهارا لأهميتها وعلو منزلتها .

ولقد أدرك سلف هذه الأمة أهمية كون الدين كاملا فجعلوا الإقرار به أصلا عظيما من أصول الاعتقاد، بل عدوه من الأمور المعلومة عندهم من الدين بالضرورة معتبرين إنكاره كفرا صراحا، فتظافرت عنهم النقول لتقريره، وكثرت الآثار الواردة عنهم لتأصيله، فكان لذلك أثره الحسن عليهم، وعلى من سلك طريقهم، واقتفى أثرهم، فمن ذلك أن الصحابة الذين رسخت عقيدة كمال الدين في نفوسهم لم يؤثر عن أحد منهم أنه ابتدع بدعة قط، ولا أنه دخل مع أهلها، بل لم ينقل عنهم إلا محاربتها، والبراءة من أهلها، والدفاع عن نقاء الدين، وجهاد كل من رام تكديره صفوه، وهذا شأن من تبعهم، وديدن من نهج نهجهم، فهم في كل زمان ومكان بالمرصاد للبدع، وشجا في حلوق أهلها .

وفي المقابل نجد الذين تنكبوا عن سبيلهم يبتدع كل فريق منهم رأيا، ويؤصل له أصولا ثم يسعى في ترويجه بين الدهماء، حتى صارت تلك الأهواء أديانا تتبع، وأصبحت تلك الأصول مبادىء يتعصب لها، بل وتقدم على أدلة الكتاب والسنة !!

---

(١) سورة المائدة الآية (٣) .

فترتب عن ذلك مفاسد عظيمة، وكانت له نتائج وخيمة، من أقبحها محاولة التشكيك في كمال الدين، والسعي في زعزعة اعتقاد ذلك في نفوس المسلمين .

ولقد من الله علي بمنن عظيمة منها أنه جل وعلا يسر لي بفضله وكرمه متابعة دراستي بقسم العقيدة في الجامعة الإسلامية –حرسها الله من كل سوء– ولما كان لزاما على كل طالب في هذه المرحلة أن يقدم موضوعا يرغب البحث فيه، وقع اختياري على دراسة مسألة كمال الدين، وقدمت الموضوع بعنوان : **قاعدة كمال الدين بين السلف والطوائف المخالفة** .

وقد بينت في القسم الأول منه كيف قرر السلف كمال الدين وأوضحت أن الإيمان بذلك لا يكون إلا إذا اعتقد الإنسان أن الله جل وعلا أكمل تنزيله، وأن النبي ﷺ أكمل تبليغه فلم يكتم منه قليلا ولا كثيرا، وأنه ظل محفوظا حتى وصل إلينا كاملا، ثم بينت بعد ذلك جهودهم في حماية كمال الدين .

وأما القسم الثاني من البحث فقد بينت فيه موقف الطوائف من القاعدة، ودرست أصولهم التي أصلوها لبث بدعهم، ونشر باطلهم .

وأريد أن أسجل هنا حقيقة مهمة جدا، وهي أن الكثير من الناس حتى بعض المتخصصين في دراسة الفرق يحسبون أن طعن أهل البدع في كمال الدين لازم فاسد يلزم من أقوالهم، وأن ذلك ليس صريح مذهبهم، ولا أنهم ينصون عليه نصا، وكنت أحسب أن هذا هو حال القوم وواقع أمرهم، حتى إني لما كنت أعد خطة البحث وقفت يومها على تصريح بعض الرافضة بعدم كمال الدين فظننت أن هذا مما شذوا به عن سائر الطوائف، وقلت بأن مثل هذا لا يستكثر من قوم يعتقدون تحريف القرآن ويسعون إلى أن يشذوا عن الأمة في كل صغيرة وكبيرة، لكني فوجئت بما أذهلني أثناء جمع المادة، وقراءة كتب الفرق؛ إذ إني وجدت غيرهم سلك مسلكهم في ذلك، فوقفت على عبارات صريحة لأناس لهم مكانة سنية عند بعض الفرق فيها اتهام صريح للدين بالنقصان !!! وقد بينت ذلك كله في موضعه .

هذا وقد كان وراء اختياري لهذا الموضوع أسباب عدة أجملها في الآتي :

١/ أهمية الموضوع، وقد أسلفت الكلام عنها .

٢/ أن الموضوع مع أهميته إلا أنه لم يفرد بدراسة موسعة، فلم أقف بعد البحث على رسالة جامعية تناولته بالشكل الذي أريد تناوله به، غير أن ثمت بعض المؤلفات لها صلة بالموضوع، وأكثرها عبارة عن محاضرات ألقيت لتقرير كمال الدين إجمالا، مع التركيز على التحذير من البدع،ولعل من المناسب أن أذكر في هذا المقام ما وقفت عليه منها، وهي :

(أ) "الإسلام دين كامل"[١] وهي رسالة صغيرة الحجم، تناول المؤلف فيها (بيان عشر مسائل عظام عليها مدار الدنيا من المسائل التي تهم العالم في الدارين)[٢].

(ب) "كمال الشريعة وشمولها لكل ما يحتاجه البشر"[٣] وهي رسالة صغيرة أيضا تطرق المؤلف فيها إلى كون الدين كاملا ،وأنه صالح لكل زمان ومكان وذلك على وجه العموم .

(ج) "الإبداع في كمال الشرع وخطر الابتداع"[٤] وهي رسالة صغيرة أيضا .

(د) "كمال الدين الإسلامي وحقيقته ومزاياه"[٥] وهي رسالة تحوي مجموعة مقالات مقتضبة عن سماحة الإسلام ويسره وشموله، وذكر نبذ من محاسنه .

(هـ) "تنبيه أولي الأبصار إلى كمال الدين وما في البدع من الأخطار"[٦] وهو أكبرها حجما،وأوسع مادة، وقد تناول فيه المؤلف محاسن الدين ومبادئه السامية، ووجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، وأسباب البدع وخطورتها وأنواعها وأحكامها .

---

(١) للعلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله ،وهي عبارة عن محاضرة ألقاها فضيلته في المسجد النبوي .

(٢) الإسلام دين كامل ص : (٨) (طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية ،السعودية) .

(٣) الرسالة للشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رحمه الله (طبعتها مكتبة ابن تيمية ،القاهرة/ط١/١٤١٤) .

(٤) للشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله (طبعتها دار الوطن، الرياض/ط١/١٤١٠) .

(٥) الرسالة جمعها عبد الله بن جار الله آل جار الله (طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية ،السعودية) .

(٦) لفضيلة شيخنا الدكتور صالح بن سعد السحيمي حفظه الله (طبعة دار ابن حزم/ط١/١٤١٠) .

(و) "الشريعة الإسلامية كمال في الدين وتمام للنعمة"[1] والكتاب أشبه ما يكون بالكتب المؤلفة في تاريخ التشريع الإسلامي، وأما مسألة كمال الدين فإذا استثنينا ما ورد في عنوان الكتاب فليس لها فيه ذكر من قريب ولا من بعيد .

ويلاحظ على الرسائل السابقة أنها لم تتطرق لموقف الطوائف من مسألة كمال الدين .

٣/ الرغبة في الكشف عن حقيقة موقف أهل البدع من هذه المسألة، وكيف يجمعون بين التمسك ببدعهم وبين اعتقاد كمال الدين –إن كانوا يعتقدون ذلك–.

وقد سلكت في كتابتي لهذا الموضوع الخطة التالية :

---

(١) للدكتور محمد رياض (طبعة دار النجاح الجديدة ،الدار البيضاء/ط١/١٤٢٠) .

خطة البحث :

قسمت البحث إلى مقدمة، ومدخل، وبابين، وخاتمة .

المقدمة :

وتشتمل على توطئة في أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، والمنهج المتبع، وشكر وتقدير .

المدخل :

في بيان معنى قاعدة كمال الدين، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول: تعريف القاعدة .

المطلب الثاني : تعريف الكمال .

المطلب الثالث : تعريف الدين .

المطلب الرابع : المراد بقاعدة كمال الدين .

الباب الأول :

في تقرير السلف للقاعدة، وفيه تمهيد ، وثلاثة فصول :

التمهيد :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : في تعريف السلف .

المطلب الثاني : في حكم الانتساب إلى السلف .

الفصل الأول :

في تقرير السلف للقاعدة من حيث التأصيل، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول :

أدلة كمال الدين :وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : من القرآن .

المطلب الثاني : من السنة .

المطلب الثالث : من آثار السلف .

المبحث الثاني :

بيان أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : في بيان الأدلة الدالة على أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين .

المطلب الثاني : بيان أن تبليغه ﷺ يشمل تبليغ الألفاظ وتوضيح المعاني .

المطلب الثالث : في بيان أن الصحابة هم أعلم الناس بالألفاظ والمعاني المبلغة، فوجب اتباع فهمهم .

المبحث الثالث :

في بيان أن الله تكفل بحفظ هذا الدين ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : في بيان أن القرآن محفوظ، وعوامل حفظه .

المطلب الثاني : في بيان أن السنة محفوظة، وعوامل حفظها .

الفصل الثاني :

تقرير السلف للقاعدة من حيث التطبيق، وفيه مبحثان :

المبحث الأول :

تقريرهم لكمال هذا الدين في بابي العلم والعمل،وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : تقريرهم لكمال الدين في جانب العلم .

المطلب الثاني : تقريرهم لكماله في جانب العمل .

المطلب الثالث : تقريرهم اقتضاء العلم العمل، ووجوب الجمع بينهما .

المبحث الثاني :

تقريرهم اشتمال هذا الدين على مصالح الدارين . وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : في بيان الأدلة الدالة على أن هذا الدين أريد به مصالح العباد في المعاش والمعاد .

المطلب الثاني : في بيان أن الصالح المعتبرة هي التي دل عليها الشرع .

المطلب الثالث : أن من كمال هذا الدين اشتماله على مصالح الدنيا والآخرة .

الفصل الثالث :

في حماية السلف للقاعدة وحرصهم عليها .وفيه مبحثان :

المبحث الأول :

في بيانهم للحق، وإقامة الحجة على الخلق بناء على أصلين :

المطلب الأول : البيان الوافي المزيل لكل لبس وإشكال .

المطلب الثاني : الحرص على هداية الناس، ودعوتهم بالتي هي أحسن.

المبحث الثاني :

في تحذير السلف من البدع، وأهلها .وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التحذير من مغبة البدع، وخطورتها .

المطلب الثاني : التحذير من أهل البدع، والأهواء .

الباب الثاني :

في موقف الطوائف المخالفة لمنهج الحق من القاعدة، وفيه مدخل وفصلان :

المدخل :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : طرق أهل البدع لحرم القاعدة إجمالا، وفيه ثلاثة مسالك :

المسلك الأول : الزيادة والإحداث .

المسلك الثاني : الرد والإبطال :

(أ) الطعن في القرآن .

(ب) الطعن في السنة .

المسلك الثالث : الإعراض عن فهم السلف :

(أ) الطعن في الصحابة، وعلماء السلف [أي في أشخاصهم].

(ب) الطعن في علومهم .

المطلب الثاني : في بيان المراد بالطوائف التي ستتناولها الدراسة .

الفصل الأول :

موقف أرباب المنهج العقلاني من القاعدة، وفيه مدخل، وثلاثة مباحث :

المدخل :

في التعريف بالمنهج العقلاني، وموقف الطوائف من العقل :

المطلب الأول : التعريف بالمنهج العقلاني ومدارسه .

١/ الفلاسفة .

٢/ المتكلمون .

المطلب الثاني : موقف الطوائف من العقل .

المبحث الأول :

موقف الفلاسفة من القاعدة، والرد عليهم، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة، ونقضها :

الأصل الأول : جعلوا أنفسهم الأصل الذي يفرعون عليه .

الأصل الثاني : الطعن في وجود الله، واعتباره من الخيالات .

الأصل الثالث : الطعن في الوحي وادعاء أن النبوة مكتسبة .

المطلب الثاني : موقفهم من المسائل العلمية والعملية :

١/ موقفهم من المسائل العلمية، وبيان جحودهم لها .

٢/ موقفهم من المسائل العملية، وبيان تفريطهم فيها .

المبحث الثاني :

موقف المتكلمين من القاعدة، والرد عليهم، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : أصول المتكلمين لخرم القاعدة :

الأصل الأول : تقديس المناهج الفلسفية، وتقديم العقل على النقل .

الأصل الثاني : رد النصوص الشرعية :

(أ) الطعن في ثبوتها .

(ب) الطعن في دلالتها .

الأصل الثالث : تحريف النصوص، وتعطيلها عن معانيها :

(ا) مسلك التحريف .

(ب) مسلك التجهيل .

الأصل الرابع : التقليل من شأن العلوم السلفية، والطعن في علماء السلف .

المطلب الثاني : موقف المتكلمين من المسائل العلمية والعملية .

١/ تقرير بعض المسائل العلمية على خلاف ما دلت عليه النصوص .

٢/ حصرهم الدين في النطاق النظري .

٣/ إهمالهم للجانب العملي، وتركهم له .

المبحث الثالث :

المتأثرون بالنهج العقلاني في هذا العصر .وفيه مدخل، ومطلبان :

المطلب الأول : بيان أصولهم التي خرموا بها القاعدة، وعلاقتها بأصول أسلافهم .

المطلب الثاني : ذكر بعض الأمثلة التي تبين خرمهم للقاعدة .

الفصل الثاني :

موقف أرباب المنهج الباطني من القاعدة، والرد عليهم، وفيه مدخل وأربعة مباحث:

المدخل :

في التعريف بالمنهج الباطني، ومدارسه :

(أ) الرافضة .

(ب) الصوفية .

(ج) الإسماعيلية .

المبحث الأول :

موقف الرافضة من قاعدة كمال الدين، والرد عليهم، وفيه مدخل، ومطلبان :

المدخل : وفيه بيان أن الرافضة يصرحون بأن الدين غير كامل .

المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة، والرد عليها :

الأصل الأول : الطعن في القرآن، والقول بنقصانه وتحريفه .

الأصل الثاني : ادعاء أن لهم كتبا أخرى مقدمة على القرآن كالجفر والجامعة والرقاع.

الأصل الثالث : الطعن في السنة إما بالكذب أو التكذيب .

الأصل الرابع : الطعن في الصحابة، وتكفير أكثرهم .

الأصل الخامس : الغلو في أئمتهم، و إعطاؤهم حق التشريع، ويتجلى ذلك في:

١/ القول بعصمتهم .

٢/ اعتقادهم أن أئمتهم يوحى إليهم، وتنـــزل عليهم كتب إلهية.

٣/ أنهم وحدهم الذين يعلمون المعاني الباطنة للقرآن .

٤/ أن منـــزلتهم فوق منـــزلة الأنبياء والملائكة .

المطلب الثاني : موقفهم من كمال الدين في المسائل العلمية والعملية :

١/ بيان إفلاسهم في المسائل العلمية، واضطرارهم للأخذ بمنهج المتكلمين في أكثرها .

٢/ بيان تفشي الشركيات والبدع عندهم في النواحي العملية .

المبحث الثاني :

موقف الصوفية من قاعدة كمال الدين، والرد عليهم. وفيه مطلبان :

المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة :

الأصل الأول : تقسيم العلم إلى علم الحقيقة وعلم الشريعة، أو تقسيم الدين إلى ظاهر وباطن .

الأصل الثاني : تقديس المشايخ،وإعطاؤهم حق التشريع، ويتجلى ذلك في :

(أ) القول بعصمتهم .

(ب) دعوى أنهم يتلقون عن الله بلا واسطة .

(ج) دعوى أنهم يقابلون الرسول يقظة لا مناما .

(د) تفضيلهم على الأنبياء .

الأصل الثالث : التنفير من العلم والدعوة إلى الجهل .

المطلب الثاني : موقفهم من كمال الدين في تقرير المسائل العلمية والعملية .

١/ بيان إهمالهم للمسائل العلمية وإفلاسهم فيها .

٢/ إخلالهم بالجوانب العملية، وتفشي الشرك والبدع فيهم .

المبحث الثالث :

موقف الإسماعيلية من القاعدة ، وفيه مدخل ومطلبان :

المدخل .

المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة :

الأصل الأول : إنكار وجود الله .

الأصل الثاني : الطعن في الأنبياء .

الأصل الثالث : اعتقادهم أن النصوص الشرعية لها ظاهر وباطن .

الأصل الرابع : تقديس الأئمة .

الأصل الخامس : إنكار المعاد .

الأصل السادس : الطعن في الشرع .

المطلب الثاني : موقفهم من المسائل العلمية والعملية .

المبحث الرابع :

المتأثرون بالمنهج الباطني في هذا العصر ،وفيه :

بيان الأصول التي خرموا بها القاعدة، وعلاقتها بأصول أسلافهم.

خاتمة .

المنهج المتبع في كتابة البحث :

١/ قمت بعزو الآيات القرآنية إلى مواضعها وذلك بذكر السورة، ورقم الآية .

٢/ خرجت الأحاديث من كتب السنة تخريجا مختصرا، فإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بتخريجه منهما، وإن لم يكن فيهما فإني أخرجه من الكتب التي وقفت على أنها أخرجته، وحرصت على ذكر الحكم عليه معتمدا على كلام علماء هذا الشأن إن وجدته .

٣/ حرصت على تخريج الآثار الواردة في الرسالة ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

٤/ عرفت بالأعلام الذين ورد ذكرهم في الرسالة، إلا بعض المشاهير منهم .

٥/ عرفت بالفرق والطوائف التي وردت في الرسالة .

٦/ عرفت المصطلحات الفلسفية، والكلامية، والألفاظ الغريبة التي رأيت أنها تحتاج إلى تعريف .

٧/ في تقرير أصول أهل البدع التي خرموا بها القاعدة فإني أنقل كلامهم من كتبهم إن تيسر لي ذلك، وإلا نقلت عنهم بواسطة، خاصة من كتب شيخ الإسلام، وتلميذه ابن القيم؛ نظرا لما عرف عنهما من أنهما ينقلان كلام الخصوم نقل الأمين العادل النزيه .

٨/ إذا نسبت إلى طائفة قولا فإني أعتمد على كلام أحد مشاهير علمائهم، ثم إذا وجدت غيره ممن قرره فإني أورد كلامه لتأكيد كلام الأول .

٩/ إذا نقلت كلام أحد فإني أجعله بين قوسين كبيرين، ثم أشير في الهامش إلى المصدر

١٠/ إذا قلت : قال شيخ الإسلام فمرادي به ابن تيمية رحمه الله .

١١/ ذيلت الرسالة بفهارس علمية، وهي كالآتي :

- فهرست الآيات القرآنية .
- فهرست الأحاديث النبوية .
- فهرست الأبيات الشعرية .
- فهرست الكلمات الغريبة والمصطلحات العلمية .
- ثبت المصادر والمراجع .
- فهرست الموضوعات .

شكر وتقدير :

وبعد :

فإن الله جل وعلا أنعم علي بنعم لا تعد ولا تحصى، ومن أعظمها أن هداني للإسلام والسنة، ويسر لي سلوك طريق العلم الشرعي، ووفقني لإكمال هذا البحث وسهل لي سبل ذلك، فالحمد الله على جلائل نعمه، وفواضل آلائه .

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى القائمين على هذه الجامعة المباركة، عمرها الله بالعلم النافع، وجعلها حصنا منيعا، وطودا شامخا، ومنبعا لا ينضب. كما أتقدم بالشكر إلى مشايخي الفضلاء الذين طالما أفدت من علمهم فجزاهم الله خيرا .

وإني لأزجي الشكر صادقا إلى فضيلة شيخي الدكتور عبد الله بن سليمان الغفيلي حفظه الله على قبوله الإشراف على هذه الرسالة، وصبره على قراءتها رغم أشغاله الكثيرة، كما أشكره على ما أسداه إلي من توجيهات سديدة وإرشادات قيمة أنارت لي الطريق، فلعله يرضى مني مقابل ذلك بعاجل الشكر، وأسأل الله ألا يحرمه المثوبة والأجر .

كما أشكر فضيلة شيخي الدكتور غالب بن علي العواجي ،وفضيلة الدكتور محمد بن عبد الوهاب العقيل على قبولهما قراءة الرسالة ومناقشتها .فجزاهما على ذلك أفضل الجزاء .

وأود أن أغتنم هذه الفرصة الكريمة لأن أشكر فضيلة شيخنا أ.د محمد بن خليفة التميمي الذي اقترح علي هذا الموضوع و لم يأل جهدا في التشجيع على تناوله بالدراسة .

كما أشكر كل أخ أفادني بفائدة، أو أسدى إلي نصيحة، أو أعارني كتابا، أو دلني على معلومة فجزى الله الجميع خيرا، وأجزل لهم المثوبة .

وختاما أقول : لقد قيل قديما إن الجالس يحسن السباحة، وما أهون الحرب على النظارة؛ لذا أود أن أنبه على أن هذا جهد المقل، وسلعة من كان في العلم مزجي البضاعة، فإذا كان السيف ينبو وهو حسام، والطّرف يكبو وهو جواد فما ظنك بمن حاله ما وصفت، وخبره ما ذكرت، فجزى الله خيرا كل من وجد خطأ فأصلحه، أو وقف على نقص فكمله .

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

شكر وتقدير :

وبعد :

فإن الله جل وعلا أنعم علي بنعم لا تعد ولا تحصى، ومن أعظمها أن هداني للإسلام والسنة، ويسر لي سلوك طريق العلم الشرعي، ووفقني لإكمال هذا البحث وسهل لي سبل ذلك، فالحمد الله على جلائل نعمه، وفواضل آلائه .

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى القائمين على هذه الجامعة المباركة، عمرها الله بالعلم النافع، وجعلها حصنا منيعا، وطودا شامخا، ومنبعا لا ينضب. كما أتقدم بالشكر إلى مشايخي الفضلاء الذين طالما أفدت من علمهم فجزاهم الله خيرا .

وإني لأزجي الشكر صادقا إلى فضيلة شيخي الدكتور عبد الله بن سليمان الغفيلي حفظه الله على قبوله الإشراف على هذه الرسالة، وصبره على قراءتها رغم أشغاله الكثيرة، كما أشكره على ما أسداه إلي من توجيهات سديدة وإرشادات قيمة أنارت لي الطريق، فلعله يرضى مني مقابل ذلك بعاجل الشكر، وأسأل الله ألا يحرمه المثوبة والأجر .

كما أشكر فضيلة شيخي الدكتور غالب بن علي العواجي ،وفضيلة الدكتور محمد بن عبد الوهاب العقيل على قبولهما قراءة الرسالة ومناقشتها ،فجزاهما على ذلك أفضل الجزاء .

وأود أن أغتنم هذه الفرصة الكريمة لأن أشكر فضيلة شيخنا أ.ذ محمد بن خليفة التميمي الذي اقترح علي هذا الموضوع و لم يأل جهدا في التشجيع على تناوله بالدراسة .

كما أشكر كل أخ أفادني بفائدة، أو أسدى إلي نصيحة، أو أعارني كتابا، أو دلني على معلومة فجزى الله الجميع خيرا، وأجزل لهم المثوبة .

وختاما أقول : لقد قيل قديما إن الجالس يحسن السباحة، وما أهون الحرب على النظارة؛ لذا أود أن أنبه على أن هذا جهد المقل، وسلعة من كان في العلم مزجي البضاعة، فإذا كان السيف ينبو وهو حسام، والطرف يكبو وهو جواد فما ظنك بمن حاله ما وصفت، وخبره ما ذكرت، فجزى الله خيرا كل من وجد خطأ فأصلحه، أو وقف على نقص فكمله .

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

المدخل : في بيان معنى قاعدة كمال الدين .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف القاعدة .

المطلب الثاني : تعريف الكمال .

المطلب الثالث : تعريف الدين .

المطلب الرابع : المراد بقاعدة كمال الدين .

المطلب الأول : تعريف القاعدة .

القاعدة في اللغة هي أصل الأس، وجمعها قواعد .

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي[1] :

(القواعد أساس البيت، الواحدة قاعد، وقياسه قاعدة بالهاء، وقعائد الرمل وقواعده ما ارتكن بعضه فوق بعض، وقواعد الهودج خشبات أربع معترضات في أسفله قد ركب الهودج فيهن)[2] .

وقال أبوعبيد[3] :

(قواعد السحاب هي أصولها المعترضة في آفاق السماء، وأحسبها مشبهة بقواعد البيت وهي حيطانه، والواحدة منها قاعدة) [4] .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾[5] .

---

(١) هو : الخليل بن أحمد، أبو عبد الرحمن، الأزدي، الفراهيدي، البصري، ويقال الباهلي، صاحب العربية، ومنشئ علم العروض. ولد سنة مائة، ومات سنة بضع وستين ومائة، وقيل غير ذلك. كان من أزهد الناس، قيل يحج سنة ويغزو سنة حتى مات، له المصنفات الباهرة منها : (كتاب العين) .

انظر : تهذيب الكمال (٣٢٦/٨) (تحقيق بشار عواد/الرسالة/ط٢/١٤١٣)، إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين لعبد الباقي اليماني ص :(١١٤) (تحقيق دياب/مركز الملك فيصل/ط١/١٤٠٦) .

(٢) كتاب العين (١٤٣/١) (تحقيق المخزومي والسمرائي/دار الشؤون الثقافية العامة/بغداد/١٩٨٦م) .

(٣) هو : القاسم بن سلام بن عبدالله، أبو عبيد، الهروي .ولد سنة سبع وخمسين ومائة، وتوفي بمكة سنة أربع وعشرين ومائتين. صنف التصانيف المنيفة التي سارت بها الركبان، منها : (غريب الحديث) (الطهور) وغيرهما .

انظر : السير (٤٩٠/١٠) (مؤسسة الرسالة/ط١/١٤٠١)، طبقات الحنابلة (٢٥٩/١) (دار المعرفة/بيروت) .

(٤) غريب الحديث (٥٠٠/٢) (تحقيق حسين شرف/المطابع الأميرية/القاهرة) .

(٥) سورة البقرة، الآية (١٢٧) .

وقال تعالى :

﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾[1].

وقال الشاعر :

أرسى قواعده وشيد فرعه فله إلى سبب السماء سبيل [2] .

وقال آخر :

إذا الأمور اعرورت الشدائدا أرسى البنا وأثبت القواعد [3] .

وتستعمل القاعدة في الأمور الحسية كما مر، وفي الأمور المعنوية، ومنه قولهم : (بنى أمره على قاعدة، وقاعدة أمرك واهية)[4] .

ومنه أيضا قواعد العلم .

---

(١) سورة النحل، الآية (٢٦) .

(٢) أورده في جمهرة اللغة (٢/٢٨٠) (دار المعارف العثمانية/الدكن/ط١/١٣٤٥) .

(٣) البيت لرؤبة بن العجاج من قصيدة يمدح بها خالد بن عبد الله القسري .انظر : ديوانه في كتاب مجموع أشعار العرب ص : (٤٦) (تحقيق وليم البروسي/مكتبة ابن قتيبة/الكويت) .

(٤) تاج العروس (٩/٦٠) (تحقيق عبد الستار فراج/إحياء التراث العربي/بيروت) .

المطلب الثاني : تعريف الكمال .

قال ابن فارس [1] :

(الكاف، والميم، واللام : أصل صحيح يدل على تمام الشيء) [2] .

يقال :كَمَل الشيء -بفتح الميم- يكمُل، كمالا .

ولغة أخرى :كمُل -بضم الميم- يكمُل، فهو كامل في اللغتين [3] .

وفيه لغة ثالثة : كمِل -بكسر الميم- وهي أردؤها، كما في الصحاح [4] .

فالكمال هو التمام الذي يجزأ منه أجزاؤه، تقول : لـــك نصفـــه، وبعضـــه، وكماله، وأكملت الشيء : أجملته، وأتممته .

وتقول : أعطيته المال كملا، هكذا يتكلم به في الواحد والجمع سواء، ليـــس بمصدر، ولا نعت، إنما هو كقولك : أعطيته كله [5] .

ويقال أيضا : كملت له عدد حقه تكميلا، وتكمِلة، فهو مُكمَّل، كما يقال : هذا المكمِّل عشرين، والمكمِّل مائة، والمكمِّل ألفا .

---

(١) هو : أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين، القزويني، المعروف بالرازي، الشافعي ثم المـــالكي .لـــه مصنفات منها : (كتاب المجمل)، و(معجم مقاييس اللغة)، توفي سنة خمس وتسعين وثلاث مئة .
انظر : ترتيب المدارك (٤/٦١٠-٦١١) (وزارة الأوقاف/المغرب)،إشارة التعيين ص : (٤٣) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٥/١٣٩) (تحقيق عبد السلام هارون/دار الجيل/بيروت/١٤٢٠) .

(٣) كتاب العين (٥/٣٧٨) .

(٤) الصحاح للجوهري (٥/١٨١٣) (تحقيق أحمد عطار/دار العلم للملايين/ط٢/١٣٩٩) .

(٥) كتاب العين (٥/٣٧٨) .

قال النابغة [1] :

فكملت مـــئة فيها حمامتُها وأسرعت حِسْـــبَةٌ في ذلك العدد [2] [3] .

ويجوز للشاعر أن يجعل الكامل كميلا [4].

قال ابن مرداس [5] :

على أنني بعد ما قد مضى ثلاثون للهجر حولا كميلا .

ويقال : رجل كامل، وقوم كمَلَة، مثل حافد، وحفَدة .

والتكميل، والإكمال : الإتمام، واستكمله : استتمه [6] .

والمِكْمَل : الرجل الكامل للخير أو الشر [7] .

---

(١) هو : زياد بن معاوية بن ضِبَاب، أبو أمامة، المعروف بالنابغة الذبياني . قيل عنه : كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتا، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف .
انظر : طبقات فحول الشعراء (١/٥١، ٥٦) (تحقيق محمود شاكر/دار المدني/جدة)، الشعر والشـــعراء لابن قتيبة ص (٨٣) (تحقيق محمود شاكر/دار التراث العربي/ط٢/ ١٩٧٧م) .

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص (٢٥) (تحقيق أبي الفضل إبراهيم/دار المعارف، القاهرة/ط٣) .

(٣) تـــهذيب اللغة (١٠/٢٦٥ –٢٦٦) (تحقيق علي حسن هلالي والنجار/الدار المصرية) .

(٤) كتاب العين (٥/٣٧٩)، المحكم والمحيط الأعظم لابـــن ســـيده (٧/٤٣) (تحقيـــق النجـــار/المكتبـــة التجارية/ط١/١٣٩٣) .

(٥) هو : عباس بن مرداس ابن أبي عامر، أبو الهيثم، السلمي. قيل إن الخنساء الشاعرة أمه .له صحبة، أسلم قبل الفتح بيسير، من المؤلفة قلوبهم، وممن حرم الخمر في الجاهلية. كان ينـــزل البادية بناحية البصرة.
انظر : الشعر والشعراء ص (١٨٤، ٥٠١)، الإصابة (٣/٥١٢) (دار الكتب العلمية/ط١/١٤١٥).

(٦) الصحاح (٥/١٨١٣) .

(٧) تـــهذيب اللغة (١٠/٢٦٦) .

المطلب الثاني : تعريف الدين .

– في اللغة :

قال ابن فارس :

(الدال، والياء، والنون : أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها،وهو جنس من الانقياد، والذل)[1] .

وله معان عدة، منها :

– **الملة**، فدين الله : ملة الله التي اختصها وهي الإسلام [2]، والجمع : الأديان، يقال : دان بكذا، ديانة، وتدين به، فهو دين، ومتدين، ودينت الرجل تديينا إذا وكلته إلى دينه [3] .

– **والدين أيضا الجزاء، والمكافأة .**

يقال : دانه، دينا أي جازاه[4] ، ولا يجمع لأنه مصدر، كقولك : دان الله العباد، يدينهم يوم القيامة أي يجزيهم، وهو ديان العباد [5] .

ومنه قولهم : (كما تدين تدان) أي كما تجازي تجازى، وكما تعمل تعطى، قال الشاعر :

واعلم يقينا أن ملكك زائل واعلم بأن كما تدين تدان[6] .

وقال النابغة :

بهن أدين من يأتي أذاتي مداينة المداين فليدني[7] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣١٩/٢) .

(٢) انظر : جمهرة اللغة (٣٠٥/٢) .

(٣) الصحاح (٢١١٩/٥) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) كتاب العين (٧٣/٨) .

(٦) البيت ليزيد بن الصعق كما في جمهرة الأمثال للعسكري (١٦٨/٢) (تحقيق محمد أبي الفضل وقطاميش/المؤسسة العربية الحديثة/ط١/١٣٨٤)، وانظر : تهذيب اللغة (١٨١/١٤) .

(٧) ديوان النابغة ص (١٢٦) .

- والدين أيضا : الحساب .

قال الله تبارك وتعالى في الشهور : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (١)، أي ذلك الحساب الصحيح، والعدد المستوي، ولهذا قيل ليوم القيامة : (يوم الدين) إنما هو يوم الحساب (٢) .

- ودانه دينا أي أذله، واستعبده .

يقال : دنته فدان، دنت القوم، أدينهم إذا فعلت ذلك بهم، وفي الحديث : (الكيس من دان نفسه)(٣) أي أذلها واستعبدها .

وقال الأعشى(٤) :

هو دان الرِّبابَ إذ كرهوا الديـ ـن دِراكاً بغزوةٍ وصِيَالِ

ثم دانت بعد الرِّبابُ وكانت كعذاب عقوبةُ الأقوالِ (٥)

فقال : هو دان الرباب يعني أذلها، ثم قال : دانت بعد الرباب أي ذلت له، وأطاعت(٦) .

---

(١) سورة التوبة، الآية (٣٦) .

(٢) غريب الحديث لأبي عبيد (٢/٥٧٧-٥٧٨)، تهذيب اللغة (١٤/١٨١) .

(٣) هو جزء من حديث أخرجه ابن المبارك في الزهد رقم (١٥٩) (١/٢١٥)، وأخرجه من طريقه أحمد في المسند رقم (١٧١٢٣) (٢٨/٣٥٠)، والترمذي و حسنه رقم (٢٤٥٩) (٤/٥٥٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٧) وقال صحيح على شرط البخاري، لكن تعقبه الذهبي بقوله : (لا والله أبو بكر واه)
وأخرجه أيضا الطبراني في الكبير رقم : (٧١٤٣) (٧/٢٨٤) .
وأخرجه أيضا ابن ماجه رقم (٤٢٦٠) (٤/٤٩٦) .
ومدار الحديث على أبي بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف .
وأخرجه من طريق آخر الطبراني في الكبير رقم (٧١٤١) (٧/٢٨١) وفيه عمرو بن بكر السكسكي، وهو متروك، فالحديث ضعيف، انظر ضعيف ابن ماجه للألباني -رحمه الله- ص : (٣٤٩) .

(٤) هو : ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف، ويكنى أبا بصير . وكان أعمى .
انظر : طبقات فحول الشعراء (١ / ٥٢ و ٦٥)، الشعر والشعراء ص (١٥٤ وما بعدها) .

(٥) ديوان الأعشى الكبير ص : (١١- ١٣) (دار الكتب العلمية/بيروت/ط٢/١٤١٣) .

(٦) انظر : غريب الحديث (٢/٥٧٦)، تهذيب اللغة (١٤/١٨١)، الصحاح (٥/٢١١٨) .

وقال القُطَامِيّ [1] :

رَمَتِ المَقَاتِلَ مِنْ فُؤَادِكَ بَعْدَما كانت نَوَارُ تَدِينُك الأَدْيانا .

فهو من الإذلال أيضا [2] .

- والدين أيضا : الطاعة .

يقال : دانوا لفلان أطاعوه[3]، ومنه قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾[4] ، أي في طاعته .

قال الشاعر:

لئن حللت بجو في بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فدك [5] .

أي في طاعة عمرو .

وقال عمرو بن كلثوم [6] :

وأيام لنا ولهم طِوَالٍ عصينا المَلْكَ فيها أن ندينا [7] .

---

(١) هو : عمير بن شييم بن عمرو أحد بني بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تَغْلِب، أبو سعيد التغلبي والقطامي لقبه. كان شاعرا فحلا، رقيق الحواشي، حلو الشعر، حسن التشبب .
انظر : طبقات فحول الشعراء (٢/٥٣٤)، الشعر والشعراء ص : (٤٨٣) .

(٢) انظر : شرح غريب الحديث (٢/٥٧٨) .

(٣) انظر : كتاب العين (٨/٧٣)، جمهرة اللغة (٢/٣٠٦)، الصحاح (٥/٢١١٩) .

(٤) سورة يوسف، الآية (٧٦) .

(٥) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص : (١٣٧) (تحقيق حنا الحتي/دار الكتاب العربي) .

(٦) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير،أبو عباد، التغلبي، جاهلي قديم، أحد أصحاب المعلقات السبع الطوال . كان أعز الناس، وأكثر العرب ترفعا، ساد قومه وهو في الخامسة عشرة من سنه .
انظر : طبقات فحول الشعراء (١ / ١٥١)، الشعر والشعراء ص : (١٣٧) .

(٧) هذا البيت من معلقته المشهورة، انظر : شرح المعلقات السبع الطوال للزوزني ص : (١٩٠) (تحقيق الطباع/دار الأرقم بيروت /ط٢/١٩٦٧)، إلا أن الشطر الأول ورد فيه هكذا : وأيام لنا غر طوال .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [1] :

(الدين مصدر،والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول، يقال : دان فلان فلانا إذا عبده وأطاعه، كما يقال : دانه إذا أذله، فالعبد يدين الله أي يعبده ويطيعه .

فإذا أضيف الدين إلى العبد فلأنه العبد المطيع، وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع كما قال تعالى :

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾[2])[3].

- **والدين أيضا : الدأب، والعادة، والشأن** [4].

تقول العرب : ما زال ذلك ديني، وديدني، أي عادتي، وقال الشاعر :

كدِينك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل[5] .

وقال آخر يذكر ناقته :

تقول إذا دَرَأْتُ لها وَضِيني أهذا ديـــنه أبدا وديني[6] .

قال الخليل بن أحمد :

(ولم أسمع منه فعلا إلا في بيت واحد قال:

---

(١) هو : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، أبو العباس، الحراني ثم الدمشقي، المشهور بابن تيمية .ولـــد سنة إحدى وستين وستمائة بحران، وتوفي محبوسا بقلعة دمشق سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. فضائلـــه كثيرة، وتواليفه عديدة، منها (الصارم المسلول على شاتم الرسول) و (درء تعارض العقـــل والنقـــل) وغيرهما .

انظر:ذيل طبقات الحنابلة (٣٧٨/٦)، المقصد الأرشد (١٣٢/١) (تحقيق العثيمين/الرشد/ط١/١٤١٠).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٩٣) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٥٨/١٥) (جمع ابن قاسم النجدي/مجمع الملك فهد لطباعة المصحف/١٤١٦).

(٤) انظر : كتاب العين (٧٣/٨)، جمهرة اللغة (٣٠٥/٢)، الصحاح (٢١١٨/٥) .

(٥) البيت لامرئ القيس في معلقته، انظر : ديوانه ص (٩) (ضبطه الشاذلي/دار الكتب العلمية) .

(٦) البيت للمثقب العبدي القيسي من شعراء الجاهلية، وهو في ديوانه ص : (١٣٦) (شرح حسن حمد/ دار صادر/١٩٩٦م) .

والوضين بطان عريض منسوج من سيور أو شعر، أو لا يكون إلا من جلد ويجعل حزام للرحل، انظر القاموس المحيط (١٦٢٦/٢) (دار إحياء التراث العربي/ط١/١٤١٧) .

يادين قلبك من سلمى وقد دينا.

أي قد عود قلبك، فمن كسر (القلب) فعلى الإضافة، ومن رفع فعلى الفعل، أي عود قلبك ياهذا، ودين قلبك)[1] .

وقال ابن فارس :

(أما قولهم : إن العادة يقال لها دين، فإن كان صحيحا، فـــلأن النفـــس إذا اعتادت شيئا مرت معه وانقادت له)[2] .

(١) كتاب العين (٧٣/٨) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣١٩/٢) .

- تعريف الدين في الاصطلاح :

تنوعت عبارات العلماء في تعريف الدين من حيث الاصطلاح، إلا أنها تدور حول معاني متقاربة، وفيما يلي ذكر لبعضها :

١/ عرفه القرطبي[١] رحمه الله بقوله :

(الدين عبارة عن الشرائع التي شرع وفتح لنا)[٢] .

٢ / عرفه شيخ الإسلام ابن تيمية بعدة تعاريف منها :

- (هو إقامة حق العبودية، وهو فعل ما عليك وما أمرت به)[٣] .

- (اتباع ما أوحي إلى النبي ﷺ هو الدين، وهو: طاعته وعبادته علما وعملا، بالباطن والظاهر)[٤] .

- (الدين نوعان : أمور خبرية اعتقادية، وأمور طلبية عملية)[٥] .

٣/ عرفه ابن القيم[٦] رحمه الله بقوله :

(دين الله هو : شرعه المتضمن لأمره ونهيه ومحابه)[٧] .

---

(١) هو : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الأنصاري القرطبي، له مؤلفات كثيرة منها : (الجامع لأحكام القرآن) و (التذكرة بأمور الآخرة) . توفي في شوال سنة إحدى وسبعين وستمائة .
انظر : الديباج المذهب (٢/٣٠٨) (تحقيق أبي النور/دار التراث)، شذرات الذهب (٥/٣٣٥) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/٦٤) .

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٣٣٣)، وانظر المصدر نفسه (١٠/٥٠٣) .

(٤) مجموع الفتاوى (١١/٣١٣)، وانظر المصدر نفسه (١٥/٢٩١) .

(٥) مجموع الفتاوى (١١/٣٣٥) .

(٦) هو : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، أبو عبد الله، الزرعي ثم الدمشقي، الحنبلي، المشهور بابن قيم الجوزية، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة، وتوفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة .له من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير، منها (زاد المعاد في هدي خير العباد) و (مفتاح دار السعادة) وغيرهما .
انظر : المعجم المختص بالمحدثين للذهبي ص : (٢٦٩) (تحقيق الحبلة/مكتبة الصديق/ط١/١٤٠٨)، ذيل طبقات الحنابلة (٤/٤٤٧) .

(٧) اجتماع الجيوش الإسلامية ص : (٣٥) (تحقيق المعتق/مكتبة الرشد/ط٢/١٤١٥) .

٤/ عرفه ابن عاشور[١] بتعاريف عدة منها :

- (الدين ما كلف[٢] الله به الأمة من مجموع العقائد، والأعمال، والشـــرائع، والنظم)[٣] .

- (الدين حقيقته في الأصل : الجزاء، ثم صار حقيقة عرفية يطلق على مجموع عقائد وأعمال يلقنها رسول من عند الله ويعد العاملين بها بالنعيم، والمعرضين عنـــها بالعقاب.

ثم أطلق على ما يشبه ذلك مما يضعه بعض زعماء الناس من تلقاء عقله فتلتزمه طائفة من الناس .

وسمي الدين دينا لأنه يترقب منه متبعه الجزاء عاجلا أو آجلا)[٤].

- (الدين الصحيح هو : وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمـــود إلى الخير باطنا وظاهرا)[٥] .

---

(١) هو : محمد الطاهر بن عاشور، التونسي، شيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، ولد سنة (١٢٩٦ هـــ) وتوفي سنة (١٣٩٣ هـــ)، له مؤلفات منها : (مقاصد الشريعة الإسلامية) و (تفسير التحرير والتنوير) وغيرهما .

انظر : الأعلام (٦ / ١٧٤) (دار العلم للملايين، بيروت/ط١٣/١٩٩٨م) .

(٢) نبه شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذا تلميذه ابن القيم رحمهما الله على أنه لم يرد في الكتاب والسنة –بعد التتبع– تسمية أوامر الله جل وعلا وشرائعه تكليفا، بل سماها، روحا، ونورا، وحياة ونحو ذلك، وإنمـــا جاء ذلك في جانب النفي كما في قوله تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾ وأما إطلاقـــه في الإثبات فلا يعرف إلا عند كثير من المتكلمة والمتفقهة .

انظر : مجموع الفتاوى (١/٢٥)، إغاثة اللهفان (١/٣٢) .

(٣) تفسير التحرير والتنوير (٦/١٠٣) (الدار التونسية، تونس /١٩٨٤م) .

(٤) المصدر السابق (٣/١٨٨) .

(٥) المصدر السابق .

فبناء على ما تقدم ذكره من أقوال العلماء يمكن تقسيم الدين إلى قسمين :

الأول : الدين الصحيح وهذا يعرف باعتبارين :

- باعتبار إضافته إلى الله فيعرف بأنه :

ما أخبر الله به من الأمور العلمية الاعتقادية، وما شرعه من الأمور العملية الطلبية .

- باعتبار إضافته إلى العبد فيعرف بأنه :

إقامة حق العبودية لله جل وعلا بتصديق أخباره، والإذعان لأوامره، واجتناب نواهيه .

الثاني : الدين الباطل [1] :

وهو : ما يضعه بعض الناس من تلقاء عقله، أو يزعم كذبا أنه من عند الله فتلتزمه طائفة من الناس .

---

(١) الصحيح من أقوال أهل العلم أن الدين الباطل يسمى دينا بدليل قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ [آل عمران، الآية ٨٥]، وقوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ [الكافرون، الآية ٦] .

المطلب الرابع : المراد بقاعدة كمال الدين .

يراد بهذه القاعدة إجمالا أن الدين الذي أنزله الله جل وعلا على نبيه محمد ﷺ دين كامل وتام؛ إذ إن فيه البيان الشافي لكل ما يحتاجه الناس مما تسعد به نفوسهم .

فهو كامل في باب العقائد والأحكام، وفي باب الآداب والمعاملات، وفي الدلالة على مصالح الدنيا والآخرة، وكل ما تتوقف عليه سعادتهم العاجلة والآجلة، فلا يحتاج المسلمون معه إلى مصدر آخر للهداية غيره .

وسيأتي إن شاء الله تعالى فيما يلي تفصيل هذا الذي أجملته هنا.

الباب الأول :

تقرير السلف لقاعدة كمال الدين

وفيه تمهيد، وثلاثة فصول .

التمهيد : وفيه مطلبان .

المطلب الأول : في تعريف السلف .

المطلب الثاني : في حكم الانتساب إلى السلف .

المطلب الأول : في تعريف السلف .

(أ) لغة :

سلف يسلف، كطلب يطلب، سلفا، وسلوفا، أي مضى وتقدم .

قال ابن فارس :

(السين، واللام، والفاء، أصل يدل على تقدم وسبق)[1] .

فالسالف : المتقدم، والسلف، والسليف، والسلفة، الجماعة المتقدمون [2] .

والقوم إذا أرادوا أن ينفروا، فمن تقدم من نفيرهم فسبق فهو سلف لهم .

قال الشاعر :

نحن منعنا منبت النصي بسلف أرعن عنبري[3] .

ويقال أيضا لمن تقدم في السير سلف، قال الشاعر :

لو عرجوا ساعة نسائلهم ريث يضحي جماله السلف[4] .

والأمم السالفة، الماضية، أمام الغابرة، وتجمع على سوالف .

قال الشاعر :

ولاقت مناياها القرون السوالف كذلك تلقاها القرون الخوالف[5] .

أي : يموت من بقي كما مات من مضى[6] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/٩٥) .

(٢) انظر : لسان العرب لابن منظور (٦/٣٣٢) (دار صادر، بيروت/ط١/١٣٧٤) .

(٣) ذكره الفراهيدي في كتاب العين (٧/٢٥٨) دون أن ينسبه .

(٤) البيت نسبه في اللسان (٦/٣٣٣) لقيس بن الخطيم .

(٥) انظر : تهذيب اللغة (١٢/٤٣٢)، لسان العرب (٦/٣٣٢) .

(٦) قاله في كتاب العين (٧/٢٥٨) .

وكل شيء قدمه العبد من عمل صالح، أو ولد فرط تقدمه، فهو سلف، وقد سلف له عمل صالح .

والسلف أيضا : من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك، الذين هم فوقك في السن والفضل، واحدهم سالف، ومنه قول الشاعر :

مضوا سلفا قصدُ السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلب[1] .

(أراد أنهم تقدمونا، وقصد سبيلنا عليهم أن نموت كما ماتوا فنكون سلفا لمن بعدنا كما كانوا سلفا لنا) [2] .

قال في الصحاح :

(سلف الرجل : آباؤه المتقدمون، والجمع أسلاف، وسلاف) [3]

وتُعقب بأن (سلاف) ليس جمع سلف، وإنما هو جمع سالف للمتقدم، وجمع سالف أيضا سلف، ومثله : خالف وخلف[4] .

ويجيء السلف على معان أخرى، تركت إيرادها اختصارا .

---

(١) البيت لطفيل الغنوي، وهو في ديوانه ص : (١٩) .

(٢) قاله في تهذيب اللغة (٤٣١/١٢) .

(٣) الصحاح (١٣٧٦/٤) .

(٤) الذي تعقبه هو ابن بري كما في تاج العروس (٤٥٥/٢٣)، ولسان العرب (٣٣٣/٦) .

(ب) تعريف السلف اصطلاحا :

تعددت أقوال العلماء، وتباينت في تحديد المراد بالسلف في الاصطلاح، وكذا في تحديد زمنهم، وفيما يلي ذكر ما وقفت عليه منها :

١ ـ قيل : السلف وصف يختص عند الإطلاق بالصحابة ولا يشاركهم غيرهم فيه .

وبهذا قال عدد من شراح رسالة القيرواني[١] .

٢ ـ قيل : السلف هم الصحابة والتابعون .

قال الغزالي [٢] :

(اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف : أعني مذهب الصحابة والتابعين) [٣] .

٣ ـ قيل السلف هم القرون الثلاثة المفضلة أعني الصحابة والتابعين وأتباعهم وهو قول المحققين من أهل العلم [٤] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

---

(١) انظر مثلا : تحرير المقالة من شرح الرسالة ص (٣٢) (مخطوط) بواسطة : (المفسرون بين التأويل والإثبات) لشيخنا المغراوي (١/١٨) (مؤسسة طيبة /الرياض /ط١)، (شرح الرسالة) للتوخي (١/٧٠ مع شرح زروق)، (تنوير المقالة) للنتائي (١/٣٦٢)، (الفواكه الدواني) للنفراوي (١/١٠٣) .

(٢) هو : محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، أبو حامد، الغزالي، الطوسي الشافعي، مولده سنة خمسين وأربعمائة، وتوفي سنة خمس وخمسمائة . له مؤلفات عدة، لكن في غضونها أشياء كثيرة لا ترتضى، منها (المستصفى من علم الأصول)، (تهافت الفلاسفة) وغيرهما .

انظر : السير (١٩/٣٢٢)، طبقات الشافعية الكبرى (٦/١٩١) .

(٣) إلجام العوام عن علم الكلام ص (٥٣) (تحقيق البغدادي/دار الكتاب العربي/ط١/١٤٠٦) .

(٤) انظر مثلا : التحف في مذاهب السلف للشوكاني ص : (١٦،١٧) (تحقيق سيد عاصم/دار الصحابة للتراث، مصر/ط١/١٤٠٩) .

(مـــذهب أهـــل الحديث : وهم السلف من القرون الثلاثة، ومـــن ســـلك سبيلهم من الخلف) [1] .

ففرق بين السلف الذين هم -عنده- القرون الثلاثة، وبين من سلك ســبيلهم من الخلف .

وليس مرادهم بالتابعين وأتباعهم كل من عاش في عصرهم، بل مرادهم مـــن تبع الصحابة منهم بإحسان دون من تأثر بشيء من الأهواء فخرج عن جماعتهم باسم، أو رسم، أو لقب غير مرضي، فهو لا يعد منهم وإن عاش بينهم، وعاصرهم، بل هـــم براء منه، وهو بريء منهم .

٤ ـ قيل : السلف كل من يقتدى به إلى زمـــن الشـــافعي [2] وأحمـــد [3] وأقرانـــهما .

قال ابن رجب الحنبلي [4] :

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/٣٥٥) .

(٢) هو : محمد بن إدريس بن العباس، أبو عبد الله، الشافعي القرشي المطلبي، ولد سنة خمسين ومائة، وتوفي سنة أربع ومائتين، صنفت في مناقبه تواليف كثيرة .
انظر : آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم، والسير (١٠/٥)، وطبقات الشافعية الكبرى (١/٣٤٣) .

(٣) هو : الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الذهلي، الشيباني، المروزي ثم البغدادي، ولد ســـنة أربع وستين ومائة، وتوفي سنة إحدى وأربعين ومائتين، فضائله رحمه الله كثيرة، ومناقبه جمة، لو لم يكن له إلا وقوفه يوم المحنة لكفاه، فقد كان يومها وحده أمة، فقمع الله به البدعة وأظهر به السنة .
انظر : تـــهذيب الكمال (١/٤٣٧)، السير (١١/١٧٧) .

(٤) هو : عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، أبو الفرج البغدادي ثم الدمشقي، الحنبلي .ولد سنة ست وثلاثين وسبعمائة، وتوفي سنة خمس وتسعين وسبعمائة .له مؤلفات كثيرة منها : (شرح الترمذي) و (الذيـــل على طبقات الحنابلة لأبي يعلى) وغيرهما .
انظر : شذرات الذهب (٦/٣٣٩) (دار الآفاق الجديدة/بيروت)، السحب الوابلة (٢/٤٧٤) (تحقيـــق بكر أبو زيد والعثيمين/الرسالة/ط١/١٤١٦).

(وفي زماننا يتعين كتابة كلام السلف المقتدى بـــهم إلى زمن الشافعي وأحمد وإسحاق[1] وأبي عبيد)[2] .

٥ ــ قيل السلف هم من كانوا قبل الخمسمائة .

قال الباجوري [3] :

(هم من كانوا قبل الخمسمائة) [4] .

٦ ــ قيل : كل من يقلد مذهبه في الدين ويتبع أثره [5] .

٧ ــ قيل : هم الصحابة وكل من يقتدى به وهو على منهجهم ومقتف أثرهم وسالك سبيلهم حتى ولوكان في عصرنا هذا .

قال السفاريني [6] :

---

(١) هو : إسحاق بن إبراهيم بن مخلد، أبو يعقوب الحنظلي، ابن راهويه، أحد الأئمة الأعلام، وسيد الحفاظ مولده سنة إحدى وستين ومائة، ومات سنة ثمان وثلاثين ومائتين .
انظر : طبقات الحنابلة (١/١٠٩) ، السير (١١/٣٥٨) .

(٢) فضل علم السلف ص : (٤٤)، (تحقيق القاضي/دار الحديث/١٩٨٩م)، وانظر ص : (٤٢) منه .

(٣) هو : إبراهيم بن محمد بن أحمد، الشافعي، الباجوري، نسبة إلى باجور من قرى المنوفية بمصر .ولد سنة (١١٩٨ هـــ)، وتوفي بالقاهرة سنة (١٢٧٧ هـــ) وقيل غير ذلك .تقلد مشيخة الأزهر إلى أن توفي، له مؤلفات منها : (تحفة المريد على جوهرة التوحيد) و(التحفة الخيرية) في الفرائض وغيرهما .
انظر : الأعلام للزركلي (١/٧١) .

(٤) شرح الباجوري على الجوهرة (ص ٨٢) (دار الكتب العلمية/ط١/١٤٠٣)، وقارن بكتاب (المفسرون بين التأويل والإثبات) (١/١٩) .

(٥) انظر :كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (٤/١٥) (تحقيق البديع/مكتبة النهضة المصرية/١٣٨٢) .

(٦) هو : محمد بن أحمد بن سالم، أبو العون، شمس الدين، السفاريني، النابلسي، الحنبلي .ولد سنة أربـــع عشرة ومائة وألف، وتوفي في نابلس سنة ثمان وثمانين ومائة وألف .كان غرة عصره، وشامة مصـــره، ناصرا للسنة قامعا للبدعة، له مؤلفات عدة منها : (لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شـــرح الدرة المضية) و (كشف اللثام في شرح عمدة الأحكام) وغيرهما .
انظر : النعت الأكمل للغزي ص (٣٠١) (تحقيق مطيع وأياظة/دار الفكر)، السحب الوابلة (٢/٨٣٩).

(هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وسائر أصحاب النبي المختار ﷺ، والذين اتبعوهم بإحسان وأئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم وتقدمهم والاقتداء بهم واتباعهم والسير بسيرهم، والنهج على منوالهم ...) [1] .

والذي ظهر لي رجحانه من هذه الأقوال هو أنه لابد من التفريق بين السلف ومذهب السلف .

فالسلف إذا أطلق انصرف إلى القرون الثلاثة التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية في قوله ﷺ : (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) [2] .

فهم جميع الصحابة، ومن كان على سبيلهم ونهجهم من التابعين وأتباعهم دون من خرج عنهم بلقب غير مرضي .

وأما مذهب السلف فهو :

ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ وكل سالك في الاقتداء بهم حتى ولو كان في عصرنا هذا .

قال السفاريني :

(المراد بمذهب السلف : ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة، وعرف عظم

---

(١) لوائح الأنوار (١/١٢٠) (تحقيق البصيري/مكتبة الرشد/ط١/١٤١٥)،و (حكم الانتماء) للشيخ بكر أبو زيد ص : (٤٦-٤٧) (دار ابن الجوزي/ط٢/١٤١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، (٢/٢٥١)، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم (٤/١٩٦٣) رقم (٢٥٣٣) .

شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفا عن سلف دون من رمي ببدعة، أو شـــهر بلقب غير مرضي)[1] .

وعليه فمذهب السلف ليس كما زعم بعضهم بأنه مرحلة زمنية ولت وأدبرت ليس إلا .

(١) لوامع الأنوار (١/٢٠) (المكتب الإسلامي/ط٣/١٤١١) .

المطلب الثاني : حكم الانتساب إلى السلف .

لقد بعث الله نبيه محمدا ﷺ على فترة من الرسل فألفى الناس قد مقتهم الله عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، إذ إن الله جل وعلا بعثه والناس يعيشون في جاهلية جهلاء، وفي ضلالات عمياء، يأكل القوي منهم الضعيف، لا يعرفون الحق فينتصرون له، بل انتصارهم للقرابة والجماعة والقبيلة، شعارهم في ذلك : (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) [1]، ودثارهم : (ومن لا يظلم الناس يظلم). فوجدهم عزين، مفرقين، ومشتتين، فهداهم الله به، وجمع به شملهم، ووحد به كلمتهم، فصاروا أمة واحدة، ألفت رابطة الدين بين قلوبهم، ووحدت آصرة العقيدة كلمتهم، وأصبحوا خلانا بعد ما كانوا أعداء، لذا امتن الله تعالى عليهم فقال :

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[2] .

---

(١) ثبت عن النبي ﷺ أنه قال هذه الكلمة : أخرجها البخاري في صحيحه : كتاب المظالم والغصب، باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما (١٩٠/٢) رقم (٢٤٤٢، ٢٤٤٣)، لكن قصد بها معنى شريفا، يعارض تماما قصد أهل الجاهلية ؛ إذ لما قيل له : يا رسول الله، هذا ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما ؟ قال : تأخذ فوق يديه) أي تمنعه من الظلم، وتكفه عنه بالفعل إن لم يكف بالقول .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١٨/٥) (دار الريان/ط٢/١٤٠٩) :

(ذكر المفضل الضبي في كتابه الفاخر أن أول من قال : انصر أخاك ظالما أو مظلوما جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، وأراد بذلك ظاهره وهو ما اعتادوه من حمية الجاهلية، لا على ما فسره النبي ﷺ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

إذا أنا لم أنصر أخي وهو ظالم على القوم لم أنصر أخي حين يظلم) اهـ .

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٠٣) .

وقال تعالى :

﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[1].

وكان النبي ﷺ لكل نعرة وعصبية بالمرصاد، يجتثها من أصولها، ويقلعها من جذورها، فما لحق بالرفيق الأعلى حتى ترك المسلمين جماعة واحدة، على قلب رجل واحد، إخوة في الدين، يؤمون وجهة واحدة .

قال البغدادي[2] :

(كان المسلمون عند وفاة رسول الله ﷺ على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه غير من أظهر وفاقا وأضمر نفاقا)[3].

كانوا لا يعرفون باسم إلا باسم الإسلام، وليس لهم شيء يتعصبون له إلا الحق، إمامهم وقدوتهم رسول الله ﷺ، وحجتهم كتاب الله، فعاشوا تحت ظل هذه الوحدة في عزة وتمكين، وعلو كلمة الدين، لكن لم يلبثوا على ذلك إلا برهة من الزمان يسيرة حتى دب إليهم داء الأمم السالفة، حيث بدأ فيهم الاختلاف والتفرق ؛ إذ تظاهر بالإسلام قوم أكل الحقد قلوبهم، وأعياهم محاربة هذا الدين علنا، فلوقفوا أنفسهم للكيد له ولأهله بزرع الفتن والقلاقل والإحن، والتشكيك في العقائد والأحكام، والتلبيس على الآنام، فظهرت بوادر الفرقة في الأمة، وبدأ الخروج عن الجماعة، وبرزت الأسماء والألقاب المحدثة .

---

(١) سورة الأنفال، لآية (٦٣) .

(٢) هو : عبد القاهر بن طاهر بن محمد، أبو منصور، البغدادي، الشافعي .توفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة، كان ماهرا في علوم كثيرة، ذا مال وثروة أنفقه كله على أهل العلم، له مؤلفات كثيرة، منها : (الفرق بين الفرق) و (الرد على المعتزلة) وغيرهما .

انظر : السير (١٧/٥٧٢)، البداية والنهاية (١٢/٦١) (دار أبي حيان/القاهرة/ط١/١٤١٦) .

(٣) الفرق بين الفرق ص : (١٩) (دار المعرفة/بيروت/ط٢/١٤١٧) .

وأما أهل السنة والجماعة فلم يكن لهم اسم ولا لقب خرجوا به عن جماعة المسلمين بحيث يوالون ويعادون عليه، كما هو الشأن عند أهل البدع والضلال ؛ولهذا لما جاء رجل إلى إمام دار الهجرة مالك بن أنس فقال :يا أبا عبد الله ! أسألك عن مسألة أجعلك حجة فيما بيني وبين الله عز وجل!!

قال مالك : ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، سل .

قال : مَن أهل السنة ؟

قال : أهل السنة الذين ليس لهم لقب يعرفون به، لا جهمي، ولا قدري، ولا رافضي)[1] .

ولعل مراد الإمام مالك رحمه الله بقوله (ليس لهم لقب يعرفون به) أي ليس لأهل الحق لقب محدث، واسم غير مرضي، خرجوا به عن جماعة المسلمين، يوالون ويعادون عليه كالأسماء التي مثل بها، وإلا فالسائل ذكر له اسم أهل السنة .

لكن لما رام كثير من أهل البدع والضلال نشر بدعهم، وترويج أفكارهم، انتسبوا كذبا وزورا إلى السنة، مبالغة في التلبيس على العوام، والتغرير بالجهال .

(ولئن خطب خاطب من أهل البدع، فإنما هو بسيف الإسلام، وبلسان الشريعة، وبجاه السنة، وبإظهار متابعة ما جاء به الرسول ﷺ)[2] ، فالأشعرية[3] مثلا إنما نفقت عند الناس بانتسابهم إلى السنة[4]، حتى قال قائلهم :

---

(١) الانتقاء لابن عبد البر ص : (٧٢) (تحقيق أبي غدة/دار البشائر/بيروت/ط١/١٤١٧) .

(٢) قاله الذهبي في السير (١١/٨٢) .

(٣) سيأتي التعريف بها في الباب الثاني من هذا البحث .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى (٤/١٧) ففيه : كان الشيخ أبو إسحاق يقول : (إنما نفقت الأشعرية عند الناس بانتسابهم إلى الحنابلة) .

(أهل السنة إذا حضروا كان أبو الحسن الأشعري[1] فيهم مقدم القافلة)[2].

قلت : هذا شأن أهل السنة الأشعرية، أما أهل السنة المحضة إذا حضروا كان محمد ﷺ فيهم مقدم القافلة، بل قائدها ورائدها .

فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح[3].

فأضحى من واجب النصيحة تميز أهل الحق بألقاب شريفة، ليحيا من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة . فظهر اسم (أهل السنة والجماعة) وفي المقابل (أهل البدعة والفرقة)، و (أهل الحديث) وفي المقابل (أهل الرأي)، و(السلف) وفي المقابل (الخلف)، ... وغيرها .

(ولم يحصل تمام البروز والظهور لهذه الألقاب الشريفة لجماعة المسلمين إلا حين دبت في المسلمين الفرقة، وتعددت على جنبتي الصراط الفرق، وتكاثرت الأهواء، وخلفت الخلوف فبرزت هذه الألقاب الشريفة للتميز عن معالم الفرق الضالة، وهي مع ذلك ألقاب لاتختص برسم يخالف الكتاب والسنة، زيادة أو نقصا، وإنما يمثلون في الحقيقة والحال الامتداد الطبعي لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﷺ في الشكل والمضمون، والمادة والصورة)[4] .

---

(١) هو : علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم، أبو الحسن، الأشعري البصري .ولد سنة ستين ومائتين، وتوفي سنة ثلاثين وثلاثمائة .كان له ذكاء مفرط، وتبحر في العلم، وله مصنفات عدة منها : (رسالة إلى أهل الثغر)، (مقالات الإسلاميين) وغيرهما .
انظر : تاريخ بغداد (٣٤٦/١١)، السير (٨٥/١٥)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣٣٧/١) .

(٢) قاله ابن السبكي في كتابه طبقات الشافعية الكبرى (١٠٣/٩) .

(٣) البيت منسوب إلى سعيد بن محمد كما في جواهر الأدب (٤٦١/٢) (مطبعة السعادة/ط٢١/١٣٨٤).

(٤) حكم الانتماء للشيخ بكر أبو زيد ص : (١١٣)، وانظر كتاب الردود له ص : (٤٦٤) .

وبالجملة فظهور الاختلاف والفرقة هو الأمر الذي جعل أهل السنة يعرفون بألقاب شريفة تؤكد التصاقهم بالكتاب والسنة وتمسكهم بما كان عليه الرعيل الأول من سلف الأمة كما تميزهم عن فرق البدعة والضلالة .

ومن تلك الألقاب انتسابهم إلى السلف، واعتزاؤهم إلى الرعيل الأول كأن يقال : فلان سلفي، أو على عقيدة السلف، أو على الطريقة السلفية ...الخ

فلا عيب إذن على من فعل ذلك وأظهره، بل ربما كان فعل ذلك لازما وقبوله متحتما؛ لأنه صار شعار أهل السنة (كما أن شعار أهل البدع هو : ترك انتحال اتباع السلف) [1] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(لا عيب على من أظهر مذهب السلف وانتسب إليه، واعتزى إليه، بل يجب قبول ذلك منه بالاتفاق، فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقا) [2] .

ولهذا درج الأئمة على التنويه بمذهب السلف، والنسبة إليه، والتواصي بإظهاره واتباعه، والذي يهمني إيراده في هذا المقام من ذلك استعمال العلماء للفظ **السلف**، والنسبة إليه لتأكيد أصالتها، وشهرتها عندهم، ولدفع ما قد يتوهمه البعض بأن في ذلك دعوة إلى التحزب، والتفرق، والخروج عن جماعة المسلمين بهذا الاسم وتلك النسبة، فأقول :

لقد ثبت عن النبي ﷺ استعمال لفظ السلف ؛إذ جاء عنه أنه ﷺ قال لابنته وهو في مرض موته :

(اتقي الله واصبري، فإنه نعم **السلف** أنا لك)[3] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥٥/٤) .

(٢) المصدر السابق (١٤٩/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين يدي الناس، و لم يخبر بسر صاحبه (١٤٩/٤) رقم (٦٢٨٥، ٦٢٨٦)، ومسلم في صحيحه : كتاب فضائل الصحابة، باب فضل فاطمة رضي الله عنها (١٩٠٤/٤) رقم : (٢٤٥٠) .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله :

(وأي شيء يتبع بعد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومنهاج السلف بعده الذين هم موضع القدوة والإمامة)[1] .

وفي كتاب (الأنساب) : (**السلفية** نسبة إلى السلف)[2] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(يقال للطريقة **السلفية** الطريقة المثلى)[3] .

وقال أيضا :

(اعلم أنه ليس في العقل الصريح، ولا في شيء من النقل الصحيح ما يوجب مخالفة الطريق **السلفية** أصلا)[4] .

وقال بعض قدماء أصحاب شيخ الإسلام عنه :

(لم يزل خلفا صالحا **سلفيا** ...)[5]

وعقد الإمام ابن القيم فصلا في كتابه القيم " إعلام الموقعين " عنون له بقوله :

(فصل في جواز الفتوى بالآثار **السلفية**، والفتاوى الصحابية)[1] .

وأما استعمال الحافظ الذهبي[2] لها في التراجم فأشهر من أن يذكر، وفيما يلي ذكر بعض الأمثلة على ذلك :

---

(١) كتاب الإيمان ص : (١٩) (تحقيق العلامة الألباني/المكتب الإسلامي/ط٢/١٤٠٣) .

(٢) الأنساب للسمعاني (٣/١٧٣) (تحقيق المعلمي/دائرة المعارف/الدكن/ط١/١٣٨٢) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٩٩) .

(٤) الفتوى الحموية الكبرى ص : (٢٧٦) (تحقيق التويجري/دار الصميعي/ط١/١٤١٩)، وانظر أيضا : مجموع الفتاوى (٤/٣٥٧) .

(٥) العقود الدرية ص : (٥) (تحقيق الفقي/مكتبة المؤيد/الرياض) .

قال رحمه الله :

(**السلفي** - بفتحتين - هو من كان على مذهب السلف) [٣] .

وقال في معرض ذكره لما يحتاج إليه صاحب الحديث :

(الذي يحتاج إليه الحافظ : أن يكون تقيا ذكيا، نحويا لغويا، زكيا حييا، **سلفيا**، ...)[٤].

وقال عن ابن الصلاح :

(كان متين الديانة، **سلفي الجملة**، صحيح النحلة، كافا عن الخوض في مزلات الأقدام ...) [٥] .

وقال عن شيخ الإسلام :

(وله الآن عدة سنين لا يفتي بمذهب معين، بل بما قام عليه الدليل عنده، ولقد نصر السنة المحضة، **والطريقة السلفية**، واحتج لها ببراهين، ومقدمات، وأمور لم يسبق إليها) [٦] .

وقال عن البهراني[١] :

=

(١) إعلام الموقعين (١٤٨/٤) (تحقيق الوكيل/مكتبة ابن تيمية /القاهرة) .

(٢) هو : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، أبو عبد الله، التركماني، الشافعي، الذهبي .ولد سنة ثلاث وسبعين وستمائة، وتوفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .كان إماما حافظا، صاحب سنة، له تواليف كثيرة وبديعة منها : (سير أعلام النبلاء)، (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) وغيرهما .
انظر : طبقات الشافعية الكبرى (١٠٠/٩)، ذيل تذكرة الحفاظ ص : (٣٤) .

(٣) السير (٦/٢١) .

(٤) المصدر السابق (٣٨٠/١٣) .

(٥) المصدر السابق (١٤٢/٢٣)، وانظر تذكرة الحفاظ (١٤٣١/٤) (دار المعارف العثمانية/الهند) .

(٦) العقود الدرية ص : (١١٧) .

(كان دينا خيرا، **سلفيا**، مهيبا تام الشكل) [٢] .

وقال ابن الجزري[٣] عن نفسه في مطلع منظومته الهداية :

يقول راجي عفو رب رؤف محمد بن الجزري **السلفي** [٤]

وخلاصة الكلام، الذي يتسع له هذا المقام، أن الانتساب إلى الأسلاف الكرام، أمر سائغ بلا خصام، لذا درج عليه الأئمة الأعلام، وهي نسبة تعني الاعتصام بكتاب الله وسنة سيد الأنام، وفهمهما على فهم السلف أولي العرفان وذوي الأفهام، والمراد منها تمييز أهل الحق عن كل زائغ ضال في العقد والعمل والكلام .

لكن لو رام أحد أن يجعل السلفية شعارا لحزبية، أو مطية إلى عصبية، لقلنا له : إن السلفية منك بريئة، وهذه دعوى جاهلية، دعها فإنها منتنة ؛إذ العصبية منبع كل بلية، وسبب كل رزية، فعن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فكسع[٥] رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار .

=

(١) هو : محمد بن محمد بن المفضل، أبو الفضل، البهراني، القضاعي، الحموي الشافعي، ولد سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وتوفي سنة تسع وتسعين وستمائة، تفقه، وشارك في الفضائل، ودرس وأفتى .
انظر : معجم الشيوخ للذهبي (٢/٢٨٠) (تحقيق اهيلة/مكتبة الصديق/ط١/١٤٠٨)، البداية والنهاية (١٤/١٩) .

(٢) معجم الشيوخ (٢/٢٨٠)، وانظر أيضا : المصدر نفسه (٢/٣٦٩)، السير (١٣/١٨٣) .

(٣) هو : محمد بن محمد بن محمد بن علي، أبو الخير، المعروف بابن الجزري، الشافعي شيخ الإقراء في زمانه. ولد سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، وتوفي سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة .له تصانيف منها : (النشر في القرآت العشر) و (طبقات القراء) وغيرهما .
انظر : غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (٢/٢٤٧) فقد ترجم فيه لنفسه (تحقيق برجستراسر/دار الكتب العلمية/ط٣/١٤٠٢)،وذيل تذكرة الحفاظ للسيوطي ص : (٣٧٦) .

(٤) الهداية في علوم الرواية ص : (٩) (تحقيق أبي موسى المكي/مكتبة العلم، جدة/ط١/١٤١٣) .

(٥) كسع أي ضرب دبره بيده أو بصدر رجله .
انظر : الغريب لابن قتيبة (١/١٨٨) ، لسان العرب (٨/٣٠٩) .

فقال الأنصاري : ياللأنصار!! .

وقال المهاجري : ياللمهاجرين !! .

فقال رسول الله ﷺ : ما بال دعوى الجاهلية ؟!

قالوا : يارسول الله ! كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار.

فقال : دعوها، فإنـــها منتنة) [1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(المهاجرون والأنصار اسمان شرعيان، جاء بـــهما الكتاب والسنة، وسماهمـــا الله بـــهما، كما سمانا المسلمين من قبل، وفي هذا .

وانتساب الرجل إلى المهاجرين أو الأنصار، انتساب حسن محمود، عنـــد الله وعند رسوله، ليس من المباح الذي يقصد به التعريف فقط، كالانتساب إلى القبـــائل والأمصار، ولا من المكروه أو المحرم، كالانتساب إلى ما يفضي إلى بدعة، أو معصيـــة أخرى، ثم – مع هذا – لما دعا كل منهما طائفته منتصرا بـــها، أنكر النبي ﷺ ذلـــك وسماها : دعوى الجاهلية) [2] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب التفسير، باب قوله :﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ (٩/٦٤٣)، رقم : (٤٩٠٥)، ومسلم في صحيحه : كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما (٤/١٩٩٨) رقم : (٢٥٧٤) .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٢١٤-٢١٥) .

الفصل الأول : في تقرير السلف لقاعدة كمال الدين من حيث التأصيل .

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أدلة كمال الدين .

المبحث الثاني : بيان أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين .

المبحث الثالث : بيان أن الله تكفل بحفظ هذا الدين

المبحث الأول : أدلة كمال الدين

لاشك أن من أصول اعتقاد أهل السنة، وقواعد مذهب السلف اعتقادهم كمال الدين وتمامه، وأن الله جل وعلا شرع للأمة ما أغناهم به عما لم يشرعه، وأنزل على رسوله ﷺ كل ما يحتاج إليه الناس في صلاح دينهم ودنياهم .

وقد ورد في إثبات هذا الأصل العظيم أدلة كثيرة إما صريحة أوظاهرة من كتاب الله، وأحاديث عديدة وثابتة من سنة رسول الله ﷺ، كما أثر عن سلف الأمة وأئمتها آثار كثيرة تؤصل ذلك وتؤكده .وفيما يأتي ذكر نبذ مما وقفت عليه من هذا كله .

المطلب الأول : أدلة كمال الدين من القرآن .

١ – قوله تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[1] .

هذه الآية الكريمة صريحة الدلالة على ما أسلفناه، بل هي نص في تقرير كمال الدين ؛إذ فيها إخبار من الله سبحانه وتعالى أنه من على هذه الأمة بنعمة جليلة، ومنة عظيمة، وهي أنه أكمل لهم دينهم، بأن أنزل عليهم كل ما يحتاجونه في جميع أبواب الدين من مسائل الاعتقاد، وأمور الحلال والحرام، والفرائض والحدود، وما فيه صلاح دنياهم وأخراهم .

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣) .

قال شيخ الإسلام :

(شرع الله على لسان خاتم النبيين من الأعمال ما فيه صلاح الخلق على أتم الوجوه، وهو الكمال المذكور في قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾)[1]

فلم يقبض الله إليه رسوله ﷺ حتى خار له، وأغنى به، وأنزل عليه كل ما يحتاج إليه الناس، (فرسالته عامة بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم، وأعمالهم، ولم يحوج أمته إلى أحد بعده)[2] لا إلى نبي آخر يبعث، ولا إلى ملهم ومحدث، ولا إلى صاحب ذوق ومنام، أو صاحب فلسفة وكلام .

ولم يبق طريق إلى الله، ولا سبيل إلى نيل مرضاته، ولا سبب لدخول جناته، إلا باتباع رسوله ﷺ، واقتفاء آثاره، والتمسك بهديه، إذ كل الطرق غير طريقه مسدودة موصدة، وكل السبل دون سبيله مقفرة مهلكة، وكل الأسباب غير سببه منقطعة مردية، وما هي إلا بنيات الطريق، إن غضضت الطرف عما فيها من تمويه وزخرفة، فليس وراء عبادان[3] قرية، إن هو إلا طول العناء، وكثرة المشقة، كلحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى، (فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعا لما جاء به الرسول .ولا يتقدم بين يديه بل ينظر ما قال، فيكون قوله تبعا لقوله، وعلمه تبعا لأمره، فهكذا كان الصحابة، ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله، ولا يؤسس دينا غير ما جاء به الرسول، وإذا أراد معرفة

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٤٨٢) (تحقيق ناصر العقل/دار المسلم/ط٥/١٤١٥) .

(٢) إعلام الموقعين (٤/٤٥٤) .

(٣) عبادان : اسم لجزيرة بين نهرين، تحت البصرة . انظر : معجم البلدان (٤/٧٤) .

(ليس وراء عبادان قرية) استعمله ابن القيم على صيغة المثل، ومنه أخذته . انظر : مفتاح دار السعادة (١/٣٦١) .

شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله الله والرسول، فمنه يتعلم، وبه يتكلم، وفيه ينظر ويتفكر، وبه يستدل، فهذا أصل أهل السنة)[1] .

فأمر الدين، وأسباب الفلاح والسعادة، وكذا أسباب العذاب والشقاوة، قد بينت ووضحت بأفصح عبارة، وتم ذلك كله وفرغ منه، تولى الله إكماله بنفسه، و لم يكله إلى أحد من خلقه، فلا يضل عبد إلا متعمدا، ومن أراد الهداية فالسبيل أمامه واضحة، والمحجة بيضاء نقية، فكان هذا أعظم نعم الله على هذه الأمة (ولهذا أنزل الله هذه الآية في أعظم أعياد الأمة الحنيفية ؛فإنه لا عيد في النوع أعظم من العيد الذي يجتمع فيه المكان والزمان، وهو عيد النحر، ولا عين من أعيان هذا النوع أعظم من يوم كان قد أقامه رسول الله ﷺ بعامة المسلمين، وقد نفى الله تعالى الكفر وأهله)[2].

فعن طارق بن شهاب قال : قال رجل من اليهود لعمر :

(يا أمير المؤمنين لو أن علينا أنزلت هذه الآية : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[3] لاتخذنا ذلك اليوم عيدا !

فقال عمر : إني لأعلم أي يوم نزلت هذه الآية، نزلت يوم عرفة، في يوم جمعة)[4] .

وبالجملة فمن سلك في معرفة الدين وإقامته طريقا غير طريق الرسول ﷺ فقد دفع في صدر هذه الآية، وجعلها وراء ظهره .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٦٢ – ٦٣) .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٤٨٢) .

(٣) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٨/٤٨٧) رقم : (٧٢٦٨)، ومسلم في صحيحه : كتاب التفسير (٤/٢٣١٧)، رقم : (٧٤٤٣) .

قال الشاطبي [1] :

(إن الله تعالى أنزل الشريعة على رسوله ﷺ فيها تبيان كل شيء يحتاج إليه الخلق في تكاليفهم التي أمروا بها، وتعبداتهم التي طوقوها في أعناقهم، و لم يمت رسول الله ﷺ حتى كمل الدين بشهادة الله تعالى بذلك، حيث قال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[2] فكل من زعم أنه بقي من الدين شيء لم يكمل بعد فقد كذب بقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾) [3].

وقد فسر الآية بنحو من هذا جماعة من أهل التفسير[4] ، وفيما يلي إيراد بعض أقوالهم :

قال ابن جرير رحمه الله [5] :

---

(١) هو : إبراهيم بن موسى بن محمد، أبو إسحاق، اللخمي، الشاطبي، المالكي، من أهل غرناطة .توفي في شعبان سنة تسعين وسبعمائة .كان أصوليا مفسرا، فقيها، لغويا، له تآليف نفيسة منها : (الاعتصام)، (الموافقات) وغيرهما .

انظر : شجرة النور الزكية ص : (٢٣١) (دار الفكر /بيروت)، إيضاح المكنون ص : (١٢٧) .

(٢) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٣) الاعتصام (٨١٦/٢) (تحقيق سليم الهلالي/دار ابن عفان/ط١/١٤١٨) .

(٤) انظر : جامع البيان (٥١٧/٩)، الوسيط (١٥٣/٢)، معالم التنزيل (١٣/٣-١٤)، الجامع لأحكام القرآن (٦٣/٦)، تفسير القرآن العظيم (١٣/٢)، محاسن التأويل (٤٦/٦)، تفسير التحرير والتنوير (١٠٣/٦)، تيسير الكريم الرحمن (٢٤٢/٢) .

(٥) هو : محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر، الطبري، مولده سنة أربع وعشرين ومائتين، وتوفي سنة عشر وثلاثمائة، له مؤلفات كثيرة منها : (أخبار الأمم وتاريخهم)، (تهذيب الآثار) وغيرهما .

انظر : تاريخ بغداد (١٦٢/٢)، السير (٢٦٧/١٤) .

(قال بعض أهل التأويل : يعني جل ثناؤه بقولـــه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ اليوم أكملت لكم أيها المؤمنون فرائضي عليكم، وحدودي، وأمري إيـاكم ونـــهيي، وحلالي وحرامي، وتنـــزيلي من ذلك ما أنزلت منه في كتابي، وتبياني مـــا بينت لكم منه بوحيي على لسان رسولي، والأدلة التي نصبتها لكم على جميع ما بكـم الحاجة إليه من أمر دينكم، فأتممت لكم جميع ذلك، فلا زيـــادة فيـه بعـد هـذا اليوم...)[1] .

وقال ابن كثير رحمه الله [2] :

(هذه أكبر نعم الله على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهـــم دينـــهم، فـــلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعلـــه الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حـــرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيـــه ولا خلف، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[3] أي صدقـــا في الأخبار، و عدلا في الأوامر والنواهي) [4].

---

(١) جامع البيان (٩/٥١٧) (مطبعة مصطفى الحلبي/ط٣/١٣٨٨) .

(٢) هو : إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء، عماد الدين، القرشي، الدمشقي، الشافعي .ولد سنة إحدى وسبعمائة، وتوفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة . من مؤلفاته : (تفسير القـــرآن العظيـــم)، (طبقـــات الشافعية) وغيرهما .

انظر : تذكرة الحفاظ (٤/١٥٠٧)، الذيل على العبر (٢/٣٥٨) (تحقيـــق صـــالح مـــهدي عبـــاس/ الرسالة/ط١/١٤٠٩) .

(٣) سورة الأنعام، الآية (١١٥) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/١٣) .

وقال ابن سعدي رحمه الله [1] :

(﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع ؛ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية في أحكام الدين وأصوله وفروعه .

فكل متكلف يزعم أنه لابد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة من علم الكلام وغيره فهو جاهل مبطل في دعواه قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله)[2].

وقد قيل في المراد بإكمال الدين في الآية أقوال أخرى أذكرها بشيء من الإجمال والاختصار :

١/ قيل : كماله أي عزه وظهوره، وذل الشرك ودروسه، لأنهم بذلك يجرون أحكام الدين من غير مانع، وبه تمامه، وهذا كما يقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك : أي كفينا من كنا نخافه فالمعنى : اليوم أكملت لكم نصر دينكم [3] .

٢/ وقيل : كماله بنفي المشركين عن البيت الحرام، فلم يحج معهم مشرك عامئذ [4].

---

(١) هو : عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي، أبو عبد الله، من قبيلة تميم .ولد سنة ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة، تربى يتيما، وتوفي سنة (١٣٧٦ هـ) .كان ذا إلمام بعلوم الشريعة، خاصة الفقه، وأصوله، وله عناية خاصة بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم رحمهما الله، من مؤلفاته الكثيرة : (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، (القول السديد في مقاصد التوحيد) وغيرهما .
انظر : الأعلام (٣٤٠/٣)، علماء نجد خلال ستة قرون للبسام (٢١٨/٣) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٤٢/٢) .

(٣) انظر : زاد المسير (٢٨٧/٢)، تفسير النسفي (٤٢٦/١)، روح المعاني (٦٠/٦) .

(٤) انظر : النكت والعيون (١٢/٢)، زاد المسير (٢٨٧/٢) .

قال ابن جرير:

(وأولى الأقوال بالصواب أن يقال : إن الله عز وجل أخبر نبيه ﷺ و المؤمنين به أنه أكمل لهم يوم أنزل هذه الآية على نبيه دينهم، بإفرادهم بالبلد الحرام، وإجلائه عنه المشركين، حتى حجه المسلمون دونهم لا يخالطونهم المشركون) [1] .

٣/ وقيل : المراد بإكمال الدين أنه أمن هذه الشريعة من أن تنسخ بأخرى بعدها، كما نسخ بها ما تقدمها [2] .

قلت : لا مانع أن يراد بالآية كل ما تقدم، بأن أكمل الله الدين ببيان ما تحتاجه الأمة من أمور الحلال والحرام، ومسائل العقائد والأحكام، وبنفي المشركين عن البيت الحرام، وحفظ هذه الشريعة من النسخ والتبديل، وإظهار الدين، ونصرالمؤمنين على أعدائهم المشركين .

---

(١) جامع البيان (٩/٥١٩) .

(٢) زاد المسير (٢/٢٨٨) .

٢ / قوله تعالى :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[١].

في هذه الآية إخبار عن القرآن بأن فيه البيان الكافي لكل شيء مما يحتاج إليه العباد في أمر دينهم، وما يتم به صلاح معاشهم، وما أنيط به فلاحهم في العاجل والآجل؛ إذ إنه دل على أصول الدين وقواعد الشريعة بأظهر البراهين، وأوضح الأدلة، وبين الأحكام والحدود بأفصح مقالة، وأجزل عبارة، ووضح كل ما من شأنه أن يصلح النفوس، ويحيي القلوب، وينير الطريق، ويسمو بالأخلاق بأحسن إشارة، وأبين دلالة ؛لذا عبر **بالتبيان** وهو من المصادر التي بنيت على هذه الصيغة لتكثير الفعل والمبالغة فيه، فهو بيان شاف كاف، بل فاضل عن الكفاية، وغير مقصر عن الغاية . بل ليس في الوجود كلام هو أحسن تفسيرا، ولا أوضح معنى، ولا أتم بيانا من كلام الله جل وعلا ؛ولهذا سماه : بيانا، ومبينا، قال تعالى :

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾[٢]، فوصفه بأنه مبين، (وأطلق ولم يذكر المتعلق ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة)[٣] .

فما من شيء يحتاج إليه الناس في أمر الدين إلا وقد بين في القرآن إما بالنص عليه أو بالإحالة على ما يوجب العلم، كبيان نبي الأمة ﷺ، وإجماع الأئمة، فأوجب طاعة الرسول ﷺ، وفرض اتباع السنة في غير ما آية وأكثر من مناسبة، كما في قوله تعالى :﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[٤] .

---

(١) سورة النحل، الآية (٨٩) .

(٢) سورة الزخرف، الآيتان (١-٢) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/٦٣٢) .

(٤) سورة الحشر، الآية (٧) .

وقوله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[1].

وقد وردت في هذا المعنى أدلة كثيرة، لعل في الإشارة الغنية والكفاية .

كما أنه أمر بالأخذ بالإجماع وحث على اعتباره والاعتداد به، بل توعد من تركه وتنكب عنه، فقال تعالى :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[2].

قال وراق البخاري : سمعت البخاري[3] يقول :

لا أعلم شيئا يحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة .

قال فقلت : يمكن معرفة ذلك ؟!

قال : نعم)[4] .

ولا ريب أن هذا يشكل على كثير من الناس إما لخفاء ما جاء به النبي ﷺ عليهم، وعدم علمهم بالنصوص الشرعية، وإما لقلة نصيبهم من الفهم الصحيح لها، وجهلهم بكيفية دلالتها على المقاصد، أولعدم علمهم بالأمور المحدثة وكيف ترد إلى

---

(١) سورة النساء، الآية (٦٥) .

(٢) سورة النساء، الآية (١١٥) .

(٣) هو : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبد الله، الجعفي مولاهم، البخاري .ولد سنة أربع وتسعين ومائة، وتوفي سنة ست وخمسين ومائتين .أمير المؤمنين في الحديث، كان حافظا، إماما، ثبتا، جمع الفضائل، من مصنفاته : (الجامع الصحيح) و(خلق أفعال العباد) وغيرهما .

انظر : السير (١٢/٣٩١)، هدي الساري ص : (٥١٥) .

(٤) انظر : السير (١٢/٤١٢)، هدي الساري ص : (٥١٢) .

الكتاب والسنة، أو لهذه الأسباب مجتمعة [1]، وإلا فأصحاب النبي ﷺ الذين عايشوا التنزيل وعرفوا التأويل قد اكتفوا بما جاء به النبي ﷺ، واستغنوا به عما سواه، فكانوا هداة مهتدين: لهم السبق في العلم والعمل، وهم القدوة في الفهم والعبلدة، و لم يؤثر عن أحد منهم أنه احتاج إلى غير الكتاب والسنة .

وأما عموم **كل** فهو في كل موضع بحسبه، وهو في هذه الآية عموم عرفي في دائرة ما لمثله تأتي الشرائع والأديان من بيان أمور العقائد والأحكام، وإصلاح الأفراد والمجتمعات، وإرشاد الناس إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم، ومما يؤيد هذا ويبينه أن الآية ختمت بالتنصيص على الهدى والرحمة ؛إذ (الهدى هو : العلم بالحق والعمل به . والرحمة هي : ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به . فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد)[2] .

أو يقال : (الهدى : ما يرجع من التبيان إلى تقويم العقائد والأفهام، والإنقاذ من الضلال، والرحمة : ما يرجع منه إلى سعادة الحياتين الدنيا والآخرة)[3] .

ويمكن أن يحمل على العموم الحقيقي فيكون بيان القرآن (بيانا لكل شيء على وجه العموم الحقيقي، إن سلك في بيانها طريق التفصيل، واستنير فيها بما شرح الرسول ﷺ وما قفاه به أصحابه وعلماء أمته، ثم ما يعود إلى الترغيب والترهيب من وصف ما أعد للطائعين، وما أعد للمعرضين، ووصف عالم الغيب والحياة الآخرة، ففي كل ذلك بيان لكل شيء يقصد بيانه للتبصر في هذا الغرض الجليل . فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه إلى عموم حقيقي بضمنه و لوازمه، وهذا من أبدع الإعجاز)[4].

---

(١) انظر : الاستقامة (١/٥) ففيه نحو هذا الكلام، ومنه استفدته .

(٢) قاله ابن سعدي رحمه الله في تيسير الكريم الرحمن (٣/٣٦٤-٣٦٥) .

(٣) قاله ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير (١٤/٢٥٣ -٢٥٤) .

(٤) المصدر السابق .

وعليه فشريعة النبي ﷺ عامة وشاملة لكل ما يحتاج إليه الناس، لا يخرج عنها من ذلك شيء البتة، قال ابن القيم رحمه الله :

(رسالة النبي ﷺ لها عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص :

عموم بالنسبة إلى المرسَل إليهم .

وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج من بعث إليه في أصول الدين وفروعه .

فرسالته كافية شافية عامة، لا تحوج إلى سواها .ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به) [1] .

وبنحو هذا الذي ذكرته قال علماء التفسير في تأويل هذه الآية [2] .

قال ابن جرير في معنى الآية :

(يقول : نزل عليك يا محمد هذا القرآن بيانا لكل ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال و الحرام، والثواب والعقاب)[3] .

وقال أبو الليث السمرقندي[4] :

(﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي القرآن ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الأمر والنهي، إلا أن بعضه مفسر، وبعضه مجمل، يحتاج إلى الاستخراج و الاستنباط)[5] .

---

(١) إعلام الموقعين (٤/٤٥٤) .

(٢) انظر : جامع البيان (١٤/١٦١-١٦٢)، بحر العلوم (٢ /٢٤٦-٢٤٦)، الوسيط (٣/٩٧)، معالم التنزيل (٥/٨٣)، المحرر الوجيز (١٠/٢٢٣)، زاد المسير (٤/٤٨٢)، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٢٣)، فتح القدير (٣/٢٦٥)، تيسير الكريم الرحمن (٤/٢٣٠) .

(٣) جامع البيان (١٤/١٦١) .

(٤) هو : نصر بن محمد بن إبراهيم، أبو الليث، السمرقندي، الحنفي، الفقيه المعروف، صاحب كتاب (تنبيه الغافلين)، وله كتاب (الفتاوى) وغيرهما، توفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، وقيل غير ذلك .
انظر : السير (١٦/٣٢٢)، الجواهر المضية في طبقات الحنفية للقرشي (٣/٥٤٤) (تحقيق الحلو/مطبعة عيسى الحلبي/١٣٩٨) .

(٥) بحر العلوم (٢/٢٤٦) (دار الكتب العلمية/ط١/١٤١٣) .

وقال الواحدي[1] في تفسير الآية :

(﴿ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ قال أهل المعاني : يعني كل شيء من أمور الدين إما بالنص عليه أو الإحالة على ما يوجب العلم من بيان النبي ﷺ أو إجماع المسلمين، فالكتاب هو الأصل لعلوم الدين) [2] .

وقال ابن سعدي رحمه الله :

(﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم بيان بألفاظ، ومعان جلية حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار، التي يحتاج القلب لمرورها عليه في كل وقت، وإعادتها كل ساعة، ويعيدها و يبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة، لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس) [3] .

والمقصود أن الآية ظاهرة الدلالة على كمال الدين واستغنائه عن الأقوال المبتدعة في الأصول، والآراء المحدثة في الفروع ؛إذ فيه البيان الشافي لكل ذلك بأحسن الطرق وأوجزها وأبعدها عن التعقيد .إلا أن الوقوف على بعض ذلك ربما احتاج إلى الاستخراج والاستنباط، وإعمال الفكر، وبذل الجهد، حكمة من الله بالغة .

وفي هذا رد على أهل الكلام الذين يزعمون أن أصول الدين لم تكن مبينة في الكتاب والسنة، وأنهما لم يدلا عليها بحال،وإنما تستفاد بقياس العقل المعلوم من غيرها،

---

(١) هو : علي بن أحمد بن محمد بن علي، أبو الحسن، الواحدي النيسابوري، الشافعي، صنف التفاسير الثلاثة (البسيط)، و (الوسيط)، و (الوجيز) وله غيرها . توفي سنة ثمان وستين وأربعمائة .
انظر : السير (١٨/٣٣٩) . طبقات الشافعية الكبرى (٥/٢٤٠) .

(٢) الوسيط (٣/٩٧) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/٢٣٠) .

وأما النصوص الشرعية **مجردة** فلا تعدوا أن تكون ظواهر لفظية لا تفيد علما ولا يحصل منها يقين[1] .

فيا لله العجب !! أيعقل أن يهمل رب العالمين، وكذا رسوله الأمين، أهم أمور الدين، وزبدة رسالة المرسلين، وأعظم ما تحيا به قلوب الناس أجمعين، فلم يتكلما فيه بما يزيل اللبس، ويقطع العذر، ويلزم الحجة، ويظهر الحق، وأنهما وكلا بيان هذا الأمر العظيم إلى زبالة أفكار المتحذلقين الموسوسين، وعصارة أذهان المتهوكين الضالين ؟!!

أيقول هذا من عنده مسكة عقل، ومن في قلبه لله ولرسوله ﷺ ولدينه وقار ؟

وإلا (كيف يكون أفضل الرسل، وأجل الكتب غير واف بتعريف ذلك على أتم الوجوه، مبين له بأكمل البيان، موضح له غاية الإيضاح، مع شدة حاجة النفوس إلى معرفته، ومع كونه أفضل ما اكتسبته النفوس، وأجل ما حصلته القلوب ؟!)[2] .

قال ابن القيم رحمه الله :

(لا يتم الإيمان إلا باعتقاد أن بيان ذلك قد وقع من الرسول على أتم الوجوه، وأوضحه غاية الإيضاح، ولم يدع بعده لقائل مقالا، ولا لمتأول تأويلا)[3] .

وفيها أيضا رد على من قال من الفقهاء : إن المرجع في معرفة حكم أكثر الحوادث هو القياس، ولولاه لخلت حوادث كثيرة عن الحكم، بل قال بعضهم : إن النصوص الشرعية لاتفي بعشر معشارها (!!)[4] .

---

(١) انظر : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين للفخر الرازي ص : (١٤٢) ففيه قوله : (الدليل اللفظي لا يفيد اليقين إلا عند تيقن أمور عشرة) !! .

(٢) الصواعق المرسلة (١/١٥٧-١٥٨) .

(٣) المصدر السابق (١/١٦٠) .

(٤) انظر : البرهان في أصول الفقه للجويني (٢/٤٩٩، ٥٠٢) (تحقيق الديب/دار الوفاء/ط١/١٤١٢)، ونقلها ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين (١/٤١١) .

قال ابن القيم :

(ولعمر الله إن هذا مقدار النصوص في فهمه، وعلمه، ومعرفته، لا مقدارها في نفس الأمر) [1] .

وحجتهم في هذا أمران :

١/ قالوا : إن النصوص قليلة ومتناهية، وحوادث العباد كثيرة وغير متناهية، وإحاطة المتناهي بغير المتناهي ممتنع .

قال ابن القيم رحمه الله :

(وهذا احتجاج فاسد جدا من وجوه :

أحدها : أن ما لا تتناهى أفراده لا يمتنع أن يجعل أنواعا، فيحكم لكل نوع منها بحكم واحد، فتدخل الأفراد التي لا تتناهى تحت ذلك النوع .

الثاني : أن أنواع الأفعال بل والأعراض كلها متناهية .

الثالث : أنه لو قدر عدم تناهيها، فإن أفعال العباد الموجودة إلى يوم القيامة متناهية .

ثم قال :

(وإذا كان أرباب المذاهب يضبطون مذاهبهم ويحصرونها بجوامع تحيط بما يحل ويحرم عندهم مع قصور بيانهم، فالله ورسوله المبعوث بجوامع الكلم أقدر على ذلك ...) [2] .

٢/ قالوا : إن هناك مسائل كثيرة لا تدخل تحت النصوص ولا تشملها .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(وإنما ظن كثير من الناس الحاجة إلى الرأي المحدث لأنهم يجدون مسائل كثيرة، وفروعا عظيمة لا يمكنهم إدخالها تحت النصوص، كما يوجد في فروع من ولد الفروع، من فقهاء الكوفة ومن أخذ عنهم) .

---

(١) إعلام الموقعين (١/٤١١) .

(٢) المصدر السابق (١/٤١١) .

ثم أجاب عن هذا من وجوه أذكرها مختصرة :

الوجه الأول : أن كثيرا من تلك الفروع المولدة لا يقع أصلا، وماكان كذلك لم يجب أن تدل عليه النصوص .

الوجه الثاني : أن تكون تلك الفروع مبنية على أصول فاسدة مخالفة للشريعة، فمن عرف السنة بين حكم تلك الأصول، فتسقط تلك الفروع كلها ؛ولأنها ليست موافقة للشريعة فإنها ستكثر وتنتشر حتى لا تضبطها قاعدة، بخلاف الشريعة فهي كما قال النبي ﷺ :

(بعثت بجوامع الكلم)[1] .

والكلمة الجامعة هي القضية الكلية، والقاعدة العامة التي بعث بها نبينا ﷺ، فمن فهم كلمه الجوامع علم اشتمالها لعامة الفروع وانضباطها بها .

الوجه الثالث : أن النصوص دالة على عامة الفروع الواقعة، كما يعرفه من يتحرى ذلك ويقصد الإفتاء بموجب الكتاب والسنة ودلالتها، وأهل النصوص دائما أقدر على الإفتاء وأنفع للمسلمين في ذلك من أهل الرأي المحدث)[2]

وبإزاء هؤلاء من ينكر القياس من أهل الظاهر، ويرده جملة وتفصيلا، ويدعي أن النصوص تستوعب جميع الحوادث بالأسماء اللغوية التي لا تحتاج إلى استنباط واستخراج أكثر من جمع النصوص .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(والتوسط في ذلك طريقة فقهاء الحديث، وهي إثبات النصوص، والآثار الصحابية على جمهور الحوادث، وما خرج عن ذلك كان في معنى الأصل)[3] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد (٣٠٢/٤) رقم (٧٠١٣)، ومسلم في صحيحه : كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٣٧٥/١) رقم (٥٢٣) .

(٢) لخصت هذا من كتاب الاستقامة لشيخ الإسلام رحمه الله (٦/١ - ١٣) .

(٣) الاستقامة (٧/١) .

٣ / قوله تعالى :

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[١].

أخبر الله عن نفسه في هذه الآية الكريمة أنه لم يترك شيئا من أمر الدين عريا عن البيان، وخاليا من التوضيح والتفصيل، ومعطلا عن الحكم بالصحة أو البطلان، فالله سبحانه لم يفرط و لم يغفل عن بيان أي أمر من أمور الدين دقها فضلا عن جلها، صغيرها بله كبيرها، ففي القرآن الكريم بيان ذلك كله على النحو الذي تقدم ذكره في الآية السابقة .

قال القرطبي في معنى الآية :

(ما تركنا شيئا من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن، إمادلالة مبينة مشروحة وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب، قال الله تعالى :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[٢].

وقال :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[٣].

وقال :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[٤].

فأجمل في هذه الآية وآية النحل[٥] ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره، إما تفصيلا، وإما تأصيلا، وقال :

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٣٨) .

(٢) سورة النحل، الآية (٨٩) .

(٣) سورة النحل، الآية (٤٤) .

(٤) سورة الحشر، الآية (٧) .

(٥) أي الآية (٨٩) من سورة النحل .

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[1])[2] .

فالآية دالة على كمال الدين، لكن هذا على القول بأن المراد بالكتاب هـــهنا القرآن، إذ اختلف أهل التأويل في ذلك على قولين مشهورين :

أحدهما : أن المراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ المشتمل على جميع أحـــوال المخلوقات على التفصيل، فإنه أثبت فيه جميع ما يقع من الحوادث دقها وجلها، ممـــا كان وما سيكون وهذا إحدى الروايتين عن ابن عباس[3] ، ولم يذكر ابن جرير[4] وابن كثير[5] سواه على توسعهما، وهو الذي رجحه ابن القيم[6] وغيره[7].

قال ابن القيم رحمه الله :

(كأن هذا القول أظهر في الآية، والسياق يدل عليه، فإنه قال :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[8].

وهذا يتضمن أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل والتقدير الأول، وأنها لم تخلـــق سدى، بل هي معبدة مذللة قد قدر خلقها، وأجلها، ورزقها وما تصير إليه، ثم ذكـــر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها، ثم قال :

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣٩٤/٦) .

(٣) هو الصحابي الجليل : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، أبو العباس، القرشي، الهاشمي، حـــبر الأمـــة، وترجمان القرآن .من صغار الصحابة .ولد بالشعب قبل الهجرة بثلاث على الصحيح، وفي وفاته أقوال، ولعل الصحيح منها أنه توفي سنة ثمان وستين .
انظر : السير (٣٣١/٣)، الإصابة (٩٤/٤) .

(٤) جامع البيان (٣٤٤/١١ -٣٤٥) .

(٥) تفسير القرآن العظيم (١٢٤/٢) .

(٦) شفاء العليل (١١٨/١) .

(٧) انظر : معالم التنـــزيل (١٤٢/٣)، محاسن التأويل (٢٣٠٥/٦)، تفسير التحرير والتنوير (٢١٧/٧) .

(٨) سورة الأنعام، الآية (٣٨) .

﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

فذكر مبدأها ونهايتها، وأدخل بين هاتين الحالتين قوله : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي كلها قد كتبت وقدمت وأحصيت قبل أن توجد، فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي، وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول)[1] .

وعليه فلا دلالة في الآية على كمال الدين .

القول الثاني : أن المراد به القرآن، وهو مروي عن ابن عباس[2] ورجحه الفخر الرازي[3] [4]، ونسبه في النكت والعيون للجمهور[5] .

ودليل من قال بهذا أمور منها :

١/ قالوا : الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد انصرف إلى المعهود السابق، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن، فوجب أن يكون المراد من الكتاب في هذه الآية القرآن .

٢/ قالوا : سياق الآيات يرجح هذا ؛لأن الآية ذكرت عقب قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[6] .

---

(١) شفاء العليل (١/١١٨-١١٩) .

(٢) انظر : زاد المسير (٣/٣٥) .

(٣) هو : محمد بن عمر بن الحسين، فخر الدين الرازي، القرشي، البكري، الطبرستاني .ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ومات سنة ست وستمائة، انتشرت تواليفه شرقا وغربا بدت منه فيها بلايا وعظائم، لكنه توفي على طريقة حميدة .

انظر : السير (٢١/٥٠٠)، طبقات الشافعية الكبرى (٥/٣٣) .

(٤) التفسير الكبير (٦/٢١٥) .

(٥) النكت والعيون (٢/١١٢) .

(٦) سورة الأنعام، الآية (٣٦) .

(فنبههم على أعظم الآيات وأدلها على صدق رسول الله ﷺ، وهو الكتاب الذي يتضمن بيان كل شيء و لم يفرط فيه من شيء، ثم نبههم بأنهم أمة من جملة الأمم التي في السموات والأرض، وهذا يتضمن التعريف بوجود الخالق وكمال قدرته وعلمه وسعة ملكه وكثرة جنوده والأمم التي لا يحصيها غيره، وهذا يتضمن أنه لا إله غيره ولا رب سواه، وأنه رب العالمين، فهذا دليل على وحدانيته وصفات كماله من جهة خلقه وقدره، وإنزال الكتاب الذي لم يفرط فيه من شيء دليل من جهة أمره وكلامه فهذا استدلال بأمره، وذاك بخلقه، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [1] وشهد لهذا أيضا قوله :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[2])[3].

والمقصود أنه إذا أريد بالكتاب في هذه الآية القرآن فالمعنى :

أن الله جل وعلا أخبر أنه ما أخل فيه بشيء مما يحتاجه الناس في أمر الدين إلا وبينه لهم، ويكون العموم الوارد في الآية من العام الذي أريد به الخاص .

قال الرازي :

(ولقائل أن يقول : كيف قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ مع أنه ليس فيه تفاصيل علم الطب، وتفاصيل علم الحساب، ولا تفاصيل كثير من

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٥٤) .

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان (٥٠ – ٥١) .

(٣) شفاء العليل (١/١١٩) .

المباحث والعلوم، وليس فيه أيضا : تفاصيل مذاهب الناس ودلائلهم في علم الأصول والفروع ؟

والجواب : أن قوله : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ يجب أن يكون مخصوصا ببيان الأشياء التي يجب معرفتها، والإحاطة بها، وبيانه من وجهين :

الوجه الأول : أن لفظ التفريط لا يستعمل نفيا وإثباتا إلا فيما يجب أن يبين، لأن أحدا لا ينسب إلى التفريط والتقصير في أن لايفعل ما لاحاجة إليه، وإنما يذكر هذا اللفظ فيما إذا قصر فيما يحتاج إليه .

الوجه الثاني : أن جميع آيات القرآن، أو الكثير منها دالة بالمطابقة[1]، أو التضمن[2]، أو الالتزام[3] على أن المقصود من إنزال هذا الكتاب بيان الدين، ومعرفة أحكام الله، وإذا كان هذا التقييد من كل القرآن كان المطلق ههنا محمولا على ذلك المقيد...)[4].

ويحتمل أن يكون من العام الذي أريد به عمومه، والمراد أن كل شيء ذكر فيه إما مفصلا يستغني عن التفسير، وإما مجملا جعل إلى تفسيره سبيلا .

ويحتمل أن يكون للآية تأويل آخر: أي ما فرطنا فيه بدخول خلل عليه، أو وجود نقص فيه، فكتاب الله سليم من الخلل [5] .

---

(١) دلالة المطابقة هي : دلالة اللفظ على كمال مسماه، كدلالة لفظ البيت على جميعه .
انظر : تقريب الوصول إلى علم الأصول لابن جزي ص : (١٠٦) (تحقيق محمد المختار الشنقيطي/مكتبة ابن تيمية/ط١/١٤١٤) .

(٢) دلالة التضمن هي دلالة اللفظ على جزء مسماه، كدلالة لفظ البيت على سقفه .انظر تقريب الوصول ص : (١٠٦) .

(٣) دلالة الالتزام هي : دلالة اللفظ على لازم مسماه، كدلالة السقف على الجدار .انظر المصدر السابق .

(٤) التفسير الكبير (٦/٢١٥ – ٢١٦) .

(٥) النكت والعيون (٢/١١٢) .

وبالجملة (فالقرآن الكريم كلية الشريعة، والمجموع فيه أمـــور كليـــات، لأن الشريعة تمت بنـــزوله فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها، وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال)[1] .

(١) محاسن التأويل (٦/٢٣٠٥) .

٤ /قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[1].

أخبر الله عن القرآن الكريم بأنه لم يكن بدعا من القول افتراه النبي الأمين، بل هو تنزيل من لدن حكيم خبير، وتصديق لما تقدمه من كتب الأولين، وأخبر أن فيه البيان المفصل لجميع أمور الدين، فليس ثمت شيء مما يحتاج إليه إلا وقد فصل وبين فيه غاية التفصيل وأتم البيان .وفي هذا دلالة على كمال الدين، وعدم حاجة العباد إلى غيره من المحدثات في الفروع والأصول، وفي الأقوال والأفعال .

وبنحو هذا قال علماء التفسير في تأويل الآية [2] .

قال ابن جرير الطبري رحمه الله :

(يقول تعالى ذكره : هو تفصيل كل ما بالعباد إليه حاجة من بيان أمر الله ونهيه، وحلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته)[3].

وقال ابن كثير رحمه الله :

(﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات، والواجبات، والمستحبات، والنهي عن المحرمات، وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ...) [4] .

---

(١) سورة يوسف، الآية (١١١) .

(٢) انظر : جامع البيان (٣١٤/١٦)، الوسيط (٦٣٨/٢)، معالم التنزيل (٢٨٧/٤)، زاد المسير (٢٩٧/٤)، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٤/٩)، تفسير القرآن العظيم (٣٧٩/٢)، محاسن التأويل (٣٦١٨/٩) .

(٣) جامع البيان (٣١٤/١٦) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣٧٩/٢) .

٥ / قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾[1] .

نصت هذه الآية على أصل عظيم، وأمر جليل وهو أن الله جل وعلا لا يؤاخذ الناس بما اقترفته أيديهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم ؛إذ لا أحد أحب إليه العذر من الله، فأنزل الكتب وأرسل الرسل ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ ﴾[2] ؛ذلك لأن الحجة لا تتوجه على العباد إلا بعد بيان المحجة، ولا تقطع الأعذار إلا بإيضاح ما يؤتى وما يحذر، فمن أعرض بعد ذلك عن بيان الله فلم يرفع به رأسا، و لم يلق له بالا، عاقبه الله في الدنيا بطمس البصيرة حتى يوغل في الضلالة، وعاقبه في دار القرار بالخسران والبوار .

فالآية دالة على كمال الدين ؛لأن جميع ما ينبغي أن يحذر ويتقى، وكل ما يجب أن يفعل ويؤتى قد أعذر الله إلى الناس ببيانه، فلا طاعة إلا ما أمر الله به ورسوله ﷺ أمر إيجاب أو استحباب، ولا معصية إلا ما نهى الله ورسوله ﷺ عنه، وحذرا منه .

قال ابن سعدي رحمه الله في تفسير الآية :

(إذا من الله على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه)[3] .

---

(١) سورة التوبة، الآية (١١٥) .

(٢) سورة النساء، الآية (١٦٥) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣٠٧/٣) .

٦/ قوله تعالى :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [١] .

وصف الله تعالى في هذه الآية الكريمة كلمته التي هي القرآن بصفات منها : أنها كاملة وافية، وكافية شافية في بيان جميع أمور الدين من مسائل الاعتقاد، وأمور الحلال والحرام وغيرها .

وعليه فالآية دالة على كمال الدين، واستغنائه عن أي زيادة تزاد فيه .

قال ابن جرير :

(يقول تعالى ذكره : وكملت ﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ يعني القرآن، سماه كلمة كما تقول العرب للقصيدة من الشعر يقولها الشاعر : هذه كلمة فلان)[٢] .

قال الرازي :

(في تفسير هذا التمام وجوه :

الأول : أنها كافية وافية بكونها معجزة دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام .

الثاني : أنها كافية في بيان ما يحتاج المكلفون إليه إلى قيام القيامة عملا وعلما ...)[٣] .

وقال ابن عاشور :

(أعلم الله رسوله عليه الصلاة والسلام، والمؤمنين بأن هذا الكتاب تام الدلالة، ناهض الحجة على كل فريق من مؤمن وكافر، صادق وعده ووعيده، عادل أمره ونهيه)[٤] .

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١١٥) .

(٢) جامع البيان (٦٢/١٢) .

(٣) التفسير الكبير (١٦٠/٧) .

(٤) تفسير التحرير والتنوير (١٨/٨) .

المطلب الثاني : الأدلة من السنة على كمال الدين :

لقد تضافرت الأدلة من السنة على تأكيد ما تم تقريره قبل بالآيات القرآنية من كمال الدين، واستغنائه بما فيه من البيان الشامل لكل ما يحتاج إليه العباد عن كل محدث ودخيل، وكل منحول ليس في الدين بأصيل .

فقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن النبي ﷺ لم يلحق بالرفيق الأعلى حتى ترك الأمة على شريعة كاملة تامة، بيضاء ناصعة، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا كل مفتون هالك، حيث جاء عنه ﷺ في كل ما يحتاج إليه الناس -سواء في الأصول أو الفروع، والعبادات والمعاملات، والأخلاق والسياسات ...وغيرها- ما فيه صلاح الدنيا والآخرة، فما أهمل من ذلك ولا النزر اليسير .

وهذه كتب الحديث التي تروي أقواله، وتذكر أفعاله شاهدة على ذلك، وتنادي بالتكذيب على من يحاول دفعه أو إنكاره، فالناظر فيها -ولو نظرة عابرة- يقطع بأن النبي ﷺ جاء بشريعة كاملة تامة تسع الإنسان وتكفيه في جميع أموره وشؤونه، كبيرها وصغيرها، جليلها وحقيرها، فلم تهمل من أموره حتى آداب قضاء الحاجة بله ما فوقها، بل لا إخال المطلع عليها إلا وسيجد فيها ما يبهر العقول، ويحير الأفهام ؛إذ إنه ولابد واجد فيها العناية التامة والشاملة بجميع أمور الحياة، وأسباب الفلاح، وطرق النجاة، وسبل السعادة في الدنيا والآخرة .

فما على المؤمن الناصح لنفسه الحريص على نجاته وفلاحه إلا الانقياد والاتباع وترك الابتداع .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(على العبد أن يسلم للشريعة المحمدية الكاملة البيضاء الواضحة، ويعلم أنها جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإذا رأى من العبادات

والتقشفات وغيرها التي يظنها حسنة ونافعة ما ليس بمشروع علم أن ضررها راجح على نفعها، ومفسدتها راجحة على مصلحتها ؛إذ الشارع حكيم لا يهمل المصالح)[1].

ولست الآن بصدد ذكر الأمثلة على ما يؤكد هذا ويبينه ؛لأنه أمر واضح جلي، كما أن المقام لايتسع لذلك، لكن حسبي أن أذكر ها هنا من الأحاديث ما يؤصل كمال الدين على وجه العموم .

١/ عن عبد الله بن عمرو[2] أن النبي ﷺ قال :

(إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ،وينذرهم شر ما يعلمه لهم ...)[3].

في هذا الحديث إخبار من الصادق المصدوق ﷺ عن حال الأنبياء قبله، وأنه ما من نبي منهم إلا كان حريصا على هداية أمته أشد الحرص، فلا يهدأ لأحدهم بال ولا يستقر له قرار حتى يقوم بأعباء الدعوة أحسن قيام وعلى أتم الوجوه، فيسهر الليل، ويكد طول النهار يبشر وينذر، يرغب ويرهب، ويدل أمته على سبل الفلاح والهدى، ويحذرهم طرق الغواية والردى .فظهرت المحجة، وقامت الحجة، وانقطعت الأعذار، و لم يبق لقائل مقال . كيف لا ؟! وهم أعلم الخلق بالحق وطرقه، وأفصحهم وأقدرهم على بيانه، وأنصحهم وأقدرهم على تبليغه .فمن رامه من غير طريقهم فقد أخطأ الطريق، وضل عن سواء السبيل .

---

(١) تلخيص الاستغاثة (١/١٦٧) (تحقيق عجال/مكتبة الغرباء/ط١/١٤١٧) .

(٢) هو الصحابي الجليل : عبد الله بن عمرو بن العاص، أبو محمد . صحابي ابن صحابي، أسلم قبل أبيه، له مناقب وفضائل، ومقام راسخ في العلم والعمل، حمل عن النبي ﷺ علما جما .توفي سنة خمس وستين. وقيل غير ذلك .

انظر : السير : (٣/٧٩)، الإصابة (٢/٣٥١) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (٣/١٤٧٢) رقم (١٨٤٤) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(الرسل صلوات الله عليهم أعلم بطريق سبيل الله، وأهدى، وأنصح فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصا مخطئا محروما ...)[1] .

فإذا كان شأن الأنبياء قبل نبينا ما ذكر، فإن شأن نبينا محمد ﷺ أعظم وقدره أعلى وأجل، فهو سيدهم وإمامهم وهو (أكمل الخلق علما بالله وبأمره، وأكمل الخلق اهتداء في نفسه وهديا لغيره، وأبعد الخلق عن الجهل والضلال)[2] كما أنه أحرص الخلق على هداية أمته، بل هو في ذلك صاحب القدح المعلى، حتى إن الله جل وعلا عاتبه على شدة حرصه بمثل قوله :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ ﴾[3].

قال ابن جرير رحمه الله :

(هذه معاتبة من الله عز ذكره على وجده بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم إليه من الإيمان بالله، والبراءة من الآلهة والأنداد، وكان بهم رحيما)[4] .

لذا لم يدخر وسعا في تبليغ دين الله، ولم يترك شيئا مما تسعد به البشرية في الدارين إلا وبينه ورغب فيه، كما أنه لم يترك شيئا مما تشقى به إلا وبينه وحذر منه، بل وسد الذرائع الموصلة إليه، فما جاء به من الدين أكمل مما جاء به غيره من الأنبياء، فمن طلب الحق في غير دينه، أو سلك في طلبه غير طريقه، فقد طلب المحال، كمن طلب اصطياد الغراب الأبيض، وهو صيد لا ينال .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٩٢) .

(٢) قاله شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (١١/٣٨٤) .

(٣) سورة الكهف، الآية (٦) .

(٤) جامع البيان (١٥/١٩٥) .

فدل هذا على أن شريعته وافية كافية، كاملة غير ناقصة، لا تحتاج إلى شـــيء من بدع المبتدعين، ولا زيادات المحدثين، ففي التمسك بها الغنية والكفاية والهداية، وفي التنكب عنها يمنة وشمالا الغواية والضلالة، إذ قد بين فيها -كما مر- كل ما يقـــرب من الجنة ويباعد من النار، ويؤكد هذا أيضا الحديث التالي :

٢ / عن أبي ذر رضي ﷺ [١] أن النبي ﷺ قال :

(ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم) [٢] .

فالحديث - كما ترى - صريح في أن هذا الدين قد بين فيه كل ما يقرب إلى الله وينال به رضاه من قول أو عمل، ووضح فيه كل ما يباعد من الله ويجلب سخطه وغضبه من قول أو عمل، فما ترك شيء من ذلك عرضة للإهمال أوعريا عن البيان .

وعبر بقوله : (شيء) وهي نكرة في سياق النفي للدلالة على العموم، فهذه الشريعة عامة في بيان جميع ما يحتاجه العباد صغيرا كان أو كبيرا .

فما من سبيل من سبل الهدى إلا وقد بين أحسن البيان، والشرع إذا شرع إلى الهدى سبيلا، فالعدول إلى غيره لن يكون إلا تباعدا عنه، وتعرضا للهوان والحرمان، والتخبط في ظلمات الجهل و الضلال .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(كل من لم يكن علمه وعمله يرجع إلى العلم الموروث عن الرسول، مقيدا بالشريعة النبوية لم يخلص من الأهواء و البدع، بل كله أهواء وبدع) [٣] .

وقال أيضا :

(ومن ابتدع بدعة في الدين بدون اجتهاد أهل الاجتهاد، أو التقليد لأهل الاجتهاد كان من أهل الضلال والغي، لا من أهل الهدى والرشاد) [٤] .

---

(١) هو : الصحابي الجليل جندب بن جنادة، أبو ذر الغفاري . وقيل في اسمه واسم أبيه غير ذلك .أحد السابقين الأولين، من نجباء الصحابة، كان رأسا في الزهد والصدق، والعلم والعمل، قوالا بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، توفي ﷺ بالربذة سنة اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان ﷺ .

انظر : الاستيعاب (١/١٦٩)، السير (٢/٤٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/١٦٦) رقم (١٦٤٧)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (٤/٤١٦) رقم (١٨٠٣) (مكتبة المعارف /الرياض/١٤١٥) .

(٣) تلخيص الاستغاثة (١/١٣٧) .

(٤) المصدر السابق (١/١١٢) .

ذلك لأن الهدى منوط باتباع المصطفى ﷺ قال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[1] .

كما أن دخول الجنة لا يكون إلا بطاعته واقتفاء آثاره، قال ﷺ :

(كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟! قال : (من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)[2] .

وبالجملة : فالحديث دليل على كمال الدين وأن النبي ﷺ ما ترك من السبل التي توصل إلى الجنة سبيلا إلا ودلنا عليه ورغبنا فيه، وما ترك سبيلا من سبل الهلاك إلا وبينه لنا وحذرنا منه، فما كتم من ذلك حرفا، ولا ادخر في تبليغه وسعا .

قال ﷺ :

(ما تركت شيئا مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ولا شيئا مما نهاكم عنه إلا نهيتكم عنه)[3] .

---

(١) سورة النور، الآية (٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ : (بعثت بجوامع الكلم) (٣٥٩/٤). رقم (٧٢٨٠) .

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده كما في بدائع المنن للساعاتي (١٣/١-١٤) رقم : (٧)، وأخرجه من طريقه البيهقي في الكبرى (٧٦/٧)، وهو في جزء علي بن حجر عن إسماعيل بن جعفر ص : (٤٢٧)، ومن طريقه أخرجه البغوي في شرح السنة (٣٠٢/١٤) رقم (٤١١٠) .
والحديث مرسل حسن، يشهد له حديث أبي ذر المتقدم قريبا، والله تعالى أعلم .

٣/ حديث سلمان الفارسي ﷺ[١] والذي فيه أنه قيل له :

(لقد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة (؟ !) قال : أجـــل ...)

الحديث[٢].

هذا الحديث واضح الدلالة على أن النبي ﷺ علم أمته كل شيء مما تحتاج إليه، فقد جاء عنه من العلم مافيه الكفاية لمن أراد الله له الهداية وأنار له البصيرة؛ إذ لم يفته ﷺ أن يعلم أمته حقير الأمور فضلا عن جليلها، حتى آداب قضاء الحاجة، وهي آخر ما يمكن أن يتبادر إلى ذهن من يريد سياسة الناس وتربيتهم، بل وربما لا يخطر على باله البتة، ومع ذلك لم يغفلها ﷺ بل أرشد الأمة فيها إلى آداب رفيعة تنبئك عن عظمة هذا الدين وشموله، وأنه من لدن حكيم خبير .

ولعل مراد السائل من هذا السؤال -بالإضافة إلى الاستهزاء- أن يعترض بهذا الأمر على ما كان معلوما عند الصحابة من إحاطة هذا الدين وشموله لكل شيء مما يحتاج إليه العباد، فلما أخبر أن الشارع الحكيم لم يهمله، ألقم حجرا، و لم يحر جوابا .

قال النووي رحمه الله [٣] :

(قوله : (أجل) معناه : نعم، وهي بتخفيف اللام.ومراد سلمان ﷺ أنه علمنا كل ما نحتاج إليه في ديننا حتى الخراءة التي ذكرت أيها القائل، فإنه علمنا آدابها، فنهانا فيها عن كذا وكذا)[٤] .

---

(١) هو : الصحابي الجليل سلمان ابن الإسلام، أبو عبد الله الفارسي، سابق الفرس إلى الإسلام .صحب النبي ﷺ وخدمه، وحدث عنه، وكان لبيبا حازما، من عقلاء الرجال وعبادهم ونبلائهم .توفي بالمدائن سنة ثلاث وثلاثين، وقيل غير ذلك .

انظر : أسد الغابة : (٤١٧/٢) (تحقيق البنا، وعاشور/دار الشعب/القاهرة)، السير (١/ ٥٠٥) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الطهارة باب الاستطابة (٢٢٣/١)، رقم : (٢٦٢) .

(٣) هو : يحيى بن شرف بن مرى بن حسن، أبو زكريا، محيى الدين النووي .ولد في المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وتوفي في رجب سنة ست وسبعين وستمائة . صنف تصانيف عدة منها : (شرح المهذب) لكن لم يكمله، و (تهذيب الأسماء واللغات) وغيرهما .

انظر : تذكرة الحفاظ (١٤٧٠/٤)، طبقات الشافعية الكبرى (٣٩٥/٨) .

(٤) شرح صحيح مسلم (١٤٥/٣) .

فشرع هذا شأنه أيرتاب عاقل في كماله، وشموله، وصلاحه لكل وقت وآن، وللإنس والجان ؟! فإن لم يكن هذا هو الكمال فما في الوجود شيء يستحق أن يوصف بالتمام والكمال .

فدين هذا حاله، أيقول من لله في قلبه وقار إنه في حاجة إلى زبالة أفكار الفلاسفة والمتكلمين، أو إلى شطحات الصوفية وتخرصات الجاهلين ؟! أو يستبدل بالنظم والقوانين الوضعية الوضيعة بدعوى أنه لا يلائم العصر، ولا يتماشى مع الحضارة الزائفة .

كلا، والله (!!) إن فيه الغنية والكفاية، ومن لم يسعه شرع الله، فلا وسع الله عليه .

٤/ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب ﷺ أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ، فغضب وقال :

(أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ...) [1] .

دل هذا الحديث -كالأحاديث السابقة- على ما ذكرناه من كمال الدين وعدم حاجته إلى غيره وأن فيه الغنية عن كل ما سواه، فمن رحمة الله بالأمة المحمدية أن كفاهم مؤنة التشريع، فلم يحوجهم إلى الأديان المنسوخة والمحرفة، ولا إلى العقول البشرية القاصرة والمختلفة .

ودلالته على ذلك من وجوه :

الوجه الأول : غضبه ﷺ وتغير وجهه من المجيئ بذلك الكتاب، ولعل الباعث عليه أمور :

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف من طريقين :

الأولى : في (١١٣/٦) رقم (١٠١٦٤)، و (٣١٣/١٠) رقم : (١٩٢١٣) قال عبد الرزاق : أخبرنا الثوري عن جابر عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت ثم ذكره .

ومن طريقه أخرجه كل من الإمام أحمد في المسند (١٩٨/٢٥ الرسالة)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٨٠٥/٢) رقم (١٤٩٧) . وفيه جابر بن يزيد الجعفي .

الثانية : في (١١٢/٦) رقم (١٠١٦٣) : عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة أن عمر، ثم ذكره . وفيه انقطاع بين أبي قلابة وعمر ﷺ .

وأخرجه أيضا ابن أبي شيبة في مصنفه (٤٧/٩) رقم (٦٤٧٢) :هشام عن مجالد عن الشعبي عن جابر، ومن طريقه أخرجه كل من : ابن أبي عاصم في السنة (٦٦/١) رقم : (٥٠)، والبغوي في شرح السنة (٢٧٠/١) . وفيه مجالد بن سعيد .

ثم وجدت العلامة الألباني -رحمه الله - استوفى طرقه بلا مزيد عليه، وخلص إلى أن الحديث حسن . قال رحمه الله في إرواء الغليل (٣٤/٦-٣٨) : (وجملة القول أن مجيء الحديث من هذه الطرق المتباينة لما يدل على أن مجالد بن سعيد قد حفظ الحديث، فهو على أقل تقدير حديث حسن) .

الأول : أن هذا الفعل يلزم منه اعتقاد نقصان الدين، وأنه غير واف ببيان ما يحتاج إليه الناس، بل يحتاج معه إلى ما في الكتب السابقة .وإلا فما الداعي إلى الرجوع إليها مع اعتقاد كمال الدين وتمامه، خاصة وأنه لا يؤمن من أربابها التلبيس والتدليس الأمر الذي قد يؤدي إلى اختلال العقائد والتشويش على الأفهام .

قال في شرح المشكاة :

(وإنما أنكر عليهم لأن طلبهم يشعر بأنهم اعتقدوا نقصان ما أتى به النبي ﷺ)[1] .

الثاني : أن ذلك الفعل ربما جعل بعض أهل الكتاب يزدادون تمسكا بدينهم، وتعلقا بأقوال أحبارهم ورهبانهم، الأمر الذي يوصد الباب أمام إقناعهم بأن ما سلم من دينهم من التحريف والتبديل، وعبث الأحبار والرهبان قد نسخ بالشريعة المحمدية المهيمنة على جميع الشرائع والأديان .

بل لو أقرهم النبي ﷺ لأشكل ذلك حتى على بعض المسلمين ولظنوا أن تلك الشرائع لم تنسخ، وأن أهلها معذورون في التمسك بها، لذلك قال النبي ﷺ :

(لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي) .

الثالث : أن إقرارهم على ذلك الفعل يزيد من ترويج ما يشيعه الكفار والمنافقون من الإشاعات والأكاذيب عن مصدر القرآن، وأنه من تلقين أهل الكتاب للنبي ﷺ كما حكى الله ذلك عنهم في القرآن، قال تعالى :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝ ﴾[2]

وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ۝ ﴾[3] .

---

(١) شرح الطيبي على المشكاة (١/٣٤١) (إدرة القرآن والعلوم الإسلامية/كراتشي/ط/١٤١٣) .

(٢) سورة الفرقان، الآية (٥) .

(٣) سورة النحل، الآية (١٠٣) .

الوجه الثاني : قوله ﷺ : (أمتهوكون فيها)، أي : (أمتحيرون أنتم في الإسلام، لا تعرفون دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى)[1] .

والحيرة إنما تكون من نقص الهدى، أو الجهل به .

فالمعنى : أليس في ديننا ما يكفي لهدايتكم، حتى تحيرتم وصرتم تبحثون عن الهدى عند أهل الكتاب ؟! وهو استفهام إنكار وتقريع .

فإنكار النبي ﷺ عليهم وجعله فعل ذلك علامة على التحير دليل على كمال الدين وأنه الغاية في هداية الناس إلى الصراط المستقيم، فمن طلب الهدى في غيره فلازم فعله أن شرعنا ناقص غير كامل .

الوجه الثالث : وصف الشريعة بأنها بيضاء نقية للدلالة على وضوحها وصفائها، وكمالها، وسماحتها .

قال في شرح المشكاة :

(وصفها بالبياض تنبيها على كرمها وفضلها ؛لأن البياض لما كان أفضل لون عند العرب عبر به عن الفضل و الكرم، حتى قيل لمن لم يتدنس بمعاب هو أبيض الوجه، ونقيه قريب من هذا المعنى .

ويحتمل أن يراد أنها مصونة عن التبديل والتحريف، خالية من التكاليف الشاقة .

وأشار بذلك إلى أنه أتاهم بالأعلى والأفضل، واستبدال [الأعلى][2] بالأدنى مظنة التحير)[3] .

---

(١) شرح السنة للبغوي (١/٢٧١) (تحقيق الأرنؤوط/المكتب الإسلامي/ط٢/١٤٠٣).

(٢) العبارة في المطبوع هكذا : (واستبدال الأدنى عند مظنة التحير) ولعل ما أثبته هو الصحيح .

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١/٣٤١) .

ولئن أنكر عليهم النبي ﷺ الرجوع إلى كتب أهل الأديان السابقة، وفيها أشياء لم تطلها أيدي التحريف والتبديل بل مستندها الوحي، فماذا سيكون موقفه ﷺ ممن يرجع إلى عقله ويقدمه على شرع الله ووحيه، أو ممن يرجع إلى المنامات والخرافات والترهات، ولا يقيم وزنا للآيات البينات ولا الأحاديث الثابتات ؟!

ولئن تغير وجه النبي ﷺ وتمعر من شدة الغضب لما أوتي بصحائف من التوراة، فكيف سيكون موقفه ممن يدعو اليوم إلى التقارب بين الأديان !! بل إلى وحدة الأديان ؟!!

فإن كانت الأولى تشعر بالطعن في كمال الدين ففي هذه نقض للدين كله، وهي معول لهدمه .

وإن زمنا تنطلي فيه هذه المكيدة على عوام المسلمين وجهلتهم لهو زمن فتنة وشر فكيف بزمن وجد فيه من ينتسب إلى الدعوة إلى الله وربما عد من العلماء ومع ذلك يتبنى هذه الفكرة المنحرفة بل يجند نفسه للدفاع عنها والدعوة إليها .فإلى الله المشتكى .

(ودعوة المسلم إلى توحيد دين الإسلام مع غيره من الشرائع والأديان الدائرة بين التحريف والنسخ بشريعة الإسلام : ردة ظاهرة، وكفر صريح ؛لما تعلنه من نقض جريء للإسلام أصلا، وفرعا، واعتقادا، وعملا، وهذا إجماع لا يجوز أن يكون محل خلاف بين أهل الإسلام .وإنما دخول معركة جديدة مع عباد الصليب، ومع أشد الناس عداوة للذين آمنوا .فالأمر جد وما هو بالهزل)[1] .

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان للشيخ بكر أبو زيد ص : (٤٥) (دار العاصمة/ ط١/١٤١٧) .

٥/ عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ :

(لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر)[1] .

استدل بهذا الحديث على كمال الدين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهذا من بدائع استنباطاته، ومن أوضح الأدلة على دقة فهمه .

قال ابن القيم رحمه الله :

(سمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله يقول : جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا، وعلق وجودهم في هذه الأمة بإن الشرطية مع أنها أفضل الأمم لاحتياج الأمم قبلنا إليهم واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يحوج الأمة بعده إلى محدث وملهم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها)[2]

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(من تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون في أصول الدين والعلوم الإلهية وأمور المعاد والنبوات والأخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي كالمتفلسفة وغيرهم إلابعض ما جاء به القرآن ؛ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر وكتاب آخر، فضلا عن أن تحتاج إلى شيء لايستقل بنفسه غيره، سواء كان من علم المحدثين والملهمين، أو من علم أرباب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣/١٦)، رقم : (٣٦٨٩)، ومسلم في صحيحه : كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر (٤/١٨٦٤) رقم : (٢٣٩٨) .

(٢) مدارج السالكين (١/٤٩) .

النظر والقياس الذين لايعتصمون مع ذلك بكتاب منـــزل من السماء ؛ولهذا قال النـبي ﷺ في الحديث الصحيح :

(إنه كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر) .

فعلق ذلك تعليقا في أمته مع جزمه به فيمن تقدم ؛لأن الأمـــم قبلنـــا كـــانوا محتاجين إلى نبي بعد نبي، وأما أمة محمد ﷺ فأغناهم الله برسولهم وكتابهم عن كل مـا سواه، حتى إن المحدث منهم كعمر بن الخطاب ﷺ إنما يؤخذ منه ما وافق الكـــتاب والســـنة، وإذا حدث شيئا في قلبه لم يكن له أن يقبله حتى يعرضه علـــى الكتـــاب والسنة، وكذلك لايقبله إلا إن وافق الكتاب والسنة) [1] .

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٤٥) .

٦- ومن الأدلة على كمال الدين ما جاء عن النبي ﷺ من الأحاديث في الحث على التمسك بالوحيين والرجوع إليهما عند الاختلاف، والرد إليهما عند التنازع، والاكتفاء بهما لمن طلب الهداية .

وكذا ما جاء عنه ﷺ من الأحاديث في التحذير من البدع والمحدثات .

وبيان وجه دلالتها على كمال الدين فيما يلي :

(أ) وجه دلالة الأحاديث التي فيها الأمر بالتمسك بالوحيين على كمال الدين :

من المعلوم أن النبي ﷺ بعثه الله لهداية الناس ودلالتهم على أيسر السبل الموصلة إلى ذلك، فلم يفتح الله للناس بابا يلجون إليه منه إلا بابه، و لم ينصب لهم طريقا يصلون إليه منه إلا طريقه وسبيله، ولا يقبل الله من أحد دينا إلا ما جاء به، فالحق محصور في دينه وشرعه، والهدى لا يكون إلا فيما بينه ودل عليه ؛لذا لم يترك سبيلا من سبل الهدى إلا وبينه، ولا طريقا من طرق الرشاد إلا ندب الناس إليه، فلم يهمل من ذلك شيئا، و لم يكتم منه قليلا ولا كثيرا، فلما حث على لزوم الكتاب والسنة والاقتصار عليهما، ورغب في الرجوع إليهما عند التنازع والاختلاف بل والعض بالنواجذ عليهما، دل ذلك على أن ما فيهما من الحق والهدى يكفي العباد ويغنيهم، وأنهم لا يحتاجون إلى شيء آخر غيرهما، لا إلى ما يسمى بالعقليات، ولا إلى المنامات والمكاشفات، ولا إلى الهواتف وغيرها من تلك الترهات .

فحثه ﷺ على لزوم الكتاب والسنة، وتحذيره من التنكب عنهما، وعدم إرشاده في ابتغاء الحق إلى غيرهما دليل على أن ما فيهما كامل تام يكفي العبد ويغنيه في جميع أموره وشؤونه .

إذا ظهر هذا فكل ما جاء من النصوص في الأمر بلزوم الكتاب والسنة فهي دالة على كمال الدين وتمامه، وهي نصوص كثيرة ومشهورة منها :

١/ عن عبدالله بن مسعود ﷺ[١] قال : خط لنا رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما .

قال : ثم خط عن يمينه وشماله، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾[٢])[٣].

---

(١) هو الصحابي الجليل : عبدالله بن مسعود بن غافل، أبو عبد الرحمن، الهذلي البدري، حليف بني زهرة . قال الذهبي : (كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهد بدرا وهاجر الهجرتين، وكان يوم اليرموك على النفل، ومناقبه غزيرة، روى علما كثيرا) .توفي بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين، وقيل غير ذلك .

انظر : الاستيعاب لابن عبد البر (٧/٢٠)، السير (١/٤٦١) .

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٥٣) .

(٣) حديث صحيح ثابت، له عن عبدالله بن مسعود ﷺ طرق ثلاث :

الأولى : من طريق أبي وائل شقيق بن سلمة :

أخرجه الإمام حمد في المسند (٧/٢٠٧ الرسالة)، وابن أبي عاصم في السنة (١/٤٧)، والنسائي في التفسير (١/٤٨٥)، وابن جرير في جامع البيان (٨/٨٨)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/٨٩-٩٠) كلهم من طريق حماد بن زيد عن عاصم بن أبي النجود به .

وأخرجه أيضا الإمام أحمد في المسند (٧/٤٣٦ الرسالة)، والنسائي في التفسير (١/٤٨٧) من طريق أبي بكر بن عياش عن عاصم به .

فمدار هذه الطرق على عاصم وحديثه لا ينزل عن درجة الحسن، زد على هذا أنه لم ينفرد به بل توبع :

- تابعه الأعمش كما عند البزار (٥/١١٣)رقم (١٦٩٤) بإسناد صحيح .

- وتابعه أيضا منصور كما عند البزار كذلك (٥/٩٩) رقم (١٦٧٧) وسنده صحيح .

الثانية : من طريق زر بن حبيش :

أخرجه الآجري في الشريعة (١/٢٩٠)من طريق أبي بكر بن عياش عن عاصم به .

الثالثة : من طريق الربيع بن خثيم : أخرجه البزار (٥/٢٥١) رقم : (١٨٦٥) وسنده على شرط الشيخين .

=

٢/ عن العرباض بن سارية ﷺ[١] قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، قلنا يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع، فماذا تعهد إلينا ؟ قال :

(قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإن عبدا حبشيا)[٢] .

=

كما أن له شاهدا من حديث جابر بن عبد الله الذي أخرجه أحمد في المسند (٤١٧/٢٣ الرسالة)، وابن ماجه (١٥/١) رقم : (١١)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٧/١)، والآجري في الشريعة (٢٩٣/١)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٩٠/١)، ومداره على مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر، ومجالد ليس بالقوي، لكن قال عنه ابن عدي : (له عن الشعبي عن جابر أحاديث صالحة)، وهذا الحديث منها بلا مرية، فهو كما ترى حديث صحيح ثابت ؛لذا صححه غير واحد من الأئمة منهم الحاكم في المستدرك (٣١٨/٢)، والبغوي في شرح السنة (١٩٦/١-١٩٧)، والشيخ الألباني في التعليق على السنة لابن أبي عاصم .

(١) هو الصحابي الجليل : العرباض بن سارية، أبو نجيح، السلمي، من أعيان أهل الصفة، توفي سنة خمس وسبعين .

انظر : الاستيعاب (٣/ ١٦٦)، السير (٤١٩/٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٦٧/٢٨، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧ الرسالة)، وأبوداود في السنن : كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٢٠٠/٤-٢٠١) رقم : (٤٦٠٧)، والترمذي : كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة (٤٣/٣-٤٤) رقم : (٢٦٧٦-٢٦٧٧)، وابن ماجه في المقدمة، باب سنة الخلفاء الراشدين (٣٠/١) رقم : (٤٢-٤٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٧٠/١-٧٢) رقم : (٥٤-٥٩)، وابن جرير في جامع البيان (٢١٢/١٠)، والآجري في الشريعة (٤٠٠/١-٤٠٤) رقم : (٨٦-٨٩)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١١٦٣/٢-١١٦٤) .

وهو حديث صحيح، صححه جمع من الأئمة منهم : الترمذي حيث قال : (حديث حسن صحيح)، وقال البزار : (حديث ثابت صحيح) نقله عنه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١١٦٥/٢) ثم قال : (هو كما قال البزار رحمه الله حديث العرباض حديث ثابت). وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤٩٣/٢٨) (هذا حديث صحيح في السنن)، وقال الذهبي في السير (٤٨٣/١٧) (هذا حديث =

(ب) وجه دلالة الأحاديث التي فيها التحذير من البدع على كمال الدين :

للبدع أضرار عظيمة، ومفاسد جسيمة، فاقت أضرار المعاصي ومفاسدها، بل هي أحب إلى الشيطان من المعصية، فهي بريد الكفر، وطريق الضلالة، ودهليز الزندقة ؛لذا عظم النكير من النبي الأمين ﷺ ومن الصحابة والتابعين وممن تبعهم من الأئمة المهديين على كل من أحدث بدعة في الدين .

وإن من أعظم مفاسدها وأكبر أضرارها ما يلزم الواقع فيها أو المستحسن لها من اتهام الدين بالنقصان وعدم الإحاطة والشمول والكمال، فكل من ابتدع بدعة أو استحسنها فإنما يقول بلسان حاله أو مقاله : إن الدين لم يكمل بعد، بل فيه للزيادة مجال وللإحداث متسع، فلازم فعله إما القدح في الشرع واعتقاد نقصانه وعدم كماله، أو اتهام النبي ﷺ بالخيانة والتقصير، إذ لو اعتقد في حقيقة الأمر كمال الشريعة من كل وجه لما نصب نفسه منصب المشرع يستدرك على رسول الله ﷺ، ويشرع ما لم يأذن به الله .والشارع لم يكل شيئا من أمور الدين إلى آراء الرجال وزبالة أفكارهم، فلم يبق إلا الوقوف عند ما حده وشرعه، (ليس لأحد من خلق الله أن يخترع في الشريعة من رأيه أمرا لا يدخل عليه منها دليل)[1] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(من ابتدع في دينهم -أي الأنبياء- ما لم يأذن به الله، وما يخالف ما جاءوا به، لزم أن يكون دينهم ناقصا، وأنهم أتوا بالباطل، وهذا مناقض بلا ريب لما يجب من الإيمان بهم وتعزيرهم وتوقيرهم)[2] .

=

عال صالح الإسناد)، وقال ابن القيم في إعلام الموقعين (١٧٦/٤) : (هذا حديث حسن، إسناده لا بأس به)، وصححه الشيخ الألباني كما في الإرواء (١٠٧/٨)، والنصيحة ص : (٣١ وما بعدها) (دار ابن عفان/القاهرة/ط١/١٤٢٠) .

(١) الاعتصام (٤٦٦/١) .

(٢) تلخيص الاستغاثة (٥٠٢/٢) .

قال الشاطبي :

(البدع ثبت لها أمران :

أحدهما : أنها مضادة للشارع ومراغمة له، حيث نصب المبتدع نفسه منصب المستدرك على الشريعة لا منصب المكتفي بما حد له .

والثاني : أن كل بدعة وإن قلت تشريع زائد، أو ناقص، أو تغيير للأصل الصحيح، وكل ذلك قد يكون على الانفراد، وقد يكون ملحقا بما هو مشروع، فيكون قادحا في المشروع، ولو فعل أحد مثل هذا في نفس الشريعة عامدا لكفر ...)[1] .

وقال أيضا :

(المستحسن للبدع يلزمه عادة أن يكون الشرع عنده لم يكمل بعد فلا يكون لقوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[2] معنى يعتبر به عندهم، ومحسن الظن منهم يتأولها حتى يخرجها عن ظاهرها ...)[3] .

وبالنظر إلى هذا الاعتبار قيل بأن البدع ليس منها ما هو حقير بل كلها من الكبائر، وأنها أعظم من باقي الذنوب والمعاصي ما خلا الشرك بالله جل وعلا.

قال الشاطبي رحمه الله :

(لا ينظر إلى خفة الأمر في البدعة بالنسبة إلى صورتها وإن دقت، بل ينظر إلى مصادمتها للشريعة، ورميها لها بالنقص والاستدراك، وأنها لم تكمل بعد حتى يوضع فيها، بخلاف سائر المعاصي، فإنها لاتعود على الشريعة بتنقيص ولا غض من جانبها، بل صاحب المعصية متنصل منها، مقر لله بمخالفته لحكمها .

---

(١) الاعتصام (٣/٥٤٤) .

(٢) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٣) الاعتصام (١/١٤٧) .

وحاصل المعصية أنها مخالفة في فعل المكلف لما يعتقد صحته من الشريعة، والبدعة حاصلها مخالفة في اعتقاد كمال الشريعة)[1] .

والمقصود أنه إذا تقرر أن البدعة يلزم منها اتهام الشريعة بالنقصان وعدم الكمال فإن ما ورد من الأدلة في ذم البدع والتحذير منها دليل على إثبات ضد ما يلزم منها، أي أنها دالة باللزوم على أن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان ؛إذ لو لم تكن كذلك لندب الشارع إلى تكميلها، ولما تظافرت النصوص في ذم الاستدراك عليها وفي التحذير من البدع وأهلها .

فقد ورد في هذا الأمر أحاديث عديدة بأسانيد صحيحة أذكر منها تمثيلا لا استقصاء ما يأتي :

١/ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته :

(أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة)[2] .

٢/ عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[3] .

٣/ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجال منكم ثم ليختلجن دوني، فأقول : يارب أصحابي فيقال : إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك)[4] .

---

(١) الاعتصام (٢/٥٤٦) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب رفع الصوت في الخطبة وما يقول فيها (٢/٥٩٢) رقم: (٨٦٧) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (١/٢٦٧) رقم : (٢٦٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٣/١٣٤٣)، رقم : (١٧١٨) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الرقاق، باب في الحوض (٤/٢٠٥)، رقم (٦٥٧٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة ونعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٤/٢١٩٤)، رقم (٢٨٦٠) .

قال ابن القيم رحمه الله :

(ورود الناس الحوض وشربهم منه يوم العطش الأكبر بحسب ورودهم سنة رسول الله ﷺ وشربهم منها، فمن وردها في هذه الدار وشرب منها وتضلع، ورد هناك حوضه وشرب منه وتضلع، فله ﷺ حوضان عظيمان :

حوض في الدنيا وهو سنته وما جاء به .

وحوض في الآخرة .

فالشاربون من هذا الحوض في الدنيا هم الشاربون من حوضه يوم القيامة . فشارب ومحروم ومستقل ومستكثر، والذين يذودهم هو والملائكة عن حوضه يوم القيامة هم الذين كانوا يذودون أنفسهم وأتباعهم عن سنته ويؤثرون عليها غيرها . فمن ظمأ من سنته في هذه الدنيا و لم يكن له منها شرب فهو في الآخرة أشد ظمأ وأحر كبدا ...)[1] .

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص : (٨٥-٨٦) .

المطلب الثالث : أقوال السلف في إثبات كمال الدين :

تقدم أن القول بكمال الدين أصل من أصول اعتقاد السلف الصالح، وقاعدة عظيمة من قواعد مذهبهم، لذا أثرت عنهم كلمات عديدة ونقول مستفيضة تقرر هذا الأصل وتؤكده، حتى أضحى هذا الأمر عندهم محل إجماع، بل معلوما عندهم من الدين بالضرورة يكفرون من صرح بخلافه .

فهو قول الصحابة والتابعين من أهل العلم، نقلوه كابرا عن كابر، وقرنا بعد قرن، وخلفا عن سلف، وما يعلم أحد ممن تقدم أو تأخر ممن نسب إلى الإمامة في الدين والرسوخ في العلم قال ما يخالف هذا الأصل، فما صرح بخلافه إلا من رق دينه أو من طبع على قلبه واتهم في نيته وقصده .

ومما يدل على أنهم مجمعون على هذا الأصل أمور :

الأول : قال الشاطبي رحمه الله :

(... ثبت أن النبي ﷺ لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه في أمور الدين والدنيا، وهذا لا مخالف عليه من أهل السنة)[1] .

فقوله رحمه الله : (لا مخالف عليه من أهل السنة) يعتبر حكاية إجماع أهل السنة على هذا الأمر .وكيف لايجمعون عليه وقد ورد في إثباته ما قدمناه من النصوص الصريحة وهم الوقافون عندها لا يقدمون عليها عقلا ولا ذوقا ؟؟

الثاني : نقل عن الإمام أحمد رحمه الله أنه أخبر عن الكرابيسي[2] أنه ذكر قول الله تعالى :

---

(١) الاعتصام (١/٦٣-٦٤) .

(٢) هو : الحسين بن علي بن يزيد، أبو علي الكرابيسي، البغدادي . كان من أئمة المتكلمين، وهو أول من ابتدع الكلام في مسألة اللفظ ؛لذلك أمر الإمام أحمد بهجره. فصار يطعن في الإمام أحمد ويزري به، فلو لم تكن له إلا هذه لكفت في نبذه وإسقاطه ولا كرامة ؛إذ علامة أهل البدع الطعن في علماء أهل الأثر. مات سنة ثمان وأربعين ومائتين، وقيل غير ذلك .

=

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[1].

فقال : لو أكمل لنا ديننا ما كان هذا الاختلاف !!!

فقال الإمام أحمد رحمه الله : هذا الكفر صراحا)[2] .

فلو لم يكن هذا الأمر محل إجماع عند أهل السنة، ومعلوما عندهم من الدين بالضرورة لما نسب الإمام أحمد رحمه الله هذا القول إلى الكفر والضلالة ؛إذ الحكم بالكفر لا يطلق على من خالف في أمر يسوغ فيه الخلاف، بل على من خالف في أمر تضافرت فيه نصوص الكتاب والسنة، أو عليه إجماع الأمة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله :

﴿ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ ﴾[3].

وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين.

نعم من خالف الكتاب المستبين، والسنة المستفيضة، أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافا لايعذر فيه، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع)[4] .

=

انظر : السير (٧٩/١٢)، طبقات الشافعية الكبرى (١١٧/٢) .

(١) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٢) طبقات الحنابلة (٤٠/١) .

(٣) سورة النساء، الآية (٥٩) .

(٤) مجموع الفتاوى (١٧٢/٢٤) .

الثالث : عدم دخول الصحابة في شيء من الأهواء والبدع دليل على أنهم مجمعون على اعتقاد كمال الدين، فلم يعرف فيهم أحد نسب إلى بدعة من البدع بل كانو يكرهونها ويذمونها ويحذرون من أهلها أشد تحذير، والنصوص عنهم في ذلك أشهر من أن تذكر .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(أما الصحابة فلم يعرف فيهم -ولله الحمد- من تعمد الكذب على النبي ﷺ، كما لم يعرف فيهم من كان من أهل البدع المعروفة كبدع الخوارج، والرافضة والقدرية والمرجئة فلم يعرف فيهم أحد من هؤلاء الفرق)[1] .

والحاصل : أن هذا الأصل العظيم الذي هو اعتقاد كمال الدين ثبت بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وقرره أئمة الدين من أهل السنة، والنقول عنهم في ذلك كثيرة مستفيضة، أورد منها ما يلي :

١ / عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

(أيها الناس إنه لا عذر لأحد بعد السنة في ضلالة ركبها حسبها هدى ولا في هدى تركه حسبه ضلالة، فقد بينت الأمور وثبتت الحجة وانقطع العذر)[2] .

٢/ قال الشاطبي :

صح عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه خطب الناس فقال :

أيها الناس قد سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم على الواضحة إلا أن تضلوا بالناس يمينا وشمالا)[3] .

---

(١) قاعدة جليلة ص : (١٦١) .

(٢) الإبانة الكبرى (١/٣٢٠) رقم (١٦٢) .

(٣) الاعتصام (١/١٠٥)، وانظر المصدر نفسه (٢/٦٥٩) .

٣/ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال :

(اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم)[١] .

٤/ عن أبي ذر ﷺ قال :

(تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علما)[٢] .

٥/ عن حذيفة [٣] ﷺ قال :

(كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها، فإن الأول لم يدع للآخر مقالا، فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا بطريق من كان قبلكم)[٤] .

٦/ وعنه ﷺ قال :

(قام فينا رسول الله ﷺ مقاما ما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة، إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه)[٥] .

---

(١) أخرجه في الإبانة (٣٢٧/١) رقم (١٧٤-١٧٥)، و شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩٦/١) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٦٢،١٥٣/٥ الرسالة)، والطبراني في الكبير (١٦٦/٢) رقم (١٦٤٧)، والبزار أيضا رقم (١٤٧)، قال الشيخ الألباني : (إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات ..)، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤١٦/٤) رقم (١٨٠٣) .

(٣) هو : الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان بن جابر، أبو عبد الله، العبسي اليماني، حليف الأنصار، ومن أعيان المهاجرين .قال الذهبي : (من نجباء أصحاب محمد ﷺ، وهو صاحب السر)، توفي بالمدائن سنة ست وثلاثين .

انظر : الاستيعاب (٣٣٤/١)، السير (٣٦١/٢) .

(٤) الاعتصام (٦٣٠/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب القدر، باب كان أمر الله قدرا مقدورا (٢٧٠/٧) رقم : (٦٦٠٤)، ومسلم في صحيحه : كتاب الفتن، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٢١٦/٤) رقم : (٢٨٩١) .

٧/ عن عبيد بن عمير[١] قال :

(... إن الله تعالى ذكره لم يدع شيئا أن يبينه لكم أن يكون نسيه، فما قال الله كما قال الله، وما قال رسول الله كما قال رسول الله، وما لم يقل الله ولا رسوله فبعفو الله ورحمته، فدعوا ولا تبحثو عنه ...)[٢] .

٨/ قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله :

(قبض رسول الله ﷺ وقد تم هذا الأمر واستكمل، فإنما ينبغي أن تتبع آثار رسول الله ﷺ ولا يتبع الرأي، فإنه من اتبع الرأي جاء رجل آخر أقوى منه في الرأي فاتبعه، فأنت كلما جاء رجل غلبك اتبعته، أرى هذا لا يتم)[٣] .

٩/ وقال أيضا :

(من أحدث في هذه الأمة شيئا لم يكن عليها سلفها، فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[٤] ، فما لم يكن يومئذ دينا، فلا يكون اليوم دينا)[٥].

---

(١) هو : عبيد بن عمير بن قتادة، أبو عاصم، الليثي الجندعي، المكي، الواعظ المفسر، تابعي كبير ولد في حياة رسول الله ﷺ قال عنه الذهبي : كان من ثقات التابعين وأئمتهم بمكة، وكان يذكر الناس فيحضر ابن عمر رضي الله عنهما مجلسه .

انظر : طبقات ابن سعد (٤٦٣/٥)، السير (١٥٦/٤) .

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٥١٧/٤) رقم (٨٦٩٤)، والطبري في تهذيب الآثار (مسند عمر) (١٥٥/٢ تحقيق الرشيد)، بأسانيد مدارها على هارون وهو أبومحمد البربري، ثقة ثبت، فالأثر صحيح عن عبيد بن عمير .والله أعلم .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ : كتاب الحدود، باب ما جاء في الرجم (٨٢٤/٢) ،ورجاله ثقات، وأورده ابن القيم في الإعلام (١١٧/١)، وذكر أن ابن جرير ذكره في تهذيب الآثار، وانظر أيضا الاعتصام للشاطبي (٥٤٠/١) .

(٤) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٥) الاعتصام (٤٩٤/١) .

١٠/ وقال أحمد بن عمر الوكيعي[١] رحمه الله :

(وليت المظالم بمرو مدة اثنتي عشرة سنة، فلم يرد علي حكم إلا وأنا أحفظ فيه حديثا، فلم أحتج إلى الرأي، ولا إلى أهله)[٢] .

١١/ وحكى الطبري في تهذيب الآثار عن جماعة أنهم قالوا :

(لا شيء من أمر الدين إلا وقد بينه الله تعالى بنص عليه أو بمعناه) [٣] .

١٢/ قال الخطابي[٤] رحمه الله :

(لم يترك رسول الله ﷺ شيئا من أمرالدين، قواعده وأصوله، وشرائعه وفصوله، إلا بينه وبلغه على كماله وتمامه)[٥] .

١٣/ وقال ابن حزم[٦] رحمه الله :

---

(١) هو : أحمد بن عمر بن حفص، أبو جعفر الكندي الكوفي الجلاب الضرير، المشهور بالوكيعي .قال عنه الذهبي : الإمام الحافظ الثبت .مات سنة خمس وثلاثين ومائتين .
انظر : تاريخ بغداد (٢٨٤/٤)، السير (٣٦/١١) .

(٢) السير (١١/ ٣٧) .

(٣) قاله الشاطبي في الاعتصام (٦٥٩/٢) .

(٤) هو : حمد – بفتح الحاء وسكون الميم – ابن محمد بن إبراهيم بن الخطاب، أبو سليمان الخطابي البستي الشافعي، وقيل اسمه أحمد والأول هو الصحيح .ولد سنة تسع عشرة وثلاثمائة بمدينة بست، وتوفي بها سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة . له تآليف عدة في فنون متنوعة منها (أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري)، (غريب الحديث) وغيرهما .
انظر : السير (٢٣/١٧)، طبقات الشافعية الكبرى (٢٨٢/٣) .

(٥) الغنية عن الكلام، لخصه السيوطي في صون المنطق (١٤١/١) .

(٦) هو : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، أبو محمد الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القرطبي، اليزيدي مولى يزيد بن أبي سفيان، الوزير، الظاهري .ولد بقرطبة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وتوفي سنة ست وخمسين وأربعمائة، تواليفه كثيرة منها (المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار)، (الفصل في الملل والأهواء والنحل) وغيرهما .
انظر : السير (١٨٤/١٨)، شذرات الذهب (٢٩٩/٣) .

(والدين قد تم، ولا يحل لأحد أن يشرع بعد رسول الله ﷺ شرعا لم يشرعه عليه السلام، قال عز وجل :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[1] .

وقال تعالى :

﴿ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[2] .

فمن أجاز إحداث دين لم يشرعه الله تعالى على لسان رسول الله ﷺ أو أجاز إسقاط شيء من الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ، فهو خارج عن الإسلام بإجماع الأمة كلها، قال تعالى :

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾[3])[4] .

١٤ــ وقال أحمد بن الحسن البزاز[5] عقب قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ : (كل ما أحدث بعد نزول هذه الآية فهو فضلة وزيادة وبدعة)[6] .

١٥ــ وقال الهروي[7] رحمه الله :

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٢) سورة الشورى، الآية (٢١) .

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٢٩) .

(٤) الدرة فيما يجب اعتقاده ص : (٢٢٢) (تحقيق الحمد والقرقي/مطبعة المدني/ط١/١٤٠٨) .

(٥) هو : أحمد بن الحسن بن محمد، أبو حاتم، البزاز،الرازي، الحنبلي، الملقب بخاموش، شيخ أهل الري في زمانه، كان صاحب سنة واتباع .
انظر : السير (١٧/٦٤٢) .

(٦) نقله عنه تلميذه الهروي في ذم الكلام (١/١٧)، وذكره الذهبي في السير (١٨/٥٠٨-٥٠٩) .

(٧) هو : عبد الله بن محمد بن علي، أبو إسماعيل، الأنصاري، الهروي، ولد في شعبان سنة ست وتسعين وثلاثمائة، وتوفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، كان سيفا مسلولا على المبتدعة، وطودا في السنة، له مؤلفات عدة منها (ذم الكلام وأهله) و (كتاب الأربعين في دلائل التوحيد) وغيرهما .
=

(إن الله عز وجل لم يقبض إليه رسوله ﷺ حتى خار له، وأغنى به، وأكمل له الدين، وأتم به النعمة، فترك الأمة على واضحة ليلها كنهارها، وما من طائر يطير بجناحيه إلا وعندها فيه من نبيها علم إلا أن يضل عبد عمد عين، فكان من أواخر ما أنزل على نبيه ﷺ : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ... ﴾[1] الآية)[2] .

=

انظر : طبقات الحنابلة (٢/٢٤٧)، السير (١٨/٥٠٣) .

(١) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٢) ذم الكلام وأهله (١/٧-٨) .

المبحث الثاني : في بيان أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : في بيان الأدلة على أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين .

المطلب الثاني : في بيان أن بلاغ النبي ﷺ يشمل تبليغ الألفاظ وتوضيح المعاني .

المطلب الثالث : في بيان أن الصحابة هم أعلم الناس بالمعاني والألفاظ المبلغة فوجب اتباع فهمهم .

المبحث الثاني : في بيان أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين

لقد أناط الله جل وعلا سعادة الناس وفلاحهم وطمأنينة نفوسهم، وحياة قلوبهم بتحقيق الغاية العظيمة التي خلقهم من أجلها، ألا وهي معرفته سبحانه وتعالى، وعبادته على الوجه الذي يرضيه، قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

ولا ريب أن مدارك الناس وعقولهم قاصرة عن إدراك ذلك والوصول إليه، فهي لاتستقل بمعرفة الله المعرفة التفصيلية ولا تهتدي إلى معرفة ما يجب لله على العباد من الحقوق والواجبات، لذلك اقتضت رحمة العزيز الرحيم أن تكون بينه وبين خلقه واسطة في تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده، فاصطفى الله لهذه المهمة العظيمة، والمنزلة السنية، والمكانة العلية خير الخلق فجعلهم أمناء على وحيه، وكلفهم بأداء رسالاته والقيام بحجته في خلقه قال تعالى :

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[3] .

وقال تعالى :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة الذاريات، الآية (٥٦) .

(٢) سورة البقرة، الآية (٢١١) .

(٣) سورة النحل، الآية (٣٦) .

(٤) سورة فاطر، الآية (٢٤) .

وقد أوجب الله عليهم تبليغ رسالاته، وإرشاد عباده، بل حصر وظيفتهم في ذلك، فقال تعالى :

﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

وأخبر أنه سائلهم عن أداء الأمانة وتبليغ الرسالة فقال تعالى :

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾[2].

قال ابن القيم رحمه الله :

(يسأل الرسل عن التبليغ ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغهم الرسل ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين كما قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[3])[4].

لذلك شمروا عن ساعد الجد، وقاموا بتبليغ رسالات الله أحسن قيام، واجتهدوا في أداء الأمانة وتحملوا في سبيل ذلك المصاعب الجسام، وعاداهم الأقارب بله الأباعد، وبذلوا الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، فأنذروا حتى أعذروا، وبلغوا حتى ظهرت المحجة، وقامت على العباد الحجة، لذا تجد كل واحد منهم إذا يئس من قومه يذكرهم بأنه قد أدى ما أوجبه الله عليه، فهذا نوح عليه السلام يقول: ﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[5].

---

(١) سورة النحل، الآية (٣٥) .

(٢) سورة الأعراف، الآية (٦) .

(٣) سورة القصص، الآية (٦٥) .

(٤) إغاثة اللهفان (٨٣/١) .

(٥) سورة الأعراف، الآيتان (٦١-٦٢) .

ويقول شاكيا إلى الله إعراض قومه :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ ﴾[1].

وهذا صالح يقول لقومه :

﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ۝٧٩ ﴾[2].

وكذلك شعيب قال :

﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ۝٩٣ ﴾[3].

وقد شهد الله لهم كلهم بالبلاغ ومدحهم بذلك كما في قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩ ﴾[4].

قال ابن جرير رحمه الله :

(يقول تعالى ذكره : سنة الله في الذين خلوا من قبل محمد من الرسل، الذين يبلغون رسالات الله إلى من أرسلوا إليه، ويخافون الله في تركهم تبليغ ذلك إياهم، ولا

---

(١) سورة نوح، الآيات (٥-٩) .

(٢) سورة الأعراف، الآية (٧٩) .

(٣) سورة الأعراف، الآية (٩٣) .

(٤) سورة الأحزاب، الآية (٣٩) .

يخافون أحدا إلا الله، فإنه إياه يرهبون إن هم قصروا عن تبليغ رسالة الله إلى من أرسلوا إليه)[1] .

والمقصود أنه ما من رسول من رسل الله إلا وقد بلغ أمته ما أوحاه الله إليه، وإمامهم في هذا المقام بل وفي كل مقام هو نبينا محمد ﷺ فقد والله بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، فما لحق بالرفيق الأعلى حتى بلغ الدين كاملا وبين ما أنزل إليه بيانا شافيا لم يثنه عن ذلك ما لحقه من الشتم والأذى، ولا ما أصابه من البأساء والضراء وشتى أصناف الابتلاء، (فلم يزل ﷺ قائما بأمر الله لا يرده عنه راد، داعيا إلى الله لا يصده عنه صاد، إلى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت به القلوب بعد شتاتها وسارت دعوته مسيرة الشمس في الأقطار، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، فلما أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة على عباده المؤمنين، استأثر به، ونقله إلى الرفيق الأعلى من كرامته، والمحل الأرفع الأسنى من أعلى جناته، ففارق الأمة وقد تركها على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا من كان من الهالكين)[2] .

قال القاسمي رحمه الله :

(لاخفاء في أن النبي ﷺ قد بلغ البلاغ التام، وقام به أتم القيام، وثبت في الشدائد وهو مطلوب، وصبر على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب، وقد لقي بمكة من قريش مايشيب النواصي، ويهد الصياصي، وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلي، ويثبت ثبات المستولي، ثم انتصب لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته، وأحدقوا بجنباته وصار بإثخانه في الأعداء محذورا، وبالرعب منه منصورا، حتى أصبح سراج الدين وهاجا، ودخل الناس في دينه أفواجا ...)[3] .

وفيما يلي ذكر نبذ من الأدلة الدالة على هذا الأمر :

---

(١) جامع البيان (١٥/٢٢) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١٠٥/١) .

(٣) محاسن التأويل (٢٨٤/٦) .

المطلب الأول : في ذكر الأدلة الدالة على أن النبي بلغ البلاغ المبين .

إن تبليغ النبي ﷺ للدين من الأمور التي لا يجوز بحال أن يشك فيها من في قلبه ذرة من إجلال وتعظيم له ﷺ، فلا يرتاب في هذا الأمر إلا صاحب غرض دنيء، أو صاحب مرض أصيب في عقله، وإلا فكل من رزق العقل والإنصاف لن يجد بدا من الإقرار به ؛نظرا لكثرة الأدلة الدالة عليه وتظافرها، حتى أضحى أمرا معلوما من دين المسلمين بالضرورة، قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(من المعلوم من دين المسلمين أنه معصوم من الكتمان لشيء من الرسالة، كما أنه معصوم من الكذب فيها)[1] .

وفيما يلي ذكر لبعضها :

أولا : الأدلة من القرآن على أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين :

١ / قال تعالى مخاطبا نبيه ﷺ :

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[2].

هذه شهادة من الله جل وعلا لنبيه ﷺ بالتبليغ، فلو لم يرد من الأدلة إلا هذه الآية لكفت وأغنت لأنه لايطلب بعد شهادة الله جل وعلا شهادة أحد آخر غيره كائنا من كان، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فكفى بالله شهيدا .

قال ابن جرير رحمه الله :

(فما أنت يا محمد بملوم، لا يلومك ربك على تفريط كان منك في الإنذار، فقد أنذرت وبلغت ما أرسلت به)[3] .

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/١٥٥) .

(٢) سورة الذاريات، الآية (٥٤) .

(٣) جامع البيان (٢٧/١٠) .

وقال ابن القيم رحمه الله :

(شهد الله له –وكفى به شهيدا– بالبلاغ الذي أمر به فقال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[1])[2] .

٢ / قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾[3] .

ودلالة الآية على أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين من وجوه :

(أ) افتتاح الخطاب بوصف الرسول إيماء إلى أن هذا الوصف يقتضي تبليغ جميع المرسل به وأن كتمان شيء من ذلك يناقض هذا الوصف .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(معلوم أنه قد بلغ الرسالة كما أمر و لم يكتم منها شيئا، فإن كتمان ما أنزل الله إليه يناقض موجب الرسالة، كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة)[4] .

وقال محمد جمال الدين القاسمي :

(نودي ﷺ بعنوان الرسالة تشريفا له وإيذانا بأنها من موجبات الإتيان بما أمر به من التبليغ)[5] .

---

(١) سورة الذاريات، الآية (٥٤) .

(٢) الصواعق المرسلة (٢/٧٣٢) .

(٣) سورة المائدة، الآية (٦٧) ,

(٤) مجموع الفتاوى (٥/١٥٥) .

(٥) محاسن التأويل (٦/٢٨٣) .

(ب) قوله تعالى : ﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ .

فالتنصيص على وجوب التبليغ، وأنه أمر لا تراخي فيه ولا تخيير، دليل على أن النبي ﷺ الذي لا يتوانى في امتثال أمر ربه قد بلغ الرسالة كما أمر، ونصح الأمة حتى أعذر .

قال القرطبي رحمه الله :

(دلت الآية على رد قول من قال إن النبي ﷺ كتم شيئا من أمر الدين تقية، وعلى بطلانه، وهم الرافضة)[1] .

وقال الشوكاني :

(العموم الكائن في ﴿ مَآ أُنزِلَ ﴾ يفيد أنه يجب عليه ﷺ أن يبلغ جميع ما أنزل الله إليه، لا يكتم منه شيئا، وفيه دليل على أنه لم يسر إلى أحد مما يتعلق بما أنزل الله إليه شيئا ...)[2] .

(ج) قوله تعالى :

﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾.

أي إن لم تبلغ جميع ما أنزل إليك بل بلغت شيئا وكتمت شيئا فكأنك ما بلغت شيئا، فكتمان النزر اليسير من الرسالة ككتمانها كلها ؛لأن بعضها ليس أولى بالأداء من بعض، فهي أنزلت لتبلغ للناس كي يصدقوا بها ويعملوا بمقتضاها، فلابد من تبليغها كلها وللأمة بأسرها (ولأجل هذا حذف متعلق (بلغ) لقصد العموم أي بلغ ما أنزل إليك جميع من يحتاج إلى معرفته، وهم جميع الأمة، إذ لايدرى وقت حاجة بعض الأمة إلى بعض الأحكام، على أن كثيرا من الأحكام يحتاجها جميع الأمة)[3] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٤٢) .

(٢) فتح القدير (٢/٨٧) .

(٣) تفسير التحرير والتنوير (٢/٢٥٨) .

فلو أن النبي ﷺ ما بلغ جميع الرسالة إلى جميع الأمة لما أقره الله على ذلك لأنه معصوم من الإقرار على شيء يقدح في الرسالة .

(د) قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

فهذه عدة من الله جل وعلا لنبيه ﷺ بأنه سيحفظه من الناس ويعصمه من قتلهم فلا يقدرون على ذلك، وفي هذا حض له على التبليغ، وحث على الاجتهاد في أداء الرسالة لأنه لا يخاف أحدا من شيء يقوله أو يبلغه، فكثيرا ما يكون الخوف مانعا لكثير من المصلحين من الصدع بالحق والنصح للخلق ؛لأن العادة في كثير من الناس أنه إذا جاءهم ناصح أمين أو مصلح غيور لبسوا له جلد النمر فأحس من سوء الرد حر الجمر، إذ لا مناص له من بيان فساد عقائدهم، والنعي عليهم وعلى أسلافهم، الأمر الذي يغيضهم ويحملهم على التعرض له بشتى أنواع الأذى، فإذا أمن الناصح من وصول ضررهم إليه كان ذلك حافزا له في الانطلاق في دعوته غير آبه بكل ما من شأنه أن يثبطه عن بلوغ أمنيته، فهذا نبي الله موسى عليه السلام لما أرسله الله هو وهارون إلى فرعون :

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾[1].

فاعتذرا بالخوف من طغيان فرعون وإفراطه، لكن وعد الله لهما بالحفظ والنصر والتأييد، والإمداد بالحجة والبرهان كان حافزا لهما على أداء ما أوجبه الله عليهما من تبليغ الرسالة، وقال تعالى :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة طه، الآيتان (٤٥-٤٦) .

(٢) سورة الجن، الآيات (٢٦-٢٨) .

فالله سبحانه وتعالى يحفظ رسله بملائكته، ويحفظ ما ينـــزله إليهم من الوحـــي ليتمكنوا بهذا الحفظ والرصد من تبليغ رسالاته فيعلم الله ذلك واقعا .

قال الشوكاني :

(إن الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعا لما يظن أنه حامل على كتـــم البيان، وهو خوف لحوق الضرر من الناس، وقد كان ذلك بحمد الله فإنه بين لعباد الله ما نزل إليهم على وجه التمام)[1] .

ومما جاء في هذا المعنى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ [2].

قال ابن جرير رحمه الله :

(هذا حض من الله تعالى ذكره نبيه محمدا ﷺ على تبليغ رسالته، وإعلام منـــه أنه قد تقدم منه إليه القول بأنه سيمنعه من كل من بغاه سوءا وهلاكا، يقـــول جـــل ثناؤه : واذكر يا محمد إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس قـــــدرة، فـــهم في قبضتـــه لايقدرون على الخروج من مشيئته، ونحن مانعوك منهم، فلا تتهيب منهم أحدا وامـــض لما أمرناك به من تبليغ رسالـــتنا)[3] .

والمقصود أن الآية دلت على أن النبي ﷺ بلغ ما أمـــــره الله بتبليغـــه، لأن الله سبحانه وتعالى ألزمه بذلك وأوجبه عليه، وحذره من كتمان بعض ما أنزل إليـــه ؛لأن ذلك يناقض موجب الرسالة، كما أنه سبحانه وتعالى يسر له سبل أداء مهمته بـــــأن ضمن له العصمة في تبليغ رسالاته وأيده تأييدا عظيما حتى إنه لم يخف من شيء يقوله ويبلغه، فلا يسعه ﷺ بعد هذا كله إلا أن يمتثل أمر ربه ويبلغ رسالاته، وقد فعل ذلـك

---

(١) فتح القدير (٢/٨٧) .

(٢) سورة الإسراء، الآية (٦٠) .

(٣) جامع البيان (١٥/١٠٩) .

على أكمل الوجوه وأحسنها فلا يمكن لأحد أن يقول عليه إنه لم يفعل ما أمر به من تبليغ الرسالة ونصح الأمة وإقامة الحجة .

قال الشيخ محمد رشيد رضا[1] :

(إن قيل إن الله تعالى قد عصم الرسل عليهم السلام من كتمان شيء مما أمرهم بتبليغه، ولولا ذلك لبطلت حكمة الرسالة بعدم ثقة الناس بالتبليغ فما حكمة التصريح مع هذا بالأمر بالتبليغ، وتأكيده بجعل كتمان بعضه ككتمانه كله ؟

قلت – أي الشيخ رشيد رضا – : حكمته بالنسبة إلى الرسول ﷺ إعلام الله تعالى إياه بأن التبليغ حتم لا تخيير فيه، ولا يجوز كتمانه ولو مؤقتا بتأخير شيء منه عن وقته على سبيل الاجتهاد ؟ إذ كان يجوز لولا هذا النص أن يكون من اجتهاد الرسول تأخير بعض الوحي إلى أن يقوى استعداد الناس لقبوله، ولا يحملهم سماعه على رده، وإيذاء الرسول لأجله .

وحكمته بالنسبة إلى الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة بالنص، فلا يعذروا إذا اختلفوا فيها باختلاف الرأي والفهم)[2] .

٣/ الآيات التي فيها حصر مهمة النبي ﷺ في البلاغ :

كقوله تعالى :

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾[3] .

---

(١) هو : محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب . ولد سنة (١٢٨٢ هـ) وتوفي سنة (١٣٥٤ هـ)، كان عالما بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، من أشهر آثاره مجلة المنار التي أصدر منها أربعة وثلاثين مجلدا، ومن مؤلفاته (تفسير المنار) و (يسر الإسلام وأصول التشريع العام) وغيرهما .

انظر : الأعلام (١٢٦/٦) .

(٢) تفسير المنار (٤٦٩/٦) .

(٣) سورة آل عمران، الآية (٢٠) .

وقوله تعالى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١) .

وقوله تعالى :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾(٢) .

وقوله تعالى :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾(٣) .

ففي هذه الآيات حصر لمهمة النبي ﷺ في البلاغ عن الله جل وعلا، كما أن فيها تسلية له ﷺ، بحيث لا يهلك نفسه بالحزن على من لم ينتفع بالهدى الذي جاء به فذلك لم يكن من تفريط منه في أداء مهمته بل أداها على أحسن الوجوه وأتمها، وأما هداية الأمة فهو إلى ربها وباريها .

قال ابن جرير رحمه الله في تفسير آية النحل :

(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : فإن أدبر هؤلاء المشركون يا محمد عما أرسلتك به إليهم من الحق، فلم يستجيبوا لك وأعرضوا عنه، فما عليك من لوم ولا عذل ؛لأنك قد أديت ما عليك في ذلك، إنه ليس عليك إلا بلاغهم ما أرسلت به)(٤).

---

(١) سورة النحل، الآية (٨٢) .

(٢) سورة المائدة، الآية (٩٢) .

(٣) سورة الرعد، الآية (٤٠) .

(٤) جامع البيان (١٤/١٥٧) .

٤/ قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾ [1] .

قال ابن القيم رحمه الله :

(علم أن التوبة مشروعة عقيب الأعمال الصالحة، فأمر [الله] رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجا، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها فشرع له الاستغفار عقيبها)[2].

(١) سورة النصر .

(٢) إعلام الموقعين (١/٤٣٧) .

ثانيا : الأدلة من السنة على أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين :

١/ عن أبي هريرة ﷺ قال : قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره وقال :

(لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة[١] ، يقول : يارسول الله أغثني، فأقول : لا أملك لك شيئا، **قد أبلغتك**، وعلى رقبته بعير له رغاء[٢] يقول : يارسول الله أغثني فأقول : لا أملك لك شيئا، **قد أبلغتك**، وعلى رقبته صامت[٣] فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول : لا أملك لك شيئا، **قد أبلغتك**، أو على رقبته رقاع تخفق[٤]، فيقول : يارسول الله أغثني، فأقول : لا أملك لك شيئا، **قد أبلغتك**)[٥].

قال الحافظ ابن حجر : (قوله قد أبلغتك : أي فليس لك عذر بعد الإبلاغ)[٦] .

فهذه شهادة منه ﷺ لنفسه بأنه بلغ ما أمره الله بتبليغه، وهو الصادق المصدوق فمن شك في بلاغه فقد شك في صدقه وطعن في شهادته وهذا قدح في رسالته ونبوته .

---

(١) الحمحمة : صوت الفرس إذا طلب العلف، وهو دون الصهيل .
انظر : النهاية في غريب الحديث (٤٣٦/١) ، مختار الصحاح ص : (٦٦) .

(٢) الرغاء : صوت الإبل، يقال : رغا البعير، والناقة ترغو رغاء إذا صوتت فضجت .
انظر : النهاية في غريب الحديث (٢٤٠/٢)، لسان العرب (٣٢٩/١٤) .

(٣) أي الذهب والفضة، وقيل ما لا روح فيه من أصناف المال . انظر فتح الباري (٢١٥/٦) .

(٤) أي ما عليه من الحقوق المكتوبة في الرقاع، وخفوقها حركتها .انظر النهاية في غريب الحديث (٢٥١/٢) ، لسان العرب (١٣١/٨) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الغلول (٣٨٠/٢)، رقم : (٣٠٧٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة باب غلظ تحريم الغلول (١٤٦١/٣)، رقم :(١٨٣١) .

(٦) فتح الباري (٢١٥/٦) .

٢/ عن أبي حميد الساعدي[١] ﷺ أن رسول الله ﷺ استعمل عاملا فجاءه العامل حين فرغ من عمله فقال : يا رسول الله، هذا لكم، وهذا أهدي لي .

فقال له : (أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك فنظرت أيهدى لك أم لا ؟ ثم قام رسول الله ﷺ عشية بعد الصلاة فتشهد وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

(أما بعد فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول : هذا من عملكم وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر هل يهدى له أم لا ؟ فوالذي نفس محمد بيده، لا يغل أحدكم منها شيئا إلا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه : إن كان بعيراً جاء به له رغاء، وإن كان بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاة جاء بها تيعر، **فقد بلغت** .

قال أبو حميد : ثم رفع رسول الله ﷺ يده حتى إنا لننظر إلى عفرة إبطيه -وفي لفظ : ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه- **ألا هل بلغت** ؟ ثلاثا)[٢] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : (المراد بلغت حكم الله إليكم امتثالا لقوله تعالى : ﴿ **بلغ** ﴾، وإشارة إلى ما يقع في القيامة من سؤال الأمم هل بلغهم أنبياؤهم ما أرسلوا به إليهم)[٣] .

٣/ عن عبد الله بن عباس قال :كشف رسول الله ﷺ الستر ورأسه معصوب في مرضه الذي مات فيه، فقال : (اللهم هل بلغت ؟ ثلاث مرات ...)[٤] .

---

(١) هو الصحابي الجليل : عبد الرحمن، وقيل المنذر بن سعد، أبوحميد الساعدي، الأنصاري المدني، من فقهاء الصحابة، توفي رضي الله عنه سنة ستين، وقيل غير ذلك .
انظر : أسد الغابة (٤٥٣/٣)، السير (٤٨١/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب هدايا العمال (٣٣٧/٤)، رقم : (٧١٧٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال (١٤٦٣/٣) رقم : (١٨٣٢) .

(٣) فتح الباري (١٧٨/١٣) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، (٣٤٨/١) رقم (٤٧٩) .

٤/ حديث جابر بن عبد الله ﷺ في صفة حجة النبي ﷺ وفيه أن النبي ﷺ قال :

(... وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟

قالوا : **نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت .**

فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : اللهم اشهد، اللهم اشهد ثلاث مرات)[1] .

هذا الحديث صريح الدلالة على أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين، إذ شهد له بذلك خير الخلق بعد الأنبياء وأفضلهم وأعدلهم، وذلك في يوم عظيم، ومكان شريف، وفي أكبر اجتماع شهدوه مع النبي ﷺ، وهم أعلم الناس بشأنه وحاله في يقظته ومنامه، وأبصر الناس بما بذله من جهد في تبليغ رسالات ربه، ولوكتم النبي ﷺ شيئا -وحاشاه من ذلك- لما تواطؤوا على الشهادة له بما يخالف الواقع نظرا لما عرفوا به من الصدق والصدع بالحق، وأيضا لاستحالة اجتماع ذلك الجمع الكبير على مثل ذلك الأمر .

فالحديث يدل على أن الصحابة مجمعون على الشهادة للنبي ﷺ بالبلاغ المبين ؛ إذ لا يتصور وقوع الإجماع على مسألة بأبلغ من هذا الطريق .

ثم إن النبي ﷺ بعد ما شهدوا له بالبلاغ رفع أصبعه الكريمة إلى السماء فأشهد الله سبحانه وتعالى على شهادتهم تلك قائلا (اللهم اشهد) ثلاث مرات .

قال الحافظ بن حجر :

(وإنما قال ذلك لأنه كان فرضا عليه أن يبلغ، فأشهد الله على أنه أدى ما أوجبه عليه)[2] .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حج النبي ﷺ (٢/٨٨٧)، رقم : (١٢١٨) .

(٢) فتح الباري (٣/٦٧٣) .

وقد حصل هذا كما تقدم في مجمع عظيم ألا وهو يـــوم عرفـــة في خطبتـــه المشهورة، ثم إن النبي ﷺ أكد هذا الأمر في خطبته يوم النحر كما في الحديث التالي :

٥/ عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال :

(أتدرون أي يوم هذا ؟

قلنا : الله ورسوله أعلم .

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال : أليس يوم النحر ؟

قلنا : بلى .

قال : أي شهر هذا ؟

قلنا : الله ورسوله أعلم .

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال : أليس ذو الحجة ؟

قلنا : بلى .

قال : أي بلد هذا ؟

قلنا : الله ورسوله أعلم .

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال : أليس بالبلدة الحرام ؟

قلنا : بلى .

قال : فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، **ألا هل بلغت ؟**

قالوا نعم .

قال : اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، فـــلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (١/٥٢٨) رقم (١٧٤١) .

٦/ عن أبي هريرة ﷺ قال : بينا نحن في المسجد خرج رسول الله ﷺ فقال :

(انطلقوا إلى يهود، فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس، فقام النبي ﷺ فناداهم فقال : يا معشر يهود أسلموا تسلموا .

فقالوا : **بلغت يا أبا القاسم .**

قال : فقال لهم رسول الله ﷺ : ذلك أريد، أسلموا تسلموا .

فقالوا : **قد بلغت يا أبا القاسم .**

فقال لهم رسول الله ﷺ : ذلك أريد، ثم قالها الثالثة فقال : اعلموا أنما الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئا فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله)[1] .

دل هذا الحديث على أن النبي ﷺ قد أدى ما فرضه الله عليه من التبليغ حتى إنه شهد له بذلك اليهود الذين عرفوا بأنهم قوم بهت، لايكادون يعترفون لأحد بالفضل، والذين هم أشد الناس عداوة للنبي ﷺ والذين آمنوا، وقد قيل قديما : والفضل ما شهدت به الأعداء .

قال الحافظ ابن حجر :

(قول النبي ﷺ : (ذلك أريد) بضم أوله على صيغة المضارعة من الإرادة أي أريد أن تقروا بأني بلغت، لأن التبليغ هو الذي أمر به)[2] .

وقال أيضا :

((ذلك أريد) أي بقولي أسلموا، أي إن اعترفتم أنني بلغتكم سقط عني الحرج)[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلا** ﴾ (٤/٣٧١) رقم : (٧٣٤٨)، ومسلم في صحيحه كتاب الجهاد، باب إجلاء اليهود من الحجاز (٣/١٣٨٧) رقم : (١٧٦٥) .

(٢) فتح الباري (١٣/٣٢٧) .

٧ / الأحاديث التي فيها حث النبي ﷺ أمته على تبليغ ما سمعوه منه دالة على أنه ﷺ بلغ ما أمره الله بتبليغه، إذ لا يمكن أن يأمر أمته بأمر يخالفه هو ﷺ، فمن تلك الأحاديث قوله ﷺ :

(نضر الله امرء سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه، فرب مبلغ أحفظ له من سامع)[٢].

وقوله ﷺ :

(بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني اسرائيل ولاحرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)[٣] .

وقوله ﷺ :

(ليبلغ الشاهد الغائب)[٤] .

=

(١) المصدر السابق (٣٣٣/١٢) .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٢١/٧ الرسالة)، وأبو داود في كتاب العلم : باب فضل نشر العلم (٣٢٢/٣) رقم : (٣٦٦٠)، والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٣٣/٥-٣٤) رقم : (٢٦٥٦، ٢٦٥٧، ٢٦٥٨)، وابن ماجه في كتاب السنة، باب من بلغ علما، (١٥١/١-١٥٣) رقم : (٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢)كما رواه غيرهم عن عدة من الصحابة يبلغون بضعة وعشرين صحابيا من طرق عدة جمعها فضيلة شيخنا العلامة عبد المحسن العباد –حفظه الله – في كتابه المانع دراسة حديث نضر الله امرء سمع مقالتي، رواية ودراية، وهو كتاب مطبوع، خلص فيه إلى أن الحديث بلغ حد التواتر .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٤٩٣/٢)، رقم : (٣٤٦١) .

(٤) جزء من حديث أبي بكرة رضي الله عنه الذي تقدم ذكره قريبا .

فهذا حث منه ﷺ على الإبلاغ عنه، وترغيب لكل من سمع شيئا من الوحي أن يبلغه ولو كان آية واحدة (ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قل ليتصل بذلك نقل جميع ما جاء به ﷺ)[1] .

٨/ ما جاء عنه ﷺ من الأحاديث في التحذير والترهيب من كتمان شيء من العلم كقوله ﷺ :

(ما من رجل يحفظ علما فيكتمه إلا أتي به يوم القيامة ملجما بلجام من نار)[2] .

ولا يمكن للنبي ﷺ أن يخالف أمته إلى ما ينهاهم عنه ؛إذ فعل ذلك عند ذوي المروءة مستبشع ومستقبح، وهو من أكبر المقت، ومن الذنوب العظيمة قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾[3].

قال ابن حزم :

---

(١) انظر : فتح الباري (٦/٥٧٥) .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (١٣/١٧ الرسالة) رقم : (٧٥٧١)، وأبو داود : كتاب العلم، باب كراهية منع العلم (٣/٣٢١) رقم (٣٦٥٨)، والترمذي : كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم (٥/٢٩)، رقم : (٢٦٤٩)، وابن ماجه في كتاب السنة، باب من سئل عن علم فكتمه (١/١٦٩) رقم : (٢٦١)، كما رواه غيرهم .

وهو حديث صحيح صححه غير واحد من أهل العلم، قال الترمذي : (حديث أبي هريرة حديث حسن)، وقال الذهبي في كتاب الكبائر ص (١٤٦) : (إسناده صحيح)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم (٥٧١٣) .

(٣) سورة الصف، الآيتان (٢،٣) .

(نحن نقطع بأن رسول الله ﷺ لا يخالف أمر ربه تعالى، ولا يفعل ما نهى عنه أمته، هذا ما لا شك فيه عندنا، ومن شك في هذا أو أجاز كونه فهو كافر نتقرب إلى الله تعالى بالبراءة منه)[1] .

(١) المحلى (٨/٣٦١) (تحقيق أحمد شاكر/دار التراث/القاهرة) .

ثالثا : الآثار الواردة عن السلف :

وردت آثار كثيرة عن سلف هذه الأمة وأئمة الدين وعلماء المسلمين في الشهادة للنبي ﷺ بالبلاغ المبين وفيما يلي ذكر بعض النقول عنهم تؤكد ذلك وتقرره :

١/ إجماع الصحابة على الشهادة له بالتبليغ في مناسبات عدة ومواطن شتى منها يوم خطبهم النبي ﷺ بعرفة، ويوم النحر من حجة الوداع .

٢/ عن عائشة رضي الله عنها قالت لمسروق :

(من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا مما أنزل عليه فقد كذب، والله يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[1])[2] .

وفي لفظ :

(من زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾) .

٣/ وعنها رضي الله عنها قالت :

(لو كان محمد ﷺ كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [3])[4] .

---

(١) سورة المائدة، الآية (٦٧) .

(٢) أخرجه البخاري مختصرا في صحيحه، كتاب التفسير، باب﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ (٣/٢٢٤)، رقم (٤٦١٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ (١/١٥٩) رقم : (١٧٧) .

(٣) سورة الأحزاب، آية (٣٧) .

(٤) هذه الزيادة لم يخرجها البخاري، بل أخرجها مسلم في صحيحه : كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى﴾ (١/١٦٠) رقم : (١٧٧) .

٤ / عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

(كان رسول الله ﷺ عبدا مأمورا **بلغ -والله- ما أرسل به**، وما اختصنا دون الناس بشيء، ليس ثلاثا : أمرنا أن نسبغ الوضوء، وأن لا نأكل الصدقة، وأن لا ننزي حمارا على فرس)[1] .

٥/ عن ابن شهاب الزهري قال :

(من الله عز وجل الرسالة، ومن النبي ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم)[2] .

فلا يرتاب عاقل بعد هذه الأدلة في أن النبي ﷺ قد امتثل أمر ربه، وأدى ما أوجبه عليه من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة .لكن ثمت أمر من الأهمية بمكان ؛لابد من بيانه وبسط الكلام عليه، وهو أن تبليغه ﷺ ليس لألفاظ مجردة وحروف جوفاء لا يعرف معناها، ولا يدرى ما المراد منها، بل كان تبليغه ﷺ للرسالة شاملا لتبليغ ألفاظها وبيان معانيها .

وهذا ما سأبينه بعون الله وتوفيقه في المطلب التالي :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/٤٣٨ الرسالة)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب قدر القراءة في صلاة الظهر والعصر (١/٢١٤) رقم (٨٠٨)، والترمذي كتاب الجهاد، باب ما جاء في كراهية أن تنزى الحمر على الخيل (٤/١٧٨) رقم (١٧٠١)، والنسائي في كتاب الخيل، باب التشديد في حمل الحمير على الخيل (٦/٥٣٤) رقم (٣٥٨٣)، كما رواه غيرهم .

ومداره على موسى بن سالم أبي جهضم وهو ثقة .وقال عنه الترمذي : حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (١/١٥٣) رقم : (٧٢٣) (المكتب الإسلامي/ط١/١٤٠٩) .

(٢) أورده البخاري في صحيحه معلقا في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى :﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك فإن لم تفعل فما بلغت رسالاته**﴾، قال الحافظ في الفتح (١٣/٥١٣) : (هذا وقع في قصة أخرجها الحميدي في النوادر، ومن طريقه الخطيب، قال الحميدي : حدثنا سفيان قال قال رجل للزهري : يا أبا بكر قول النبي ﷺ ليس منا من شق الجيوب ما معناه ؟ فقال الزهري : من الله العلم، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم، وهذا الرجل هو الأوزاعي ...) .

المطلب الثاني : بيان أن بلاغ النبي ﷺ يشمل تبليغ الألفاظ وتوضيح المعاني

يسلك أهل الزيغ والفساد طرقا شتى وسبلا مختلفة لتأييد آراءهم وتقوية باطلهم ولعل من أخطر تلك الطرق وأقبحها محاولتهم إسقاط النصوص الشرعية، والحيلولة دون الاهتداء بها، وذلك بالطعن في ثبوتها وصحتها، أو في دلالتها ومعرفة المراد منها، فإذا تأتى لهم الوصول إلى هذه الغاية الدنيئة سهل عليهم أن يقولوا بعد ذلك ما شاءوا وأن يدسوا كل ما أرادوا .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

(لا ريب أن هذا عمدة كل زنديق ومنافق يبطل العلم بما بعث الله به رسله، تارة يقول : لا نعلم أنهم قالوا ذلك، وتارة يقول : لا نعلم ما أرادوا بهذا القول .

ومتى انتفى العلم بقولهم أو بمعناه لم يستفد من جهتهم علم فيتمكن بعد ذلك أن يقول ما يقول من المقالات، وقد أمن على نفسه أن يعارض بآثار الأنبياء، لأنه وكل ثغرها بذينك الدامحين الدافعين لجنود الرسول عنه الطاعنين لمن احتج بها)[1].

ولئن كان رد النصوص الشرعية مسلكا خطيرا قد يؤول بصاحبه إلى الكفر -عياذا بالله- فإن ادعاء أن النبي ﷺ لم يبين المراد منها أشد خطرا ؛لأن زاعم ذلك يظهر الإيمان بها وتعظيمها ثم يسلط عليها معاول التحريف، ويلوي أعناقها كي تؤيد بدعته وتنصر نحلته فإذا اختار لتلك التحريفات ألفاظا رنانة، وعبارات مزخرفة، وكساها بحلة من الفصاحة مزيفة، وأبطل مراد الله ومراد رسوله منها بإخراجه في صورة مستهجنه تنفر منه القلوب، وتنبوا عنه الأسماع، وذلك بأن يختار له أقبح الألفاظ ووحشيها، وأسمج العبارات وأردأها، فلا تسأل بعد ذلك كم من هالك سيتردى في تلك الهوة الساحقة، وكم من قتيل سيسقط ضحية لتلك التحريفات المزخرفة، فالحق قد صار باطلا، والباطل صار حقا أبلجا .

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/٨٩) .

قال ابن القيم رحمه الله :

(معلوم أنه إذا ازدوج التكلم بالباطل والسكوت عن بيان الحق تولد من بينهما جهل الحق وإضلال الخلق)[1] .

فالقول بأن النبي ﷺ لم يبين المراد بألفاظ القرآن، ولم يبلغ معاني الرسالة مطية لإفساد الدين، وإضلال العالمين، ومرقاة إلى الزندقة، وسبيل معبدة إلى الكفر والردة ؛ لذا وجب بيان بطلانه، وإظهار فساده، وأنه لا يمت إلى الحقيقة بصلة، فالنبي ﷺ لم يلحق بالرفيق الأعلى حتى بلغ الرسالة ألفاظها ومعانيها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه)[2].

وقال الشاطبي رحمه الله :

(قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[3]، وذلك التبليغ من وجهين : تبليغ الرسالة، وهو الكتاب، وبيان معانيه .

وكذلك فعل ﷺ وجزاه عنا أفضل الجزاء بمنه وكرمه، فأنت إذا تأملت موارد السنة وجدتها بيانا للكتاب، هذا هو الأمر العام فيها)[4].

وبيان هذا الأمر من وجوه :

الأول : وردت آيات كثيرة تبين أن الله سبحانه وتعالى نصب رسوله ﷺ منصب البيان لكتابه وشرعه، والكشف عن معاني خطابه، من ذلك :

(أ) قوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[5].

---

(١) الصواعق المرسلة (١/٣١٥) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٣١) .

(٣) سورة المائدة الآية (٦٧) .

(٤) الموافقات (٣/٢٣٠) (تحقيق مشهور حسن/دار ابن عفان/ط١/١٤١٧) .

(٥) سورة النحل الآية (٤٤) .

قال ابن عبد البر رحمه الله :

(يعني لتبين لهم مراد ربهم فيما احتمله التأويل من كتابهم الذي نزل إليهم)[1].

فالآية دالة على أن البيان الذي كلف به النبي ﷺ هو تبليغ اللفظ كما أنزل وتوضيح ما أشكل، وتفصيل ما أجمل .

قال ابن سعدي في معنى قوله تعالى : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ :

(هذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه)[2].

وقال ابن القيم رحمه الله :

(البيان الذي تكفل به سبحانه، وأمر به رسوله، إما أن يكون المراد به بيان اللفظ وحده، أو المعنى وحده، أو اللفظ والمعنى جميعا، ولا يجوز أن يكون المراد به بيان اللفظ دون المعنى، فإن هذا لا فائدة فيه، ولا يحصل به مقصود الرسالة، وبيان المعنى وحده بدون دليله، وهو اللفظ الدال عليه ممتنع فعلم قطعا أن المراد بيان اللفظ والمعنى)[3].

(ب) قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[4].

ومعلوم أن فصل النزاع في المسائل المختلف فيها لا يكون بألفاظ لا يعرف معناها ولا يدرى ما المراد منها، بل موارد النزاع لا تفصل إلا بالبراهين الواضحة والأدلة القاطعة .

(ج) قوله تعالى :

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾[5].

---

(١) التمهيد (٣٨١/٨) (وزارة الأوقاف المغربية/ط٢/١٣٩٩) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٠٦/٤)، وانظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (٣٣١/١٣) .

(٣) الصواعق المرسلة (٧٣٧/٢) .

(٤) سورة النحل، الآية (٦٤) .

(٥) سورة الدخان، الآية (١٣) .

و قوله تعالى :

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

قال القرطبي رحمه الله :

(﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أي يبين لهم ما بهم إليه حاجة)[2].

وحاجتهم إلى معرفة مراد الله بخطابه أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب والهواء ؛إذ لا حياة للقلوب ولا زكاة للنفوس إلا بأن تعقل عن ربها مراده ثم تعمل به وتذعن إليه، وأما قراءة الألفاظ من غير معرفة بمعانيها، وتدبر لها، وعمل بمقتضاها فلا يحصل به شيء من ذلك البتة .

(د) قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[3].

قال الطبري رحمه الله :

(يعني جل ثناؤه : ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ قد جاءكم محمد ﷺ ﴿ يُبَيِّنُ ﴾ يقول يعرفكم الحق ويوضح لكم أعلام الهدى ويرشدكم إلى دين الله المرتضى)[4] .

فهذه الآيات -وما في معناها- دالة على أن الله سبحانه كما اختار نبيه لتبليغ ألفاظ الرسالة ارتضاه كي يبين معانيها، ويوضح المراد منها و لم يكل سبحانه وتعالى ذلك إلى عقول الناس وأهوائهم .

قال ابن حزم رحمه الله :

(وليس البيان للديانة موكولا إلى الآراء والأهواء بل إلى رسول الله ﷺ الذي قال له ربه وباعثه : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾)[5].

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٢٩) .

(٢) أحكام القرآن (٨٢/١٦) .

(٣) سورة المائدة، الآية (١٩) .

(٤) جامع البيان (١٦٦/٦) .

(٥) المحلى (٩/٦) .

وكذلك فعل ﷺ فقيد المطلق، وخصص العام، وفصل المجمل فما لحق بالرفيق الأعلى حتى ترك الأمة على بينة من أمر دينها، لا يشكل عليها شيء من كتاب ربها، ومن أشكل عليه شيء فإنما أوتي من تقصيره أو سوء فهمه أو خبث طويته لا من قصور في بيان الله ورسوله ﷺ ، ففي (كل موضع ما يبين المراد باللفظ، فليس في القرآن العزيز - بحمد الله - إشكال بل هو مبين)[1].

قال ابن حزم رحمه الله :

(والله قد ضمن لنا بيان الدين بقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2]، فلا يجوز البتة أن يبقى في الدين شيء مشكل بل هو كله مقطوع على أنه بين بيانا جليا والحمد لله رب العالمين)[3].

الوجه الثاني : أن الصحابة رضوان الله عليهم قد شهدوا للنبي ﷺ بأنه بين لهم معاني القرآن كما بلغهم ألفاظه ويدل على ذلك ما يلي :

أ ـ عن أبي عبد الرحمن السلمي[4] قال :

(حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقرؤون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا : فعلمنا العلم والعمل)[5] .

---

(١) قاله شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (١١١/٨) .

(٢) سورة النحل، الآية (٤٤) .

(٣) المحلى (٨/ ٥٩٧) .

(٤) هو : عبد الله بن حبيب بن ربيعة، أبو عبد الرحمن، السلمي، الكوفي، من أولاد الصحابة، ولد في حياة النبي ﷺ، وتوفي سنة ثلاث وسبعين، وقيل غير ذلك .قال عنه الذهبي : الإمام العلم، مقرىء الكوفة، قرأ القرآن، وجوده، ومهر فيه، وكان ثقة رفيع المحل رحمه الله تعالى .
انظر : السير (٢٦٧/٤)، غاية النهاية في طبقات القراء (٤١٣/١) .

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٤١٠/٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٥٢/٧)، وابن سعد في الطبقات (١٧٢/٦)، وابن جرير في التفسير (٣٥/١)، والبيهقي في الكبرى (١١٩/٣)، ومدار إسناده على عطاء بن السائب، وهو ثقة تغير بأخرة، وساء حفظه .قال عنه الإمام أحمد كما في الميزان : (٧١/٣) : (ثقة ثقة، رجل صالح، ومن سمع منه قديما كان صحيحا) .وقد روى عنه هذا الأثر عدة، منهم : حماد =

فكان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه وفق منهج تعليمي دقيق وسديد ؛إذ كان يقتصر في تعليمهم على عشر آيات لا يزيدهم عليها، فيحفظون ألفاظها، ويعلمهم معانيها ثم يعملون بمقتضاها، فجمعوا بذلك بين الحفظ، والفهم، والعمل، لذا كانوا هم العلماء حقا، والعباد صدقا، وكل من جاء بعدهم لا يطمع أن يبلغ شأوهم .

يقول أبو عمرو بن العلاء[1] رحمه الله :

(ما نحن في من مضى إلا كحبة بقل في أصول نخل طوال)[2] .

ب ـ عن جابر بن عبد الله ﷺ قال :

(... ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به ..)[3] .

فهذا إخبار من جابر ﷺ أن النبي ﷺ كان يعلم تأويل القرآن أي تفسيره، ومدلولات ألفاظه .

قال ابن القيم رحمه الله :

بن زيد وهو ممن سمع منه قبل أن يتغير، قاله يحيى بن سعيد القطان كما في الميزان أيضا (٣/٧١)، فإسناده صحيح .

وله شاهد رواه ابن جرير في التفسير (١/٣٥) من حديث شقيق بن سلمة عن ابن مسعود ﷺ بإسناد صحيح أيضا .

(١) هو : زبان وقيل العريان بن العلاء بن عمار، أبو عمرو، التميمي، ثم المازني البصري، مولده في نحو سنة سبعين، وتوفي سنة أربع وخمسين ومائة، وقيل غير ذلك .كان صاحب سنة، برز في الحروف، وفي النحو وتصدر للإفادة مدة، واشتهر بالفصاحة، والصدق، وسعة العلم .

انظر : السير (٦/٤٠٧)، غاية النهاية في طبقات القراء (١/٢٨٨) .

(٢) أورده الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/١٣) (تحقيق المعلمي/دائرة المعارف العثمانية/الهند) .

(٣) هو قطعة من حديث جابر في وصف حجة النبي ﷺ وقد تقدم تخريجه .

(علمه صلوات الله وسلامه عليه بتأويله هو علمه بتفسيره وما يدل عليه، وعمله به هو تأويل ما أمر به ونهى عنه)[1] .

فلولا أن النبي ﷺ كان يعلم أصحابه تأويل القرآن كما يعلمهم ألفاظه لما أمكن جابر بن عبد الله أن يطلع على علم النبي ﷺ بذلك، وأيضا لو لم يعلمهم تأويل القرآن، وهو يعلمه لكان كاتما للعلم، ولا يخفى ما في هذا القول من القبح والشناعة، والحط من مقام النبوة والرسالة .

الوجه الثالث : أن الله سبحانه وتعالى أمر بتدبر القرآن ورغب فيه، وقد جاء ذلك في نصوص كثيرة، منها :

قوله تعالى :

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[2].

وقوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[3] .

وقوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[4].

وقوله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[5].

---

(١) الصواعق المرسلة (١/١٨١) .

(٢) سورة ص، الآية (٢٩) .

(٣) سورة محمد، الآية (٢٤) .

(٤) سورة النساء، الآية (٨٢) .

(٥) سورة المؤمنون، الآية (٦٨) .

ولا يعقل تدبر ألفاظ لا يعرف معناها ولا المراد بها، فلو لم يبلغ النبي ﷺ أمته معاني القرآن كما بلغهم ألفاظه لكان أمر الله عباده بتدبر القرآن من تكليف ما لا يطاق .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(إذا كان قد حض الكفار والمنافقين على تدبره علم أن معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها، فكيف لا يكون ذلك ممكنا للمؤمنين، وهذا يبين أن معانيه كانت معروفة بينة لهم)[1] .

الوجه الرابع : أخبر الله جل وعلا في غير ما آية أنه أنزل القرآن عربيا حتى تعلم معانيه، ويعقل المراد منه، ومن ذلك ما يلي :

قوله تعالى :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ﴾[2].

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ﴾[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(بين أنه أنزله عربيا لأن يعقلوا، والعقل لا يكون إلا مع العلم بمعانيه)[4].

الوجه الخامس : أن النبي ﷺ حث على مدارسة القرآن كما رغب في تلاوته فقال : (... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)[5].

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/١٥٧-١٥٨) .

(٢) سورة يوسف، الآية (٢) .

(٣) سورة الزخرف، الآية (٣) .

(٤) مجموع الفتاوى (٥/١٥٨) .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٤/٢٠٧٤) رقم (٢٦٩٩) .

فذكر في الحديث أمرين : تلاوة القرآن، ومدارسته. ولاشك أنهما أمران مختلفان متغايران : فتلاوته تعني قراءة حروفه، ومدارسته تعني تدبره وفهم معانيه، فتعليق النبي ﷺ هذا الثواب العظيم بقراءة القرآن وتدبره دليل على أن ألفاظ القرآن ومعانيه كانت معلومة عند الأمة، متيسر معرفتها والوصول إليها، وإلا فتعليق الثواب الجزيل بأمر مستحيل يجعل الحديث من لغو الكلام، ومن الاستخفاف بعقول الأنام .

الوجه السادس : أن النبي ﷺ اجتمعت فيه مقومات البيان فجمع بين العلم بمراد الله، وبين الفصاحة والقدرة على البيان، والنصح للخلق والحرص على هدايتهم.

أما علمه ﷺ بمراد الله بخطابه وبما أنزله في كتابه فهو أشهر من أن نحتاج إلى وصفه وبيانه .

وأما الفصاحة والقدرة على البيان فقد كان ﷺ ابن بجدتها[1] الذي لا يشق له غبار، ولا يلحقه في ذلك الفحل الخنذيذ[2] من الشعراء، ولا البليغ المصقع[3] من الخطباء، ولا العربي اللسن من أهل المدر أو الوبر، ولا من أهل البدو أو الحضر، بل (لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ)[4].

وأما حرصه على هداية الناس وإسداء النصح للخلق فقد بلغ فيه ﷺ الغاية القصوى التي لا مجال للزيادة فيها، فلو لم يدل على هذا إلا أن الله الذي هو أرحم

---

(١) يقال ابن بجدتها : للعالم بالشيء، المتقن له، المميز له، والدليل الهادي، ولمن لا يبرح عن قوله .
انظر القاموس (٣٩٢/١)، لسان العرب (٧٧/٣) .

(٢) هو : الشاعر المجيد المنقح المفلق، وهو أول طبقات الشعراء، قال الجاحظ : (الشعراء عندهم أربع طبقات، فأولهم : الفحل الخنذيذ، والخنذيذ هو التام ...) .
انظر : البيان والتبين (٩/٢)، القاموس (٤٧٩/١)، لسان العرب (٤٨٩/٣) .

(٣) المصقع : مفعل من الصقع، ومفعل من أبنية المبالغة، والصقع هو رفع الصوت وهو البلاغة في الكلام والوقوع على المعاني .يقال : خطيب مصقع ومسقع وخطيب مسحل ومثله شحشح وهو : الماهر في الخطبة الماضي فيها، والذي لا يرتج عليه ولا يتتعتع في كلامه .انظر : لسان العرب (٢٠٣/٨)، غريب الحديث للخطابي (٤٩٩/٢) (تحقيق العزباوي/مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى/١٤٠٢) .

(٤) قاله الجاحظ في البيان والتبين (١٨/٢) .

الراحمين لامه وعاتبه على شدة حرصه لكفى وأغنى، فكيف وسيرته ﷺ مليئة بما يدل عليه ناطقة به وشاهدة عليه ؟

فإذا تقرر أن النبي ﷺ جمع بين العلم بمراد الله، والقدرة على بيانه، والحرص على هداية الناس استحال بعد ذلك أن يسكت عن بيان معنى الكتاب، وإظهار فحوى الخطاب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(فإذا كان الرسول أعلم الخلق بالحقائق الخبرية والطلبية، وأحب الخلق للتعليم والهداية والإفادة، وأقدر الخلق على البيان والعبارة امتنع أن يكون من هو دونه أفاد خواصه معرفة الحقائق أعظم مما أفادها الرسول لخواصه)[1] .

الوجه السابع : أن القول بأن النبي ﷺ لم يبين معاني القرآن تلزم منه لوازم فاسدة تدل على بطلانه وفساده، من ذلك أنه يلزم منه الطعن إما في النبي ﷺ، أو في أصحابه .

قال ابن القيم رحمه الله :

(هذا يستلزم الطعن والقدح في بيان المتكلم وفصاحته، أو في فهم السامع وذهنه، أو فيهما معا، فإن عدم العلم بمراده إن كان لتقصير في بيانه كان ذلك قدحا فيه، وإن كان لقصور فهم السامع كان كذلك، فإذا كان المتكلم تام البيان، والمخاطب تام الفهم فكيف يتخلف العلم عنه بمراده ؟!)[2] .

الوجه الثامن : أن عناية النبي ﷺ ببيان مراد الله بخطابه، ومعاني كتابه أعظم من عنايته بتبليغ الألفاظ مجردة وذلك لما يأتي :

أولا : لأن حاجة الأمة إلى معرفة المعنى أشد من حاجتها إلى معرفة الألفاظ دون فهم المراد منها .

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/١٤٢)، وانظر : المصدر نفسه (١٣/١٣٤)، والصواعق المرسلة (٢/٦٥١) .

(٢) الصواعق المرسلة (٢/٦٤٥) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(معرفة ما جاء به الرسول وما أراده بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم، والإيمان، والسعادة، والنجاة)[1].

الثاني : من المعلوم أن القصد من الألفاظ هو إفهام الناس، وإيصال المعاني إليهم فالمعاني هي المقصودة والألفاظ وسيلة إليها، والمقاصد أشرف من الوسائل، وأما إن كان اللفظ مقصودا أيضا فإن المعنى أعظم المقصودين .

قال ابن القيم رحمه الله :

(والله تعالى أنزل كتابه، ألفاظه ومعانيه، وأرسل رسوله ليبين اللفظ والمعنى، فكما أنا نقطع ونتيقن أنه بين اللفظ، فكذلك نقطع ونتيقن أنه بين المعنى، بل كانت عنايته ببيان المعنى أشد من عنايته ببيان اللفظ، وهذا هو الذي ينبغي، فإن المعنى هو المقصود وأما اللفظ فوسيلة إليه ودليل عليه، فكيف تكون عنايته بالوسيلة أهم من عنايته بالمقصود ؟! وكيف نتيقن بيانه للوسيلة ولا نتيقن بيانه للمقصود ؟! وهل هذا إلا من أبين المحال ؟

فإن جاز عليه أن لا يبين المراد من ألفاظ القرآن، جاز عليه أن لا يبين بعض ألفاظه)[2].

الثالث : من المعلوم أيضا أن حفظ المعاني أيسر من حفظ الألفاظ، فعامة الناس إذا سمعوا كلاما حفظوا معناه وضبطوا فحواه، أما حفظ الخطب بألفاظها وضبط الكلام بحروفه فلا يستطيعه إلا النزر القليل منهم .

قال ابن القيم رحمه الله :

(لما بلغ الرسول ألفاظ القرآن للأمة بلغهم معانيه، بل كانت عنايته بتبليغ معانيه أعظم من مجرد تبليغ ألفاظه، ولهذا وصل العلم بمعانيه، إلى من لم يصل إليه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٣٥٥) .

(٢) الصواعق المرسلة (٢/٧٣٧ –٧٣٨) .

حفظ ألفاظه، والنقل لتلك المعاني أشد تواترا وأقوى اضطرارا، فإن حفظ المعنى أيسر من حفظ اللفظ، وكثير من الناس يعرف صورة المعنى ويحفظها، ولا يحفظ اللفظ، والذين نقلوا الدين عنه علموا مراده قطعا، لما تلا عليهم من تلك الألفاظ)[1] .

وبالجملة فالنبي ﷺ قد بلغ أصحابه ألفاظ الرسالة، وعلمهم معانيها و لم يلحق بالرفيق الأعلى حتى عقلوا عنه ذلك كله على أحسن الوجوه وأتمها، فلا غرو إذن أن يكونوا هم أهل الرأي السديد والفهم الصحيح، لذا وجب اتباع نهجهم، وسلوك طريقهم، ولزوم فهمهم، وهذا ما سأبينه في المطلب الآتي :

(١) الصواعق المرسلة (٢/٦٣٦) .

المطلب الثالث : وجوب الأخذ بفهم الصحابة ؛لأنهم أعلم الناس بالألفاظ والمعاني المبلغة .

إذا تقرر أن النبي ﷺ بلغ الرسالة و لم يكتم منها شيئا، وبين معانيها فلم يغفل مما تحتاج الأمة إلى بيانه قليلا ولا كثيرا، فإن الصحابة الذي سمعوا ذلك منه شفاها، وتلقوه غضا طريا، ووصل إليهم عاليا، هم الذين لهم في العلم النافع منارا عاليا، وفي الإصابة في الفهم مكانا ساميا، وهم (الذين عرفوا مقاصد الشريعة فحصلوها، وأسسوا قواعدها وأصلوها،وجالت أفكارهم في آياتها، وأعملوا الجد في تحقيق مبادئها وغاياتها، وعنوا بعد ذلك باطراح الآمال، وشفعوا العلم بإصلاح الأعمال، وسابقوا إلى الخيرات فسبقوا، وسارعوا إلى الصالحات فما لحقوا، إلى أن طلع في آفاق بصائرهم شمس الفرقان، وأشرق في قلوبهم نور الإيقان، فظهرت ينابيع الحكم منها على اللسان، فهم أهل الإسلام والإحسان والإيمان، وكيف لا ؟ وقد كانوا أول من قرع ذلك الباب، فصاروا خاصة الخاصة ولباب اللباب، ونجوما يهتدي بأنوارهم أولو الألباب)[1] .

فهم الذين بلغوا في العلم النافع مكانا لا يطمع من بعدهم في الوصول إلى ما دونه، وفي الفهم الصحيح مقاما تقف عنده فحول الرجال لا يعدونه، بل لا يقربونه ؛ لذا قال عنهم الشافعي رحمه الله وهو من هو في العلم والفهم :

(هم فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع وعقل، وأمر استدرك به علم، وآراؤهم لنا أحمد، وأولى بنا من رأينا)[2].

وقال ابن القيم رحمه الله :

(نسبة من بعدهم في العلم إليهم كنسبتهم إليهم في الفضل والدين)[1].

---

(١) الموافقات (١/٧) .

(٢) انظر : مناقب الشافعي للبيهقي (١/٤٤٣)، وآداب الشافعي للرازي ص : (٤٩)، وإعلام الموقعين (١/١١٩) و (٤/١٥٣) .

وليست هذه دعوى تدعى، ولا فرية تفترى، بل هي الحق بدلائلـــه، وعـــين الصواب بشواهده، وفيما يلي ذكر أوجه مختصرة تدل على هذا الأمر وتشهد له :

الوجه الأول : شهد الله جل وعلا لصحابة نبيه ﷺ بالعلم فقال عز وجل :

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾[٢].

قال قتادة [٣] :

(هم أصحاب النبي ﷺ)[٤] .

وقال تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾[٥].

قال ابن زيد [٦] : (الذين أوتوا العلم : الصحابة رضي الله عنهم)[٧].

فقد (وصفهم بكونهم أولي العلم، وهذا يدل على اختصاصهم به، وأنهم أهلـه وأصحابه ليس بمستعار لهم)[٨].

---

(١) إعلام الموقعين (١٨٦/٤) .

(٢) سورة سبأ، الآية (٦) .

(٣) هو : قتادة بن دعامة، أبو الخطاب، السدوسي، البصري، الضرير، الأكمه، ولد سنة ستين، ومات سنة سبع عشرة ومائة، وقيل غير ذلك .كان من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل في الحفظ، وصفه الذهبي بأنه : (حافظ العصر، وقدوة المفسرين والمحدثين) .

انظر : طبقات ابن سعد (٢٢٩/٧)، السير (٢٦٩/٥) .

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٦٢/٢٢) .

(٥) سورة محمد، الآية (١٦) .

(٦) هو : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، العمري، المدني، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة، كان صاحب قـرآن وتفسير، جمع تفسيرا في مجلد، وكتابا في الناسخ والمنسوخ .

انظر : الجرح والتعديل (٢٣٣/٥)، ميزان الاعتدال (٥٦٥/٢) .

(٧) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥١/٢٦) .

(٨) مفتاح دار السعادة (٢٢٠/١) .

قال ابن عبد البر رحمه الله :

(الصحابة هم أولوا العلم والفضل، وخير أمة أخرجت للناس وخير القرون، ومن قد رضي الله عنهم، وأخبر بأنهم رضوا عنه، وأثنى عليهم بأنهم هم الرحماء بينهم الأشداء على الكفار، الركع السجد وأنهم الذين أوتوا العلم، قال مجاهد وغيره في قول الله تعالى : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾[1]، قال : أصحاب محمد ﷺ ...)[2] .

قال ابن القيم رحمه الله :

(واللام في (العلم) ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي العلم الذي بعث الله به نبيه ﷺ)[3].

فهذه شهادة من الله جل وعلا -وحسبك بها شهادة- بأن الصحابة هم الذين أوتوا العلم الذي بعث به النبي ﷺ، والذي مداره على ألفاظ الوحي ومعانيه .

الوجه الثاني : ما ورد من الأخبار في فضائلهم ؛وما جاء من الآثار في مناقبهم دليل على أن لهم بالعلم النافع عناية، وفي الفهم الصحيح قدمة ؛لأن فضيلة العلم، ومعرفة الصواب أكمل الفضائل وأشرفها، كما أنه من أفضل العبادات وأزكاها .

قال ابن القيم رحمه الله :

(من أدرك العلم لم يضره ما فاته بعد إدراكه ؛إذ هو أفضل الحظوظ والعطايا، ومن فاته العلم لم ينفعه ما حصل له من الحظوظ، بل يكون وبالا عليه وسببا لهلاكه)[4].

---

(١) سورة سبأ، الآية (٦) .

(٢) التمهيد (٤/٢٦٥) .

(٣) إعلام الموقعين (٤/١٦٥) .

(٤) مفتاح دار السعادة (١/٤٠٠) .

فالنصوص دلت على أن الصحابة هم الذين حازوا المكارم، واستولوا على المناقب، ولا أحد ممن جاء بعدهم يطمع أن يبلغ شأوهم، فهم صفوة الأمة، وقرنهم خير القرون، وقلوبهم أبر القلوب، وهم أصدق الناس لهجة، وأسلمهم فطرة، وأخلصهم قصدا ونية، الذين عرفوا بأحسن الشمائل، وبهم عرفت الفضائل، فلم يدعوا خصلة من خصال الخير إلا أتوها، ولا شعبة من شعب الإحسان إلا بادروا إليها، ولا خطة رشد إلا سبقوا إليها، فكل أمر لم يفعلوه كان حقا أن يقال فيه : لو كان خيرا لسبقونا إليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

(كانوا - أي الصحابة - أحرص شيء على الخير)[1] .

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله [2] :

(ما أعطاكم الله خيرا خبيء عنهم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، وخيرته من خلقه)[3].

فقمن بقوم هذه حالهم، وحري بقرن هذا نعتهم أن يكونوا في العلم النافع أرفع الأمة درجة، وفي الفهم السديد أعلاهم قدرا ورتبة، وإلا كيف استحقوا تلك الخيرية ؟ وبما نالوا تلك الرتب السنية ؟ أبمجرد عيشهم في ذلك الزمان أو المكان ؟ فقد عاش معهم وبين ظهرانيهم في ذلك الزمان وفي نفس المكان أئمة النفاق وأساطينه !! أم أنهم نالوها بمجرد الإكثار من الصلاة والصيام وقراءة القرآن، فقد جاء بعدهم من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكل فهو جائز (٢/١٤٩) رقم (٢٣١١) .

(٢) هو : إبراهيم بن يزيد بن قيس، أبو عمران، النخعي، اليماني، ثم الكوفي، مات سنة ست وتسعين، كان إماما حافظا، مفتي أهل الكوفة هو والشعبي في زمانهما، وكان رجلا صالحا، فقيها متوقيا قليل التكلف، قال عنه الإمام أحمد : (كان إبراهيم ذكيا، حافظا، صاحب سنة)، وكان مختفيا من الحجاج .
انظر : الجرح والتعديل (٢/١٤٤) (تحقيق المعلمي/دائرة المعارف/الهند/ط١)، السير (٤/٥٢٠) .

(٣) أورده عبد الله بن أحمد بن حنبل في (كتاب السنة) (١/١٣٨)، وأبو شامة في البدع والحوادث ص : (٨٩) .

فاتهم في هذا، ومع ذلك لم يطمع في اللحاق فضلا عن السباق، وما خبر الخوارج منا ببعيد، إذ كانت عبادة الصحابة إلى جنب عبادتهم تحتقر، وتنسك الصحابة بالنسبة إلى نسكهم يستقل، إلا أن ذلك لم يزدهم من الله إلا بعدا ؛لأن (الفضل ليس بكثرة الاجتهاد، ولكن بالهدى والسداد) [1].

قال الآجري رحمه الله [2] :

(لم يختلف العلماء قديما وحديثا أن الخوارج قوم سوء، عصاة لله تعالى، ولرسوله ﷺ، وإن صلوا وصاموا واجتهدوا في العبادة فليس ذلك بنافع لهم، ويظهرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وليس ذلك بنافع لهم ...)[3].

فما بهذا ولا بذاك وحده صاروا أئمة الهدى، وقادة الورى، بل لشدة متابعتهم للنبي ﷺ، وأخذهم أنفسهم بالعمل على سنته ووفق هديه، فقرنوا بين العلم النافع والعمل الصالح، وجمعوا بين صحة الفهم وحسن القصد، فهداهم الله سبله، وآتاهم فرقانا .

قال ابن القيم رحمه الله :

(صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم الله بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة.

---

(١) دقائق التفسير (٢/١٦٩) (تحقيق الجليند/مؤسسة علوم القرآن، دمشق/ط٢/١٤٠٤) .

(٢) هو : محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر، البغدادي، الآجري، مات بمكة في المحرم سنة ستين وثلاث مائة، كان صدوقا، خيرا، عابدا، صاحب سنة واتباع، له تواليف كثيرة منها : (كتاب الشريعة) و(أخلاق العلماء) وغيرهما .

انظر : تاريخ بغداد (٢/٢٤٣)، السير (١٦/١٣٣) .

(٣) كتاب الشريعة (١/٣٢٥) (تحقيق الدميجي/دار الوطن/ط١/١٤١٨) .

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق وترك التقوى)[1] .

الوجه الثالث : أن الصحابة شهدوا لأنفسهم بالعلم، ومدح بعضهم بعضا بالفقه وحسن الفهم، وهم في مدحهم صادقين غير كاذبين، وما شهدوا إلا بما علموا غير متشبعين بما ليس فيهم ولا متزيدين، إذ إن عدالتهم ثابتة لاترد، وصدقهم معلوم لايدفع .

وفيما يلي بعض ما ورد عنهم في ذلك :

أ/ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :

(من كان متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوما اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)[2] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقا على كلام ابن مسعود هذا بأنه :

(كلام جامع، بين فيه حسن قصدهم ونياتهم ببر القلوب، وبين فيه كمال المعرفة ودقتها بعمق العلم، وبين فيه تيسير ذلك عليهم وامتناعهم من القول بلا علم بقلة التكلف)[3] .

---

(١) إعلام الموقعين (١/١٢٧-١٢٨)، وانظر الموافقات (٤/٤٦٢-٤٦٣) .

(٢) ذكره البغوي في شرح السنة (١/٢١٤) من غير إسناد، وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/٩٤٧) بإسناد فيه ضعف، لكن ورد من طريق آخر عن ابن عمر أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/٣٠٥) وفيه عمر بن نبهان ضعيف، والحسن مدلس لم يصرح بالسماع، وأخرجه الآجري في الشريعة (٤/١٦٨٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/٩٤٦) من كلام الحسن بإسناد حسن، فلعل الأثر بهذه الطرق لا ينزل عن درجة الحسن، والله تعالى أعلم .

(٣) منهاج السنة (٢/٧٩) (تحقيق محمد رشاد سالم/ط١/١٤٠٦) .

وقال أيضا :

(أخبر عنهم بكمال بر القلوب، مع كمال عمق العلم، وهذا قليل في المتأخرين، كما يقال : من العجائب فقيه صوفي، وعالم زاهد، ونحو ذلك ؛فإن أهل بر القلوب وحسن الإرادة وصلاح المقاصد يحمدون على سلامة قلوبهم من الإرادات المذمومة، ويقترن بهم كثيرا عدم المعرفة، وإدراك حقائق أحوال الخلق التي توجب الذم للشر والنهي عنه، والجهاد في سبيل الله، وأهل التعمق في العلوم قد يدركون من معرفة الشرور والشبهات ما يوقعهم في أنواع الغي والضلالات، وأصحاب محمد كانوا أبر الخلق قلوبا وأعمقهم علما .

ثم إن أكثر المتعمقين في العلم من المتأخرين يقترن بتعمقهم التكلف المذموم من المتكلمين والمتعبدين : وهو القول والعمل بلا علم، وطلب ما لا يدرك، وأصحاب محمد كانوا —مع أنهم أكمل الناس علما نافعا وعملا صالحا— أقل الناس تكلفا، يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة والمعارف، ما يهدي الله به أمة، وهذا من منن الله على هذه الأمة، وتجد غيرهم يحشون الأوراق من التكلفات والشطحات، ما هو أعظم من الفضول المبتدعة، والآراء المخترعة، لم يكن لهم في ذلك سلف إلا رعونات النفوس المتلقاة ممن ساء قصده في الدين)[1] .

ب/ وقال رضي الله عنه أيضا :

(لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أكابرهم، فإذا جاءهم العلم من قبل أصاغرهم فذلك حين هلكوا)[2] .

فجعل رضي الله عنه أخذ العلم من أهله الذين هم أصحاب النبي ﷺ علامة على أن الأمة في خير عظيم، كما جعل علامة هلاكهم أخذهم العلم عن الأصاغر .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣٨/٤) .

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦٢٣/٢) رقم (٧٦٤)، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٤٦/١١) وأبو نعيم في الحلية (٤٩/٨)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٦١٦/١)، وإسناده صحيح .

وقد ذكرت أقوال عدة في المراد بالأصاغر، ولعل أنسبها ما ذهب إليه أبو عبيد الهروي رحمه الله في قوله :

(الذي أرى أنا في الأصاغر : أن يؤخذ العلم عمن كان بعد أصحاب النبي ﷺ، ويقدم ذلك على رأي الصحابة وعلمهم، فهذا أخذ العلم عن الأصاغر)[1] .

فالأثر دليل على أن من أراد أخذ العلم من منهله الصافي فليجعل الصحابة له قدوة، وعلمهم له قبلة، فهم رواة العلم، ووعاة الحكمة، وأئمة الأمة ؛لذا لا يكون للمتقين إماما إلا من اتخذهم أسوة .

قال سفيان الثوري رحمه الله [2] :

(إذا كان يأتم بمن قبله فهو إمام لمن بعده)[3] .

وأما من ركب رأسه، ولم يجعل منبع الصحابة مصدره وموردة، فهو أيضا إمام لمن بعده لكن في الضلالة لا في الهداية .

ج/ وقال ﷺ أيضا :

(إنكم في زمان كثير فقهاؤه، قليل خطباؤه، قليل سؤاله، كثير معطوه، العمل فيه قائد للهوى، وسيأتي من بعدكم زمان قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه، كثير سؤاله، قليل معطوه، الهوى فيه قائد للعمل، واعلموا أن حسن الهدي في آخر الزمان خير من بعض العمل)[4] .

---

(١) غريب الحديث (٤/٢٦١) .

(٢) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله، الثوري الكوفي، ولد سنة سبع وتسعين، ومات سنة ست وعشرين ومائة .كان من الأئمة الأعلام، والجهابذة النقاد، وصفه الذهبي بأنه (شيخ الإسلام، وإمام الحفاظ، وسيد العلماء العاملين في زمانه)، له كتاب (الجامع) .

انظر : الجرح والتعديل (١/٥٥)، السير (٧/٢٢٩) .

(٣) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١/٤٣٦) (تحقيق العزازي/دار ابن الجوزي/ط٢/١٤٢١) وإسناده صحيح .

(٤) أخرجه أبو خيثمة مختصرا في كتاب العلم ص : (٢٧)، وقال الشيخ الألباني عنه : (هذا موقوف صحيح الإسناد، ورجاله رجال الصحيحين غير عبد الله بن يزيد الصهباني وهو ثقة) .وأخرجه البخاري في =

أخبر ﷺ عن عصر الصحابة بأن الفقهاء فيه كثيرون، والعلماء متوافرون، فهو عصر الفقهاء والعلماء، وإن قل فيه الخطباء فليس ذلك بالذي يضر بل هي من مناقب ذلك الجيل الفريد ؛إذ يغنيهم ما معهم من العلم والحق عن زخرفة الكلام، وتكلف الخطب الطوال، فالحق معرب عن نفسه .

فكلامهم كان قليل الألفاظ لكنه كثير الفوائد، وخطبهم كانت قصدا لكنها كثيرة البركة، بخلاف من جاء بعدهم من الخلف ممن لم يسلك سبيلهم فقد كانوا خواء من الفقه، صفر اليدين من العلم، مجانبين للصواب في القول والفعل ؛لذا كان همهم زخرفة الكلام، وديدنهم تزوير الخطب الحسان، خاصة من كان منهم داعية مقالة، ورئيس نحلة لأن هذا هو السبيل لاستمالة القلوب الضعيفة، والطريق لترويج الأفكار الخبيثة، وإنفاق العقائد الفاسدة، فهذا جهم بن صفوان[1] الذي عظمت بسببه في المسلمين المحنة، لم يعد قط من العلماء، و لم يحسب مع الفقهاء، ومع ذلك عمت آراؤه حتى أعمت؛ لأنه كان صاحب لسان وكلام، وذا ذكاء وجدال .

الأدب المفرد رقم (٧٨٩)، و عبد الرزاق في المصنف (٣٨٢/٢)، وأورد الحافظ ابن حجر الجملة الأخيرة منه في الفتح (٥٢٦/١٠)ثم قال : (وسنده صحيح، ومثله لا يقال بالرأي) أي أنه في حكم المرفوع، وقد جاء مصرحا برفعه كما عند الطبراني في الكبير (٣١١١/٩) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١١٤/١)، وإسناده ضعيف، وأخرجه الإمام أحمد في المسند (١٥٥/٥) عن أبي ذر مرفوعا، لكن إسناده ضعيف أيضا .

(١) هو : جهم بن صفوان، أبو محرز الراسبي مولاهم، السمرقندي، رأس الجهمية وإليه تنسب، قال عنه الذهبي : (الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمن صغار التابعين، وما علمته روى شيئا، لكنه زرع شرا عظيما) كان ينكر صفات الباري جل وعلا، وقيل إن سلم بن أحوز قتله ؛لإنكاره أن الله كلم موسى .

انظر : ميزان الاعتدال (٤٢٦/١)، لسان الميزان (١٤٢/٢) (دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد/ط١/ ١٣٣٠) .

قال خالد بن سليمان البلخي[1] :

(كان جهم على معبر ترمذ[2]، وكان فصيح اللسان، و لم يكن له علم، ولا مجالسة أهل العلم)[3].

وقال أبو عبد الله محمد بن سلام البيكندي[4] :

(كان جهم فيما بلغنا لا يعرف بفقه ولا ورع ولا صلاح، أعطي لسانا منكرا، فكان يجادل ويقول برأيه)[5] .

وقال عبد العزيز بن أبي سلمة[6] :

(كلام جهم صفة بلا معنى، وبناء بلا أساس، و لم يعد قط من أهل العلم)[7].

---

(١) هو : خالد بن سليمان، أبو معاذ، البلخي، روى عن الثوري ومالك، وهو من تلاميذ أبي حنيفة، وكان إماما معروفا ببلخ، قال عنه ابن القيم بأنه : (أحد الأئمة رحمه الله تعالى) توفي سنة تسع وتسعين ومائة . انظر : ترتيب المدارك (٢٦٠/١)، ميزان الاعتدال (٦٣١/١) .

(٢) هي مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي، وإليها ينسب أبوعيسى الترمذي صاحب السنن .انظر : معجم البلدان (٢٦/٢) (دار صادر، بيروت/ط٢/١٩٩٥م).

(٣) أورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص : (٢٢٤) (تحقيق المعتق/مكتبة الرشد/ط٢/١٤١٥) .

(٤) هو : محمد بن سلام بن الفرج، أبو عبد الله، السلمي مولاهم البخاري البيكندي، شيخ البخاري، الإمام الحافظ الناقد، كان من أوعية العلم، وأئمة الأثر، وكان محتشما ذا أموال كما قال الذهبي . مات في سابع صفر سنة خمس وعشرين ومائتين .
انظر : الجرح والتعديل (٢٧٨/٧)، السير (٦٢٨/١٠) .

(٥) أورده شيخ الإسلام في التسعينية (٢٤٠/١) (تحقيق العجلان/مكتبة المعارف، الرياض/ط١/١٤٢٠) .

(٦) هو : عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، أبو عبد الله، وأبو الأصبغ، التيمي مولاهم، المدني، الماجشون، والد عبد الملك بن الماجشون صاحب مالك المشهور . لم يكن بالمكثر من الحديث، لكنه فقيه النفس، فصيح، كبير الشأن كما قال عنه الذهبي .توفي سنة أربع وستين ومائة .
انظر : تاريخ بغداد (٤٣٦/١٠)، السير (٣٠٩/٧) .

(٧) أورده البخاري في خلق أفعال العباد ص : (٣٢) (تحقيق البسيوني/دار التراث الإسلامي، القاهرة)، وذكر عنه الذهبي كلاما قريبا من هذا فقال : (قيل إنه نظر مرة في شيء من سلب الصفات لبعضهم فقال : هذا الكلام هدم بلا بناء، وصفة بلا معنى) السير (٣١٢/٧) .

وهذا واصل بن عطاء الغزال[1] رئيس المعتزلة وإمام نحلتهم، لم يكن من أهل الفقه والنظر، ولا من أهل الحديث والأثر، و لم يشتهر بالرواية ولا بالدراية، لكنه كان خطيب القوم، وصاحب التشدق في القول، فافتتن بكلامه من لايحصون كثرة .

قال له عمرو بن عبيد[2] مرة تكلم يا أبا حذيفة !

فخطب وأبلغ، ثم سكت، فقال عمرو :

(ترون لو أن ملكا من الملائكة أو نبيا من الأنبياء يزيد على هذا !!)[3].

وتكلم يوما فقال عمرو أيضا :

(ألا تسمعون من كلام الحسن[4]، وابن سيرين[5] عندما تسمعون إلا خرق حيضة مطروحة)[6] .

---

(١) هو : واصل بن عطاء، أبو حذيفة، المخزومي مولاهم، البصري الغزال .رأس المعتزلة وخطيبهم .ولد سنة ثمانين بالمدينة، وهلك سنة إحدى وثلاثين ومائة . كان مبتدعا ضالا، بليغا متشدقا، ألثغ الراء ينطقها غينا، فكان يتحنبها في كلامه، له تصانيف منها : (المنزلة بين المنزلتين)، (أصناف المرجئة) . انظر : المنية والأمل للقاضي عبد الجبار ص : (٤١) (تحقيق النشار، وعصام الدين /دار المطبوعات الجامعية، مصر/١٩٧٢م)، ميزان الاعتدال (٣٢٩/٤) .

(٢) هو : عمرو بن عبيد، أبو عثمان، البصري، القدري، المعتزلي الضال، هلك بطريق مكة سنة ثلاث، وقيل سنة أربع وأربعين ومائة .كان يشتم الصحابة، ويدعو إلى بدعته، وله تواليف في ذلك منها (كتاب العدل والتوحيد) (كتاب الرد على القدرية) يريد أهل السنة، وكان يتزهد ويتأله حتى إن المنصور اغتر بذلك منه، وشغله عن بدعته وضلاله.

انظر : المنية والأمل ص : (٤٨)، ميزان الاعتدال (٢٧٣/٣) .

(٣) أورده الذهبي في ميزان الاعتدال (٢٧٧/٣) .

(٤) هو الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد البصري، ويقال مولى جميل بن قطبة، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر، وتوفي سنة عشر ومائة رحمه الله تعالى .كان إماما في العلم والعمل، قال عنه الذهبي : (كان رجلا تام الشكل، مليح الصورة، بهيا، وكان من الشجعان الموصوفين)، وكان من البلغاء الفصحاء، ومن كبار العباد والزهاد . انظر : الجرح والتعديل (٤٠/٣)، السير (٥٦٣/٤) .

(٥) هو : محمد بن سيرين، مولى أنس بن مالك .ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان، وتوفي في شوال سنة عشر ومائة .وصفه الذهبي بأنه : كان فقيها إماما غزير العلم ثقة ثبتا علامة في التعبير رأسا في الورع، وهو أثبت من الحسن رحمة الله عليهما . انظر : تاريخ بغداد (٣٣١/٥)، تذكرة الحفاظ (٧٧/١) .

(٦) أورده الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٢٧٥) .

وعليه فليس كل من قل ورعه، فكثر هذره، وحسن منطقه يكون عالما، ومن لم يكن كذلك لا يعد من العلماء، فالعبرة بالحقائق والمعاني لا بزخرفة الكلام والمباني .

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله :

(وقد فتن كثير من المتأخرين فظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض، وانظر إلى أكبر الصحابة وعلمائهم كأبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت[1] كيف كان كلامهم أقل من كلام ابن عباس وهم أعلم منه، وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة، والصحابة أعلم منهم، وكذلك تابعو التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين، والتابعون أعلم منهم .

فليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق ويميز به بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد)[2] .

وبالجملة : (فما سكت من سكت عن كثرة الخصام والجدال من سلف الأمة جهلا ولا عجزا ولكن سكتوا عن علم وخشية الله .

وما تكلم وتوسع من توسع بعدهم لاختصاصه بعلم دونهم ولكن حبا للكلام وقلة ورع)[3] .

---

(١) هو : الصحابي الجليل زيد بن ثابت بن الضحاك، أبو سعيد وأبو خارجة، الخزرجي، النجاري، الأنصاري، شيخ المقرئين وإمام الفرضيين وكاتب الوحي .قال عنه الذهبي : (كان من حملة الحجة، وكان عمر يستخلفه إذا حج على المدينة) .اختلف في تاريخ وفاته، فقيل توفي سنة خمس وأربعين، وقيل : سنة إحدى وخمسين، وقيل غير ذلك .

انظر :الاستيعاب (٢/٥٣٧) (تحقيق البجاوي/مكتبة النهضة، مصر)، السير (٢/٤٢٦).

(٢) فضل علم السلف على علم الخلف ص : (٣٧-٣٨) .

(٣) المصدر السابق ص : (٣٥) .

د/ وعن ابن مسعود ﷺ قال :

(والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تناوله المطايا لأتيته)[1] .

وقال عن عمر بن الخطاب ﷺ :

(إني لأحسب عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم)[2] .

وقال عن ابن عباس رضي الله عنهما :

(نعم الترجمان للقرآن ابن عباس)[3].

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(مات ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح، وعمر بعده ابن عباس ستا وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود ؟)[4].

ر/ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

(وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحي من الأنصار، إن كنت لأقيل بباب أحدهم، ولو شئت أن يؤذن لي عليه لأذن عليه، ولكن أبتغي بذلك طيب نفسه)[5].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ (٣/٣٤١)، رقم (٥٠٠٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه (٤/١٩١٣)، رقم (٢٤٦٣) .

(٢) أخرجه أبو خيثمة في كتاب العلم ص: (١٨) وصحح الشيخ الألباني إسناده . وأورد ابن القيم نحوه في مفتاح دار السعادة (١/٤٤٩) .

(٣) أخرجه أبو خيثمة في كتاب العلم ص (١٥)، وابن سعد في الطبقات (٢/٣٦٦)، وابن جرير في التفسير (١/٤٠)، وصحح شيخ الإسلام إسناده كما في مجموع الفتاوى (١٣/٣٦٥)، وقال الشيخ الألباني في تعليقه على كتاب العلم لأبي خيثمة : صحيح على شرط الشيخين .

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/٣٦٥) .

(٥) أخرجه أبو خيثمة في كتاب العلم ص : (٣١) بإسناد قال فيه الشيخ الألباني رحمه الله : (هذا إسناد جيد، وأدب رفيع من ابن عباس) .وأخرجه أيضا الدارمي في سننه (١/١٤١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٢/٢٩٦) .

فهذه شهادة حبر الأمة للأنصار بأنهم الذين ورثوا عن النبي ﷺ عامة علمه .

هـ/ وعنه أيضا أنه قال في مناظرته للخوارج :

(جئتكم من أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله ﷺ وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله)[1] .

فقوله رضي الله عنه (وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله) صريح الدلالة على ما أسلفت من أن الصحابة كانوا أعلم الأمة بما بلغه النبي ﷺ من ألفاظ القرآن وتفسيره .

كما أن في قوله : (وليس فيكم منهم أحد) إيماء إلى ذلك أيضا ؛لأن الله عصمهم بما معهم من العلم النافع، والفهم الصحيح من الدخول في شيء من البدع والأهواء –خاصة بدعة الخوارج التي ظهرت نتيجة الفهم السيء لكتاب الله– فالصحابة عصمهم الله من الاختلاف في الدين ؛لأنهم عرفوا عن الله مراده بكلامه، ووعوا عن رسول الله ﷺ قصده من سنته، بخلاف من جاء بعدهم فلقلة علمهم بذلك ظهرت فيهم الفرقة والاختلاف ؛لذا لما خلا عمر ذات يوم فجعل يحدث نفسه كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد، فأرسل إلى ابن عباس فقال : كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد، وقبلتها واحدة ؟

فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن، ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا ...)[2] .

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/٩٦٢) وحسن المحقق إسناده .

(٢) أخرجه أبو عبيد في كتاب فضائل القرآن ص : (١٠٢- ١٠٣) (تحقيق العطية وخرابة/دار ابن كثير/ ط١/١٤١٥) بسند صحيح إلى إبراهيم التيمي، وأخرج عبد الرزاق في المصنف (١١/٢١٧) عن ابن عباس أثرا قريبا منه .

و/ عن الشعبي [1] قال :

صلى زيد بن ثابت على جنازة، ثم قربت له بغلة ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابها فقال له زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ ... فقال ابن عباس :

(هكذا يفعل بالعلماء والكبراء)[2] .

ولما مات زيد قال ابن عباس :

(هكذا ذهاب العلم، لقد دفن اليوم علم كثير)[3] .

ي/ وقال :

(كان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبابا) [4] .

والمراد بالقراء في عرفهم هم الذين يجمعون بين العلم بالقرآن والسنة وبين العبادة، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

(وأهل ذلك العصر كانوا يعرفون معاني القرآن لكونهم أهل اللسان فالأقرأ منهم بل القارئ كان أفقه في الدين من كثير من الفقهاء الذين جاؤوا بعدهم)[5].

والآثار في هذا يطول إيرادها، ولعل فيما تقدم الكفاية لمن أراد الله له الهداية.

---

(١) هو : عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار، أبو عمرو، الهمذاني، ثم الشعبي، الإمام علامة عصره، كان آية في الحفظ وما كتب شيئا قط .رأى عليا ﷺ وصلى خلفه، وسمع من عدة من كبراء الصحابة .ومات سنة أربع ومائة، وقيل غير ذلك .

انظر : طبقات ابن سعد (٢٤٦/٦) (دار صادر، بيروت)، السير (٢٩٤/٤) .

(٢) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٩٧/٢)، وابن سعد في الطبقات (٣٦٠/٢)، وإسناده صحيح . وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٥١٤/١) : روينا من وجوه عن الشعبي ثم ساقه .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ٤٧٤٩)، وابن سعد في الطبقات (٣٦١/٢)، والحاكم في المستدرك (٤٢٢/٣)، وإسناده صحيح .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٣٦٠/٤) رقم (٧٢٨٦) .

(٥) فتح الباري (٢٠١/٢) .

الوجه الرابع : أن علماء الملة، وأئمة الأمة، شهدوا للصحابة بالتقدم في العلم النافع حتى إنهم أخرجوا من العلم كل ما لم يأت عنهم، وفيما يلي ذكر بعض أقوالهم التي تدل على ذلك :

أ / عن سعيد بن جبير رحمه الله[1] قال :

(ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين)[2] .

ب/ عن مجاهد قال :

(العلماء أصحاب محمد ﷺ)[3] .

ج/ وعنه قال :

(عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها)[4].

د/ وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله[5] :

(خذوا من الرأي ما يوافق من كان قبلكم فإنهم كانوا أعلم منكم)[6].

---

(١) هو : سعيد بن جبير بن هشام، أبو محمد ويقال : أبو عبد الله، الأسدي الوالبي مولاهم، الكوفي، الإمام الحافظ المقرىء المفسر أحد الأئمة الأعلام، قتله الحجاج في شعبان سنة خمس وتسعين .قال الذهبي : لما علم من فضل الشهادة ثبت للقتل و لم يكترث، ولا عامل عدوه بالتقية المباحة له رحمه الله .
انظر : طبقات ابن سعد (٢٦٥/٦)، السير (٣٢١/٤) .

(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٧٧١/١) و (٩٤٥/٢) بإسناد لا بأس به .

(٣) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٧٧٠/١) .

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٤٠/١)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٩/٣)، وأخرجه من طريقه الذهبي في تذكرة الحفاظ (٧٠٦/٢) وقال : هذا حديث حسن الإسناد .

(٥) هو : عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، أبو حفص القرشي الأموي المدني ثم المصري، الخليفة الزاهد الراشد أشج بني أمية .ولد سنة ثلاث وستين، وقيل سنة إحدى وستين ، ومات سنة إحدى ومائة رحمه الله تعالى .كان مضرب المثل في الزهد والعدل وحسن الشمائل حتى أفردت سيرته بمؤلفات قيمة، قال الذهبي : (صار يعد في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهد مع الحسن البصري، وفي العلم مع الزهري، ولكن موته قرب من موت شيوخه فلم ينتشر علمه) .
انظر : الجرح والتعديل (١٢٢/٦)، تذكرة الحفاظ (١١٨/١) .

(٦) أورده ابن رجب في كتابه (فضل علم السلف على الخلف) ص : (٣٢) .

ر/ وقال الأوزاعي رحمه الله[1] :

(العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ وما لم يجئ عن أصحاب محمد ﷺ فليس بعلم)[2].

هـ/ قال ابن سيرين :

(إذا رأيت الرجل يخبرك أنه أعلم من عمر فاحذره)[3].

و/ قال أبو أسامة حماد بن أسامة[4] :

(أصحاب رسول الله ﷺ لا يقاس بهم أحد)[5].

ي/ وقال ابن عبد البر رحمه الله :

(ما جاء عن النبي ﷺ من نقل الثقات وجاء عن الصحابة وصح عنهم فهو علم يدان به، وما أحدث بعدهم و لم يكن له أصل فيما جاء عنهم فبدعة وضلالة)[6].

الوجه الخامس : أن الله سبحانه وتعالى قد أكرم الصحابة ومن عليهم بأمور جعلتهم أئمة الهدى وقادة الورى في العلم النافع والفهم السديد، من ذلك :

---

(١) هو : عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد، أبو عمرو الأوزاعي الدمشقي، ولد في حياة الصحابة سنة ثمان وثمانين، وتوفي سنة سبع وخمسين ومائة رحمه الله .شيخ الإسلام وعالم أهل الشام وفقيههم، قال عنه مالك : (الأوزاعي إمام يقتدى به)، وكان مع براعته في العلم وتقدمه في العمل كبير الشأن يصدع بالحق لا يخاف في الله لومة لائم، وقيل إنه كان يصلح للخلافة .

انظر : طبقات ابن سعد (٤٨٨/٧)، السير (١٠٧/٧) .

(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٧٦٩/١)، وأورده الذهبي في السير (١٢٠/٧) .

(٣) انظر : المسودة لآل تيمية ص : (٣٠٥) (مطبعة المدني، القاهرة) .

(٤) هو : حماد بن أسامة بن زيد، أبو أسامة الكوفي، مولى بني هاشم .ولد في حدود العشرين ومائة، ومات سنة إحدى ومائتين .كان حافظا ثبتا من أئمة العلم، وكان يعد من النساك في زمن الثوري .

انظر : الجرح والتعديل (١٣٢/٣)، تذكرة الحفاظ (٣٢١/١) .

(٥) أخرجه الآجري في الشريعة (٢٤٦٥/٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١١٧٣/١) .

(٦) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤٦) .

١/ كمال علمهم باللغة ودلالات الألفاظ :

فقد كانوا أفصح الناس ألسنة، وأخلصهم لغة، وأعذبهم بيانا، بل كانوا هم معدن الفصاحة، ومنبع البلاغة، والعربية كانت فيهم سليقة وطبيعة وسجية، و لم تكن مكتسبة ومتكلفة، فلا غرو إذن أن يكونوا أعلم الناس بمعاني القرآن والسنة، لأن النبي ﷺ إنما خاطبهم بلغتهم، والقرآن إنما نزل بلسانهم، قال تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ (١).

وقال تعالى :

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾(٢).

وقال جل وعلا :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾(٣).

وكثيرا ما يقع الخطأ والزلل في فهم القرآن والسنة بسبب الجهل بلغة العرب وعاداتهم في مخاطباتهم .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

(لا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالات الألفاظ على المعاني ؛فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب ؛فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك)(٤) .

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٣) .

(٢) سورة الزمر، الآية (٢٨) .

(٣) سورة النحل، الآية (١٠٣) .

(٤) مجموع الفتاوى (١١٦/٧) .

٢ــ شهود التنـــزيل، وحضور الوقائع :

فقد عاشوا لحظات نزول الوحي، فعرفوا فيمن نزل، و لم نزل، والظروف الـتي فيها نزل، ولاشك أن هذه الأمور تساعد على معرفة المعنى وإدراك المراد، ألا تـــرى كيف ربط ابن عباس ﷺ في مناظرته للخوارج بين شهود التنـــزيل ومعرفة التـــأويل فقال في وصف الصحابة : (وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله)[1] ؟!

ذلك لأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وليس من رأى كمن سمع، ولا الخبر كالمعاينة .

٣/ معاشرة النبي ﷺ ومعرفة أحواله .

فهم الذين اختارهم الله سبحانه وتعالى لصحبة نبيه ﷺ، فصاحبوه في الســفر والحضر، وكانوا معه أيام العسر واليسر، وفي لحظات الغضب والرضا، وعاينوا كيــف يجاهد الأعداء، وكيف يعامل الأصدقاء والأخلاء، ورأوا صفة خلقـــه، ورووا صفـــة خلقه، ونقلوا هديه وشمائله، فلم يفتهم من ذلك حتى هديه ﷺ في الخلاء، فلابـــد - والحال هذه- أن يكونوا أعلم الناس بمعاني كلامه، إذ طول الصحبة والمخالطة تـــورث الخبرة بالشخص والعلم بأحواله وأقواله .

فإذا نطق بكلام عام عرفوا بقرائن الأحوال أيريد به العموم أم هو من قبيـــل العام الذي أريد به الخصوص ؟

وإذا نهى عن شيء عرفوا بذلك أيريد به التحريم أم الكراهة ؟

وكذلك إذا أمر بشيء عرفوا بتلك القرائن أيريد الوجوب أم الندب ؟ ..وهلم جرا.

قال ابن القيم رحمه الله :

(مستندهم في معرفة مراد الرب تعالى من كلامه ما يشاهدونه من فعل رسوله وهديه الذي هو يفصل القرآن ويفسره)[2] .

---

(١) تقدم تخريجه ص : (١٤٩) .

(٢) إعلام الموقعين (٤/١٩٥)، وانظر مجموع الفتاوى (٧/٣٩٠-٣٩١) .

٤/ البراعة في العقل، والرجاحة في الفهم، والصواب في الحكم .

فقد من الله عليهم بكمال العقول وصحتها، وسلامة الفطر واستقامتها، وصفاء الحس، وحسن القصد، مع ما عرفوا به من التقوى ومراقبة الله جل وعلا، وتحري الصواب والبعد عن البغي واتباع الهوى، وتجنب مواطن الردى، بالإضافة إلى قرب عهدهم بالوحي والنبوة، وصفاء المورد الذي لم تكدره شائبة، الأمر الذي أكسبهم الاتساع في العلم، والسداد في الفهم .

قال ابن القيم رحمه الله :

(لا ريب أنهم كانوا أبر قلوبا، وأعمق علما، وأقل تكلفا، وأقرب إلى أن يوفقوا لما لم نوفق له نحن، لما خصهم الله تعالى به من توقد الأذهان، وفصاحة اللسان، وسعة العلم، وسهولة الأخذ، وحسن الإدراك وسرعته، وقلة المعارض أو عدمه، وحسن القصد، وتقوى الرب تعالى، فالعربية طبيعتهم وسليقتهم، والمعاني الصحيحة مركوزة في فطرهم وعقولهم، ولا حاجة بهم إلى النظر في الإسناد وأحوال الرواة وعلل الحديث والجرح والتعديل، ولا إلى النظر في قواعد الأصول وأوضاع الأصوليين، بل قد غنوا عن ذلك كله في حقهم إلا أمران :

أحدهما : قال الله تعالى كذا، وقال رسوله كذا .

والثاني : معناه كذا وكذا .

وهم أسعد الناس بهاتين المقدمتين، وأحظى الأمة بهما، فقواهم متوفرة مجتمعة عليهما.

وأما المتأخرون فقواهم متفرقة، وهممهم متشعبة، فالعربية وتوابعها قد أخذت من قوى أذهانهم شعبة، والأصول وقواعدها قد أخذت منها شعبة، وعلم الإسناد والرواة قد أخذ منها شعبة، وفكرهم في كلام مصنفيهم وشيوخهم على اختلافهم وما أرادوا به قد أخذ منها شعبة، إلى غير ذلك من الأمور، فإذا وصلوا إلى النصوص النبوية إن كان لهم هم تسافر إليها وصلوا إليها بقلوب وأذهان قد كلت من السير في

غيرها، وأوهن قواهم مواصلة السرى في سواها، فأدركوا من النصـــوص ومعانيـــها بحسب تلك القوة، ... .

والمقصود : أن الصحابة أغناهم الله تعالى عن ذلك كله، فاجتمعت قواهم على تينك المقدمتين فقط، هذا إلى ما خصوا به من قوى الأذهان وصفائها، وصحتها وقوة إدراكها، وكمالها، وكثرة المعاون، وقلة الصارف، وقرب العهد بنور النبوة، والتلقـــي من تلك المشكاة النبوية، فإذا كان هذا حالنا وحالهم فيما تمـــيزوا بـــه علينـــا ومـــا شاركناهم فيه فكيف نكون نحن أو شيوخنا أو شيوخهم أو من قلدناه أسعد بالصواب منهم في مسألة من المسائل ؟ ومن حدث نفسه بهذا فليعزلها من الدين والعلـــم، والله المستعان)[1].

فإذا ثبت أن الصحابة ﷺ هم أعلم هذه الأمة بـــالقرآن وتأويلـــه، وبالســـنة ومعناها وأنهم أكمل عقولا وأصح أفهاما وأحسن قصدا فيجب على كل مسلم ناصح لنفسه، يريد لها السعادة في الدنيا والآخرة، وعلى كل من يطلـــب الحـــق والســـداد والتوفيق، ويروم الأمن في سلوك الطريق أن يجعل أولئك الأئمة قدوته، وعلمهم بغيته، وفهمهم غايته، ومنهجهم طلبته، وهديهم قبلته، فلا يرضى عن نهجهم بديـــلا، ولا يتخذ غير طريقهم سبيلا، ولا يقدم على قولهم إلا قول الله وقول رسوله ﷺ، ولا يؤثر على فهمهم فهم من جاء بعدهم .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

(الصحابة أعلم الأمة على الإطلاق، وبينهم وبين من بعدهم في العلم واليقـين كما بينهم في الفضل والدين، ولهذا كان ما فهمه الصحابة من القرآن أولى أن يصـــار إليه مما فهمه من بعدهم، فانضاف حسن قصدهم إلى حسن فهمهم)[2] .

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٨٩-١٩٠) .

(٢) الصواعق المرسلة (٢/٥٠٩) .

ذلك لأن سوء الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ هو سبب ضلال كثير من أهل البدع والأهواء ؛لذا قال الإمام أحمد رحمه الله :

(أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس)[1].

وتحريف الكلم عن مواضعه باب ولج منه كل من رام هدم الدين من أساسه، أو رام تكدير صفوه، وتشويه جماله، خاصة وأن القرآن حمال ذو وجوه، ولغة العرب التي بها نزل أوسع اللغات ترد فيها اللفظة الواحدة مرادا بها معاني كثيرة ؛لذا تجد كل مبطل يستدل على باطله بآية أو حديث .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(وكلام الله ورسوله وكلام العلماء مملوء بما يفهم الناس منه معنى فاسدا، فكان العيب في فهم الفاهم لا في كلام المتكلم الذي يخاطب جنس الناس كالمصنف لكتاب، أو الخطيب على المنبر، ونحو هؤلاء، فإن هؤلاء لا يكلفون أن يأتوا بعبارة لا يفهم منها مستمع ما معنى ناقصا ...)[2] .

وعليه فإن فهم الصحابة الكرام، ومن نهج نهجهم من الأئمة الأعلام هو صمام الأمان من الزيغ والضلال، وقد ورد في وجوب الأخذ بفهمهم أدلة كثيرة أورد بعضها في إلماعة سريعة :

الدليل الأول : قال تعالى :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[3].

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (٧/١١٨) و (١٧/٣٥٥) .

(٢) تلخيص الاستغاثة (٢/٦١٥) .

(٣) سورة النساء، الآية (١١٥) .

دلت هذه الآية على وجوب اتباع سبيل المؤمنين ؛لأن الله سبحانه وتعالى جمع بين اتباع غير سبيلهم وبين مشاقة الرسول في الشرط وجعل جزاءهما ما ختمت بـــه الآية من الوعيد الشديد . قال الشافعي رحمه الله :

(لا يصليه جهنم على خلاف سبيل المؤمنين إلا وهو فرض)[1].

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله [2] :

(وجه الدليل من هذه الآية أن الله تعالى توعد أتباع غير سبيل المؤمنين، فـــدل على أن اتباع سبيلهم واجب ومخالفتهم حرام)[3] .

والمراد بسبيل المؤمنين هو ما كان عليه الصحابة واستمروا عليه مـــن عقـــد وعمل وفهم، ولا يعترض بأن الآية عمت جميع المؤمنين فلا يصح قصر سبيلهم علـــى سبيل الصحابة وحدهم وذلك لأمور :

أ / لأن جيلهم هم المؤمنون زمن نزول الآية، فليس في دنيا الناس يومها مـــن هو أحق بوصف الإيمان منهم .

ب / لأنهم هم المعنيون في الآية بالقصد الأول، وأما من جاء بعدهم فيدخـــل معهم تبعا .

ج / لأنهم هم الذين جمعوا أوصاف الإمامة على وجه التمام والكمال، وكـــل من جاء بعدهم ممن له نصيب منها لم يتصف بها على الوجه الذي اتصفوا بها، وقـــد تقدم بيان ذلك قريبا .

---

(١) أحكام القرآن للشافعي ص (١/٣٩-٤٠) (جمعه البيهقي/تعليق عبد الغني/دار الكتب العلمية/١٣٩٥) .

(٢) هو : أحمد بن علي بن ثابت، أبو بكر البغدادي . ولد سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة، وتوفي سنة ثـــلاث وستين وأربعمائة، وسمه الذهبي بأنه (الإمام الأوحد، العلامة المفتي، الحافظ الناقد، محـــدث الوقـــت، صاحب التصانيف، وخاتمة الحفاظ)، من تصانيفه (تاريخ بغداد)، (شرف أصحاب الحديث) وغيرهما . انظر : السير (١٨/٢٧٠)، طبقات الشافعية الكبرى (٤/٢٩) .

(٣) الفقيه والمتفقه (١/٤٠٠) .

الدليل الثاني : قوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[1].

ووجه الدلالة من الآية أن الله جل وعلا مدح الصحابة وأثنى عليهم وبين استحقاقهم أن يكونوا أئمة متبوعين، ذلك لأنه أثنى على من اقتفى أثرهم، وسلك سبيلهم، واقتدى بأفعالهم، وأخذ بأقوالهم في أصول الدين وفروعه، بل رتب على ذلك استحقاق نيل رضا الله سبحانه وتعالى، مما يدل على أنه من أفضل الأعمال وأجل القربات ؛إذ (رضوان الله غاية المطالب التي لا تنال إلا بأفضل الأعمال)[2] .

وهو أيضا من الفروض والواجبات، قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى بعد إيراده لهذه الآية :

(اتباع المهاجرين والأنصار واجب على الناس إلى يوم القيامة)[3] .

وبيان دلالة الآية على وجوب اتباعهم من وجوه :

(أ) من المعلوم أن اتباع الحق وترك الباطل واجب، واتباع الصحابة من الحق الذي يجب اتباعه ؛لأن الله رضي عمن اتبعهم والله لا يرضى إلا بالحق .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(رضي عمن اتبع السابقين إلى يوم القيامة فدل على أن متابعهم عامل بما يرضي الله، والله لا يرضى إلا بالحق لا بالباطل)[4].

---

(١) سورة التوبة، الآية (١٠٠) .

(٢) قاله ابن القيم في إعلام الموقعين (١٦١/٤) .

(٣) انظر : طبقات الحنابلة (٣٦٢/١) .

(٤) مجموع الفتاوى (١٧٨/١٩) .

(ب) (الرضوان عمن اتبعهم دليل على أن اتباعهم صواب ليس بخطأ، فإنه لو كان خطأ لكان غاية صاحبه أن يعفى له عنه، فإن المخطئ إلى أن يعفى عنه أقرب منه إلى أن يرضى عنه، وإذا كان صوابا وجب اتباعه ؛لأن خلاف الصواب خطأ، والخطأ يحرم اتباعه إذا علم أنه خطأ)، قاله ابن القيم رحمه الله[1] .

(ج) (طلب رضوان الله واجب ؛لأنه إذا لم يوجد رضوانه فإما سخطه أو عفوه، والعفو إنما يكون مع انعقاد سبب الخطيئة، وذلك لا تباح مباشرته إلا بالنص، وإذا كان رضوانه إنما هو في اتباعهم، واتباع رضوانه واجب، كان اتباعهم واجبا) قاله ابن القيم أيضا[2].

الدليل الثالث : قوله ﷺ في حديث العرباض بن سارية :

(عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)[3] .

هذا الحديث ظاهر الدلالة على وجوب الأخذ بسنة الخلفاء الراشدين وعدم جواز العدول عنها، ووجه دلالته على ذلك من وجوه :

(أ) أن النبي ﷺ أمر بالأخذ بها والحرص عليها، بل بالغ في الحض على ذلك فأمر أن يعض عليها بالنواجذ، وأن يحذر كل ما يخالفها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(هذا أمر وتحضيض على لزوم سنة الخلفاء، وأمر بالاستمساك بها، وتحذير من المحدثات المخالفة لها، وهذا الأمر منه والنهي دليل بين في الوجوب)[4] .

---

(١) إعلام الموقعين (١٦١/٤) .

(٢) المصدر السابق (١٦٢/٤) .

(٣) تقدم تخريجه ص : (٨٩) .

(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/٣٥) .

(ب) أن النبي ﷺ قرن في الأمر بين سنته وسنة الخلفاء الراشدين فكانا في الحكم سواء، فكما يجب الأخذ بسنة النبي ﷺ فكذلك يجب الأخذ بسنة الخلفاء الراشدين .

(ج) أن النبي ﷺ وصف الخلفاء بوصفين عظيمين هما الرشاد والهدى للدلالة على علو منزلتهم في العلم النافع والعمل الصالح ؛لأن العلم النافع هو أصل الهدى، والعمل بالحق هو الرشاد[1]، فالهدى لا ينال إلا بالعلم واليقين، والرشاد لا ينال إلا بالصبر، وبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، قال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[2] ففي وصف النبي ﷺ للخلفاء الراشدين بهذين الوصفين إيماء إلى وجوب اتخاذهم أئمة وقدوة .

(د) هذان الوصفان – الرشاد والهدى – قد وصف الله بهما نبيه ﷺ فقال تعالى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ ﴾[3].

فنفى عنه الغي والضلال، وضد الضلال هو الهدى، كما أن ضد الغي هو الرشاد، فالآية فيها وصف الله لنبيه ﷺ بالهدى والرشاد .

وعليه فالنبي ﷺ قد وصف أصحابه في هذا الحديث بمثل ما وصفه الله به، فثبت أن سيرهم تشبه سيرته، وسنتهم مقرونة في الأمر بسنته، وهذا أبلغ شيء في الدلالة على وجوب الاقتداء بهديهم، والأخذ بفهمهم، والتمسك بسنتهم .

وليس المراد بسنتهم ها هنا ما اتفقوا عليه فحسب، بل وما سنه أكثرهم أو بعضهم يعد أيضا من سنتهم .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٠/٤٠) .

(٢) سورة السجدة، الآية (٢٤) .

(٣) سورة النجم، الآيتان (١-٢) .

قال ابن القيم رحمه الله :

(قرن سنة خلفائه بسنته، وأمر باتباعها، كما أمر باتباع سنته، وبالغ في الأمر بها حتى أمر بأن يعض عليها بالنواجذ،وهذا ما أفتوا به وسنوه للأمة وإن لم يتقدم من نبيهم فيه شيء، وإلا كان ذلك سنته، ويتناول ما أفتى به جميعهم أو أكثرهم أو بعضهم (...)[1]، ومعلوم أنهم لم يسنوا ذلك وهم خلفاء في آن واحد، فعلم أن ما سنه كل واحد منهم في وقته فهو من سنة الخلفاء الراشدين)[2] .

الدليل الرابع : قوله ﷺ :

(إن بني إسرائيل تفرقوا على ثنتين وسبعين ملة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا ملة واحدة .

قالوا :وأي ملة تنفلت من النار ؟

قال : ما أنا عليه وأصحابي)[3] .

دل هذا الحديث على وجوب اتباع الصحابة وسلوك طريقهم ؛ذلك لأن النبي ﷺ قرن هديهم بهديه، وأخبر أن متبعهم هو الموعود بالنجاة في الدنيا من الأهواء والبدع والضلال، وفي الآخرة من العذاب والهوان، وأن مخالفهم معدود من الفرق المتوعدة بالنار.فكان اتباعهم هو المتجر الرابح في الدنيا والآخرة، والسبيل للفوز برضا الله جل وعلا، والنجاة من سخطه .

---

(١) موضع الحذف عبارة غير مستقيمة هي كالتالي : (لأنه ذلك بما سنه الخلفاء الراشدون) ولعل الصواب: (لأنه كذلك مما سنه الخلفاء الراشدون) والله تعالى أعلم .

(٢) إعلام الموقعين (١٧٦/٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن :كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦/٥)، وابن وضاح في كتاب ما جاء في البدع ص : (١٧٧) رقم (٢٧٠)، والآجري في الشريعة (٣٠٧/١-٣٠٩)، والحاكم في المستدرك (١٢٨/١)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (١١٢/١)، وابن بطة في الإبانة الكبرى : (٣٦٨/١-٣٦٩) رقم (٢٦٤-٢٦٥)، وقوام السنة في الحجة (١١٨/١) .وسنده ضعيف فيه عبدالرحمن بن زياد الإفريقي، إلا أن له طرقا وشواهد يحسن بها ؛لذا حسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٠٢/١) رقم (٢٠٣) فلينظر .

الدليل الخامس : ما زال أئمة الدين وأعلام المسلمين يحثون على اتباع الصحابة وسلوك نهجهم، ويحذرون من السير في طريق غير طريقهم، ويشنعون على من يبتغي الهدى في غير هديهم .والنقول عنهم في ذلك كثيرة مستفيضة منها ما يلي :

١- أثر ابن مسعود المتقدم : (من كان متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبرهذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوما اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)[1] .

وعنه رضي الله عنه قال :

(أيها الناس إنكم ستحدثون ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالأمر الأول)[2] .

وقال أيضا :

(إياكم والتبدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق)[3] .

---

(١) تقدم تخريجه ص : (١٤١) .

(٢) أخرجه الدارمي في السنن (١/٢٧٠) رقم (١٧٤)، وابن بطة في الإبانة الكبرى : (١/٣٢٩) رقم (١٨٠،١٨١،١٨٢،١٨٣)، وابن نصر المروزي في السنة ص : (٢٩)، وذكره أبو شامة في الباعث على إنكار البدع والحوادث ص : (١٥)، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/٢٦٧) .

(٣) أخرجه الدارمي في السنن (١/٢٥١) رقم (١٤٤-١٤٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/١٨٩) رقم (٨٨٤٥)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى رقم (٣٨٧)، وابن بطة في الإبانة الكبرى : (١/٣٣٢-٣٣٣) رقم (١٨٩،١٩٢) والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/١٦٧)، وابن وضاح في كتاب ما جاء في البدع ص : (٦٥)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (١/٩٧)، كلهم من طريق أبي قلابة عن ابن مسعود، وأبو قلابة لم يسمع من ابن مسعود ؛لذا قال البيهقي : (وهذا مرسل، وروي موصولا من طريق الشاميين) .

وقد رواه أيضا عن ابن مسعود أبو إدريس الخولاني كما عند البيهقي في المدخل إلى السنن رقم : (٣٨٨) (تحقيق الأعظمي/أضواء السلف/ط٢/١٤٢١)، وإسناده صحيح .

=

٢- وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال :

(اتقوا الله يا معشر القراء، خذوا طريق من كان قبلكم، لئن استقمتم لقد سبقتم سبقا بعيدا، وإن تركتموه يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا)[1] .

٣- وقال إبراهيم النخعي رحمه الله :

(لو بلغني عنهم -يعني الصحابة- أنهم لم يجاوزوا بالوضوء ظفرا ما جاوزته به، وكفى على قوم وزرا أن تخالف أعمالهم أعمال أصحاب نبيهم ﷺ)[2] .

٤- وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى بعض عماله فقال :

(أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره، واتباع سنته وسنة رسوله ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعده مما جرت به سنته وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة، واعلم أن الناس لم يحدثوا بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل عليها وعبرة فيها، فإن السنة إنما سنها من علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم ؛فإنهم السابقون، وإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضل فيه لو كان أحرى، فلئن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلت إنما أحدث بعدهم، ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، لقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصر، وما فوقهم محصر، لقد قصر دونهم أقوام فجفوا، وطمح عنهم آخرون فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم)[3] .

وأخرج نحوه ابن وضاح عن معاذ بن جبل في كتاب ما جاء في البدع ص : (٦٥) (تحقيق بدر البدر/ دار الصميعي/ط١/١٤١٦)، وإسناده ضعيف لجهالة الراوي عن معاذ .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٤/٣٥٨)، رقم (٧٢٨٢) .

(٢) أخرجه الدارمي في السنن (١/٢٩٧) رقم (٢٢٣)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١/٣٦١،٣٦٢) رقم : (٢٥٤-٢٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤/٢٢٧)، وذكره ابن القيم في إعلام الموقعين (٤/١٩٢) .

(٣) أخرجه ابن وضاح في كتاب ما جاء في البدع ص : (٧٢)، وأخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى : (١/٣٢١،٣٢٢) رقم (١٦٣-١٦٤) (دار الراية/ط٢/١٤١٥) .

٥- وعن الشعبي رحمه الله أنه قال :

(ما حدثوك به عن أصحاب محمد ﷺ فخذ به، وما حدثوك به عن رأيهم فبل عليه)[١].

٦- وقال الأوزاعي رحمه الله :

(اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم)[٢] .

٧- وقال الشافعي رحمه الله بعد ذكر الصحابة وتعظيمهم والثناء عليهم :

(وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم، وآراؤهم لنا أحمد، وأولى بنا من رأينا، ومن أدركنا ممن نرضى، أو حكي لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا أو قول بعضهم إن تفرقوا، وكذا نقول، ولم نخرج من أقوالهم كلهم)[٣].

٨- وقال الإمام أحمد رحمه الله :

(أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم)[٤] .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٥٦/١١)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٣١٩/٤)، وأخرجه الدارمي في السنن (٥١/١) رقم (٢٠٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٧٧٦/١)، وهو صحيح .

(٢) أخرجه الآجري في الشريعة (٦٧٣/٢) وابن بطة في الإبانة الكبرى (٨٨٢/٢) رقم : (١٢١٦)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (١٧٤/١)، وقوام السنة في الحجة (١١١/١-١١٢)، وابن الجوزي في تلبيس إبليس ص : (١٦) (دار الكتب العلمية/ط٢/١٤٠٧)، وهو صحيح الإسناد .

(٣) انظر ص : (١٣٦) من هذا البحث حاشية رقم (٢) .

(٤) أصول السنة ص (٢٥) (تحقيق الوليد نبيه/مكتبة ابن تيمية/ط١/١٤١٦)، وقد ذكر هذه الرسالة كاملة أبو يعلى في طبقات الحنابلة (٢٤١/١)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (١٧٥/١) .

وقال أيضا :

(الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه ثم هو بعد في التابعين مخير)[1]

٩- وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم رحمه الله [2] :

(أصحاب رسول الله ﷺ هم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ﷺ ونصرته وإقامة دينه وإظهار حقه. فرضيهم له صحابة، وجعلهم لنا أعلاما وقدوة، فحفظوا عنه ﷺ ما بلغهم عن الله عز وجل، وما سن وما شرع وحكم وقضى وندب وأمر ونهى وحظر وأدب، ووعوه وأتقنوه، ففقهوا في الدين وعلموا أمر الله ونهيه ومراده بمعاينة رسول الله ﷺ، ومشاهدتهم منه تفسير الكتاب وتأويله، وتلقفهم منه، واستنباطهم عنه، فشرفهم الله عز وجل بما من عليهم به وأكرمهم به من وضعه إياهم موضع القدوة، فنفى عنهم الشك والكذب والغلط والريبة والغمز، ... .

فكانوا عدول الأمة وأئمة الهدى وحجج الدين ونقلة الكتاب والسنة .

وندب الله عز وجل إلى التمسك بهديهم والجري على منهاجهم والسلوك لسبيلهم والاقتداء بهم فقال : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ الآية [3])[4] .

---

(١) أخرجه الخطيب في (الفقيه والمتفقه) (٤٣٩/١) وإسناده صحيح .

(٢) هو : عبد الرحمن بن محمد بن المنذر، أبو محمد، الرازي، الحنظلي، الغطفاني، مشهور بابن أبي حاتم . ولد سنة أربعين ومائتين، أو إحدى وأربعين، وتوفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالري . كان حافظا عابدا عالما، قال عنه الذهبي : (كان بحرا لا تكدره الدلاء) .وله توالف نافعة منها : (آداب الشافعي ومناقبه)، (الرد على الجهمية) وغيرهما .

انظر : طبقات الحنابلة (٥٥/٢)، السير (٢٦٣/١٣) .

(٣) سورة النساء، الآية (١١٥) .

(٤) الجرح والتعديل (٧/١) .

١٠- وقال أبو عبد الله الحاكم رحمه الله [١] :

(تفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع)[٢].

وعلق الإمام ابن القيم على هذا الكلام بقوله :

(ومراده أنه في حكمه في الاستدلال به والاحتجاج، لا أنه إذا قال الصحابي في الآية قولا فلنا أن نقول : هذا القول قول رسول الله ﷺ، أو قال رسول الله ﷺ .

وله وجه آخر وهو أن يكون في حكم المرفوع بمعنى أن رسول الله ﷺ بين لهم معاني القرآن وفسره لهم كما وصفه تعالى بقوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[٣].

فبين لهم القرآن بيانا شافيا كافيا .وكان إذا أشكل على أحد منهم معنى سأل عنه فأوضحه له)[٤].

١١- وقال ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله[٥] :

---

(١) هو : محمد بن عبد الله بن محمد، أبو عبد الله الضبي، الطهماني، النيسابوري الحاكم .ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وتوفي فجأة سنة خمس وأربعمائة .قال عنه ابن كثير (كان من أهل الدين والأمانة والصيانة، والضبط، والتجرد والورع، لكن قال الخطيب : كان يميل إلى التشيع) .له مؤلفات كثيرة منها : (المستدرك على الصحيحين)، (معرفة علوم الحديث) وغيرهما .

انظر : البداية والنهاية (٣٧٩/١١)، طبقات الشافعية الكبرى (١٥٥/٤) .

(٢) المستدرك على الصحيحين (٢٨٣/٢)، ونقله عنه ابن القيم في إعلام الموقعين (١٩٥/٤) .

(٣) سورة النحل، الآية (٤٤) .

(٤) إعلام الموقعين (١٩٥/٤) .

(٥) هو : عبد الله بن أبي زيد، أبو محمد القيرواني المالكي، يقال له مالك الصغير .قال القاضي عياض : (كان أبو محمد رحمه الله إمام المالكية في وقته، وقدوتهم، وجامع مذهب مالك، وشارح أقواله، وكان واسع العلم، كثير الحفظ والرواية، وكتبه تشهد له بذلك) اهـ .ومن كتبه الكثيرة : (الرسالة) (النهي عن الجدال) وغيرهما .توفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة، وقد كان رحمه الله صحيح المعتقد على طريقة السلف .

انظر : ترتيب المدارك (٤٩٢/٤)، السير (١٠/١٧) .

(واللجأ إلى كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه، واتباع سبيل المؤمنين وخير القرون من خير أمة أخرجت للناس نجاة، ففي المفزع إلى ذلك العصمة، وفي اتباع السلف الصالح النجاة، وهم القدوة في تأويل ما تأولوه، واستخراج ما استنبطوه، وإذا اختلفوا في الفروع والحوادث لم يخرج عن جماعتهم)[1].

١٢- وقال ابن عبد البر رحمه الله[2]:

(الاقتداء بالصالحين من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى من المسلمين من السلف الماضين هو ملاك الدين)[3].

١٣- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

(من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا في ذلك، بل مبتدعا، وإن كان مجتهدا مغفورا له خطؤه)[4].

وقال أيضا :

(من فسر القرآن أو الحديث على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله، ملحد في آيات الله، محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام)[5].

١٤- وقال ابن عبد الهادي رحمه الله[6] :

---

(١) الرسالة الفقهية ص : (٢٨٩) (حققه حمو، وأبو الأجفان/دار الغرب/ط١/١٤٠٦) .

(٢) هو : يوسف بن عبد الله بن محمد، أبو عمر، النمري، الأندلسي القرطبي، المالكي، المشهور بابن عبد البر .ولد سنة ثمان وستين وثلاثمائة، وتوفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة. كان حافظا إماما دينا، صاحب سنة واتباع، له مؤلفات ماتعة، منها : (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) و(الاستيعاب في معرفة الأصحاب) وغيرهما .

انظر : ترتيب المدارك (٨٠٨/٤)، السير (١٥٣/١٨) .

(٣) انظر نفح الطيب للمقري (٢٣٥/٣) .

(٤) مجموع الفتاوى (٣٦١/١٣) .

(٥) المصدر السابق (٢٤٣/١٣) .

(٦) هو : محمد بن أحمد بن عبد الهادي، أبو عبد الله، المقدسي، الجماعيلي الأصل الصالحي، الحنبلي . ولد سنة خمس وسبعمائة، وتوفي سنة أربع وأربعين وسبعمائة .كان فقيها بارعا، مقرئا مجودا، محدثا حافظا، =

(لا يجوز إحداث تأويل في آية أو سنة لم يكن على عهد السلف، ولا عرفوه ولا بينوه للأمة ؛فإن هذا يتضمن أنهم جهلوا الحق في هذا، وضلوا عنه، واهتدى إليه هذا المعترض المستأخر)[1] .

ومما سبق يظهر بجلاء أن الله جل وعلا قد أكمل للأمة دينها، وأن النبي ﷺ قد بلغه كاملا و لم يكتم منه شيئا، وبين معانيه بيانا شافيا، وفهم الصحابة عنه كل ذلك فكانوا أعلم الأمة بما تلقوه، وأحفظهم لما سمعوه، وأصدقهم فيما بلغوه، فما بدلوا ولا حرفوا، وما زادوا ولا نقصوا .

فكما نزل الدين من عند الله كاملا، وبلغه رسول الله ﷺ كاملا، فكذلك وصل إلينا كاملا قد تعهد الله بحفظه وحراسته، فكم من مبغض وشانيء طمع في تغييره وتبديله، وكم ممن له غرض دنيء سعى في تحريفه وتشويهه، لكن باءت محاولاتهم بالفشل الذريع، و لم يرجعوا إلا بخفي حنين، و لم ينالوا إلا الذل والهوان، فلا يخلو الزمان ممن نصب نفسه من أهل الإيمان للذب عن الدين وحمايته، فهم بالمرصاد لكل دخيل، يردون كل تحريف ليس عليه دليل، ويدفعون كل ما ليس له في الدين أصل أصيل .

وهذا ما سأبينه بعون الله وتوفيقه في المبحث التالي .

نحويا حاذقا، صاحب فنون كثيرة، وله تواليف عدة منها : (الصارم المنكي في الرد على السبكي)، و (المحرر في أحاديث الأحكام) وغيرهما .

انظر : المعجم المختص للذهبي ص : (٢١٥)، ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٣٦) .

(١) الصارم المنكي ص : (٤٢٧) (تحقيق عقيل اليماني/مؤسسة الريان/ط١/١٤١٧) .

المبحث الثالث : في بيان أن الله تكفل بحفظ هذا الدين

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : في بيان أن القرآن محفوظ ،وعوامل حفظه .

المطلب الثاني : في بيان أن السنة محفوظة ،وعوامل حفظها .

المبحث الثالث : في بيان أن الله تكفل بحفظ هذا الدين

من المعلوم لدى الخاص والعام أنه ما إن أشرقت شمس هذا الدين على دنيا الناس كي تبدد ما خيم عليها من الظلام حتى أجلب الشيطان بخيله ورجله يستنفر جنده من شياطين الإنس ومردة الجان، فلم يألوا جهدا و لم يدخروا وسعا للحيلولة دون انتشار تلك الأنوار، و لم يتركوا سبيلا من سبل المكر إلا سلكوها لمحاربة هذا الدين وقتله في مهده، فلولا أن لطف الله بعباده فتكفل بحفظه لما بقي له اسم ولا رسم .

فقد أوذي رسول الله ﷺ بقبيح الأفعال، وأسمع أشنع الكلام، ورمي بالبهتان، وأخرج من أهله وعشيرته، وطرد من بلده ووطنه، بل رام أعداء الله قتله والفتك به لولا أن عصمه الله ونجاه منهم .

وآذوا أصحابه فنالوهم بصنوف العذاب وألوان الإذاية، بالضرب والتعذيب تارة، وبالقتل والتشريد تارة أخرى، علهم أن يردوهم عن دينهم، أو يثنوهم عن عقيدتهم .

ورموا القرآن بأنه لا يعدوا أن يكون صنعة شاعر، أو تخرصات كاهن، أو خرافات ساحر، أو هذيان مجنون غير عاقل، أو ترجمة لأساطير أقوام ولوا في الزمن الغابر .

وما يزالون إلى يومنا هذا يحيكون المؤامرات، ويلقون الشبهات، ويغرون بالشهوات، وتتوالى منهم المحاولات لعلهم ينعمون بذلك اليوم الذي يقضى فيه على هذا الدين فلا يبقى له عين ولا أثر، لكن الأمر كما قال الله تعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

وكما قال أيضا :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[2].

وقال تعالى :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[3].

فقد وعد الله برعاية دينه، وتولى ذلك بنفسه، وهيأ أسباب حفظه وبقائه، ويسر عوامل صفائه ونقائه .

فكان مما حفظ الله به دينه أنه قدم بين يدي بعثة النبي ﷺ حراسة السماء فملأها حرسا وشهبا ومنع الشياطين من استراق السمع، كما أنه عصم رسوله حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصر جنده وأعلى كلمته، ففتحت البلاد وقامت الحجة على العباد، ووفر دواعي الأمة للذب عن الشريعة، فيسر عوامل عدة لحفظ الكتاب والسنة؛ لأن بقاء الدين مرهون ببقائهما، وحفظه منوط بحفظهما .

وفيما يلي بسط الكلام على العوامل التي قيضها الله لحفظ كتابه وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) سورة التوبة، الآية (٣٢) .

(٢) سورة فاطر، الآية (١٠) .

(٣) سورة فاطر، الآية (٤٣) .

المطلب الأول : عوامل حفظ القرآن الكريم .

إن للقرآن الكريم مكانة لا تخفى، ومنـــزلة لا تعلى، فهو كلام رب العـــالمين، وحجته على الخلق أجمعين، ومعجزة سيد المرسلين، وعمدة المسلمين في معرفة فـــروع الشريعة وأصول الدين؛ لذا يسر الله عوامل عدة لحفظه من التغيير والتبديل، وهذا أوان الشروع في ذكرها، فمنها :

أولا : وعد الله جل وعلا بحفظه :

فإن الله سبحانه وتعالى وعد بحفظ القرآن وتولى ذلك بنفسه، و لم يكلـــــه إلى أحد من خلقه، فقال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[1].

ووعد الله لابد أن ينجز، وما تكفل بحفظه فلا بد أن يحفظ .

قال القرطبي رحمه الله :

(تولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا ،وقال في غيره :

﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ ﴾[2] فوكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا[3])[4].

---

(١) سورة الحجر، آية (٩) .

(٢) إشارة إلى الآية (٤٤) من سورة المائدة .

(٣) حكى أبو عمرو الداني في "طبقات القراء" عن أبي الحسن بن المنتاب قال : كنت يوما عند القـاضي أبي إسحاق إسماعيل بن إسحاق فقيل له لم جاز التبديل على أهل التوراة و لم يجز على أهل القرآن ؟ فقـال القاضي : قال الله عز وجل في أهل التوراة : ﴿ **بما استحفظوا من كتاب الله** ﴾ فوكل الحفظ إليـهم؛ فجاز التبديل عليهم، وقال في القرآن : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾، فلم يجز التبديـل عليهم، قال علي : فمضيت إلى أبي عبد الله المحاملي، فذكرت له الحكاية، فقال : ما سمعـت كلامـا أحسن من هذا) . ذكر هذه الحكاية القاضي عياض في ترتيـب المـدارك (٤/٢٨٣)، والشـاطبي في الموافقات (٢/٩١-٩٢) ونقل القرطبي في تفسيره (١٠/٥-٦) قصة إسلام يهودي زمن المأمون فلمـا ذكرت لسفيان بن عيينة قال في علة حفظ القرآن دون الكتب السابقة مثل كلام القاضي أبي إسحاق .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/٥) .

فالآية دالة على أن الله جل وعلا وعد –ووعده الحق– بأنه سيحفظ القرآن من أن تصل إليه أيدي المفسدين، فلا طمع لهم في إبادته وإعدامه، ولا في تغييره وتبديله، ولا في النقص منه أو الزيادة فيه .فهو محفوظ إلى أن يأذن الله برفعه .

قال جمال الدين القاسمي :

(وفي إيراد الجملة الثانية اسمية دلالة على دوام حفظه)[1].

وقد ظهر مصداق هذا الوعد مع طول المدة، وتتابع الأيام والشهور، وتعاقب السنين والعصور،وانتشار الإسلام وكثرة أهله، فلو أن أحدا سولت له نفسه أن يزيد في القرآن حرفا واحدا، أو يسقطه منه لصاح عليه من أقطار الأرض من لا يحصون كثرة ينكرون عليه فعله، ويكشفون عواره .

قال الشاطبي رحمه الله :

(أما القرآن الكريم فقد قيض الله له حفظة بحيث لو زيد فيه حرف واحد لأخرجه آلاف من الأطفال الأصاغر، فضلا عن القراء الأكابر)[2] .

فالقرآن في حصن حصين لحماية رب العالمين له ؛لذا قال تعالى :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾[3].

قال ابن جرير رحمه الله :

(يقول تعالى ذكره : وإن هذا القرآن لكتاب عزيز بإعزاز الله إياه، وحفظه من كل من أراد له تبديلا، أو تحريفا، أو تغييرا من إنسي وجني وشيطان مارد ...

---

(١) محاسن التأويل (١٠/٣٧٤٩) .

(٢) الموافقات (٢/٩٣) .

(٣) سورة فصلت، الآيتان (٤١،٤٢) .

فلا يستطيع ذو باطل تغييره، وتبديل شيء من معانيه عما هو به، وذلك هـــو الإتيان من بين يديه، ولا إلحاق ما ليس منه فيه، وذلك إتيانه من خلفه)[1] .

فالآية دالة على أن القرآن محفوظ من العبث والتحريف والتبديل، كما يحـوص الرجل من جميع جهاته، وذلك إذا كان في حصن حصين بحيث لا يمكن الوصول إليه.

---

(١) جامع البيان (٢٥/١٢٤-١٢٥) بتصرف .

ثانيا : عوامل أيد الله بها نبيه ﷺ لحفظ القرآن :

فقد من الله على نبيه ﷺ بأمور يسرت له حفظ كتاب الله جل وعلا، ويمكن إجمالها في النقاط التالية :

العامل الأول : شدة الحرص على حفظ القرآن، وكمال الاعتناء به :

فقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على حفظ القرآن، وبألا يضيع منه ولا حرف واحد ؛ذلك لأن القرآن الكريم هو حجته البالغة، ومعجزته الباهرة، فلا غرو أن يوليه أقصى ما يملك من الاهتمام والعناية، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال النبي ﷺ :

(ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة)[1].

ومما يظهر حرصه ﷺ على القرآن الأمور التالية :

(أ) كان النبي ﷺ أثناء نزول الوحي عليه يردد القرآن ويحرك به لسانه، ويتبع جبريل عند تلفظه بكل حرف وكل كلمة، مخافة أن ينسى منه شيئا أوتفوته آية، فأرشده الباري جل وعلا وعلمه بأن عليه أن يتأنى ويتريث فلا يسابق الملك بل يسمع وينصت له حتى يكمل قراءته، ثم ليقبل عليه بالحفظ بعد ذلك، وقد ضمن الله له ألا يقع ما يخافه ويحاذره من أن يضيع من القرآن شيء، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[2].

وقال تعالى :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (٣/٣٣٦) رقم (٤٩٨١)، ومسلم في صحيحه : كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (١/١٣٤) رقم (١٥٢) .

(٢) سورة طه، الآية (١١٤) .

(٣) سورة القيامة، الآيات (١٦-١٩) .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

(كان رسول الله ﷺ يعالج من التنـــزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه، فـأنزل الله تعالى :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ ﴾

قال : جمعه لك في صدرك وتقرأه .

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ﴾

قال : فاستمع له وأنصت .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ ﴾

ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جـــبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه)[1].

قال ابن كثير رحمه الله :

(هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جـــاءه الملـــك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجـــه الذي ألقاه إليه، وأن يـــبينه له ويفسره ويوضحه)[2].

(ب) ومما يظهر شدة حرص النبي ﷺ على القرآن أنه كان يبادر إلى إملاء مـــا نزل عليه إثر نزوله على من يكتبه له، ويرشده إلى موضعه، وكيفية كتابته، ولا يكتفي في ذلك بالحفظ، مع أن الله جل وعلا قد تكفل له أن يجمعه في صدره، وأن يحفظـــه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب بدء الوحي (١/١٥) رقم (٤)، ومسلم في صحيحه : كتـــاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة (١/٣٣٠) رقم (٤٣٨) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٤٩) .

لأمته، ومع أن أدوات الكتابة كانت يومها عزيزة غير ميسرة، فكانوا يكتبون في الرقاع[1]، والعسب[2]، والأكتاف[3]، واللخاف[4]، والأقتاب[5]، وغير ذلك مما يمكنهم الكتابة عليه. فلم تأت رسول الله ﷺ منيته حتى كتب القرآن كله، إلا أنه كان مفرقا ولم يجمع في مكان واحد .

(ج) ومما يظهر حرصه ﷺ على القرآن أنه كان ينهى عن كتابة شيء آخر غير القرآن، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

(لا تكتبوا عني، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه)[6].

ولا شك أن الحامل له ﷺ على هذا النهي هو حرصه على القرآن الكريم والخوف من أن يلتبس به غيره بدليل أنه ﷺ أذن لأفراد خاصين بكتابة الحديث لما انتفت هذه العلة في حقهم .

---

(١) الرقاع : جمع رقعة بالضم وهي الخرقة، والمراد بالرقعة هنا التي تكتب .
انظر : لسان العرب (١٣٢/٨)، القاموس المحيط (٩٧٠/٢) .

(٢) العسب : واحدها عسيب أي جريدة من النخل وهي السعفة مما لا ينبت عليه الخوص .
انظر : غريب الحديث لابن قتيبة (٦٦٨/٣)، النهاية في غريب الحديث (٢٣٤/٣) (تحقيق الزاوي والطناحي/دارإحياء الكتب العربية القاهرة) .

(٣) الأكتاف : جمع كتف وهو عظم عريض في أصل كتف الحيوان من الناس والدواب، كانوا إذا جف كتبوا عليه .
انظر : لسان العرب (٩/ ٢٩٤)، فتح الباري (٦٣١/٨) .

(٤) اللخاف : جمع لخفة وهي حجارة بيض رقاق .
انظر : غريب الحديث لابن قتيبة (٦٦٩/٣)، النهاية في غريب الحديث (٢٤٤/٤) .

(٥) الأقتاب : جمع قتب بفتحتين وهو الخشب الذي يوضع على البعير ليركب عليه، أي إكاف البعير .
انظر : لسان العرب (٦٦٠/١)، فتح الباري (٦٣١/٨) .

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم (٢٢٩٨/٤) رقم (٣٠٠٤) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

(النهي خاص بوقت نزول القرآن خشية التباسه بغيره، والإذن في غير ذلك، أو أن النهي خاص بكتابة غير القرآن مع القرآن في شيء واحد، والإذن في تفريقهما، أو النهي متقدم والإذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس وهو أقربها مع أنه لا ينافيها)[1].

العامل الثاني : نزول القرآن مفرقا :

من المعلوم أن القرآن الكريم لم ينزل على رسول الله ﷺ جملة واحدة، وإنما نزل عليه منجما ومفرقا في نيف وعشرين سنة، قال تعالى :

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾[2].

فعن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قالا :

(لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشر سنين)[3].

ولقد أنبأنا الله جل وعلا عن تعلق المشركين بكل سبب، واستراحتهم إلى كل شغب، فأخبرنا أنهم أرادوا الطعن في القرآن فتمسكوا بهذا الأمر، قال تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[4].

جاهلين أو متجاهلين أن إنزاله مفرقا كان مقصودا، وأن وراء ذلك حكما عظيمة جليلة، منها تيسير حفظه على النبي ﷺ، وعلى أمته الموصوفة بأنها أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب .

---

(١) فتح الباري (٢٥١/١)، وانظر : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢٩٢/١)، وتقييد العلم للخطيب البغدادي ص : (٥٧) (تحقيق العش/دار الوعي، حلب/ط٣/١٩٨٨م) .

(٢) سورة الإسراء، الآية (١٠٦) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (٣٣٦/٣) رقم : (٤٩٧٨، ٤٩٧٩) .

(٤) سورة الفرقان، الآية (٣٢) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

(وفي إنزاله مفرقا وجوه من الحكمة، منها : تسهيل حفظه ؛لأنه لو نزل جملة واحدة على أمة أمية لا يقرأ غالبهم ولا يكتب لشق عليهم حفظه، وأشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله ردا على الكفار :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ ﴾ ، أي أنزلناه مفرقا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ ﴾، وبقوله تعالى :

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾)[1].

ومراعاة لهذا الغرض نفسه كان رسول الله ﷺ يقتصر إذا علم أصحابه القرآن على آيات معدودات لا يدعهم يتجاوزونها حتى يتقنوا حفظها ويتعلموا ما فيها من العلم والعمل[2].

فكما تلقاه ﷺ منجما علمه لأصحابه مفرقا لكي يحفظ حتى يبلغ فلا ينسى .

العامل الثالث : كان جبريل يعارضه القرآن كل سنة :

فقد ثبت أن جبريل عليه السلام كان يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان كل سنة، إلا عامه الذي قبض فيه فقد عارضه مرتين، وكان الغرض من ذلك تثبيت الحفظ، وبيان ما نسخ مما لم ينسخ، وغير ذلك من الحكم .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

(كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة)[3].

---

(١) فتح الباري (٨/٦٢٥)، وانظر أيضا : المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز لأبي شامة ص : (١٣٣) (تحقيق الطبطبائي/مكتبة الإمام الذهبي، الكويت/١٤١٤) فقد ذكر فيه نحوا من هذا الكلام .

(٢) تقدم ذكر أثر أبي عبد الرحمن السلمي عن الصحابة أنهم أخذوا القرآن عن رسول الله ﷺ وفق هذا المنهج فلينظر في ص : (١٢٥) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب بدء الوحي (١/١٥) رقم (٥) .

وعن فاطمة رضي الله عنها[1] قالت :

(أسر إلي النبي ﷺ أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي)[2].

فهذه العوامل الثلاثة مما أيد الله به رسوله ﷺ كي يحفظ كتاب الله فلا ينسى منه شيئا .

---

(١) هي : الصحابية الجليلة فاطمة بنت سيد الخلق رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، تكنى بأم أبيها، وأم الحسنين، القرشية، الهاشمية، سيدة نساء هذه الأمة، والبضعة النبوية .ولدت قبل المبعث بقليل، وتوفيت بعد رسول الله ﷺ بأشهر .وقد كان النبي ﷺ يحبها ويكرمها ويسر إليها، ومناقبها غزيرة .

انظر : الاستيعاب (١٨٩٣/٤)، السير (١١٨/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين يدي الناس (١٨٢/٧) رقم : (٦٢٨٥-٦٢٨٦) .

ثالثا : عوامل أسهمت في حفظ الصحابة للقرآن الكريم .

لقد تظافرت عوامل عدة أسهمت في حرص الصحابة على حفظ كتاب الله، منها :

العامل الأول : أن النبي ﷺ كان يذكي فيهم روح الاعتناء بالقرآن الكريم :

فقد كان النبي ﷺ يرغب أصحابه ويحفزهم على حفظ القرآن، ويذكي فيهم روح الاعتناء به والحرص على أخذه، ومما يبين ذلك ويظهره الأمور التالية :

(أ) كان ﷺ يذكر لهم ما في حفظه من الثواب الجزيل والفضل العظيم، ولا ريب أن لذلك أثره البالغ في نفوسهم فهم الحريصون على الخير والثواب .وقد ورد في هذا الصدد أحاديث كثيرة، منها :

ما رواه عثمان بن عفان ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال :

(خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[1] .

وكان أبو عبد الرحمن السلمي يقول :

(ذلك الذي أقعدني مقعدي هذا) حيث كان يعلم في حياة عثمان إلى زمن الحجاج[2].

قال الحافظ ابن حجر :

(الحديث الذي حدث به عثمان في أفضلية من تعلم القرآن وعلمه حمل أبا عبد الرحمن أن قعد يعلم الناس القرآن لتحصيل تلك الفضيلة)[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٣٤٦/٣) رقم : (٥٠٢٧) .

(٢) هو : الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل، أبومحمد، الثقفي، الأمير، المبير . ولد سنة تسع وثلاثين، وقيل غير ذلك، وهلك في رمضان سنة خمس وتسعين . قال عنه الذهبي : (كان ظلوما، جبارا، ناصبيا، خبيثا، سفاكا للدماء، وكان ذا شجاعة، وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن) .
انظر : السير (٣٤٣/٤)، البداية والنهاية (١١٧/٩) .

(٣) فتح الباري (٦٩٥/٨) .

فإذا كان هذا الحديث قد أثر في هذا التابعي الجليل، فجلس لإقراء القرآن هذه المدة الطويلة من غير ملل ولا كلل، عله يظفر بهذه الفضيلة ويذكر مع تلك الزمرة الخيرة، فلك أن تتصور مدى تأثيره على أصحاب رسول الله ﷺ الذين هم أحرص منه على الخير وأكثر طلبا له .

ومثل الحديث السابق قوله ﷺ :

(الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له فهو مع السفرة [1] الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران)[2].

وقوله ﷺ :

(لا حسد إلا على اثنتين : رجل آتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالا فهو يتصدق به آناء الليل وآناء النهار)[3].

وقوله ﷺ :

(يقال لصاحب القرآن يوم القيامة : اقرأ وارقه، فإن منزلك عند آخر آية تقرأها)[4].

---

(١) قال البغوي في شرح السنة (٤/٤٣٠) :
(السفرة هم الملائكة، سموا سفرة لأنهم ينزلون بوحي الله وما يقع به الصلاح بين الناس، كالسفير الذي يصلح بين القوم، يقال : أسفرت بين القوم : أي أصلحت بينهم ...) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب التفسير، باب سورة عبس (٣/٣٢١) رقم : (٤٩٣٧)، ومسلم في صحيحه : كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب : فضل الماهر في القرآن والذي يتتعتع فيه (١/٥٤٩) رقم : (٧٩٨) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن (٣/٣٤٦) رقم : (٥٠٢٥)، ومسلم في صحيحه : كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (١/٥٥٨) رقم (٨١٥) .

(٤) أخرجه أحمد في المسند (١١/٤٠٤ الرسالة) رقم (٦٧٩٩)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيب في القراءة (٢/٧٣) رقم (١٤٦٤)، والترمذي في كتاب فضائل القرآن (٥/١٧٧) رقم (٢٩١٤)، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص (٨٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٤٩٨) رقم

والمراد بصاحب القرآن أي الحافظ له لا من كان يكثر تلاوته دون أن يحفظه[1].

والمقصود أن النبي ﷺ كان يحث أصحابه ويرغبهم في حفظ القرآن بذكر هذه الأحاديث وما في معناها، فكان لذلك أثره البالغ في شحذ هممهم، ودفعهم إلى التنافس في حفظه، والمسارعة إلى فهمه وتطبيقه، وتحفيزهم إلى بذل النفس والنفيس لنشره والذب عنه .

(ب) كان ﷺ يعظم أهل القرآن ويكرمهم، وينيط نيل بعض المناصب بكثرة الحفظ :

فقد جعل النبي ﷺ حفظ القرآن هو السبيل إلى نيل السؤدد والرفعة في الدنيا والآخرة، وأناط به استحقاق الإمامة في الصلاة، كما أنه إذا اضطر أن يدفن أكثر من شخص في قبر واحد قدم في اللحد من هو أكثر حفظا، وربما زوج بالقرآن من كان فقيرا معدما، ولا يخفى ما في هذا من الترغيب في حفظ القرآن والحث عليه .

=

(٢٩١٤)، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص (٨٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤٩٨/١٠) رقم (١٠١٠٤)، والحاكم في المستدرك (٥٥٢/١)، والبغوي في شرح السنة (٤٣٥/٤)، وفي إسناده عاصم ابن أبي النجود وهو حسن الحديث، وقد صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه أيضا الشيخ أحمد شاكر في التعليق على المسند (٥٥/١١ شاكر) رقم (٦٧٩٩)، وقال الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٨٣/٥) : (هو عندي حسن للخلاف المعروف في عاصم، لكن يزداد قوة بالشاهد الذي يرويه فراس عن عطية عن أبي سعيد الخدري مرفوعا) .

(١) قال الشيخ الألباني رحمه الله في "الصحيحة" (٢٨٤/٥) : (اعلم أن المراد بقوله : صاحب القرآن حافظه عن ظهر قلب على حد قوله ﷺ : (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله) أي أحفظهم، فالتفاضل في درجات الجنة إنما هو على حسب الحفظ في الدنيا، وليس على حسب قراءته يومئذ واستكثاره منها =

فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال : أما إن نبيكم ﷺ قال :

(إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين)[1].

وعن أبي مسعود الأنصاري ﷺ[2] أن النبي ﷺ قال :

(يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله)[3].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال :

(كان رسول الله ﷺ يقول لقتلى أحد : أي هؤلاء أكثر أخذا للقرآن ؟ فإذا أشير له إلى رجل قدمه في اللحد قبل صاحبه)[4] .

وقد ثبت أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت : إنها قد وهبت نفسها لله ولرسوله ﷺ، فقال ﷺ : ما لي في النساء من حاجة .

فقال رجل : زوجنيها . قال : أعطها ثوبا . قال : لا أجد !!

قال : أعطها ولو خاتما من حديد، فاعتل له، فقال : ما معك من القرآن ؟

قال : كذا وكذا . فقال : فقد زوجتكها بما معك من القرآن)[5].

=

كما توهم بعضهم، ففيه فضيلة ظاهرة لحافظ القرآن، لكن بشرط أن يكون حفظه لوجه الله تبارك وتعالى، وليس للدنيا والدرهم والدينار، وإلا فقد قال ﷺ : ((أكثر منافقي أمتي قراؤها)) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب : فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٥٥٩/١) رقم : (٨١٧) .

(٢) هو : الصحابي الجليل : عقبة بن عمرو بن ثعلبة، أبو مسعود، الأنصاري، البدري، اشتهر بالبدري لأنه نزل ماء ببدر، وأما شهوده معركة بدر فمحل خلاف عند العلماء .روى أحاديث كثيرة، وهو معدود في علماء الصحابة .توفي سنة أربعين، وقيل غير ذلك .

انظر : الاستيعاب (١٠٧٤/٣)، السير (٤٩٣/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب المساجد، باب : من أحق بالإمامة ؟ (٤٦٥/١) رقم (٦٧٣) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب اللحد والشق في القبر (٤١٥/١) رقم (١٣٥٣).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب (٣٤٧/٣) رقم (٥٠٣٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه : كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد (١٠٤٠/٢) رقم (١٤٢٥) .

العامل الثاني : ما عرفوا به من قوة الحفظ :

فقد كان العرب يومها يمتلكون مقدرة ذاتية عظيمة على الحفظ بحكم بيئتهم ونمط عيشهم وتكوينهم، فبالرغم من كونهم أمة أمية يغلب عليهم الجهل بالقراءة والكتابة، فقد كانوا يعتمدون على قوة أذهانهم في معرفة أنسابهم، وحفظ أشعارهم، ونقل خطب المفوهين منهم، وذكر مآثرهم وأيامهم، حتى أضحى اتساع الذاكرة، وقوة الحفظ خصيصة من خصائصهم التي لا تشاركهم فيها أمة من الأمم .

قال ابن قتيبة رحمه الله[1]:

(ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب، خصيصى من الله لما أرهصه في الرسول، وأراده من إقامة الدليل على نبوته من الكتاب ...)[2].

فالمقدرة على الحفظ كانت فيهم سجية وطبيعة، ومنة أنعم الله بها عليهم ومنحة، ولاشك أن هذه المقدرة تزداد عند استشعار مسؤولية تبليغ القرآن، وكونها واجبا دينيا قد أنيط به خير الدنيا والآخرة، وأن تارك ذلك مستحق للوعيد الشديد في العاجل والآجل .كما أنها من أعظم الأمانات التي يجب عليهم أداؤها على أكمل الوجوه وأتمها .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله :

(كانوا أحرص شيء على أداء الأمانات، وهذا من أعظم الأمانة ؛لأن الرسول ﷺ أودعهم ذلك ليبلغوه إلى من بعدهم)[3].

---

(١) هو : عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد الدينوري، الكاتب نشأ ببغداد .ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين، وتوفي سنة ست وسبعين ومائتين، وقيل غير ذلك .كان فصيحا بليغا حتى وصف بأنه خطيب أهل السنة، له مؤلفات كثيرة منها : (تأويل مشكل القرآن) و (عيون الأخبار) وغيرهما .
انظر : تاريخ بغداد (١٠/١٧٠)، السير (١٣/٢٩٦) .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص : (١٠) (تحقيق أحمد صقر/المكتبة العلمية، بيروت/ط٣/١٤٠١) .

(٣) فضائل القرآن ص : (٦٣) (تحقيق الحويني/مكتبة ابن تيمية /ط١/١٤١٦) .

(ومن القواعد المطردة أن كل شيء للعرب إذا تعلق به سبب من الدين جاءوا فيه بالمعجزات التي يبزون فيها الأمم كافة ويجعلونها من أنفسهم طبقة التاريخ وحدها، و لم نر هذه القاعدة تخلفت في أمر من أمورهم، وهي بعض ما خص به هذا الدين الحنيف الذي وجد العالم في كتابه الكريم معجزته الخالدة)[1].

وعليه فإن اعتماد الصحابة في نقل القرآن وتبليغه كان في الغالب على حفظ الصدور، وأما الكتابة فهي من باب المبالغة في الاعتناء بالقرآن وسد ذرائع الاختلاف فيه، وقطع الطريق على من يحاول التشكيك في كونه محفوظا .

ولا يشكل على هذا ما ورد عن أنس ﷺ أنه قال :

(مات النبي ﷺ و لم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت وأبو زيد، قال ونحن ورثناه)[2].

قال الحافظ ابن كثير:

(هذا الحديث ظاهره أنه لم يجمع القرآن من الصحابة سوى هؤلاء الأربعة فقط، وليس هذا هكذا، بل الذي لا يشك فيه : أنه جمعه غير واحد من المهاجرين أيضا)[3].

وقد ذكر العلماء عدة أقوال في توجيه هذا الأثر[4]،أذكر منها ما يلي :

---

(١) قاله الرافعي في كتابه تاريخ الأدب العربي (٣٠٢/١) (دار الكتاب العربي، بيروت/ط٤/١٣٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ (٣٤١/٣) رقم : (٥٠٠٤)، وأخرجه نحوه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بن كعب وجماعة من الأنصار (١٩١٤/٤) رقم (٢٤٦٥) .

(٣) فضائل القرآن ص : (١٥٨) .

(٤) انظرها في : الانتصار للباقلاني (١٨٠/١-١٨١) ،ونكت الانتصار للصيرفي ص : (٦٨ وما بعدها) (تحقيق محمد زغلول/منشأة المعارف، مصر)، و فضائل القرآن لابن كثير ص : (١٥٨ وما بعدها)، وفتح الباري لابن حجر (٦٦٨/٨ وما بعدها) .

١/ أن أنسا ﷺ ذكر هذا في معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج، فاقتصر على من جمعه من قومه دون التعرض لذكر غيرهم، بدليل أن جميع المذكورين من الخزرج، كما أنه قد جاء في بعض روايات الأثر التصريح بالمفاخرة بين الحيين فجاء فيه :

(افتخر الحيان الأوس والخزرج، فقالت الأوس : منا غسيل الملائكة حنظلة بن أبي عامر، ومنا الذي حمته الدبر عاصم بن ثابت، ومنا الذي اهتز لموته العرش سعد بن معاذ، ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت .فقالت الأوس : منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ . . .)[1] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

(يحتمل أن مراد أنس (لم يجمعه غيرهم) أي من الأوس بقرينة المفاخرة المذكورة، و لم يرد نفي ذلك عن المهاجرين)[2].

٢/ يحتمل أن يكون أراد بالجمع الكتابة، فلا ينفي أن يكون غيرهم جمعه حفظا عن ظهر قلب، وأما هؤلاء فجمعوه كتابة وحفظوه عن ظهر قلب .

٣/ يحتمل أن هؤلاء المذكورين هم الذين أظهروا ذلك لأمنهم من الرياء والعجب، و لم يظهره غيرهم لخوفهم على أنفسهم من ذلك .

٤/ يحتمل أن يكون المراد بجمعه تلقيه من في رسول الله ﷺ بلا واسطة، بخلاف غيرهم فيحتمل أن يكون تلقى بعضه بالواسطة .

---

(١) أخرجه البزار في مسنده برقم (٢٨٠٢) و (٢٨٠٣)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٧٤/١٠) و (٢٢٢/١٤) والطبراني في المعجم الكبير (١٠/٤) رقم (٣٤٨٨)، ومداره على عبد الوهاب بن عطاء الخفاف وهو من رجال مسلم قال عنه الحافظ في التقريب ص (٣٠٩) : صدوق ربما أخطأ .فالأثر لا ينزل عن درجة الحسن والله أعلم .

(٢) فتح الباري (٦٦٨/٨) .

هذا على فرض أن أنسا ﷺ لم يقصد الحصر، وهو الظاهر؛ إذ يستبعد جدا أن يكون قصده حصر الحفاظ في هؤلاء نظرا لصعوبة معرفة كل من جمعه إن لم يكن متعذرا، وذلك بسبب كثرة الصحابة، وتفرقهم في الأمصار، وكثرة المشاغل الصارفة عن تتبع مثل هذا الأمر .

قال المازري[1] :

(كيف تعرف النقلة أنه لم يكمله سوى أربعة، وكيف تتصور الإحاطة بهذا، وأصحاب النبي الله ﷺ مفترقون في البلاد ؟ وهذا لا يتصور حتى يلقى الناقل كل رجل منهم فيخبره عن نفسه أنه لم يكمل القرآن وهذا بعيد تصوره في العادة)[2] .

وأما إذا قصد أنه لم يحفظه من الصحابة إلا هؤلاء فيجاب بأن هذا ما بلغه علمه، وقد أحسن من انتهى إلى ما علم، لكن وردت عدة أدلة لا تدع مجالا للشك والريبة تثبت أن جمعا من الصحابة غير المذكورين جمعوه كله .

والمقصود أن صحابة رسول الله ﷺ قد فتحوا صدورهم لكتاب الله فحفظه كله في حياة النبي ﷺ جماعة، كما أن كل قطعة منه كان يحفظها من لا يقل عددهم عن حد التواتر .

قال المازري :

(حفظ جميع أجزائه مئون لا يحصون كثرة، وما من شرط كونه متواترا أن يحفظ الكل الكل، بل الشيء الكثير إذا روى كل جزء منه خلق كثير علم بالضرورة وحصل متواترا)[3].

---

(١) هو : محمد بن علي بن عمر، أبو عبد الله، التميمي، المازري، المالكي .كان أحد الأذكياء الموصوفين، والأئمة المتبحرين، له مؤلفات عدة منها : (المعلم بفوائد شرح مسلم) و(إيضاح المحصول في الأصول) وغيرهما . توفي في ربيع الأول سنة ست وثلاثين وخمسمائة .
انظر : الديباج المذهب (٢/٢٥٠)، السير (٢٠/١٠٤) .

(٢) المعلم بفوائد مسلم (٣/١٥١) (تحقيق النيفر/دار الغرب الإسلامي/ط٢/١٩٩٢م).

(٣) المصدر السابق (٣/١٥١) .

العامل الثالث : توفيق الله لهم إلى كتابة القرآن وجمعه في مصحف واحد .

(لما كان القرآن مقصودا حفظ لفظه ومعناه، وفي ضياع لفظة واحدة منه فوات مقصود ديني، وهو مقدار محصور يسهل على الصحابة حفظه في الصدور، وكتابته في الجملة كلفوا بحفظه بالطريقتين، وبذلك جرى العمل في حياة النبي ﷺ فتوفاه الله والقرآن كله محفوظ في الصدور، ...، ومحفوظ كله بالكتابة مفرقا في القطع التي بأيدي الناس)[1]، ولم يكن مجموعا في مكان واحد ولا مرتب السور لتعذر ذلك نظرا لما فيه من المشقة، وربما لما فيه من المفسدة أيضا؛ لأن القرآن نزل مفرقا فكان النبي ﷺ يترقب ورود ناسخ لتلاوة بعضه .

قال البغوي رحمه الله :

(ثبت أن القرآن كان على هذا التأليف والجمع في زمان النبي ﷺ، ويشبه أن يكون النبي ﷺ إنما ترك جمعه في مصحف واحد؛ لأن النسخ كان يرد على بعضه، ويرفع الشيء بعد الشيء من تلاوته، كما ينسخ بعض أحكامه، فلو جمعه ثم رفعت تلاوة بعضه أدى ذلك إلى الاختلاف، واختلاط أمر الدين، فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمن النسخ، ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين)[2] .

فجمعه أبو بكر ﷺ بمشورة من عمر ﷺ لما استحر[3] القتل بالقراء في اليمامة وخشي أن يستحر بهم في بقية المواطن فيضيع بموتهم شيء من القرآن، وامتاز هذا الجمع بجمع ما تواتر أنه قرآن، وما لم تنسخ تلاوته، كما أنه كتب بجميع الأحرف السبعة، لكنه كان مرتب الآيات فقط، وكانت كل سورة تكتب في صحف مستقلة

---

(١) قاله المعلمي في الأنوار الكاشفة ص : (٢٣٩) (عالم الكتب /١٤٠٣) .

(٢) شرح السنة (٥١٩/٤) .

(٣) استحر : أي اشتد وكثر .

انظر : القاموس المحيط (٥٣٢/١)، فتح الباري (٦٢٨/٨) .

ثم جمعت هذه الصحف وشدت بعضها إلى بعض من غير ترتيب .وكان هذا الفعل من أعظم مناقب الصديق ﷺ، وما هي بأول بركة آل أبي بكر .

ولما تفرق الصحابة في الأمصار فصار كل واحد يقرئ الناس بما سمعه من رسول الله ﷺ، نشب الاختلاف بين الناس بسبب انتصار كل واحد لقراءته وتخطئة قراءة غيره، فتدارك الخليفة الراشد عثمان ﷺ الأمر قبل أن يستفحل فجمع القرآن مرتب السور في مصحف واحد، واقتصر على حرف احد، وهو الموافق للغة قريش ؛ لأن القرآن نزل بلسانهم .

قال ابن كثير رحمه الله :

(هذه الأفعال من أكبر القربات التي بادر إليها الأئمة الراشدون : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حفظا على الناس القرآن وجمعاه لئلا يذهب منه شيء، وعثمان ﷺ جمع قراءات الناس على مصحف واحد، ووضعه على العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره عليه السلام)[1].

والمقصود أن الله جل وعلا وفق الصحابة إلى الاتفاق على جمع القرآن وكتابته، (فكان هذا الاتفاق سببا لبقاء القرآن في الأمة، رحمة من الله عز وجل على عباده، وتحقيقا لوعده في حفظه)[2] .

---

(١) فضائل القرآن ص : (٨٦) .

(٢) شرح السنة (٥٢٣/٤) .

رابعا : صفات تميز بها القرآن يسرت حفظه :

امتاز القرآن بأمور عدة ساهمت في حفظه ونقله إلى الأمة كما أنزل من غير أن يزاد فيه شيء أو ينقص منه، ومن ذلك :

١/ أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه يسره للذكر :

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

ففي الآية إخبار عن القرآن بأنه ميسر للقراءة والحفظ والتدبر والعمل .

قال ابن القيم رحمه الله :

(تيسيره للذكر يتضمن أنواعا من التيسير :

إحداها : تيسير ألفاظه للحفظ .

الثاني : تيسير معانيه للفهم .

الثالث : تيسير أوامره ونواهيه للامتثال)[2].

٢/ أنه معجز في لفظه ومعناه :

من أهم خصائص القرآن أنه كلام الله تعالى، فهو مباين لكل كلام، معجز في أسلوبه ونظمه لايقدر على معارضته أحد من الأنام، وقد تحدى الله العرب أن يأتوا بمثله أو سورة منه فلم يستطيعوا مع حرصهم على إبطال دينه، ومع أنهم (أفصح الخلق وأعلمهم بالبلاغة والشعر وقريظ الكلام وضروبه، لكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد من البشر به، من الكلام الفصيح البليغ الوجيز المحتوي على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة، والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآتية، والأحكام العادلة المحكمة)[3] .

---

(١) سورة القمر، الآية (١٧) .

(٢) الصواعق المرسلة (١/٣٣١) .

(٣) قاله ابن كثير في كتابه : فضائل القرآن ص : (٤٣) .

وقد ذكر لنا التاريخ أسماء قوم أرادوا أن يعارضوا القرآن، فلم يأتوا إلا بما يضحك السفهاء بله العقلاء، فكانت تلك الترهات مخازي تذكر بذكرهم، وأضحت تلك الحماقات وصمات عار تلاحق أسماءهم .

قال الخطابي رحمه الله :

(وإذا أنت وقفت على شروط المعارضات ورسومها، وتبينت مذاهبها ووجوهها، علمت أن القوم لم يصنعوا في معارضة القرآن شيئا، و لم يأتوا من أحكامها بشيء بتة، والأمر في ذلك بين واضح لا يخفى على ذي مسكة ذكي والحمد لله)[1].

والمقصود أن الناس كلهم لو اجتمعوا بما يعرفونه، وأمدهم الجن بما لا يعرفونه، وكان بعضهم لبعض ظهيرا ما استطاعوا أن يأتوا بمثل سورة من القرآن ولو كانت قصيرة، قال تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[2].

وعليه فكما لا يستطيع أيا كان أن يأتي بمثل القرآن كذلك لا يقدر أيا كان أن يزيد فيه ما ليس منه، ولو حاول أحد أن يفعل ذلك لرأيت الفرق بين الدخيل والأصيل كالفرق بين الأرض والسماء، وهذا بلا شك ولا مرية مما حفظ الله به كتابه .

وجماع الأمر أن الله سبحانه وتعالى وعد بحفظ القرآن فيسر الأسباب والعوامل المعينة على ذلك، كما أنه جل وعلا يسر العوامل المعينة على حفظ السنة لأنها صنو الكتاب، وفي المطلب التالي عرض لبعض تلك العوامل :

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص (٦٠) (ضمن ثلاث رسائل بتحقيق زغلول وخلف/دار المعارف/ط٣).

(٢) سورة الإسراء، الآية (٨٨) .

المطلب الثاني : عوامل حفظ السنة :

من المعلوم أن للسنة النبوية عند المسلمين منـــزلة عالية ومكانة سامية، فـــهي التي تبين الكتاب وتفسره وتجلي غوامضه، بل إن فهم القرآن دون الاستعانة بالسنة من المحال وطريق إلى الضلال؛ لذا أوجب الله طاعة الرسول ﷺ في غير موضع من كتابـــه وقرنها بطاعته جل وعلا، كما أمر النبي ﷺ بالأخذ بسنته واتباع هديه وحذر من ترك ذلك والإعراض عنه .

ونظرا لأهمية السنة ومنـــزلتها فقد طمع أهل الزيغ والإلحاد في إفساد الديـــن بإفسادها، ومحاربته بإقصائها أو على الأقل التشكيك في ثبوتها ومصداقيتها، خاصـــة وأنه لم يتيسر لها من العوامل مثل ما تيسر لنقل القرآن، فالقرآن قدره محدود، ونقـــل لفظه مقصود ؛لذا نقلته الأمة بالتواتر، بخلاف السنة فهي كثيرة ومتفرقة، ومن المتعسر كتابتها وجمعها كلها في زمن النبي ﷺ فلم ينقل بالتواتر إلا القليل منها .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(لما كانت ألفاظ القرآن محفوظة، منقولة بالتواتر لم يطمع أحد في إبطال شيء منه ولا بزيادة شيء فيه، بخلاف الكتب قبله، قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[1].

بخلاف كثير من الحديث، طمع الشيطان بتحريف كثير منه، وتغيير ألفاظـــه بالزيادة والنقصان، والكذب في متونه وإسناده)[2] .

بيد أن الله جل وعلا قيض لها عوامل عدة كانت سببا لحفظها، وعونا علـــى معرفة الصحيح من السقيم، وتمييز الأصيل من الدخيل، ومن تلك العوامل ما يلي :

---

(١) سورة الحجر، الآية (٩) .

(٢) تلخيص الاستغاثة (١/١٧١) .

أولا : وعد الله بحفظ الذكر يشمل حفظ السنة أيضا :

فالسنة داخلة في وعد الله بحفظ الذكر في قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[1].

(فحفظها دلت عليه الآية إما اقتضاء؛ لأن لفظة الذكر عني بها الوحي، فيقتضي السنة، وإما لزوما إذا قصر لفظ الذكر على القرآن؛ لأن السنة شارحة ومبينة للقرآن، ومن تكفل بحفظ المبين والمشروح فقد تكفل بحفظ الشارح والمبين)[2].

قال العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي رحمه الله[3] :

(أما السنة فقد تكفل الله بحفظها أيضا؛ لأن تكفله بحفظ القرآن يستلزم تكفله بحفظ بيانه وهو السنة، وحفظ لسانه وهوالعربية، إذ المقصود بقاء الحجة قائمة، والهداية باقية بحيث ينالها من يطلبها، لأن محمدا خاتم الأنبياء وشريعته خاتمة الشرائع، بل دل على ذلك قوله :

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ ﴾[4])[5].

---

(١) سورة الحجر، الآية (٩) .

(٢) قاله عمر بن حسن فلاته في كتابه الوضع في الحديث (١/١١) (مؤسسة مناهل العرفان دمشق/١٤٠١).

(٣) هو : عبد الرحمن بن يحيى بن علي، أبو عبد الله، المعلمي، العتمي، اليمني .ولد سنة (١٣١٣هـ)، وتوفي سنة (١٣٨٦هـ) .كان عالما عاملا سلفيا، نال إعجاب علماء عصره وأطبقوا على الثناء عليه. له مؤلفات كثيرة ونافعة منها : (التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل) و (الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة) وغيرهما .
انظر : مقدمة التنكيل ص : (١٦٥-١٧٠) (المكتب الإسلامي/ط٢/١٤٠٦)، وكتاب الشيخ المعلمي وجهوده في السنة ورجالها لمنصور السماري ص : (٨) (دار ابن عفان/ط١/١٤١٨) .

(٤) سورة القيامة، الآية (١٩) .

(٥) الأنوار الكاشفة ص : (٣٣) .

ثانيا : عوامل ترجع إلى الرسول ﷺ :

تمت عوامل عدة ترجع إلى الرسول ﷺ ساعدت في حفظ السنة منها :

١/ أن النبي ﷺ كان يرغب في حفظ الحديث ويحث على نقله وتبليغه .

ومما ورد في ذلك :

قوله ﷺ :

(نضر الله امرءا سمع مقالتي، فوعاها، وحفظها، وبلغها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[١].

وقوله ﷺ في خطبته يوم النحر في حجة الوداع :

(فليبلغ الشاهد الغائب)[٢].

ففي الحديث الأول دعوة نبوية مباركة لمن سمع الحديث فوعاه وحفظه حتى يبلغه كما سمعه، ومضمونها الدعوة له بالنضارة التي تعني : (جمال الظاهر والباطن، فإن النضرة هي البهجة والحسن الذى يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به، وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهر هذه البهجة والسرور نضارة على الوجه، ولهذا يجمع له سبحانه بين السرور والنضرة كما في قوله تعالى :

﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾[٣].

فالنضرة في وجوههم، والسرور في قلوبهم، فالنعيم وطيب القلب يظهر نضرة في الوجه كما قال تعالى :

﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾[٤])[٥].

---

(١) تقدم تخريجه ص : (١٢٠) .

(٢) تقدم تخريجه ص : (١١٨) .

(٣) سورة الإنسان، الآية (١١) .

(٤) سورة المطففين، الآية (٢٤) .

(٥) قاله ابن القيم في كتابه مفتاح دار السعادة (١/٢٧٦) (تحقيق الحلبي/دار ابن عفان/ط١/١٤١٦).

فالحديث دليل على أن النبي ﷺ كان شديد الحرص علىأن تحفظ سنته حتى تصل إلى أمته، لذا خطب في جمع عظيم من أصحابه في مسجد الخيف بمنى يحثهم على ذلك، فدعا بهذه الدعوة المباركة المستجابة شحذا للهمم وإيقاظا للعزائم .

وأما الحديث الثاني ففيه الأمر بأن يبلغ الشاهد الغائب، والسابق اللاحق، كما أن فيه الحث على الوعي والحفظ لما يريد الإنسان أن يبلغه، إذ لا سبيل إلى التبليغ إلا بذلك، ففاقد الشيء لايعطيه .

٢- أن النبي ﷺ كان شديد التحذير من الكذب في الحديث :

فقد ورد عنه ﷺ الوعيد الشديد لمن تعمد الكذب عليه فقال ﷺ :

(من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)[١].

وقال ﷺ :

(من حدث بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين)[٢].

وقال ﷺ :

(كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع)[٣].

ففي هذه الأحاديث تعظيم أمر الكذب على النبي ﷺ وجعله أعظم أنواع الكذب بعد الكذب على الله، ومن الكذب أن يروي الإنسان كل ما ينسب إلى النبي ﷺ من غير تثبت ولا روية، وأن يروج الأحاديث المكذوبة ويذيعها في الأمة من غير بيان لحالها وتحذير الناس منها .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ (١/٥٥) رقم : (١١٠)، ومسلم في مقدمة صحيحه :باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ (١/١٠) رقم : (٣) وهو حديث متواتر كما صرح به غير واحد من أهل العلم، منهم الحافظ ابن حجر في الفتح (١/٢٤٥) .

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين (١/٩) .

(٣) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (١/١٠) رقم (٥) .

قال ابن حبان رحمه الله :

(إني خائف على من روى ما سمع من الصحيح والسقيم أن يدخل في جملة الكذبة على رسول الله ﷺ إذا كان عالما بما يروي)[1].

والمقصود أن هذا الوعيد الشديد مما حفظت به السنة؛ لذا (كره قوم من الصحابة والتابعين إكثار الحديث عن النبي ﷺ خوفا من الزيادة والنقصان، والغلط فيه، حتى إن من التابعين من كان يهاب رفع المرفوع، فيوقفه على الصحابي، ويقول : الكذب عليه أهون من الكذب على رسول الله ﷺ .ومنهم من يسند الحديث حتى إذا بلغ به النبي ﷺ قال : قال، و لم يقل رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول : رفعه، ومنهم من يقول : رواية، ومنهم من يقول : يبلغ به النبي ﷺ، وكل ذلك هيبة للحديث عن رسول الله ﷺ، وخوفا من الوعيد)[2] .

٣/ طبيعة كلامه ﷺ :

مما سهل حفظ حديث النبي ﷺ أنه ﷺ كان يطيل السكوت ولا يتكلم إلا عند الحاجة، فإذا تكلم كان كلامه أفصح الكلام وأبلغه، وأحلاه وأعذبه، تسابق معانيه ألفاظه، وبالرغم من كونه قليل الألفاظ مقتضب الجمل إلا أنه واسع المعاني كثير البركة، ومع أنه منزه عن التكلف والصنعة يلقيه على السجية دون أن يقصد إلى تزيينه وتنميقه إلا أنه يأتي محذوف الفضول سالما من التعقيد والعي والخطل، فهو باختصار كلام موجز ومعجز؛ لأن (اجتماع الكلام وقلة ألفاظه، مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف، ومع إبانة المعنى واستغراق أجزائه، وأن يكون ذلك عادة وخلقا يجري عليه الكلام في معنى معنى، وفي باب باب، شيء لم يعرف في هذه اللغة لغيره ﷺ -لأنه في ظاهر العادة يستهلك الكلام ويستولي عليه

---

(١) كتاب المجروحين (١/١٦) .

(٢) شرح السنة للبغوي (١/٢٥٥) .

بالكلف، ولا يكون أكثر ما يكون إلا باستكراه وتعمل، كما يشهد به العيان والأثر- فكان تيسير ذلك للنبي ﷺ واستجابته على ما يريد وعلى النحو الذي خرج به نوعا من الخصائص التي انفرد بها دون الفصحاء والبلغاء وذهب بمحاسنها في العرب جميعا .

وهذا الذي كان يعجب له أصحابه ويرونه طبقة في هذا اللسان وطرازا لا يحسنه إنسان)[1].

لذا كان النبي ﷺ إذا تكلم أصغت لكلامه الأسماع، ومالت إليه القلوب فيأخذ بمجامعها وينفذ إلى سويدائها، فتقشعر منه الجلود، وتذرف العيون، وتتفتح العقول لفهمه وعقله، والصدور لحفظه وضبطه؛ لأن مسارعة الناس إلى حفظ الكلام منوط بما اشتمل عليه من المحاسن، فكلما كثرت فيه كثر من يحفظه ويتناقله، لذا قال الشاعر[2]:

من الناس من لفظه لؤلؤ يبادره اللقط إذ يلفظ

و بعضهم قوله كالحصى يقال فيلغى ولا يحفظ

٤/ طريقته ﷺ في إلقاء الكلام، وأسلوبه في عرض الحديث :

فقد كان لطريقة النبي ﷺ في الكلام دور مهم في تيسير حفظ حديثه، وضبط خطبه وأقواله، فبالرغم من أن كلامه ﷺ جمع من الصفات ما ذكرت، وفوق ما وصفت، ومع أن (الله سبحانه وتعالى ألقى على كلامه ﷺ المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته وقلة الحاجة إلى معاودته)[3]، مع هذا كله إلا أن النبي ﷺ كان لا يسرد حديثه سردا، بل كان يتكلم بكلام بين فصل ، بالإمكان عده، ويعيده مرارا حتى يتيسر عقله وضبطه، حرصا منه ﷺ على أن تحفظ السنة حتى تصل إلى سائر الأمة .

---

(١) قاله الرافعي في كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص : (٣٠٠) (دار الكتاب العربي/١٤١٠) .

(٢) هو أبو العلاء المعري، والبيتان في كتابه اللزوميات (٢/٧٩) (تحقيق الخانجي/مكتبة الخانجي القاهرة).

(٣) نقلته بتصرف من البيان والتبين للجاحظ (٢/١٧) (تحقيق هارون/مكتبة الخانجي/ط٥/١٤٠٥) .

فعن عائشة رضي الله عنها :

(أن النبي ﷺ كان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه)[1].

وفي رواية :

(ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا، لكنه كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه)[2].

وعن أنس رضي الله عنه :

(أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه)[3] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٥١٩/٢) رقم (٣٥٦٧)، ومسلم في صحيحه : كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم (٢٢٩٨/٤) رقم : (٢٤٩٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٣٨/٦، ٢٥٧)، والترمذي في كتاب المناقب، باب في كلام النبي ﷺ (٥٦٠/٥) رقم (٣٦٣٩) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه (٥١/١) رقم : (٩٥) .

ثالثا : عوامل ترجع إلى الصحابة ﷺ :

لقد يسر الله جل وعلا لصحابة نبيه ﷺ عوامل كثيرة ساهمت في حفظهم السنة النبوية، أجملها في النقاط التالية :

١- تعظيمهم للسنة وشدة حرصهم على معرفتها وحفظها :

لقد ضرب الصحابة أروع الأمثلة في التفاني في حب النبي ﷺ والحرص على معرفة سيرته، وحفظ سنته، والاقتداء بهديه، فقد كان منهم من لا يكاد يفارقه في حله وترحاله غير مبال بما يلاقيه في سبيل ذلك من المتاعب والمصاعب، ومنهم من يحرص على أن لايفوته شيء من هديه وعلمه ولو أدى الأمر إلى أن يتناوب مع أخ له في حضور مجالسه ﷺ، بل إن الحرص على سنته دفعهم إلى أن يسألوا أزواجه عن هديه في خلواته ومع أهله .

ومع ما عرفوا به من شدة المتابعة فقد امتازوا أيضا بكثرة التحري ودقة الملاحظة، فإذا وصفوا بالغوا في التدقيق في الوصف كأنك ترى الموصوف رأي العين، وإذا نقلوا بالغوا في التحري حتى لا يخالجك شك في أن المنقول عين الحق .

فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال :

(كنت أنا وجار لي من الأنصار نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك ...)[1].

وعن أبي هريرة ﷺ أنه قال : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ :

(لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث..)[2] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب العلم، باب التناوب في العلم (١/٤٩) رقم (٨٩) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب العلم، باب الحرص على الحديث (١/٥٢) رقم (٩٩) .

٢ – الاحتياط والتثبت :

مما أعان على حفظ السنة احتياط الصحابة في رواية الحديث وذلك بـــالتقليل من الرواية والتثبت ممن نقل الحديث :

(أ) التقليل من الرواية :

كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يكثرون من رواية الحديث مخافة الزيادة فيه أو النقص منه، مما قد يؤدي إلى الدخول في الوعيد الشديد الوارد في الكذب على النبي ﷺ .

قال ابن عدي رحمه الله[١] :

(وقد تحرج قوم من أصحابه ﷺ من الرواية خوفا من الزيادة والنقصان فيمـــا سمعوا منه لئلا يكونوا داخلين في قوله عليه السلام : من كذب علي متعمدا فليتبـــــوأ مقعده من النار)[٢].

والدليل على هذا ما يلي :

عن عبد الله بن الزبير ﷺ قال :

قلت للزبير : إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان، قال :

(أما إني لم أفارقه، ولكن سمعته يقول : من كذب علي فليتبوأ مقعـــده مـــن النار)[٣].

---

(١) هو : عبد الله بن عدي بن عبد الله، أبو أحمد، الجرجاني .ولد سنة سبع وسبعين ومائتين، ومات ســـنة خمس وستين وثلاثمائة، كان من الحفاظ النقاد، جرح وعدل، وصحح وعلل، وتقدم في هذه الصناعـــة، له كتاب (الكامل في ضعفاء الرجال) و(كتاب الانتصار) صنفه على أبواب مختصر المزني .
انظر : السير (١٦/١٥٤)، طبقات الشافعية الكبرى (٣/٣١٥) .

(٢) الكامل في ضعفاء الرجال (١/١) (دار الفكر/ط٣/١٤٠٩) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه :كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ (١/٥٥) رقم : (١٠٧).

وعن أنس ﷺ [1] قال :

(إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثا كثيرا أن النبي ﷺ قال : من تعمد علي كذبا فليتبوأ مقعده من النار)[2].

(ب) التثبت ممن نقل الحديث :

فقد كان بعض الصحابة يتثبتون ممن نقل الحديث عن النبي ﷺ ويطالبونه بإقامة البينة عليه رغم ثبوت عدالتهم، وانتفاء التهمة عنهم، وبراءتهم من الكذب على النبي ﷺ .

عن أبي سعيد الخدري ﷺ[3] قال :

(كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال :

استأذنت على عمر فلم يؤذن لي فرجعت، فقال :ما منعك ؟

قلت : استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ :

إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع.

فقال : والله لتقيمن عليه بينة.

أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ ؟!

---

(١) هو : الصحابي الجليل أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم، أبو حمزة، الأنصاري الخزرجي النجاري المدني، خادم رسول الله ﷺ .ولد قبل الهجرة بعشر سنين، ومات سنة ثلاث وتسعين، وقيل غير ذلك . روى عن النبي ﷺ علما جما، ودعا له النبي ﷺ أن يطول عمره ويكثر ولده .

انظر : طبقات ابن سعد (١٧/٧)، السير (٣٩٥/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه :كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ (٥٥/١) رقم (١٠٨)، ومسلم في مقدمة صحيحه : باب تغليظ الكذب على النبي ﷺ (١٠/١) رقم (٢) .

(٣) هو : الصحابي الجليل سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة، أبو سعيد الخدري، الأنصاري الخزرجي .مات سنة أربع وسبعين، وقيل غير ذلك .كان من فقهاء الصحابة، ومن المجاهدين، شهد الخندق وبيعة الرضوان .

انظر : السير (١٦٥/٣)، الإصابة (٣٥/٢) .

فقال أبي بن كعب : والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم، فقمت معه، فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك)[1] .

قال الخطيب البغدادي رحمه الله :

(في تشديد عمر على الصحابة في رواياتهم حفظ لحديث رسول الله ﷺ وترهيب لمن لم يكن من الصحابة أن يدخل في السنن ما ليس منها؛ لأنه إذا رأى الصحابي المقبول القول، المشهور بصحبة النبي ﷺ قد تشدد عليه في روايته كان هو أجدر أن يكون للرواية أهيب، ولما يلقي الشيطان في النفس من تحسين الكذب أرهب)[2] .

وعن علي ﷺ قال :

(كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيره استحلفته، فإذا حلف لي صدقته ..)[3].

قال ابن حبان رحمه الله :

(وتبع عمر علي بن أبي طالب رضوان الله عليهما باستحلاف من يحدثه عن رسول الله ﷺ وإن كانوا ثقاتا مأمونين ليعلم بهم توقي الكذب على رسول الله ﷺ فيرتدع من لا دين له عن الدخول في سخط الله جل وعلا فيه)[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثا (١٣٩/٤) رقم : (٦٢٤٥) .

(٢) شرف أصحاب الحديث ص : (١٦٣) (تحقيق عمرو عبد المنعم/مكتبة ابن تيمية) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٧٩/١ الرسالة) رقم (٢)، وأبو داود في سننه : كتاب الصلاة، باب في الاستغفار (٢/ ٨٦) رقم : (١٥٢١)، والترمذي في سننه : كتاب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة (٢ / ٢٥٧) رقم (٤٠٦)، وابن ماجه في سننه :كتاب الصلاة باب ما جاء في أن الصلاة كفلوة (١٦٤/٢) رقم (١٣٩٥)، وحسنه الحافظ في الفتح (١٠١/١١) .

(٤) كتاب المجروحين (٣٧/١) (تحقيق حمدي السلفي/دار الصميعي/ط١/١٤١٦) .

٣ ـ حب الشرف والنفرة من الكذب :

من الأخلاق الرفيعة التي كان العرب يتصفون بها في جاهليتهم، ثم زادها الإسلام رسوخا في نفوسهم، حب الشرف وبغض الكذب .

فالكذب إذا أثر عن أحد منهم كان له سبة وعارا يلاحقه في مجالسه ملاحقة الظل لشخصه، لذا كانوا يأنفون منه ولو كانت لهم فيه أعظم المصالح، فهذا أبو سفيان بن حرب[١] لما سأله هرقل عن النبي ﷺ يقول :

(والله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه)[٢] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

(فيه دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب إما بالأخذ عن الشرع السابق، أو بالعرف، وفي قوله (يأثروا) دون قوله (يكذبوا) دليل على أنه كان واثقا منهم بعدم التكذيب أن لو كذب لاشتراكهم معه في عداوة النبي ﷺ، لكنه ترك ذلك استحياء وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا فيصير عند سامعي ذلك كذابا)[٣] .

وقد كان هذا حالهم وليس عندهم من الدين ما يزعهم عن الكذب ويمنعهم منه، فكيف وقد طرق أسماعهم من الأحاديث ما ينفرهم ويزجرهم عن اقترابه فضلا عن اقترافه ؟

---

(١) هو : الصحابي الجليل صخر بن حرب بن أمية، أبوسفيان الأموي، رأس قريش .أسلم يوم الفتح، وكان من دهاة العرب ومن أهل الرأي والشرف فيهم، شهد قتال الطائف فقلعت عينه حينئذ، وقلعت الأخرى يوم اليرموك، وتوفي بالمدينة سنة إحدى وثلاثين .

انظر : الاستيعاب (٢/٧١٤)، السير (٢/١٠٥) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي (١/١٦) رقم (٧) .

(٣) فتح الباري (١/٥١) .

بل كيف يجرؤ أحدهم أن يكذب على خير الخلق وقد سمع ما في ذلك من الوعيد الشديد ؟

فلو لم يكن من شأنهم إلا أنهم يأنفون من الكذب قبل أن يعرفوا الدين لكفى ذلك في إبعاد التهمة عنهم، فكيف وقد ثبتت عدالتهم، ولاح صدقهم، وبان إخلاصهم، وتواتر تفانيهم في حب هذا الدين ونصرته، واستفاضت تضحيتهم في سبيل تبليغه وإعلاء رايته ؟

رابعا : عوامل ترجع إلى الأمة وعلمائها :

لقد أكرم الله هذه الأمة فمن عليها بعوامل عدة، وخصها بأمور كثيرة ساعدتها على حفظ السنة، وسأنبه فيما يلي على بعضها :

١- العناية بالإسناد :

إن العناية بالإسناد من أهم ما امتازت به هذه الأمة عن سائر الأمم، فلست تجد في الأمم كلها أمة قد عنيت بالإسناد عناية الأمة المحمدية به ؛لذا عد ذلك من خصائصها .

قال ابن حزم رحمه الله :

(نقل الثقة عن الثقة مع الاتصال حتى يبلغ النبي ﷺ، يخبر كل واحد منهم باسم الذي أخبره عنه ونسبه، ...، خص الله به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها ...)[١] .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(الإسناد من خصائص هذه الأمة، وهو من خصائص الإسلام، ثم هو في الإسلام من خصائص أهل السنة)[٢].

ولقد بلغ من عناية هذه الأمة بالإسناد إلى أن اشترطوا وجوده في كل ما ينقل مما له تعلق بالدين حتى ولو كان كلمة واحدة، بل جعلوه من الدين ؛لأن عليه الاعتماد في نقل نصوصه، وهو سلم الوصول إلى معرفة صحيحها من سقيمها، وكل نقل عري منه لا يعبأ به ولا يلتفت إليه .

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله :

(الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)[٣].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/٢٢١) .

(٢) منهاج السنة (٧/ ٣٧) .

(٣) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب بيان أن الإسناد من الدين (١/١٥) .

وقال أيضا :

(بيننا وبين القوم القوائم)[1]، يعني الإسناد .

وكان شعبة بن الحجاج[2] يقول :

(كل حديث ليس فيه حدثنا وأخبرنا فهو خل وبقل)[3]، أي أنه كاسد لا قيمة له .

وقال ابن حبان رحمه الله[4] :

(لو لم يكن الإسناد وطلب هذه الطائفة له لظهر في هذه الأمة من تبديل الدين ما ظهر في سائر الأمم، وذلك أنه لم تكن أمة لنبي قط حفظت الدين من التبديل ما حفظت هذه الأمة)[5].

وقال الحاكم رحمه الله :

(لولا الإسناد وطلب هذه الطائفة له، وكثرة مواظبتهم على حفظه لدرس منار الإسلام، وتمكن أهل الإلحاد والبدع منه بوضع الأحاديث، وقلب الأسانيد ؛فإن الأخبار إذا تعرت عن وجود الأسانيد فيها كانت بترا)[6].

---

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب بيان أن الإسناد من الدين (١/١٥) .

(٢) هو : شعبة بن الحجاج بن الورد، أبو بسطام، الأزدي، العتكي مولاهم، الواسطي ثم البصري .ولد سنة ثمانين وقيل غير ذلك، وتوفي سنة ستين ومائة .كان إماما حافظا، لقب بأمير المؤمنين في الحديث، قال عنه الإمام أحمد : كان شعبة أمة وحده في هذا الشأن .

انظر : تهذيب الكمال (١٢/٤٧٩)، السير (٧/٢٠٢) .

(٣) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص : (٥١٧)، وابن عدي في الكامل (١/٣٤) وغيرهما .

(٤) هو : محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم، التميمي الدارمي البستي .ولد في بضع وسبعين ومائتين، وتوفي بسجستان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، كان حافظا مجودا من أئمة زمانه صاحب تصانيف منها : (تاريخ الثقات) و (علل حديث مالك) .

انظر : السير (١٦/٩٢)، وطبقات الشافعية الكبرى (٣/١٥١) .

(٥) كتاب المجروحين (١/٣٠) .

(٦) معرفة علوم الحديث ص : (٦) (تصحيح معظم حسين/دار الكتب العلمية بيروت) .

ونظرا لمكانة الإسناد وأهميته في حفظ الدين من التبديل درج أهل البدع والزيغ والضلال على بغضه والاستخفاف به وبالمعتنين به .

قال محمد بن سلام الفقيه رحمه الله[1] :

(ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد ولا أبغض إليهم من سماع الحديث وروايته بإسناد)[2].

قال أبو عبد الله الحاكم معلقا :

(وعلى هذا عهدنا في أسفارنا وأوطاننا كل من ينسب إلى نوع من الإلحـــاد والبدع لا ينظر إلى الطائفة المنصورة إلا بعين الحقارة ويسميها الحشوية، سمعت الشيخ أبا بكر أحمد بن إسحاق الفقيه[3] وهو يناظر رجلا، فقال الشيخ :حدثنا فلان .

فقال له الرجل : دعنا من حدثنا (!!) إلى متى حدثنا ؟!

فقال له الشيخ : قم يا كافر (!) ولا يحل لك أن تدخل داري بعد هـــذا. ثم التفت إلينا فقال : ما قلت قط لأحد لا تدخل داري إلا لهذا)[4].

٢- التحري في تحمل الأخبار، والتشدد في قبولها :

لقد وضع علماء الحديث قواعد في منتهى الدقة يمكن من خلال تطبيقها معرفة صحيح الحديث من سقيمه، كما أنهم اشترطوا في الذي يؤخذ عنه الحديث شـــروطا

---

(١) هو : محمد بن سلام، أبو نصر البلخي، الحنفي، وهو صاحب الطبقة العالية، توفي سنة خمس وثلاثمائة .
انظر : الفوائد البهية في تراجم الحنفية للكنوي ص (١٦٨) (تعليق النعاني/دار الكتاب الإسلامي) .

(٢) معرفة علوم الحديث ص : (٤) .

(٣) هو : أحمد بن إسحاق بن أيوب بن يزيد، أبو بكر، النيسابوري الشافعي، المعروف بالصبغي .ولد سنة ثمان وخمسين ومائتين، وتوفي في شعبان سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة .قال عنه الذهبي : (جمع وصنف، وبرع في الفقه، وتميز في علم الحديث)، ومن مؤلفاته : كتاب (الأسماء والصفات) وكتاب (الإمامة) وغيرهما .
انظر : السير (١٥/٤٨٣)، طبقات الشافعية الكبرى (٣/٩) .

(٤) معرفة علوم الحديث ص : (٤) .

كثيرة احتياطا للسنة، فلا يؤخذ الحديث عن الرجل حتى يكون من أهل هذا الشأن المعروفين به، ويكون حسن الهدي، ذا سمت وصلاح ظاهر، غير متهم في دينه وعدالته وضبطه، فلربما بالغوا في التحري فتركوا الأخذ عن الرجل لفعله أشياء مباحة لكنها منافية للمروءة، بل ربما جرحوه بذلك وطعنوا في حديثه، كأن يرى وهو يأكل في السوق مثلا، أو أن يكون كثير الضحك والمزاح ...؛ ذلك لأن الحديث دين، فلابد من الحزم، وأخذ الحيطة .

قال محمد بن سيرين رحمه الله :

(إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم)[1].

وقال مالك رحمه الله :

(لقد أدركت بهذا البلد –يعني المدينة– مشيخة لهم فضل وصلاح وعبادة يحدثون ما سمعت من واحد منهم حديثا قط .

قيل : و لم يا أبا عبد الله ؟! قال : لم يكونوا يعرفون ما يحدثون)[2].

وقال ابن عون رحمه الله[3] :

(لا يؤخذ هذا العلم إلا عمن شهد له بالطلب)[4].

وقال ابراهيم النخعي رحمه الله :

(كانوا إذا أرادوا أن يأخذوا عن الرجل نظروا إلى صلاته، وإلى هيبته، وإلى سمته)[5].

---

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب بيان أن الإسناد من الدين (١٤/١) رقم (٢٦) .

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٩٢/١)، والخطيب في الكفاية ص (١٤٤) (تحقيق أحمد عمر هاشم/ دار الكتاب العربي/ط٢/١٤٠٦) .

(٣) هو : عبد الله بن عون بن أرطبان، أبو عون، المزني مولاهم البصري .كان إماما قدوة تقيا ورعا، عديم النظير في وقته زهدا وصلاحا .مات في شهر رجب سنة إحدى وخمسين ومائة، وقيل غير ذلك .
انظر : الجرح والتعديل (١٣٠/٥)، السير (٣٦٤/٦) .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢٨/١)، وابن عبد البر في التمهيد (٤٥/١) .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١/ ٢٩،١٦)، وابن حبان في كتاب المجروحين (٢٣/١) .

والمقصود أنهم كانوا يحتاطون للحديث فيحكمون بضعف الخبر لأقل شبهة في سيرة الناقل مما يؤثر في عدالته أو صدقه أو ضبطه، ولا يقبلون إلا خبر من تيقنوا سلامته من ذلك ؛لذا قال عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله[1] :

(خصلتان لا يستقيم فيهما حسن الظن : الحكم، والحديث)[2].

٣- ظهور جهابذة في نقد الحديث :

لقد قيض الله جل وعلا لأحاديث رسول الله ﷺ رجالا أوقفوا أنفسهم، وصرفوا أعمارهم، وبذلوا أغلى ما يملكون من أجل حملها وتبليغها وحراستها والذب عنها، فهم حملة الدين، وحراس الملة، الذين يذوذون عن حياضها، ويدفعون الزور والكذب عنها (فشأنهم حفظ الآثار وقطع المفاوز والقفار، وركوب البراري والبحار في اقتباس ما شرع الرسول المصطفى، لا يعرجون عنه إلى رأي ولا هوى، قبلوا شريعته قولا وفعلا، وحرصوا سنته حفظا ونقلا، حتى ثبتوا بذلك أصلها، وكانوا أحق بها وأهلها، وكم من ملحد يروم أن يخلط بالشريعة ما ليس منها، والله يذب بأصحاب الحديث عنها، فهم الحفاظ لأركانها، والقوامون بأمرها وشأنها، إذا صدف عن الدفاع عنها فهم دونها يناضلون .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[3])[4].

---

(١) هو : عبد الرحمن بن مهدي بن حسان، أبو سعيد، العنبري، وقيل الأزدي مولاهم، البصري .ولد سنة خمس وثلاثين ومائة، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائة .كان سيد الحفاظ، إماما حجة قدوة في العلم والعمل، وكان صاحب سنة صحيح الديانة شديد الكلام على أهل البدع .

انظر : الجرح والتعديل (٢٥١/١)، السير (١٩٢/٩) .

(٢) أورده الباجي في كتابه : التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح (٢٦٨/١) (تحقيق أحمد البزار/وزارة الأوقاف بالمغرب) .

(٣) سورة المجادلة، الآية (٢٢) .

(٤) قاله الخطيب البغدادي في كتابه شرف أصحاب الحديث ص : (٣١) .

فلقد يسر الله سبحانه وتعالى أولئك الأئمة الأعلام ،والجهابذة النقاد فـــاعتنوا بحفظ الحديث وتمحيصه ،فتحقق بذلك ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ في قوله :

(يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ،ينفون عنه تحريف الغالين ،وانتحـــال المبطلين وتأويل الجاهلين)[1].

قال ابن القيم رحمه الله :

(أخبر ﷺ أن العلم الذي جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف، حـــتى لا يضيع ويذهب)[2].

وقال ابن حبان رحمه الله :

(لولاهم لدرست الآثار واضمحلت الأخبار، وعلا أهل الضلالـــة والهـــوى، وارتفع أهل البدع والعمى، فهم لأهل البدع قامعون، بالسنن شأنهم دامغون)[3].

لهذا لما سئل ابن المبارك عن الأحاديث المصنوعة، قال : (تعيش لها الجهابذة)[4] .

---

(١) ورد هذا الحديث عن عدد من الصحابة، ومن طرق متعددة، فقد أخرجه ابن وضاح في كتاب ما جاء في البدع ص: (٢٥) ،والخطيب في شرف أصحاب الحديث ص: (٦٣-٦٨)، ومن طريقه أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢/٢٣٣) ،كما أخرجه ابن عدي في الكـــامل (١/١٥٣) ،والآجـــري في الشريعة (١/٢٧٠) ، وغيرهم ،وقد صححه الإمام أحمد كما في شرف أصحاب الحديـث ص (٦٧) ، وضعفه الحافظ ابن كثير كما في الباعث الحثيث ص : (٩٦)، والعراقي في التقييد ص (١٣٤) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١/٤٩٥) .

(٣) كتاب المجروحين (١/٥٥) .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢/١٨)، وأورده ابن الجوزي في مقدمة كتابه الموضوعـــات (١/٣٢) .

وقال ابن خزيمة رحمه الله[1]:

(ما دام أبو حامد ابن الشرقي[2] في الأحياء لا يتهيأ لأحد أن يكذب على رسول الله ﷺ)[3].

وكان أبو الحسن الدارقطني رحمه الله[4] يقول :

(يا أهل بغداد لا تظنوا أن أحدا يقدر أن يكذب على رسول الله ﷺ وأنا حي)[5].

ويروى أن هارون الرشيد رحمه الله[6] أخذ زنديقا ليقتله، فقال الرجل :

---

(١) هو : محمد بن إسحاق بن خزيمة، أبو بكر، السلمي، النيسابوري، الشافعي .ولد في صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وتوفي في ذي القعدة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة . اشتهر بإمام الأئمة، وكان حافظا كريما، شجاعا، صاحب سنة .له مؤلفات كثيرة منها : (كتاب التوحيد) و (الصحيح) .
انظر : المنتظم (١٨٤/٦) (دار الكتب العلمية/ط١/١٤١٢)، طبقات الشافعية الكبرى (١٠٩/٣) .

(٢) هو : أحمد بن محمد بن الحسن، أبو حامد، النيسابوري، يعرف بابن الشرقي .ولد سنة أربعين ومائتين، ومات في شهر رمضان سنة خمس وعشرين وثلاثمائة .كان إماما حافظا ثقة حجة، من تلاميذ الإمام مسلم، له كتاب (الصحيح) . انظر : تاريخ بغداد (٢٤٦/٤)، تذكرة الحفاظ (٨٢٠/٣) .

(٣) انظر : تاريخ بغداد (٤٢٧/٤)، و مقدمة كتاب الموضوعات لابن الجوزي (٣١/١)، وتذكرة الحفاظ (٨٢١/٣)، والسير (٣٨/١٥) .

(٤) هو : علي بن عمر بن أحمد، أبو الحسن، الدارقطني البغدادي، ونسبته إلى دار القطن محلة كبيرة ببغداد . ولد سنة ست وثلاثمائة، وتوفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ببغداد .كان من بحور العلم ومن أئمة الدنيا، انتهى إليه الحفظ، ومعرفة علل الحديث ورجاله، مع التقدم في القراءات وطرقها، وقوة المشاركة في الفقه والاختلاف، وكان سلفيا يبغض الكلام وأهله .وله مصنفات منها : (العلل) و (السنن) .
انظر : وفيات الأعيان (٢٩٧/٣) (تحقيق إحسان عباس/دار صادر، بيروت)، السير (٤٤٩/١٦) .

(٥) أخرجه ابن الجوزي في كتابه الموضوعات (٣٢/١) (تحقيق بوياجيلار/أضواء السلف/ط١/١٤١٨) .

(٦) هو : هارون الرشيد بن محمد بن جعفر، أبو جعفر، الهاشمي الخليفة العباسي. ولد سنة ثمان وأربعين ومائة، ومات سنة ثلاث وتسعين ومائة، وكان من أنبل الخلفاء، ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي، وكان يحب العلماء ويعظم حرمات الله ويبغض الجدال والكلام، له فتوحات ومواقف مشهودة .
=

أين أنت من ألف حديث وضعتها ؟!

قال :

(فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري[1] وابن المبارك يتخللانها، فيخرجانها حرفا حرفا)[2] .

وقال الذهبي رحمه الله :

(والله لولا الحفاظ الأكابر لخطبت الزنادقة على المنابر)[3].

٤- كتابة الحديث وتدوينه :

من العوامل التي أعانت على حفظ السنة أيضا : أن الله سبحانه وتعالى وفق علماء الأمة فبادروا إلى تدوينها وإفرادها بمؤلفات عدة، بعد أن كان الاعتماد في نقلها في الغالب الأعم على حفظ الصدور .ففي عصر النبوة وزمن الصحابة لم يكتب من السنة إلا النزر القليل؛ نظرا للنهي الوارد في كتابتها كي لا تختلط بالقرآن .

لكن لما تمكن الصحابة من كتابة القرآن وجمعه في مجلد تعددت نسخه، وكثر الحفاظ وانتشروا في البلدان، وأمن ما كان يخشى وقوعه من التباس القرآن بغيره صار تدوين السنة أمرا لا محيص عنه، وترك ذلك لا مبرر ولا مسوغ له، خاصة مع ظهور أمور عدة تستدعي سرعة تدوينها كي تحفظ من الضياع، وتصان من أن يدس فيها ما

=

انظر : تاريخ بغداد (١٤/٥)، والسير (٩/٢٨٦) .

(١) هو : إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة، أبو إسحاق، الفزاري، الشامي .كان من أئمة الحديث، ثقة، حافظا، مجاهدا، صاحب سنة، له مصنف في السير قال عنه الشافعي : لم يصنف أحد في السير مثل كتاب أبي إسحاق .توفي رحمه الله سنة ست وثمانين ومائة، وقيل غير ذلك .

انظر : الكامل لابن الأثير (٦/١٧٤) (دار صادر/١٩٦٨م)، السير (٨/ ٥٣٩) .

(٢) أورد هذه القصة الذهبي في السير (٨/٥٤٢) .

(٣) السير (١١/٨٢) .

ليس منها، فقد تتابعت الفتن، وفشا الوضع في الحديث، وظهرت الفرقة في الأمة، وكثر أهل البدع، وازداد الخوف من ذهاب الحديث بموت العلماء، كما أن الأسانيد كلما طالت كلما صعب حفظها و لم يؤمن وقوع الخلط في ضبطها .

قال الرامهرمزي رحمه الله[1] :

(إنما كره الكتاب من كرهه من الصدر الأول لقرب العهد، وتقارب الإسناد، ولئلا يعتمده الكاتب فيهمله، ويرغب عن حفظه والعمل به، فأما والوقت متباعد، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنقلة متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون، فإن تقييد العلم بالكتاب أشفى وأولى، والدليل على وجوبه أقوى)[2].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

(اعلم –علمني الله وإياك– أن آثار النبي ﷺ لم تكن في عصر أصحابه وكبار تبعهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة لأمرين :

أحدهما : أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك، كما ثبت في صحيح مسلم[3] خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم .

وثانيهما : لسعة حفظهم وسيلان أذهانهم، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة .

---

(١) هو : الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد، أبو محمد، الفارسي، الرامهرمزي، القاضي، محدث العجم .ولد نحو سنة ستين ومائتين، وتوفي سنة ستين وثلاثمائة، كان إماما حافظا بارعا، أخباريا، شاعرا، له مؤلفات عدة منها : (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي) في علوم الحديث، قال عنه الذهبي : ما أحسنه من كتاب، وله كتاب (الأمثال) وغيرهما .

انظر : الأنساب (٣/٣٠)، السير (١٦/٧٣) .

(٢) المحدث الفاصل ص : (٣٨٦) (تحقيق محمد عجاج الخطيب/دار الفكر/ط١/١٣٩١) .

(٣) يشير إلى حديث أبي سعيد الخدري ﷺ في النهي عن كتابة غير القرآن، وقد تقدم تخريجه ص : (١٨٠).

ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء في الأمصار، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكري الأقدار)[1].

فكانت هذه المبادرة إلى تدوين السنة مما أعان على حفظها وقطع الطريق أمام كل من يروم الدس فيها .

(١) مقدمة فتح الباري ص (٨) .

الفصل الثاني : تقرير السلف للقاعدة من حيث التطبيق .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : تقرير السلف لكمال هذا الدين في بابي العلم والعمل

المبحث الثاني : تقرير السلف اشتمال هذا الدين على مصالح الدارين .

المبحث الأول : تقرير السلف لكمال الدين في بابي العلم والعمل

تمهيد :

من المعلوم أن النفوس البشرية لها قوتان : قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية، ولا ريب أن استكمال هاتين القوتين هو سبيل سعادتها وطريق فلاحها، كما أن التفريط فيهما أو في إحداهما يؤدي إلى هلاكها وشقائها؛ لذا كان مدخل الشيطان على الإنسان إما بإلقاء الشبهات التي توجب فساد العلم والاعتقاد، وإما بالإغراء بالشهوات التي توجب فساد القصد والإرادة .

فكمال الإنسان وفلاحه مرهون باستكمال هاتين القوتين، ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفة الله المعرفة الصحيحة، وعبادته العبادة المشروعة الصادقة .

قال تعالى :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾[1].

قال ابن القيم رحمه الله :

(أقسم سبحانه وتعالى بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة، على أن كل أحد في خسر، إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بطاعة الله، فهذا كماله في نفسه، ثم كمل غيره بوصيته له، وأمره إياه به، وملاك ذلك، وهو الصبر .

---

(١) سورة العصر، الآيات (١،٢،٣) .

فكمل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته بالصبر عليه، ولهذا قال الشافعي رحمه الله :

(لو فكر الناس في سورة : " وَٱلْعَصْرِ " لكفتهم)[1].

وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة : يخبر سبحانه وتعالى أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، وخالفوه واتبعوا غيره .

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا تتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها بمعرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وان استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث وهمام بالطبع، كما قال النبي ﷺ : (أصدق الأسماء : حارث وهمام)[2])[3].

ولا شك أن أسعد الناس باستكمال القوتين هم سلف الأمة ومن سلك سبيلهم واهتدى بهديهم، فهم الذين جمعوا بين معرفة الله وعبادته، وقرنوا بين العلم النافع والعمل الصالح .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(ومن المستقر في أذهان المسلمين أن ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء هم الذين قاموا بالدين علما وعملا ودعوة إلى الله والرسول، فهؤلاء أتباع الرسول حقا...)[4].

---

(١) نقله عنه الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/٥٥٠) بلفظ : (لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/٣٤٥)، وأبو داود في السنن : كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء (٤/٨٧)، والطبراني في الكبير (٢٢/٣٨٠) رقم (٩٤٩)، والبيهقي في الكبرى (٩/٣٠٦)، وفي سنده عقيل بن شبيب قال عنه الذهبي في الميزان (٣/٨٨) : (لا يعرف هو ولا الصحابي إلا بهذا الحديث)، لكن للحديث شواهد يتقوى بها ذكرها الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢/٥٧٢) رقم (٩٠٤)، و(٣/٣٣) رقم (١٠٤٠) .

(٣) إغاثة اللهفان (١/٣٨-٣٩) (تحقيق عفيفي/المكتب الإسلامي/ط١/١٤٠٧) .

(٤) مجموع الفتاوى (٤/٩٢) .

ذلك لأنهم اعتصموا بالوحي فجعلوه مصدرهم في العلم والمعرفة، واكتفوا بالشرع واتخذوه عمدتهم وهاديهم في القصد والإرادة، فدل ذلك على أن (الطريقة النبوية، القرآنية، السنية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين)[1].

قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير **"الهدى ودين الحق"** في هذه الآية :

(أي بالعلم النافع والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل .

فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق، وإنشاآتها عدل)[3].

وفي المطالب التالية تفصيل ما تقدم بيانه في هذه التوطئة :

---

(١) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، انظر مجموع الفتاوى (١٣/٢) .

(٢) سورة الفتح، الآية (٢٨) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٠٥/٤)، وانظر مجموع الفتاوى (١٦٩/١٩-١٧٠) .

المطلب الأول : تقرير السلف لكمال الدين في جانب العلم :

يجب على كل مسلم أراد العلم النافع وتاقت نفسه إلى معرفة العقيدة الصحيحة أن يكون مستنده في طلب ذلك هو الكتاب والسنة؛ لأن (كل ما يحتاج الناس إلى معرفته، واعتقاده، والتصديق به، ...، قد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعذر، بل هو من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس، وهو من أعظم ما أقام الله به الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه .وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه، والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد، وتمام الواجب والمستحب)[1].

فمن رام العلم والمعرفة دون أن يستمد من مشكاة النبوة البهية، ويكرع من مناهلها الروية -وإن رزق علو الهمة، وعقد على ذلك العزم والنية- فليبشر بضياع الأوقات وانصرام الأعمار حتى تفاجئه المنية، وهو لم يحصل من ذلك شيئا البتة، وليته يرجع سليم الفطرة، خفيف الظهر، لهان الأمر، لكنه يرجع بالشك والحيرة، والتخبط في ظلمات الجهل، وغياهب الضلالة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(قد أوعبت الأمة في كل فن من فنون العلم إيعابا، فمن نور الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالا)[2] .

فالعلم النافع هو الذي دل عليه الكتاب والسنة، واعتنى به سلف الأمة .

وقد قسمه شيخ الإسلام إلى ثلاثة أقسام :

(القسم الأول : علم بالله وأسمائه وصفاته وما يتبع ذلك .

---

(١) نقلته من مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (٣/٢٩٥) بتصرف .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٦٦٥) .

القسم الثاني : العلم بما أخبر الله به مما كان من الأمور الماضية، وما يكون من الأمور المستقبلة، وما هو كائن من الأمور الحاضرة .

القسم الثالث : العلم بما أمر الله به من الأمور المتعلقة بالقلوب والجوارح من الإيمان بالله من معارف القلوب وأحوالها، وأقوال الجوارح وأعمالها، وهذا يندرج فيه العلم بأصول الإيمان وقواعد الإسلام، ويندرج فيه العلم بالأقوال والأفعال الظاهرة ...)[1] .

فما من قسم من هذه الأقسام إلا وفي الكتاب والسنة البيان الشافي لما يحتاج الناس إليه منه، حتى إنك لا تحتاج مع بيان الكتاب والسنة إلى فكر أحد آخر مهما سمت درجته، وعلت عند الناس منزلته، فالمرجع في معرفة العلم النافع هو الوحي .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

(وأما العلم النافع الذي تحصل به النجاة من النار، ويسعد به العباد فلا يحصل إلا باتباع الكتب التي جاءت بها الرسل)[2].

وقال ابن القيم رحمه الله :

(ليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية : من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن؛ فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول، وأفصحها بيانا .فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه)[3] .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (١١/ ٣٩٦،٣٩٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٢٤٧) .

(٣) إغاثة اللهفان (١/٧٣) .

وقد كان السلف على قناعة تامة بهذا، فأوجبوا أخذ العلوم الدينية عن الرسول ﷺ، وقرروا أن (كل علم دين لا يطلب من القرآن فهو ضلال)[1]، بل لم يعدوا من العلم إلا ما كان مأثورا، وأما ما سواه فحكمه عندهم وجوب الإعراض عنه، والتحذير منه ومن أهله، وقد استفاضت عنهم النقول في تقرير هذا المعنى حتى حكي إجماعهم عليه .

قال ابن عبد البر رحمه الله :

(أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع في طبقات الفقهاء، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم)[2].

وفيما يلي إيراد بعض النقول عنهم تؤكد ذلك وتقرره :

قال عطاء رحمه الله[3] :

(ليس الدين الرأي، ولكنه السمع)[4].

وقال سفيان الثوري رحمه الله :

(إنما العلم بالآثار)[5].

---

(١) من كلام شيخ الإسلام في الاستقامة (٢١/١) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٩٤٢/٢) .

(٣) هو : عطاء بن أبي رباح أسلم، أبو محمد، القرشي مولاهم، المكي .ولد في أثناء خلافة عثمان ﷺ، نشأ بمكة، وتوفي سنة خمس عشرة ومائة .كان من أئمة التابعين، ثقة، فقيها، عالما، كثير الحديث .
انظر : الجرح والتعديل (٣٣٠/٦)، السير (٧٨/٥) .

(٤) أخرجه الهروي في ذم الكلام (٢٠٨/٢) رقم (٣٦٦) .

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٦٧/٦)، (٥٧/٧)، والبيهقي في المدخل إلى السنن رقم (٢٣٥) .كما روى ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٧٨٢/١)، (١٠٤٩/٢)، والخطيب في شرف أصحاب الحديث ص : (٢٣) أثرا بمعناه، ولفظه : (إنما الدين الآثار) .

وقال مالك بن أنس رحمه الله :

(لو كان الكلام علما، لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطل يدل على باطل)[1].

وقال ابن المبارك رحمه الله :

(ليكن الذي تعتمد عليه الأثر، وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث)[2].

وقال الشافعي رحمه الله :

(لأن يبتلى المرء بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام)[3].

وقال أبو يوسف رحمه الله [4] :

(العلم بالخصومة والكلام جهل، والجهل بالخصومة والكلام علم)[5].

وصح عن الدارقطني رحمه الله أنه قال :

(ما شيء أبغض إلي من علم الكلام)[6] .

---

(١) أورده البغوي في شرح السنة (٢١٧/١)، ورواه الهروي في ذم الكلام (٧٢/٥) رقم (٨٦٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٥/٨)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (٢٤٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٧٨١/١)، (١٠٥٠/٢)، والهروي في ذم الكلام (١٨٦/٢) رقم (٣٣٥) .

(٣) رواه ابن أبي حاتم في آداب الشافعي ومناقبه ص (١٨٧)، لكن في آخره (خير من أن يلقاه بشيء من الأهواء)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٥٣٤/٢) رقم (٦٦١)، وأبو نعيم في الحلية (١١١/٩)، وأورده ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٩٣٩/٢) .

(٤) هو : يعقوب بن إبراهيم بن حبيب، أبو يوسف، الأنصاري، الكوفي القاضي، صاحب أبي حنيفة .ولد سنة ثلاث عشرة ومائة، وتوفي سنة اثنتين وثمانين ومائة .وصفه الذهبي بالإمام المجتهد، العلامة المحدث . انظر : تاريخ بغداد (١٤/ ٢٤٢)، السير (٥٣٥/٨) .

(٥) رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٥٣٦/٢) رقم (٦٦٨)، والهروي في ذم الكلام (٢٠٣/٥) رقم (٩٩٩)، وأورده الذهبي في السير (٥٣٩/٨) وصدره بقوله : (ما أنبل قوله الذي رواه جماعة عن بشر بن الوليد) ثم ساقه وعلق عليه بتعليق نفيس، يراجع في الموضع المذكور آنفا .

(٦) أورده الذهبي رحمه الله في السير (٤٥٧/١٦) .

وقال ابن الصلاح رحمه الله[1] :

(لقد تمت الشريعة وعلومها، وخاض في بحار الحقائق والدقائق علماؤهم، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة، ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان ومكر به)[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(العلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول)[3].

وقال الذهبي رحمه الله :

(كان أئمة السلف لا يرون الدخول في الكلام، ولا الجدال، بل يستفرغون وسعهم في الكتاب والسنة، والتفقه فيهما، ويتبعون ولا يتنطعون)[4] .

فهذه النقول توضح بجلاء نفرة السلف من العلوم المبتدعة، واستغناءهم عنها بما في الكتاب والسنة من العلوم النافعة .

قال الآجري رحمه الله :

(قد كفانا علم من مضى من أئمة المسلمين الذين لا يستوحش من ذكرهم عن مذاهب أهل البدع والضلالات)[5].

---

(١) هو : عثمان بن صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان بن موسى، أبو عمرو، تقي الدين، الكردي الشهرزوري الموصلي الشافعي المعروف بابن الصلاح .ولد سنة سبع وسبعين وخمس مائة، وتوفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة .قال عنه الذهبي (كان متين الديانة، سلفي الجملة، صحيح النحلة، كافا عن الخوض في مزلات الأقدام ..) .له مؤلفات عدة منها : (أدب المفتي والمستفتي) و (أقصى الأمل والسول في علم حديث الرسول) المعروف بمقدمة ابن الصلاح .

انظر : السير (١٤٠/٢٣)، طبقات الشافعية الكبرى (٣٢٦/٨) .

(٢) فتاوى ومسائل ابن الصلاح (٢١١/١) (تحقيق القلعجي/مكتبة المعارف، الرياض/ط١/١٤٠٦) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٣٦/١٣) .

(٤) السير (١٢٠/١٢) .

(٥) الشريعة (٤٢٥/١) .

لكن لابد أن يعلم أن هذا التحذير من السلف عن هذه العلوم، واكتفاءهم بما في الكتاب والسنة لا يعني اطراح العقل، وإهمال النظر الصحيح الموصل إلى العلم النافع، فهم أكمل الناس نظرا واستدلالا واعتبارا، فقد نظروا في أصح الأدلة وأقومها؛ إذ كان نظرهم في خير الكلام وأفضله، وأصدقه وأدله على الحق، وهو كلام الله تعالى، وفي آيات الله التي في الآفاق وفي أنفسهم[1] .فاجتمع لهم صحة العقول، وسلامة الفطر، وصحة الإدراك مع النظر في الوحي والكتاب، والتفكر في آيات الله المبثوثة في الكون، فكانوا أكمل الناس في معرفة الحق وأدلته، والجواب عما يعارضه؛ لذا قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(ينبغي للعاقل أن يعرف أن المسائل العظيمة التي هي من أعظم مسائل الدين لم يكن السلف جاهلين بها ولا معرضين عنها، بل من لم يعرف ما قالوه فهو الجاهل بالحق فيها وبأقوال السلف وبما دل عليه الكتاب والسنة، والصواب في جميع مسائل النزاع ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وقولهم هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والعقل الصريح)[2].

فثبت بهذا ضلال من يقدم طريقة الخلف في العلم على طريقة السلف، زاعما أن (طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم)[3].

وقد فند هذه المقولة غير واحد من أهل العلم، وبينوا أنها قد جمعت بين غمط الحق والصد عنه بالتنقيص من مذهب السلف، وبين تزيين الباطل والدعوة إليه بتفضيل طريقة الخلف .

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل (٧/ ١٦٦-١٦٧) (تحقيق محمد رشاد سالم/توزيع مكتبة ابن تيمية).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/٢٠٥) .

(٣) هذه المقولة ذكرها شيخ الإسلام في الفتوى الحموية الكبرى ص : (٢٠٢) دون أن يصرح بالقائل، لكنه ذكر أنها من مقول بعض الأغبياء ممن لم يقدر قدر السلف، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حق المعرفة المأمور بها .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

(إن هؤلاء المبتدعة الذين يفضلون طريقة الخلف على طريقة السلف إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين الذين قال فيهم :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾[1].

وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات .

فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر . وقد كذبوا على طريقة السلف وضلوا في تصويب طريقة الخلف، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف ...

إلى أن قال :

(ثم هؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف إذا حقق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر، ولم يقفوا من ذلك على عين ولا أثر .

كيف يكون هؤلاء المحجوبون المنقوصون المسبوقون الحيارى المتهوكون أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكم في باب آياته وذاته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل، وأعلام الهدى ومصابيح الدجى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء، فضلا عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة ؟! ...)[2] .

---

(١) سورة البقرة، الآية (٧٨) .

(٢) انظر الفتوى الحموية الكبرى ص (٢٠٤-٢١٥) (تحقيق التويجري/دار الصميعي/ط١/١٤١٩) .

ومن أوضح الأدلة على فساد هذه المقولة ما صرح به غير واحد ممن تبحر في علوم الخلف وخبر حقيقتها من أن نهايتها تؤول إلى الشك والحيرة، حتى قال قائلهم[1]:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال

و لم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

فعلم يعترف أهله بأن نهايته تؤول إلى الضلال، وثمرته الأذى والوبال، ولا يستفاد منه إلا كثرة القيل والقال هل يقول فيه الكيس العاقل بأنه أفضل من علم يشهد أعداؤه بله أهله بأنه سبيل السلامة، وطريق الهداية، وغايته رضى رب البرية ؟!

هذا على اعتبار أنه علم وإلا فالحقيقة أنك إذا تجاوزت ما فيه من الأساليب المعقدة، والطرق الملتوية، والاصطلاحات المحدثة، التي تنقضي الأعمار دون استيعابها وفك غموضها لن تقف للعلم على اسم ولا رسم بل النتيجة لن تكون إلا التخبط في ظلمات الشك والحيرة .

فإن قيل : إن الباطل المحض لايقبل فلا بد أن يكون فيه من الحق ما جعل كثيرا من الحذاق يغرمون به، وعليه أفليس من العدل ألا يرد جملة، بل يرد ما فيه من الباطل ويقبل ما فيه من الحق ؟!

قيل : نعم فيه حق، لكنه قليل جدا لا يقارن بما فيه من الباطل، وما فيه من الحق ففي القرآن والسنة ما يغني عنه بأفصح عبارة وأوضح إشارة، وقد شهد بهذا غير واحد ممن خبر تلك العلوم وسبر غورها، وعرفها حق المعرفة كأبي حامد الغزالي الذي صرح قائلا :

---

(١) هو فخر الدين الرازي، ونسب إليه هذه الأبيات شيخ الإسلام رحمه الله كما في : درء تعاض العقل والنقل (١/١٦٠)، مجموع الفتاوى (٤/٧٢)، وابن القيم في : اجتماع الجيوش الإسلامية ص : (٣٠٤) =

(**حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه**، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفا في العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع)[1].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(اتفق كل من خبر مقالة هؤلاء الفلاسفة في العلم الإلهي أن غالبه ظنون كاذبة، وأقيسة فاسدة، وأن الذي فيه من العلم الحق قليل .

وأما اعتراف المتكلمة من الإسلاميين فكثير، قد جمع العلماء فيه شيئا، وذكروا رجوع أكابرهم عما كانوا يقولونه، وتوبتهم إما عند الموت، وإما قبل الموت)[2] .

وقال أيضا :

(ما عند أئمة النظار أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية فقد جاء القرآن الكريم بما فيها من الحق وما هو أبلغ وأكمل منها على أحسن وجه، مع تنزهه عن الأغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء، فإن خطأهم فيها كثير جدا، ولعل ضلالهم أكثر من هداهم، وجهلهم أكثر من علمهم)[3] .

=

وذكر أنه قالها في كتابه المسمى بـ(أقسام اللذات) وهو من أواخر ما ألفه.

(١) إحياء علوم الدين (١/٢٧) .

(٢) الاستقامة (١/٧٩) .

(٣) مجموع الفتاوى (٩/٢٢٥) .

المطلب الثاني : تقرير السلف لكمال الدين في جانب العمل :

اهتم الإسلام بتزكية النفس وأولاها عناية عظيمة، فرغب في المسارعة إلى تحقيقها بل إن الله جل وعلا أناط بها الفلاح فقال تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

وقال تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾[2].

ومعلوم أن مدار تزكيتها على تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى بلزوم الطاعات والبعد عن المعاصي والمنكرات؛ لذا شرع الله من الأعمال الصالحة الموصلة إلى ذلك ما فيه الغنية والكفاية، فلم يترك عملا مما تزكو به النفوس إلا وبينه وندب الناس إليه، فعن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال :

(ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم)[3].

فالأمر غير موكول إلى أهواء الرجال وأوضاعهم وآرائهم وأفكارهم؛ لذا فالأصل الذي يجب أن تثنى عليه الخناصر، ويعض عليه بالنواجذ هو : أن العمل لا يكون صالحا إلا إذا ثبت عن الشارع الأمرُ به أمر إيجاب أو استحباب، وأن العبادة لا تقبل إلا إذا وقعت وفق مراد الله، وأريد بها وجه الله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(الدين أصله متابعة النبي ﷺ وموافقته بفعل ما أمرنا به وشرعه لنا، وسنه لنا، ونقتدي به في أفعاله التي شرع لنا الاقتداء به فيها، بخلاف ما كان من خصائصه .

---

(١) سورة الأعلى، الآية (١٤) .

(٢) سورة الشمس، الآية (٩) .

(٣) تقدم تخريجه ص : (٧٧) .

فأما الفعل الذي لم يشرعه هو لنا ولا أمرنا به ولا فعله فعلا سن لنا أن نتأسى به فيه فهذا ليس من العبادات والقرب، فاتخاذ هذا قربة مخالفة له ﷺ)[1].

فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ :

(من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)[2].

قال ابن القيم رحمه الله :

(لا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه أحوج ما هو إليه هباء منثورا، وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي ﷺ :

(كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) .

وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدا؛ فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالآراء والأهواء)[3] .

وقال ابن رجب رحمه الله :

(أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة، وتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عمله جاريا تحت أحكام الشرع موافقا لها فهو مقبول، ومن كان خارجا عن ذلك فهو مردود)[4] .

ذلك لأن النبي ﷺ هو أتقى الأمة لله، وهو إمام الزهاد، وقدوة العُبَّاد، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما

---

(١) رسالة في العبادات الشرعية والفرق بينها وبين البدعية ص (٩٨) ضمن مجموعة الرسائل والمسائل .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢/٢٦٧) رقم : (٢٦٩٧)، ومسلم واللفظ له : كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٣/١٣٤٣) رقم : (١٧١٨) .

(٣) مدارج السالكين (١/٨٤) .

(٤) جامع العلوم والحكم (١/١٦٣) (تحقيق عوض الله/دار ابن الجوزي/ط١/١٤١٥) .

يطيقون، قالوا : إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر .فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول :

(**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**)[1].

فكل من اجتهد و لم يقنع بالمشروع فإنما يجتهد فيما يغضب الله والرسول ﷺ، ولسان حاله ينبئ عنه أنه يريد أن يكون أتقى لله من رسول الله ﷺ (!!) ولا شك أن هذا من أعظم الجهل والغرور؛ لأن التقوى لا تنال إلا بالاتباع والاقتداء، واقتفاء آثار المصطفى ﷺ، وأما من أبى إلا التقرب بالبدع واتباع الهوى فيخشى عليه الوقوع في الفتنة وربما الخروج من الملة؛ قال تعالى :

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ! فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم : أما أنا فأنا أصلي الليل أبدا .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا .

فجاء رسول الله ﷺ فقال :

(أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر،وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، **فمن رغب عن سنتي فليس مني**)[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه :كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ أنا أعلمكم بالله، رقم : (٢٠) (٢٣/١) .

(٢) سورة النور، الآية (٦٣) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٣٥٤/٣) رقم (٥٠٦٣)، ومسلم في صحيحه :كتاب النكاح، باب (١) (١٠٢٠/٢) رقم : (١٤٠١) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

(إن كانت الرغبة -[أي عن السنة]- بضرب من التأويل يعذر صاحبه فيه فمعنى "فليس مني" أي على طريقتي، ولا يلزم أن يخرج عن الملة .

وإن كان إعراضا وتنطعا يفضي إلى اعتقاد أرجحية عمله فمعنى "فليس مني" ليس على ملتي؛ لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر)[1] .

وما أحسن ما أثر عن الإمام مالك رحمه الله لما سأله رجل فقال له :

(يا أبا عبد الله من أين أحرم ؟

قال : من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله ﷺ .

فقال : إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر !!

فقال له : لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة .

فقال الرجل : وأي فتنة في هذه ؟! إنما هي أميال أزيدها !! قال :

وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ؟!

إني سمعت الله يقول :

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[2])[3].

---

(١) فتح الباري (٨/٩) .

(٢) سورة النور، الآية (٦٣) .

(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٢٦١/١) رقم (٩٨)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٦٣/١) رقم (٢٩٤)، وأبو نعيم في الحلية (٣٢٦/٦)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٢١٥/١) رقم (٢٣٦)، والهروي في ذم الكلام (١١٤/٣) رقم (٤٦٣)، وأورد له أبو شامة روايتين في الباعث على إنكار البدع والحوادث ص : (٩٠-٩١)، وذكر أن أبا بكر الخلال أخرجهما في كتاب "الجامع" .

ومثله ما صح عن سعيد بن المسيب رحمه الله لما رأى رجلا يصلي بعد طلوع الفجر أكثر من ركعتين، يكثر فيها الركوع والسجود، فنهاه .

فقال : يا أبا محمد ! يعذبني الله على الصلاة ؟!

قال : لا، ولكن **يعذبك على خلاف السنة**)[1].

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى شرع لعباده من الأعمال ما يوصلهم إلى نيل مرضاته وبلوغ جناته، فشرع للقلب أعمالا، وللجوارح أعمالا، وللسان أعمالا، ولكل مناسبة ووقت وحال أعمالا، فلا يعدم المسلم في جميع أحواله وحركاته وسكناته أعمالا مشروعة يتقرب بها إلى الله عز وجل .

ومن أراد أن يرى هذه الحقيقة ماثلة أمام عينيه فليأخذ على سبيل المثال كتابا من الكتب التي تعنى بالأذكار المأثورة فسيجد أن من التزمها لن يحتاج في جميع أحواله إلى غيرها .قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(في الأدعية الشرعية، والأذكار الشرعية غاية المطالب الصحيحة، ونهاية المقاصد العلية، ولا يعدل عنها إلى غيرها من الأذكار المحدثة المبتدعة إلا جاهل أو مفرط أومعتد)[2] .

وقال أيضا :

(من أشد الناس عيبا من يتخذ حزبا ليس بمأثور عن النبي ﷺ، وإن كان لبعض المشايخ، ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيد بني آدم، وإمام الخلق وحجة الله على عباده)[3].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/٢٦٤)، وصحح إسناده الشيخ الألباني رحمه الله في إرواء الغليل (٢/٢٣٦) ثم علق عليه بقوله : (هذا من بدائع أجوبة سعيد بن المسيب رحمه الله، وهو سلاح قوي على المبتدعة الذين يستحسنون كثيرا من البدع باسم أنها ذكر وصلاة، ثم ينكرون على أهل السنة إنكار ذلك عليهم، ويتهمونهم بأنهم ينكرون الذكر والصلاة !! وهم في الحقيقة إنما ينكرون خلافهم للسنة في الذكر والصلاة ونحو ذلك) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٥١١) .

(٣) المصدر السابق (٢٢/٥٢٥) .

وهكذا في جميع الأعمال لا يوصل إلى المراد من تزكية النفس، ونيل رضوان الله جل وعلا إلا الالتزام بالمشروع والاكتفاء به؛ لذا فإن الصحابة لما حرصوا على ترسم خطا النبي ﷺ، وتمسكوا بنهجه وهديه صاروا أئمة يقتدى بهم في كل الفضائل، وصارت سيرتهم قبلة يؤمها كل من يسعى إلى بلوغ تلك المنازل .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(معلوم أن السابقين الأولين أعظم اهتداء واتباعا للآثار النبوية، فهم أعظم إيمانا وتقوى)[1] .

فقد عرفوا بالحرص الشديد على الخير، والاجتهاد في العمل حتى بلغوا أعلى مقامات العبودية فأثنى الله عليهم بذلك في كتابه فقال سبحانه وتعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله :

(وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب ..)[3].

ومما يدل على ذلك أيضا : ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها السابق أن النبي ﷺ كان إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون قالوا :

(إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر) .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/٢٢٧) .

(٢) سورة الفتح، الآية (٢٩) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٠٦) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في معرض سرد فوائد الحديث :

(الخامسة : التنبيه على شدة رغبة الصحابة في العبادة وطلبهم الازدياد من الخير)[1] .

وحديث أنس ﷺ المتقدم الذي فيه قصة الرهط الذين تقالوا عبادة النبي ﷺ ورغبتهم في التشديد على أنفسهم لولا أن منعهم النبي ﷺ من الأدلة أيضا على حرصهم على كثرة العبادة وحبهم الشديد للخير وما يقرب إلى الله جل وعلا؛ لذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم. وأكمل هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد ﷺ. ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل)[2] .

ومع هذا الحرص منهم على الخير، والاستكثار من العبادة إلا أنه لم يؤثر عن أحد منهم أنه تقرب إلى الله بغير المشروع في حال من الأحوال، بل الذي ثبت عنهم هو التصدي للبدع واجتثاثها من أصولها ومحاربة أهلها **إيمانا منهم بأن الدين قد كمل** فلا سبيل إلى الزيادة فيه .

فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ لما أُخبر أن في المسجد قوما حلقا ينتظرون الصلاة، وفي كل حلقة رجل وفي أيديهم حصا !!فيقول : كبروا مائة !!فيكبرون مائة!! فيقول : هللوا مائة !!فيهللون مائة !!فيقول : سبحوا مائة !!فيسبحون مائة!!أنكر عليهم ذلك فقال : ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟!

قالوا : يا أبا عبد الرحمن حصا نعد به التكبير والتهليل والتسبيح !!

قال : فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل،

---

(١) فتح الباري (١/٩٠) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٢١٠) .

وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملـــة محمـــد، أو مفتتحوا باب ضلالة .

قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير !!

قال : وكم من مريد للخير لن يصيبه)[1].

والنقول في هذا المعنى عن الصحابة وأئمة السلف كثيرة ومشهورة وكلها ترمي إلى شيء واحد وهو أن كل من تاقت نفسه إلى الاجتهاد في العمـــل والعبـــادة، ولم يسلك في ذلك نـــهج النبي ﷺ والصحابة، لا يزداد اجتهادا إلا ازداد من الله بعـــدا؛ لأن الميزان الذي توزن به الأعمال ليعلم الصالح من الفاسد والمقبول من المردود هـــو هدي النبي ﷺ ونهج الصحابة رضوان الله عليهم؛ ولذلك لما ألف أئمة السلف كـــابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما في الزهد والرقائق جعلوا عمدتهم في تواليفهم الآيـــات والأحاديث وما أثر عن الصحابة والتابعين .

قال شيخ الإسلام عن الإمام أحمد رحمه الله :

(اعتمد في كتاب "الزهد" على المأثور عن الأنبياء صلوات الله عليهم مـــن آدم إلى محمد، ثم على طريق الصحابة والتابعين، ولم يذكر من بعدهم)[2].

إذا ثبت هذا فمما تجدر الإشارة إليه ويلزم التنبيه عليه أن للسلف في الأعمـــال ضوابط ومعالم من تعداها عمدا ضل، ومن تركها جهلا زل؛ إذ لا يكفي في كـــون الشخص مطيعا كون فعله من جنس الطاعات، وكونه مريدا للخير قاصدا الأجر ما لم يراع في عمله هذه الضوابط، والتي يمكن تلخيصها في الأمور التالية :

---

(١) أخرجه الدارمي مطولا في مقدمة سننه، باب في كراهية أخذ الرأي (١/٥٢)، وابن وضاح في : كتاب ما جاء في البدع ص : (٤٠، ٤٥، ٤٧)، وابن الجوزي في تلبيس ابليس ص : (٢٤)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على كتاب إصلاح المساجد للقاسمي ص (١٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٣٦٤) .

الأمر الأول : أن مدار قبول الأعمال على الإخلاص والمتابعة، فكل عمل لم يرد به صاحبه وجه الله والدار الآخرة، أو لم يكن موافقا لهدي النبي ﷺ والصحابة فإنه يكون وبالا عليه يوم القيامة، قال تعالى :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

(الآية عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود، كما قال تعالى :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ ﴾[2].

وقال تعالى :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾[3].

وقال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾[4])[5].

الأمر الثاني : أن هدي النبي ﷺ ليس فيه تتبع ما فيه مشقة زائدة، بل (مبنى الشرعية على تحري ما هو لله أطوع وللعبد أنفع)[6].

---

(١) سورة الكهف، الآية (١١٠) .

(٢) سورة الغاشية، الآية (٣) .

(٣) سورة الفرقان، الآية (٢٣) .

(٤) سورة النور، الآية (٢٩) .

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/١٠٤) .

(٦) قاله شيخ الإسلام في نقض المنطق ص (٩٠) .

فمراد الشارع من الأعمال الصالحة هو تحقيق العبودية لله جل وعلا وتزكية النفس، وليس المراد تعذيبها والقصد إلى ما يشق عليها، (فإذا كان قصد المكلف إيقاع المشقة فقد خالف قصد الشارع، من حيث إن الشارع لا يقصد بالتكليف نفس المشقة، وكل قصد يخالف قصد الشارع فهو باطل، فالقصد إلى المشقة باطل، فهو إذا من قبيل ما ينهى عنه، وما ينهى عنه لا ثواب فيه، بل فيه الإثم إن ارتفع النهي عنه إلى درجة التحريم، فطلب الأجر بقصد الدخول في المشقة قصد مناقض)[1] .

قال تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[2].

وقال تعالى :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[3].

وقال تعالى :

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[4].

وثبت عن النبي ﷺ وصف الدين باليسر والسماحة، وصح عنه الأمر بالتيسير والتخفيف، والنهي عن التعمق والتشديد، كما ثبت عنه ﷺ أنه ترك الأمر بأشياء مخافة المشقة على الأمة، فعن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه فقال :

---

(١) قاله الشاطبي في الموافقات (٢/٢٢٢)، وانظر الاعتصام له (١/٣٨٦ وما بعدها) ففيه تحقيق نفيس في هذا الموضوع .

(٢) سورة البقرة، الآية (١٨٥) .

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٨٦) .

(٤) سورة المائدة، الآية (٦) .

(ما هذا ؟! فقالوا صائم . فقال : ليس من البر الصيام في السفر)[1].

وقال ﷺ :

(لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة)[2].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت :

(ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه ...)[3] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

(كل شيء يتأذى به الإنسان ولو مآلا مما لم يرد بمشروعيته كتاب أو سنة كالمشي حافيا والجلوس في الشمس ليس من طاعة الله)[4] .

ولا يرد على ما تقدم قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها :

(أجرك على قدر نصبك)[5] .

فإن المراد بالحديث المشقة التي تلزم العبادة وتقع ضمنا وتبعا، لا التي يتكلفها الإنسان ويقصدها؛ إذ من الأعمال الصالحة ما فيه نوع من المشقة، لكنها مشقة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لمن ظلل عليه واشتد الحر " ليس من البر الصوم في السفر " (٢/ ٤٤)، رقم (١٩٤٦)، ومسلم في صحيحه :كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر (٢/٧٨٦)، رقم (١١١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة (١/٢٨٣)، رقم (٨٨٧)، ومسلم في صحيحه : كتاب الطهارة، باب السواك (١/٢٢٠) رقم (٢٥٢) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ : (يسروا ولا تعسروا) (٤/١١٤) رقم (٦١٢٦)، ومسلم في صحيحه : كتاب الفضائل، باب مباعدة النبي للآثام واختياره من المباح أسهله (٤/١٨١٣)، رقم (٢٣٢٧) .

(٤) الفتح (١١/٥٩٨) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العمرة، باب أجر العمرة على قدر النصب (١/٥٤١)، رقم (١٧٨٧)، ومسلم في صحيحه : كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام (٢/٨٧٦)، رقم (١٢٦).

متحملة و لم تكن هي المقصود الأول بالأمر الشرعي، وذلك كالنصب والتعب في الجهاد والحج، والجوع والعطش في الصيام ونحوها، فهذه يؤجر عليها الإنسان لا لذات المشقة بل لما فيها من المصالح العظيمة، قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[1].

فالصبر على العمل مع ما فيه من المشقة يزيد ثوابه وأجره؛ لذا أمر الله بالصبر على العبادة فقال سبحانه وتعالى :

﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾[2].

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

(كثيرا ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب، لا لأن التعب والمشقة مقصود من العمل، ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب. هذا في شرعنا الذي رفعت عنا فيه الآصار والأغلال ...)[3].

وقال أيضا رحمه الله :

(أما مجرد تعذيب النفس من غير منفعة راجحة، فليس هذا مشروعا لنا، بل أمرنا الله بما ينفعنا، ونهانا عما يضرنا، وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح :

(إنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين)[4].

وقال لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن :

---

(١) سورة التوبة، الآية (١٢٠) .

(٢) سورة مريم، الآية (٦٥) .

(٣) مجموع الفتاوى (٦٢٢/١٠)، وانظر ما قبله وما بعده فإنه مهم، و لم أورده خشية الإطالة .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد (٩١/١)، رقم (٢٢٠) .

(يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا)[1].

وقال :

(هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فاستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا)[2].

وروي عنه أنه قال :

(أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة)[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ :(يسروا ولا تعسروا) (١١٤/٤)، رقم (٦١٢٤)، ومسلم في صحيحه : كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير (١٣٥٩/٣) رقم (١٧٣٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الإيمان، باب الدين يسر (٢٩/١)، رقم (٣٩) دون قوله : (والقصد القصد تبلغوا) وهو في الحديث رقم : (٦٤٦٣) .

(٣) ذكره البخاري في الصحيح معلقا بصيغة الجزم : كتاب الإيمان، باب الدين يسر (٢٩/١)، ووصله في الأدب المفرد (١/ ١٤٩)، رقم (٢٨٧)، كما وصله الإمام أحمد في المسند (١٦/٤ الرسالة) رقم (٢١٠٧)، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (١١٧/١)، وتعقبه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤١/٢) بأن فيه ابن إسحاق وهو مدلس و لم يصرح بالسماع .

قلت : وفيه أيضا داود بن حصين في حديثه عن عكرمة كلام انظره في الميزان (٥/٢)، وهذا الحديث مما رواه عنه .

لكن للحديث شواهد عدة منها :

- حديث عائشة رضي الله عنها : أخرجه الإمام أحمد في المسند (١١٦/٦) .

- حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ : أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٦٦/٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٥٧/٨) رقم (٧٨٦٨) وفي سنده ضعف .

- حديث علي ﷺ : أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤١٤/٥٤) .

- حديث أسعد بن عبد الله بن مالك الخزاعي ﷺ : أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٥٦/٢٢)، لكن فيه أنه من حديث ابنه أمية بن أسعد، وفي إتحاف المهرة (٣٥٢/١) أنه من حديث أسعد نفسه، وذكر الحافظ بأن الحاكم أخرجه .

- مرسل عمر بن عبد العزيز : رواه عبد الرزاق في المصنف (٢٩٢/١١) بإسناد صحيح .

=

فالإنسان إذا أصابه في الجهاد والحج أو غير ذلك حر أو برد أو جوع، ونحو ذلك فهو مما يحمد عليه، قال تعالى :

﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[1].

وكذلك قال ﷺ :

(الكفارات : إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)[2] .

وأما مجرد بروز الإنسان للحر والبرد بلا منفعة شرعية، واحتفاؤه وكشف رأسه، ونحو ذلك مما يظن بعض الناس أنه من مجاهدة النفس، فهذا إذا لم يكن فيه منفعة للإنسان أو طاعة لله فلا خير فيه، بل قد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ رأى رجلا قائما في الشمس !

فقال : ما هذا ؟!

قالوا : هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل!! ولا يتكلم !! ويصوم .

فقال : مروه فليجلس، وليستظل، وليتكلم، وليتم صومه)[3] .

=

- مرسل أبي قلابة : أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٩٢/١) .

- مرسل عبد العزيز بن الحكم : أخرجه أحمد في الزهد ص : (٢٨٩)، وصحح إسناده الشيخ الألباني رحمه الله في تمام المنة ص : (٤٥) .

فأدنى ما يقال في الحديث أنه بمجموع هذه الطرق لا ينزل عن درجة الحسن .

(١) سورة التوبة، الآية (٨١) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء (٢١٩/١)، رقم (٢٥١) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (٢٢٩/٤) رقم (٦٧٠٤) .

ولهذا نهى عن الصمت الدائم، بل المشروع ما قاله النبي ﷺ قال :

(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)[1] .

فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه، والسكوت عن الشر خير من التكلم به)[2].

الأمر الثالث : أن التعبد بتحريم المباحات من المنكرات، وليس من القربات، قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[3].

وقال تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[4].

وهدي النبي ﷺ وأصحابه في المباحات أنهم يقنعون بما تيسر لهم منها ويستعينون بها على طاعة الله جل وعلا، فلا يحرمونها، ولا يلهثون وراء تحصيل فضولها، فكانوا يقنعون بالموجود ويشكرون الله عليه، ولا يتكلفون المفقود ولا يأسفون على فواته .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٤/٩٤)، رقم (٦٠١٨)، ومسلم في صحيحه : كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار (١/٦٨) رقم (٤٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٣١٤-٣١٥) .

(٣) سورة المائدة، الآية (٨٧) .

(٤) سورة الأعراف، الآية (٣٢) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(الامتناع من فعل المباحات مطلقا كالذي يمتنع من أكل اللحم، وأكل الخبز، أو شرب الماء، أو لبس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف، ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحب فهذا جاهل ضال من جنس زهاد النصارى ...

إلى أن قال :

(ومن حرم الطيبات التي أحلها الله من الطعام واللباس والنكاح وغير ذلك واعتقد أن ترك ذلك مطلقا هو أفضل من فعله لمن يستعين به على طاعة الله، كان معتديا معاقبا على تحريمه ما أحل الله ورسوله، وعلى تعبده لله تعالى بالرهبانية، ورغبته عن سنة رسول الله ﷺ، وعلى ما فرط فيه من الواجبات، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب [1])[2].

وعلق الإمام ابن مفلح رحمه الله[3] على كلام شيخه هذا بقوله :

---

(١) انظر هذه المسألة في : المستصفى للغزالي (١/١٣٨)، التحصيل من المحصول للأرموي (١/٣٠٩)، شرح مختصر الروضة للطوفي (١/٣٣٥)، المسودة في أصول الفقه ص : (٥٤)، مجموع الفتاوى (٢٠/١٥٩-١٦١)، شرح مختصر ابن الحاجب (١/٣٦٨-٣٦٩)، شرح الكوكب المنير (١/٣٥٧-٣٦٠)، المذكرة للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ص : (١٦-١٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/١٣٤ وما بعدها)، وانظر : الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/١٨٧) .

(٣) هو : محمد بن مفلح بن محمد، الحنبلي، المقدسي الرامي ثم الصالحي .مولده سنة بضع وسبعمائة، وتوفي سنة ثلاث وستين وسبعمائة .كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول له :(ما أنت ابن مفلح، أنت مفلح) وقال عنه ابن القيم : (ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح) وعمره يومئذ نحو العشرين .له مؤلفات بديعة، منها : (كتاب الفروع) في المذهب الحنبلي، و (الآداب الشرعية الكبرى) وغيرهما .

انظر : المعجم المختص بالمحدثين ص : (٢٦٥)، والسحب الوابلة (٣/١٠٨٩) .

(قول الشيخ تقي الدين إن الامتناع من المباح رأسا جهل، كذا قال غيره من العلماء؛ لأنه خلاف فعل الرسول ﷺ وطريقه، فمن اتخذ طريقا إلى الله سبحانه خلاف طريقه فإنما يروم ذلك ويظن أنه أوصل إلى المقصود وأبلغ في حصول المطلوب لا سيما مع شدة طريقه وضيقها، ولا يخفى أن هذا من الجهل والضلال)[1] .

ولا يرد على ما تقدم قوله تعالى : ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾[2]؛ لأن الآية لم يقصد بها تحريم النعم التي أباحها الله لعباده، وإنما المراد الحث على شكر الله المنعم بها، فالسؤال عن الشكر لا عن الاستعمال .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(من امتنع عن نوع من الأنواع التي أباحها الله على وجه التقرب بتركها فهو مخطئ ضال، ومن تناول ما أباحه الله من الطعام واللباس مظهرا لنعمة الله، مستعينا به على طاعة الله، كان مثابا على ذلك، وقوله تعالى : ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾[3]، أي عن شكر النعيم، فيطالب العبد بأداء شكر نعمة الله على النعيم؛ فإن الله سبحانه لا يعاقب على ما أباح، وإنما يعاقب على ترك مأمور وفعل محذور)[4].

الأمر الرابع : أن (الأعمال لا تتفاضل بالكثرة، وإنما تتفاضل بما يحصل في القلوب حال العمل)[5]، وأن أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل، وما لم يشغل عن أداء حقوق هي أوجب منه؛ (فإن المكلف مطلوب بأعمال ووظائف شرعية لا بد له منها، ولا محيص له عنها، يقوم فيها بحق ربه تعالى، فإذا أوغل في عمل

---

(١) الآداب الشرعية (٣/١٨٨) (تحقيق الأرنؤوط، والقيام/الرسالة/ط٢/١٤١٧) .

(٢) سورة التكاثر، الآية (٨) .

(٣) سورة التكاثر، الآية (٨) .

(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/١٣٧)، وانظر في هذا الموضوع : تلبيس إبليس لابن الجوزي ص (١٧٤) .

(٥) قاله شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (٢٥/٢٨٢) .

شاق، فربما قطعه عن غيره، ولا سيما حقوق الغير التي تتعلق به، فيكون عبادتـــه أو عمله الداخل فيه قاطعا عما كلفه الله به، فيقصر فيه، فيكون بذلك ملوما غير معذور؛ إذ المراد منه القيام بجميعها على وجه لا يخل بواحدة منها، ولا بحـــال مـــن أحوالـــه فيها)[1] .

فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:

(يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل[2] حتى تملـــوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دووم عليه وإن قل)[3].

وعنها رضي الله عنها قالت :

(كان أحب العمل إلى رسول الله ﷺ الذي يدوم عليه صاحبه)[4].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

(المداومة على العبادة وإن قلت أولى من جهد النفس في كثرتها إذا انقطعـــت، فالقليل الدائم أفضل من الكثير المنقطع غالبا)[5].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال قال لي رسول الله ﷺ :

(يا عبد الله : ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟!

---

(١) قاله الشاطبي في الموافقات (٢/٢٤٧) .

(٢) من المقرر عند سلف الأمة أن الله جل وعلا منـــزه عن أن يوصف بالملل، وقد ذكر العلماء في توجيـــه الحديث أوجها عدة انظرها في تفسير الطبري (١/٢٠٨)، التمهيد (١/١٩٥)، فتح الباري (١/١٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه :كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه (٤/٦٧) رقم (٥٨٦١)، ومسلم في صحيحه : كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (١/٥٤٠) رقم (٧٨٢) واللفظ له .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمـــل (٤/١٨٤) رقـــم (٦٤٦٢)، ومسلم في صحيحه : كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل وعدد ركعات النـــبي ﷺ في الليل (١/٥١١) رقم (٧٤١) .

(٥) فتح الباري (٤/٢٥٣) .

فقلت : بلى يا رسول الله .

قال : فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم؛ فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا ...)[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

(فيه بيان رفق رسول الله ﷺ بأمته وشفقته عليهم، وإرشاده إياهم إلى ما يصلحهم، وحثه إياهم على ما يطيقون الدوام عليه، ونهيهم عن التعمق في العبادة لما يخشى من إفضائه إلى الملل المفضي إلى الترك أو ترك البعض، وقد ذم الله قوما لازموا العبادة ثم فرطوا فيها)[2].

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(متى كانت العبادة توجب له ضررا يمنعه من فعل واجب أنفع له منها كانت محرمة، مثل أن يصوم صوما يضعفه عن الكسب الواجب أو يمنعه عن العقل أو الفهم الواجب، أو يمنعه عن الجهاد الواجب، وكذلك إذا كانت توقعه في محل محرم لا يقاوم مفسدته مصلحتها، مثل أن يخرج ماله ثم يستشرف إلى أموال الناس ويسألهم .

وأما إن أضعفته عما هو أصلح منها وأوقعته في مكروهات، فإنها مكروهة .

إلى أن قال رحمه الله :

قد رأينا خلقا كثيرا آل بهم الإفراط فيما يعانونه من شدائد الأعمال إلى التفريط والتثبيط، والملل والبطالة، وربما انقطعوا عن الله بالكلية، أو بالأعمال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم (٢/٥١) رقم (١٩٧٥)، ومسلم في صحيحه :كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به (٢/٨١٧) رقم : (١١٥٩) .

(٢) فتح الباري (٤/٢٦٥) .

المرجوحة عن الراجحة، أو بذهاب العقل بالكلية، أو بحصول خلل فيه؛ وذلـــك لأن أصل أعمالهم وأساسها على غير استقامة ومتابعة)[1].

إذا تقرر هذا فإن جماع هذه الأمور أن على المسلم أن يجمع بين العلم والعمل، فيحرص على أن تكون عبادته لله جل وعلا بعلم لا بجهل واتباع الهوى، كما يحـرص أن يكون علمه قائدا له إلى العمل؛ لأن (كل من فاته العلم تخبط، فإن حصل له وفاته العمل به كان أشد تخبيطا)[2].

وهذا ما سأبينه بتوفيق الله في المطلب التالي .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/٢٧٢-٢٧٨) .

(٢) قاله ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص : (٣٠٩) .

المطلب الثالث : في ضرورة الجمع بين العلم والعمل :

سبق بيان ارتباط الفلاح بتحقيق العبودية لله جل وعلا وذلك بملازمة الأعمال الصالحة، كما تقدم بيان فساد العبادات التي لا تبنى على العلم غالبا؛ لـذا فلابـد في السير إلى الله تعالى من الجمع بين العلم والعمل .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(ليس صلاح الإنسان في مجرد أن يعلم الحق دون ألا يحبه ويريده ويتبعه، كما أنه ليس سعادته في أن يكون عالما بالله مقرا بما يستحقه دون أن يكون محبا لله عـابدا لله مطيعا لله، بل أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمـه؛ فـإذا علـم الإنسان الحق وأبغضه وعاداه كان مستحقا من غضب الله وعقابه ما لايستحقه مـن ليس كذلك .كما أن من كان قاصدا للحق طالبا له وهو جاهل بالمطلوب وطريقـه كان فيه من الضلال، وكان مستحقا من اللعنة –التي هي البعد عن رحمـة الله– مـا لايستحقه من ليس مثله؛ ولهذا أمرنا الله أن نقول : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾[1].

والمغضوب عليهم علموا الحق فلم يحبوه و لم يتبعوه، والضالون قصدوا الحـق لكن بجهل وضلال به وبطريقه .فهذا بمنـزلة العالم الفاجر، وهذا بمنـزلة العـابد الجاهل، وهذا حال اليهود فإنه مغضوب عليهم، وهذا حال النصارى فإنهم ضـالون، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : (اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون)[2])[3].

---

(١) سورة الفاتحة، الآيتان (٦، ٧) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٧٨/٤)، وعنه الطبراني في الكبير (١٠٠/١٧) رقم (٢٣٧)، وأخرجـه الترمذي في سننه : كتاب تفسير القـرآن، بـاب مـن سـورة الفاتحـة (١٨٦/٥-١٨٧) رقـم : (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، وأخرجه ابن جرير في التفسير (٧٩/١-٨٣)، وقال الحـافظ في الفتـح (٩/٨) : (أخرجه ابن مردويه بإسناد حسن عن أبي ذر)، وصححه الشيخ الألباني في التعليق على شرح الطحاوية ص : (٥٢٦)، وفي كتابه صحيح الترمذي (٢٠/٣) .

(٣) مجموع الفتاوى (٥٨٦/٧) .

فليس المراد الوقوف مع صورة العلم بالاشتغال بحفظ حروفه وقواعده مع تضييع آدابه، وإهمال ثمرته، والغفلة عن المقصود منه وهو العمل به، فهذا علم لا ينفع صاحبه ولا يحصل له به الهدى؛ لأن (مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه)[1]، بل سيكون سبب هلاكه؛ فخطر العلم عظيم، ووزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل، نظرا لقيام الحجة عليه، ولأن بضلاله يضل خلق كثير، فهو فتنة لكل مفتون، وفي فساده فساد العالم؛ لكونه محل ثقة الناس يتخذونه قدوة وأسوة، ولا شك أن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لذا تظافرت النصوص في الترهيب من ترك العمل بالعلم، وبيان شناعة هذا الفعل وسوء مغبته .

ومما ورد في ذلك :

١- قوله ﷺ :

(يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فتجتمع أهل النار عليه، فيقولون : يا فلان ما شأنك ؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟! فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه)[2].

٢- قوله ﷺ :

(مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار! قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون)[3] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٠٧) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٢/٤٣٦) رقم : (٣٢٦٧)، ومسلم في صحيحه : كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله (٤/٢٢٩٠) رقم : (٢٩٨٩) .

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢/٦٢٥) رقم (٧٦٨)، ووكيع في الزهد (٢/٥٦٨) رقم (٢٩٧)، ومن طريقه الإمام أحمد في المسند (١٩/٢٤٤ الرسالة) رقم (١٢٢١١)، وابن أبي شيبة في المصنف =

٣- كان من دعاء النبي ﷺ :

(اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع)[١]، والعلم النافع هو الذي يورث الخشية ويقود إلى العمل .

قال ابن الجوزي رحمه الله :

(نسأل الله تعالى علما نافعا فهو الأصل، فمتى حصل أوجب معرفة المعبود عز وجل، وحرك إلى خدمته بمقتضى ما شرعه وأحبه، وسلك بصاحبه طريق الإخلاص) [٢].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه، فإن لم يعمل به صاحبه قيل إنه ليس بعاقل)[٣] .

٤- وأثر عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقول :

(إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي : يا عويمر ! فأقول : لبيك رب .

فيقول : ما عملت فيما علمت)[٤].

=

(٨/٤٤٦) وفيه علي بن زيد بن جدعان متكلم في حفظه، لكن لم ينفرد به بل له طرق أخرى تتبعها الشيخ الألباني رحمه الله وخلص إلى أن الحديث بمجموعها صحيح بلا ريب .انظر : السلسلة الصحيحة (١/٥٨٥) رقم (٢٩١) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٤/٢٠٨٨) رقم (٢٧٢٢) .

(٢) صيد الخاطر ص : (١١٢) (تحقيق البر/دار اليقين، مصر/ط١/١٤١٣) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٣٣٦) .

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/١٢٨) رقم (٣٣)، ومن طريقه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/٦٨٠)، كما أخرجه أحمد في الزهد (٢/٥٨) رقم (١٣٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/٢١٣)، والآجري في أخلاق العلماء ص : (٤٣) (مطبعة دار نشر الثقافة، مصر) .

٥ - وقال الأوزاعي رحمه الله :

(ويل للمتفقهين لغير العبادة، والمستحلين للحرمات بالشبهات)[١].

فالعلم الذي لا يعمل به لا شك أن ضرره وبيل، وخطره عظيم، كما أن العمل الذي لا يسبق بالعلم يكون في الغالب مردودا على صاحبه؛ لأن من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وزبدة الكلام : أن على كل من أراد الفوز في الدنيا والآخرة أن يحرص على العلم النافع والعمل الصالح، فلا يجعل همته مصروفة للعلم مع إغفال العمل، كما لا ينبغي أن يعمل بالجهل والذوق والهوى، بل يجمع بين العلم والعمل؛ لأن (كلا من القوتين تقوى بالأخرى، فالعلم يقوي العمل، والعمل يقوي العلم)[٢]، ولأن هدي النبي ﷺ والصحابة كان كذلك، ولا خير إلا في الاقتداء بهديهم والسير وفق نهجهم؛ إذ (لا أدب كأدب رسول الله ﷺ، ولا خلق كأخلاقه فمن وفقه الله أعانه على البحث على أخلاقه والاقتداء به ليتخلق منه بما يقدر عليه ويصل إليه، وما من أحد إلا هم و لم، فيا سعادة من اقتدى به واستن بسيرته، وأخذ بطريقته، وامتلأ قلبه من محبته، في دق ذلك كله وجله، وكثره وقله :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[٣])[٤].

---

(١) أخرجه الآجري في أخلاق العلماء ص : (٤٧)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٢/١٧٦) رقم : (٨١٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (٧/٥٣٨) .

(٣) سورة آل عمران، الآية (٣١) .

(٤) قاله العز بن عبد السلام في قواعد الأحكام (١/١٠٨) (مؤسسة الريان، بيروت/١٤١٠) .

المبحث الثاني :

تقرير السلف اشتمال الدين على مصالح الدنيا والآخرة

اتفق العقلاء على أن الشرائع السماوية إنما نزلت لإقامة مصالح الناس في العاجل والآجل، ولولاها لكان الناس بمنزلة البهائم والأنعام، لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا، يستمرئون الخبائث، ولا يأنفون من القبائح، ويأكل القوي منهم الضعيف، ويتخبطون في ظلمات الجهل والضلالة .

ومن أقوى الأدلة على هذا ما يرى من حال الناس الذين اندثرت آثار النبوة عندهم، فتراهم يعبدون الحيوانات والجمادات، وينكحون الأمهات والأخوات، ويئدون البنات، ويستحلون المعاصي والمنكرات، ولا يعظمون الحرمات؛ لذا كانت بعثة الأنبياء ضرورة لاستقامة أحوال الناس وصلاح شؤونهم الدينية والدنيوية .

قال القرطبي رحمه الله :

(لا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية)[1] .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها)[2] .

ولا شك أن شريعة الإسلام الموسومة بالكمال قد جمعت مصالح الدنيا والآخرة على التمام، بل إن المصالح تدور معها وجودا وعدما، فمن مظاهر كمال هذا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/٦٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٩٦) .

الدين إحاطته بجميع مصالح العباد في المعاش والمعاد، فلم يهمل البتة مصلحة راجحة بله خالصة .

قال العز بن عبد السلام [1] :

(لو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة، لعلمنا أن الله أمر بكل خير دقه وجله، وزجر عن كل شر دقه وجله؛ فإن الخير يعبر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشر يعبر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح)[2] .

فالقول بأن هناك مصالح أغفلتها الشريعة يعد طعنا في كمالها وشمولها وعمومها، وكل ما يظن أنه مصلحة و لم يأت في الشرع ما يدل على اعتباره فلا يعدو أن يكون مصلحة موهومة، أو أن يكون فيه نوع مصلحة لكنه يشتمل على مفاسد راجحة تلغي تلك المصلحة وتجعلها غير معتبرة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(القول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط، بل الله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم النعمة، فما من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثنا به النبي ﷺ وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، لكن ما اعتقده العقل مصلحة وأن الشرع لم يرد به فأحد الأمرين لازم له :

إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر .

أو أنه ليس بمصلحة وإن اعتقده مصلحة؛ لأن المصلحة هي المنفعة الحاصلة أو الغالبة، وكثيرا ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا ويكون فيه منفعة مرجوحة بالمضرة كما قال تعالى في الخمر والميسر :

---

(١) هو : عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم، عز الدين، السلمي الدمشقي الملقب بسلطان العلماء . ولد بدمشق سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وتوفي بالقاهرة سنة ستين وستمائة .له مؤلفات عدة منها : (قواعد الأحكام في إصلاح الأنام) و (بداية السول في تفضيل الرسول) وغيرهما .
انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٥/٨٠)، فوات الوفيات (٢/٣٥٠) .

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الآنام (٢/٣٢٧) .

﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[1])[2].

ولا شك أن النظر إلى الشريعة بغير هذه النظرة يؤدي إلى فتح باب الشر على مصراعيه، فكل من أراد أن يدخل شيئا في الدين سيلج من باب المصلحة، كما أن من أراد أن يعطل شيئا من الشرع سيتذرع بأنه يصادم المصلحة؛ لذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(وكثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال من بدع أهل الكلام وأهل التصوف وأهل الرأي وأهل الملك حسبوه منفعة أو مصلحة نافعا وحقا وصوابا و لم يكن كذلك)[3] .

وقال ابن القيم رحمه الله :

(هذا موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك، ومعترك صعب، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرؤوا أهل الفجور على الفساد وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد محتاجة إلى غيرها ...

إلى أن قال رحمه الله :

فلما رأى ولاة الأمور ذلك، وأن الناس لا يستقيم لهم أمر إلا بأمر وراء ما فهمه هؤلاء من الشريعة أحدثوا من أوضاع سياستهم شرا طويلا، وفسادا عريضا، فتفاقم الأمر، وتعذر استدراكه، وعز على العالمين بحقائق الشرع تخليص النفوس من ذلك، واستنقاذها من تلك المهالك)[4] .

وهذه هي الشبهة نفسها التي يتعلق بها بعض الناس في هذا الزمان لتبرير نبذهم الشريعة ورفض تحكيمها واستبدالها بالقوانين الوضعية الوضيعة، حيث يزعمون أنها قاصرة عن مواكبة متطلبات العصر، وأنها لا تصلح لهذا الزمان !!

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢١٩) .

(٢) مجموع الفتاوى (١١/٣٤٤) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص : (١٣-١٤) (تحقيق الفقي/دار الكتب العلمية، بيروت) .

ولا ريب أن منشأ هذا الضلال هو الجهل بحقيقة دين الإسلام، وإلا فكل (من له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالاتها، وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذي يفصل بين الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها، وحسن فهمه فيها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة)[1] .

وقد نص غير واحد من أهل العلم على ضلال من أنكر هذه الحقيقة حتى قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(من أنكر ما اشتملت عليه الشريعة من المصالح والمحاسن والمقاصد التي للعباد في المعاش والمعاد ... فهو مخطئ ضال يعلم فساد قوله بالضرورة، وبما اتفق عليه العقلاء، مع دلالة الكتاب والسنة والإجماع على فساد قوله)[2] .

وتفصيل ما تقدم وبيان أدلته في المطالب التالية :

---

(١) قاله ابن القيم رحمه الله في كتابه الطرق الحكمية ص : (٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (٨/١٧٩-١٨٠) بتصرف .

المطلب الأول : في بيان الأدلة الدالة على أن الدين أريد به مصالح العباد في المعاش والمعاد :

دلت أدلة كثيرة على أن الدين أريد به مصالح العباد في المعاش والمعاد بل بلغت في الكثرة حدا يصعب حصرها حتى قال ابن القيم رحمه الله :

(والقرآن وسنة رسول الله ﷺ مملوآن من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح، وتعليل الخلق بهما، والتنبيه على وجوه الحكم التي لأجلها شرع تلك الأحكام وخلق تلك الأعيان .

ولو كان هذا في القرآن والسنة في نحو مائة موضع أو مائتين لسقناها، ولكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة)[1] .

وعليه فسأقتصر في الآتي على ذكر بعض الطرق الدالة على المراد :

أولا : الاستقراء [2] :

دل استقراء العلماء لجزئيات الشريعة على أن الله جل وعلا شرع لعباده ما فيه صلاحهم في العاجل والآجل، فما من مسألة من مسائل هذا الدين إلا وهي دالة على ذلك، وشاهدة عليه، وناطقة به .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٣٦٣) .

(٢) الاستقراء في اللغة من القرو وهو القصد والتتبع، مأخوذ من قولك استقريت البلد أي تتبعته قرية قرية .
وفي الاصطلاح عرف بعدة تعاريف منها : (تتبع الجزئيات كلها، أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جميعا) .
وهو نوعان :
- تام : وهو الذي يعم فيه الاستقراء جميع الجزئيات لإثبات الحكم، ويسمى بالقياس المنطقي .
- وناقص : وهو الذي يعم فيه الاستقراء أكثر الجزئيات .
انظر : القاموس المحيط (٢/١٧٣٥)، تقريب الوصول إلى علم الأصول ص : (٣٩٧)، شرح الكوكب المنير (٤/٤١٧)، نثر الورود على مراقي السعود (٢/٥٦٦) .

قال ابن القيم رحمه الله :

(جميع مسائل الشريعة آيات بينات، ودلالات واضحات، وشواهد ناطقات بأن الذي شرعها له الحكمة البالغة، والعلم المحيط، والرحمة والعناية بعباده، وإرادة الصلاح لهم، وسوقهم بها إلى كمالهم وعواقبهم الحميدة)[1] .

قال الشاطبي رحمه الله :

(والمعتمد إنما هو أنا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراء لا ينازع فيه الرازي ولا غيره)[2] .

وقال الطاهر ابن عاشور :

(استقراء أدلة كثيرة من القرآن والسنة الصحيحة يوجب لنا اليقين بأن الشريعة الإسلامية منوطة بحكم وعلل راجعة للصلاح العام للمجتمع والأفراد)[3] .

ثانيا : لله جل وعلا أسماء وأوصاف تقتضي مراعاة مصالح العباد :

فالأدلة الدالة على ثبوت تلك الأسماء والصفات لله جل وعلا دالة أيضا على أن الشرع روعي فيه مصالح العباد .

ومن ذلك اتصافه سبحانه وتعالى بالرحمة، والحكمة والعلم والعدل ونحوها .

قال ابن القيم رحمه الله :

(ومن أسمائه سبحانه العدل والحكيم الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه، فهو المحسن الجواد الحكيم العدل في كل ما خلقه، وفي كل ما وضعه في محله وهيأه له، وهو سبحانه له الخلق والأمر، فكما أنه في أمره لا يأمر إلا بأرجح الأمرين، ويأمر

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٣٦٧) .

(٢) الموافقات (٢/١٢) .

(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية ص : (١٨٠) (تحقيق الميساوي/دار النفائس، الأردن/ط٢/١٤٢١) .

بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإذا تعارض أمران رجح أحسنهما وأصلحهما، وليس في الشريعة أمر يفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه، ولا نهي عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده)[1] .

وقال أيضا :

(والله سبحانه حكيم لا يفعل شيئا عبثا ولا لغير معنى ومصلحةٍ وحكمةٍ هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا وهذا في مواضع لا تكاد تحصى، ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها ...

إلى أن قال رحمه الله :

(فإذا كان المتكلم لم يقصد مصلحة المخاطبين، ولا هداهم، ولا إيصالهم إلى سعادتهم ودلالتهم على أسبابها وموانعها، ولا كان ذلك هو الغاية المقصودة المطلوبة، ولا تكلم لأجلها، ولا أرسل الرسل وأنزل الكتب لأجلها، ولا نصب الثواب والعقاب لأجلها لم يكن حكيما ولا كلامه حكمة ..)[2] .

فرحمة العزيز الرحيم تقتضي ألا يترك عباده في ظلمات الجهل والغي والضلال بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالحهم الدينية والأخروية .

ثالثا : وردت نصوص كثيرة فيها وصف الله جل وعلا لرسوله ﷺ بأوصاف تدل على أن المقصد من بعثته هو تحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة :

فقد وصفه الله تعالى بالرحمة، والحرص على الأمة، والخوف عليها من أن تقع في العنت والمشقة، فقال تعالى :

---

(١) شفاء العليل (٢/٦٧) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ٨٧-٨٨) .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[1].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله :

(ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ما أرسل هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى الخلائق إلا رحمة لهم؛ لأنه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه)[2] .

وقال تعالى :

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ ﴾[3].

وقال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾[4].

رابعا : وصف الله القرآن بأوصاف تدل على أنه أنزل لتحقيق مصالح العباد :

فقد وردت نصوص كثيرة في وصف القرآن الذي هو أصل الدين بأوصاف تدل على أنه أحاط بفنون المصالح العاجلة والآجلة، ومن ذلك :

---

(١) سورة الأنبياء (١٠٧) .

(٢) أضواء البيان (٤/٧٥٩) .

(٣) سورة التوبة، الآية (١٢٨) .

(٤) سورة الأعراف، الآية (١٥٧) .

١/ قوله تعالى :

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾[١].

فإضافة تنـــزيله إلى الرحمن الرحيم دليل على أنـــه منـــاط المصـــالح الدينيـــة والدنيوية .

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله :

(يخبر تعالى أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ صـــادر ﴿ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلـــها إنزال هذا الكتاب الذي حصل به من العلم والهدى، والنور والشفاء، والرحمة والخـــير الكثير مما هو من أجل نعمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين)[٢].

٢/ وكما أنه نزل من الرحمن الرحيم فقد وصفه الله جل وعلا بأنـــه رحمـــة للمؤمنين في آيات كثيرة كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ ﴾[٣].

وقوله تعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢ ﴾[٤].

فكونه رحمة للمؤمنين دليل على اشتماله على غاية المصالح واعتنائه بهـــا وإلا لم يكن رحمة .

---

(١) سورة فصلت، الآيتان (١-٢) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥٥٧/٦) .

(٣) سورة النمل، الآيتان (٧٦ – ٧٧) .

(٤) سورة الإسراء، الآية (٨٢) .

وقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1].

ودلالة هاتين الآيتين على المراد من وجوه :

(أحدها : قوله عز وجل : ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، حيث اهتم بوعظهم، وفيه أكبر مصالحهم؛ إذ في الوعظ كفهم عن الردى، وإرشادهم إلى الهدى .

الوجه الثاني : وصف القرآن بأنه شفاء لما في الصدور، يعني من شك ونحوه، وهو مصلحة عظيمة .

الوجه الثالث : وصفه بالهدى .

الوجه الرابع : وصفه بالرحمة .وفي الهدى والرحمة غاية المصلحة .

الوجه الخامس : إضافة ذلك إلى فضل الله عز وجل ورحمته، ولا يصدر عنهما إلا مصلحة عظيمة .

الوجه السادس : أمره إياهم بالفرح بذلك لقوله عز وجل : ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ ،وهو في معنى التهنئة لهم بذلك، والفرح والتهنئة إنما يكونان لمصلحة عظيمة .

الوجه السابع : قوله عز وجل : ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ،والذي يجمعونه هو من مصالحهم، فالقرآن ونفعه أصلح من مصالحهم، والأصلح من المصلحة غاية المصلحة .

---

(١) سورة يونس، الآيتان (٥٧-٥٨) .

فهذه سبعة أوجه من هذه الآية تدل على أن الشرع راعى مصلحة المكلفين واهتم بها)[1].

٣/ قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾[2].

وقال تعالى :

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[3].

وقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾[4].

فوصف سبحانه وتعالى القرآن في هذه الآيات وغيرها بأنه نور وحياة، فالأحكام التي جاء بها هي (النور الذي أبصر به المبصرون، وهدى الله الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من

---

(١) قاله الطوفي في كتاب التعيين في شرح الأربعين ص : (٢٤٠-٢٤١) (تحقيق أحمد حاج/مؤسسة الريان/ ط١/١٤١٩)، وبالمناسبة أرى من اللازم التنبيه على أن للطوفي في مسألة المصلحة رأيا شذ به عن أهل العلم قاطبة، حيث إنه يرى أن المصلحة تقدم على جميع الأدلة الشرعية بما في ذلك الكتاب والسنة والإجماع !!! .

(٢) سورة الشورى، الآية (٥٢) .

(٣) سورة الأعراف، الآية (١٥٧) .

(٤) سورة النساء، الآية (١٧٤) .

استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرة العيون، وحياة القلوب، ولـــذة الأرواح، وبها الحياة والغذاء والدواء، والنور والشفاء والعصمة)[1] .

٣/ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [2].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله [3] :

(هذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهـدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفاصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميـع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خير الدنيا والآخرة)[4] .

ثم شرع رحمه الله في ذكر بعض ما تضمنته الشريعة الغراء من المصالح والمحاسن التي تبهر العقول، وجعل ذلك من هداية القرآن للتي هي أقوم .

خامسا : ما ورد عن الأئمة في تقرير أن الشريعة مبناها على الحكم ومصالح العباد :

وردت نقول كثيرة جدا عن الأئمة في تقرير هذه المسألة، بل حكى بعضـــهم الإجماع عليها، فقال الشاطبي رحمه الله :

(الشارع وضع الشريعة على اعتبار المصالح باتفاق)[5].

---

(١) قاله ابن القيم في إعلام الموقعين (٥/٣) .

(٢) سورة الإسراء، الآية (٩) .

(٣) هو : محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، ولد عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف، وتـوفي عام ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف، وصف بأنه ملئ علما من رأسه إلى أخمص قدميه، له مؤلفات بديعة منها : (أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن) و (دفع إيهام الاضطراب) وغيرهما .
انظر : كتاب ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي لعبد الرحمن السديس، وما كتبه الشيخ عطية سالم في ترجمته في آخر المجلد العاشر من أضواء البيان .

(٤) أضواء البيان (٣٧٢/٣) .

(٥) الموافقات (٢٢١/١)، وقد تقدم كلام القرطبي في إجماع العقلاء على ذلك .

- قال العز بن عبد السلام :

(الشريعة كلها مصالح، إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيرا يحثك عليه، أو شرا يزجرك عنه، أو جمعا بين الحث والزجر)[1] .

- وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(التحقيق أن الشريعة التي بعث الله بها محمدا ﷺ جامعة لمصالح الدنيا والآخرة)[2] .

- وقال ابن القيم رحمه الله :

(الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة)[3] .

- وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله :

(واعلم أن التحقيق الذي لا شك فيه : أن الله تعالى يشرع الأحكام لمصالح الخلق؛ فأفعاله وتشريعاته كلها مشتملة على الحكم والمصالح من جلب المنافع ودفع المضار)[4] .

---

(١) قواعد الأحكام (١/١١) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/٣٠٨) .

(٣) إعلام الموقعين (٣/٥) .

(٤) أضواء البيان (٤/٧٠٩) .

إذا تقرر ما تقدم فإني أرى من اللازم أن أنبه هنا على أن مراد العلمـــاء بـــأن الشريعة مبناها على المصالح لا يعني أن الشرع يتبع المصلحة ويدور معـــــها وجـــودا وعدما، بل مرادهم بذلك أنه لا مصلحة إلا فيما جاء به الشرع، فأينما وجد الشـــرع فثم المصلحة، لا العكس ! فبالشرع المنـــزل تعرف المصالح .

وهذا ما سأبينه في المطلب التالي بعون الله وتوفيقه .

المطلب الثاني : في بيان أن المصالح المعتبرة هي التي دل عليها الشرع .

لا ريب أن العقول البشرية لا تستقل بمعرفة تفاصيل مصالحها الدنيوية بله الأخروية، لذا قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(لولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد)[1].

وقال الشاطبي رحمه الله :

(العادة تحيل استقلال العقول في الدنيا بإدراك مصالحها ومفاسدها على التفصيل)[2].

والدليل على هذا أمور :

الأول : أننا نرى كثيرا من الأذكياء يتمسكون بأمور يظنونها مصالح ويبذلون دونها النفس والنفيس وهي في حقيقتها إما أن تكون مفاسد خالصة، أو تشتمل على مفاسد راجحة؛ ومرد ذلك إلى أن (الإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه يشتهي ما يضره ويلتذ به، بل يعشق ذلك عشقا يفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله)[3] فتنقلب عنده الموازين وتنتكس لديه المفاهيم فيرى المفسدة مصلحة، والمصلحة مفسدة .

الثاني : أننا نرى جماعة من العقلاء يختلفون في أشياء كثيرة هل هي من المصالح أو من المفاسد، فما يجعله هذا مصلحة يكون عند الآخر مفسدة !!

فلو كانت تفاصيل المصالح تدرك بمجرد العقول لما اختلف أرباب النظر فيها؛ لأن كل ما يدرك بالعقل الصريح لا يختلف أربابه فيه .

الثالث : أن أهل الجاهلية كان فيهم من بلغ في الذكاء غاية، ومع ذلك فقد كانوا لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا، بل ربما جعلوا المعروف منكرا، والمنكر

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/١٠٠) .

(٢) الموافقات (٢/٧٨) .

(٣) قاله شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (١٩/٣٤) .

معروفا، فلو كان العقل كافيا لما وصلوا إلى هذه الحال؛ (ولذلك لما جاء الشرع بعد زمان فترة تبين به ما كان عليه أهل الفترة من انحراف الأحوال عن الاستقامة، وخروجهم عن مقتضى العدل في الأحكام)[1] .

وعليه فمصالح الدنيا والآخرة إنما تعرف على وجه التفصيل بالشريعة المحمدية لا بالعقول البشرية؛ لذا قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(على العبد أن يسلم للشريعة المحمدية الكاملة البيضاء الواضحة، ويعلم أنها جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإذا رأى من العبادات والتقشفات وغيرها التي يظنها حسنة ونافعة ما ليس بمشروع علم أن ضررها راجح على نفعها، ومفسدتها راجحة على مصلحتها؛ إذ الشارع حكيم لا يهمل المصالح)[2].

نعم قد يدرك العقل بعض المصالح وبعض المفاسد، لكن على وجه الإجمال وفي بعض الأحيان، فلا يمكن الاستغناء عن الشرع البتة لا بالعقل ولا بغيره .

قال ابن القيم رحمه الله :

(غاية العقل أن يدرك بالإجمال حسن ما أتى الشرع بتفصيله، أو قبحه، فيدركه العقل جملة، ويأتي الشرع بتفصيله، وهذا كما أن العقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلا أو ظلما فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد .

وكذلك يعجز عن إدراك حسن كل فعل وقبحه، وتأتي الشرائع بتفصيل ذلك وتبيينه، وما أدركه العقل الصريح من ذلك أتت الشرائع بتقريره، وما كان حسنا في وقت قبيحا في وقت ولم يهتد العقل لوقت حسنه من وقت قبحه أتت الشرائع بالأمر

---

(١) قاله الشاطبي في الموافقات (٢/٧٧) .

(٢) تلخيص الاستغاثة (١/١٦٧) .

رجوع إلى وجه حصول المصلحة والتخفيف على الكمال، بخلاف الرجوع إلى مـــا خالفه)[1] .

وما ذكره الإمام ابن القيم والشاطبي وغيرهما من حاجة العالم إلى الرسل ليست قاصرة على تعريفهم بمصالح الآخرة فحسب، بل مصالح الدنيا والآخرة يحتاج النـــاس لمعرفتها إلى الشرائع السماوية فهي المشتملة على جزئيات ذلك وتفاصيله .

ولا شك أن الشريعة المحمدية التي هي أكمل الشرائع وافية بسياســـة العـــالم وبمصالح الأمة العاجلة منها والآجلة .

وبيان ذلك في المطلب الآتي :

(١) الموافقات (٥٣٧/١) .

المطلب الثالث :في بيان أن من كمال هذا الدين اشتماله على مصالح الدنيا والآخرة .

سبق وأن ذكرت أن من مظاهر كمال هذا الدين اشتماله على مصالح العباد في المعاش والمعاد، ولعل من المناسب بسط الكلام على هذا الأمر، وذلك من خلال النقاط التالية :

أولا : لا شك أن دين الإسلام قد أحاط بمصالح العباد الآجلة، فنصوص الكتاب والسنة مليئة ببيان ما تسعد به النفوس في الدار الآخرة، لكن (غلب في القرآن استعمال الحسنات في المصالح، والسيئات في المفاسد)[1] .

فالشريعة مليئة بالإخبار عما يوصل إلى رضا الرب جل وعلا، بل إن (مبناها على تعريف مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية)[2] ، فجميع النصوص الواردة في الحث على فعل الطاعات ومدح أهلها، وكذا جميع النصوص الواردة في الزجر عن اقتراف المعاصي والمنكرات وذم أهلها مما يدل على رعاية الدين لمصالح الآخرة .

كما أنها مليئة بالنصوص التي تصف ما أعده الله لعباده الصالحين في دار السعادة الأبدية تحفيزا للنفوس إلى السعي وراء تحصيل مصالحها الحقيقية .

وهي أيضا مليئة بالنصوص المخبرة عن حال أهل العناد والإلحاد وما حل بهم في الدنيا من النكال، وما يصيبهم في العقبى من الوبال جزاء لهم على إعراضهم عما شرعه الله لهم مما تسعد به نفوسهم .

وبالجملة فالدين قد أحاط بمصالح الآخرة، بل لا يطمع أحد في معرفة شيء منها إلا من طريقه؛ لذا قال العز بن عبد السلام :

---

(١) قاله العز بن عبد السلام في قواعد الأحكام (٦/١) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٣١٨/٢) .

(أما مصالح الآخرة ومفاسدها فلا تعرف إلا بالنقل)[1] .

ثانيا : من محاسن دين الإسلام وكماله مجيئه بما يقيم أمر الدنيا على أحسن الأحوال، فقد جاء بشريعة كلها خير وبركة، بل إن (كل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها، وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها، ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا، وطوي العالم، وهي العصمة للناس وقوام العالم، وبها يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى خراب الدنيا، وطي العالم رفع إليه ما بقي من رسومها، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم، وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة)[2] .

فبها تسعد النفوس وتطمئن القلوب، وعلى الأسس التي أرستها تعمر الأرض أحسن عمارة، وهي سبيل العز والتمكين .

كيف لا ؟ وقد أمرت بالعدل والإحسان، وأحكمت العلاقة بين الرعية والإمام، ووطدت أسس الأخوة بين المؤمنين، ونهت عن كل ما يحدث الفرقة والشقاق، وحثت على مكارم الأخلاق، وبينت حقوق الأفراد والجماعات، وأرست قواعد التعامل بين الشعوب والأمم، وأمرت بإعداد العدة لجهاد الأعداء، واعتنت بشؤون الناس الخاصة والعامة و لم تغفل من ذلك حتى آداب الخلاء، وقد بهرت أنوار محاسنها العقول فشهد لها الأعداء بالتمام والكمال، حتى قال قائلهم :

(اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يقرع العالم ناموس [3] أفضل من هذا الناموس المحمدي)[4].

---

(١) قواعد الأحكام (١/٩) .

(٢) إعلام الموقعين (٣/٦) .

(٣) الناموس :اسم يوناني الأصل، ومعناه : الشريعة أوالقانون الذي يضعه أكابر حكماء البلاد . وقد يطلق أيضا ويراد به صاحب السر، المطلع على باطن الأمر، كما يطلق على الحاذق، ومن يلطف مدخله .انظر القاموس المحيط (١/٧٩١)، قاموس الكتاب المقدس ص : (٩٧٨) .

(٤) قاله ابن سينا كما في مجموع الفتاوى (٤/١٠٠، ٢٠٣)، ومنهاج السنة (١/٣١٧)، وانظر هذه المقولة أيضا في الجواب الصحيح (٣/٧)، (٥/٩٠) .

وعليه فمن أحيل عليها في بيان أي شيء مما يسعد به الناس ومما يحتاجونه فقد أحيل على مليء فليحتل .

قال ابن القيم رحمه الله :

(ما أبقى الله عز وجل حسنا إلا أمر به وشرعه، ولا قبيحا إلا نهى عنه وحذر منه، ثم إنه سبحانه أودع في الفطر والعقول الإقرار بذلك)[1] .

فما من صلاح في الأرض إلا وهو مستمد منها، وما من فتنة وشر وبلاء ومصائب تصيب معايش الناس إلا بسبب تضييعها والتفريط فيها .

وما أحسن ما قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(الدنيا كلها ملعونة ملعون ما فيها إلا ما أشرقت عليه شمس الرسالة، وأسس بنيانه عليها، ولا بقاء لأهل الأرض إلا ما دامت آثار الرسل موجودة فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض وانمحت بالكلية خرب الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة)[2] .

ثالثا : مما ينبغي أن يعلم أن (المصالح المجتلبة شرعا، والمفاسد المستدفعة إنما تعتبر من حيث تقام حياة الدنيا للحياة الأخرى)[3].

وعليه فمصالح الآخرة هي المطلوبة بالقصد الأول، أما المصالح الدنيوية فمطلوبة تبعا، فإذا تعارضت مع مصالح الآخرة فإنها تلغى ولا تعتبر .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(ما كان نافعا في الآخرة فهو محمود، سواء ضر في الدنيا أو نفع، أو لم ينفع ولم يضر، وما كان ضارا في الآخرة فهو مذموم وإن كان نافعا في الدنيا أو ضرا، أو لا نافعا ولا ضارا)[4] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٤٩٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/١٠١) .

(٣) قاله الشاطبي في الموافقات (٢/٦٣) .

(٤) مجموع الفتاوى (٢٠/١٤٩) .

الفصل الثالث : في حماية السلف لقاعدة كمال الدين وحرصهم عليها .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : في بيان السلف للحق، وإقامة الحجة على الخلق .

المبحث الثاني : في تحذير السلف من البدع وأهلها .

تمهيد :

مما سبق من الفصول يظهر بجلاء أن اعتقاد كمال الدين وتمامه من العقائد الراسخة عند السلف الصالح، والتي لايشوبها عندهم أدنى شك ولا ريبة، الأمر الذي جعلهم يقفون من كل ما يخدش في هذا الاعتقاد موقف الرافض الكاره؛ لذلك نقلت عنهم أقوال كريمة، وذكرت عنهم مواقف شريفة في حماية صفاء الدين، والذود عن حياضه، والوقوف سدا منيعا في طريق البدع، وشجا في حلوق أهلها .

فكانوا بذلك (خلفاء سيد الأنبياء والمرسلين، والقوام بما جاء به من الدين، يرحضون عن أحكامه، ويحامون عن حدوده وأعلامه، يدفعون عنه كيد الشيطان، ويحرسونه من الترك والنسيان، لا يصدهم عن التمسك بالحق، ولا يثنيهم عن التعطف على الخلق سوء ما به ينالون، توخيا لثواب الله الذي له يطلبون، وفيه يرغبون)[1].

فثبت عنهم أنهم كانوا يحذرون أشد التحذير من البدع دقها وجلها، ما كان منها متعلقا بالمسائل العلمية أو العملية، كما كانوا ينهون عن مجالسة أهلها، وسماع كلامهم، وقراءة كتبهم، والسلام عليهم، وعيادتهم، وحضور جنائزهم، ومجاورتهم، ومناكحتهم، ويأمرون بكشف عوارهم، وبيان فضائحهم، ورد شهاداتهم، بل ولعنهم والتنكيل بهم، ... .

ويرون أن فعل ذلك من أفضل الجهاد، وأزكى القربات؛ لذا يصبرون في سبيل تحقيقه على أنواع من الأذى، فهذا أبو إسماعيل الهروي الحنبلي رحمه الله يقول عن نفسه :

(عرضت على السيف خمس مرات، لايقال لي ارجع عن مذهبك، لكن يقال لي : اسكت عمن خالفك !! فأقول : لا أسكت)[2] .

---

(١) نقلته من طبقات الحنابلة (٢/٢١٣) بتصرف .

(٢) السير (١٨/٥٠٩) .

كل هذا لسببين :

الأول : تحقيق ما وعد به الصادق المصدوق ﷺ في نحو قوله :

(يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)[1].

ففي هذا الحديث تحفيز عظيم إلى وجوب سعي الأمة أن يكون فيها في كل زمان ومكان أئمة يحملون على كاهلهم أمانة حماية الدين، والتصدي للمبتدعين؛ لأن مجيئ الحديث على صورة الإخبار أبلغ في الأمر، بالإضافة إلى أن النبي ﷺ حكم بعدالة من كان ذلك نعته .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(هذا الدين لا ينسخ أبدا، لكن يكون فيه من يدخل من التحريف والتبديل والكذب والكتمان ما يلبس به الحق بالباطل، ولا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خلفا عن الرسل، فينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فيحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون)[2] .

الثاني : حماية الدين، وحراسة عقائد المسلمين، إذ للبدع والمبتدعة أثر سيء جدا في إفساد عقائد الأمة وتشويه معالم الدين، قال ابن القيم رحمه الله عن البدع :

(واشتد نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذروا فتنتهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش، والظلم، والعدوان؛ إذ مضرة البدع وهدمها للدين، ومنافاتها له أشد)[3] .

فواجب النصح للإسلام والمسلمين يحتم على علماء الملة، ونقاوة الأمة أن يقفوا من البدع وأهلها موقف من استشعر عظم الخطر المحذق بالدين، وعرف مقدار الأمانة

---

(١) تقدم تخريجه ص : (٢١٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (١١/٤٣٤-٤٣٥) .

(٣) مدارج السالكين (١/٣٧٨) .

الملقاة على عاتقه بحيث لو ضيعها كان ذلك من أعظم الظلم للإسلام والمسلمين . فعليهم النفير خفافا وثقالا، جماعات وأفرادا، كل حسب وسعه وطاقته، لاجتثات البدع من أصولها، وقض مضاجع أهلها، فهذا ما يقتضيه النظر بعين الشرع، لكن لابد وأن يرافقه النظر بعين أخرى، ألا وهي عين القدر التي ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله في قوله :

(إذا نظرت إليهم بعين القدر –والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم– رحمتهم وترفقت بهم، أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاء، وأعطوا فهوما وما أعطوا علوما، وأعطوا سمعا، وأبصارا، وأفئدة :

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1])[2].

إلا أن النظر إليهم بهذه النظرة التي تستلزم الرحمة والترفق لا يعني غض الطرف عن البدع، ومداهنة أهلها، والسكوت عن الباطل، والانبساط لدعاته، بل المراد من وراء هذه النظرة أمور:

١/ أن يبعد الإنسان حظوظ النفس في كل موقف يقفه تجاه بدعة أو مبتدع، فلابد أن يكون قصده حماية الدين، وبلوغ رضا رب العالمين .

٢/ أن يكون العلم رائد كلامه، والحكمة نبراس مواقفه، فقد قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(والله يحب الكلام بعلم وعدل، وإعطاء كل ذي حق حقه، وتنزيل الناس منازلهم)[3].

---

(١) سورة الأحقاف، الآية (٢٦) .

(٢) مجموع الفتاوى (١١٩/٥) .

(٣) المصدر السابق (٢٠٥/١٢) .

٣/ أن يكون شديد الحرص على هداية من وقع في شراك البدعـــة، والخـــدع بشعارات دعاتها، فتكون دعوته بالتي هي أحسن للتي هي أقوم، بعيدا عن التشـــــفي، وعما لاينبغي من سوء الفعال، وفحش المقال .

وبالجملة فلا بد من إقامة الحجة البالغة ثم الوقوف تلـــك المواقـــف المشـــرقة الصارمة؛ فهكذا كان منهج السلف الذي يخشى على من تنكب عنه التلف .

وفي المباحث التالية بيان منهجهم هذا .

المبحث الأول :

في بيان السلف للحق، وإقامة الحجة على الخلق

مما لا يشك فيه كل من علم قدر السلف، وله إلمام بشيء من سيرهم أن الذي دفعهم إلى الوقوف بالمرصاد للبدع وأهلها هو إقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والغيرة على دين الله من أن تصل إليه أيدي المفسدين، والشفقة على عباد الله من أن يقعوا غنيمة باردة لإبليس وجنده .

فلله در شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حين يصف سلف الأمة قائلا :

(وأئمة السنة والجماعة وأهل العلم والإيمان فيهم العلم والعدل والرحمة، فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة، سالمين من البدعة، ويعدلون على من خرج منها ولو ظلمهم كما قال تعالى :

﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1].

ويرحمون الخلق؛ فيريدون لهم الخير والهدى والعلم، ولا يقصدون الشر لهم ابتداء، بل إذا عاقبوهم، وبينوا خطأهم، وجهلهم، وظلمهم كان قصدهم بذلك بيان الحق، ورحمة الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا)[2] .

---

(١) سورة المائدة الآية (٨) .

(٢) تلخيص الاستغاثة (٢/٤٩٠) .

ولما تكلم يوسف بن أسباط[1] في بعضهم، فقيل له ألا تخاف أن تكون هـــذه غيبة ؟! قال :

(و لم ؟! أنا خير لهؤلاء من آبائهم وأمهاتهم، أنا أنهى الناس أن يعملـــوا بمـــا أحدثوا فتتبعهم أوزارهم، ومن أطراهم كان أضر عليهم)[2].

فأئمة السلف هم أعلم الناس بالحق، وأرحمهم بالخلق؛ لذا فإن شعارهم في رد البدع وزجر أهلها هو ما كان يجيب به من كان ينكر المنكر في أمة سابقة إذا قيـــل لهم :

﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[3].

فالمعذرة إلى الله تتضمن إقامة الحجة على عباد الله وذلك لا يتـــم إلا بالبيـــان المزيل لكل لبس وإشكال .

وطمعهم في أن يتقوا دليل على حرصهم على هدايتهم .

وفي المطلبين التاليين بيان هذين الأمرين .

---

(١) هو : يوسف بن أسباط، الشيباني، الزاهد الواعظ .كان رجلا عابدا، له حكم ومواعظ، قال عنه أبـــو نعيم : (كان العلم والخوف شعاره، والتخلي من الدنيا دثاره) .
انظر : حلية الأولياء (٨/٢٣٧)، السير (٩/١٦٩) .

(٢) أورده المزي في تهذيب الكمال (٦/١٨٢)، والذهبي في السير (٧/٣٦٤) .

(٣) سورة الأعراف، الآية (١٦٤) .

المطلب الأول : البيان الوافي المزيل لكل لبس وإشكال :

إن إقامة الحجة على عباد الله أصل عظيم في دين الله، دلت عليه نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، فلا ينسب معين إلى كفر أو فسق أو بدعة، ولا يعاقب إلا بعد أن تقام عليه الحجة البالغة، قال تعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾[1].

وقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾[2].

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال :

(ما أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين)[3] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(هذا مع أني دائما ومن جالسني يعلم ذلك مني أني من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير، وتفسيق، ومعصية، إلا إذا علم أنه قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرا تارة، وفاسقا أخرى، وعاصيا أخرى، وأني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العملية)[4] .

---

(١) سورة الإسراء، الآية (١٥) .

(٢) سورة التوبة، الآية (١١٥) .في كتابه

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب التوحيد، باب لا شخص أغير من الله (٣٨٧/٤) رقم (٧٤١٦)، ومسلم في صحيحه : كتاب اللعان (١١٣٦/٢) رقم (١٤٩٩) .

(٤) مجموع الفتاوى (٢٢٩/٣) .

فمن عدله سبحانه وتعالى ورحمته بعباده أنه لا يعذب أحدا منهم إلا بعد أن تقام عليه الحجة .

وعليه فلابد من بيان أمور مهمة لها تعلق بهذه المسألة، وهي :

الأمر الأول : أن الحجة لا تقوم إلا بتبليغ نصوص الكتاب والسنة الصحيحة، وتبليغ فهم السلف لها بحيث يفهم المخاطب المقصود الصحيح منها .

فمن لم تبلغه النصوص أصلا، أو بلغته و لم يفهم المراد منها قطعا، أو فهمها فهما خاطئا فإنه يعذر، ولا يقال قد قامت عليه الحجة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(الأقوال التي لا يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده و لم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها .فمن كان من المؤمنين مجتهدا في طلب الحق فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان، سواء كان في المسائل النظرية أو العملية، وهذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ وجماهير أئمة الإسلام)[1] .

وعليه فمع أن الرسالة في نفسها واضحة بينة فلا يغني ذلك عن اشتراط فهم المخاطب مدلولات ألفاظها لقيام الحجة عليه نظرا لاختلاف مدارك الناس ولتفاوتهم في الفهم عن الله ورسوله ﷺ؛ وهذا ما يدل عليه قوله تعالى :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[2].

لكن الفهم المشترط هنا هو فهم المراد والمقصود من الكلام، لا الفهم الذي يراد به فقه النصوص المؤثر في النفوس والباعث لها على الانقياد والامتثال؛ إذ الفهم نوعان :

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/٢٤٦) .

(٢) سورة النساء، الآية (١١٥) .

الأول : يراد به إدراك المراد من النصوص ومدلولات الألفاظ .

الثاني : فقه الكلام، أو الإدراك الذي ينتفع به صاحبه .

قال ابن القيم رحمه الله :

(قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

أخبر سبحانه بأنه منعهم فقه كلامه وهو الإدراك الذي ينتفع به من فقهه، و لم يكن ذلك مانعا لهم من الإدراك الذي تقوم به الحجة عليهم، فإنهم لو لم يفهموه جملة ما ولوا على أدبارهم نفورا عند ذكر توحيد الله، فلما ولوا عند ذكر التوحيد دل على أنهم كانوا يفهمون الخطاب)[2] .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله[3] :

(إذا كان المعين يكفر إذا قامت عليه الحجة، فمن المعلوم أن قيامها ليس معناه أن يفهم كلام الله ورسوله مثل فهم أبي بكر ﷺ، بل إذا بلغه كلام الله ورسوله وخلا من شيء يعذر به، فهو كافر كما كان الكفار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن مع قول الله :

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان (٤٥-٤٦) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١/٣٤٦) .

(٣) هو : محمد بن عبد الوهاب بن سليمان ،التميمي ،النجدي ،شيخ الإسلام .ولد سنة ألف ومائة وخمس عشرة ،وتوفي سنة ست ومائتين وألف .كان رحمه الله ممن جدد الله بهم دينه وأعلى بهم كلمته ،ومع صرفه أكبر همه إلى الدعوة، وانشغاله بالجهاد فقد ترك مؤلفات نافعة منها : (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)، و (مختصر سيرة الرسول ﷺ) وغيرهما .

انظر : عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر (١/٨٩) (مكتبة الرياض الحديثة/دت) .

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[1])[2].

قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله :

(هذا القيد الذي قيد به الشيخ الفهم هنا قد أزال اللبس الـــذي يتبـــادر إلى الذهن من بعض إطلاقاته في مواضع أخرى، واتبعه فيه بعض علمـــاء نجـــد، فصـــار بعضهم يقول بأن الحجة تقوم على الناس ببلوغ القرآن وإن لم يفهمه من بلغه مطلقـــا ...، وقد علمنا من هذا القيد أن الفهم الذي لا يشترطه الشيخ هو فقـــه النصـــوص المؤثر في النفوس الحامل لها على ترك الباطل، كما يفهمها من اهتدى بها)[3].

الأمر الثاني : أن الحجة إنما تقوم على النحو السابق بالعلماء العـــاملين، لـــذا (جعل الله في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون مـــن ضـــل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهـــل العمى)[4] .فمن لم يوفق لعالم يعرفه الحق ويدله عليه ثم وقع في كفر، أو بدعـــة، أو معصية مع حسن القصد والاجتهاد في طلب الحق لم يؤاخذ على ذلك مـــا لم يكـــن مفرطا .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(كثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة التي يندرس فيها كثير من علـــم النبوات حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلـــك، ومثل هذا لا يكفر؛ ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهـــل العلـــم والإيمان وكان حديث عهد بالإسلام فأنكر شيئا من هذه الأحكام الظاهرة المتواتـــرة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول)[5].

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٢٥) .

(٢) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (٧/٢٢٠) .

(٣) مجموعة الرسائل النجدية (٥/٦٣٨) .

(٤) من كلام الإمام أحمد في مقدمة كتابه الرد على الجهمية والزنادقة ص : (١٣) .

(٥) مجموع الفتاوى (١١/٤٠٨) .

أما من نشأ جهله عن تفريط وإعراض وعدم الحرص على التعلم بأن تتيسر له جميع أسباب التعلم ولا يتعلم، فهذا لا يعذر بجهله، بل يؤاخذ بجريرته، ويعاقب على مخالفته .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(من كان خطؤه لتفريطه فيما يجب عليه من اتباع القرآن والإيمان مثلا، أو لتعديه حدود الله بسلوك السبيل التي نهي عنها، أو لاتباع هواه بغير هدى من الله، فهو الظالم لنفسه، وهو من أهل الوعيد، بخلاف المجتهد في طاعة الله ورسوله باطنا وظاهرا الذي يطلب الحق باجتهاده كما أمره الله ورسوله فهذا مغفور له خطؤه)[1] .

وقال ابن القيم رحمه الله في الذي يعرض عن الاهتداء بالوحي ويحسب أنه على هدى:

(لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ، ولو ظن أنه مهتد فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى، فإذا ضل فإنما أتي من تفريطه وإعراضه، وهذا بخلاف من كان على ضلالة لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر، والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول، وأما الثاني : فإن الله لا يعذب أحدا إلا بعد إقامة الحجة عليه)[2] .

وقال المقري رحمه الله [3] :

(أمر الله عز وجل العلماء أن يبينوا، ومن لا يعلم أن يسأل، فلا عذر في الجهل بالحكم ما أمكن التعلم)[4] .

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣١٧) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١/٢٠٨) .

(٣) هو : محمد بن محمد بن أحمد، أبو عبد الله، القرشي، المقري، التلمساني، المالكي .كان من مجتهدي المذهب، ومن أعلم أهل زمانه في المغرب، له مؤلفات عدة منها : (القواعد) و (أحاديث الأحكام) وغيرهما، توفي في أواخر سنة ثمانية وخمسين وسبعمائة، وقيل غير ذلك .
انظر : الإحاطة في أخبار غرناطة (٢/١٩١)، وشذرات الذهب (٦/١٩٣) .

(٤) القواعد (٢/٤١٢) .

الأمر الثالث : أن من شرط البلاغ أن لا يكون فيه غموض ولا إشكال، بل لا بد وأن يكون واضحا بينا لا يعتريه إشكال ولا شبهة، وهذا لا يحصل إلا ممن تمكن في العلم؛ لذا قال ابن القيم رحمه الله :

(إذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي)[1] .

فمن بلغته النصوص وترك مقتضاها لشبهة مستندة إلى نص قد يعذر فلا يعاقب .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(إن غيبة العقل تكون عذرا في رفع القلم، وكذلك الشبهة التي ترفع معها قيام الحجة قد تكون عذرا في الظاهر)[2] .

وقال أيضا :

(التأويل من باب المعارض في حق بعض الناس، تدفع به عنه العقوبة، كما تدفع بالتوبة والحسنات الماحية، وهذا لمن استفرغ وسعه في طلب الحق)[3].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/٤٧٦) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢/٤٨٦) .

(٣) الاستقامة (١/٢٧٩) .

المطلب الثاني : الحرص على هداية الناس ودعوتهم بالتي هي أحسن :

لقد كان رسول الله ﷺ شديد الحرص على هداية الناس إلى دين الله القـــويم، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1].

وقال ﷺ :

(إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم، وأنتم تقحمون فيه)[2] .

لذا يجب على كل من أكرمه الله بالدعوة إلى الله على منـــهاج النبـــوة أن لا يكون همه مجرد الإعذار وإقامة الحجة كيفما تيسر، بل لابد وأن يكون حريصا علـــى هداية الناس اقتداء بسيد الأنام ﷺ، فيسلك في دعوته الطرق الشرعية ويتحلى بالآداب المرعية عل الله أن يهديهم به من الجهل والضلالة .

قال ابن القيم رحمه الله في معرض سرده لفوائد حديث (إن العلماء ورثة الأنبياء)[3]:

---

(١) سورة التوبة، الآية (١٢٨) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (١٧٨٩/٤) رقم (٢٢٨٤) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٩٦/٥)، وأبو داود في السنن : كتاب العلم، باب الحث على طلـــب العلم (٣١٧/٣)، والترمذي في السنن : كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٤٧/٥) رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه في السنن : كتاب السنة، باب فضل العلماء والحث علـــى طلـــب العلـــم (١٤٥/١) رقم (٢٢٣)، والدارمي في سننه (١١٠/١) رقم (٣٤٢)، وابن حبان في صحيحه (٢٨٩/١ الإحسان) رقم (٨٨)، ومدار إسناده على داود بن جميل عن كثير بن قيس، وكل منهما متكلم فيـــه، قال الذهبي في الميزان (٤/٢) : (داود بن جميل ضعيف كشيخه)، غير أن أبا داود أخـــرج الحديـــث بإسناد آخر (٣١٧/٣) رقم (٣٦٤٢) وفيه شبيب بن شيبة وهو مجهول، وذهب بعض المحققين –منـــهم المزي في تهذيب الكمال (٣٦٨/١٢)- إلى أن ذكر شبيب في إسناد الحديث خطأ وأن الصواب هـــو =

(فيه تنبيه للعلماء على سلوك هدي الأنبياء وطريقتهم في التبليغ من الصبر والاحتمال، ومقابلة إساءة الناس إليهم بالإحسان، والرفق بهم، واستجلابهم إلى الله بأحسن الطرق، وبذل ما يمكن من النصيحة لهم، فإنه بذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث العظيم قدره الجليل خطره)[1] .

فالحرص على هداية الناس يحتم على من كان أهلا للدعوة سلوك السبل الشرعية في دعوته والتي جاء القرآن ببيانها وافية، وهي نوعان : قولية، وفعلية .

فالقولية تشمل الدعوة بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن .

وقد أمر الله بها في قوله :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[2].

قال ابن القيم رحمه الله :

(جعل الله مراتب الدعوة حسب مراتب الخلق :

فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة .

والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة .

والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن .

هذا هو الصحيح في معنى الآية)[3] .

=

شعيب بن زريق بدل شبيب؛ ولهذا حسن الشيخ الألباني هذا الإسناد في صحيح الترغيب والترهيب (٧١/١) .وللحديث شواهد كثيرة يتقوى بها كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٩٣/١) .

(١) مفتاح دار السعادة (٢٦٢/١) .

(٢) سورة النحل، الآية (١٢٥) .

(٣) مفتاح دار السعادة (٤٧٤/١-٤٧٥) .

وقال في موضع آخر :

(المنتفع بالآيات من الناس نوعان :

أحدهما : ذو القلب الواعي الزكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه ولا يحتاج أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته، بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض عنه، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط؛ لكمال استعداده وصحة فطرته، فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوبا فيه، فهو قد أدركه مجملا ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملا .

وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل، كما هي حال الصديق الأكبر ﷺ .

النوع الثاني : من ليس له هذا الاستعداد والقبول، فإن ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه، وأحضر قلبه، وجمع فكرته عليه، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله . وهذه طريقة أكثر المستجيبين، ولهم نوع ضرب الأمثال، وإقامة الحجج، وذكر المعارضات والأجوبة عنها .

والأولون هم الذين يدعون بالحكمة، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة. فهؤلاء نوعا المستجيبين .

وأما المعارضون المدّعون للحق فنوعان :

نوع يدعون للمجادلة بالتي هي أحسن، فإن استجابوا وإلا فالمجالدة، فهؤلاء لابد لهم من جدال أو جلاد .

ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام، متناولة لها كلها)[1] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٥١٦-٥١٧) .

وأما الفعلية : فتشمل جهاد الأعداء، وعقوبة المعاندين من أهـــل الأهـــواء، والمصرين على المعاصي والردى .

أما جهاد الأعداء فهو من أساليب الدعوة أيضا؛ إذ من لم تنفع معـــه الحجـــة والبرهان، فيقطع شره بالسيف والسنان حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله؛ لـــذا كان (قوام الدين بالكتاب الهـــادي، والســـيف النـــاصر ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾[1])[2] .

وأما عقوبة المعاندين من أهل المعاصي والأهواء فعلى الداعية أن (يقيم أمر الله فيهم طاعة لله ورحمة بهم وإحسانا إليهم إذ هو عين مصلحتهم، لا غلظة ولا قـــوة ولا فظاظة)[3] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(ينبغي لمن يعاقب الناس على الذنوب أن يقصد بذلك الإحســـــان إليـــهم، والرحمة لهم، كما يقصد الوالد تأديب ولده، وكما يقصد الطبيب معالجة المريض)[4].

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٣١) .

(٢) قاله شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (٢٣٢/٢٨)، وانظر منهاج السنة (٥٣١/١) .

(٣) قاله ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة (٢٧٧/٢) .

(٤) منهاج السنة (٢٣٧/٥) .

المبحث الثاني :
في تحذير السلف من البدع، وأهلها

المطلب الأول : تحذير السلف من مغبة البدع، وخطورتها :

كان السلف الصالح لشدة خطورة البدع وعظم أثرها السيء على الأمة يعرضون عنها ويولونها ظهورهم، وينبذونها نبذ النواة، ويبالغون في ذمها وتقبيحها، ويتواصون بينهم بمحاربتها ووأدها في مهدها، ويفرحون بموتها وهلاك دعاتها، ويظهرون الحمد والشكر لله على النجاة من الوقوع في شيء منها، ويتحملون جميع صنوف الأذى في سبيل محاربتها، وكانوا يتألمون لظهورها وفشوها حتى إن الواحد منهم ليفضل أن يوتر أهله وماله ولا أن يرى بدعة لا يستطيع إماتتها .

فالتحذير من البدع أصل أصيل عند السلف؛ لذا ينصون عليه في معرض سردهم لمعتقدهم .

قال الإمام أحمد رحمه الله :

(أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة)[1] .

وقال أبو بكر الإسماعيلي رحمه الله[2] في معرض ذكره لمذهب السلف :

---

(١) أصول السنة ص : (٢٥ – ٣٠) .

(٢) هو : أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل، أبو بكر، الإسماعيلي الجرجاني الشافعي .ولد سنة سبع وسبعين ومائتين، وتوفي سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، كان رحمه الله سلفي المعتقد، وصفه الذهبي بأنه (الإمام الحافظ الفقيه شيخ الإسلام)، له مؤلفات عدة منها : (المستخرج على الصحيح) أي صحيح البخاري، و (اعتقاد أئمة الحديث) وغيرهما .

=

(ويرون مجانبة البدعة والآثام)[1] .

وقال أبو شامة المقدسي رحمه الله [2] :

(قد حذر النبي ﷺ وأصحابه فمن بعدهم أهل زمانهم البدع ومحدثات الأمور، وأمروهم بالاتباع الذي فيه النجاة من كل محذور)[3] .

والنقول عنهم في هذا من الكثرة بمكان فيصعب حصرها وتتبعها، وحسب المرء أن يعلم أنهم مجمعون على ذمها وتقبيحها، وممن حكى الإجماع أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله حيث قال :

(أجمع السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم على ذمها وتقبيحها والهروب عنها وعمن اتسم بشيء منها، ولم يقع منهم في ذلك توقف ولا مثنوية، فهو بحسب الاستقراء إجماع ثابت، فدل على أن كل بدعة ليست بحق، بل هي من الباطل)[4] .

ولا غرو أن يجمعوا على ذمها فهي دهليز الزندقة، وبريد الكفر، ومحدثها منازع لله في التشريع والحكم، وهي تقود صاحبها إلى اللعنة، وتلقي عليه الغضب من الله والذلة، وتحول دون أن تقبل منه التوبة، وتبعده من ورود حوض النبي ﷺ وتمنعه

=

انظر : السير (١٦/٢٩٢)، وشذرات الذهب (٣/٧٢) .

(١) اعتقاد أئمة الحديث لأبي بكر الإسماعيلي ص : (٧٨) (تحقيق الخميس/دار العاصمة/ط١/١٤١٢) .

(٢) هو : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو القاسم، شهاب الدين، المقدسي الدمشقي الشافعي، المعروف بأبي شامة لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر .ولد سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وقيل غير ذلك، وتوفي سنة خمس وستين وستمائة، له مؤلفات عدة منها : (الباعث على إنكار البدع والحوادث) و (ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري) وغيرهما .

انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٥/١٦)، شذرات الذهب (٥/٣١٨) .

(٣) الباعث على إنكار البدع والحوادث ص : (٥٣) (تحقيق مشهور حسن/دار الراية/ط١/١٤١٠) .

(٤) الاعتصام (١/١٨٨) بتصرف .

من الشفاعة، وتزرع بين الأمة الفتن والفرقة، وهي أحب إلى إبليس من المعصية، وتؤدي إلى سوء الخاتمة .

بهذا جاءت الأدلة من الكتاب والسنة، وهو المأثور عن الأئمة من سلف الأمة، وفيما يلي ذكر بعض النقول المثبتة لذلك :

- أما كونها ضلالة فقد ورد في إثبات ذلك نصوص كثيرة منها :

حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته :

(أما بعد : فإن خير الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة)[1] .

والعموم الوارد في الحديث يشمل جميع المحدثات في الدين، فهي كلها بلا استثناء شر وضلال وإن استحسنها من استحسنها من الناس[2] .

قال ابن عمر رضي الله عنهما :

(كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة)[3] .

ولما سئل إبراهيم النخعي رحمه الله عن الأهواء قال :

(ما جعل الله في شيء منها مثقال ذرة من خير، ما هي إلا نزعة من الشيطان، عليك بالأمر الأول)[4] .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/٥٩٢) رقم (٨٦٧) .

(٢) ذهب بعض العلماء إلى أن البدع تجري عليها الأحكام الخمسة، فثمت بدعة محرمة، وبدعة مكروهة !! وبدعة واجبة !! وبدعة مستحبة !! وبدعة مباحة !!، وهو كلام باطل متناقض، بين بطلانه جمع من العلماء المحققين منهم الشاطبي رحمه الله في كتابه الاعتصام (١/ ٢٤١-٢٧٠) فانظره فهو في النفاسة غاية، وانظر أيضا : موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع (١/١٠٦-١١٧) فهو مهم أيضا .

(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في السنة ص : (٢٩) رقم (٨٢)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (١/٩٢)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/١٧٩) رقم (١٩١)، وصحح إسناده الشيخ مشهور حسن في تعليقه على كتاب الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة ص : (٧٥) .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/٢٢٢) .

– وأما كون صاحبها يستحق اللعنة والطرد من رحمة الله فلقوله ﷺ في المدينة -حرسها الله من كل سوء- :

(... من أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[1] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في بيان وجه إيراد البخاري لـــه في كتـــاب الاعتصام :

(والغرض بإيراد الحديث هنا لعن من أحدث، فإنه وإن قيد في الخبر بالمدينـــة فالحكم عام فيها وفي غيرها، إذا كان من متعلقات الدين)[2] .

– وأما كونها توقع على صاحبها الغضب من الله والذلة؛ فلأنها أبغض الأمـــور إلى الله كما قال ابن عباس ﷺ :

(إن أبغض الأمور إلى الله تعالى البدع)[3] .

لذلك فهي توجب لصاحبها غضب الله وسخطه في الآخرة، والذلة والصغـــار في الدنيا، وكلما اجتهد فيها لم تزده من الله إلا بعدا .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الاعتصام، باب ما يكره من التعمق والتنازع، والغلو في الديـــن والبدع رقم (٧٣٠٠)، ومسلم في صحيحه : كتاب الحج، بـــاب فضـــل المدينـــة (٢/٩٩٤) رقـــم (١٣٧٠) .

(٢) فتح الباري (١٣/٢٩٢) .

(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في السنة ص : (٢٩) رقم (٨٤)،والبيـــهقي في الكـــبرى (٤/٣١٦)، وصحح إسناده الشيخ مشهور حسن في تعليقه على كتاب الباعث على إنكـــار البـــدع والحـــوادث لأبي شامة ص : (٧٠) .

(٤) سورة الأعراف، الآية (١٥٢) .

قال أبو قلابة رحمه الله :

(هي لكل مبتدع من هذه الأمة إلى يوم القيامة)[1].

علق عليه شيخ الإسلام رحمه الله بقوله :

(وهو كما قال، فإن أهل الكذب والفرية عليهم من الغضب والذلة ما أوعدهم الله به. والشرك وسائر البدع مبناها على الكذب والافتراء)[2] .

وقال أيوب السختياني رحمه الله :

(ما ازداد صاحب بدعة اجتهادا إلا ازداد من الله بعدا)[3] .

وقال الشاطبي رحمه الله :

(كل من ابتدع في دين الله فهو ذليل حقير بسبب بدعته، وإن ظهر لبادي الرأي في عزه وجبريته، فهم في أنفسهم أذلاء)[4] .

- وأما كونها أحب إلى إبليس من المعصية فقد أثر هذا عن جمع من الأئمة وفيما يلي بعض النقول عنهم :

قال سفيان الثوري رحمه الله :

(البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها)[5] .

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/٤٨-٤٩)

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٧٥٩) .

(٣) أخرجه ابن وضاح في كتابه ما جاء في البدع ص (٦٧) رقم (٦٧)، وأخرج نحوه عن الحسن البصري برقم (٦٦) .

(٤) الاعتصام (١/١٦٧) .

(٥) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (١/١٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (٧/٢٦)، والبغوي في شرح السنة (١/٢١٦)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١/٢١٦)

قال مالك رحمه الله :

(لو أن العبد ارتكب الكبائر كلها، دون الإشراك بالله شيئا، ثم نجا من هـذه الأهواء لرجوت أن يكون في أعلى جنات الفردوس؛ لأن كل كبيرة بين العبد وربه هو منها على رجاء، وكل هوى ليس هو منه على رجاء؛ إنما يهوي بصاحبه في نار جهنم)[1] .

و قال يونس بن عبيد[2] لابنه لما ذكروا له أنه جلس إلى عمرو بن عبيد :

(يا بني أنهاك عن الزنا والسرقة وشرب الخمر، ولأن تلقى الله عز وجل بهن أحب إلي من أن تلقاه برأي عمرو وأصحاب عمرو)[3] .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله معللا كون البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية :

(قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها .

ومعنى قولهم إن البدعة لا يتاب منها أن المبتدع الذي يتخذ دينا لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسنا فهو لا يتوب ما دام يراه حسنا؛ لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه، أو بأنه ترك حسنا مأمورا به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله .فما دام يرى فعله حسنا وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب ...)[4] .

---

(١) نقله الشاطبي في الاعتصام (١/١٧١) عن القاضي عياض .

(٢) هو : يونس بن عبيد بن دينار، أبو عبد الله، العبدي مولاهم البصري .من صغار التابعين وفضلائهم، وصفه الذهبي بـ (الإمام، القدوة، الحجة) .توفي رحمه الله سنة أربعين ومائة، وقيل غير ذلك .
انظر : حلية الأولياء (٣/١٥)، السير (٦/٢٨٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/٢٠-٢١)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (٤/٧٤١)، وذكره المزي في تهذيب الكمال (٣٢/٥٣٠-٥٣١)، والذهبي في السير (٦/٢٩٤) .

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/٩) .

- وأما كونها تزرع بين الأمة الفتن والفرقة فمما لا يشك فيه اثنان، فالفرقة وصف لازم لأهل الأهواء، وخصلة لا تكاد تنفك عنهم .

قال أبو العالية رحمه الله :

(إياكم وهذه الأهواء، فإنها توقع العداوة والبغضاء بينكم)[1] .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(البدعة مقرونة بالفرقة، كما أن السنة مقرونة بالجماعة، فيقال : أهل السنة والجماعة، كما يقال : أهل البدعة والفرقة)[2] .

وقال الشاطبي رحمه الله :

(الفرقة من أخس أوصاف المبتدعة)[3] .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣٦٧/١١)، وابن وضاح في كتابه ما جاء في البدع ص : (٧٥)، رقم (٧٧)، ومحمد بن نصر في السنة ص : (١٣) رقم (٢٦)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢٩٩/١)، رقم (١٣٦)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (٦٢/١) رقم (١٧) .

(٢) الاستقامة (٤٢/١) .

(٣) الاعتصام (١٥٠/١) .

المطلب الثاني : تحذير السلف من أهل البدع والأهواء :

لقد أولى السلف عناية خاصة بالموقف الصحيح الذي ينبغي أن يقفه المسلم الغيور على دينه من أهل البدع والضلال، فلا يكاد كتاب من الكتب المؤلفة في ذكر معتقد السلف يخلو من نقول واضحة بينة تقرر معتقدهم في هذه المسألة العظيمة، بل لأهميتها وكثرة فروعها وتظافر النقول عن السلف فيها أفردت بمصنفات ماتعة، ورسائل جامعية .

والناظر فيها لن يخالجه أدنى شك في أن التحذير من أهل البدع والأهواء من الأصول المقررة عند السلف، والتي يبدع من خالف فيها نهجهم ومعتقدهم؛ إذ هي محل إجماعهم كما حكاه غير واحد من الأئمة الأعلام .

قال الفضيل بن عياض رحمه الله [1] :

(انظر مع من يكون مجلسك، لا يكون مع صاحب بدعة؛ فإن الله تعالى لا ينظر إليهم، وعلامة النفاق أن يقوم الرجل ويقعد مع صاحب بدعة، **وأدركت خيار الناس كلهم أصحاب سنة وهم ينهون عن أصحاب البدعة**)[2].

وقال الإمام المزني رحمه الله [3] :

---

(١) هو : الفضيل بن عياض بن مسعود، أبو علي، التميمي، اليربوعي، الخراساني .ولد بسمرقند، وتوفي أول سنة سبع وثمانين ومائة .كان إماما عابدا مجاورا حتى لقب بعابد الحرمين .انظر : حلية الأولياء (٨/٨٤)، السير (٨/٤٢١) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/١٠٤) .

(٣) هو :إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، أبو إبراهيم، المزني المصري، تلميذ الشافعي .ولد سنة خمس وسبعين ومائة، وتوفي سنة أربع وستين ومائتين .كان فقيها فاضلا زاهدا ورعا، له مؤلفات نافعة، منها : (مختصر المختصر) المشهور بمختصر المزني، وهو في الفقه الشافعي، و (شرح السنة) ذكر فيه اعتقاد السلف، وله غيرهما .

انظر : السير (١٢/٤٩٢)، وطبقات الشافعية الكبرى (١/٢٣٨) .

(من ابتدع ضلالا، كان على أهل القبلة خارجا، ومن الدين مارقا، ويتقرب إلى الله عز وجل بالبراءة منه، ويهجر ويحتقر، وتجتنب غدته، فهي أعدى من غدة الجرب)[1].

ثم قال :

(هذه مقالات وأفعال **اجتمع عليها الماضون الأولون من أئمة الهدى**، وبتوفيق الله اعتصم بها التابعون قدوة ورضى ...)[2] .

وقال أبو عثمان الصابوني رحمه الله [3] في معرض ذكره لمذهب السلف :

(**واتفقوا** على القول بقهر أهل البدع، وإذلالهم، وإخزائهم، وإبعادهم، وإقصائهم، والتباعد منهم، ومن مصاحبتهم، ومعاشرتهم، والتقرب إلى الله عز وجل بمجانبتهم ومهاجرتهم)[4] .

وقال البغوي رحمه الله :

(وقد مضت الصحابة، والتابعون، وأتباعهم، وعلماء السنة على هذا، **مجمعين متفقين** على معاداة أهل البدع ومهاجرتهم)[5] .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبارات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب **باتفاق المسلمين**)[6] .

---

(١) شرح السنة للمزني ص : (٨٥) (تحقيق جمال عزون/مكتبة الغرباء/ط١/١٤١٥) .

(٢) المصدر السابق ص : (٨٩) .

(٣) هو : إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو عثمان، الصابوني . الواعظ المفسر أحد الأعلام كان شيخ خراسان في زمانه، ولد سنة ثلاث و سبعين وثلاثمائة، توفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة .
انظر : السير (١٨/٤٠)، طبقات الشافعية الكبرى (٤/٢٧١) .

(٤) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص : (٣١٥) (تحقيق الجديع/دار العاصمة/ط١/١٤١٥) .

(٥) شرح السنة للبغوي (١/٢٢٧) .

(٦) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٣١) .

فهذه النقول عن هؤلاء العلماء تثبت بلا مراء كون التحذير من أهل الأهـــواء أمرا مجمعا عليه عند أهل السنة والجماعة؛ لذا نجدهم يمدحون كل من صلب موقفـــه، واشتدت وطأته على أهل البدع، ويدرجون ذلك ضمن مناقبه وفضائلـــه، فيقولـــون مثلا : (كان شديدا على أهل البدع)[1]، و (كان سيفا مجردا على أهـــل الأهـــواء والبدع، غيورا على الشريعة، شديدا في ذات الله)[2]، و (كان شديد القيام في نصـــر السنة، والذب عنها، والقمع لمن خالفها)[3]، و (كان جذعا في أعـــين المتكلمـــين، وطودا في السنة لا يتزلزل)[4]، و ... .

كما نجدهم يشد بعضهم أزر بعض للثبات على هـــذه المواقـــف الشـــريفة، ويلومون من ظهر منه شيء من اللين والتعاطف تجاه المبتدعة، بل ربما عنفـــوا عليـــه ووبخوه، فإذا بلغ به الأمر إلى الثناء عليهم ومودتهم ألحقوه بتلك الزمرة وهجروه .

فهذا أسد بن موسى[5] يكتب إلى أسد بن الفرات[6] يشد أزره، ويحثه علـــى الثبات على ما هو عليه من قمع البدع وأهلها فيقول :

(اعلم يا أخي أن ما حملني على الكتب إليك ما أنكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك الله من إنصافك الناس، وحسن حالك مما أظهرت من السنة، وعيبك لأهـــل

---

(١) انظر : تاريخ بغداد (٣٥١/١) في ترجمة محمد بن أحمد المعروف بابن رزقويه .

(٢) انظر : السير (٥٦٨/١٧)، تذكرة الحفاظ (١٠٩٨/٣-١٠٩٩) في ترجمة أبي عمرو الطلمنكي .

(٣) انظر : الرد الوافر لابن ناصر الدين ص (١٠٨) (تحقيق الشاويش/المكتب الإسلامي/ط١٤١١/٣).

(٤) انظر : السير (٥٠٩/١٨) في ترجمة أبي إسماعيل الهروي رحمه الله .

(٥) هو : أسد بن موسى بن إبراهيم بن الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان، أبو سعيد، القرشي الأموي، المصري، يقال له : أسد السنة . ولد سنة ثنتين ومائة، وتوفي سنة اثنتي عشرة ومائتين .وصفه الذهـــبي بأنه (الإمام الحافظ الثقة، ذو التصانيف، ...، وقع لنا من تواليفه كتاب (الزهد) وغير ذلك) .
انظر : الجرح والتعديل (٣٣٨/٢)، السير (١٦٢/١٠) .

(٦) هو : أسد بن الفرات بن سنان، أبو عبد الله، الحراني ثم المغربي .ولد بحران سنة أربع وأربعين ومائـــة، وقيل غير ذلك، وتوفي سنة ثلاث عشرة ومائتين .كان مع توسعه في العلم فارسا بطلا شجاعا مقداما .
انظر : ترتيب المدارك (٤٦٥/٢)، والسير (٢٢٥/١٠) .

البدع، وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم، فقمعهم الله بك، وشد بك ظهر أهل السنة، وقواك عليهم بإظهار عيبهم والطعن عليهم بذلك، وصاروا ببدعتهم مستترين .

فأبشر يا أخي بثواب الله، واعتد به من أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد، وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب الله، وإحياء سنة رسول الله ﷺ ..)[1] .

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقرر وجوب عقوبة من ظاهر الاتحادية -وهو حكم ينطبق على من ظاهر غيرهم من المبتدعة- فيقول :

(يجب عقوبة كل من انتسب إليهم، أو ذب عنهم، أو أثنى عليهم، أو عظم كتبهم، أو عرف بمساعدتهم ومعاونتهم، أو كره الكلام فيهم، أو أخذ يعتذر لهم بأن هذا الكلام لا يدرى ما هو، أو من قال إنه صنف هذا الكتاب ؟! وأمثال هذه المعاذير التي لا يقولها إلا جاهل، أو منافق .بل تجب عقوبة كل من عرف حالهم و لم يعاون على القيام عليهم؛ **فإن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات** ...)[2] .

فإذا تقرر أن التحذير من أهل البدع أصل أصيل في معتقد السلف، فليعلم أن له عندهم صورا كثيرة منها :

أولا : إظهار بغضهم والبراءة منهم :

فقد كان السلف يبغضون المبتدعة أشد البغض، وينهون عن موادتهم، وموالاتهم .

قال شعبة :

(كان سفيان الثوري يبغض أهل الأهواء، وينهى عن مجالستهم أشد النهي)[3] .

---

(١) حكاه ابن وضاح عن غير واحد كما في كتابه (ما جاء في البدع) ص : (٣٤-٣٥)، وعنه الشلطبي في الاعتصام (١/٤٥) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢/١٣٢) .

(٣) أخرجه نصر المقدسي في مختصر الحجة على تارك المحجة ص : (٤٦٠) .

وذكر أبو عثمان الصابوني رحمه الله أن ذلك كان هدي بقية السلف فقال :

(ويبغضون أهل البدع، الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم ...)[1] .

بل كان السلف يظهرون ذلك البغض، ويجاهرون بالكراهية لهم،ويعلنون البراءة منهم كما فعل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لما ذكر له أن نفاة القدر قد ظهروا فقال :

(أخبرهم أني **بريء منهم**، وأنهم برآء مني)[2] .

كما أنهم يأمرون بترك كل ما من شأنه أن يؤثر على ذلك البغض فيضعفه كالسلام؛ لأنه سبيل المحبة وعنوانها، وكمجالستهم وزيارتهم ومجاورتهم، وقبول هداياهم وعطاياهم، ونحو ذلك .

أما أمرهم بترك السلام عليهم فالنقول عنهم في ذلك كثيرة جدا منها :

- ما ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله أنه سئل عن رجل له جار رافضي يسلم عليه ؟ فقال : لا، وإذا سلم عليه لا يرد عليه)[3] .

- وعن حماد بن زيد رحمه الله قال :

(كنت مع أيوب ويونس وابن عون وغيرهم، فمر بهم عمرو بن عبيد فسلم عليهم ووقف وقفة، فما ردوا عليه السلام، ثم جاز فما ذكروه)[4] .

وعمدتهم في هذا ما ورد في قصة الثلاثة الذين خلفوا، ففيها قول كعب بن مالك ﷺ[5] :

---

(١) عقيدة السلف للصابوني ص : (٢٩٨) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٣٦/١) رقم (٨) .

(٣) طبقات الحنابلة (١٤/٢) .

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٤٣٥/٢)، أورده الذهبي في الميزان (٢٧٤/٣) .

(٥) هو : الصحابي الجليل كعب بن مالك بن أبي كعب عمرو بن القين، الأنصاري، الخزرجي، العقبي الأحدي شاعر رسول الله ﷺ وأحد الثلاثة الذين خلفوا فتاب الله عليهم ونزل القرآن بتوبتهم، توفي سنة إحدى وخمسين .

=

(وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه بالسلام أم لا)[1].

قال ابن القيم رحمه الله :

(لم ينقل أنه ﷺ رد على كعب، بل قابل سلامه بتبسم المغضب)[2] .

وأما ترك المجالسة والمعاشرة والمجاورة فالنقول عنهم في ذلك كثيرة أيضا، منها قول الذهبي رحمه الله :

(إن كان جارك رافضيا، أو صاحب بدعة كبيرة، فإن قدرت على تعليمه وهدايته فاجهد، وإن عجزت فانجمع عنه، ولا تواده، ولا تصافه، ولا تكن له مصادقا ولا معاشرا، والتحول أولى بك)[3] .

ثانيا : فضحهم وكشف عوارهم والتشهير بهم :

فقد كان السلف يفضحون ويشهرون بمن جاهر بالبدعة دون من استتر بها[4]، ويعدون ذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكل من أظهر البدعة وأعلنها وجب هتك ستره علانية؛ لأن شره لا يندفع إلا بذلك فهو مظنة أن يقتدي به من لا يعرف حاله، خاصة إن كان ذا زهد وعبادة وتخشع، أو أوتي نصيبا من العلم يلبس به على العوام، أو صاحب فصاحة يزين بلسانه الباطل .

=

انظر : السير (٢ / ٥٢٣)، الإصابة (٣٠٤/٨) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب من لم يسلم على من اقترف ذنبا، ومن لم يرد سلامه حتى تبين توبته (١٤٢/٤) رقم (٦٢٥٥)،ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٢١٢٠/٤) رقم (٢٧٦٩) .

(٢) زاد المعاد (١٩/٣) (تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، وشعيب الأرنؤوط/مؤسسة الرسالة/ط١/١٣٩٩).

(٣) جزء حق الجار ص : (٤٧) .

(٤) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٢٠/٢٨) : (من كان مستترا بذنبه مستخفيا، فإن هذا يستر عليه، لكن ينصح سرا، ويهجره من عرف حاله حتى يتوب، ويذكر أمره على وجه النصيحة) اهـ .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(إذا كان مبتدعا يدعو إلى عقائد تخالف الكتاب والسنة، أو يسلك طريقا يخالف الكتاب والسنة، ويخاف أن يضل الرجل الناس بذلك بين أمره للناس ليتقوا ضلاله ويعلموا حاله، وهذا كله يجب أن يكون على وجه النصح وابتغاء وجه الله تعالى لا لهوى الشخص مع الإنسان ...)[1] .

وقال في موضع آخر :

(والداعي إلى البدعة مستحق العقوبة **باتفاق المسلمين**، وعقوبته تكون تارة بالقتل، وتارة بما دونه، كما قتل السلف جهم بن صفوان، والجعد بن درهم[2]، وغيلان القدري[3] وغيرهم .

ولو قدر أنه لا يستحق العقوبة، أو لا يمكن عقوبته **فلا بد من بيان بدعته والتحذير منها**؛ فإن هذا من جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أمر الله به ورسوله)[4].

وهذا الذي قرره السلف وإن كان فيه ذكر المبتدع بما يكره فلا يدخل في الغيبة المذمومة شرعا؛ لأن المقصود من التشهير به هو نصح المسلمين وحماية

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٢١) .

(٢) هو المبتدع الضال الجعد بن درهم، مؤدب مروان الحمار، من الموالي، عداده في التابعين، كان زنديقا زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، و لم يكلم موسى تكليما، فقيض الله له خالدا القسري فقتله بالعراق يوم النحر .

انظر : ميزان الاعتدال (١/٣٩٩)، البداية والنهاية (١٠/١٩) .

(٣) هو : غيلان بن مسلم، ويقال غيلان بن أبي غيلان، أبو مروان مولى عثمان، الدمشقي القدري، كان مبتدعا ضالا داعية إلى بدعته، يقال بأن عمر بن عبد العزيز رحمه الله دعا عليه، فقتل وصلب بعد أن ناظره الإمام الأوزاعي وأفتى بقتله .

انظر : كتاب الضعفاء الكبير للعقيلي (٣/٤٣٦) (تحقيق قلعجي/دار الكتب العلمية/ط٢/١٤١٨)، ولسان الميزان (٤/٤٢٤) (دائرة المعارف، حيدر آباد/ط١/١٣٣٠) .

(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/٤١٤) .

عقائدهم وعباداتهم وهي مصلحة أعظم من مصلحة المشهر به فلا شك أنها مقدمـــة؛ لذا أثر عن بعض الأئمة قولهم :

(ليس لأهل البدع غيبة)[1] .

لكن هذا مشروط بأن لا يحمل عليه هوى النفس، والعـــداوات الشـــخصية، والتنافس على الدنيا، وأن لا يتعدى ما تحصل به المصلحة، ولا يتخذ ذريعة للولوغ في عرضه بغير حق، فيرمى بما ليس فيه، أو تذكر عيوبه الخلقية، فالسلف إنما أجازوا غيبته لا بهتانه؛ فالبهتان لا يجوز على أي حال، والأصل في الغيبة التحريم أيضا، وإنما أبيحت هنا للضرورة والمصلحة، ولا شك أن الضرورة تقدر بقدرها .

قال ابن الصلاح رحم الله :

(تجوز غيبة المبتدع، بل ذكره بما هوعليه مطلقا غائبـــا وحـــاضرا إذا كـــان المقصود التنبيه على حاله ليحذروا. على هذا مضى السلف الصالحون أو من فعل ذلك منهم، ثم يجوز ذلك ابتداء يبتدي به وإن لم يسأل، ويجوز عند جريان سبب من سؤال وغيره، ...)

إلى أن قال :

(والذي تشرع غيبته ابتداء وغير ذلك من يكون بحيث يقتدى به من المبتدعـة وغيرهم من أهل المعاصي)[2] .

ومستند السلف في هذا نصوص كثيرة، منها ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

---

(١) وردت هذه العبارة عن عدد من السلف، منهم :

- الحسن البصري رحمه الله : كما في أصول الاعتقاد للالكائي (١/١٤٠) .

- إبراهيم النخعي رحمه الله : أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (١/١٤٠) .

- سفيان بن عيينة رحمه الله : أخرجه نصر المقدسي في مختصر الحجة على تارك المحجة ص (٥٣٨) .

(٢) فتاوى ومسائل ابن الصلاح (٢/٤٩٧) .

(استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال : ائذنوا له بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة، فلما دخل ألان له الكلام . قلت : يا رسول الله قلت الذي قلت ثم ألنت له الكلام ؟ قال: أي عائشة، إن شر الناس من تركه الناس – أو ودعه – اتقاء فحشه)[1].

فالحديث دليل على جواز غيبة كل من أعلن الفسق والبدعة، ومن احتاج الناس إلى التحذير منه[2]؛ لذا ترجم له البخاري في صحيحه بقوله :

(باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب)[3] .

ثالثا : عدم أخذ العلم عنهم :

الأصل عند السلف عدم جواز أخذ العلم عن أهل البدع والأهواء، خاصة من عرف منهم بالدعوة إلى بدعته؛ وذلك لأمرين :

الأول : لأن اتخاذه شيخا يؤخذ عنه العلم فيه تكريم له، والمفروض هجره وإذلاله لا تكريمه وتشريفه .

الثاني : لأن الداعي إلى البدعة لن يهنأ له بال ولن يقر له قرار إلا إذا نفث سمه، وأذاع شره، ولا شك أن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة، فلا بد –والحال هذه– من البعد عن مواطن الزلل .

وعليه فالأصل هو عدم جواز الأخذ عنهم إلا عند الضرورة الملحة .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الأدب، باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب، (١٠١/٤) رقم (٦٠٥٤)، ومسلم في صحيحه : كتاب البر والصلة، باب مداراة من يتقى فحشه (٢٠٠٢/٤) رقم (٢٥٩١) .

(٢) انظر : شرح صحيح مسلم للنووي (٣٦١/١٦) (تحقيق شيحا/دار المعرفة/ط٥/١٤١٩)، وفتح الباري (٤٨٦/١٠) .

(٣) صحيح البخاري (١٠١/٤) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(إذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرا من العكس، ولهذا كان الكلام في هذه المسائل فيه تفصيل)[1].

وجميع طرق أخذ العلم عن أهل البدع منهي عنها عند السلف، فيدخل في ذلك حضور مجالسهم وثني الركب للتلقي عنهم، وقراءة كتبهم ومؤلفاتهم، وسماع أشرطتهم، وغير ذلك .

وقد ورد عن السلف مما يدل على هذا نقول كثيرة منها ما يلي :

قال يونس بن عبيد رحمه الله :

(ثلاثة احفظوهن عني : لا يدخل أحدكم على سلطان يقرأ عليه القرآن، ولا يخلون أحدكم مع امرأة يقرأ عليها القرآن، ولا يمكن أحدكم سمعه من أصحاب الأهواء)[2] .

وسئل الإمام أحمد رحمه الله فقيل له : عمن نكتب ؟ فقال :

(إياكم أن تكتبوا عن أحد من أصحاب الأهواء قليلا ولا كثيرا، عليكم بأصحاب الآثار والسنن)[3] .

وسئل أبو زرعة الرازي رحمه الله[4] عن كتب الحارث المحاسبي[5] فقال للسائل :

---

(١) مجموع الفتاوى (٢١٢/٢٨) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢١/٣)، وذكره الذهبي في السير (٢٩٣/٦)، وأخرج أبو نعيم في الحلية (٨٥/٤) نحوه عن ميمون بن مهران الجزري رحمه الله فقال : (ثلاث لا تبلون نفسك بهن : لا تدخل على السلطان وإن قلت آمره بطاعة الله، ولا تصغين بسمعك إلى هوى فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة ولو قلت أعلمها كتاب الله) .

(٣) السير (٢٣١/١١) .

(٤) هو : عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد، أبوزرعة، الرازي، ولد بعد نيف ومائتين، وتوفي سنة أربع وستين ومائتين، كان إماما ورعا سيد الحفاظ .

انظر : الجرح والتعديل (٣٢٨/١)، السير (٦٥/١٣) .

(٥) هو : الحارث بن أسد، أبو عبد الله، البغدادي، المحاسبي . شيخ الصوفية، ألف في الزهد وأصول الديانة والرد على المعتزلة والرافضة، هجره الإمام أحمد وأمر بهجره لدخوله في الكلام .مات سنة ثلاث وأربعين ومائتين .

=

(إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب .

قيل له : في هذه الكتب عبرة !!

فقال : من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة ...

ثم قال : ما أسرع الناس إلى البدع)[1] .

وقال ابن قدامة رحمه الله[2] :

(ومن السنة : هجران أهل البدع، ومباينتهم، وترك الجدال والخصومات في الدين، وترك النظر في كتب المبتدعة، والإصغاء إلى كلامهم)[3] .

هذا وقد نص بعض أهل العلم على أن الكتب المشتملة على البدع يجوز إتلافها ولا ضمان على من أتلفها .

قال ابن القيم رحمه الله :

(كل هذه الكتب المتضمنة لمخالفة السنة غير مأذون فيها، بل مأذون في محقها وإتلافها، وما على الأمة أضر منها، ...)

=

انظر : السير (١٢/١١٠)، طبقات الشافعية الكبرى (٢/٢٧٥) .

(١) كتاب الضعفاء والكذابين والمتروكين لأبي زرعة ضمن كتاب (أبو زرعة الرازي وجهوده في السنة النبوية) لسعدي الهاشمي (٢/٥٦١) (من مطبوعات الجامعة الإسلامية/ط١/١٤٠٢)، ونقله الذهبي في الميزان (١/٤٣١) .

(٢) هو : عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، أبومحمد، موفق الدين المقدسي، ولد بجماعيل سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وتوفي سنة عشرين وستمائة .وصفه ابن رجب بأنه (الفقيه، الزاهد الإمام، شيخ الإسلام، وأحد الأعلام)، له مصنفات ماتعة منها : (المغني) في الفقه الحنبلي، و (روضة الناظر وجنة المناظر) في الأصول، وغيرهما .

انظر : الذيل على طبقات الحنابلة (٣/١٣٣)، والدر المنضد للعليمي (١/٣٤٦) .

(٣) لمعة الاعتقاد ص : (٤٠-٤١)، وانظر : الآداب الشرعية لابن مفلح (١/٢٣٢) .

إلى أن قال رحمه الله :

(والمقصود أن هذه الكتب المشتملة على الكذب والبدعة يجب إتلافها وإعدامها، وهي أولى بذلك من إتلاف آنية الخمر؛ فإن ضررها أعظم من ضرر هذه، ولا ضمان فيها، كما لاضمان في كسر أواني الخمر وشق زقاقها[1])[2] .

رابعا : عقوبتهم وتعزيرهم :

كان السلف الصالح يرون معاقبة أهل البدع وتعزيرهم بشتى أنواع العقوبات؛ وذلك قطعا لدابرهم، وحماية للمسلمين من شرهم وفسادهم، وليكونوا عبرة لغيرهم فلا يتاجسر أحد على إظهار ما يخالف الدين وما يضل به المسلمين عن سواء السبيل .

ولا شك أن هذه العقوبات تختلف باختلاف البدع وأحوال أهلها، فمن كانت بدعته مثلا مكفرة يعاقب بأكثر مما يعاقب به من لم تكن بدعته كذلك، ومن كان داعية وأقيمت عليه الحجة ليس كمن لم يكن كذلك، وهكذا .

ولأنها من باب التعزير فهي تختلف في مقدارها حسب ما يراه الإمام ناجعا لقطع الشر والفساد، فيعاقب بالضرب والنفي والسجن والقتل وغير ذلك .

قال الشاطبي رحمه الله :

(إن فرقة النجاة –وهم أهل السنة – مأمورون بعداوة أهل البدع، والتشريد بهم، والتنكيل بمن انحاش إلى جهتهم بالقتل فما دونه)[3].

أما القتل فقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(أكثر السلف يأمرون بقتل الداعي إلى البدعة الذي يضل الناس؛ لأجل إفساده في الدين، سواء قالوا : هو كافر، أو ليس كافرا)[4].

---

(١) الزق بالكسر : السقاء، أو جلد يجز ولا ينتف للشراب وغيره .انظر : القاموس المحيط (١١٨٣/٢) .

(٢) الطرق الحكمية ص : (٢٧٥-٢٧٧) .

(٣) الاعتصام (١٥٨/١) .

(٤) مجموع الفتاوى (٥٠٠/١٢)، وانظر المصدر نفسه (٥٥٥/٢٨) .

وقد يستدل على جواز قتل الداعي إلى البدعة ومن لا ينقطع شره إلا بقتله[1] بقوله ﷺ :

(من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه) .

وفي رواية :

(ستكون هنات، وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان)[2].

وأما عقوبتهم بالضرب :

فقد ضرب عمر بن الخطاب ﷺ صبيغ بن عسل التميمي[3] لما سأله عن متشابه القرآن، بل هم بضرب عنقه، ثم أمر أهل بلده أن يهجروه ولا يجالسوه حتى ظهر صدق توبته[4].

واشتهر عن الشافعي رحمه الله أنه قال :

(حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويجلسوا على الجمال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام)[5].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٣٤٦/٢٨) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع (١٤٧٩/٣)، رقم (١٨٥٢) .

(٣) هو : صبيغ -بوزن عظيم- ابن عسل، ويقال : ابن عسيل، التميمي الحنظلي، سأل عمر عن متشابه القرآن فأدبه وأمر أبا موسى بأن يهجر . مات في خلافة معاوية ﷺ .
انظر : تاريخ دمشق (٢٣٣/٨)، الإصابة (٢٥٨/٣) .

(٤) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (٦٣٤/٣-٦٣٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣٣/٨)، وابن حجر في الإصابة (٢٥٨/٣) وصحح إسناد القصة .

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١١٦/٩)، والبغوي في شرح السنة (٢١٨/١)، وابن مفلح في الآداب الشرعية (٢٥٥/١) .

وأما عقوبتهم بالحبس والنفي :

فقد جاء عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال عن رجل ابتدع بدعة يدعو إليها، وله دعاة عليها :

(أرى أن يحبس وتكف بدعته عن المسلمين)[1].

وقال يونس بن عبيد رحمه الله عن المعتزلة :

(... أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم، ويجب على الإمام أن يستتيبهم فإن تابوا وإلا نفاهم من ديار المسلمين)[2] .

وثمت صور أخرى من صور معاقبة أهل السنة والجماعة لأهل البدعة والفرقة تركت إيرادها إكتفاء بما ذكرت، إذ المقصود هو التنبيه على (أن هذه الأمة –ولله الحمد– لم يزل فيها من يتفطن لما في كلام أهل الباطل من الباطل ويرده، وهم لما هداهم الله به يتوافقون في قبول الحق ورد الباطل رأيا ورواية من غير تشاعر ولا تواطؤ)[3] .

فلا تزال في الأمة إلى قيام الساعة طائفة من أهل السنة وطدت نفسها لحماية الدين من البدع والأهواء، والوقوف بالمرصاد لأهلها .ويعدون ذلك من أوجب الواجبات، وأفضل الجهاد، وأزكى القربات .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(إن إنكار هذا المنكر الساري في كثير من المسلمين أولى من إنكار دين اليهود والنصارى الذي لا يضل به المسلمون)[4] .

---

(١) مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله ص : (٦٢٨) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/٢١) .

(٣) مجموع الفتاوى (٩/٢٣٣) .

(٤) المصدر السابق (٢/٣٥٨) .

الباب الثاني :

موقف الطوائف المخالفة من قاعدة كمال الدين

وفيه مدخل، وفصلان .

المدخل : وفيه مطلبان :

المطلب الأول : طرق أهل البدع في خرم القاعدة :

الطريقة الأولى : الزيادة والإحداث :

الطريقة الثانية : الرد والإبطال :

الطريقة الثالثة : الإعراض عن فهم السلف :

المطلب الثاني : في بيان المراد بالطوائف التي ستتناولها الدراسة :

الباب الثاني : موقف العقلانيين من القاعدة

المدخل :

لقد اقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعل في هذا العالم لكل حق جاحدا، ولكل صواب معاندا، كما جعل لكل شر رائدا، ولكل باطل من يوطن نفسه ليكون عنه منافحا ومدافعا، فتجده عن نهج الحق ناكبا، ولمتن الضلالة راكبا .

قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[1].

فكما أن للحق رجالا يبذلون في سبيل حمله وتبليغه النفس والنفيس، فإن للباطل دعاة ينفقون من أجل ترويجه التليد والجديد، والثمين والرخيص، فسنة الله في خلقه أن كل من دان بنحلة، أو انتسب إلى مقالة، أو خالف الحق ولو في مسألة لابد أن يبحث عن الأتباع والأشياع ؛لذا تجد أهل البدع ينمقون بدعهم تنميقا، ويؤصلون لها أصولا، ويضعون لها الحجج والبراهين، ويزعمون أنها عين الحق وما سواها الباطل المحض، فيقوم سوقها، وتروج بين الدهماء، ويعم بها البلاء .

وهذا يراه رأي العين كل من وقف على شيء من كتب العقائد والملل، أو سمع بآراء أهل الأهواء وأرباب النحل .

ومن الأمثلة التي تبرز هذا وتوضحه موقف الطوائف المخالفة لمنهج الحق من قاعدة كمال الدين وتمامه .

فمع أن الأدلة الدالة عليها من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة من الكثرة بمكان، كما أنها واضحة وصريحة لا غموض فيها ولا إجمال، ولا شبهة تعتريها ولا إشكال، إلا أننا نجد أن أهل البدع والعناد، وأهل الزيغ والإلحاد لا يروق لهم الإقرار

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١١٢) .

بالقاعدة، ومن أقر منهم بها في الظاهر تجده يخرمها بأصول فاسدة، فهم في ذلك صنفان :

الأول : من يصرح منهم بعدم كمال الدين، ومن الأمثلة على ذلك :

١/ ما نقل عن الكرابسي أنه ذكر قول الله تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[1].

فقال : لو أكمل لنا ديننا لما كان هذا الاختلاف .

فذكر ذلك للإمام أحمد فقال : (هذا الكفر صراحا)[2].

٢/ ما صرح به أحد الرافضة المخذولين في هذا العصر فقال :

(بالإمامة يكتمل الدين، والتبليغ يتم) .

ثم قال :

(واضح بأن النبي لو كان قد بلغ بأمر الإمامة طبقا لما أمر الله به، وبذل المساعي في هذا المجال !! لما نشبت في البلدان الإسلامية كل هذه الاختلافات والمشاحنات والمعارك، ولما ظهرت ثمة خلافات في أصول الدين، وفروعه !!!)[3] .

فالدين لا يكمل عنده إلا بالإمامة، والنبي ﷺ في زعمه لم يبذل المساعي في سبيل تبليغ أمرها، فتكون النتيجة الحتمية لهذا الكلام السمج أن الدين غير كامل لعدم تبليغ النبي ﷺ ما يكمل به !!! .

وهذا أيضا كفر صريح، وردة واضحة، ولا يستغرب مثله من مثل هذا المخذول الهالك، فغيره من أبناء نحلته يصرحون بعدم كمال الدين كما سيأتي عند دراسة موقف الرافضة من القاعدة .

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٢) طبقات الحنابلة (١/٤٠) .

(٣) قاله الخميني في كشف الأسرار (!!!) ص : (١٥٤-١٥٥) (دار عمار، الأردن/ط٣/١٩٨٨م) .

الثاني : من يزعم منهم أنه يعتقد كمال الدين و لم يصرح بنقصانه، فهذا حاله يكذب مقاله، فلو صدق في دعواه لتبرأ من البدع وتاب إلى مولاه ؛لأن التزام البدع والتمادي في نصرتها يلزم منه أن الدين ناقص غير كامل .

قال الشاطبي رحمه الله :

(المستحسن للبدع يلزمه عادة أن يكون الشرع عنده لم يكمل بعد، فلا يكون لقوله تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾.

معنى يعتبر عندهم، ومحسن الظن منهم يتأولها حتى يخرجها عن ظاهرها)[1] .

وقال الشوكاني رحمه الله :

(إذا كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض نبيه ﷺ فما هذا الرأي الذي أحدثه أهله بعد أن أكمل الله دينه ؟!

إن كان من الدين في اعتقادهم، فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم، وهذا فيه رد للقرآن، وإن لم يكن من الدين فأي فائدة في الاشتغال بما ليس من الدين ؟! .

وهذه حجة قاهرة، ودليل عظيم لا يمكن لصاحب الرأي أن يدفعه بدافع أبدا، فاجعل هذه الآية الشريفة [2] أول ما تصك به وجوه أهل الرأي وترغم به آنافهم، وتدحض به حججهم)[3] .

فاتهام الشرع بالنقصان لازم لكل صاحب رأي أو هوى سواء قصد ذلك أو لم يقصده ؛لذا فكل أصل أصله أهل البدع لتقرير بدعهم وترويجها بين الناس فهو يخرم قاعدة كمال الدين وينقضها .

إذا تقرر هذا فإن لأهل البدع أصولا عدة، وطرقا كثيرة لخرم القاعدة وهي في الجملة ترجع إلى طرق ثلاث يأتي بيانها في المطلب التالي :

---

(١) الاعتصام (١/١٤٧) .

(٢) يقصد الآية (٣) من سورة المائدة .

(٣) القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد ص (٣٨) ضمن الرسائل السلفية (دار الكتب العلمية/١٣٤٨).

المطلب الأول : طرق أهل البدع في خرم القاعدة :

لا شك أن أهل الأهواء قد سلكوا لبث آرائهم الفاسدة سبلا متنوعة، وأصلوا لترويج بدعهم الكاسدة أصولا عدة، هي عمدتهم التي بها يصولون ويجولون، ودينهم الذي عنه ينافحون، فلا يقبلون من الأدلة إلا ما يوافقها، ولا يعرجون على ما يخالفها ولو كان من أوضح الأدلة وأظهرها، فأصولهم وإن خالفت ما جاء به الرسول ﷺ فهي المقدمة وما سواها تبع لها ؛لذا (كان يقال في أصولهم هي : " ترتيب الأصول في تكذيب الرسول " ويقال أيضا هي : " ترتيب الأصول في مخالفة الرسول والمعقول ")[1] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(وأما أهل البدع من أهل الكلام والفلسفة ونحوهم فهم لم يثبتوا الحق، بل أصلوا أصولا تناقض الحق، فلم يكفهم أنهم لم يهتدوا و لم يدلوا على الحق حتى أصلوا أصولا تناقض الحق، ورأوا أنها تناقض ما جاء به الرسول ﷺ فقدموها على ما جاء به الرسول)[2] .

فلو كانوا يعتقدون كمال الدين حقيقة لما احتاجوا إلى تأصيل الأصول المخالفة لما جاء به الرسول ﷺ، فهي لهم مطية للطعن في الدين وكماله .

وبالرغم من كثرتها إلا أنها –في نظري- تندرج تحت مسالك ثلاثة يسلكها أهل الأهواء لخرم القاعدة، وهي :

---

(١) قاله شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (١٦/٤٤٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/٤٤٠) .

المسلك الأول : الزيادة والإحداث :

مما حرم به أهل البدع قاعدة كمال الدين : الزيادة والإحداث، فكل من أحدث في الدين ما ليس منه سواء كان قليلا أو كثيرا فقد اتهمه بالنقصان، ورمى الرسول ﷺ بالبهتان .

قال الإمام مالك رحمه الله :

(من أحدث في هذه الأمة شيئا لم يكن عليها سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الرسالة ؛لأن الله يقول : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾، فما لم يكن يومئذ دينا، فلا يكون اليوم دينا)[1] .

ويندرج تحت هذا المسلك عدة أمور منها :

١/ البدع العملية كالصلوات المحدثة، والأذكار المبتدعة، والأعياد المنكرة ونحوها .

٢/ (ومن أنواع الزيادة في الدين الكذب فيه عمدا)[2] .كوضع الأحاديث للترغيب في الأعمال الصالحة، ففي ذلك اتهام للشرع بأنه قاصر عن تحفيز الناس وحثهم على فعل الخيرات، ولا ينفع التمويه بالباطل أرباب هذه البلية، حيث يزعمون أنهم يكذبون للشرع، ولا يكذبون عليه !!! .

قال ابن الجوزي رحمه الله في معرض ذكره لأقسام الوضاعين :

(قوم وضعوا الأحاديث في الترغيب والترهيب ليحثوا الناس بزعمهم على الخير ويزجروهم عن الشر، وهذا تعاط على الشريعة، ومضمون فعلهم أن الشريعة ناقصة تحتاج إلى تتمة فقد أتممناها)[3] .

---

(١) ذكره الشاطبي في الاعتصام (١/٤٩٤) .

(٢) قاله ابن الوزير في كتابه إيثار الحق على الخلق ص : (١٢٢) (دار الكتب العلمية/ط٢/١٤٠٧) .

(٣) الموضوعات (١/٢٢) ،وانظر كلاما نفيسا للحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٦/٥٧٦) .

٣/ ما أحدث من الأساليب غير المشروعة للدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كالدعوة بالسماع الشيطاني وغيره من الأساليب المبتدعة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(معلوم أن ما يهدي الله به الضالين ويرشد به الغاوين، ويتوب به على العاصين لابد أن يكون فيما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة، وإلا فإنه لو كان ما بعث الله به الرسول ﷺ لا يكفي في ذلك لكان دين الرسول ناقصا محتاجا [إلى] تتمة)[١] .

فكل ما يذكره أهل هذه البدع من الأصول الفاسدة، والقواعد المردودة لإعطائها صبغة شرعية فهو مما تخرم به القاعدة .

المسلك الثاني : الرد والإبطال :

من طرق أهل البدع لخرم قاعدة كمال الدين رد النصوص الشرعية بأساليب صريحة أو ملتوية، فتجدهم يؤصلون أصولا تمهد لهم طرح الأدلة الشرعية، ونزع الثقة منها، فإذا تم لهم ذلك استطاعوا من غير عنت ولا مشقة أن ينشروا الباطل، ويدسوا السم القاتل .

قال ابن القيم رحمه الله :

(إن هؤلاء النفاة المعطلة لابد لهم من أصل يقررون به قولهم الذي ابتدعوه، وأصل ينفون به ما أخبرت به الرسل، وهذا حال كل من وضع رأيا، أو نصب مذهبا ؛لابد له من أصل يقرر به رأيه، وأصل يبطل به قول مخالفه .وعلى هذين الأصلين بنوا مذاهبهم الفاسدة، فكلامهم كله يدور على هاتين القاعدتين)[٢].

ومما يندرج تحت هذا المسلك أمور منها :

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/٦٢٣) .

(٢) الصواعق المرسلة (٤/١٤٣٢) .

١/ الطعن في القرآن الكريم : وهذا يشمل الطعن في ثبوته، أو دلالته :

أما الطعن في ثبوته :

فقد أصل أهل الإلحاد والزندقة أصولا عدة للتشكيك في كون القرآن من عند الله كقول الفلاسفة بأن الوحي هو (مجرد معرفة الحقائق بقوة قدسية في البشر تميز بها عن غيره، وقوة تخيل وتخييل يتمكن بها من التصور وحسن البصيرة، وقوة تأثير يتمكن من التصرف في عناصر العالم)[١] .

كما أصلوا أصولا أخرى للتشكيك في أن القرآن محفوظ من التغيير والتبديل .

أما الطعن في دلالته :

فمن لا يطعن من أهل البدع في ثبوته تجده يسلط على معانيه معاول التأويل الفاسد، كي يعطل المراد الصحيح من ألفاظه، ثم يحملها من المعاني ما لا تحتمل، فيخرج الباطل في قوالب شرعية ويستدل على صحته بآيات قرآنية .

ومنهم من يجعل ألفاظه ألفاظا جوفاء لا يعرف معناها ولا المراد منها فهي عندهم أنزلت ليتعبد بها، لا لتدل على حق أو ترد على باطل، بل صرح بعضهم بأنها عبارة عن أدلة لفظية لا تفيد اليقين ... !!

٢/ الطعن في السنة :

معلوم أن (سبب ظهور البدع في كل أمة هو خفاء سنن المرسلين فيهم)[٢]، وهذه الأمة كان (مبدأ البدع فيها هو الطعن في السنة بالظن والهوى)[٣]، فقد تعرضت السنة في القديم والحديث لهجمات شرسة، ومحاولات بائسة للحيلولة دون الاستفادة منها، فألقى أهل الزيغ والضلال حولها ما لا يعد ولا يحصى من الشكوك

---

(١) ذكره ابن القيم في المصدر السابق (٢/٧٥٩)، وانظر : مجموع الفتاوى (١٢/٥٥٦)، وسيأتي زيادة بيان لما يقصدونه بهذا الكلام عند ذكر الأصل الثاني من الأصول التي خرموا بها القاعدة .

(٢) مجموع الفتاوى (٤/١٣٧) .

(٣) المصدر السابق (٣/٣٥٠) .

والشبهات، فتارة ينكرون عصمة النبي ﷺ وقصدهم التوصل إلى إنكار سنته، وتارة يرمون نقلتها بالكفر أو الفسوق لإبطال ما ينقلونه، وتارة يردونها رأسا بزعم أنها تخالف المعقول فيجعلون عقولهم ميزانا للحديث فيقبلون ما يظنونه يوافق أهواءهم، ويردون ما سوى ذلك، وتارة أخرى يفرقون بين المتواتر والآحاد، فالآحاد يردونه في العقائد مطلقا، والمتواتر يفسدون معناه بتأويلاتهم الباطلة، وبعضهم لا يقبل من الحديث إلا ما نقل عن أهل البيت، .. وهلم جرا .

وبالجملة فكل أصل يؤول إلى رد نص من النصوص الشرعية، أو إبطال معناه الصحيح فهو من الأصول التي تخرم به القاعدة .

المسلك الثالث : الإعراض عن فهم السلف :

يعد الإعراض عن فهم السلف للنصوص الشرعية من أكبر الأسباب الموقعة في البدع والضلال، (فعامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب ؛فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه، ولا يكون كذلك)[1] . بل إن أول بدعة ظهرت في الإسلام كان هذا سببها .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(كانت البدع الأولى مثل بدعة الخوارج إنما هي من سوء فهمهم للقرآن . لم يقصدوا معارضته، لكن فهموا منه ما يدل عليها ...)[2] .

ولقد نشأ إعراض أهل البدع عن فهم السلف من مواقفهم المخزية من الصحابة ومن سار على نهجهم من علماء الأمة، فقد كانوا لا يتورعون من الولوغ في أعراضهم، والطعن في علومهم :

---

(١) مجموع الفتاوى (١١٦/٧) .

(٢) المصدر السابق (٣٠/١٣) .

١/ أما الطعن في أشخاصهم والحط من قدرهم ومكانتهم :

فقد عرف أهل البدع بهذه الخصلة الدنيئة حتى صارت علامة من علاماتهم، وإرثا يتوارثونه خلفا عن سلف، فذكر ذلك عنهم غير واحد ممن ألف في عقيدة السلف .

قال أبو عثمان الصابوني رحمه الله :

(وعلامات البدع على أهلها ظاهرة بادية، وأظهر آياتهم وعلاماتهم شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي ﷺ،واحتقارهم لهم ..)[١] .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(وعيب المنافقين للعلماء بما جاء به الرسول قديم من زمن المنافقين الذين كانوا على عهد النبي ﷺ)[٢] .

فأهل الأهواء عرفوا بالنيل من سلف الأمة وأعلام الأئمة إلا أنهم يتفاوتون في ذلك، فمنهم من يرى كفرهم وردتهم، أو على الأقل فسقهم، فلا يستجيز شهادتهم على أتفه الأشياء، فضلا عن أن يقبل روايتهم عن سيد الأنبياء، ومنهم من ينبزهم بأقبح الألقاب، ويذكرهم بأبشع الأوصاف، ومنهم من يعدهم بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، فهم زوامل أسفار لا علم ولا تحقيق عندهم !! لذا لا تجد أحدا من أهل البدع يجعل شعاره انتحال السلف .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(أما أن يكون انتحال مذهب السلف من شعائر أهل البدع فهذا باطل قطعا، فإن ذلك غير ممكن إلا حيث يكثر الجهل ويقل العلم)[٣] .

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص : (٢٩٩) .

(٢) مجموع الفتاوى (٩٧/٤) .

(٣) المصدر السابق (١٥٦/٤) .

٢/ وأما الطعن في علومهم :

فذلك ديدن أهل البدع في كل عصر ومصر، فتجدهم ينسبون السلف إلى الجهل والضلال، ويذكرونهم في مصاف العوام أتباع كل نـاعق، وإن اضطروا أن ينسبوا لهم شيئا من العلم استدركوا بأن علومهم سطحية لا تكاد تتعدى مسائل الحيض والنفاس !! أما المسائل الدقيقة، والعلوم العقلية فهم بمعزل عنها !!

ومن تلطف من أهل البدع في العبارة أظهر الطعن في صورة الاعتذار فيقول بأن العبادة استغرقت أغلب أوقاتهم، والجهاد كان أكبر همهم فشغلوا بذلك عن تحقيق المسائل وتفريع الفروع واستنباط الفوائد ...

وبالجملة فكل ما أصله أهل البدع من الأصول للطعن في الصحابة وأئمة السلف، أو الطعن في علومهم فهو مما تخرم به قاعدة كمال الدين .

وخلاصة الكلام أن البدع تنافي كمال الدين، وأن كل ما أصل من الأصول لتقريرها أو للاستدلال على صحتها أو للرد على من ينكرها هي أصول لخرم القاعدة.

ونظرا لكثرة الفرق وكثرة أصولها فإن تتبعها فرقة فرقة وذكر جميع أصولها من الصعوبة بمكان، لذا رأيت أن أبين في المطلب التالي مرادي بالطوائف المخالفة التي ستتناولها الدراسة في هذا الباب بتوفيق من الله وعونه .

المطلب الثاني : في بيان المراد بالطوائف التي ستتناولها الدراسة :

منذ ظهور بوادر الفرقة في الأمة صارت الفرق تكثر يوما بعد يوم فلا يزيدها مرور الأيام إلا كثرة، ولا تلبث إلا مليا حتى تسمع بأن فرقة قد ظهرت، وأخرى قد اختلف دعاتها فانقسمت وصارت فرقا ؛إذ الباطل ليس له حد ينتهي عنده .

وهذا ما يؤكد بأنه من المحال تتبع أفراد الفرق، وكذا تتبع أصولها في جزء من رسالة علمية ؛لذا رأيت أن أذكر مناهج هذه الفرق وبعض الأصول التي لها علاقة وطيدة بالموضوع، فذكرت المنهج العقلاني ونماذج من أصول أربابه، كما ذكرت المنهج الباطني ونماذج من فرقه وأصول أهله .وقد استفدت هذا التقسيم من إمام من أئمة السنة خبر الفرق وهضم أصولها، وله جهود عظيمة في التصدي لها .ذلكم هو علم الأعلام وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رحمة واسعة ؛إذ كثيرا ما يقسم أهل البدع إلى القسمين المذكورين إلا أنه تارة يسميهم بأهل الرياضة، وأهل الكلام، وتارة بأهل الصوت، وأهل الحرف، وأخرى بأهل الإرادة المبتدعة، وأهل القياس المبتدع .... .

ومن أوضح النقول عنه في هذا ما يلي :

يقول رحمه الله :

(والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي .

فالطريق الشرعي هو : النظر فيما جاء به الرسول والاستدلال بأدلته والعمل بموجبها .

وأما الطريقان المبتدعان فأحدهما طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي .

والثاني طريق : أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية)[1] .

ويقول رحمه الله في موضع آخر :

(... يسلك بعضهم : طريقة أهل القياس المبتدع، والفلاسفة والمتكلمين، وبعضهم : طريقة أهل الرياضة والإرادة المبتدعة من المتفلسفة، والمتصوفة ...)[2] .

(١) منهاج السنة (٥/٤٢٨) بتصرف .

(٢) مجموع الفتاوى (٢/٧٣) .

الفصل الأول :موقف أرباب المنهج العقلاني من قاعدة كمال الدين:

وفيه مدخل، وثلاثة مباحث .

المدخل : في التعريف بالمنهج العقلاني، وموقف الطوائف من العقل :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التعريف بالمنهج العقلاني، ومدارسه :

المطلب الثاني : موقف الطوائف من العقل :

المطلب الأول : التعريف بالمنهج العقلاني، ومدارسه :

من المستحسن قبل الخوض في بيان موقف العقلانيين من كمال الدين، وقبل إيراد أصولهم التي خرموا بها القاعدة، أن أذكر نبذة يسيرة، وإلمامة مختصرة تحوي التعريف بهم، وبيان مدارسهم، وبعض فرقهم .

المسألة الأولى : التعريف بالمنهج العقلاني :

معلوم أن ما كان من المسميات مركبا تركيب إضافة فإن تعريفه التفصيلي يكون بتعريف كل مفردة من مفرداته على حدة، فتعريف المنهج العقلاني بهذا الاعتبار لا يتم إلا إذا عرف المنهج، والعقل، كل واحد منهما على حدته .

١/ التعريف بالمنهج :

(أ) تعريف المنهج في اللغة :

المنهج بوزن المذهب، والنهج بوزن الفلس بمعنى واحد وهو : الطريق الواضح[١]، والعامر[٢]، والمستقيم .

يقال : طريق نهج: بين واضح،ومنهج الطريق: وضحه، ونهج الطريق أبانه وأوضحه ونهجه أيضا سلكه وبابهما قطع[٣].

والمنهاج: كالمنهج وهو : الطريق الواضح .وأنهج الطريق :وضح واستبان وصار نهجا واضحا بينا، واستنهج الطريق: صار نهجا .ونهجت الطريق: أبنته وأوضحته؛ يقال: اعمل على ما نهجته لك. ونهجت الطريق: سلكته. وفلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك مسلكه. ونهج الأمر وأنهج، لغتان، إذا وضح[٤] .

---

(١) انظر : مختار الصحاح ص : (٢٨٤) .

(٢) انظر : غريب الحديث لأبي عبيد (٢٧٨/٣) .

(٣) انظر : لسان العرب (٣٨٣/٢) .

(٤) المصدر نفسه .

(ب) تعريف المنهج في الاصطلاح :

اختلفت تعاريف المنهج في الاصطلاح باختلاف ما أضيف إليه، فتعريف المنهج العلمي مثلا يختلف عن تعريف المنهج الذاتي، والذي يعنينا هنا هو تعريفه بوجه عام .

فقد قيل فيه هو : وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة[1] .

وقيل هو : الطريق المؤدي إلى التعرف على الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، والتي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة [2] .

(١) انظر : المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية بمصر ص : (١٩٥) (نشرته الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية/١٣٩٩)، وفيه أيضا تعريف المنهج العلمي، والذاتي، وغيرهما من المناهج .

(٢) انظر : العلم والبحث العلمي لحسين رشوان ص : (١٤٣-١٤٥) (المكتب الجامعي/الاسكندرية) .

٢/ التعريف بالعقل :

(أ) معنى العقل في اللغة :

العقل : مصدر[١] عقل –كضرب– يعقل، عقلا، ومعقولا، فهو عاقل، وعقول .

و مدار كلمة (عقل) في اللغة على : المنع، والحبس، والضبط، والإمساك .

قال ابن فارس رحمه الله :

(العين، والقاف، واللام أصل واحد منقاس مطرد يدل عظمه على حبسة في الشيء، أو ما يقارب الحبسة، من ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل)[٢] .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(العقل مصدر عقل يعقل عقلا، إذا ضبط وأمسك ما يعلمه . ..)[٣].

فالأصل في معنى (العقل) لغة : المنع ؛لذا سمي العقل عقلا ؛لأنه يمنع صاحبه من الوقوع والتورط في المهالك[٤] .

ومنه : اعتقل لسانه إذا لم يقدر على الكلام، وعقل البعير يعقله عقلا وعقله واعتقله ثنى وظيفه مع ذراعه وشدهما جميعا في وسط الذراع[٥] .

ومنه : العَقُول بالفتح، الدواء الذي يمسك البطن إذا استطلق[٦] .

---

(١) وقال سيبويه : هو صفة ؛لأنه يرى أن المصدر لا يأتي على وزن مفعول البتة .
انظر : لسان العرب (٤٥٨/١١)، ومختار الصحاح ص : (١٨٧) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٦٩/٤) .

(٣) بغية المرتاد ص : (٢٤٩)، وانظر الرد على المنطقيين ص (١٩٦) .

(٤) انظر : لسان العرب (٤٥٨/١١) .

(٥) انظر : المصدر السابق (٤٥٨/١١) .

(٦) انظر : مختار الصحاح ص (١٨٧) .

وسميت الدية بالعقل : لأن الإبل التي كانت تؤخذ في الديات كانت تجمع فتعقل بفناء المقتول، وقيل سميت عقلا لأنها تمسك الدم[1]، وتمنع الثأر .

ومما يرادف العقل في المعنى : اللب، والحجى، والحصاة، والحجر، والنهى وغيرها .

قال في اللسان :

(اللب : العقل والجمع ألباب و ألبب)[2] .

(والحجى العقل يكتب بالياء لأن أوله مكسور)[3] .

(والحصاة : العقل والرزانة، يقال :هو ثابت الحصاة إذا كان عاقلا، وفلان ذو حصاة وأصاة أي عقل ورأي)[4] .

(والنهى : العقل يكون واحدا وجمعا، ..، و النهية العقل بالضم سميت بذلك لأنها تنهى عن القبيح، يقال : فلان ذو نهية أي ذو عقل ينتهي به عن القبائح ويدخل في المحاسن)[5].

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة (٤/٧١) .

(٢) لسان العرب (١/٧٣٠) .

(٣) المصدر السابق (١٤/١٣٩) .

(٤) المصدر السابق (١٤/١٨٣) .

(٥) المصدر السابق (١٥/٣٤٦) .

(ب) معنى العقل في الاصطلاح :

تعددت تعاريف العقل في الاصطلاح، فله عند الفلاسفة والمتكلمين تعاريف عدة، كما عرفه السلف بتعاريف مخالفة لتعاريف أولئك، وفيما يلي ذكر نماذج من تعريف كل من الفلاسفة والمتكلمين ثم أختم بذكر التعريف المختار عند السلف :

تعريف الفلاسفة للعقل :

- قيل هو : جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها[1].

- وقيل هو : ما يعين على التجريد واستخلاص المعاني الكلية، وهو وسيلة المعرفة، فيدرك الجزئي كما يدرك المعاني العامة[2] . وقيل غير ذلك .

فالعقل عندهم جوهر قائم بنفسه، وهو أربعة أنواع مختلفة الحدود متباينة الفصول (!!) تركت إيرادها بغية الاختصار[3] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(العقل في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلا يراد به القوة التي بها يعقل وعلوم وأعمال تحصل بذلك، لا يراد بها قط في لغة جوهر قائم بنفسه فلا يمكن أن يراد هذا المعنى بلفظ العقل)[4] .

تعريف المتكلمين للعقل :

- قيل هو : (جوهر مجرد يدرك الفانيات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة)[5] .

---

(١) رسالة في حدود الأشياء ضمن رسائل الكندي الفلسفية ص : (١٦٥) (حققه أبوريدة/مطبعة الاعتماد مصر/١٣٦٩) .

(٢) المعجم الفلسفي الذي أعده مجمع اللغة العربية بمصر ص : (١٢٠-١٢١) .

(٣) انظر : المعجم الفلسفي لجميل صليبا (٨٦/٢) (دار الكتاب اللبناني، بيروت/١٩٨٢) .

(٤) مجموع الفتاوى (٢٤٤/١)، وانظر : بغية المرتاد ص (٢٥١ وما بعدها)، والرد على المنطقيين ص : (١٩٦) .

(٥) انظر : التعريفات ص : (١٩٦ - ١٩٧) فقد ذكر تعاريف عدة ورجح هذا الذي أثبته هنا حيث صدره بقوله : والصحيح، ثم ذكره .

- قيل هو : (العلم الضروري الذي يقع ابتداء ويعم العقلاء)[1] .

وقيل هو : (صفة إذا ثبتت تأتى بها التوصل إلى العلوم النظرية، ومقدماتها من الضروريات التي هي مستند النظريات)[2] .

وذهب بعض المتكلمين إلى أنه لا طمع في حده بحد واحد منضبط ؛وذلك لأنه لفظ مشترك .

قال أبو حامد الغزالي :

(إذا قيل ما حد العقل ؟ فلا تطمع في أن تحده بحد واحد، فإنه هوس ؛لأن اسم العقل مشترك يطلق على عدة معان، ...، فإذا اختلفت الاصطلاحات فيجب بالضرورة أن تختلف الحدود)[3] .

فبعض المتكلمين –كما ترى- وافق الفلاسفة في جعل العقل جوهرا قائما بنفسه[4]، كما أن بعضهم وافقهم في تقسيم العقل إلى الأنواع التي أشرت إليها[5] .

تعريف السلف للعقل :

ورد عن بعض السلف كلمات في ماهية العقل من ذلك :

قول الشافعي رحمه الله : أنه (آلة التمييز والإدراك)[6] .

---

(١) انظر : كتاب الحدود لأبي الوليد الباجي ص (٣١) (تحقيق نزيه حماد/١٣٩٢) .

(٢) البرهان في أصول الفقه للجويني (٩٦/١) (تحقيق الديب/دار الوفاء، المنصورة/ط١/١٤١٢) .

(٣) المستصفى (٦٤/١)، وانظر معيار العلم له ص : (٢٨٦) فقد قال فيه بأن العقل لفظ مشترك يطلق على وجوه مختلفة لمعان مختلفة، والمشترك لا يكون له حد جامع .

(٤) انظر : تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل لأبي بكر الباقلاني ص : (١٠٩) (تحقيق حيدر/مؤسسة الكتب الثقافية/١٤٠٧) ففيه : (العقل جوهر حال في النفس وهو مع ذلك غير مخالط للنفس ولا مماس لها) .

(٥) انظر : الملل والنحل (٤١/٢-٤٢)، كتاب المواقف للإيجي مع شرح الجرجاني (٨٢/٢-٨٦)، التعريفات (١٩٦-١٩٧) (دار الكتب العلمية/ط١/١٤٠٣) .

(٦) انظر : بغية المرتاد ص : (٢٦٤)، شرح الكوكب المنير (٨٠/١) .

قول الإمام أحمد : (العقل غريزة)[1] .

ولعل المختار أن العقل إذا أطلق يراد به أربعة معان[2] :

الأول : العلوم الضرورية التي يشترك فيها جميع العقلاء، وهي التي تميزه عن المجنون، فهذا هو مناط التكليف .

الثاني : الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لدرك العلوم النظرية .

الثالث : العلوم النظرية المستفادة من التجارب، والنظر، والاستدلال .

الرابع : العمل بالعلم، فهو من أخص ما يدخل في مسمى العقل الممدوح .

وقد جمعها شيخ الإسلام رحمه الله في قوله :

(يراد بالعقل : (القوة التي بها يعقل، وعلوم وأعمال تحصل بذلك)[3] .

فالقوة التي بها يعقل هي الغريزة، والعلوم تشمل الضرورية والنظرية، والأعمال هي النوع الرابع الذي تقدم ذكره .

---

(١) انظر : العدة في أصول الفقه لأبي يعلى (١/٧٦) (تحقيق المباركي/ط٢/١٤١٠)،المسودة ص : (٤٩٧) شرح الكوكب المنير (١/٨٠) .

(٢) انظر : المستصفى للغزالي (١/٦٤)، والمسودة (٤٩٩)، وبغية المرتاد ص : (٢٦٠) .

(٣) مجموع الفتاوى (٤/٢٤٤) .

المسألة الثانية : التعريف بمدارس المنهج العقلاني :

يمكن تصنيف أرباب المنهج العقلاني من حيث العموم إلى مدرستين كبيرتين، تضم كل مدرسة عددا كبيرا من الفرق والملل، وهما : أهل الفلسفة، وأهل الكلام، وفي الآتي التعريف بهما :

١/ التعريف بالفلاسفة :

الفلسفة كلمة أعجمية يونانية يراد بها عندهم محبة الحكمة، فالفيلسوف هو محب الحكمة، وقد قيل بأن كلمة (فيلسوف) مركبة من لفظتين هما : فيلا، وسوفا. ففيلا هو المحب، وسوفا هي الحكمة[١].

واصطلاحا :

عرفت الفلسفة في الاصطلاح بتعاريف عدة منها :

- قيل هي : التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية[٢] .
- وقيل : إنها تطلق قديما على دراسة المبادئ الأولى، وتفسير المعرفة عقليا[٣] .
- وقيل هي : العلم بحقائق الأشياء[٤] .
- وقيل هي : البحث عن العلل والمبادئ الأولى للموجودات، وإدراك الحقائق الثابتة للأشياء بقدر الطاقة البشرية[٥] .

وقيل غير ذلك .

---

(١) انظر : الملل والنحل (٢/٥٨) (تحقيق الكيلاني/دار المعرفة، بيروت)، ومنهاج السنة (١/٣٥٩)، والمعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية ص : (١٣٨) .

(٢) التعريفات للجرجاني ص : (٢١٦)، وانظر : الحدائق في المطالب العالية الفلسفية للبطليوسي ص : (١١٤) (دار الفكر، دمشق/ط١/١٩٨٨)، ومنهاج السنة (١/٤١٢) و (٣/٢٥٨) .

(٣) المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية ص : (١٣٨) .

(٤) المعجم الفلسفي لجميل صليبيا (٢/١٦٠)، وهذا الذي ذكره صليبيا بأنه تعريف للفلسفة جعله ابن سينا من أغراض الفلسفة لا تعريفا لها .

(٥) شرح القصيدة النونية لمحمد خليل هراس (١/١٤٥) (دار الكتب العلمية/١٤٠٦) .

وكما اختلفوا في تعريفها كذلك لم يتفقوا على بيان أقسامها، فقسمها بعضهم إلى قسمين : نظرية وعملية .

- أما الفلسفة النظرية أو القولية : وهي العقلية أيضا فهي كل ما يعقله العاقل بالحد وما يجري مجراه مثل الرسم، والبرهان وما يجري مجراه مثل الاستقراء فيعبر عنه بهما[1].

ووضعوا تحت هذا القسم ما يلي[2] :

١/ الطبيعيات : ويسمونه العلم الأسفل .

٢/ الرياضيات : ويسمونه العلم الأوسط .

٣/ الإلهيات : ويسمونه العلم الأعلى، أو ما وراء الطبيعة، أو الميتافيزيقا[3] .

- وأما الفلسفة العملية فهي : كل ما يفعله الحكيم لغاية كمالية[4]، وترادف فلسفة السلوك الإنساني[5] .

ووضعوا تحت هذا القسم ما يلي :

١/ تدبير المدينة : ويعنون به ما يتعلق بسياسة المدينة والأمة والملك .

٢/ تدبير المنزل : ويعنون به ما يتعلق بسياسة الرجل أهله .

٣/ الأخلاق : ويعنون به ما يتعلق بسياسة الرجل نفسه .

لكن في العصور المتأخرة وبالتحديد (منذ القرن التاسع عشر [الميلادي] أخذت العلوم تستقل شيئا فشيئا، فأصبحت الفلسفة تقتصر اليوم على المنطق، والأخلاق، وعلم الجمال، وما بعد الطبيعة، وتاريخ الفلسفة)[6] .

---

(١) انظر : الملل والنحل (٢/٥٨) .

(٢) انظر : المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية ص : (١٣٨)، والمعجم الفلسفي لصليبيا (٢/١٦٠) .

(٣) الميتافيزيقا هي ما وراء الطبيعة .انظر : المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية ص : (١٩٧) .

(٤) انظر : الملل والنحل (٢/٥٨) .

(٥) انظر : المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية ص : (١٣٨) .

(٦) انظر : المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية ص : (١٣٨) .

والمقصود أن الفلسفة إرث يوناني[1] أدخل على المسلمين من قبل أناس موتورين لإفساد الدين، والتشويش على عقائد المسلمين، وتفريق كلمتهم .

وقد اجتمعت عوامل كثيرة ساعدت على نقل الفلسفة إلى المسلمين بعد أن كانوا في عافية منها، ولعل أخطر تلك العوامل هو ما وقع من نقل كتب الأوائل وترجمتها إلى العربية، تلك الفعلة النكراء التي بلغت أوجها على يد الخليفة العباسي المأمون[2] بسبب منام شيطاني قيل بأنه رآه ؛إذ ذكر (أن المأمون رأى في منامه رجلا حسن الشمائل .

قال المأمون : وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة ! فقلت : من أنت ؟ قال : أنا أرسطا طاليس[3] .فسررت به !! وقلت : أيها الحكيم !! أسألك ؟

---

(١) ذكر الشهرستاني في الملل والنحل (٢/٦٠) أن (الأصل في الفلسفة والمبدأ في الحكمة للروم وغيرهم كالعيال لهم) وهذا مما انتقد عليه ؛فمبدأها من اليونان ثم انتقلت إلى الروم، ولا يصح الاعتذار له بأنه لا يفرق بين الأمتين لأنهما في عصره أمة واحدة؛ لأن كلامه عن الفلسفة على ضوء ما كانت عليه في أول نشأتها، لا على ضوء ما صارت إليه في عصره .

انظر : منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل للسحيباني ص : (٦٠٧) (دار الوطن/ط١/١٤١٧) .

(٢) هو : عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي، أبو العباس وأبو جعفر، الخليفة العباسي .ولد سنة سبعين ومائة، وتوفي سنة ثمان عشرة ومائتين .كان شيعيا أظهر بدعة القول بخلق القرآن وامتحن الأمة والأئمة بسببها، وكانت له عناية بالأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل وأمر بتعريب كتبهم وبالغ.

انظر : تاريخ بغداد (١٠/١٨٣)، السير (١٠/٢٧٢) .

(٣) هو : أرسطو طاليس بن نيقو ماخوس، أحد فلاسفة اليونان الأقدمين، ومن حذاق تلامذة أفلاطون .ولد في أسطاغيرا –مدينة أيونية قديمة متاخمة لمقدونية على بحر إيجة– سنة (٣٨٤ ق.م)، وتوفي سنة (٣٢٢ق.م) .نشأ في أسرة معروفة بالطب، ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره قدم أثينا ليستكمل علمه فالتحق بالأكاديمية التي أسسها أفلاطون .وكان يلقي دروسه على طلابه وهو يمشي فلقب لذلك هو وأتباعه بالمشائين .قال شيخ الإسلام رحمه الله (جميع العقلاء الذين خبروا كلام أرسطو وذويه في العلم الإلهي علموا أنهم من أقل الناس نصيبا في معرفة العلم الإلهي، وأكثر الناس اضطرابا وضلالا) .

انظر : الملل والنحل (٢/١١٩)، نقض تلبيس الجهمية (١/٣٧٢)، تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص : (١١٢ وما بعدها) (مكتبة النهضة المصرية/ط٤/بدون تاريخ) .

قال : سل .

قلت : ما الحسن ؟

قال ما حسن في العقل !!

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ما حسن في الشرع .

قلت : ثم ماذا ؟ قال ما حسن عند الجمهور. قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم لا .

وفي رواية أخرى قلت : زدني !!

قال : من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب، وعليك بالتوحيد !!! .

فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب ؛فإن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من الكتب القديمة المخزونة بالروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع)[1] .

وكانت النتيجة الحتمية لدخول هذه العلوم إلى بلاد المسلمين هي ظهور فئة هم من أبناء جلدتنا، يسمون بأسماء المسلمين، ويتكلمون بألسنتهم إلا أنهم انبهروا بتلك العلوم فعظموها، وأخذوها بعجرها وبجرها، وصرفوا في ذلك نفائس أيامهم، وأعجبوا بأربابها فقدسوهم وجعلوهم أئمتهم وقدوتهم .

وهذه الفئة هي التي أطلق عليها اسم "الفلاسفة الإسلاميين" ولا شك أن هذا من الزور والبهتان، والافتراء على دين الإسلام، وهو من باب تسمية الأشياء بغير اسمها لترويجها بين الدهماء، إذ الإسلام أعلى وأجل أن يكون له فلاسفة، أولئك الذين لا يعدو قدر أحدهم سقط المتاع، والتاريخ والواقع يشهدان، فما اشتغل أحد بالفلسفة إلا نسب إلى الزندقة، ونقلت عنه أقوال تدل على مروقه من الدين، وتحلله من كل خلق كريم .

---

(١) انظر : الفهرست لابن النديم ص : (٣٣٩)، ونقله عنه صاحب أبجد العلوم (٢/٢٥٢-٢٥٣)، وقد ذكرا أن أول ترجمة وقعت في الإسلام على يد خالد بن يزيد بن معاوية الأموي .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(كان يعقوب بن إسحاق الكندي[1] فيلسوف الإسلام في وقته، أعني الفيلسوف الذي في الإسلام، وإلا فليس الفلاسفة من المسلمين، كما قالوا لبعض أعيان القضاة الذين كانوا في زماننا : ابن سينا[2] من فلاسفة الإسلام ؟!

فقال : ليس للإسلام فلاسفة)[3] .

وهذه الفئة التي تنسب زورا وبهتانا إلى الإسلام، وتحاول التلفيق بين الشريعة المحمدية والفلسفة اليونانية هي التي سأتناول بعض أصولها التي أرادوا بها هدم الدين من أساسه لا الطعن في كماله فحسب .

---

(١) هو : يعقوب بن إسحاق بن الصباح، أبو يوسف، الكندي الأشعثي الفيلسوف .له مؤلفات كثيرة منها: (كتاب الحث على تعلم الفلسفة)، و(كتاب ترتيب كتب أرسطا طاليس) وغيرهما .قال عنه الذهبي: (كان رأسا في حكمة الأوائل، ومنطق اليونان، والهيئة، والتنجيم، والطب، وغير ذلك، لا يلحق شأوه في ذلك العلم المتروك . وكان يقال له : فيلسوف العرب، وكان متهما في دينه، بخيلا، ساقط المروءة، وله نظم جيد، وبلاغة، وتلامذة .هم بأن يعمل مثل القرآن !!! فبعد أيام أذعن بالعجز) .

انظر : الفهرست لابن النديم ص : (٣٥٧) (دار المعرفة، بيروت)، السير (٣٣٧/٢) .

(٢) هو : الحسين بن عبد الله بن الحسن، أبو علي، الفيلسوف المعروف بابن سينا .توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة .كانوا يلقبونه بالشيخ الرئيس، له مصنفات كثيرة منها : (كتاب الشفاء)، و (القانون) وغيرهما .قال عنه الذهبي رحمه الله : (ما أعلمه روى شيئا من العلم، ولو روى لما حلت الرواية عنه ؛ لأنه فلسفي النحلة ضال) .

انظر : ميزان الاعتدال (٥٣٩/١)، شذرات الذهب (٢٣٤/٣) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٨٦/٩) .

٢/ التعريف بالمتكلمين :

لا بد لمعرفة المراد بالمتكلمين من معرفة المراد بما يسمى بـعلم الكـلام ؛لأن المتكلم يطلق على من ارتضى هذا العلم واتبع قواعده في الاستدلال .

وقد اختلفوا في تعريف الكلام اختلافا كثيرا، فعرفوه بعدة تعاريف منها مـا يلي :

- قيل هو : (علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفـع الشبهة)[١] .

وهذا التعريف لم ينص على نوع الحجج التي يوردونها لإثبات عقائدهم .

- وقيل علم الكلام هو : (الاحتجاج عن العقائد بالأدلة العقلية)[٢].

- وقيل هو : (علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة)[٣].

- وقيل هو : (صناعة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحـدودة التي صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها من الأقاويل)[٤].

وأحسن ما في هذا التعريف تسميته الكلام صناعة، فهو مجرد صناعة وليـس بعلم ؛لذا قال بعض السلف : (العلم بالكلام جهل، والجهل بالكلام علم)[٥].

وإذا أطلق عليه العلم فمن باب التجوز في العبارة، والتنـزل مع الخصم .

- وقيل هو : (علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنـات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام) .

---

(١) كتاب المواقف للإيجي مع شرح الجرجاني (١/٣٣-٣٤) .

(٢) انظر : كشف الظنون (١/٤٠) (مكتبة المثنى، بغداد) .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص : (٥٥٧) .

(٤) انظر : المعجم الفلسفي لصليبا (١/٢٣٦) فقد نقله من إحصاء العلوم للفارابي ص : (٧١-٧٢) .

(٥) تقدم تخريجه ص : (٢٢٤) .

والقيد الأخير لإخراج العلم الإلهي عند الفلاسفة[1].

- وقيل هو : (العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة عن الأدلة)[2].

ولا يخلو تعريف من هذه التعاريف من مؤاخذات، ولعل أقرب شيء إلى حقيقته أن يقال هو : مجموعة من القواعد العقلية، والأصول الفلسفية، والطرق الملتوية للخوض في مسائل العقيدة الإسلامية .

قال الشهرستاني[3] :

(طالع شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وأفردها فنا من فنون العلم وسمتها باسم الكلام)[4] .

فعلم الكلام عبارة عن مزيج وخليط جمع بين أفكار المعتزلة وأصول الفلاسفة ثم أصبغ صبغة شرعية .

وكما اختلفوا في تعريفه فقد اختلفوا أيضا في سبب تسميته بهذا الاسم، ومما ذكر في ذلك ما يلي :

- قيل : لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام فسمي النوع باسمها، وممن قال بهذا الشهرستاني[5] .

وقد تعقبه شيخ الإسلام رحمه الله فقال :

---

(١) التعريفات للجرجاني ص : (٢٣٧) .

(٢) المصدر السابق ص : (٢٣٧) .

(٣) هو : محمد بن عبد الكريم بن أحمد، أبو الفتح، تاج الدين، الشهرستاني .ولد سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وقيل غير ذلك، وتوفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .كان لعلمه يلقب بالأفضل، وبرع في الكلام والنظر والفلسفة، له مصنفات عدة منها : (الملل والنحل)، و(نهاية الإقدام في علم الكلام) وغيرهما .

انظر : السير (٢٠/٢٨٦)، وطبقات الشافعية الكبرى (٤/٧٨)، و كتاب منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل للسحباني ص : (٢٧-١٩٦) .

(٤) الملل والنحل (١/٣٠) .

(٥) المصدر السابق، وانظر : المواقف للإيجي مع شرح الجرجاني (١/٤٥) .

(ما ذكره الشهرستاني في اسم المتكلمين ليس بصحيح ؛فإن المتكلمين كانوا يسمون بهذا الاسم قبل منازعتهم في مسألة الكلام، وكانوا يقولون عن واصل بن عطاء : إنه متكلم، ويصفونه بالكلام، و لم يكن الناس اختلفوا في مسألة الكلام)[1] .

- وقيل سمي بذلك لأن أبوابه عنونت في كتب المتقدمين بـ (الكلام في كذا) فبعد تغير العنوان بقي ذلك الاسم بحاله[2] .

- وقيل : سمي بذلك لمقابلة الفلاسفة في تسميتهم فنا من فنون علمهم بالمنطق، والمنطق والكلام مترادفان[3] .

وهذا التوجيه قريب ؛لأن الكلام أخذت أصوله من الفلسفة، كما أن الذين وضعوه غرض من حسنت نيته منهم هو الرد على الفلاسفة، فلا يستبعد أن يجاروهم ويسموا قواعدهم بما يشبه اسم قواعد الفلاسفة .

- وقيل : سمي بذلك لأنه يورث قدرة على الكلام والرد على الخصم[4]، لذا تجد أن لأهله اعتناء زائدا بالكلام وفنونه، فلما كانت عنايتهم بما يفيد الإنسان كثرة الكلام لا ما يفيده علما سموا أهل الكلام[5] .

وهذا توجيه وجيه جدا، وواقع القوم يدل على صحته، فلو تصفحت كتبهم لوجدت فيها كلاما كثيرا، لكن قلما تخرج من قراءتها بفائدة، فكلامهم كثير إلا أنه قليل الفائدة، عديم البركة، كما أن مطالبه ضيقة المسالك، وكثيرا ما تفضي بسالكها إلى المهالك .

ومهما تكن الأسباب الداعية إلى هذه التسمية فالذي يعنينا هنا أكثر هو أن اسم المتكلمين يطلق على فرق شتى، وأرباب مناهج عدة، ومن أشهر تلك الفرق :

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/١٨٤) بقليل من التصرف .

(٢) كتاب المواقف للإيجي مع شرح الجرجاني (١/٤٥) .

(٣) الملل والنحل (١/٣٠) .

(٤) المواقف للإيجي مع شرح الجرجاني (١/٤٥) .

(٥) انظر الرد على المنطقيين ص : (٣١)، ومجموع الفتاوى (٩/٧٥) .

(أ) الجهمية :

اسم لفرقة تنسب إلى جهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، وكان يعطل صفات الباري تعالى ويقول لا يوصف بصفة يوصف بها خلقه، وينفي الأسماء الحسنى ولم يثبت إلا كونه قادرا فاعلا خالقا ؛لأنه لا يوصف عنده شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق، وقد تلقى بدعته من شيخه الجعد[1]، وأظهرها بترمذ، ونشرها بين الناس، ومما أعانه على ذلك فصاحته وتشدقه في الكلام[2] .

(ب) المعتزلة :

اسم لفرقة ظهرت في أوائل القرن الثاني الهجري .وهم أتباع واصل بن عطاء الغزال، وعمرو بن عبيد .

وافقوا الجهمية في تعطيل الصفات لهذا كان يقال عنهم بأنهم مخانيث الجهمية، وامتازوا بما عرف بـ "المنزلة بين المنزلتين" وهو أصل من أصول خمسة لا يعتبرون أحدا منهم إلا إذا أقر بها كلها، وهي :

- التوحيد ويعنون به : نفي الصفات، وإنكار الرؤية، والقول بخلق القرآن .
- العدل ويعنون به : نفي خلق أفعال العباد .
- والوعد والوعيد ويقصدون به : خلود أصحاب الكبائر في النار .
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويريدون به : الخروج على الحكام .
- المنزلة بين المنزلتين ويقصدون به : أن صاحب الكبيرة في الدنيا ليس بمؤمن ولا كافر، بل ينزل منزلة بين المنزلتين، فيسمى فاسقا لا مسلما ولا

---

(١) ذكر غير واحد من العلماء أن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ .
انظر : السير (٥/٤٣٣) .

(٢) انظر : الملل والنحل (١/٨٦)، ومجموع الفتاوى (٨/٢٢٧-٢٣١) و(٨/٤٦٠) و(١٢/١١٩،٣١١)، ونقض تأسيس الجهمية (١/٢٧٧) .

كافرا، وفي الآخرة يكون مخلدا في النار، وهذا هو الذي امتازت به المعتزلة [1]، بل يقال : بأن هذه المسألة كانت السبب في تسميتهم بالمعتزلة ؛إذ جاء رجل فسأل الإمام الحسن البصري رحمه الله عن حكم مرتكب الكبيرة فبادر رأس هذه الفرقة واصل بن عطاء فأجاب بأنه ليس بمؤمن، ولا كافر (!!) بل في منزلة بين المنزلتين ثم قام واعتزل حلقة الإمام الحسن البصري رحمه الله (!!!) فقال الإمام : اعتزل عنا واصل، فسمي هو وأصحابه بالمعتزلة .وقيل في سبب تسميتهم بهذا غير ذلك .

ومن أسمائهم أيضا : القدرية، والوعيدية، وهم فرق كثيرة [2] .

(ج) الكلابية :

اسم لفرقة تنسب إلى ابن كلاب[3] البصري، الذي عرف بقوته في المناظرة فلقب لذلك بابن كلاب ؛لأنه يجتذب من يناظره كما يجتذب الكلاب الشيء[4] .

كان يناظر المعتزلة في الصفات دون أن يلم بمذهب السلف مما جعله يلتزم بعض أصولهم الفاسدة فوافقهم في نفي أفعال الله جل وعلا المتعلقة بمشيئته وقدرته .

ويعتبر أول من أحدث في الإسلام بدعة الكلام النفسي، وقال عن القرآن : إنه ليس كلام الله حقيقة، وإنما هو عبارة عنه .

وقد تأثر به أبو الحسن الأشعري وأخذ بمذهبه في طوره الثاني .

---

(١) انظر النبوات لشيخ الإسلام (٥٨٢/١) .

(٢) انظر : مقالات الإسلاميين ص : (١٥٥)، الفرق بين الفرق ص : (٩٤)، الملل والنحل (٤٣/١) .

(٣) هو : عبد الله بن سعيد، أبو محمد، القطان، المعروف بابن كلاب، أحد أئمة المتكلمين بالبصرة .له مصنفات في الرد على المعتزلة وربما وافقهم، من مصنفاته (كتاب الصفات)، و(كتاب الرد على المعتزلة) وغيرهما. قيل توفي بعد الأربعين ومائتين بقليل .
انظر : السير (١٧٤/١١)، طبقات الشافعية الكبرى (٢٩٩/٢) .

(٤) ذكر ذلك الذهبي في السير (١٧٤/١١)، وابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٢٩٩/٢) .

(د) الأشاعرة :

اسم لفرقة تنسب إلى أبي الحسن الأشعري[1] الذي لبث في الاعتزال ردحا من الزمان، فلما برع فيه وعرف طرقه ومسالكه، كرهه بعد سن الأربعين ثم أعلن البراءة منه، واشتغل بالرد على أهله لكن على طريقة ابن كلاب، وقيل إنه ترك هذه الطريقة أيضا وسلك طريقة السلف في آخر حياته .

فيكون الأشعري بذلك قد مر في عقيدته بثلاثة أطوار، طورين متفق عليهما، وطور مختلف فيه، وهي :

الطور الأول : مرحلة الاعتزال، والتي استمرت إلى سن الأربعين .

الطور الثاني : المرحلة الكلابية، وهي التي ينتسب إليها الأشاعرة، ويعدونها آخر مراحل أبي الحسن الأشعري .

الطور الثالث : إعلانه الانتساب في المعتقد إلى أهل السنة عموما[2]، وإلى الإمام أحمد رحمه الله على وجه الخصوص [3]، وهذا الانتساب أثار في القديم والحديث جدلا طويل الذيل، فالبعض عده من الأدلة على أن الأشعري انتقل في آخر حياته إلى معتقد السلف، وجعل ذلك مرحلة مستقلة هي التي ينبغي أن ينسب إليها .

والبعض الآخر لا يقيم كبير وزن لهذا الانتساب، وهم في ذلك فريقان :

الفريق الأول : بعض الأشاعرة :

وهؤلاء منهم من يطعن في نسبة كتاب الإبانة إلى الأشعري، والإبانة هو الكتاب الذي ورد فيه انتسابه إلى الإمام أحمد رحمه الله .

---

(١) تقدمت ترجمته ص : (٤٢) .

(٢) قال في مقالات الإسلاميين ص (٢٩٧) بعد ذكر مقالة أهل الحديث : (وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب) .

(٣) انظر : الإبانة عن أصول الديانة للأشعري ص : (٤٣) (تحقيق بشير عيون/مكتبة المويد/ط٤/١٤١٣).

ومنهم من يصحح نسبته إليه لكن يجعلونه أول كتاب كتبه بعد تركه الاعتزال، فهو عندهم بمثابة ردة فعل من الأشعري تجاه فكره القديم، ثم بعد ذلك ألف كتاب اللمع وغيره من الكتب التي قرر فيها معتقد الكلابية .

الفريق الثاني : بعض أهل السنة والجماعة :

وهؤلاء جعلوا الانتساب العام غير كاف في الحكم له بأنه ترك الكلابية إلى مرحلة ثالثة، خاصة وأنه قد وجد في كتبه التي انتسب فيها إلى أهل السنة مخالفات صريحة لمعتقدهم حتى قال عنه بعض الأئمة بأنه : (رجع في الفروع، وثبت في الأصول)[1] .

والذي لا شك فيه أن انتسابه إلى الإمام أحمد رحمه الله ثابت بلا مرية، ومحاولة دفع ذلك بأنه وقع ردة فعل تجاه أفكاره القديمة غير مقبول البتة، وما ذكر من وجود مخالفات صريحة لمعتقد السلف في كتبه الأخيرة لا يجادل فيه ذو نهية .

وعلى ضوء ما تقدم فما وقع من الأشعري في آخر حياته من الانتساب إلى الإمام أحمد رحمه الله، بل والانتصار لبعض المسائل المشهورة عند أهل السنة والتي خالفهم فيها المعتزلة يمكن اعتباره خطوة نحو مذهب السلف، أما اعتبار الأشعري سلفي المعتقد، وعد ذلك طورا مستقلا من أطوار حياته فيحول دون الجزم به أن معرفته بمذهب السلف كانت مجملة، وانتسابه إلى أهل السنة كان على وجه العموم، مع أنه بقي متمسكا ببعض أصول أهل البدع ورام الجمع بينها وبين أصول السنة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(.. انتصر للمسائل المشهورة عند أهل السنة التي خالفهم فيها المعتزلة كمسألة الرؤية، والكلام، وإثبات الصفات، ونحو ذلك، لكن كانت خبرته بالكلام خبرة مفصلة، وخبرته بالسنة خبرة مجملة ؛فلذلك وافق المعتزلة في بعض أصولهم التي

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل (٧/٢٣٦ – ٢٣٧) .

التزموا لأجلها خلاف السنة، واعتقد أنه يمكنه الجمع بين تلك الأصول وبين الانتصار للسنة ...

إلى أن قال رحمه الله :

من قال إن قوله قول جهم فقد قال الباطل، ومن قال : ليس فيه شيء من قول جهم فقد قال الباطل ...)[1] .

والمقصود أن المذهب الذي ينسب إلى الأشعري يمثل الطور الثاني من حياته، أي لما كان متأثرا بطريقة ابن كلاب ؛لذا تجد بعض الأئمة يطلق على الأشاعرة اسم الكلابية، وتجد بعض الأشاعرة إذا ترجموا لابن كلاب يدافعون عنه، ويثنون عليه، ويجعلونه من أئمة السنة [2]، بل إن بعضهم يصرح بأنه المؤسس لأصولهم، والممهد لقواعدهم، وأنه الشيخ الأول، والإمام السابق [3] .

هذا بالنسبة لمتقدمي الأشاعرة أما المتأخرون منهم فقد تأثروا إلى حد بعيد بالمعتزلة حتى قيل عنهم بأنهم مخانيث المعتزلة [4] .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠٤/١٢) .

(٢) انظر مثلا طبقات الشافعية الكبرى (٣٠٠/٢) .

(٣) نقله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في درء تعارض العقل والنقل (١٢١/٦) عن أبي بكر بن فورك .

(٤) نقله شيخ الإسلام رحمه في مجموع الفتاوى (٣٤٩/١٤) عن أبي إسماعيل الأنصاري .

المطلب الثاني :موقف الطوائف من العقل :

لقد أكرم الله الناس بالعقل، ومن عليهم فميزهم به عن البهائم والأنعام، وأناط بوجوده الأحكام، فأسقط التكليف عن المجنون والنائم ومن لم يبلغ الاحتلام، وأولاه عناية بالغة فجعل ضرورة المحافظة عليه من المقاصد المرعية في الشرع الحكيم، كما أنه مدح أهله، وحث على استعماله فرغب في التفكر، والتدبر، والاعتبار، وأنزله المنزلة اللائقة به فلم يبخسه حقه، و لم يرفعه فوق قدره، وحد له حدوده التي إذا تعداها ضل وتاه.

ولقد حاد عن سبيل الاعتدال أقوام فأفرطوا في تقديس العقل، كما قصر آخرون ففرطوا فيه ومدحوا الجهل، بيد أن سلف الأمة، وعلماء السنة قد وقفوا منه الموقف الصحيح فقدروه و لم يقدسوه، وانتفعوا به و لم يهملوه .

وفي ما يلي عرض موجز لموقف كل فريق :

أولا : موقف العقلانيين من العقل :

من المعلوم أن العقلانيين إنما نسبوا إلى العقل نظـــرا لمبالغتـــهم في إطرائـــه، ومجاوزتهم الحد في تقديسه، وتتجلى مظاهر هذا الغلو من خلال النقاط التالية :

١/ جعلوه أول الأدلة، وقدموه على سائر أدلة الشريعة حتى الكتاب والسنة .

قال القاضي عبد الجبار[١] في معرض ذكره للأدلة :

(**أولها دلالة العقل** ؛لأن به يميز بين الحسن والقبح، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع .

وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم، فيظن أن الأدلة هي الكتاب والســـنة والإجماع فقط، أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر، وليس الأمـــر كذلك ؛لأن الله لم يخاطب إلا أهل العقل، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع، **فهو الأصل في هذا الباب !!!**)[٢] .

٢/ جعلوه قاضيا وحاكما، وأما الشرع فهو مجرد شاهد .

قال أبو حامد الغزالي :

(قد تناطق على التوافق **قاضي العقل، وهو الحـــاكم** الـــذي لا يعـــزل ولا يـــبدل، **وشاهد الشرع** المزكى المعدل بأن الدنيا دار غرور ...)[٣] .

فالعقل هو الذي نصب عندهم ليكون حاكما، وأما الشـــرع فـــلا يطلبـــون شهادته إلا إذا ظنوا أنها توافق أهواءهم، فشهادته عندهم للاستئناس لا للاعتماد .

---

(١) هو : عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار، أبو الحسين، الهمذاني الأسدبادي، شيخ المعتزلة في وقته ومـــن غلاتهم وكانوا يلقبونه بقاضي القضاة .له مؤلفات منها : (شرح الأصول الخمسة)، و (المغني في أبواب التوحيد والعدل) وغيرهما .توفي سنة خمسة عشر وأربعمائة .

انظر : ميزان الاعتدال (٥٣٣/٢)، شذرات الذهب (٢٠٢/٣) .

(٢) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة لعبد الجبار ص : (١٣٩) (الدار التونسية، تونس/١٣٩٣) .

(٣) مقدمة المستصفى (٣٢/١) .

وهذا إفك بلا شك، وطامة كبرى عند أولي النهى، وقلب للموازين، وتلبيس مفضوح فقد دلت نصوص كثيرة على أن الحاكم الذي لا يعزل ولا يبدل، ولا يستدرك على حكمه، بل الذي لا بد وأن يقابل حكمه بالتسليم والإذعان هو الشرع وحده لا غير، قال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾[1].

وقال تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[2].

٣/ زعموا أن جهة حجة العقل جديرة وقادرة على أن تنسخ الأخبار[3] :

وهذه فرية بلا مرية، وسبيل معبدة لنسف الشرع بلا كلفة، فإذا قبلت وراجت فعلى الإسلام السلام ؛إذ كلما رام أحد التنصل من شعيرة من شعائر الدين فلن يجد عناء في ادعاء أن عقله قد نسخها !! .

وهناك أمور أخرى تظهر مدى تقديس هؤلاء للعقل سيأتي عرضها والكلام عنها في معرض ذكر أصولهم الفاسدة التي خرموا بها القاعدة ؛إذ المقصود هنا التنبيه على مجاوزتهم الحد في أمر العقل، وأنهم أنزلوه أعلى المنازل وأسماها فلم يطمع الشرع عندهم أن يدانيه فضلا أن يعلو عليه .

وما أحسن قول بعض المعاصرين في وصف حال هؤلاء مع العقل إذ يقول :

(والداعون إلى تمجيد العقل إنما هم في الحقيقة يدعون إلى تمجيد صنم سموه عقلا، وما كان العقل وحده كافيا في الهداية والإرشاد وإلا لما أرسل الله الرسل)[4].

---

(١) سورة الرعد، الآية (٤١) .

(٢) سورة النساء، الآية (٦٥) .

(٣) نقله ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث ص (٣٢) عن إبراهيم بن سيار النظام .

(٤) من كلام الشيخ عبد الرحمن الوكيل رحمه الله في تقديمه لكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (٢١/١) .

ثانيا : موقف الصوفية ومن سار على نهجهم من العقل :

لئن بالغ العقلانيون في مدح العقل وتجاوزوا الحدود في تقديسه فإن موقف كثير من الصوفية مناقض لموقف أولئك تماما فهم يذمونه، ويذمون كل ما يتصل به، بل بلغ بهم الأمر إلى حد التنفير من العلوم الشرعية، ومدح الجهل والسكر والجنون والوله وكل ما يدل على زوال العقل .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال العالية، والمقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل، ويمدحون السكر والجنون والوله وأمورا من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز، كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بطلانها ممن لم يعلم صدقه)[1] .

وسيأتي ذكر أقوالهم الدالة على تنفيرهم من العلوم الشرعية وذم أهلها عند ذكر أصولهم التي خرموا بها القاعدة .

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٣٨-٣٣٩) .

ثالثا : موقف السلف من العقل :

لقد تميزت مواقف السلف في جميع الأمور بالوسطية بين الإفراط والتفريط، وبين الغلو والتقصير، ومن ذلك موقفهم من العقل، فهم لم يقدسوه تقديس العقلانيين، ولم ينبذوه كما نبذه أهل التصوف، بل اعتبروه من نعم الله العظيمة التي ينبغي أن تذكر فتشكر ؛لذا استعملوه في المواطن التي يصلح أن يستعمل فيها، ولم يقحموه في مضايق يتيه ويضل في شعابها .وتبرز وسطية أهل السنة في موقفهم من العقل من خلال الأمور التالية :

١/ أنهم يقررون أن عدم العقل لا يحمد بحال :

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(عدم العقل والتمييز لا يحمد بحال من جهة نفسه، فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله مدح وحمد لعدم العقل والتمييز والعلم .بل قد مدح الله العلم والعقل والفقه ونحو ذلك في غير موضع، وذم عدم ذلك في مواضع)[١] .

٢/ أن العقل عندهم آلة يستعان به على فهم كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، وليس له حق التشريع، أو حتى الاعتراض على الشارع .وطريق النجاة عندهم (لا يكفي فيه مجرد العقل، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدامه، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة)[٢].

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل . لكنه ليس مستقلا بذلك، بل هو غريزة في النفس، وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين . فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به

---

(١) الاستقامة (١/١٥٧)، وانظر ما بعدها .

(٢) مجموع الفتاوى (١/٦) بتصرف .

نور الشمس والنار، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركـــها، وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أمورا حيوانية قد يكون فيها محبـة ووجد وذوق كما قد يحصل للبهيمة .

فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة)[1] .

٣/ أثبتوا أن العقل لا بد وأن يكون تابعا للشرع، فإذا ورد الشرع بـــأمر لم يدركه العقل وجب على العقل أن يتهم نفسه، ويلزم حده فيذعن للشرع، ويسلس له القياد، وأن يعلم أن (الرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، و لم تأت بمـــا يعلـــم بالعقل امتناعه)[2]، وأنهم لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول [3] .

قال الإمام الطحاوي رحمه الله[4] :

(ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم مـــا حظر عنه علمه، و لم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصـــافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمـــان، والتصديـــق والتكذيـــب، والإقرار والإنكار، موسوسا تائها شاكا، لا مؤمنا مصدقا، ولا جاحدا مكذبا)[5].

٤/ قرروا أن العقل الصريح يحتج به كما يحتج بـــالنقل الصحيـــح، وأنهمـــا يتعاضدان ولا يتعارضان .

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٣٨) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر : درء تعارض العقل والنقل (١/١٤٧) .

(٤) هو : أحمد بن محمد بن سلامة، أبو جعفر، الأزدي الحجري، الحنفي، المعروف بالطحاوي نسبة إلى قرية طحا من قرى صعيد مصر .ولد سنة تسع وثلاثين ومائتين، وتوفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة .كان ثقة ثبتا حافظا فقيها، له مصنفات كثيرة منها : (شرح مشكل الآثار) و(اختلاف العلماء) وغيرهما . انظر : السير (١٥/٢٧)، الجواهر المضية (١/١٠٢) .

(٥) متن العقيدة الطحاوية ص (١٠) (مكتبة ابن تيمية/ط١/١٤٠٨) .

قال ابن القيم رحمه الله :

(إن السمع حجة الله على خلقه، وكذلك العقل، فهو سبحانه أقام عليهم حجته بما ركب فيهم من العقل وأنزل إليهم من السمع .

والعقل الصريح لا يتناقض في نفسه، كما أن السمع الصحيح لا يتناقض في نفسه، وكذلك العقل مع السمع .

فحجج الله وبيناته لا تتناقض ولا تتعارض، ولكن تتوافق وتتعاضد ...)[1] .

(١) الصواعق المرسلة (١١٨٧/٣) .

المبحث الأول : موقف الفلاسفة من القاعدة، والرد عليهم

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة :

المطلب الثاني : موقفهم من المسائل العلمية والعملية .

المبحث الأول :

موقف الفلاسفة من قاعدة كمال الدين

لقد شعر علماء الأمة بخطر الفلسفة اليونانية التي أدخلت إلى البلاد الإسلامية فنبذوها نبذ النواة، ورموا أهلها والمعجبين بها عن قوس واحدة، حتى صار اسم الفلسفة يومها عند جماهير المسلمين صنو الزندقة، وصارت تلك الشرذمة المفتونة مهجورة ومطرودة .

فلما ضاقت بهم الأرض بما رحبت وأعيتهم الحيلة، ورأوا أن المسلمين قد استغنوا بدينهم عن تلك الأفكار الدخيلة، أيقنوا أن بضاعتهم الكاسدة لن تروج إلا بنوع من المكيدة . فتنادوا بينهم أن أنجع طريقة لبلوغ الغاية المنشودة أن تقدم الفلسفة في قوالب شرعية، وتكسى بحلل مزيفة يقال عنها بأنها إسلامية .وسلكوا في سبيل تحقيق ذلك الخطوات التالية :

الخطوة الأولى : زعموا أولا أن الفلسفة لا تنافي الشريعة، وأنهما يخرجان من مشكاة واحدة، وغاية ما بينهما من الفروق إنما هو في المنهج والأسلوب، مع الاتفاق في الهدف والنتيجة والغاية، بل إنهم زعموا - مبالغة في الإضلال - أن الفلسفة تزيد دين المسلم صلابة، وحجته قوة !!! .

قال ابن رشد الحفيد [1] :

(إن الحكمة هي صاحبة الشـــريعة، والأخـــت الرضيعـــة !!، ...، وهمـــا المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغريزة) [2] .

ولرد هذه الفرية أكتفي بإيراد مقولة بديعة أثرت عن ابن عقيل الحنبلـــي [3]، وهي قوله :

(الفلسفة حدس قد يوافق الإصابة وقد يخطئ، والنبوة حق تصيب ولا تخطئ . وفرق بين من كان مصدره حدسا وبين من كان مصدره وحيا)[4] .

فلما قبلت تلك الأكذوبة وراجت بين أشباه العامة خطوا **خطوة ثانية** فقالوا :

إن الإنسان مهما علت منـــزلته في العلوم الشرعية فلا يوثق بعلمه ما لم يحـــط بالعلوم الفلسفية، خاصة القواعد المنطقية، وأدرجوا الإحاطة بهـــا ضمـــن شـــروط

---

(١) هو : محمد بن أحمد بن محمد، أبو الوليد، القرطبي، الفيلسوف، المعروف بابن رشد الحفيـــد .ولـــد في قرطبة سنة عشرين وخمسمائة، وتوفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة .نشأ في بيت الفقهاء والقضاة لكنه أقبل على علوم الأوائل وبلاياهم حتى برع فيها وصار يضرب به المثل في ذلك، خاصة مقالات المشائين أرسطو وأتباعه. له مؤلفات كثيرة، أغلبها في الفلسفة، وقليل منها في العلوم الشرعية، منها : (بدايـــة المجتهد) في الفقه، و (مختصر المستصفى) في الأصول، وغيرهما .
انظر : السير (٢١/٣٠٧)، شذرات الذهب (٤/٣٢٠) .

(٢) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ص : (٦٤) (مكتبة الشركة الوطنية، الجزائر) .

(٣) هو : علي بن عقيل بن محمد، أبو الوفاء، البغدادي الظفري .من متكلمي الحنابلة !! ولد سنة إحـــدى وثلاثين وأربعمائة، وتوفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة .كان يجالس المعتزلة فنهاه أصحابه فلم ينتـــه، فوقع في حبائلهم وتأثر ببدعهم ؛لذا قال عنه الذهبي : (كان يتوقد ذكاء، وكان بحر معارف، وكنـــز فضائل، لم يكن له في زمانه نظير على بدعته)، وقد قيل إنه تاب من ذلك كله .له مؤلفات كثـــيرة في فنون العلم، منها : (كتاب الفنون) وهو كتاب كبير جدا، و (الواضح في أصول الفقه) وغيرهما .
انظر : السير (١٩/٤٤٣)، ذيل طبقات الحنابلة (١/١٤٢) .

(٤) ذكره ابن الجوزي في كتابه الثبات عند الممات ص : (٩٣) (تحقيق عبد الله الليثي/مؤسســـة الكتـــب الثقافية/ط١/١٤٠٦) .

الاجتهاد !! وقالوا بأن تعلمها إن لم يكن فرض عين فلا ينـــزل حكمه عـــن كونـــه فرض كفاية !!.

قال ابن رشد الحفيد :

(النظر في كتب القدماء واجب بالشرع ؛إذ كـــــان مغزاهـــم في كتبـــهم، ومقصدهم هو المقصد الذي حثنا الشرع عليه ...)[1] .

وقال أبو حامد الغزالي عن المقدمة المنطقية التي صدر بها كتابه المستصفى :

(وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول، ولا من مقدماته الخاصة به، بـــل هي مقدمة العلوم كلها !! **ومن لا يحيط بها فلا ثقة له بعلومه أصلا !!!**)[2] .

ولا شك أن هذا كلام ساقط ومتهافت، ولوازمه الفاسدة لا تعد ولا تحصـــى، ومن ذلك أنه لا يوثق بعلوم صحابة خير الورى ﷺ، وكذا علوم من جاء بعدهم مـــن أئمة الهدى الذين ماتوا وما طرق سمعهم مجرد اسم الفلسفة بله أن يحيطوا بفنونها، بـــل لم يؤثر عن الذين أدركوها منهم إلا التحذير منها ومن أهلها .

قال ابن عقيل الحنبلي :

(أنا أقطع أن الصحابة ماتوا و لم يعرفوا الجوهر[3] ولا العرض [4] .

---

(١) فصل المقال ص : (٣١) .

(٢) المستصفى من علم الأصول (١/٤٥) .

(٣) يطلق الجوهر عند الفلاسفة على معان، منها : الموجود القائم بنفسه حادثا كان أو قديمـــا، ويقابلـــه العرض . ومنها : الذات القابلة لتوارد الصفات المتضادة عليها، ومنها : الماهية الـــتي إذا وجـــدت في الأعيان كانت لا في موضوع ... .

انظر : معيار العلم للغزالي ص (٣٠٠-٣٠١) (تحقيق دنيا/المعارف/ط٢)، المعجم الفلسفي بمجمع اللغـــة العربية ص (٦٤)، المعجم الفلسفي لصليبا (١/٤٢٤)، وانظر لزاما مجموع الفتاوى (٩/٢٩٨-٢٩٩) .

(٤) العرض عندهم هو : ما قام بغيره وهو ضد الجوهر، أو ما لايدخل في تقويم طبيعة الشيء، أو تقويم ذاته، وهو ضد الماهية .ويطلق على معان أخرى .

=

فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت)[1] .

وقال ابن القيم رحمه الله بعد ذكره فساد المنطق وتناقضه :

(... وما كان من هوس النفوس بهذه المنزلة فهو بأن يكون جهلا أولى منه بأن يكون علما تعلمه فرض كفاية، أو فرض عين !!

وهذا الشافعي وأحمد وسائر أئمة الإسلام وتصانيفهم، وأئمة العربية وتصانيفهم، وأئمة التفسير وتصانيفهم لمن نظر فيها هل راعوا فيها حدود المنطق وأوضاعه ؟ وهل صح لهم علمهم بدونه أم لا ؟ بل هم كانوا أجل قدرا، وأعظم عقولا من أن يشغلوا أفكارهم بهذيان المنطقيين .وما دخل المنطق على علم إلا أفسده، وغير أوضاعه، وشوش قواعده)[2].

والمقصود أنهم لما استطاعوا أن يدسوا على المسلمين هذه الفكرة خطوا **خطوة ثالثة** فاتهموا الشريعة بالقصور، والدين بالنقصان وقالوا : بأن الشريعة وحدها لا تكفي في إيصال الناس إلى مراتب الكمال، بل لا بد وأن تكمل الشريعة المحمدية بالفلسفة اليونانية .

فهؤلاء جماعة إخوان الصفا [3] يصرحون ويقولون :

=

انظر : معيار العلم للغزالي ص : (٣٠١-٣٠٢)، المعجم الفلسفي لمجمع اللغة ص (١١٨)، المعجم الفلسفي لصليبا (٦٨/٢)، وانظر لزاما : مجموع الفتاوى (٢١٥/٥ -٢١٦) (٣٠٠/٩) .

(١) أورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص : (٩٨)، وابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (١٥٢/١) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٨٥/١) .

(٣) جماعة إخوان الصفا وخلان الوفا جماعة سرية باطنية إسماعيلية، ظهرت بالبصرة في القرن الرابع أيام دولة بني بويه، ألفوا رسائل عدة حاولوا فيها مزج الفلسفة بالشريعة، وكتموا أسماء من وضعها ؛لذا اختلف الناس في ذلك قديما وحديثا، وأشهر ما قيل في ذلك أن منهم : أبو سليمان محمد بن معشر البستي

=

(متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال)[1] .

ومفهوم هذا الهذيان أن الاكتفاء بشرعة الرحمن لا يوصل إلى مراتب الكمال، وهذا طعن صريح في كمال الدين واتهام له بالنقصان .

وقد عد بعضهم [2] هذه الخطوة أول عمل جليل فعلته هذه الشرذمة فقال :

(وأول عمل جليل طريف يمكن أن ينسب إلى فلاسفة العرب هو محاولتهم التوفيق بين الفلسفة والدين، **وإن كان للفلسفة عندهم منزلة الصدارة بالقياس إلى الدين** (!!) ما دامت الفلسفة بطبيعتها تتجه إلى الصفوة !! أو الخاصة !! في حين أن الدين بطبيعته إنما يتجه إلى الكافة أو إلى العامة)[3] .

ثم إنهم لم يقفوا عند هذا الحد بل خطوا **خطوة رابعة** فزعموا أن الحقائق إنما تطلب من الفلسفة، وأما الشريعة فهي موضوعة لمخاطبة الجمهور، وإصلاح الرعاع، وأن القرآن لم يأت بالحق في باب التوحيد بل أتى فيه بالتشبيه، كما أغفل ذكر الصواب في سائر أمور الاعتقاد !!

وعليه فعلى النخبة من أهل الذكاء والفطنة أن لا يلتفتوا إلى الشريعة، ولا يقيموا لها وزنا، ولا يرفعوا بها رأسا !!! فهي لم توضع إلا لإصلاح الجماهير وسياسة العوام .

=

ويعرف بالمقدسي، وزيد بن رفاعة، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني، وأبو الحسن العوفي .

انظر : كتاب إخوان الصفا لعمر الدسوقي (دار نهضة مصر/ط٣/بدون تاريخ) .

(١) رسائل إخوان الصفاء (٣/٨٧) .

(٢) هو : الدكتور عثمان أمين مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، والسكرتير العام للجمعية الفلسفية المصرية !!! .

(٣) شخصيات ومذاهب فلسفية لعثمان أمين ص (٤٥) (دار إحياء الكتب العربية/١٣٦٤) .

يقول ابن سينا الملقب عندهم بـ (الشيخ الرئيس !!) في معرض بيان القانون الذي ينبغي أن تعامل به الشريعة :

(أما أمر الشرع فينبغي أن يعلم فيه قانون واحد وهو : أن الشرع والملل الآتية على لسان نبي من الأنبياء يرام بها **خطاب الجمهور كافة** .

ثم من المعلوم الواضح أن التحقيق الذي ينبغي أن يرجع إليه في صحة التوحيد من الإقرار بالصانع موحدا مقدسا عن الكم، والكيف، والأين، والمتى، والوضع، والتغير حتى يصير الاعتقاد به أنه ذات واحدة لا يمكن أن يكون لها شريك في النوع، أو يكون لها جزء وجودي : كمي، أو معنوي، ولا يمكن أن تكون خارجة عن العالم، ولا داخلة، ولا بحيث تصح الإشارة إليها أنها هناك، ممتنع إلقاؤه إلى الجمهور .

ولو ألقي هذا على هذه الصورة إلى العرب العاربة، أو العبرانيين والأجلاف لتسارعوا إلى العناد، واتفقوا على أن الإيمان المدعو إليه إيمان معدوم أصلا ؛ولهذا ورد **التوحيد تشبيها كله، ثم لم يرد في القرآن من الإشارة إلى هذا الأمر الأهم شيء، ولا أتى بصريح ما يحتاج إليه من التوحيد بيان مفصل**، بل أتى بعضه على التشبيه في الظاهر، وبعضه تنزيها مطلقا عاما جدا لا تخصيص ولا تفسير له، وأما أخبار التشبيه فأكثر من أن تحصى، ولكن القوم لا يقبلونها .

وإذا كان الأمر في التوحيد هكذا فكيف فيما هو بعده من الأمور الاعتقادية !!!)[1] .

فكلام هذا الملحد يدور على تقرير ما يلي :

- أن الشريعة الإسلامية، بل وسائر شرائع الأنبياء، لا تصلح إلا لمخاطبة الرعاع الذين هم أتباع كل ناعق، وأما أهل الذكاء والفطنة والعقول الكبيرة !!! فهم مستغنون بذكائهم وعقولهم عن الشريعة، وهي لم تنزل لمخاطبتهم أصلا .

---

(١) رسالة أضحوية في أمر المعاد ص : (٤٤) (تحقيق سليمان دنيا/دار الفكر العربي/ط١/١٣٦٨) .

- أن القرآن قصر في بيان حقيقة توحيدهم، وأغفل ذكر الحق فيما يتعلق بسائر أمور الاعتقاد !!!

وهذا أيضا تصريح واضح من رئيسهم الضال بأن الدين غير كامل، فهو بحاجة إلى الفلسفة التي فيها ذكر حقيقة التوحيد، وكشف ما يحتاج إليه العقلاء في أمور الاعتقاد .

ثم إنهم خطوا **خطوة خامسة** فولوا ظهورهم للدين وتمسكوا بأذيال الفلسفة زاعمين بأنها هي وحدها الكفيلة بسد الفراغ الروحي الذي يعيشه الناس -سواء منهم الخاصة أو العامة !!- في ظل الحضارة المادية، فقال قائلهم :

(الإنسانية أصبح لها اليوم من القوة المادية قسط موفور، ولكن حظها من القوة الروحية والإصلاحية نزر يسير .

والفلسفة في نظرنا هي الكفيلة بسد هذا النقص ؛لأن الفلاسفة هم رافعوا لواء القيم الروحية !! وهم بناة الحضارة بمعناها الإنساني الصحيح، وهم المصلحون الحقيقيون !! وكل إصلاح تم في الماضي، أو سيتم في المستقبل إنما هو أثر من آثار الفلاسفة وأحرار المفكرين !!!

وقد صدق من قال : لولا **أحلام** الفلاسفة في الأزمنة الماضية لكان الناس يعيشون إلى الآن كما كانوا يعيشون قديما عراة في الكهوف ...!!!)[1] .

وهذا الكلام مجرد سرده يكفي في رده، ولو كان لهذا المسكين مسكة من عقل، أو نصيب من الحياء لما سود القلوب والأوراق بمثل هذا الهراء ؛فنظرة إلى التاريخ بإنصاف تبرز أن واقع الفلاسفة أبعد عن القيم والأخلاق، وأبعد عن الصلاح بله الإصلاح[2]، فحياتهم مليئة بالشك والحيرة والاضطراب، كما أن فساد سلوك كثير

---

(١) شخصيات ومذاهب فلسفية لعثمان أمين ص (٣) .

(٢) والحق أن الفلسفة ما أدخلت على شيء إلا أفسدت قواعده، وزعزعت أصوله، إذ إنها تزرع الشك والحيرة، وتذكي أسباب النزاع والفرقة، وقد صرح توفيق الطويل -وهو من فلاسفة العصر- في كتابه : أسس الفلسفة ص : (١٢٦) بأن (وظيفة الفلسفة لا تقوم في وضع حلول للمشاكل، بل تقوم في تفنيد الحلول الموضوعة للمشاكل !!) فهي بذلك وسيلة هدم وتشكيك، لا سبيل صلاح وإصلاح .

منهم أشهر من أن يذكر، فليست الفلسفة ثمرة عقول سليمة ومتزنة حتى تتخذ سبيلا للإصلاح، بل هي ثمرة عقول مليئة بالشك والحيرة، وفيها لوثة من فساد وخبل، فهي لذلك طريق ضلال وإضلال .

وأما زعمه بأن كل صلاح صحيح تم في الماضي إنما هو من آثار الفلاسفة !! فهو مجرد افتراء ؛فإن أعظم إصلاح شهده التاريخ هو الذي وقع على يد سيد الأنبياء، وقد كانﷺ أميا لا يعرف القراءة والكتابة بله أن يعرف الفلسفة، ولكنه كان نبيا ينزل عليه الوحي من رب الأرض والسماء .

وقد شهد بهذا غير واحد من الأعداء فضلا عن الأتباع والأخلاء، وإليك على سبيل المثال لا الحصر شهادة أحدهم إذ يقول :

(إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا : إن محمدا كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء !! وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقل أن نجد إنسانا غيره حقق كل ما كان يحلم به .

وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ....، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان، قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة، وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق دين اليهودية، والمسيحية، ودين بلاده القديم، دينا سهلا واضحا قويا، وصرحا خلقيا قوامه البسالة والعزة القومية !! واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم !!) [1] .

---

(١) قصة الحضارة للمسيحي ول ديورانت (٤٧/١٣) (مطابع الرجوى، القاهرة/ط٣/١٩٧٤م) .وفي النص أشياء كثيرة مردودة، منها قوله بأن محمدا ﷺ عظيم من العظماء، فهو لا يعتقد فيه أنه نبي من الأنبياء، =

وأما زعمه بأن الإصلاح الذي سيكون في المستقبل فسيكون على يد الفلاسفة والمفكرين الأحرار !! فهو مجرد دعوى بلا جدوى، ورجم بالغيب، وجري وراء السراب ؛فكل إصلاح حقيقي وقع في الماضي إنما كان بوحي منزل وعلى يد نبي مرسل، ولا سبيل في المستقبل إلى أي صلاح ولا إصلاح إلا بالتمسك بالإسلام الصحيح .

والمقصود أن خلاصة ما يدور عليه كلام هذه الشرذمة هو تبجيل الفلسفة والفلاسفة، وأن شرائع الأنبياء لا تصلح إلا لمخاطبة العوام وجمهور الأنام، كما أنها عرية عن ذكر الحقائق في أبواب العقائد، فهم لا يعتقدون فيها أنها من وحي رب السماء المحيط علمه بجميع الأشياء، وأنها جاءت بكل ما يحتاجه الناس لصلاح دينهم ودنياهم .وقد أصلوا أصولا كثيرة لتقرير هذيانهم، سأذكر بعضها في المطلب التالي :

=

وأشياء أخرى لا أريد أن أطيل بالتنبيه عليها . وعموما لابد من التنبه لكلام أمثال هذا ؛فإنه يحمل في طياته سموما مدسوسة تغطى ببعض العبارات التي فيها المدح والثناء .

المطلب الأول : الأصول التي خرم بها الفلاسفة القاعدة :

مما لا شك فيه أن الفلاسفة لما أطلقوا العنان لعقولهم، وولوا الشرع ظهورهم كثر خبطهم وضلالهم، وتعددت سخافاتهم وتمويهاتهم، فلا يخلوا تتبع أصولهم التي قرروا بها الباطل من تطويل ؛لذا آثرت أن يكون الكلام على أصول ثلاثة، لها بالموضوع علاقة وطيدة، وهي :

الأصل الأول : جعلوا أنفسهم الأصل الذي يفرعون عليه :

إن أساس فتنة هذه الشرذمة، والمدخل الذي ولج منه إبليس عليهم أنهم اعتقدوا في أنفسهم التميز عن سائر الناس بمزيد الفطنة والذكاء، وظنوا أنهم يستطيعون الوصول بعقولهم إلى إدراك الحقائق من غير حاجة إلى وحي ينزل من السماء، بل إنهم يزعمون أن الطرق التي يسلكونها أفضل من طرق الأنبياء !! إذ يدعون أنهم يسلكون طريق المعقول والبرهان المنطقي!! بخلاف الدين الذي يعتمد على التخيل والإقناع النفسي !!

قال بعض المتفلسفين في هذا العصر :

(الفلسفة والدين يعبران عن حقيقة واحدة من وجهين مختلفين !! وكل ما في الأمر أن الفلسفة في سعيها للوصول إلى الحقيقة تستعمل وسائل غير الوسائل التي يعمد إليها الدين؛ ففي حين أن الدين يلجأ إلى طرق التخيل، والإقناع النفسي، تلجأ الفلسفة إلى المعقولات والبرهان المنطقي، وبينا الفلسفة بطبيعتها تتجه إلى الخاصة وأصحاب الأذهان الصافية !! نجد الدين إنما يتجه إلى الكافة والجمهور على حسب ما يطيقون !!!)[1] .

فاستهانوا بالدين، وأعرضوا عن تعاليمه، وترفعوا عن حججه وبراهينه، زاعمين أنها لا تصلح لمخاطبة أمثالهم، ولا لإقناع من هو على شاكلتهم من ذوي الفطنة وأهل الذكاء !!

---

(١) شخصيات ومذاهب فلسفية لعثمان أمين ص (٥٦) .

وإنما هي لمخاطبة العوام، وإقناع الطغام أصحاب العقول السادجة، والنفوس الضعيفة . ومما زاد في غيهم وضلالهم أنهم طرق أسماعهم كثرة الثناء على أسلافهم من الفلاسفة اليونانيين بقوة العقل، ووفور الذكاء، ودقة العلوم، ووجدوهم فعلا قد أصابوا الحق في بعض الأمور الطبيعية، والرياضية، ونحوها مما له تعلق بالأمور المشاهدة والمحسوسة، فانبهروا بهم واتخذوهم أسوة وقدوة[1]، وأخذوا عنهم من غير تمييز ولا تمحيص كل ما نقل عنهم، ومن ذلك آراءهم في العقائد التي خاضوا فيها بالظن والتخمين، واستدلوا بصحة أقوالهم في العلوم الطبيعية والرياضية ونحوها على صحة أقوالهم في العقائد والأمور الغيبية، فوقعوا في أقبح مما فروا منه ؛إذ (تحملوا باعتقاد الكفر، تحيزا إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخراطا في سلكهم، وترفعا عن مسايرة الجماهير والدهماء، واستنكافا من القناعة بأديان الآباء، ظنا بأن إظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد عن تقليد خرق وخبال، فأية رتبة في عالم الله أخس من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليدا، بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقا، دون أن يقبله خبرا وتحقيقا، والبله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة، فليس في سجيتهم حب التكايس بالتشبه بذوي الضلالات، فالبلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حولاء)[2] .

---

(١) بل بلغ بهم الغلو في تقديسهم إلى حد لا يتصور العاقل وقوعه ممن شم للعلم رائحة، فهذا ابن رشد يقول عن أرسطو : (هذا الرجل العجيب جدير بما جمع الله فيه من الحكمة بأن يسمى الرجل الإلهي !!!) ويقول عن مذهبه : (إن مذهب أرسطو هو الحق الأعلى، وغاية ما وصل إليه الكمال الإنساني !!!)، وهذ ابن سبعين يقول : (كأن أرسطو هو الرجل الإلهي الذي لا يخطيء في شيء !!!!) .
انظر كتاب : من أفلاطون إلى ابن سينا لجميل صليبا ص : (٤٧-٤٨) .

(٢) قاله الغزالي في مقدمة كتابه تهافت الفلاسفة ص : (٧٤) .

قال ابن الجوزي رحمه الله :

(وقد لبس إبليس على أقوام من أهل ملتنا فدخل عليهم من باب قوة ذكائهم وفطنتهم فأراهم أن الصواب اتباع الفلاسفة لكونهم حكماء قد صدرت منهم أفعال وأقوال دلت على نهاية الذكاء وكمال الفطنة، ...، وكانت لهم علوم هندسية ومنطقية وطبيعية واستخرجوا بفطنهم أمورا خفية إلا أنهم لما تكلموا في الإلهيات خلطوا، ولذلك اختلفوا فيها ولم يختلفوا في الحسيات والهندسيات)[1] .

والمقصود أنهم جعلوا أنفسهم وعقولهم الأصل الذي يعتمدون عليه في إدراك العلوم، وإثبات العقائد، واعتقدوا أن الدين قاصر عن تحقيق تلك المطالب بالدلائل العقلية، والبراهين المنطقية .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(وأما الطريقة الفلسفية الكلامية : فإنهم ابتدءوا بنفوسهم فجعلوها هي الأصل الذي يفرعون عليه، والأساس الذي يبنون عليه، فتكلموا في إدراكهم للعلم أنه تارة يكون بالحس، وتارة بالعقل، وتارة بهما)[2] .

فنظرا لعدم إيمانهم باشتمال الدين على الحجج والبراهين الكفيلة بإقناع جميع أصناف الناس، عولوا لمعرفة الحق على عقولهم المنكوسة، واعتمدوا على آرائهم المعكوسة، وبصائرهم المطموسة، ولا شك أن هذا ينافي الإيمان بكمال الدين، بل وينافي الإيمان بالله جل وعلا، والإيمان برسول الله ﷺ ؛لذا قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(من المعلوم أن المؤمن بالله ورسوله لا يستجيز أن يقول في الرسالة : إنها عاجزة عن تحقيق العلم وبيانه، حتى يكون الإقرار بها مع تحقيق العلم الإلهي من غيرها

---

(١) تلبيس إبليس ص : (٥٩-٦٠) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢/٢٠) .

موجبا لصلاح الدين، ولا يستجيز أن يتعدى عليها بالتقدم بين يـــدي الله ورســـوله، ويقدم علمه وقوله على علم الرسول وقوله، ولا يستجيز أن يسلط عليها التـــأويلات العقلية، ويدعي أن ذلك من كمال الدين، وأن الدين لا يكون كاملا إلا بذلك)[1] .

ومن عرف موقفهم وتصورهم للنبوة والوحي لا يستغرب من تأصيلهم لمثـــل هذا الأصل، واستغنائهم بأنفسهم عن الشرع والدين .

وعليه فمن المناسب جدا أن أذكر رأيهم في ذلك وموقفهم منه في الآتي .

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/٩٠) .

الأصل الثاني : الطعن في الوحي، وادعاؤهم أن النبوة تكتسب :

إن (الإيمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة، فمن لم يحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال، والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب)[1] .وهذه حال الفلاسفة الذين ينتسبون إلى الإسلام فهم يعيشون في حيرة واضطراب، ولا يكادون يميزون بين خطأ وصواب، لأنهم وقفوا من الوحي والنبوة موقفا شاذا يخرج من اعتقده من الملة بلا مرية .فبالرغم من زعمهم بأنهم يثبتون النبوة، ويقولون بضرورتها، إلا أن من اطلع على حقيقة مذهبهم يعلم أنهم من أضل الناس وأبعدهم عن الإيمان بها [2] .

وخلاصة مذهبهم في النبوة أنها فيض يفيض على الإنسان من العقل الفعال متى كان متميزا في قوتيه العلمية، والعملية، وعنده استعداد خاص لاتصال نفسه بالنفوس الفلكية اتصالا روحيا[3] في يقظته كاتصال سائر الناس بها في حال النوم إذا رأى أحدهم رؤيا فعرف بعد تعبيرها ما الذي سيقع في المستقبل، ولقد (زعموا أن الاتصال بتلك النفوس مبذول ؛إذ ليس ثم حجاب، ولكنا في يقظتنا مشغولون بما تورده الحواس والشهوات علينا، فاشتغالنا بهذه الأمور الحسية صرفنا عنه، وإذا سقط عنا في النوم بعض اشتغال الحواس ظهر به استعداد ما للاتصال)[4] .

---

(١) قاله شيخ الإسلام في كتاب النبوات (١/٥٠٧) .

(٢) لقد كان شيخ الإسلام رحمه الله كثيرا ما يركز على إظهار حقيقة مذهب هؤلاء في النبوة؛ لهذا كرر ذلك في مواطن عدة من كتبه، ومن ذلك ما ذكره في بغية المرتاد ص : (٣٨٤)، الرد على المنطقيين ص : (٤٨٣)، وشرح حديث النزول ص : (٤٢١)، والصفدية (١/٥، ١٣٤،١٦٣،٢٢٨)، ومنهاج السنة (٢/٤١٥) (٥/٤٣٤)، ودرء تعارض العقل والنقل (٥/٣٥٣) (١٠/٢٠٤)، وكتاب النبوات (١/٥٠٤) (٢/٦٩٤، ٧٠٠، ٧١٣) ... .

(٣) انظر المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية ص : (٢١٢) .

(٤) تهافت الفلاسفة ص : (٢٢٨) .

فهم يرون أن النبي هو الذي تكون عنده قوة علمية، وقوة عملية، وقوة نفسية تجعله لا ينشغل بما تورده الحواس والشهوات فيرى في اليقظة ما يراه غيره في النوم . فلا بد للنبي عندهم أن يكون أكمل من غيره في هذه القوى الثلاث :

١- قوة الحدس التي يسمونها بالقوة القدسية، أو القوة النظرية العقلية وهي : سرعة الانتقال من معلوم إلى معلوم، فرب ذكي إذا ذكر له المدلول تنبه للدليل، وإذا ذكر له الدليل تنبه للمدلول .

وبعبارة أخرى هي : قوة علمية عقلية تجعل النبي من أذكى الناس بحيث يحصل له من العلم بسهولة ما لا يحصل لغيره إلا بكلفة شديدة، وتجعله لا يحتاج في المعقولات إلى معلم، بل كأنه يتعلم من نفسه [١] .

قال ابن سينا :

(اعلم أن التعلم سواء حصل من غير المتعلم، أو حصل من نفس المتعلم ؛فإن من المتعلمين من يكون أقرب إلى التصور ؛لأن استعداده الذي قبل الاستعداد الذي ذكرناه أقوى، فإن كان ذلك الإنسان مستعدا للاستكمال فيما بينه وبين نفسه سمي هذا الاستعداد القوي حدسا .وهذا الاستعداد قد يشتد في بعض الناس، حتى لا يحتاج في أن يتصل بالعقل الفعال إلى كبير شيء، وإلى تخريج وتعليم، بل يكون شديد الاستعداد لذلك، كأن الاستعداد الثاني حاصل له، بل كأنه يعرف كل شيء من نفسه .وهذه الدرجة أعلى درجات هذا الاستعداد .ويجب أن تسمى هذه الحال من الفعل الهيولاني عقلا قدسيا، وهو من جنس العقل بالملكة، إلا أنه رفيع جدا، ليس مما يشترك فيه الناس كلهم ...

إلى أن قال : (.. وهذا ضرب من النبوة، بل أعلى قوى النبوة، والأولى أن تسمى هذه القوة قوة قدسية، وهي أعلى مراتب الإنسانية)[٢] .

---

(١) انظر : تهافت الفلاسفة ص : (٢٣٦-٢٣٧)، الصفدية لشيخ الإسلام (٦/١)، الصواعق المرسلة (٨٨٠/٣) .

(٢) كتاب النجاة ! لابن سينا ص : (١٦٦-١٦٨)، وانظر : الملل والنحل للشهرستاني (٢٢١/٢) فقد نقل فيه كلام ابن سينا هذا لكن بعبارة أوضح، إذ غاية ما فعله الشهرستاني في عرض أقوال الفلاسفة =

٢- قوة التخيل والتخييل والحس الباطن، وهي التي يزعمون أنها إذا قويت وتغلبت على ما تورده الحواس والشهوات فلم تنشغل بها اطلعت على اللوح المحفوظ الذي يسمونه بالنفس الفلكية فانطبعت فيها صور الجزئيات الكائنة في المستقبل، فيتمثل له يقظة ما يعلمه في نفسه فيراه ويسمعه، فيرى في نفسه صورا نورانية هي عندهم ملائكة الله، ويسمع في نفسه أصواتا هي عندهم كلام الله .

قال سيف الدين الآمدي [1] :

(وليس ما يراه النبي من اختلاف صور الملك لتبدل حقيقته أو لتبدل صورته وشكله، بل الذي يظهر أنها أنوار روحانية، وجواهر عقلية، تظهر في الخيال على اختلاف تلك الأشكال، ويكون تعلقها به في ضرب المثال على نحو تعلق الأنفس الناطقة بالأبدان، فإذا اشتد صفاء نفسه، بحيث صارت متصلة بعالم الغيب، انطبعت تلك الأشكال في القوة الخيالية، وارتقمت فيها تلك الكمالات اللاهوتية، ثم انطبع مثل حصل في الخيال من الإدراكات الظاهرة في الحواس الباطنة، فإذ ذاك يرى من الأشخاص والصور، ويسمع من الأصوات ما تتقاصر عن الإحاطة به قوى البشر، فما يراه من الصور هي ملائكة الله، وما يسمعه من الكلام هو كلام الله ووحيه الموحى به إليه !!! .

=

المنتسبين إلى الإسلام في كتابه الملل والنحل أنه ذكر نبذا من كلام ابن سينا في كتابه النجاة، إلا أنه اختصره وعبر بعبارات أفصح من عبارات ابن سينا .انظر :منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل للسحباني ص : (٥٩٢) .

(١) هو : علي بن أبي علي بن محمد، أبو الحسن، سيف الدين، التغلبي، الآمدي، الحنبلي ثم الشافعي .ولد سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وتوفي سنة إحدى وثلاثين وستمائة .ذكر عنه الذهبي بأنه تفنن في حكمة الأوائل فرق دينه واظلم، وكان يتوقد ذكاء .له مؤلفات عدة منها : (أبكار الأفكار) في الكلام، و(منتهى السول في الأصول) وغيرهما .

انظر : السير (٢٢/٣٦٤)، طبقات الشافعية الكبرى (٤/٨٥) .

وأقرب مثال يقربه إلى الذهن، ويصوره في الوهم ما نشاهده في بعض النـاس ؛ فإنه قد يقل شواغله البدنية، وينصرف عن اشتغاله بمتعلقات حواسه الظاهرة بسـبب يبوسة تغلب على مزاجه، أو لأمر ما بحيث يصير كالمبهوت، وحينئذ قد يـرى مـن الصور ويسمع من الأصوات حسب ما يراه النائم في منامه، وإن كان مستيقظا، بـل ومثل هذا قد وجد لبعض المرضى والمصروعين، وبعض المتكهنين !!!

والمقصود من هذا إنما هو التقريب بالمثال، وإلا فهذه صفة نقص، والأولى صفة تمام وكمال)[1] .

٣- القوة النفسية العملية التي إذا بلغت أوجها تصرف بها صاحبها في مـواد العالم وعناصره (أو هيولي[2] العالم بتعبيرهم) فيقلب بعضها إلى بعض .

قال أبو حامد الغزالي :

(مثاله أن النفس منا متى توهمت شيئا خدمتها الأعضاء والقوى الـتي فيـها، فتحركت إلى الجهة المتخيلة المطلوبة ؛حتى إذا توهمت شيئا طيب المذاق تحلبت أشداقه، وانتهضت القوة الملعبة فياضة باللعاب من معادنه، وإذا تصورت الوقـاع انتـهضت القوة، فنشرت الآلة، بل إذا مشى على جذع ممدود على فضاء، طرفاه على حـائطين، اشتد توهمه للسقوط فانفعل الجسم بتوهمه وسقط، ولو كان على الأرض لمشى عليـه ولم يسقط .

ذلك لأن الأجسام والقوى الجسمانية خلقت خادمة مسخرة للنفوس، ويختلف ذلك باختلاف صفاء النفوس وقوتها، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حد تخدمها القوة الطبيعية في غير بدنه ؛لأن نفسه ليست منطبعة في بدنه إلا أن لها نوع نزوع وشـوق

---

(١) غاية المرام في علم الكلام للآمدي ص : (٣٢٥)، قال محقق الكتاب حسن محمود عبد اللطيف في قـول الآمدي هذا : (لعله من بين ما تمسك به خصومه في اتهامه بدين الأوائل) .

(٢) هيولي : كلمة يونانية الأصل،ويراد بها المادة الأولى، وهي كل ما يقبل الصورة .
انظر :المعجم الفلسفي لمجمع اللغة ص : (١٦٣،٢٠٨) .

إلى تدبيره، خلق ذلك في جبلته، فإذا جاز أن تطيعها أجسام بدنها لم يمتنع أن يطيعها غيرها ...)[1] .

فهذا حقيقة مذهبهم في النبوة، وفي الآتي بعض النقول التي تؤكد صحة نسبة ذلك إليهم :

يقول إخوان الصفا :

(اعلم أن الشريعة الإلهية هي جبلة روحانية تبدو من نفس جزئية في جسد بشري بقوة عقلية **تفيض عليها من النفس الفلكية** بإذن الله تعالى في دور من الأدوار والقرانات، وفي وقت من الأوقات، لتجذب بها النفوس الجزئية، وتخلصها من أجساد بشرية متفرقة ليفصل بينها يوم القيامة)[2] .

وقال أبو حامد الغزالي في بيان أصول المعجزات عندهم :

(هي ثلاث خواص :

الخاصة الأولى : في قوة النفس في جوهرها، بحيث تؤثر في هيولي العالم بإزالة صورة وإيجاد صورة، بأن تؤثر في استحالة غيرها، ويؤثر في استحالة الهواء غيما، ويحدث مطرا كالطوفان، أو بقدر الحاجة للاستسقاء، أو ما يجري مجرى ذلك، وهو ممكن ...

الخاصة الثانية : للقوة النظرية، هي أن تصفو النفس صفاء يكون شديد الاستعداد والاتصال بالعقل الفعال حتى يفيض عليها العلوم ؛فإن النفوس منقسمة إلى ما يحتاج إلى التعليم، وإلى ما يستغني عنه، والمحتاج إلى التعليم منه ما لا يؤثر فيه التعليم

---

(١) تهافت الفلاسفة ص (٢٣٧) (تحقيق دنيا/دار المعارف/ط٧)،وقد ذكر الغزالي هذا بيانا لمذهب الفلاسفة لكنه عقب عليه بقوله : (ونحن لا ننكر شيئا مما ذكروه، وأن ذلك مما يكون للأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وإنما ننكر اقتصارهم عليه)، فقد صرح بأنه يوافقهم على كون النبوة لها ثلاث خواص، كما أنه التزم مذهبهم هذا في بعض كتبه الأخرى، مثل كتابه المضنون به على غير أهله ص : (٨٩-٩٢) .

(٢) رسائل إخوان الصفا (١٢٩/٤) .

وإن طال تعبه، ومنه ما يتعلم سريعا .وقد يوجد من يستنبط الشيء من نفسه من غير معلم، بل العلوم كلها لو تؤملت لوجدت مستنبطة من النفوس ؛فإن المعلم الأول لم يكن متعلما من معلم، بل يرتقي ذلك إلى من عرف نفسه، ...، فمن انكشفت له المعقولات كلها في قصير من غير تعلم يقال : إنه نبي أو ولي، ويسمى ذلك كرامة أو معجزة للنبي، وهو ممكن وليس بمحال ...

الخاصة الثالثة : للقوة المتخيلة : أن النفس قد تقوى كما سبق، وتتصل في اليقظة بعالم الغيب، وتحاكي المتخيلة ما أدركت بصورة جميلة، وأصوات منظومة، فيرى في اليقظة ويستمع ما كان يراه ويسمعه في النوم للسبب الذي ذكرناه، فتكون الصورة المحاكية المتخيلة للجوهر الشريف صورة عجيبة في غاية الحسن، وهو الملك الذي يراه النبي أو الولي، أو تكون المعارف التي تصل إلى النفس من اتصالها بالجواهر الشريفة يتمثل بالكلام الحسن المنظوم الواقع في المس المشترك، فيكون مسموعا .فهذا أيضا ممكن غير مستحيل .

فهذه طبقات النبوة، ومن أجمعت له هذه الثلاث فهو النبي الأفضل، وهو في الدرجة القصوى من درجات الإنسان، وهي متصلة بدرجات الملائكة)[1] .

إذا تبين ما تقدم فإن مما يظهر فساد مذهب هذه الشرذمة هو بطلان وشناعة لوازمه ؛ إذ يلزم من قولهم في الوحي والنبوة من اللوازم الفاسدة ما لا يعد ولا يحصى، منها :

١/ أن النبوة أمر يكتسب بالرياضة والمجاهدة وتجويع النفس والسياحة في الأرض ونحو ذلك، وقد صرح بعضهم بأنها صناعة، إلا أنه جعلها من أصعبها .

---

(١) مقاصد الفلاسفة للغزالي ص : (٣٨٠-٣٨٣ بتصرف) (تحقيق دنيا/دار المعارف)، ومن الأمانة التنبيه على أن الغزالي صرح في آخر كتابه هذا بأنه حكى علومهم وأقوالهم من غير اشتغال بتمييز الغث من السمين والحق من الباطل، فهو هنا يتكلم على لسانهم ويشرح مذاهبهم .

قال ابن القيم رحمه الله :

(الأنبياء عندهم من جنس غيرهم من البشر، ونبواتهم من جنس صنائع النلس وسياستهم ورياضتهم، حتى قال أقرب هؤلاء إلى الإسلام :

اعلم أن أصول الصناعات أربعة : صنعة التجارة والحدادة والنساجة والسياسة، وأصعبها صنعة السياسة، وأصعب هذه الصناعة صناعة النبوة .هذا كلامه بعينه في كتابه)[1] .

٢/ أن ما ذكروه من الخصائص لا يختص بها الأنبياء، بل يوجد من الناس من يشاركهم فيها ؛لهذا فإن من الفلاسفة من يفضل الفيلسوف على النبي ﷺ، ومنهم من يدعي الاستغناء عنه وأنه يأخذ مما يأخذ منه الأنبياء، بل إن كثيرا منهم طمع في نيل النبوة، ورام ذلك أيضا بعض من تأثر بهم واعتقد صحة مذهبهم .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(المتفلسفة تثبت النبوة على أصلهم الفاسد : أنها قوة قدسية تختص بها بعض النفوس لكونها أقوى نيلا للعلم، وأقوى تأثيرا في العالم، وأقوى تخيلا لما تعقله في صور متخيلة، وأصوات متخيلة .وهذه الثلاثة هي عندهم خاصة النبي، ومن اتصف بها فهو نبي : القوة القدسية العلمية، والتأثير في الهيولي، وما يتخيله في نفسه من أصوات هي كلام الله، ومن صور هي عندهم ملائكة الله .

ومعلوم عند من اعتبر العالم أن هذا القدر يوجد بكثير من آحاد الناس، وأكثر الناس لهم نصيب من هذه الثلاثة ؛ولهذا طمع كثير من هؤلاء في أن يصير نبيا، ولهذا قال هؤلاء إن النبوة مكتسبة)[2] .

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/٨٨٠-٨٨١) .

(٢) منهاج السنة (٥/٤٣٤-٤٣٥) .

٣/ أنهم جعلوا ما يحصل للأنبياء من جنس ما يحصل للمجانين والسحرة، ولم يفرقوا بينهما إلا من جهة أن النبي يأمر بالخير، والساحر يأمر بالشر، وأن المجنون ناقص العقل بخلاف النبي فهو كامل العقل، قال تعالى في وصف حال سلف هؤلاء مع الأنبياء عليهم السلام :

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ ﴾[1] .

٤/ أن النبوة عندهم من جنس ما يحصل لسائر الناس الذين يرون في مناماتهم ما يرون .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(إن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم، وهو المنام، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط، ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي)[2] .

٥/ أن الملائكة لا حقيقة لها، بل هي خيالات تنطبع في القوة الخيالية للنبي إذا صفت نفسه فيراها على شكل أنوار، وما يسمعه من الأصوات في تلك الحال هو الذي يطلق عليه كلام الله، فالله جل وعلا عندهم ليس له كلام حقيقة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(إنهم لما أرادوا تقرير النبوة جعلوها فيضا يفيض على نفس النبي من العقل الفعال أو غيره، من غير أن يكون رب العالمين يعلم له رسولا معينا، ولا يميز بين موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، ولا يعلم الجزئيات، ولا نزل من عنده ملك، بل جبريل هو خيال يتخيل في نفس النبي، أو هو العقل الفعال ...)[3] .

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان (٥٢-٥٣) .

(٢) النبوات (٢/٦٩٤) .

(٣) شرح حديث النزول ص : (٤٢٠) .

وخلاصة الكلام أن هؤلاء الملاحدة لم يجدوا بدا وهم يعيشون بين المسلمين أن يتجملوا في الظاهر بالإسلام، ويظهروا الإقرار بالرسالة والإيمان بالنبوة، فأقروا منها بالاسم حتى لا يتهموا بالكفر، ثم أنكروا حقيقتها، وزعموا أنها تكتسب بصقل المواهب، ورياضة النفوس، وشحذ القوى الكامنة فيها، فتكون النتيجة أن بإمكان ذوي الهمم العالية الوصول إلى تلك المرتبة السنية، والاستغناء عن الشريعة والنبوة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(أئمة الملاحدة يعلمون في الباطن أن ما يقولونه مناقض لما جاء به محمدﷺ . وهم يخالفونه لاعتقادهم أنه وضع ناموسا بعقله وفضيلته، فيجوز لنا أن نضع ناموسا كما وضع ناموسا ؛إذ كانت النبوة عندهم مكتسبة، وهي عندهم من جنس فضيلة العلماء العباد، والشرائع من جنس سياسة الملوك العادية .فيجوزون أن تنسخ شريعته بشريعة يضعها الواحد من أئمتهم .ويقولون : إن الشريعة إنما هي للعامة فأما الخاصة إذا علموا باطنها فإنه تسقط عنهم الواجبات وتباح لهم المحظورات)[1] .

ومما يبين أن القوم قد نزلوا إلى الحضيض، وبلغوا في الإلحاد والضلال إلى أدنى الدركات أنهم لم يقتصروا على القول بإمكانية الوصول إلى مرتبة النبوة بل تعدوا ذلك فذكروا أن من اجتمعت فيه أمور شرطوها كاد أن يكون ربا إنسانيا فتحل عبادته !!

يقول رئيسهم ابن سينا :

(الفضائل ثلاثة : هيئة التوسط في الشهوانية، مثل لذة المنكوح، والمطعوم، والملبوس والراحة، وغير ذلك من اللذات الحسية والوهمية .

وهيئة التوسط في الغضبيات كلها، مثل الخوف، والغضب، والغم، والأنفة، والحقد، والحسد، وغير ذلك .

وهيئة التوسط في التدبيرية .

---

(١) منهاج السنة (٤/٥٢٠) .

ورؤوس هذه الفضائل : عفة، وحكمة، وشجاعة .ومجموعها العدالة، وهي خارجة عن الفضيلة النظرية، ومن اجتمعت له معها الحكمة النظرية فقد سعد، ومن فاز مع ذلك بالخواص النبوية **كاد أن يصير ربا إنسانيا !! وكاد أن تحل عبادته بعد الله تعالى !!** وهو سلطان العالم الأرضي، وخليفة الله فيه)[1] .

فمن كان فيلسوفا، وعادلا، واكتسب خواص النبوة صار عند هؤلاء الملاحدة ربا يستحق العبادة .

(١) الشفا (الإلهيات ٢/٤٥٥) (تحقيق مجموعة من الباحثين/الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية/١٣٨٠).

الأصل الثالث : الطعن في وجود الله، واعتباره من الخيالات .

مما لا ينكر أن الفلاسفة الذين ينتسبون إلى الإسلام يظهرون الإيمان بالله جل وعلا، ويوجد ذكر اسمه في كتبهم، وربما أوردوا الأدلة لإقناع من يحاول إنكار وجوده، لكن المتتبع لأقوالهم في الإله الذي يؤمنون به يجد أنهم يؤمنون برب غير الرب الذي يؤمن به العقلاء، وبيان ذلك من خلال الأمور التالية:

١/ أن الإله الذي يؤمنون به لا وجود له إلا في الأذهان، وأما في الخارج فلا حقيقة له ؛ذلك لأن منهم من يجعل وجوده وجودا مطلقا بشرط الإطلاق، ومنهم من يقول هو الوجود المطلق لا بشرط، وابن سينا ومن تبعه يجعلون وجوده هو الوجود المطلق بشرط نفي الأمور الثبوتية [١] .

يقول ابن سينا :

(الأول لا ماهية له، وذوات الماهيات يفيض عليها الوجود منه، **فهو مجرد الوجود بشرط سلب العدم وسائر الأوصاف عنه**)[٢] .

(فمنتهى نظرهم وآخر فلسفتهم وحكمتهم هو الوجود المطلق الكلي، والمشروط بسلب جميع الأمور الوجودية)[٣]، ومعلوم أن الكلي من حيث هو كلي، (والمطلق بشرط الإطلاق، أو بشرط سلب الأمور الثبوتية، أو لا بشرط مما يعلم بصريح العقل انتفاؤه في الخارج، وإنما يوجد في الذهن، وهذا مما قرروه في منطقهم اليوناني، وبينوا أن المطلق بشرط الإطلاق، كإنسان مطلق بشرط الإطلاق، وحيوان مطلق بشرط الإطلاق، وجسم مطلق بشرط الإطلاق، ووجود مطلق بشرط الإطلاق : لا يكون إلا في الأذهان دون الأعيان) [٤] .

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢٨٥/١)، ومجموع الفتاوى (٢٥/٢، ٢٩٥) .

(٢) الشفا (الإلهيات ٣٤٧/٢) .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى (٢٢٨/٩)، والرد على المنطقيين ص : (٣٠٩) .

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٢٨٦/١)، وانظر : مقاصد الفلاسفة للغزالي ص : (١٧٧)، وشرح حديث النزول ص : (٩٦-١٠٢)، ودرء تعارض العقل والنقل (٩٦/٦-٩٧) وفيه أن قول ابن سينا أبلغ الأقوال في كونه معدوما .

فحقيقة قولهم أنه ليس لله وجود أصلا ؛لذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(لم يكن عند القوم إيمان بالغيب الذي أخبرت به الأنبياء، فهم لا يؤمنون لا بالله، ولا بملائكته، ولا كتبه، ولا رسله، ولا البعث بعد الموت .وإذا قالوا : نحن نثبت العالم العقلي، أو المعقول الخارج عن المحسوس، وذلك هو الغيب ؛فإن هذا —وإن كان ذكره طائفة من المتكلمة والمتفلسفة- خطأ وضلال ؛فإن ما يثبتونه من المعقولات إنما يعود عند التحقيق إلى أمور مقدرة في الأذهان لا موجودة في الأعيان .

والرسل أخبرت عما هو موجود في الخارج وهو أكمل وأعظم وجودا مما نشهده في الدنيا، فأين هذا من هذا ؟! ...)[1] .

ومما يؤكد أن وجود الله عندهم وجود ذهني فقط هو ما ذكروه من سلب أوصافه، فهو عندهم مقدس عن الكم، والكيف، والأين، والمتى، والوضع، والتغير، وأنه ذات واحدة لا يمكن أن تكون خارج العالم ولا داخله، ولا بحيث تصح الإشارة إليها أنها هناك[2]، كما أنه لا ماهية له، ولا جنس له، ولا فصل له، ولا حد له، ولا برهان عليه ،...، إلى سلسلة من السلوب التي لا تكاد تنتهي، والتي تؤدي إلى أنه ليس ثم إله يستحق أن يعبد.

قال ابن سينا :

(الأول لا جنس له، ولا ماهية له، ولا كيفية له، ولا كمية له، ولا أين له، ولا متى له، ولا ند له، ولا شريك له، ولا ضد له، تعالى وجل، وأنه لا حد له، ولا برهان عليه، بل هو البرهان على كل شيء، بل إنما عليه الدلائل الواضحة، وأنه إذا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣٢/٩) .

(٢) تقدم نقل هذا الكلام عن ابن سينا ص : (٢٧٣) .

حققته فإنما يوصف بعد الإنية بسلب المشابهات عنه، وبإيجاب الإضافات كلها إليه ؛ فإن كل شيء منه وليس هو مشاركا لما منه، وهو مبدأ كل شيء وليس هو شيئا من الأشياء)[1] .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(إن الواحد الذي يثبته هؤلاء لا يتحقق إلا في الأذهان لا في الأعيان، ولهذا لما بنى الفلاسفة الدهرية على قولهم بأن الواحد لايصدر عنه إلا واحد، كان من أول ما يبين فساد قولهم أن الواحد الذي ادعوا فيه ما ادعوا لا حقيقة له في الخارج، بل يمتنع وجوده فيه، وإنما يقدر في الأذهان كما يقدر سائر الممتنعات .

وكذلك سائر الجهمية والمعتزلة نفاة الصفات لما أثبتوا واحدا لا يتصف بشيء من الصفات كانوا عند أئمة العلم الذين يعرفون حقيقة قولهم : **إنما توحيدهم تعطيل مستلزم لنفي الخالق، وإن كانوا قد أثبتوه فهم متناقضون، جمعوا بين ما يستلزم نفيه وما يستلزم إثباته**، ولهذا وصفهم أئمة الإسلام بالتعطيل وأنهم دلاسون، ولا يثبتون شيئا، ولا يعبدون شيئا، ونحو ذلك)[2] .

٢/ أنهم لا يثبتون لله مشيئة، وإرادة، واختيارا، وقدرة بها يقدر على تغيير العالم وتحويله من حال إلى حال، ولا يثبتون علمه بتفاصيل أحوال العالم، بل منهم من يقول لا يعلم شيئا، ومنهم من يقول لا يعلم إلا نفسه، ومنهم من يقول يعلم الجزئيات على وجه كلي بحيث لا يدخل تحت الزمان، ولا يختلف بالماضي والمستقبل والآن [3]،

---

(١) الشفا (الإلهيات ٢/٣٥٤) .

(٢) منهاج السنة (٢/١٤٣)، وانظر في بيان شبهتهم التي زعموا أنها دليل على إنكار صفات الباري جل وعلا كتاب (الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم في الصفات) لعبد القادر عطا صوفي (٣/١٠٩ وما بعدها).

(٣) انظر : الشفا (الإلهيات ٢/٣٥٥-٣٦٢)، وتهافت الفلاسفة ص : (٢٠٦)، ومقاصد الفلاسفة ص : (٢٣٣)، والصفدية لشيخ الإسلام (١/٧) .وخلاصة قولهم هذا أن الله جل وعلا مثلا يعلم الكسوف =

وأنه لا يدبر العالم بل الذي يدبره هو العقل الفعال[1]، بل (حقيقة قولهم أن الله شرط في وجود الممكنات لا مبدع لها ولا فاعل ؛فإنهم لا يثبتون للحوادث محدثا في نفس الأمر، إذ الفلك عندهم ممكن له مبدع، وهو متحرك باختياره كما يتحرك الإنسان باختياره، وله نفس فلكية كما للإنسان نفس، وليس عندهم فوقه شيء يحدث عنه شيء، ...، فلا يجعلون الفلك مخلوقا في الحقيقة وإن قالوا إنه معلول، ولو جعلوه مخلوقا فعندهم هو متحرك حركة اختيارية نفسانية بمشيئة وقوة فيه، وليس فوقه شيء يحدث هذه الحركة ولا يفعلها، وإنما الفلك متحرك للتشبه بالأول .

وإن قالوا : إن حركته تصدر عن الأول، فكلام لا حقيقة له، فإنهم وكل عاقل يعلم أن الشيء البسيط الذي هو على حال واحدة أزلا وأبدا لا يحدث عنه شيء فضلا عن حوادث مختلفة، ويعلمون أن المتغيرات لا تصدر عن بسيط البتة)[2] .

فمن يعتقد بأن الله لا يتصف بالكلام، ولا القدرة، ولا المشيئة، ولا الإرادة، ولا العلم، وأنه لم يبدع العالم، بل لا يدبره، ولا يقدر أن يغير منه شيئا -وإن دندن حول وجوده، وزعم أنه يعتقد كماله- فهو ملحد معطل لايشك في ذلك إلا من أصيب في عقله ؛لذا قال شيخ الإسلام رحمه الله :

=

ويعلم جميع صفاته وعوارضه، لكن في الأزل والأبد، وأما في حال الكسوف، وقبله، وبعده فلا يعلم عنه شيئا ؛لأن كل ما يجب في معرفته الإضافة إلى الزمان يوجب التغير في زعمهم، فلا يعلمه الله .وما ينقسم بالمادة والمكان، كأشخاص الناس مثلا، فإنهم يقولون : إنه يعلم الإنسان المطلق الكلي ويعلم عوارضه، وخواصه، وأما شخص زيد فلا يعلمه الله بعينه فضلا عن أن يعلم أعماله، فالله عندهم لا يعرف آدم، ولا إبراهيم، ولا موسى، ولا عيسى، ولا محمدا عليهم الصلاة والسلام ؛لهذا قال الغزالي (وهذه قاعدة اعتقدوها واستأصلوا بها الشرائع بالكلية ...) .

(١) العقل الفعال عند الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام هو نهاية سلسة العقول الفلكية، ويسمونه بالعقل العاشر الذي يدبر شئون الأرض . انظر : المعجم الفلسفي لمجمع اللغة ص : (١٢٠) .

(٢) الرد على المنطقيين ص : (٥٢٥) .

(الكفر الذي يوجد فيهم قولا وفعلا أعظم من كفر اليهود والنصارى ومشركي العرب الذين هم أول من بعث إليه النبي ﷺ ونزل فيه القرآن بكفره واستحقاقه النار)[1] .

٣/ أنهم يقولون بقدم العالم، وأنه لم يزل موجودا مع الله منذ الأزل .

قال أبو حامد الغزالي :

(الذي استقر عليه رأي جماهيرهم المتقدمين والمتأخرين القول بقدمه، وأنه لم يزل موجودا مع الله تعالى، ومعلولا له، ومساوقا له[2]، غير متأخر عنه بالزمان، مساوقة المعلول للعلة، ومساوقة النور للشمس، وأن تقدم البارئ عليه كتقدم العلة على المعلول، وهو تقدم بالذات والرتبة، لا بالزمان، ....، فمذهب جميعهم أنه قديم، وأنه بالجملة لا يتصور أن يصدر حادث من قديم بغير واسطة أصلا)[3] .

وبالجملة فالقوم وإن أظهروا الإيمان بالله جل وعلا فحقيقة مذهبهم أن الإله الذي يذكرونه لا وجود له إلا في الأذهان، وأنه معطل عن كل صفة كمال، فلا يوصف بالقدرة، ولا العلم، ولا الإرادة، ولا الكلام، بل لا ماهية له، والعالم قد وجد معه منذ القدم، وهو لم يبدعه أصلا وغاية ما هنالك أنه كان علة في وجوده، ... .

فحقيقة هذا الهذيان أنه لا وجود للرب أصلا، وبالتالي فما تذكره الأنبياء من أمور الغيب لا يعدو أن يكون ضربا من الخرافة، وما جاءوا به من الشرائع لا يصلح إلا لسياسة العامة دون الخاصة، فلا غرابة أن يقولوا بأن النبوة مكتسبة، وأن يتهموا الشرائع بالقصور والنقصان، بل وينبذوها بالكلية، وأن يعتمدوا على عقولهم للوصول إلى المعرفة وتحقيق السعادة المنشودة ؛إذ لا يرجى بعد فساد الإيمان بالله والرسول أن

---

(١) الرد على المنطقيين ص : (٥٢٦) .

(٢) المساوقة هي المتابعة، يقال تساوقت الإبل تتابعت كأن بعضها يسوق بعضا، وتساوقت الغنم :تزاحمت في السير .انظر : القاموس المحيط (٢/١١٩٠)، لسان العرب (١٠/١٦٦) .

(٣) تهافت الفلاسفة ص : (٨٨-٨٩) .

يستقيم شيء مما يبنى عليه، (فإن هذا الأصل إن لم يصحب الناظر، والمريد والطالب في كل مقام، وإلا خسر خسرانا مبينا، وحاجته إليه كحاجة البدن إلى الغذاء، أو الحياة إلى الروح .

فالإنسان بدون الحياة والغذاء لا يتقوم أبدا، ولا يمكنه أن يعلم، ولا أن يعلم . كذلك الإنسان بدون الإيمان بالله ورسوله لا يمكنه أن ينال معرفة الله، ولا الهداية إليه، وبدون اهتدائه إلى ربه لا يكون إلا شقيا معذبا، وهو حال الكافرين بالله ورسوله . ومع الإيمان بالله ورسوله إذا نظر واستدل كان نظره في دليل وبرهان –وهو ثبوت الربوبية والنبوة– وإذا تجرد وتصفى كان معه من الإيمان ما يذوقه بذلك ويجده ...)[1] .

(١) قاله شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (٦٧/٢) .

المطلب الثاني : موقف الفلاسفة من كمال الديـــن في المســائل العلميــة والعملية :

سبق أن بينت أن سعادة الإنسان منوطة باستكمال قوتيه العلمية والعمليـــة، كما تقدم أن الدين الإسلامي قد أتى بما يسعد البشرية في الدنيا والآخرة، وأن مـــن مظاهر كماله اشتماله على العلوم النافعة، والعقائد الصحيحة، وأنه عرضها بأســلوب فصيح، وطرق سهلة وميسرة بعيدة عن الالتواء والتعقيد .

كما أن من مظاهر كماله أيضا اشتماله على ما تزكو به النفوس من الأعمــال الصالحة .

فلا مطمع في السعادة العاجلة والآجلة إلا بالتمسك بدين الله القويم .

ومعلوم أن الفلاسفة كثيرا ما يدندون على أنهم أيضا يسعون لتمهيد الطريـــق الموصل إلى السعادة، ويزعمون أن غاية ما يصبون إليه هو إزالة العوائق التي تحول بـين البشرية وبين الوصول إلى ذلك .

فما هو يا ترى حقيقة موقفهم من كون الدين قد اشتمل على أسباب السعادة الحقيقية ؟

هذا ما سأتناوله بالبحث في هذا المطلب بتوفيق الله وعونه، وسيدور الكـــلام على مسألتين مهمتين :

المسألة الأولى : موقفهم من المسائل العلمية :

يزعم الفلاسفة أن أساس السعادة ومدار كمال النفوس على إدراك الحقيقـــة كاملة، والبلوغ في الإحاطة بالمعرفة إلى درجة سامية ؛ذلك لأن الإنسان إنما فضل على سائر الحيوان بعقله، فلابد لبلوغ السعادة من تسخير هذه الميزة واستغلالها حتى تحقـــق وظيفتها، وتبلغ مناها بإدراك الحقائق فتصير النفس عالما عقليا .

يقول ابن سينا :

(إن النفس الناطقة كمالها الخاص بها أن تصير عالما عقليا مرتسما فيها صورة الكل، والنظام المعقول في الكل، والخير الفائض في الكل، مبتدئة من مبدأ الكل سالكة إلى الجواهر الشريفة الروحانية المطلقة، ثم الروحانية المتعلقة نوعا ما بالأبدان، ثم الأجسام العلوية بهيئاتها وقواها، ثم كذلك حتى تستوفي في نفسها هيئة الوجود كله، فتنقلب عالما معقولا موازيا للعالم الموجود كله ...)[1] .

فالعلم والمعرفة عند الفلاسفة أعظم قدرا من العمل ؛لذا جعلوا من خصائص الفلسفة التأمل، وأما العمل فهو عندهم من خصائص الدين حتى قال بعضهم :

(إن الدين يتميز بالعمل، بينما تتصف الفلسفة بالتأمل .وإن هذه الخاصية المرتبطة بكل منهما تميزه عن الآخر، حتى إذا اختلط كل منهما بالآخر نرى العناصر محتفظة بفرديتها)[2] .

بل إن بعض المحدثين من الفلاسفة أنكر أن يكون للفلسفة هدف آخر تتوخاه غير المعرفة، حيث لا أشرف ولا أفضل عندهم منها، بل جعل أحسن ما تمتاز به الفلسفة اليونانية أنها لم تكن تسعى وراء تحقيق شيء آخر غيرها فقال :

(إن جمهرة المحدثين من مؤرخي الفلسفة –مع اعترافهم بسبق الشرق القديم إلى ابتداع الحضارات، وتأثر اليونان بتراث حكمائه– متفقون على أن الفلسفة اليونانية خلق عبقري أصيل جاء على غير مثال !!

ومن دلالتهم على هذا : أن من أخص ما كان يميز التفكير الفلسفي اليوناني **التماس المعرفة لذات المعرفة**، بمعنى أن يتجه العقل إلى كشف الحقيقة بباعث اللذة العقلية، ومن غير أن تدفعه إلى ذلك أغراض عملية .

---

(١) الشفا (الإلهيات ٢/٤٢٥-٤٢٦) .

(٢) الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة للدكتور مصطفى حلمي ص (٤٣٦) (دار الدعوة/ط٣/١٤٠٦) .

وهذا النوع من المعرفة النـــزيهة !! قد نشأ لأول مرة في ظل اليونان وعـــاش في كنفهم، بحثوا في الوجود لمعرفة أصله ومصيره، وتأملوا موجوداته وما يعروها مـــن صنوف التغير بدافع من الرغبة النـــزيهة في طلب المعرفة، ومن غير أن تسوقهم إليـــها ضرورة ملحة .وأما الشرق القديم فقد التمس المعرفة ليسد بها حاجة عملية)[1] .

(ومعنى هذا أن مناط تفضيل الفكر اليوناني القديم على الفكر الشرقي القـــديم يرجع – فيما يرى جمهرة من المحدثين من مؤرخي الفلسفة – إلى أن الفكر اليونـاني لم يخضع لمؤثرات عملية، وإنما **كان باعثه ومحركه تحصيل المعرفة التي بها كمال الإنسان ككائن عاقل**)[2].

ولمعترض أن يقول بأن هذا شأن الفلسفة اليونانية، وأما الفلسفة التي تنسب إلى الإسلام والتي هي بيت القصيد عندنا فالأمر يختلف، فالعناية بالمسائل العمليـــة عنـــد الفلاسفة المنتسبين للإسلام لا تكاد تقل أهمية من العناية بالمسائل العلمية والنظريـــة، بدليل ما يأتي :

(أ) أنه مر معنا أنهم يقسمون الفلسفة إلى فلسفة علمية، وفلسفة عملية .

(ب) أنهم شرطوا على الفيلسوف الكامل أن يحصل الفضائل النظرية أولا، ثم الفضائل العملية ببصيرة يقينية، وأما الذي يشرع في تعلم العلوم النظرية من غـــير أن يكون مستعدا للعمل بها فهو عندهم الفيلسوف الباطل .

(ج) أن ابن سينا وهو شيخ القوم ورئيسهم قد صرح بضرورة إصلاح الجزء العملي وذلك في قوله :

---

(١) أسس الفلسفة لتوفيق الطويل ص : (٢٣)، وفي ضحى الإسلام لأحمد أمين (٢٥٣/١) ما نصه : (تمتاز علوم اليونان وفلسفتهم بميزة يكاد مؤرخوا الفلسفة يجمعون عليها، وهي : أن اليونان كانوا يبحثـــون وراء الحق للحق، على حين أن كثيرا من الأمم كانت تتفلسف لما يتبع الفلسفة من فوائد ماديـــة، أو لتأييد قضايا دينية ...) .

(٢) قاله سليمان دنيا في كتابه التفكير الفلسفي الإسلامي ص (٢٧٤) (مكتبة الخانجي، مصر/ط١/١٤١٩).

(إن هذه السعادة الحقيقية لا تتم إلا بإصلاح الجزء العملي من النفس)[1] .

وأجمل الجواب عن هذه الاعتراضات في النقاط التالية :

١/ لقد ذكر غير واحد ممن له عناية بدراسة تاريخ الفلسفة أن غاية ما فعله أولئك الذين ينتسبون إلى الإسلام من الفلاسفة، خاصة فيما يتعلق بما يسمونه بالإلهيات، هو : أنهم أخذوا مخ الفلسفة اليونانية وأخرجوها في صورة جديدة كي تقبل عند المسلمين، حتى قال بعض أنصارها :

(لكي نكون منصفين، ينبغي أن نعترف بأن الفلسفة العربية تحتوي على عناصر هامة من الفكر اليوناني، وأن الفلسفة اليونانية ضرورية جدا لفهم الفلسفة العربية، بل نقول أكثر من هذا : إن الفلسفة العربية لا تتصور بدون الفلسفة اليونانية، ...، ولا ضير علينا أن نعترف صراحة أن الفلسفة العربية تفترض أولا هضم الفلسفة اليونانية ...)[2] .

وعليه فلا يستغرب أن يكون هؤلاء الذين ينتسبون إلى الإسلام قد أخذوا من الفلسفة اليونانية تصورهم لأصول السعادة البشرية، وأن ذلك منحصر في استكمال القوة العلمية [3] .

٢/ أن ما ذكر من جعل الفلسفة العملية أحد قسمي الفلسفة عندهم، وأنهم يجعلونها شرطا في كمال الفيلسوف شيء لا ينكر ولا يرد، إلا أن من جمع شتات كلامهم يقف على حقيقة ما يقصدون بذلك، ويعلم أنهم لا يعنيهم العمل لذاته، بل لأنه وسيلة لبلوغ العلم الذي هو الغاية المقصودة .

---

(١) الشفا (الإلهيات ٢/٤٢٩) .

(٢) شخصيات ومذاهب فلسفية لعثمان أمين ص : (٤٤-٤٥) .

(٣) بعد كتابة هذا وقفت على كلام مهم لبعض المتفلسفين المعاصرين -وهو إبراهيم مدكور- يقرر فيه أن نظرية الفارابي في السعادة مأخوذة من كتاب " الأخلاق النيقوماخية " لأرسطو ، ومن مدرسة الإسكندرية الفلسفية .انظر : كتاب (في الفلسفة الإسلامية) لإبراهيم مدكور ص : (٤٥-٤٨) .

يقول الفارابي :

(... الأفعال الإرادية التي تنفع في بلوغ السعادة هي الأفعال الجميلة . والهيئات والملكات التي تصدر عنها هذه الأفعال هي الفضائل، **وهذه خيرات لا لأجل ذواتها، بل إنما هي خيرات لأجل السعادة** .والأفعال التي تعوق عن السعادة هي الشرور، وهي الأفعال القبيحة، والهيئات والملكات التي عنها تكون هذه الأفعال هي النقائص والرذائل والخسائس)[1] .

فالعمل عندهم من باب المجاهدة والرياضة التي بها تصقل النفس، وتقلل من انشغالها بما يحول بينها وبين مقتضى طبعها من عوارض البدن وشهواته ونزواته، وقد بين الغزالي ذلك بوضوح في قوله :

(إن تأثير العمل لإزالة ما لا ينبغي، والسعي في العلم سعي في تحصيل ما ينبغي .وإزالة ما لا ينبغي شرط لتفريغ المحل لما ينبغي، والمشروط هو المقصود، وهو أشرف من الشرط .

ومثاله : من أراد استيلاد امرأة بها علة تمنع العلوق، فعليه وظيفتان :

إحداهما : إماطة العلة المفسدة للحمل، المانعة من العلوق .

والأخرى : إيداع النطفة بعد إزالة العلة المانعة .

فالأولى شرط للثانية، والثانية هي الغاية المطلوبة .

فالعمل معناه كسر الشهوات بصرف النفس عن صوبها، إلى الجنبة العالية الإلهية، ليمحى عن النفس الهيئات الخبيثة، والعلائق الردية التي ربطتها بالجنبة السفلة، حتى إذا محقت تلك العلائق، أو ضعفت حوذي بها نحو النظر في الحقائق الإلهية ففاضت عليها من جهة الله الأمور الشريفة ...

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ص : (٨٦) (تحقيق ألبير/المطبعة الكاثوليكية، لبنان/ط١/١٩٥٩م)، وقد علق المحقق على كلام الفارابي هذا بقوله : (لا يعتبر أرسطو الفضيلة خيرا بذاته، بل وسيلة لبلوغ السعادة، وهذا هو رأي الفارابي هنا) .

ففيضان هذه الرحمة من الله عز وجل على النفس غاية المطلوب، وهو عين السعادة التي للنفس بعد الموت، ولكنها مشروطة بإزالة العلائق ومحو الصفات الردية التي تأكدت للنفس باتباع الشهوات .

فإذن العمل يرجع إلى مجاهدة النفس بإزالة ما لا ينبغي، ...، فقد عرفت أن سعادة النفس وكمالها أن تنتقش بحقائق الأمور الإلهية، وتتحد بها حتى كأنها هي !!، وإن ذلك لا يكون إلا بتطهير النفس عن هيئات ردية تقتضيها الشهوة والغضب، وذلك بالمجاهدة والعمل .فالعمل للطهارة، والطهارة شرط ذلك الكمال)[1].

٣/ أما ما ذكر عن ابن سينا أنه جعل إصلاح الجزء العملي من الأمور الضرورية لبلوغ السعادة فيجاب عنه بأمرين :

الأول : أنه يقصد ما ذكر في الوجه الذي تقدم قريبا، أي أن العمل ضروري في تطهير النفس كي تترقى إلى استكمال القوة العلمية التي عليها مدار السعادة عنده، فهو وسيلة لا غاية .يقول ابن سينا :

(مما ينزه النفس عن لطخات الطبيعة العبادة الإلهية، واستعمال ما تدعو إليه الشريعة النبوية، فإنها حصن وجنة للنفس من هذه الآفة)[2] .

فالعمل عنده وسيلة لتطهير النفس، وحمايتها من أن تدنس بالأمور التي تمنعها من اكتساب العلوم، ويزيد هذا وضوحا الأمر التالي .

الثاني : أن ابن سينا نفسه صرح بأن الكمال الحقيقي مقصور على إدراك حقائق الأشياء فيقول:

(الحكمة صناعة نظر يستفيد منها الإنسان تحصيل ما عليه الوجود كله، وما عليه الواجب ...

---

(١) ميزان العمل للغزالي ص : (٣٩) .

(٢) رسالة أضحوية في أمر المعاد ص : (١٢٠) .

لتشرف بذلك نفسه، وتستكمل وتصير عالما معقولا مضاهيا للعالم الموجود، وتستعد للسعادة القصوى بالآخرة) [1] .

وقد علق بعض المعاصرين الذين لهم عناية بفلسفة ابن سينا على هذا النص بقوله :

(استكمال النفس، وشرفه مردهما إلى تحصيل ما عليه الوجود، وانطباعها بصورة الكون كله، ولن تزيد عند ابن سينا سعادة الآخرة على سعادة الدنيا إلا من جهة استكمال هذا التحصيل، وذلك الانطباع بسبب أن النفس في الدنيا مشغولة بالبدن، صارفة بعض عنايتها في تدبيره، أما في الآخرة فسوف تسقط عنها هذه المؤونة .

ومن حيث إن الإنسان بالحقيقة عنده هو النفس، وحال النفس دائرة بين العلم والجهل كانت السعادة متركزة في العلم، والشقاوة متركزة في الجهل ....

لكل هذه الاعتبارات جعلوا العمل وسيلة للعلم، أعني جعلوا الفلسفة العملية وغايتها، أو غاياتها، وسيلة لتحقيق غاية الفلسفة النظرية ...

ولوقوف الحكمة العملية من الحكمة النظرية موقف الخادم من المخدوم، وموقف الوسيلة من النتيجة صار **من المقرر أن غاية الإنسان الأخيرة، وسعادته النهائية هي إدراك الحقيقة كاملة بقدر ما في الإنسان من طاقة واستعداد**)[2] .

إذا ثبت هذا وعلم أن مدار السعادة عند الفلاسفة على اكتساب المعرفة [3]، فلابد أن يعلم أيضا أن العلوم التي يدندنون عليها والمعرفة التي يدور عليها كلامهم هي

---

(١) تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات ص : (١٠٥) .

(٢) التفكير الفلسفي الإسلامي لسليمان دنيا ص : (٢٦٨-٢٧٠) .

(٣) يقول إبراهيم مدكور في كتابه : في الفلسفة الإسلامية ص : (٥٧) (دار المعارف/ط٣/دت) :

(من الفارابي إلى ابن رشد اعتنق فلاسفة الإسلام !! بلا استثناء نظرية السعادة .والفارابي وابن سينا يدعمان هذه السعادة رأسا على الدراسة والنظر مع الاحتفاظ بمكان للعقل العملي والحركات الجسمية.
=

ذلك المزيج الذي ركبوه من إرث اليونان ومما جادت به قرائحهم، وأنتجته زبالة أفكارهم وعصارة أذهانهم، وأما العلوم الشرعية المقتبسة من مشكاة النبوة البهية، والمستفادة من الكتاب والسنة فلا يعنونها البتة، ولا يلقون لها بالا، ولا يرفعون بها رأسا، بل لا يعدونها علما أصلا .

فما جاءت به الأنبياء من العلوم النافعة والعقائد الناصعة الواضحة تعدها هذه الشرذمة مجرد تمثيلات وتخيلات لا تمت إلى الحقيقة بصلة، فهي في نفسها كذب وزور وبهتان، إلا أن طبيعة الناس الذين خاطبهم الأنبياء تقتضي ألا تكشف لهم الحقائق على وجهها .

فبداوة الأعراب، وغلظة طباعهم، وبلادة أذهان كثير منهم كل ذلك يحتم على النبي الذي يريد إصلاح أحوالهم أن يخاطبهم على قدر عقولهم، وألا يذكر لهم إلا ما تدركه أفهامهم، كما يلزمه أن يقرب لهم الأمور الغيبية ويصورها لهم تصويرا يليق بمستواهم العقلي بحيث يدفعهم ذلك إلى امتثال الأوامر والإذعان لها، وترك النواهي والبعد عنها.

فمن أظهر من هؤلاء الفلاسفة شيئا من إجلال الأنبياء تجده يدعي (أن الرسل مقصدهم صلاح عموم الخلق، وعموم الخلق لا يمكنهم فهم هذه الحقائق الباطنة، فخاطبوهم بضرب الأمثال لينتفعوا بذلك، وأظهروا الحقائق العقلية في القوالب الحسية، فتضمن خطابهم عن الله وعن اليوم الآخر من التخييل والتمثيل للمعقول بصورة المحسوس ما ينتفع به عموم الناس في أمر الإيمان بالله وبالمعاد .وذلك يقرر في النفوس من عظمة الله، وعظمة اليوم الآخر ما يحض النفوس على عبادة الله، وعلى الرجاء والخوف، فينتفعون بذلك، وينالون السعادة بحسب إمكانهم واستعدادهم ؛إذ

=

وابن باجة وابن طفيل يوسعان الجانب العملي، وابن رشد يعود أخيرا فيقرر مع أرسطو أن الخير الأسمى لا يتم إلا بالعلم والتأمل) .

هذا الذي فعلته الرسل هو غاية الإمكان في كشف الحقائق لعموم النـــوع البشـــري، ومقصود الرسل :حفظ النوع البشري، وإقامة مصلحة معاشه ومعاده)[1] .

وأما الذين يستحقون أن تكشف لهم الأسرار كما هـــي، وتعـــرض عليـــهم الحقائق على وجهها فهم أهل القرائح الصافية المنقادة، والفطن البليغة الوقادة، وأهـــل الذكاء الخارق، والفهم السليم الصحيح، ولا شك أن مثل هؤلاء قل أن يجود الزمـــان بالواحد منهم بعد الواحد .

يقول ابن سينا :

(إن المبرزين المنفقين لياليهم وأيامهم، وساعات عمرهم على تمرين أذهـــانهم وتذكية أفهامهم وترشيح نفوسهم بسرعة الوقوف على المعاني الغامضة يحتـــاجون في فهم هذه المعاني إلى فضل إيضاح وشرح عبارة فكيف غتم[2] العبرانيين، وأهل الوبـــر من العرب ؟!

ولعمري لو كلف الله تعالى رسولا من الرسل أن يلقي حقائق هذه الأمـــور إلى الجمهور من العامة الغليظة طباعهم، المتعلقة بالمحسوسات الصرفة أفهامهم، ثم سامه أن يكون منجزا لعامتهم بالإيمان والإجابة غير ممهل فيه، ثم سامه أن يتولى رياضة نفـــوس الناس قاطبة حتى تستعد للوقوف عليها لكلفه شططا، وأن يفعل ما ليس في قوة البشر.

اللهم إلا أن يدركه خاصة إلهية، وقوة علوية، وإلهام سماوي فتكـــون حينئـــذ وساطة الرسول مستغنى عنها، وتبليغه غير محتاج إليه !!!)[3] .

فهؤلاء قد جمعوا بين الاغترار بما أنتجته عقولهم مع أن أكثره كفر وضـــلال، وبين احتقار ما جاءت به الأنبياء من العقائد الواضحة والعلوم النافعة .

---

(١) قاله شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (٤/٩٨-٩٩) .

(٢) غتم جمع الأغتم وهو من لا يفصح شيئا، والغتمة بالضم العجمة .انظر القاموس المحيط (٢/١٥٠٣) .

(٣) رسالة أضحوية في أمر المعاد ص : (٤٩-٥٠) .

وعليه فضلال هذه الشرذمة في هذه المسألة العظيمة يمكن تلخيصه في النقـــاط التالية :

أولا : أنهم جعلوا السعادة وكمال النفوس متوقفا على استكمال القوة العلميـة والنظرية فقط .

ثانيا : أن العلوم التي تكمل بها النفوس عندهم هي تلك العلوم التي أنتجتـــها عقولهم، والتي ورثوها من أسلافهم اليونانيين الوثنيين، مع أن حقيقة (ما يذكرونه من العلوم النظرية فالصواب منها منفعته في الدنيا، وأما العلم الإلهي فليس عندهم منه مـــا تحصل به النجاة والسعادة، بل وغالب ما عندهم منه ليس بمتيقن معلوم، بل قد صـوح أساطين الفلسفة أن العلوم الإلهية لا سبيل فيها إلى اليقين، وإنما يتكلم فيها بـــالأحرى والأخلـــق، فليـــس معـــهم فيـــــها إلا الظـــــن ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾[1] ولهذا يوجد عندهم من المخالفة للرسل أمر عظيم باهر)[2] .

ثالثا : أنهم اعتقدوا في الأنبياء أنهم لم يخبروا بالحق في أمور الاعتقاد، إما لأنهـــم لا يعلمونه كما يزعم بعضهم، أو لأنهم لا يمكنهم بيانه لأقوامهم كما عنـــد البعـــض الآخر، فما أخبرت به الأنبياء من العلوم والعقائد يعتبرونه مجرد تخيلات وتمثيلات ينتفع بها عامة الناس وإن لم يكن حقا في نفسه .

ولا شك في كون هذا الهذيان غلطا صرفا، وكذبا مصمتا، بل لا شك في أنـــه قد يؤول بصاحبه – عياذا بالله – إلى الزندقة والكفر الصراح، فكل (من زعم أنـــــه وكبار طائفته أعلم من الرسل بالحقائق، وأحسن بيانا لها : فهذا زنديق منافق إذا أظهر الإيمان بهم باتفاق المؤمنين .

---

(١) سورة النجم، الآية (٢٨) .

(٢) قاله شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (٣٦/٩) .

وإن قال : إن الرسل كانوا أعظم علما وبيانا، لكن هذه الحقائق لا يمكن علمها، أو لا يمكن بيانها مطلقا، أو يمكن الأمران للخاصة .

قلنا : فحينئذ لا يمكنكم أنتم ما عجزت عنه الرسل من العلم والبيان .

إن قلتم : لا يمكن علمها، قلنا : فأنتم وأكابركم لا يمكنكم علمها بطريق الأولى .

وإن قلتم : لا يمكنهم بيانها، قلنا : فأنتم وأكابركم لا يمكنكم بيانها .

وإن قلتم : يمكن ذلك للخاصة دون العامة، قلنا : فيمكن ذلك من الرسل للخاصة دون العامة .

فإن ادعوا أنه لم يكن في خاصة أصحاب الرسل من يمكنهم فهم ذلك جعلوا السابقين الأولين دون المتأخرين في العلم والإيمان، وهذا من مقالات الزنادقة ؛لأنه قد جعل بعض الأمم الأوائل من اليونان والهند ونحوهم أكمل عقلا وتحقيقا للأمور الإلهية وللعبادية من هذه الأمة .فهذا من مقالات الزنادقة ؛إذ المسلمون متفقون على أن هذه الأمة خير الأمم وأكملهم، وأن أكمل هذه الأمة وأفضلها هم سابقوها)[1] .

فهذا حقيقة موقفهم من هذه المسألة العظيمة، وقد أورده مختصرا مع بيان ما فيه من الزلل والضلال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله :

(قد تفرق الناس في هذا المقام –الذي هو غاية مطالب العباد– فطائفة من الفلاسفة ونحوهم يظنون أن كمال النفس في مجرد العلم، ويجعلون العلم الذي به تكمل ما يعرفونه هم من علم ما بعد الطبيعة، ويجعلون العبادات رياضة لأخلاق النفس، حتى تستعد للعلم، فتصير النفس عالما معتزلا موازيا للعالم الموجود .

وهؤلاء ضالون بل كافرون من وجوه :

---

(١) قاله شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤/١٠١-١٠٢) .

منها : أنهم اعتقدوا الكمال في مجرد العلم، كما اعتقد جهم، والصالحي[1]، والأشعري -في المشهور من قوليه[2]- وأكثر أتباعه : أن الإيمان مجرد العلم .

لكن المتفلسفة أسوأ حالا من الجهمية ؛فإن الجهمية يجعلون الإيمان هو العلم بالله، وأولئك يجعلون كمال النفس في أن تعلم الوجود المطلق، من حيث هو موجود، والمطلق بشرط الإطلاق إنما يكون في الأذهان لا في الأعيان، والمطلق لا بشرط لا يوجد أيضا في الخارج إلا معينا .وإن علموا الوجود الكلي المنقسم إلى واجب وممكن، فليس لمعلوم علمهم وجود في الخارج ... .

وأيضا فإن الجهمية يقرون بالرسل، وبما جاءوا به، فهم في الجملة يقرون بأن الله خلق السموات والأرض، وغير ذلك مما جاءت به الرسل، بخلاف المتفلسفة .

وبالجملة : فكمال النفس ليس في مجرد العلم، بل لابد مع العلم بالله من محبته وعبادته، والإنابة إليه، فهذا علم النفس وإرادتها، وذاك علمها ومعرفتها .

الوجه الثاني : أنهم ظنوا أن العلم الذي تكمل به النفس هو علمهم، وكثير منه جهل لا علم .

الثالث : أنهم لم يعرفوا العلم الإلهي الذي جاءت به الرسل وهو العلم الأعلى الذي تكمل به النفس مع العمل بموجبه)[3] .

---

(١) هو : محمد بن مسلم، أبو الحسين، الصالحي .كان من علماء الكلام، وكان يميل إلى الإرجاء، وله في ذلك مناظرات مع أبي الحسين الخياط .

انظر : المنية والأمل ص : (٧٨)، وانظر قوله في الإيمان في مقالات الإسلاميين ص : (١٣٢-١٣٣).

(٢) انظر : مجموع الفتاوى (٧/٥٤٤-٥٥٠) فقد ذكر فيه شيخ الإسلام أن للأشعري كتابا اسمه الموجز نصر فيه قول جهم في الإيمان بخلاف ما ذهب إليه في كتاب المقالات ؛إذ نصر فيه مذهب أهل الحديث .

(٣) مجموع الفتاوى (٢/٩٤-٩٥) .

المسألة الثانية : موقفهم من المسائل العملية :

لعل موقف الفلاسفة من المسائل العملية -من حيث الجملة- أضحى واضحا بعد الذي سبق ذكره في المسألة الأولى، فهم لا يهتمون بالمسائل العملية كاهتمامهم بالمسائل العلمية والنظرية، ومن ذكر منهم ضرورة الاعتناء بها فلا يعني ذلك أنه يجعلها سببا من الأسباب التي تتوقف عليها السعادة وكمال النفوس البشرية، بل يذكرون ضرورة الاعتناء بها لأنها في نظرهم وسيلة لتصفية النفس وتأهيلها لإدراك العلوم التي بها تنال السعادة الحقيقية .

فموقفهم من المسائل العملية يمكن إجماله في الآتي :

أولا : مما لا شك فيه أن الفلاسفة قد تباينت أقوالهم، وتعددت مواقفهم من هذه المسألة، واختلفوا فيها اختلافا عظيما، لكن يمكن القول بأنهم -على وجه العموم- ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : من ينكر منهم التزام الشرائع الدينية، ولا يرى أن هناك حاجة تدعو إلى الاهتمام بالمسائل العملية، ولا يفرق في ذلك بين الخاصة والعامة، فهو يرى أن لا فائدة منها لأي أحد البتة، بل لا ينبغي أن تفعل إلا رياء وتقية .

يقول الغزالي :

(ربما يرى الواحد منهم يقرأ القرآن، ويحضر الجماعات والصلوات، ويعظم الشريعة بلسانه، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر، وأنواعا من الفسوق والفجور !!

وإذا قيل له : إن كانت النبوة غير صحيحة فلم تصل ؟

فربما يقول : رياضة الجسد، وعادة البلد، وحفظ المال والولد !!)[1] .

---

(١) المنقذ من الضلال ص : (٧٤) (تحقيق أحمد شمس الدين/دار الكتب/ط١/١٤١٢) .

الطائفة الثانية : من يفرق منهم بين العامة والخاصة، فيزعم أن الشرائع إنما جاءت بهذه العبادات لإصلاح العامة والدهماء، وأما الخاصة فمستغنون بما نالوه من الحكمة، وتعلموه من الفلسفة عن أن يساسوا بشرائع الأنبياء ؛لذا تجد المتحذلق منهم يقول : أنا (قرأت علم الفلسفة، وأدركت حقيقة النبوة، وأن حاصلها يرجع إلى المصلحة والحكمة، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع، والاسترسال في الشهوات فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل في حجر التكليف، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة، وأنا بصير بها مستغن فيها عن التقليد)[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(قولهم المراد منها ضبط العوام، ولسنا نحن من العوام، فالكلمة الأولى زندقة ونفاق، والثانية كذب واختلاق ؛فإنه ليس المراد من الشرائع مجرد ضبط العوام، بل المراد منها الصلاح باطنا وظاهرا للخاصة والعامة في المعاش والمعاد، ولكن في بعض فوائد العقوبات المشروعة في الدنيا ضبط العوام، ...،وأما فوائد الأمر والنهي فأعظم من أن يحصيها خطاب أو كتاب، بل هي الجامعة لكل خير يطلب ويراد، وفي الخروج عنها كل شر وفساد .

ودعوى هؤلاء أنهم من الخواص يوجب أنهم من حثالة منافقي العامة ...)[2].

والطائفة الثالثة : من لاينكر منهم فائدة العبادات، والشرائع العملية، بل قد يوجب اتباعها والعمل بها، لكن لا على أن السعادة متوقفة عليها .

فهؤلاء بهرتهم أنوار الشريعة المحمدية، فلم يجدوا بدا من الإقرار بفضلها وكمالها في الجانب العملي ؛لذا تجدهم يصرحون بأن النبي ﷺ حاذق بالشرائع العملية .

---

(١) قاله الغزالي في المنقذ من الضلال ص : (٧٣) .

(٢) قاله شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (١١/٤١٥-٤١٦) .

يقول ابن سينا :

(الشريعة الجائية على لسان نبينا محمد ﷺ جاءت بأفضل ما يمكن أن تجيء عليه الشرائع وأكمله ؛ولهذا صلح أن تكون خاتم الشرائع، وآخر الملل، ... .

ولولا أن الشأن في تعريف هذه الشريعة وفضيلتها، وقصور الشرائع المتقدمة عن شأوها أجل من أن يجعل حشوا في غرض غيره لأخذت فيه)[1] .

فهو هنا يقرر أن الشريعة العملية التي جاء بها النبي ﷺ أفضل الشرائع وأكملها، وفي موضع آخر يحكي اتفاق فلاسفة العالم على ذلك، فقد نقل عنه شيخ الإسلام أنه قال :

(اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يطرق العالم ناموس أفضل من هذا الناموس)[2].

ثانيا : لا بد من العلم أن إقرار من أقر منهم بضرورة الاعتناء بالمسائل العملية لا يفرح به، ذلك لأنهم سرعان ما ينسفونه ويبطلونه، فمنهم من يرى أن أي شريعة عملية مهما كانت تؤدي الغرض المطلوب، فلا يوجبون شريعة واحدة معينة، ولا اتباع نبي بعينه لا محمد ﷺ ولا غيره، بل يرون أن على كل أهل بلد أن يلتزموا من الشرائع ما هو رائج عندهم، فاليهودي يلتزم شريعته، والنصراني يتشبث بنصرانيته، والوثني يعكف على عادات أهل ملته، ...، وهلم جرا .

يقول الفارابي في معرض ذكره للشروط التي ينبغي توفرها في كل من يروم الشروع في النظر الفلسفي :

(هي : أن يكون جيد الفهم والتصور، ثم أن يكون بالطبع محبا للصدق وأهله، والعدل وأهله، غير جموح ولا لجوج فيما يهواه، وأن يكون غير شره على المأكول والمشروب، تهون عليه بالطبع الشهوات والدرهم والدينار، وما جانس ذلك،

---

(١) رسالة أضحوية في أمر المعاد ص : (٥٨) .

(٢) تقدم ذكر ذلك في هذا البحث ص : (٢٧٣) .

وأن يكون ورعا سهل الانقياد للخير والعدل، عسر الانقياد للشر والجور، وأن يكون قوي العزيمة على الصواب، **ثم بعد ذلك يكون قد ربي على نواميس وعلى عادات تشاكل ما فطر عليه، وأن يكون صحيح الاعتقاد لآراء أهل الملة التي نشأ عليها، متمسكا بالأفعال الفاضلة التي في ملته، غير مخل بكلها أو بعضها ...**)[1] .

وحتى من فضل منهم الشريعة الإسلامية، وأقر بكمالها في المسائل العملية تجده يقرر أن العبادات التي جاءت بها إنما تنفع أكثر ما تنفع العامة، وأما الخاصة فإن نفعتهم ففي المعاد على الصورة التي يؤمنون بها هم ؛لذا تجد الواحد منهم لا يتحرج من اقتحام شيء نهت الشريعة عن اقترابه .

يقول ابن سينا :

(هذه الأفعال –يعني الصلاة ونحوها– ينتفع بها العامة من رسوخ ذكر الله تعالى في أنفسهم، فيدوم لهم التشبث بالسنن والشرائع بسبب ذلك، ...، وينفعهم أيضا في المعاد منفعة عظيمة فيما تنزه به أنفسهم .

وأما الخاصة فأكثر منفعة هذه الأشياء إياهم في المعاد، وقد قررنا حال المعاد الحقيقي[2]، وأثبتنا أن السعادة في الآخرة مكتسبة بتنزيه النفس ..)[3] .

إذا ظهر هذا فلا تستغرب من ابن سينا إذا نص في وصيته[4] على أنه يعظم الأوضاع الشرعية، ومع ذلك لم يمنعه تعظيمه لها من شرب الخمر، وزعم أنه يشربها تداويا وتشافيا لا تلهيا !!

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ص : (٥٨) .

(٢) يشير بهذا إلى مذهبه وعقيدته في البعث، فهو ينكر بعث الأجساد، ورد الأرواح إلى الأبدان، فالذي يبعث ويعذب أو ينعم عند ابن سينا ومن اتبعه هي الأرواح دون الأجساد .وقد ألف رسالة أضحوية في أمر المعاد لتقرير هذه العقيدة الباطلة .

(٣) الشفا (الإلهيات ٢/٤٤٥) .

(٤) أورد نص الوصية كاملا الدكتور سليمان دنيا في تقديمه لكتاب الإشارات لابن سينا (١/٩٨-٩٩) .

(فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان والتزام العبادات أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافي، فهذا إيمان من يدعي الإيمان منهم)[1] ويزعم أنه يعظم الشريعة النبوية .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(الفلاسفة الذين لم يدخلوا في القرمطة المحضة لا ينكرون العبادات والشرائع العملية بل قد يوجبون اتباعها والعمل بها، لا سيما من دخل منهم في التصوف أو الكلام، لكن منهم من يوجبها على العامة دون الخاصة، أو يوجبها من غير الوجه الذي أوجبها الرسول، كما يجوزون أن يكون بعد محمد ﷺ من يأتي بشريعة أخرى، ويقولون : إن أحدهم يخاطبه الله كما خاطب موسى بن عمران، ويعرج به كما عرج بالنبي ﷺ، وأمثال هذه المقالات التي كثرت لما ظهرت الفلسفة التي أفسدت طوائف من أهل التصوف والكلام)[2] .

مما تقدم يظهر بجلاء موقف الفلاسفة من القاعدة، فهم لا يعتقدون كمال الدين، ولا يؤمنون بإحاطته بمصالح الدنيا والآخرة، وفي الآتي أورد باختصار الأمور التي سبق ذكرها، والتي تبرز حقيقة موقفهم هذا :

١/ قولهم بأن الدين يخاطب الجمهور والعامة دون الخاصة، وأنه يعتمد في الإقناع طريقة التخييل والإقناع النفسي، وأنه لا يشتمل على الحجج العقلية، والبراهين اليقينية .

٢/ قولهم بأن الدين لم يصرح بحقيقة التوحيد وكذا بقية أمور الاعتقاد، وإنما صور أمور الاعتقاد تصويرا تفهمه العامة بحيث يقودها ذلك إلى امتثال الأوامر واجتناب النواهي، فحقيقة ما جاء به الدين في أمور العقيدة تصوير وتخييل لا يمت إلى الحق بصلة، فهو عين الكذب إلا أنه كذب لمصلحة العامة !!! .

---

(١) قاله الغزالي في المنقذ من الضلال ص : (٧٤) .

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية ص : (٢١٤) (مكتبة الرشد/ط١/١٤١٥) .

٣/ خوضهم في مسائل الاعتقاد وأمور الغيب معتمدين على أنفسهم، ومعولين على عقولهم من غير التفات إلى الشرع واهتداء بأنوار الوحي .

٤/ جعلوا السعادة مرهونة باستكمال القوة العلمية، ثم زعموا بأن الدين لم يتقن إلا الأمور العملية، أما المسائل العلمية فلم يأت فيها بما يروي الغليل ويشفي العليل، ونتيجة هذا البهتان أن الدين لم يأت بما يسعد الناس في الدنيا والآخرة .

٥/ زعموا أن العبادات التي جاء بها الشرع الحكيم إنما تنفع العامة، أما الخاصة فقد تنفعهم في المعاد، وأما الدنيا فهم مستغنون عنها بما اكتسبوه من المعرفة والحكمة !!.

وبهذا أكون قد استوفيت ما قصدت إيراده مما يبين موقف هذه الشرذمة من الدين وكماله، وفي المبحث التالي سيدور الكلام حول موقف عصابة تأثرت بهم تأثرا عظيما حتى صح أن يقال عنهم بأنهم مخانيث الفلاسفة، أو الفلاسفة الإناث .

المبحث الثاني : موقف المتكلمين من قاعدة كمال الدين، والرد عليهم

وفيه مدخل، ومطلبان :

المطلب الأول : أصول المتكلمين لخرم قاعدة كمال الدين .

المطلب الثاني : موقف المتكلمين من المسائل العلمية والعملية .

مدخل :

كما واجه السلف تلك الشرذمة المنتسبة إلى الإسلام من الفلاسفة فقد واجهوا أيضا عصابة المتكلمين، وتصدوا لكشف عوارهم وبيان ضلالهم، فلما كثر عليهم النكير، وتوالت الردود، واشتدت الوطأة، وظهر حالهم للقاصي والداني والقريب والبعيد لجأوا كأسلافهم إلى الحيلة، فزعموا أن الذي أقحمهم في ديجور الجدال، واضطرهم إلى كثرة القيل والقال ، وحملهم على خوض لجج الكلام هو حراصة عقائد العوام، والتصدي لملاحدة الفلاسفة الطاعنين في الإسلام، والوقوف في وجه الزنادقة الرامين إفساد الدين بالباطل والبهتان .

وحتى لو صدقناهم فيما زعموا، وسلمنا بصحة قصدهم، ونبل غايتهم، فإنهم مع ذلك لم يوفقوا إلى الطريق الصحيح، والوسيلة الناجعة، إذ أعرضوا عن الكتاب والسنة، ونهج سلف الأمة، و لم يعلموا أن حجة الله على الخلق قد قامت قبل ابتداعهم الكلام، ولكن زين لهم الشيطان الجري وراء السراب، وطلب المحال، فظنوا أن بإمكان العقول البشرية أن تدرك الأمور الغيبية من غير التفات إلى الوحي والنبوة، فكانت نتائج فعلهم عكسية، ومغبة صنيعهم وخيمة، فلا الإسلام نصروا، ولا الفلاسفة كسروا[1]، بل فتحوا باب الطعن في الدين على مصراعيه للزنادقة والملاحدة، وأثاروا الشك والحيرة، وزرعوا بذور الفرقة بين الأمة؛ (لأنهم لم يكونوا معتصمين بحبل الله تعالى فيجمعهم، والظنون لا تجمع الناس في مثل هذه الأمور التي تعجز الآراء عن إدراك حقائقها إلا بوحي من الله تعالى)[2].

وكان مبدأ ضلالهم أنهم زعموا أن الفلاسفة وغيرهم من الملاحدة لا يؤمنون بوحي ولا نبوة فلا ينفع معهم إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بل لابد

---

(١) هذه المقولة البديعة من كلام شيخ الإسلام رحمه الله، انظر: مجموع الفتاوى (١٢/٥٩٠)، و (١٣/١٥٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٢٧) .

لإقناعهم من مجاراتهم وإيراد البراهين العقلية، فصار (أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم، ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم)[1]، فجعلوا حجتهم في العزوف عن الأدلة النقلية أن أولئك الخصوم لا يقبلونها، ولا يؤمنون بها !!

ولما كان السبق في ذاك الميدان للملاحدة وورثة اليونان فقد ألزموهم بأصول فاسدة، فالتزموا بعضها، وألجأتهم الضرورة، واضطرهم ما دخلوا فيه من الجدال المذموم إلى أن يؤصلوا أصولا أخرى[2]، فجعلوا من مجموع هذه الأصول، وزبالة تلك العقول عمدتهم التي بها يصولون ويجولون، وادعوا أنها حجج عقلية يقينية لا تقبل الجدال، ولا يتطرق إليها الشك بحال، وأن كل ما خالفها فلا بد من رده أو تأويله، فأقبلوا عليها بالدراسة والتحليل، وقدموها على القرآن والسنة، فصاروا يقتربون من الفلسفة والفلاسفة، وصارت الهوة التي بينهم وبين الوحي تتسع شيئا فشيئا، حتى أصبحت عناية كثير منهم بالفلسفة أكثر من عنايتهم بالوحي، فأدخلوها في كتبهم، وخصصوا لتدريسها أنفس أوقاتهم، فعمت بها البلوى، وقويت الشبهة، واستعصى الدواء، فصرت تجد أحدهم كالشاة العائرة ينتقل من مذهب إلى مذهب، ومن نحلة إلى نحلة، فمرة مع أهل الملة، وأخرى مع أهل الإلحاد والفلسفة، ويقول قولا فينقضه بعد فترة .

ولعل من المناسب أن أذكر هنا أحد المشهورين ممن هذه حاله، وهو أبو حامد الغزالي الذي حير الباحثين بتضارب أقواله، وتعدد مواقفه حتى قال عنه ابن رشد الحفيد :

---

(١) قاله الغزالي في المنقذ من الضلال ص : (٣٣) .

(٢) من الأمثلة التي تبين هذا وتوضحه مناظرة الجهم بن صفوان لقوم من المشركين يقال لهم السمنية، فقد ناظرهم بجهل فانقطع، ثم أحدث قولا في الله لم يسبق إليه حيث شبهه بالروح، وأنكر أن تكون له صفة يتصف بها .

انظر : الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد ص : (٢٧-٢٨) (بعناية إسماعيل الأنصاري/نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة، السعودية)، ونقض تأسيس الجهمية (١/٣١٨-٣١٩) .

(إنه لم يلزم مذهبا من المذاهب في كتبه، بل هو مع الأشاعرة أشعري، ومع الصوفية صوفي، ومع الفلاسفة فيلسوف، حتى إنه كما قيل :

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت مَعَدِّيا فعدناني [1]) [2] .

ويقول عنه ابن طفيل [3] :

(أما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي، فهو بحسب مخاطبته للجمهور، يربط في موضع، ويحل في آخر، ويكفر بأشياء ثم يتحللها ...) [4] .

والمقصود أنهم اشتغلوا بتلك الأصول حتى ألهتهم عن الوحي، فتجد الفاضل منهم حاذقا في معرفتها، بارعا في تقريرها، متفننا في إيراد الإشكالات وردها، إلا أنه -مع فرط ذكائه وقوة إدراكه- لا يستحي أن يصرح بأنه مزجي البضاعة في معرفة علوم الكتاب والسنة !! [5] فقلما تجدهم يستدلون بآية أو حديث، وإذا استدلوا بهما لم يعتنوا بمعرفة المراد الصحيح منهما .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(لما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف صار أهل التفرق والاختلاف شيعا، صار هؤلاء عمدتهم في الباطن ليست على القرآن والإيمان، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم، عليها يعتمدون في التوحيد، والصفات، والقدر،

---

(١) البيت لعمران بن حطان كما في خزانة الأدب (٣٥٧/٥) (تحقيق هارون/مكتبة الخانجي/ط٣/١٤٠٩) .

(٢) فصل المقال ص : (٥١) .

(٣) هو : محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل، أبو بكر، القيسي الأندلسي، الفيلسوف .ولد سنة أربع وتسعين وأربع مائة، وتوفي بمراكش سنة واحد وثمانين وخمسمائة، كانت بينه وبين ابن رشد الحفيد مراجعات ومباحث في رسم الدواء، وله مؤلفات فلسفية منها : (رسالة حي بن يقظان) و (رسالة في النفس) وغيرهما .

انظر : طبقات الأطباء (٧٨/٢)، والأعلام للزركلي (٢٤٩/٦) .

(٤) رسالة حي بن يقظان لابن طفيل ص : (٦٩) .

(٥) ممن صرح بذلك الغزالي في كتابه قانون التأويل ص : (١٣٢) (دار الكتب العلمية/ط١/١٤٠٩) .

والإيمان بالرسول، وغير ذلك، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا بـــه، ومـــا خالفها تأولوه؛ فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتـــهما، و لم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى؛ إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر على غـــير ذلك ...)[1] .

فلما جاء من نظر إليهم بعين الإكبار، وجعلهم من أئمة النظار، ورأى أنهـــم لا يعرجون على الوحي عند الاستدلال على المسائل الكبار ظن المسكين أن سبب ذلـــك هو عدم اشتمال الوحي على ما يشفي ويكفي في تلك المباحث العظام .

فتجده يستعظم رمي أئمته بالجهل والتفريط، ثم يلقي باللائمة علـــى الديـــن، ويتهمه بالقصور والنقصان، حتى صار منهم من يقول بأن الأدلة الســـمعية لا تفيـــد اليقين، وأن الشرع لا يعتمد عليه فيما يوصف الله به وما لا يوصف به، فـــلا يجـــوز الاحتجاج على ذلك بالكتاب والسنة وإن وافق العقل، فكيف إذا خالفه ؟!!

فأسقطوا بهذا الهذيان حرمة الكتاب والرسول عندهـــم، وحرمـــة الصحابـــة والتابعين لهم بإحسان، فيقولون : إنهم لم يحققوا أصول الدين كما حققناها !!![2] .

ثم اتسع الخرق على الراقع[3]، إذ ظهر منهم أناس لم يقنعـــوا باتهـــام الديـــن بالنقصان، وأنه لا يحتج بما فيه من البراهين على أصول العقائد، بل زادوا على ذلـــك، وجاءوا بثالثة الأثافي حيث زعموا أن ظواهر النصوص لا تهدي إلى الرشد، بـــل قـــد تؤول بمن تمسك بها إلى الكفر !! فقال قائلهم -وما أقبح ما قال- :

(الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر)[4] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٥٨-٥٩) .

(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢/١٣-١٤) .

(٣) هذا مثل يقال إذا زاد الفساد حتى فات التلافي .انظر : جمهرة الأمثال للعسكري (١/١٦٠) .

(٤) قاله الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين (٣/١٠)، وقد تولى رد هذه الفرية جماعة من أهل العلـــم منهم الشيخ الأمين الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان (٧/٤٣٧)، والشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي الذي صنف في ذلك رسالة بديعة سماها (تنـــزيه السنة والقرآن عن كونهما مصدر الضلال والكفران).

وقال آخر :

(أصول الكفر ستة -ثم عد منها- : التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرض لها على البراهين العقلية والقواطع الشرعية...)[1].

وهذا الكلام بمجرد حكايته يغني عن بيان زيفه وبطلانه ، فلا إخال أحدا ممن لله وللرسول في قلبه وقار إلا وسيستنكر صدور مثل هذا الهذيان من ألد الأعداء لدين سيد الأنبياء، فكيف إذا صدر ممن يذكر في عداد العلماء ؟!

وخلاصة القول : أن أهل الكلام أصلوا بعقولهم أصولا كثيرة هي عمدتهم في أصول الدين، فانشغلوا بها تأصيلا وتفصيلا، حتى صرفتهم عن الوحي تعلما وتعليما، فنشأ فيهم من ظن أن الدين قصر في بيان مسائل الاعتقاد، وتقرير أدلتها، فكانت النتيجة هي تقديم ما أصلوه من الأصول على ما ثبت من النصوص، وتفضيل العقول على المنقول .

وفي المطلب التالي بيان لبعض أصولهم التي أسلفت الكلام عنها .

---

(١) قاله محمد الدسوقي في حاشيته على أم البراهين ص : (٢١٩) (دار إحياء الكتب العربية، بيروت/دت) .

المطلب الأول : أصول المتكلمين لخرم قاعدة كمال الدين .

مما لا شك فيه أن الأصول التي أصلها المتكلمون من أجل تثبيت بدعهم وترويجها من الكثرة بمكان، وسأقتصر على بعضها :

الأصل الأول : تقديس المناهج الفلسفية :

سبق وأن بينت أن أهل الكلام زعموا في بداية أمرهم أن الغاية من وضعهم الكلام منحصرة في أمرين رئيسين هما :

الأول : حراسة العقائد الإسلامية في نفوس العوام، فهم نصبوا أنفسهم حماة الملة، وحراس عقائد العامة، حتى قال الجاحظ[1] :

(لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل !!!)[2] .

الثاني : التصدي لإرجافات الفلاسفة، ورد ما زخرفوه من الشبه والبهتان .

لكن مرور الزمن، وتتابع الأيام أظهر بطلان زعمهم في الغاية من علمهم؛ إذ إنهم لم يحرسوا عقائدهم هم فضلا عن أن يحرسوا عقائد غيرهم، بل إن أغلب العوام أرسخ اعتقادا من كثير من أئمتهم، ولا أدل على ذلك من تمني غير واحد منهم أن يلقى الله وهو على دين الصبيان والعجائز، ومنهم من يوصي بذلك، ويجعله من أسنى الجوائز، ويذكر أن من التزمه فهو الفائز .

---

(١) هو : عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان، البصري المعتزلي، المشهور بالجاحظ، وسمي بذلك لجحوظ عينيه .كان من أئمة الاعتزال حتى نسبت إليه فرقة الجاحظية، وكان صاحب فنون وأدب باهر، وذكاء بين، وصفه الحافظ ابن كثير بأنه (كان شنيع المنظر، سيء المخبر، رديء الاعتقاد، ينسب إلى البدع والضلالات، وربما جاز به بعضهم إلى الانحلال)، وكان بارعا أخباريا أكثر من التأليف، ومن أشهر كتبه (البيان والتبين)، و (الحيوان)، وله غيرهما .توفي سنة خمس وخمسين ومائتين .

انظر : تاريخ بغداد (١٢/٢١٢)، البداية والنهاية (١١/٢٨) .

(٢) الحيوان (٤/٢٠٦) (تحقيق هارون/مطبعة مصطفى الحلبي/ط٢/١٣٨٥) .

قال أبو حامد الغزالي وهو من هو في الكلام :

(أما الكلام المحرر على رسم المتكلمين، فإنه يشعر نفوس المستمعين بأن فيه صنعة جدل يعجز عنه العامي، لا لكونه حقا في نفسه، وربما يكون ذلك سببا لرسوخ العناد في قلبه، ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين، ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال – أو من بدعة – إلى غيره، ومن مذهب الشافعي إلى مذهب أبي حنيفة، ولا على العكس، ...، **بل الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جدا مشرف على الزوال بكل شبهة**)[1] .

وقال أيضا :

(لم يكن الكلام في حقي كافيا، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافيا)[2].

فهو لا يشفي من الداء، بل يزيده حتى يستعصي على الأطباء الدواء، ونهاية من ابتلي به هي الشك والحيرة، وإن لم يتداركه الله برحمته تفلت من الدين بالكلية .

وأما ما زعموه من التصدي لرد شبهات الفلاسفة فقد حاولوا ذلك، لكنهم أخفقوا فيه و لم يأتوا بطائل، بل كانوا سببا في انتشار الباطل، وافتتان الناس بدين الأوائل؛ ذلك لأن الشيطان غرهم فزين لهم دراسة الفلسفة بزعم أنه لا سبيل إلى معرفة ما فيها من الخلل والزلل إلا بالاطلاع على كنهها، ومعرفة خباياها، وسبر غورها .

قال أبو حامد الغزالي :

(علمت يقينا أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما يطلع عليه صاحب العلم من غوره وغائله، فإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه

---

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص (٢٠٣-٢٠٤) (تحقيق دنيا/دار إحياء الكتب العربية/١٩٦١) .

(٢) المنقذ من الضلال ص : (٣٣) .

من فساده حقا ...، وعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية ..)[1].

بمثل هذه الحجة صرفوا وجوههم قبل الفلسفة، ونظرا لأن الشبه خطافة، والقلوب ضعيفة، والقوم لم تكن لديهم عناية كبيرة بالنصوص الشرعية وفهم سلف الأمة، كما أنه لا معصوم إلا من عصمه الله، فإن الكثيرين منهم لم يخرجوا من دراستها سالمين من أوضارها[2]، بل استهوتهم شبهات الفلاسفة وعلقت بقلوبهم، فراموا الفكاك، لكن ولات حين مناص .

وخير مثال يذكر هنا للتدليل على صحة ما أسلفت هو حال أبي حامد الغزالي الذي نقلت نص كلامه آنفا، فقد قال عنه تلميذه أبو بكر ابن العربي المالكي[3] :

(شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم فما استطاع)[4] .

وما أصدق ما قاله الإمام أبو القاسم اللالكائي رحمه الله [5] :

---

(١) المنقذ من الضلال ص : (٣٤) .

(٢) الأوضار جمع الوضر –بفتح الضاد– وهو : وسخ الدسم واللبن، أو غسالة السقاء والقصعة ونحوهما، وبقية الهناء، وما تشمه من ريح تجدها من طعام فاسد .انظر القاموس المحيط (٦٨٢/١) .

(٣) هو : محمد بن عبد الله بن محمد، أبو بكر، المشهور بابن العربي، الأندلسي الإشبيلي المالكي .ولد سنة ثمان وستين وأربع مائة، وتوفي بفاس سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة .وصفوه بأنه كان ثاقب الذهن، عذب المنطق، كريم الشمائل كامل السؤدد، وأنه كان فصيحا بليغا خطيبا، وأنه صنف وجمع، وفي فنون العلم برع .ومن مؤلفاته : (عارضة الأحوذي في شرح جامع أبي عيسى الترمذي) و (العواصم من القواصم) وغيرهما .

انظر : السير (١٩٧/٢٠)، الديباج المذهب (٢٥٢/٢) .

(٤) نقل عنه هذه المقولة شيخ الإسلام في مواطن عدة من كتبه منها على سبيل المثال مجموع الفتاوى (١٦٤/٤)، كما نقلها عنه الذهبي في السير (٣٢٧/١٩) .

(٥) هو : هبة الله بن الحسن بن منصور، أبو القاسم، الرازي الطبري اللالكائي الشافعي .وصفه الذهبي بأنه (الإمام الحافظ المجود المفتي، مفيد بغداد في وقته)، له مصنفات عدة منها : (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)، و (أسماء رجال الصحيحين) وغيرهما .توفي سنة ثمان عشرة وأربع مائة .

=

(فما جنى على المسلمين جناية أعظم من مناظرة المبتدعة، و لم يكن لهم قـــهر ولا ذل أعظم مما تركهم السلف على تلك الجملة يموتون من الغيظ كمـدا ودردا، ولا يجدون إلى إظهار بدعتهم سبيلا، حتى جاء المغرورون ففتحوا لهم إليها طريقا، وصاروا لهم إلى هلاك الإسلام دليلا، حتى كثرت بينهم المشاجرة، وظهرت دعوتهم بالمنـاظرة، وطرقت أسماع من لم يكن عرفها من الخاصة والعامة، حتى تقابلت الشبه في الحجـج، وبلغوا من التدقيق في اللجج، فصاروا أقرانا وأخدانا، وعلى المداهنة خلانا وإخوانـــا، بعد أن كانوا في الله أعداء وأضدادا، وفي الهجرة في الله أعوانا، يكفرونهم في وجوههم عيانا، ويلعنونهم جهارا، وشتان ما بين المنـــزلتين، وهيهات ما بين المقامين)[1] .

والمقصود أن المتكلمين بعد خوضهم غمار الفلسفة خرجوا وقد انبهروا بهـــا، وأعجبوا بأربابها، وتأثروا بمناهجها، فقد دخلوا فيها ومرادهم كما زعموا أن يتعرفـوا على مواطن الضعف فيها، ويقاتلوا أهلها بسلاحهم، لكن سرعان ما دارت الدائـــرة عليهم، وتحول العدو إلى الصديق الحميم، فصرت لا تسمع منـــهم إلا الثنـــاء علـــى الفلاسفة، والتبجيل لآراء الأوائل، وفي المقابل صرت لا تسمع منـــهم إلا الطعـــن في السلف واحتقار علومهم .

وسأقتصر هنا على إيراد مثال واحد من أمثلة كثيرة جدا تنبيء عن مدى تـــأثر المتكلمين بالفلسفة، وإعجابهم بأساطينها : فهذا الجاحظ الذي يعد إماما من أئمتـــهم يصرح بأنه يضيق صدره إذا اضطر إلى الرد على أهل النظر حتى ولو لاح لـــه زيـــف قولهم ووهاء رأيهم[2]، بل إن الغلو في تقديسهم وتقديس علومهم بلـــغ بـــه إلى أن يقول :

=

انظر : تاريخ بغداد (١٤/٧٠)، البداية والنهاية (١٢/٣٣) .

(١) شرح أصول الاعتقاد (١/١٩) .

(٢) انظر الحيوان (٥/٥٠٢)، فقد ذكر قولا لأرسطو مفاده أنه أبصر ثورا وثب بعد أن خصي، فنـــزا على بقرة فأحبلها، فعلق الجاحظ بقوله : (و لم نجد هذا عن معاينة، والصدور تضيق بالرد علـــى أصحـــاب النظر، وتضيق بتصديق هذا الشكل) .

(لولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لقد خس حظنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة)[1] .

فالفلسفة عند الجاحظ هي التي فتحت الباب أمام المتكلمين ليصلوا إلى أنواع الحكم، وفنون العلم، ولولا جهود الفلاسفة لعاشوا في جهل وضلال !! ولما أدركوا أشياء كثيرة غابت عنهم، وأشياء أخرى استعصى فهمها على أذهانهم .

فأنت ترى كيف جمع بين إطراء الفلسفة والانبهار بجهود الفلاسفة، وبين تقليل ما عند المسلمين من العلوم احتقارا لشأنها؛ إذ التقليل عنوان التحقير .

فلو كانت عقيدة كمال الدين في العلم والعمل راسخة في نفوس هؤلاء لما طلبوا علوم من ضل عن سواء السبيل، ولما سطروا مثل هذا الكلام الذي يندى له الجبين .

---

(١) الحيوان (١/٨٥) .

الأصل الثاني : تقديم العقل على النقل :

تقرر في الأصل السابق أن أهل الكلام انبهروا بالفلسفة، وأعجبوا بالفلاسفة، وتأثروا إلى حد بعيد بمناهجهم وطرقهم في النظر والاستدلال، فكانت نتيجة ذلك أنهم تكلموا في المسائل الأصول بالشكوك والظنون، وأطلقوا العنان للعقول، وجعلوها سبيل معرفة جميع العلوم، بل وعارضوا بها المنقول، فاحتاروا في بداية أمرهم في طريقة التعامل مع كل منهما، حتى صارت عندهم (مسألة العقل والنقل هي عقدة العَقْد، ومشكلة المشاكل في ذلك العهد)[1] .

ثم إنهم خلصوا بعد ذلك إلى أن العقل هو الذي ينبغي أن يقدس ويقدم، فادعوا في حقه دعاوى طويلة عريضة، ووصفوه بأوصاف خاطئة كاذبة، وذلك كي يتسنى لهم الوصول إلى ما أرادوا من جعله مصدر الهداية، والعمدة في معرفة ما يعتقد وما لا يعتقد . وفي الآتي ذكر لبعض تلك الدعاوى :

١/ زعموا أن العقل لا يكذب أصلا، وأنه لا يوصل إلا إلى الحق .

قال أبو حامد الغزالي :

(لا يُكَذِّبُ برهان العقل أصلا؛ فإن العقل لا يَكذِب، ولو كذب العقل فلعله كذب في إثبات الشرع؛ إذ به عرفنا الشرع، فكيف يعرف صدق الشاهد بتزكية المزكي الكاذب، والشرع شاهد بالتفاصيل، والعقل مزكي الشرع)[2] .

ولا ريب أن هذا باطل ومردود، وبيان ذلك في الآتي :

(أ) أن هذا ضرب من الغلو في تقديس العقل ووصف له بالعصمة، وهو شبيه بغلو الرافضة في تقديس أئمتهم حيث اعتقدوا فيهم العصمة .

(ب) أنه مجرد ادعاء يرده أول ما يرده واقع النظار والعقلاء !! فلو كان لا يكذب كما زعموا لما اختلف أربابه؛ إذ لا يتصور أن تكون نتيجة عقل كل واحد

---

(١) قاله إبراهيم مدكور في كتابه : في الفلسفة الإسلامية ص : (٨٧) .

(٢) قانون التأويل ص : (١٢٧) .

منهم صدقا ثم تجدهم يختلفون في مسألة واحدة إلى أقوال متضاربة ومذاهب متناقضة حتى إن الأمر ليصل بهم إلى أن يسفه بعضهم بعضا، ويكفر بعضهم بعضا، مع أن كل واحد منهم يدعي أن قوله هو الذي يقتضيه العقل، بل تجد الشخص الواحد يقول قولا يزعم أنه مقتضى العقل ثم لا يلبث إلا مليا حتى يظهر له بطلانه وزيفه فينقضه ثم يقول بقول آخر يدعي فيه ما ادعاه في القول الأول .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(ويكفيك دليلا على فساد قول هؤلاء أنه ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل، بل منهم من يزعم أن العقل جوز وأوجب ما يدعي الآخر أن العقل أحاله)[1] .

(ج) أن الذي لا يكذب ولا يخطئ هو ما جاء به الشرع؛ إذ الكمال لله وحده، والعصمة لرسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى .

وعليه فكلام الله، وما صح مما أثر عن رسول الله ﷺ هو الصدق الذي يجب أن يقدم على كل ما سواه .

٢/ زعموا أن نتائج العقل هي النتائج اليقينية، وأحكامه هي الأحكام القطعية؛ لذا فإن نفوسهم لا تطمئن إلا لشهادته، وصدورهم لا تنشرح إلا لنتائجه.

يقول الجاحظ :

(فما الحكم القاطع إلا للذهن، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل)[2] .

ويقول أيضا :

(والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين، وعز الثقة)[3] .

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى ص : (٢٧٧) .

(٢) رسالة التربيع والتدوير ضمن رسائل الجاحظ : (٨٨/٣) (تحقيق هارون/دار الجيل/ط١/١٤١١) .

(٣) كتاب المعلمين، ضمن رسائل الجاحظ (٢٩/٣) .

ويقول الجويني [1] :

(المعلومات تنقسم إلى العقليات والسمعيات .

فما كان معقولا وجد العاقل له ثلجا في نفسه، وانشراحا في قلبه .

وما تلقاه من السمع فهو غير مرتاب فيه، ولكنه لا يجد من نفسه الثلج الـذي يجده من المعقولات)[2] .

وهؤلاء المساكين أثرت شبهات الفلاسفة والمتكلمين في قلوبهم حتى صـارت نصوص الأنبياء لا تثلج صدورهم، فظنوا أن شأن الناس في ذلك كشأنهم، لذا هتكـوا ستر الله عليهم فأخبروا عن حقيقة حالهم، ولو وفقوا لرجعوا باللوم علـى أنفسـهم ولعلموا أن العيب فيهم لا في النصوص الشرعية، فحالهم كما قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا [3] .

ومما لا شك فيه أن كلامهما ينضح باتهام الدين بالنقصان؛ فالجـاحظ قصـر الاستبانة الصحيحة، والأحكام القاطعة على ما أنتجته العقول، كما أنه جعلها السبيل الذي يفضي بالإنسان إلى برد اليقين، وعز الثقة، فلازم ذلك أن النصوص الشـرعية ليس فيها شيء مما يوصل إلى القضايا الصحيحة والأحكام القاطعة المحمودة .

وأما الجويني فكلامه صريح في أن الأدلة الشرعية لا تثلج الصـدر كالأدلـة العقلية، فالدين عنده قصر في الإتيان بالأدلة التي تطمئن إليها النفوس .

---

(١) هو : عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، أبو المعالي، الجويني النيسابوري، المشهور بإمـام الحرمـين ، والملقب بضياء الدين .ولد سنة تسع عشرة وأربعمائة، وتوفي سنة ثمان وسبعين وأربع مائة .كان مـن أئمة الأشاعرة حتى قيل عنه : إنه إذا تكلم فالأشعري شعرة من وفرته، له مؤلفات عدة منها : (البرهان في أصول الفقه)، (نهاية المطلب في المذهب) وغيرهما، قيل إنه تاب في آخر حياته ورجع إلى مذهـب السلف .

انظر : السير (١٨/٤٨٦)، طبقات الشافعية الكبرى (٥/١٦٥)، منهج إمام الحرمين في دراسة العقيـدة لأحمد آل عبد اللطيف ص : (٣١ وما بعدها) (مطبعة مركز الملك فيصل/ط١/١٤١٤) .

(٢) العقيدة النظامية ص : (٧٦) باب السمعيات (تحقيق الكوثري/المكتبة الأزهرية للتراث /١٤١٢) .

(٣) من شعر المتنبي، انظر ديوانه مع شرحه لناصيف اليازجي (١/٢٩٣) (دار بيروت للنشر/١٤٠٤) .

٣/ زعموا أن العقل أصل النقل، والمزكي للشرع؛ لذا فهم مستعدون للقدح في النصوص الشرعية حتى تسلم لهم النتائج العقلية .

يقول الغزالي :

(من كذب العقل فقد كذب الشرع؛ إذ بالعقل عرف صدق الشرع، ولولا صدق دليل العقل لما عرفنا الفرق بين النبي والمتنبي، والصادق والكاذب، وكيف يكذب العقل بالشرع **وما ثبت الشرع إلا بالعقل !!**)[١] .

وقال ابن العربي المالكي :

(العقل والشرع صنوان، والعقل مزكي الشرع، ولا يجرح الشاهد المزكي، ولا يكذبه؛ فإن ذلك إبطال له)[٢] .

٤/ زعموا أن العقل يدرك علوما غيبية لا يمكن إدراكها إلا من جهته .

قال القاضي عبد الجبار :

(اعلم أن الدلالة أربعة : حجة العقل، والكتاب، والسنة، والإجماع .**ومعرفة الله تعالى لا تنال إلا بحجة العقل**)[٣] .

وقال أيضا :

(اعلم أن الخطاب على ضربين :

أحدهما يدل على ما لولا الخطاب لما صح أن يعلم بالعقل .

والآخر يدل على ما لولاه لأمكن أن يعرف بأدلة العقول، ثم ينقسم ذلك ففيه ما لولا الخطاب لأمكن أن يعلم بأدلة العقول، ويصح أن يعلم به الغرض، **وفيه ما لولا الخطاب لأمكن أن يعلم بالعقل، ولا يمكن أن يعلم إلا به ...**)[٤] .

---

(١) قانون التأويل ص : (١٢٦) .

(٢) العواصم من القواصم ص : (٢٣١) (تحقيق عمار الطالبي/دار التراث، مصر/ط١/١٤١٧) .

(٣) شرح الأصول الخمسة ص : (٨٨) (تحقيق عبد الكريم عثمان/مكتبة وهبة، القاهرة/ط١/١٣٨٤)، وانظر ص (٣٩، ٦٩) من المصدر نفسه .

(٤) متشابه القرآن لعبد الجبار ص : (٣٥) (تحقيق عدنان زرزور/دار التراث، القاهرة/دت) .

وقد بين أن الذي يعلم عنده بالشرع وحده هو الأحكام الشرعية كالصلوات الواجبة وشروطها وأركانها .

وأما الذي يعلم عنده بالشرع والعقل معا فهو أن الله عز وجل لا يرى، وكثير من مسائل الوعد والوعيد !!!

وأما ما لا يعلم إلا بالعقل وحده فمسائل التوحيد والعدل !!!

وقال الجويني :

(كل مدرك يتقدم على ثبوت كلام صدق فيستحيل دركه من سمع؛ فإن مستند السمعيات كلها الكلام الحق الصدق .

وبيان ذلك بالمثال : أن وجود الباري سبحانه وتعالى وحياته وأن له كلاما صدقا لا يثبته سمع)[1] .

وحكى الفخر الرازي أن المشهور عند أهل الكلام أن معرفة الله واجبة، وأنه لا يمكن تحصيلها إلا بالنظر[2] .

فليس في الدين عند هؤلاء ما يثبت وجود الله، ولا اتصافه بالحياة والكلام، بل ليس فيه من الأدلة والبراهين ما تحصل به معرفته !! وهذا اتهام للدين بالنقصان ليس بعده مزيد إلا التصريح؛ لأن معرفة الله جل وعلا، والإيمان بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أفضل العلوم، وأسنى المطالب، فإذا كان الدين لم يدل عليها، و لم يبينها، ووكل ذلك إلى العقول القاصرة فلا معنى للقول بأنه كامل، وأنه أتى بجميع ما يحتاجه الناس في أمور دينهم ودنياهم .

---

(١) البرهان في أصول الفقه (١/١١٠-١١١) .

(٢) انظر : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص : (١٣٠)، ولعل من الواجب التنبيه على أن الرازي اعترض هنا على ما ذكر بأنه مشهور عند أهل الكلام، فربما فهم البعض أنه لا يوافقهم في كون العقل يدرك علوما لا سبيل إلى إدراكها بالنقل، وهذا خطأ؛ إذ قد كفانا المؤنة وصرح بموافقته لهم فقال في الكتاب نفسه ص : (١٤٣) ما نصه : (النقليات بأسرها مستندة إلى صدق الرسول، فكل ما يتوقف العلم بصدق الرسول على العلم به لا يمكن إثباته بالنقل، وإلا لزم الدور) .

والمقصود أنهم أحاطوا العقل بهالة من التقديس ثم عارضوا به الشرع فحكموا بلا حياء ولا مواربة بتقديمه مطلقا، بل إنهم وضعوا في ذلك قانونا كليا تولى صياغة نصه الفخر الرازي فقال :

(اعلم : أن الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شيء ثم وجدنا أدلة نقلية يشعر ظاهرها بخلاف ذلك، فهناك لا يخلو الحال من أحد أمور أربعة :

إما أن يصدق مقتضى العقل والنقل، فيلزم تصديق النقيضين وهو محال .

وإما أن يبطلا فيلزم تكذيب النقيضين، وهو محال .

وإما أن تصدق الظواهر النقلية، وتكذب الظواهر العقلية، وذلك باطل؛ لأنه لا يمكننا أن نعرف صحة الظواهر النقلية إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية إثبات الصانع وصفاته، وكيفية دلالة المعجزة على صدق الرسول ﷺ، وظهور المعجزات على يد محمد ﷺ . ولو جوزنا القدح في الدلائل العقلية القطعية، صار العقل متهما، غير مقبول القول، ولو كان كذلك لخرج عن أن يكون مقبول القول في هذه الأصول، وإذا لم نثبت هذه الأصول، خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدة .

فثبت أن القدح في العقل لتصحيح النقل يفضي إلى القدح في العقل والنقل معا، وأنه باطل .

ولما بطلت الأقسام الأربعة !! (كذا) لم يبق إلا أن يقطع بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة بأن هذه الدلائل النقلية :

إما أن يقال : إنها غير صحيحة، أو يقال : إنها صحيحة، إلا أن المراد منها غير ظواهرها.

ثم إن جوزنا التأويل، اشتغلنا على سبيل التبرع بذكر تلك التأويلات على التفصيل، وإن لم يجز التأويل فوضنا العلم بها إلى الله تعالى .

فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه في جميع المتشابهات، وبالله التوفيق)[1] .

---

(١) أساس التقديس في علم الكلام ص : (١٧٢-١٧٣) (تصحيح أحمد سعد علي/مكتبة مصطفى الحلبي، مصر/١٣٥٤) .

وقد انبرى لنقض هذا القانون الفاسد علم الأعلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فألف في ذلك كتابه الماتع " درء تعارض العقل والنقل " الذي أبدع فيه أيما إبداع كشأنه في سائر كتبه، فقد والله طبق المفصل[1]،ووضع الهناء مواضع النقب[2]، حتى أتى على بنيان القانون من القواعد؛ لذا قال تلميذه ابن القيم رحمه الله :

(وقد أشفى شيخ الإسلام في هذا الباب بما لامزيد عليه، وبين بطلان هذه الشبهة، وكسر هذا الطاغوت في كتابه الكبير)[3]، (وهو : "بيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح" فإنه كتاب لم يطرق العالم له نظير في بابه، فإنه هدم فيه قواعد أهل الباطل من أسها، فخرت عليهم سقوفه من فوقهم، وشيد فيه قواعد أهل السنة والحديث، وأحكمها، وقررها بمجامع الطرق التي يعرف بها الحق من العقل والنقل والفطرة والاعتبار، فجاء كتابا لا يستغني من نصح نفسه من أهل العلم عنه)[4] .

---

(١) طبق المفصل أي أصابه إصابة محكمة فأبان العضو من العضو، ثم جعل لحسن الإصابة في القول .انظر : البيان والتبين (١٤٧/١)، ولسان العرب (٢١٣/١٠) .

(٢) هذا مثل يضرب لكل من يضع الشيء موضعه .انظر : لسان العرب (٦٨٩/١) .

(٣) الصواعق المرسلة (٧٩٦/٣) .

(٤) طريق الهجرتين ص : (٢٨٠-٢٨١) (تحقيق يوسف بدوي/دار ابن كثير، دمشق/ط٢/١٤١٩) .

الأصل الثالث : رد النصوص الشرعية :

تقدم معنا في الأصل السابق أن أهل الكلام لما تعارضت عندهم النصوص الشرعية مع أصولهم البدعية قدموا أصولهم وادعوا فيها أنها قواطع عقلية، وأما النصوص الشرعية فلم يكتفوا بتأخيرها بل تجاسروا على إسقاطها وردها، ومهدوا لذلك بسلوك الخطوات التالية :

أولا : سموها ظواهر سمعية إزالة لحرمتها من القلوب، ومنعا للتعلق بها، والتمسك بحقيقتها في باب الإيمان والمعرفة بالله وأسمائه وصفاته؛ لأن من اعتقد فيها أنها مجرد ظواهر لن يتحرج من تحريف معناها بأنواع المجازات، وصنوف التأويلات[1].

ثانيا : زعموا أنها لا تكون حجة، ولا تفيد اليقين حتى تستوفي شروطا شرطوها، وقيودا وضعوها، ومع كثرتها فهي أيضا شروط تعجيزية لا يندر توفرها فحسب، بل قد يستحيل ذلك .

فأبو الهذيل[2] اشترط في الخبر حتى يكون حجة أن لا يقل عدد رواته عن عشرين نفسا، وأن يكون فيهم واحد من أهل الجنة !!![3] .

فلم يكفه اشتراط التواتر حتى حدد عدد النقلة، بل واشترط زيادة على ذلك أن يكون فيهم واحد على بدعته ومن أهل نحلته؛ لأن من ليس كذلك لا يكون عنده مؤمنا ولا من أهل الجنة [4] .

---

(١) انظر : طريق الهجرتين ص : (٢٧٩) .

(٢) هو : محمد بن الهذيل بن عبيد الله، أبو الهذيل البصري، المعروف بالعلاف .ولد سنة خمس وثلاثين ومائة، وقيل سنة أربع وثلاثين، ومات سنة ست وعشرين ومائتين، وقيل غير ذلك .كان من أئمة الاعتزال، وشيوخ الضلالة، ووصف بفرط الذكاء، وشدة البخل، له مؤلفات منها : (الرد على المجوس) و (الرد على اليهود) وغيرهما .

انظر : المنية والأمل ص : (٥٤)، السير (١١/١٧٣) .

(٣) انظر الفرق بين الفرق للبغدادي ص : (١٢٤) الفضيحة السادسة من فضائح أبي الهذيل العلاف .

(٤) انظر : المصدر السابق .

وأما الفخر الرازي فاشترط لإفادة الخبر اليقين أن نتيقن توفر أمور عشـــرة !! فقال :

(الدليل اللفظي لا يفيد اليقين إلا عند تيقن أمور عشرة :

عصمة رواة مفردات تلك الألفاظ !!!، وصحة إعرابها، وتصريفـــها، وعـــدم الاشتراك، والمجاز، والتخصيص بالأشخاص، والأزمنة، وعدم الإضمـــــار، والتقـــديم والتأخير، وعدم المعارض العقلي الذي لو كان لرجح؛ إذ ترجيح النقل علـــى العقـــل يقتضي القدح في العقل المستلزم للقدح في النقل لافتقاره إليه، وإذا كان المنتج ظنيـــا فما ظنك بالنتيجة)[1] .

فلو لم يشترط الرازي إلا الشرط الأول الذي هو عصمة الـــرواة لكفـــى في القضاء على النقل جملة وتفصيلا، فكيف إذا انضمت إليه الشروط التسعة الباقية؛ لـــذا فعند الرازي ومن رضي قوله يجب على علماء الحديث أن يكسروا أقلامهم، ويتخـذوا الفلسفة وعلم الكلام قبلتهم، فلا فائدة من الاشتغال بالحديث والأخبار، فقد كفـــوا العنت والمؤنة، وحكم عليها بالرد بلا مثنوية .

وقد قطع الرازي الطريق على كل من تسول له نفسه أن يحاول تتبع الأخبـــار لعله يظفر بخبر يستوفي هذه الشروط فوضع قانونا آخر يقول فيه :

(إن الدلائل اللفظية لا تكون قطعية؛ لأنها موقوفة على نقل اللغات، ونقـــل وجوه النحو والصرف، وعلى عدم الاشتراك، والمجاز، والتخصيص، والإضمار، وعدم المعارض النقلي والعقلي، وكل واحد من هذه المقدمات مظنونة، والموقـــوف علـــى المظنون أولى أن يكون مظنونا، فثبت أن شيئا من الدلائل اللفظية لا يمكن أن يكـــون قطعيا)[2] .

---

(١) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص : (١٤٢) .

(٢) أساس التقديس ص : (١٨٢) .

ثالثا : أنهم جعلوا النصوص من باب الشبه التي لا تستحق أن يشتغل بـــالرد عليها إلا تبرعا .

يقول الآمدي :

(لعل الخصم قد يستمسك بظواهر من الكتاب والسنة وأقوال بعض الأئمـــة، وهي بأسرها ظنية، ولا يسوغ استعمالها في المسائل القطعية؛ فلهذا آثرنـــا الإعـــراض عنها، و لم نشغل الزمان بإيرادها)[1] .

والمقصود أنهم استطاعوا بسلوك هذه الخطوات أن يسقطوا هيبـــة النصـــوص الشرعية من نفوس المغترين بهم، مما جرأهم على ردها رأسا، وذلك إمـــا بـــالطعن في صحتها وثبوتها، وإما بتحريف معانيها وصرفها عن حقائقها، وفيما يلي بيان طرقـــهم في ذلك :

أولا : طرقهم للطعن في ثبوتها :

وهي كثيرة، لكن حسبي أن أورد منها ما يلي :

١/ أنهم لما راموا إسقاط أكبر عدد ممكن من السنن بأيسر الطرق عمدوا إلى ما لم يبلغ منها حد التواتر فزعموا أنها ظنية فلا يحتج بها في العقائد مطلقا، سواء خـــالفت العقل أم وافقته !! فإن خالفته حكم عليه بالبطلان، أو ردت بطرق أخرى سيأتي ذكر بعضها، وإن وافقته كان الاحتجاج بالعقل لا بها، فقال بعضهم :

(أخبار الآحاد في الصفات اغسلها، وهي عندي والتراب سواء، ولا أقـــول منها إلا بما قام في العقل تصديقه !!)[2] .

وقال القاضي عبد الجبار :

(إن كان – أي خبر الآحاد – مما طريقه الاعتقادات ينظر :

فإن كان موافقا لحجج العقول قبل واعتقد موجبه، لا لمكانه !! بل للحجـــة العقلية .

---

(١) غاية المرام في علم الكلام ص : (٢٠٠)، وانظر المصدر نفسه ص : (١٣٨) .

(٢) ذكره محمد بن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١٣٦/٢) من قول أبي سليمان الدمشقي في المناظرة التي جرت بينه وبين أبي إسحاق بن شاقلا .

وإن لم يكن موافقا لها، فإن الواجب أن يرد ويحكم بأن النبي ﷺ لم يقله، وإن قاله فإنما قاله على طريق الحكاية عن غيره، هذا إذا لم يحتمل التأويل إلا بتعسف، وأما إذا احتمله فالواجب أن يتأول)[1] .

وبلغ الأمر بالجويني إلى أن يفقد صوابه، و لم يتمالك نفسه، فاشتط في القول، وقسط في الحكم فجعل من الخزيِ القولَ بإفادة خبر الآحاد للعلم .

يقول الجويني :

(ذهبت الحشوية[2] من الحنابلة، وكتبة الحديث إلى أن خبر الواحد يوجب العلم، وهذا خزي لا يخفى مدركه على ذي لب)[3] .

وقال الرازي :

(أما التمسك بخبر الواحد في معرفة الله تعالى فغير جائز)[4] .

يقول ابن قتيبة رحمه الله في رد مذهب هؤلاء المبتدعة في خبر الواحد :

(لو رجعوا إلى أن الله تعالى إنما أرسل إلى الخلق كافة رسولا واحدا، وأمرهم باتباعه وقبول قوله، وأنه لم يرسل اثنين ولا أربعة، ولا عشرين ولا سبعين في وقت واحد لدلهم ذلك على أن الصادق العدل صادق الخبر، كما أن الرسول الواحد المبلغ عن الله تعالى صادق الخبر)[5] .

٢/ أنهم يبذلون قصارى جهدهم علهم يظفرون بمطعن في أسانيد الأحاديث التي تخالف أهواءهم، وذلك إما بالطعن في بعض الرواة بالبهتان، ولو لم يجدوا إلا

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص : (٧٧٠) .

(٢) هذا من الألقاب التي ينبز بها أهل البدع سلف هذه الأمة ومن سار على نهجهم ، انظر في سبب تلقيبهم بذلك مجموع الفتاوى (٤/٨٧-٨٩) .

(٣) البرهان (١/٣٩٢) .

(٤) أساس التقديس ص : (٩٠) .

(٥) تأويل مختلف الحديث ص : (٦٤) .

الطعن في الصحابة المجمع على عدالتهم[1]، أو الطعن في ضبط علماء الحديث، والتشكيك في تحريهم ودقة علومهم، فتجدهم يصفونهم بالغفلة والبلادة، وأنهم يروون كل ما هب ودب فتروج عليهم الأحاديث المكذوبة ظانين صحتها، ... إلى غير ذلك من التهم الزائفة [2] .

يقول الرازي :

(إن جماعة من الملاحدة وضعوا أخبارا منكرة موضوعة، واحتالوا في ترويجها، والمحدثون لسلامة قلوبهم ما عرفوها بل قبلوها، وأي منكر فوق وصف الله بما يقدح في ربوبيته)[3] .

ولرد هذه الشبهة المتهافتة أكتفي بنقل حكمة نادرة ومقولة بديعة للحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله يقول فيها :

(من تكلم في غير فنه أتى بهذه العجائب)[4].

فالرازي لا يدري الحديث لا رواية ولا دراية؛ لذا لا يعرف ما يخرج من رأسه، بل يهرف بما لا يعرف، ويلقي الكلام على عواهنه، فلا غرابة إن أتى بمثل هذه العجائب .

٣/ أنهم يحاولون إيجاد التعارض بين الأحاديث الصحيحة وبين القرآن، أو بينها وبين أحاديث صحيحة أخرى، فإن لم يجدوا فيعارضونها بأحاديث ضعيفة أو

---

(١) انظر تأويل مختلف الحديث ص (٢٦) فقد نقل عن النظام أنه قال : (لو كان ابن مسعود بدل نظره في الفتيا، نظر في الشقي كيف يشقى، والسعيد كيف يسعد حتى لا يفحش قوله على الله تعالى، ولا يشتد غلطه، لقد كان أولى به) يشير بذلك إلى الطعن في حديث الصادق المصدوق الذي رواه ابن مسعود ﷺ .

(٢) انظر : تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص (٧١-٧٢) .

(٣) أساس التقديس ص : (١٧٠) .

(٤) فتح الباري (٦٨٣/٣) .

موضوعة، بل ربما طفح الكيل عند بعضهم فتجده لا يتورع من وضع الأحـــاديث - عياذا بالله- حتى يعارض بها الأحاديث الصحيحة بغية إسقاطها، ورد الاستدلال بها .

٤/ تشبثوا بنقول أثرت عن بعض أئمة الحديث جاء في بعضها الخوف من جمع الحديث مع ترك العمل به، وفي بعضها الآخر التبرم من بعض كتبة الحديث الذيـــن لم تطل مدتهم في طلبه، فيتأدبوا بآدابه، ويتخلقوا بأخلاقه، فاستدل المبتدعة بكلام أولئك الأئمة على ذم الحديث وأهله، وأنه لا خير في الاشتغال به .

فقد نقل القاضي عبد الجبار بعض تلك النقول التي منها قول شعبة :

(ما أنا من شيء أخوف مني أن يدخلني النار من الحديث)[1] ، فعلق قائلا :

(يحمل ما روي عن شعبة وغيره من ذم أصحاب الحديث لفساد طريقتـــــهم وقلة تمييزهم) .

ثم قال : (الحديث بمنـــزلة سائر ما يجب أن يتحرز الإنسان فيه؛ لأن من حدث عـــن غيره بما لا يعلم أنه قد سمع منه، إما على جملة أو تفصيل فهو مقدم على قبيح لا يحـــل منه ذلك، كما لا يعلم منه لو علمه كذبا، فمن يشتد تحرزه يرى أن ذلك لو وجـــب لكان من فروض الكفايات، والسعيد فيه قد كفي بغيره)[2] .

فرغبته في القضاء على السنة، واجتثاثها من أصولها جعلته يحمل كلام أولئـــك الأئمة على هذا المحمل السيء، وإلا فكل ما صح عن الأئمة في ذلك له محامل حســـنة هي قصدهم من كلامهم بلا مرية، وقد تولى الخطيب البغدادي رحمه الله في كتابـــــه العجاب "شرف أصحاب الحديث" جمع ما نقل عنهم، وبيان المراد الصحيح منـــه[3]، ومما قاله في ذلك :

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ص : (٢٠٠) رقم (٢٤٢) .

(٢) فضل الاعتزال ص : (١٩٣-١٩٤) .

(٣) انظر : شرف أصحاب الحديث ص : (١٩٢ وما بعدها) باب ذكر أخبار ربما أشكلت على سـامعيها، وبيان الإشكال الواقع في وجوهها ومعانيها .

(وليس يجوز لأحد أن يقول : كان شعبة يثبط عن طلب الحديث، وكيف يكون كذلك وقد بلغ من قدره أنه سمي أمير المؤمنين في الحديث ؟!

كل ذلك لأجل طلبه له واشتغاله به، ولم يزل طول عمره يطلبه حتى مات على غاية الحرص في جمعه، لا يشتغل بشيء سواه، ويكتب عمن دونه في السن والإسناد، وكان من أشد أصحاب الحديث عناية بما سمع، وأحسنهم إتقانا لما حفظ)[1] .

٥/ إذا لم يتيسر لهم الطعن في ثبوت الحديث بأي من الطرق السابقة فربما ارتقوا مرتقى صعبا فردوا الحديث رأسا بلا مبرر ولا مطعن سوى أنه لا يوافق أهواءهم، ولأنه ينسف بدعتهم، ومثال ذلك ما نقل عن عمرو بن عبيد أنه قال في حديث الصادق المصدوق [2] :

(لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته، ولو سمعته من زيد بن وهب [3] لما صدقته، ولو سمعت ابن مسعود يقوله ما قبلته، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا لرددته، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت : ليس على هذا أخذت ميثاقنا !!!)[4] .

وهذا كلام من ليس لله في قلبه وقار، وهو أشبه بكلام اللعين إبليس، الذي عارض أمر الله بأفسد المقاييس، وليعلم أن الأهواء إذا عمت أعمت، وألقت صاحبها على أم رأسه في معاطب مهلكة .

---

(١) شرف أصحاب الحديث ص : (١٩٤-١٩٥) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب القدر، باب منه (٤/٢٠٨) رقم (٦٥٩٤)، ومسلم في صحيحه : كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٤/٢٠٣٦) رقم (٢٦٤٣) .

(٣) هو : زيد بن وهب، أبو سليمان الجهني، الكوفي .من كبار التابعين رحل إلى النبي ﷺ فقبض وهو في الطريق . روى عن جمع من كبار الصحابة ﷺ، منهم عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب وغيرهم، وروى عنه الأعمش، وسلمة بن كهيل وغيرهما .ووثقه ابن معين وغيره .توفي سنة ست وتسعين، وقيل غير ذلك .

انظر : تهذيب الكمال (١٠/١١١)، السير (٤/١٩٦) .

(٤) ذكره الذهبي في الميزان (٢/٢٧٨)، والسير (٦/١٠٤-١٠٥) .

قال الشهرستاني :

(إن أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة إبليس ومصدرها استبداده بـــالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار على مادة آدم عليه السلام وهي الطين)[1] .

فالتبجح بالاعتراض على الله جل وعلا، ورد قول رسول الله ﷺ يعد بلا شك (كفرا باردا، لا يسخنه إلا حرارة السيف، وأما دفء المناظرة فلا يؤثر فيه)[2] .

---

(١) الملل والنحل (١/١٦) .

(٢) من كلام ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم ص : (٣٥٢) .

ثانيا : طرقهم للطعن في دلالتها :

سلك أهل البدع مع النصوص الشرعية التي لا يستطيعون الطعن في ثبوتها - كالآيات القرآنية، والأحاديث المتواترة - منحا آخر أوصلهم إلى ردها ودفع الاحتجاج بها، فزعموا أننا ولو تيقنا ثبوتها إلا أن المراد منها مظنون لا يمكن الجزم به .

وعليه فكل ما خالف منها عقولهم وأهواءهم فإما أن يحرف معناه بأنواع المجازات، ومستكره اللغات، وصنوف الاحتمالات، وإما أن يجعل من المتشابه الذي لا يعلم معناه .

وقد أشار غير واحد من أهل الكلام إلى هاتين الطريقتين كالرازي في ثنايا قانونه الفاسد الذي ذكرت نصه فيما سبق، كما نص عليهما صاحب الجوهرة في قوله :

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها [1] .

وقد تشبثوا للتدليل على شرعية هذا المسلك الخطير بقول الله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾[2]، ولكي يستقيم لهم الاستدلال بالآية فقد وضعوا ثلاثة قواعد بنوا عليها أمرهم هذا، وهي :

(أ) جعلوا جميع النصوص الشرعية التي لا توافق أهواءهم من المتشابهات، فضابط المتشابه عندهم ما جاء على خلاف أصولهم .

---

(١) جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني ص : (٨٧) (مطبعة الحلبي، القاهرة/١٣٥٨) .

(٢) سورة آل عمران، الآية (٧) .

(ب) ظنوا أن المراد بالتأويل في الآية هو ذلك الاصطلاح الحادث الذي نشأوا عليه، فصار التأويل إذا أطلق لا يعرفون منه إلا أنه صرف اللفظ عن المعنى الظاهر إلى معنى آخر مرجوح[1]، ثم إنهم وضعوا أنفسهم موضع الراسخين في العلم، الذين يعرفون حقيقة التأويل، فأطلقوا العنان لعقولهم القاصرة تحرف النصوص وتفسد معانيها.

(ج) أنهم نسبوا السلف إلى الجهل، فجعلوا مذهبهم هو تفويض معاني تلك النصوص المتشابهة .

وفي الآتي زيادة تفصيل لطريقتي المتكلمين في رد النصوص الشرعية المتيقن ثبوتها :

الطريقة الأولى : طريقة التحريف :

اتفق أهل الكلام على أن النصوص التي تخالف أصولهم العقلية —كما يزعمون— لا يراد منها ما يفهم من ظاهرها، لأن التشبث بالظاهر عندهم قد يؤول بصاحبه إلى التشبيه والتجسيم، بل إلى الضلال وصريح الكفر !![2] .

قال الآمدي :

(اعلم أن هذه الظواهر —وإن وقع الاغترار بها، بحيث يقال بمدلولاتها ظاهرا من جهة الوضع اللغوي والعرف الاصطلاحي— فذلك لا محالة انخراط في سلك نظام

---

(١) للتأويل عند السلف معنيان : أحدهما تفسير الكلام وبيان معناه، والمعنى الثاني الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، ونفس المراد به، فإن كان طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبرا كان تأويله نفس الشيء المخبر به . وأما معنى التأويل في اصطلاح المتأخرين فهو الذي ذكرته أعلاه .
انظر : البرهان للجويني (١/٣٣٦) (تحقيق الديب/دار الوفاء/ط٣/١٤٢٠)، المستصفى (٢/٤٩)، التدمرية ص : (٩١-٩٦) (تحقيق السعوي/العبيكان/ط١/١٤٠٥)،درء تعارض العقل والنقل (١/١٤)، الموافقات (٥/٢١٦)، مذكرة أصول الفقه للشيخ الأمين ص : (٢١٢) .

(٢) سبق ذكر كلام الصاوي والدسوقي الذي فيه تصريحهما بأن الأخذ بظواهر النصوص من أصول الكفر، انظر ص : (٤١٢) من هذا البحث .

التجسيم، ودخول في طرف دائرة التشبيه، وسنبين ما في ذلك من الضلال، وفي طيه من المحال)[1].

وعليه فهم يرون أنه لا بد من تأويلها —بل تحريفها- وصرفها عن ظاهرها إلى احتمال بعيد مرجوح ربما احتمله اللفظ لغة، وإن لم يساعد عليه سياق الكلام وسباقه .

يقول ابن العربي المالكي :

(إذا جاء ما ينفي العقل ظاهره فلا بد من تأويله؛ لأن حمله على ظاهره محال، فيكون غير مفهوم، والشرع لا يأتي به، فلا بد من تأويله)[2] .

يقول الرازي :

(إن آيات التشبيه كثيرة لكنها لما كانت معارضة بالدلائل العقلية، لا جرم أوجبنا صرفها عن ظواهرها، وأيضا فعند حصول التعارض بين ظواهر النقل وقواطع العقل لا يمكن تصديقهما معا، وإلا لزم تصديق النقيضين، ولا ترجيح النقل على القواطع العقلية؛ لأن النقل لا يمكن التصديق به إلا بالدلائل العقلية، فترجيح النقل على العقل يقتضي الطعن في العقل والنقل معا، وإنه محال، فلم يبق إلا القسم الرابع، وهو القطع بمقتضيات الدلائل القطعية، وحمل الظواهر على التأويل، فثبت بهذا أن الدلائل النقلية يتوقف الحكم بمقتضاها على عدم المعارض العقلي)[3] .

وهذا المسلك في رد النصوص في غاية من الخطورة، وجنايته على العقيدة عظيمة جدا [4]، ولوازمه الفاسدة لا تعد ولا تحصى؛ ذلك لأن أربابه لم يكفهم إبطال

---

(١) غاية المرام في علم الكلام ص : (١٣٨) .

(٢) العواصم من القواصم ص : (٢٣١) .

(٣) المطالب العالية ص : (٣٠٩—٣١٠) (تحقيق السقا/دار الكتاب العربي/ط١/١٤٠٧) .

(٤) ألف الدكتور محمد أحمد لوح في هذا الموضوع رسالة ماتعة بعنوان : (جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية) تقدم بها إلى قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية لنيل درجة الدكتوراه وقد نوقشت وطبعت .

المعاني المرادة من النصوص، بل زادوا ضغثا على إبالة [1]، فقالوا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بغير علم ولا سلطان مبين، واخترعوا معاني زعموا أنها المراد الحقيقي للشارع من تلك الظواهر .

يقول الرازي :

(لما ثبت بالدليل أنه سبحانه وتعالى منزه عن الجهة والجسمية، وجب علينا أن نضع لهذه الألفاظ الواردة في القرآن والأخبار محملا صحيحا لئلا يصير ذلك سببا للطعن فيها)[2] .

فكأن الدين لم يكن فيه من البيان ما يزيل عن النصوص الشرعية اللبس والإشكال، فاحتاج إلى تحريفات وتخرصات أهل الكلام، وهذا لعمر الله جرأة عجيبة على تفسير النصوص بالاحتمالات والظنون، واتهام للدين بعدم الكمال .

ومما يجعل اللبيب يحار في أمر هذه العصابة أنهم يدركون خطورة الإقدام على هذا الأمر ثم لا يرعوون، بل ويدعون بأنهم الفرقة المحقة، وأتباع النهج الأقوم، وأن طريقتهم هذه هي الأعلم والأحكم .

يقول أبو حامد الغزالي واصفا جماعته المؤولة بعد أن حكم لهم بأنهم الفرقة المحقة :

(إنهم ارتقوا مرتقى صعبا، وطلبوا مطلبا عظيما، وسلكوا سبيلا شاقا، فلقد تشوفوا إلى مطمع ما أعصاه، وانتهجوا مسلكا ما أوعره، ولعمري إن ذلك سهل يسير في بعض الأمور،ولكنه شاق عسير في الأكثر .

---

(١) الضغث هو كل شيء جمعته وحزمته من عيدان أو قصب أو غير ذلك، والإبالة الحزمة من الحشيش والحطب. والمثل يضرب للرجل يحمل صاحبه المكروه ثم يزيده منه، فالمعنى بلية على أخرى كانت قبلها. انظر : لسان العرب (٦٣/٢) (٦/١١) جمهرة الأمثال (٦/٢) (المؤسسة العربية الحديثة/ط١/١٣٨٤) .

(٢) أساس التقديس ص : (٨٣) .

نعم من طالت ممارسته للعلوم، وكثر خوضه فيها يقدر على التلفيق بين المعقول والمنقول في الأكثر بتأويلات قريبة، ويبقى عليه لا محالة موضعان :

موضع يضطر فيه إلى تأويلات بعيدة تكاد تنبو الأفهام عنها .

وموضع آخر لا يتبين له فيه وجه التأويل أصلا، فيكون ذلك مشكلا عليه من جنس الحروف المذكورة في أول السور إذا لم يصح فيها معنى بالنقل .

ومن ظن أنه سلم من هذين الأمرين فهو إما لقصوره في المعقول، وتباعده عن معرفة المحالات النظرية، فيرى ما لا يعرف استحالته ممكنا، وإما لقصوره عن مطالعة الأخبار ليجتمع له من مفرداتها ما يكثر مباينتها للمعقول)[1] .

ففي هذا النص الإقرار بالأمور التالية :

١/ أن التأويل طريق وعر، ومرتع وخيم .

٢/ أن حقيقة التأويل هي التلفيق بين المعقول والمنقول، وبعبارة أخرى : التأويل عبارة عن تحريف النصوص ولي أعناقها حتى توافق أهواءهم .

٣/ أنهم يعترفون بأن من تأويلاتهم ما هو بعيد تنبو عنه الأفهام، لكن ضرورة التلفيق ألجأتهم إليه !! .

٤/ أن هناك نصوص صريحة في مخالفة أصولهم لا يمكنهم تأويلها .

٥/ أن المتبحر في الجهالات التي يسمونها بالمعقولات يدرك مدى مخالفتها للنصوص الشرعية .

٦/ أن من جمع مفردات النصوص يدرك مدى مباينتها لأصولهم الفاسدة؛ لذا نجد أبا حامد الغزالي يشن حربا شعواء على من جمع من أئمة السلف تلك النصوص وأفردها بالتأليف، فيقول :

---

(١) قانون التأويل ص : (١٢٦) .

(ولقد بعد عن التوفيق من صنف كتابا في جمع هذه الأخبار خاصة، ورسم في كل عضو بابا، فقال : باب في إثبات الرأس !!![1]، وباب في اليد وغير ذلك، وسماه كتاب الصفات؛ فإن هذه كلمات متفرقة صدرت من رسول الله عليه السلام في أوقات متفرقة متباعدة، اعتمادا على قرائن مختلفة تفهم السامعين معاني صحيحة، فإذا ذكرت مجموعة على مثال خلق الإنسان صار جمع تلك المتفرقات في السمع دفعة واحدة قرينة عظيمة في تأكيد الظاهر وإيهام التشبيه ...)[2] .

ويقول الرازي :

(لا يجوز جمع الألفاظ المتشابهة، وذلك لأن التلفظ باللفظ الواحد أو باللفظين قد يحمل على المجاز؛ لأن الاستقراء دل على أن الغالب على الكلام التكلم بالحقيقة، فإذا جمعنا الألفاظ المتشابهة وروياها دفعة واحدة أوهمت كثرتها أن المراد منها ظواهرها، فكان ذلك الجمع سببا لإيهام زيادة الباطل وأنه لا يجوز)[3].

فمن تصدى لجمع الأحاديث الواردة في الصفات الإلهية يعد عند القوم بعيدا عن التوفيق، ولعله مع مرور الزمن سنسمع بمن يحكم منهم بالحكم نفسه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لا لذنب اقترفاه إلا أنهما جمعا القرآن الذي فيه من آيات الصفات ما لا يعد ولا يحصى .

---

(١) هذا من الكذب والتهويل الذي يستعمله أهل البدع للتنفير من مذهب السلف، فهم يصورون لمن اغتر بهم أن السلفيين يعبدون إلها على صورة إنسان كبير !!!؛ لذا تجدهم يدعون عليهم مثل هذه الدعاوى الكاذبة، وإلا فأين في كتب السلف المؤلفة في الصفات التبويب لإثبات مثل هذه الصفة التي لم يرد بها كتاب ولا سنة ؟! .

(٢) إلجام العوام ص : (٧٥-٧٦) .

(٣) أساس التقديس ص : (١٨٨) .

وخلاصة القول : أن هؤلاء القوم لما لم يجدوا السبيل إلى الطعن في ثبوت ما يخالف أصولهم من الآيات القرآنية، والأحاديث المتواترة حاولوا الطعن في معانيها الظاهرة بسلوك الخطوات التالية :

(أ) قرروا أن ظواهرها تؤول بمن تشبث بها إلى الكفر أو الضلال .

(ب) ثم بعد ذلك خلصوا إلى وجوب صرفها عن ظاهرها .

(ج) أنهم بعد تقرير ما سبق اخترعوا لها معاني لم ترد في كتاب ولا سنة، وزعموا أنها المراد الحقيقي للشارع .

بمثل هذه الخطوات استطاع أهل الكلام أن يدفعوا الاستدلال بالنصوص التي عجزوا عن ردها من جهة الثبوت، لكن نظرا لأن تلك النصوص التي تخالف أصولهم كثيرة جدا، ومع كثرتها فقد جاءت في كلام الشارع مطلقة دون أن يشير أدنى إشارة إلى أن ظاهرها غير مراد وأنه لا يجوز اعتقاده، كل هذا أوقع المؤولة أمام إشكال عويص حاولوا الخروج منه بلا جدوى، وهو أنه لو صح ما يدندنون حوله تجاه هذه النصوص للزم من ذلك أن الشارع عرض الناس بها للضلال من غير أن ينبههم إلى عدم اعتقاد ما يقتضيه ظاهرها، وهذا بلا شك يتنافى مع وصف الدين بأنه جاء مبينا فيه كل ما يحتاجه الناس، بل يلزم منه أن (ترك الناس من إنزال هذه النصوص كان أنفع لهم وأقرب إلى الصواب، فإنهم ما استفادوا بنزولها غير التعرض للضلال، و لم يستفيدوا منها يقينا ولا علما بما يجب لله، ويمتنع عليه إذ ذاك، وإنما يستفاد من عقول الرجال وآراءها)[1] .

قال ابن القيم رحمه الله :

(لو أراد الله ورسوله من كلامه خلاف حقيقته وظاهره الذي يفهمه المخاطب، لكان قد كلفه أن يفهم مراده بما لا يدل عليه، بل بما يدل على نقيض

---

(١) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله نقله ابن القيم في الصواعق المرسلة (٣١٦/١) .

مراده، وأراد منه فهم النفي بما يدل على غاية الإثبات، وفهم الشيء بما يدل على ضده)[1] .

ولعل هذا الإشكال من الأمور التي حملت أحد الشطار المنتسبين إلى الاعتزال على القول بأن الخبر المتواتر– مع خروج ناقليه عند سامع الخبر عن الحصر، ومع اختلاف الناقلين واختلاف دواعيها – يجوز أن يقع كذبا !! [2]، بل نقل عن بعضهم أنه سعى في تحريف ما يخالف مذهبه من آي القرآن فأشار على الخليفة أن يكتب على ستر الكعبة : ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، فحرف كلام الله لينفي وصفه تعالى بأنه السميع البصير، كما نقل عن ملحد آخر أنه قال : وددت أني أحك من المصحف قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [3])[4].

ونقل عن ثالث أنه جاء إلى أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة فقال له : أريد أن تقرأ : وكلم الله موسى، بنصب لفظ الجلالة، ليكون موسى هو المتكلم لا الله جل وعلا !!!.

فقال له أبو عمرو : هب أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾[5] ،فبهت المعتزلي)[6] .

---

(١) الصواعق المرسلة (١/٣١٠ –٣١١) .

(٢) حكاه البغدادي عن النظام في كتابه الفرق بين الفرق ص : (١٣٧) .

(٣) سورة الأعراف، الآية (٥٤) .

(٤) ينظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص : (١٢١) (تحقيق الأرنؤوط/مؤسسة الرسالة/ط١/١٤٠٨) .

(٥) سورة الأعراف، الآية (١٤٣) .

(٦) ينظر شرح العقيدة الطحاوية ص : (١٧٧) .

الطريقة الثانية : طريقة التجهيل :

لقد أحس بعض المؤولة بخطر ما أقدموا عليه من اختراع معاني مبتدعة للنصوص التي تخالف أهواءهم، وعلموا أن ذلك يعد طعنا في كمال الدين، وفي كمال بيان النبي ﷺ؛ إذ إنهم لم يعثروا بعد البحث والتنقيب عن كلمة واحدة لا عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصحابة والتابعين وأئمة السلف يمكنهم أن يتمسكوا بها بحيث تسوغ لهم تأويلاتهم الباطلة، إلا أن تمكن شبهات الفلاسفة والمتكلمين من قلوبهم، واعتقادهم الجازم بصحة أصولهم التي يسمونها عقليات حال بينهم وبين الوصول إلى معرفة مذهب السلف حقا، فتولد عن إحساسهم المشار إليه ضرورة الإمساك عن تلك التأويلات، وعدم الخوض فيها، كما تولد عن تأثرهم بأصول المتكلمين ضرورة صرف النصوص التي تخالف أهواءهم عن ظاهرها، فلفقوا مذهبا نسبوه زورا وبهتانا إلى السلف فقالوا بأن مذهب السلف هو صرف تلك الظواهر عن معانيها لكن من غير تعيين لمعنى معين، بل يفوض علمها إلى الله جل وعلا .

يقول الجويني :

(اختلفت مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة، وامتنع على أهل الحق اعتقاد فحواها، واجراؤها على موجب ما تبتدره أفهام أرباب اللسان منها، فرأى بعضهم تأويلها والتزام هذا المنهج في آي الكتاب، وما يصح من سنن الرسول ﷺ .

وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى ...)[1] .

وقال الرازي :

(إن هذه المتشابهات يجب القطع بأن مراد الله منها شيء غير ظواهرها، كما يجب تفويض معناها إلى الله تعالى، ولا يجوز الخوض في تفسيرها)[2] .

---

(١) العقيدة النظامية ص : (٣٢) .

(٢) أساس التقديس ص : (٢٢٣) .

ومسلكهم هذا والذي قبله يجتمعان في صرف النصوص عن ظاهرها، وإبطال معانيها، ويفترقان في كون أرباب المسلك الأول يحددون معاني يزعمون أنها المرادة من تلك النصوص، وأما أرباب المسلك الثاني فيمنعون تحديد المعنى، ويفوضون علمه إلى الله جل وعلا .

وعليه فسلوك هذا المسلك يلزم منه لوازم كثيرة جدا تظهر فساده وخطورته على عقائد المسلمين [1]؛ لذا قال عنه شيخ الإسلام رحمه الله :

(قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد)[2] .

ويكفي في بيان قبح هذا المسلك وشناعته أنه يلزم منه تجهيل الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، والسابقين الأولين، فهم على قول هؤلاء لا يعلمون معاني ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص (ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء؛ إذ كان الله أنزل القرآن، وأخبر أنه جعله هدى وبيانا للناس، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نزل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه - وهو ما أخبر به الرب عن صفاته، أو عن كونه خالقا لكل شيء، وهو بكل شيء عليم، أو عن كونه أمر ونهى، ووعد وتوعد، أو عما أخبر به عن اليوم الآخر - لا يعلم أحد معناه، فلا يعقل ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بين للناس ما نزل إليهم، ولا بلغ البلاغ المبين .

وعلى هذا التقدير فيقول كل ملحد ومبتدع : الحق في نفس الأمر ما علمته برأيي وعقلي، وليس في النصوص ما يناقض ذلك؛ لأن تلك النصوص مشكلة متشابهة لا يعلم أحد معناها، وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يستدل به .

---

(١) ينظر في اللوازم الباطلة التي تلزم القائلين بالتفويض كتاب (مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات) لأحمد بن عبد الرحمن القاضي ص : (٥٠١ وما بعدها) (دار العاصمة/ط١/١٤١٦) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/٢٠٥) .

فيبقى هذا الكلام سدا لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء، وفتحا لباب من يعارضهم، ويقول : إن الهدى والبيان في طريقنا لا في طريق الأنبياء، لأنا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالأدلة العقلية، والأنبياء لم يعلموا ما يقولون، فضلا عن أن يبينوا مرادهم)[1] .

وبهذه الطرق المختلفة التي أسلفت الكلام عنها استطاع أهل البدع أن يسقطوا هيبة النصوص الشرعية من نفوس أتباعهم، وسهل عليهم ردها، وأمنوا من أن يستدل عليهم بها فخلا الجو لأهل الفطر المنكوسة، والبصائر المطموسة يعبثون بعقول المسلمين، ويفسدون عقائدهم حتى أشغلوهم بأنفسهم، وجعلوا بأسهم بينهم، فصرت لا ترى إلا الاختلاف والفرقة، والشك والحيرة، ولو اعتصموا بالدين وتشبثوا بنصوص الوحي لوجدوا فيها برد اليقين، ولكانت لهم فيها العصمة من الفتن الظاهرة والباطنة، ولكنهم ولوها ظهورهم فوكلهم الله إلى عقولهم .

(١) قاله شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل (١/٢٠٤-٢٠٥) .

الأصل الرابع : التقليل من شأن العلوم السلفية، والطعن في علماء السلف:

من المعلوم أن ما رتبه أهل الكلام من المقدمات، وما أصلوه من الأصول لم يؤثر شيء منها عن الرسول ﷺ، ولا عن أحد من الصحابة والأئمة العدول، بل إن المأثور عنهم من الأقوال والآثار والعلوم تنقض تلك الأصول، وتهدم ذلك البنيان، وتحول دون انتشار بدع أهل الزيغ والضلال .

وعليه فلا غرابة -والحال هذه- أن نجد أهل الكلام ينصبون العداء لأئمة السلف، ويلهجون بالتنقص من قدرهم، والاستخفاف بعلومهم، فلا يراعون لهم حرمة، ولا يخافون فيهم إلا ولا ذمة، بل يستبيحون الولوغ في أعراضهم المصونة، ويأكلون لحومهم المسمومة، سيرا على عادة أهل البدع المعلومة تجاه سلف الأمة، وأئمة أهل السنة، وتحقيقا لعلامتهم المشهورة، والتي نص عليها الإمام أبو حاتم الرازي رحمه الله في قوله :

(علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر ...)[1] .

قال الخطيب البغدادي رحمه الله بعد ذكره أن أهل البدع يعيبون أهل السنن والآثار :

(وليس ذلك عجيبا من متبعي الهوى، ومن أضلهم الله عن سلوك سبل الهدى، ومن واضح شأنهم الدال على خذلانهم : صدوفهم عن النظر في أحكام القرآن، وتركهم الحجاج بآياته الواضحة البرهان، واطراحهم السنن من ورائهم، وتحكمهم في الدين بآرائهم .

فالحدث منهم منهوم بالغزل، وذو السن مفتون بالكلام والجدل، قد جعل دينه غرضا للخصومات، وأرسل نفسه في مراتع الهلكات، ومناه الشيطان دفع الحق

---

(١) أخرجه الصابوني في عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص : (٣٠٣)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/٢٠٠) .

بالشبهات، إن عرض عليه بعض كتب الأحكام المتعلقة بآثار نبينا عليه أفضل السلام، نبذها جانبا، وولى ذاهبا عن النظر فيها، يسخر من حاملها وراويها، معاندة منه للدين وطعنا على أئمة المسلمين، ثم هو يفتخر على العوام بذهاب عمره في درس الكلام، ويرى جميعهم ضالين سواه، ويعتقد أن ليس ينجو إلا إياه بخروجه -زعم- عن حد التقليد، وانتسابه إلى القول بالعدل والتوحيد ...)[1] .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(والمعتزلة تفسق من الصحابة والتابعين طوائف، وتطعن في كثير منهم وفيما رووه من الأحاديث التي تخالف آراءهم وأهواءهم، بل تكفر أيضا من يخالف أصولهم التي انتحلوها من السلف والخلف، فلهم من الطعن في علماء السلف وفي علمهم ما ليس لأهل السنة والجماعة)[2] .

وفيما يلي أسوق ما تيسر الوقوف عليه من النقول عن بعض أئمة الضلال المنتسبين إلى الكلام فيها الازدراء بأئمة السلف من الصحابة فمن دونهم :

١/ نقل عن شيخ الاعتزال واصل بن عطاء الغزال أنه قال :

(لو شهد علي وطلحة، أو علي والزبير، أو رجل من أصحاب علي، ورجل من أصحاب الجمل عندي على باقة بقل لم أحكم بشهادتهما، لعلمي بأن أحدهما فاسق لابعينه)[3] .

٢/ ونقل عن عمرو بن عبيد أنه قال عن جماعة من أئمة السلف :

(أولئك أرجاس أنجاس أموات غير أحياء !!!)[4].

---

(١) شرف أصحاب الحديث ص : (٢٠-٢١) .

(٢) مجموع الفتاوى (٤/١٥٤-١٥٥) .

(٣) نقله عنه البغدادي في الفرق بين الفرق ص : (١١٧)، والذهبي في الميزان (٤/ ٣٢٩) .

(٤) نقل عنه ذلك الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/٢٧٤) .

بل نقل عنه أنه دعا على سمرة[1] قائلا :

(قبح الله سمرة !!!)[2] .

٣/ وأما المسمى بالنظام[3] فهو حامل لواء الطعن بالبهتان في سادات الصحابة، وأئمة الإسلام فقد نقل عنه ثلب أبي بكر الصديق ﷺ، وغمز عمر بن الخطاب ﷺ، كما نقل عنه أنه عاب عثمان بن عفان ﷺ وعلي بن أبي طالب ﷺ، وكذب ابن مسعود ﷺ وأبا هريرة ﷺ، وطعن في أهل الحديث لروايتهم أحاديثه، إلى غير ذلك مما يطول وصفه وذكره [4] .

قال البغدادي :

(ومثله –أي النظام– في طعنه على أخيار الصحابة مع بدعته في أقواله، وضلالته في أفعاله كما قيل في الأمثال السائرة : إن من كان في دينه ذميما، وفي أصله لئيما، لم يترك لنفسه عارا يتهم به إلا نحله كريما، واستباح به حريما، وهل يضر السحاب نباح الكلاب ؟

---

(١) هو : الصحابي الجليل سمرة بن جندب بن هلال، الفزاري، كان من علماء الصحابة، شديدا على الخوارج، قتل منهم جماعة .توفي سنة ثمان وخمسين، وقيل سنة تسع وخمسين .

انظر : أسد الغابة (٢/٣٥٤)، السير (٣/١٨٣) .

(٢) انظر ميزان الاعتدال (٣/ ٢٧٤) .

(٣) هو : إبراهيم بن سيار بن عباد، أبو إسحاق، الضبعي، البصري، المعروف بالنظام، لقب بذلك لأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة، لا أنه كان نظاما للكلام المنثور والشعر الموزون كما يزعم المعتزلة .كان من شيوخ الاعتزال، رقيق الدين، وصف بأنه كان شاطرا من الشطار، يغدو على سكر، ويروح على سكر، وانفرد بمسائل لم يسبق إليها كالقول بالطفرة التي ألف فيها كتابا سماه (كتاب الطفرة) وله أيضا (كتاب الجواهر والأعراض) وغيرهما، وقد كفره جماعة .هلك سنة بضع وعشرين ومائتين .

انظر : تأويل مختلف الحديث ص : (٢٣)، السير (١٠/٥٤١) .

(٤) انظر تأويل مختلف الحديث ص : (٢٤-٢٨)، والفرق بين الفرق ص : (١٤٠)، وذكر أن الجاحظ نقل عنه ذلك في كتاب (المعارف) وكتاب (الفتيا) .

وكما لا يضر السحاب نباح الكلاب كذلك لا يضر الأبرار ذم الأشرار)[1] .

وأما الأشاعرة فمع تعظيمهم للسلف خاصة الصحابة، وأعلام الأئمـــة إلا أن ذلك لم يكن مانعا لهم من مخالفتهم في أصول الدين، بل لهم من الأقوال التي يلزم منـها تجهيلهم الشيء الكثير، ولعل أكبر ما أوقعهم في ذلك أمور عدة، منها :

١ / الجهل بحقيقة مذهب السلف، وقد قيل : من جهل شيئا عاداه، فمجـــرد الجهل بالشيء يورث العداوة له .

٢/ ما سبق لهم من اعتقاد صحة أصولهم الفاسدة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله :

(إن كثيرا من أتباع أبي الحسن الأشعري يصرحون بمخالفة السلف في مثـــل مسألة الإيمان، ومسألة تأويل الآيات والأحاديث .يقولون : مذهب السلف أن الإيمـان قول وعمل يزيد وينقص، وأما المتكلمون من أصحابنا فمذهبهم كيـــت وكيـــت !! وكذلك يقولون : مذهب السلف أن هذه الآيات والأحاديث الواردة في الصفـــات لا تتأول، والمتكلمون يريدون تأويلها إما وجوبا وإما جوازا، ويذكرون الخـــلاف بـــين السلف وبين أصحابهم المتكلمين، هذا منطوق ألسنتهم، ومسطور كتبهم .

أفلا عاقل يعتبر ؟ ومغرور يزدجر ؟ أن السلف ثبت عنهم ذلك حتى بتصريـــح المخالف، ثم يحدث مقالة تخرج عنهم !! أليس هذا صريحا أن السلف كانوا ضالين عن التوحيد والتنـــزيه، وعلمه المتأخرون ؟! وهذا فاسد بضرورة العلم الصحيح، والديـــن المتين ...

وتارة يجعلون إخوانهم المتأخرين أحذق وأعلم من السلف، ويقولون : طريقـــة السلف أسلم، وطريقة هؤلاء أعلم وأحكم !! فيصفون إخوانهم بالفضيلـــة في العلـــم والبيان، والتحقيق والعرفان، والسلف بالنقص في ذلك والتقصـــير فيـــه، أو الخطـــأ والجهل، وغايتهم عندهم أن يقيموا أعذارهم في التقصير والتفريط .

---

(١) الفرق بين الفرق ص : (١٤٣) .

ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض، فإنه وإن لم يكن تكفيرا للسلف –كما يقوله من يقوله من الرافضة والخوارج– ولا تفسيقا لهم –كما يقوله من يقوله من المعتزلة والزيدية وغيرهم– كان تجهيلا لهم وتخطئة وتضليلا، ونسبة لهم إلى الذنوب والمعاصي، وإن لم يكن فسقا فزعما أن أهل القرون المفضولة في الشريعة أعلم وأفضل من أهل القرون الفاضلة)[1] .

(١) مجموع الفتاوى (٤/١٥٦-١٥٧) .

المطلب الثاني : موقف المتكلمين من المسائل العلمية والعملية :

لاشك أن اهتمام أهل الكلام كان مصروفا إلى استنباط الحجج العقلية، وإيراد الإشكالات ومحاولة الجواب عنها، وبيان شبهات الخصوم والسعي وراء إظهار زيفها، فذهبت أعمارهم في هذه المسائل حتى أصبحت هي دينهم وديدنهم، وانشغلوا بها عن العمل، فصارت المسائل العملية عندهم مسائل ثانوية، وشبه مهملة، وفيما يلي بيان ذلك :

١/ إعطاء الأولوية للمسائل النظرية :

ثمت أمور عدة تبرهن على أن أهل الكلام قد أولووا عناية كبيرة للمسائل النظرية، وأنهم بالغوا في ذلك حتى انشغلوا عن العمل، وفرطوا فيه .وسأقتصر على ذكر مسألتين يتضح من خلالهما صحة ما ذكرت :

المسألة الأولى : أنهم جعلوا المسائل العلمية هي مسائل الأصول، والمسائل العملية هي الفروع، وبنوا على ذلك أن المسائل العلمية التي هي مسائل الأصول عندهم لا يتعدد الحق فيها؛ لذا يحكم على من خالف فيها بالكفر أو الفسق، وأنها لا تثبت إلا بأدلة قطعية الثبوت والدلالة، فلا مدخل للاستدلال عليها بأخبار الآحاد !! بخلاف المسائل العملية فلا يكفر من خالف فيها، ويستدل على إثباتها بأخبار الآحاد .

وهذا التقسيم بالإضافة إلى بطلانه قد نتجت عنه نتائج فاسدة منها إهمال المسائل العملية وعدها مجرد مسائل فرعية يسع فيها الخلاف، ولا تحتاج إلى بذل الوقت لتحقيق الصواب فيها !!

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(إن هذه التسمية محدثة، قسمها طائفة من الفقهاء والمتكلمين، وهو على المتكلمين والأصوليين أغلب، لا سيما إذا تكلموا في مسائل التصويب والتخطئة .

وأما جمهور الفقهاء المحققين والصوفية فعندهم أن الأعمال أهم وآكد من مسائل الأقوال المتنازع فيها؛ فإن الفقهاء كلامهم إنما هو فيها، وكثيرا ما يكرهون الكلام في مسألة ليس فيها عمل ... .

بل الحق أن **الجليل من كل واحد من الصنفين مسائل أصول، والدقيق مسائل فروع**[1] ...)[2] .

المسألة الثانية : أنهم أوجبوا على كل أحد تحقيق المسائل العلمية، ويرى بعضهم أنه لا يسع أحدا التقليد فيها، حتى نقل عن أبي الحسن الأشعري أنه قال :

(إيمان المقلد لا يصح !!!)[3] .

كما أنهم قرروا بأن أول واجب على المكلف قصدا هو المعرفة، وأول ما يجب عليه وجوب الوسائل هو النظر، أو القصد إلى النظر على اختلاف بينهم [4] .

فدل هذا على مدى عنايتهم بهذه المسائل وجعلهم مدار الدين كله عليها، وبالمقابل فقد أهملوا المسائل العملية كما سأبينه فيما يلي :

٢/ إهمالهم للجانب العملي :

لقد كان أكثر انشغال المتكلمين بإيراد الشبهات والجواب عنها، وبيان مسلئل الجدال وتأصيلها، والبحث عن الأدلة العقلية وترتيب مقدماتها، الأمر الذي أثر سلبا على الجانب العملي عندهم، فصار إهمالهم له أوضح من أن يحتاج إلى الإكثار من إيراد الأدلة الدالة عليه، فلو لم يكن ثمت دليل إلا قول بعضهم في الإيمان، وإهمالهم لتوحيد

---

(١) هذا ضابط دقيق للتفريق بين الأصول والفروع، إلا أنه يجب التنبيه على أن كون بعض المسائل جلية أو دقيقة أمر نسبي، فقد تكون المسألة عند قوم واضحة وجلية، وعند آخرين دقيقة وخفية، والله تعالى أعلم .

(٢) مجموع الفتاوى (٥٦/٦) .

(٣) ذكره عنه أبو عذبة في الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية ص : (٣٦) ثم ذكر أن القشيري قال بأن هذا مما افتري عليه، والله تعالى أعلم .

(٤) انظر درء تعارض العقل والنقل (٣٥٣/٧) .

العبادة لكفى، فقد قالوا بعدم دخول الأعمال في الإيمان، وأنه تصديق القلب فقط - وهو قول الجهمية ومن تبعهم من الأشاعرة- كما أن هممهم كانت منصرفة لإثبات توحيد الربوبية بطرق فلسفية ملتوية فأهملوا توحيد الألوهية حتى لا تكاد تجد له ذكرا في كتب كثير منهم .

وقد اعترف بعض المعاصرين المعجبين بالمعتزلة بإهمال المتكلمين للجانب العملي فقال :

(... الدين يتطلب شعورا يدعو إلى العمل، وحرارة إيمان تبعث على التقوى، ونظام المعتزلة —وهو الذي جرى عليه المتكلمون بعدهم— نظام جيد التفكير! ضعيف الروح، غلا في تقدير العقل، وقصر في قيمة العاطفة، يتجلى ذلك لك إذا وازنته — مثلا— بمنهج الصوفية فهو على العكس من المعتزلة شعور وعاطفة ولا منطق)[1].

ولعل هذا الإهمال هو الذي حدا بكثير منهم إلى تبني التصوف في السلوك، فصرت تسمع من يقول منهم أنا أشعري المعتقد تجاني الطريقة مثلا، حتى قال أحدهم:

و بعد فالعون من الله المجيد في نظم أبيات للأمي تفيد

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك [2] .

وهذا أبو حامد الغزالي لما لم يجد عند المتكلمين ما يشبع همته في هذا الجانب لجأ إلى التصوف ثم صرح قائلا :

(علمت يقينا أن الصوفية هم السابقون إلى طريق الله تعالى خاصة، وأن سيرهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق)[3].

وذكر شيخ الإسلام رحمه الله قصة مفادها أن أحد شيوخ الصوفية دخل عليه إمامان من أئمة الكلام أحدهما : أبو عبد الله الرازي، والآخر من شيوخ المعتزلة، فقالا

---

(١) قاله أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام (٣/٧٣) (دار الكتاب العربي، بيروت /ط١٠/دت) .

(٢) قاله ابن عاشر في نظمه المشهور المسمى بالمرشد المعين ص : (٣) (المكتبة الشعبية، بيروت/دت) .

(٣) المنقذ من الضلال ص : (٦٢)، وهذا الذي قاله هو ما بلغه علمه؛ إذ إنه ما يدري طريقة السلف التي تجمع بين العلم والعمل مع اشتراط كون ذلك جميعه موافقا لما أخبر به الرسول ﷺ ولما أمر به .

له : يا شيخ ! بلغنا أنك تعلم علم اليقين !! ونحن نتناظر من كذا إلى كذا كلما أقام دليلا أفسدته، وكلما أقمت دليلا أفسده وقمنا ولم يقدر أحد منا يقيم دليلا على الآخر !!! .

فقال : ما أدري ما تقولان، أنا أعلم علم اليقين !!

فقالا : صف لنا علم اليقين ؟

فقال : هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ...

فقالا له : كيف الطريق إلى هذه الواردات ؟

فدلهما على الإعراض عن الشواغل الدنيوية، والإقبال على ما يؤمر به من العبادات والزهد، فقال الرازي : أنا لا يمكنني هذا فإن لي تعلقات كثيرة !! وأما المعتزلي فقال : أنا محتاج إلى هذه الواردات فقد أحرقت الشبهات قلبي، فأخبره الشيخ بما يعمله من الذكر والخلوة !! فتعبد مدة فلما خرج من الخلوة قال : يا سيدي والله ما الحق إلا ما يقول هؤلاء المشبهة !والمعتزلة يسمون من أثبت الصفات مشبها)[1] .

والخلاصة أن أهل الكلام اقتصرت عنايتهم على المسائل النظرية، وجعلوها أهم أمور الدين التي عليها مدار السعادة .

إذا ثبت هذا وثبت ما سبق ذكره عنهم خلال دراسة أصولهم أنهم يعتقدون بأن المرجع في هذه الأمور النظرية هو العقل، وأن الرسول ﷺ لم يأت في هذا الباب بما يثلج الصدور، ولم يبين ما يوصل إلى برد اليقين - أقول : إذا ثبت هذا كله - علم أنهم يتهمون الدين بالنقصان، والنبي ﷺ بالتقصير في بيان أهم أمور الدين عندهم !! لذا قال شيخ الإسلام رحمه الله :

---

(١) انظر القصة في بيان تلبيس الجهمية (١/٢٦٥-٢٦٦)، ودرء تعارض العقل والنقل (٧/٤٣١-٤٣٢)، ومجموع الفتاوى (٤/٤٣-٤٤) .

(إن المسائل التي هي من أصول الدين التي تستحق أن تسمى أصول الدين - أعني الدين الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه - لا يجوز أن يقال : لم ينقل عن النبي ﷺ فيها كلام، بل هذا كلام متناقض في نفسه؛ إذ كونها من أصول الدين يوجب أن تكون من أهم أمور الدين، وأنها مما يحتاج إليه الدين، ثم نفي نقل الكلام فيها عن الرسول يوجب أحد أمرين :

إما أن الرسول أهمل الأمور المهمة التي يحتاج إليها الدين فلم يبينها .

أو أنه بينها فلم تنقلها الأمة .

وكلا هذين باطل قطعا، وهو من أعظم مطاعن المنافقين في الدين، وإنما يظن هذا وأمثاله من هو جاهل بحقائق ما جاء به الرسول، أو جاهل بما يعقله الناس بقلوبهم، أو جاهل بهما جميعا، فإن جهله بالأول يوجب عدم علمه بما اشتمل عليه ذلك من أصول الدين وفروعه، وجهله بالثاني يوجب أن يدخل في الحقائق المعقولة ما يسميه هو وأشكاله عقليات، وإنما هي جهليات، وجهله بالأمرين يوجب أن يظن من أصول الدين ما ليس منها من المسائل والوسائل الباطلة، وأن يظن عدم بيان الرسول لما ينبغي أن يعتقد في ذلك كما هو الواقع لطوائف من أصناف الناس حذاقهم فضلا عن عامتهم)[1] .

فموقف المتكلمين من كمال الدين في هذه المسائل أجمله في النقاط التالية :

١/ أن أهم أمور الدين عندهم، ومدار السعادة على تحقيق المسائل النظرية .

٢/ أن المسائل العملية عندهم مسائل فرعية؛ لذا فهي عندهم شبه مهملة .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/٢٦-٢٧) .

٣/ أنهم جعلوا العقل هو المرجع في معرفة المسائل النظرية التي هي أصول الدين عندهم، والتي عليها مدار السعادة !!! .

فكانت نتيجة هذا كله ما يلي :

- اتهام الدين بعدم الكمال، ورميه بالتقصير في بيان أصول الدين .

- تقرير كثير من المسائل العلمية على خلاف ما دلت عليه النصوص الشرعية؛ لأن عمدتهم في ذلك لم يكن عليها، بل كانت عمدتهم على الشبهات التي يسمونها عقليات !!

- أن تفريطهم في المسائل العملية اضطر كثيرا منهم إلى الدخول مع الصوفية لسد هذه الثغرة .

المبحث الثالث : المتأثرون بالمنهج العقلاني في هذا العصر .

وفيه مدخل، ومطلبان :

المطلب الأول : بيان أصولهم التي خرموا بها القاعدة، وعلاقتها بأصول أسلافهم .

المطلب الثاني : ذكر بعض الأمثلة التي تبين خرمهم لقاعدة كمال الدين .

مدخل :

لقد بلغت الاستهانة بتراث الأمة في هذه الأزمنة الوخيمة مبلغا عظيما، إذ ظهرت دعوات عدة تدعو إلى الاستهانة ببعض العلوم الشرعية، وتعتبر الاشتغال بما مضيعة للوقت، وتعدها من وسائل تزجية الفراغ[1]، ويرى أربابها أن دراسة الفرق ورد الشبهات التي أثيرت حول العقائد يعد نبشا لما تحت التراب[2]، وقتالا في ساحة لا عدو فيها، ومحاسبة لأمة قد خلت، وبأعمالها ارتهنت، بل بلغ الأمر إلى أن طعن أحدهم في علماء الأمة واتهمهم بتوهين الصف، والفرار من الزحف؛ لأنهم كما يزعم صرفوا جهودهم وضيعوا أوقاتهم في الرد على فرق ولت وأدبرت تاركين الرد على الملاحدة المنكرين وجود الله فقال :

(قلت لإخواننا العلماء في قطر والمملكة العربية السعودية حين سمعت بعضهم يجادل في قضية الصفات بين السلف والخلف، وما فيها من جدل وكلام طويل الذيول : إن المعركة اليوم ليست مع الأشاعرة ولا مع الماتريدية، ولا المعتزلة ولا الجهمية !! إن معركتنا الكبرى مع الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله ولا نبوة ولا كتاب، ليست مع الذين يقولون عن الله ليس له مكان، بل مع الذين يقولون ليس له وجود، وعلينا أن نخلقه كما قال أحدهم !!

ليست معركتنا مع الذين يؤولون صفات الله تعالى، بل مع الذين يجحدون الله بالكلية، وأي تحويل للمعركة عن هذا الخط يعتبر توهينا للصف، وفرارا من الزحف، وإعانة للعدو !!!

ومن الإنصاف أن أقول : إني وجدت تجاوبا رائعا من علماء قطر، والمملكة العربية السعودية إلا القليل منهم)[3] .

---

(١) انظر كتاب الغزالي المعاصر مشكلات في طريق الحياة ص : (٤٣) .

(٢) انظر كلام الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه أولوية الحركة الإسلامية ص : (٩٢) تحت عنوان إهالة التراب على المشكلات التاريخية .

(٣) قاله الدكتور القرضاوي في كتيبه وجود الله ص : (٦) .

وعليه فلعلي أكون مصيبا إذا قلت : إننا في هذه الأزمنة أولى من ابـــن قتيبـــة بترداد مقولته البديعة :

(قد كنا زمانا نعتذر من الجهل، فقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم ! وكنا نؤمل شكر الناس بالتنبيه والدلالة، فصرنا نرضى بالسلامة، وليس هذا بعجيـــب مع انقلاب الأحوال، ولا ينكر مع تغير الزمان) .

نعم لقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم، ونحتاج أن نورد ما يســـكت القوم، فنثبت أن تلك الفرق وإن اختفت من الساحة أسماؤها، إلا أن أفكارها لا تـزال موجودة ولها أنصارها، وليس يخفى على اللبيب أن العبرة ليست منحصرة في الأسمـــاء والألقاب وإنما في الأصول والأفكار أيضا .

وفيما يلي سأبين باختصارصحة ما ذكرت :

المطلب الأول : بيان أصولهم التي خرموا بها القاعدة :

لا شك أن المسلم الغيور على دينه، والحريص على وحدة الأمة، يتمنى أن لو كان حقا وصدقا زعم من يدعي ذهاب الفرق الضالة، واندثار أفكارها، إلا أن الواقع المعاصر يكذب زعم من يروج لذلك، فكثير من أصول تلك الفرق لم تمت بموت مؤصليها، بل وجد من تلقفها وعض عليها بالنواجذ، وأضاف إليها أصولا أخرى، ومما يدل على صحة هذا أمور عدة أقتصر على ذكر ما يلي :

١/ أن آراء المعتزلة تلقفتها كثير من الفرق كالرافضة والزيدية والإباضية وغيرهم، وما يزالون يدينون بها إلى يومنا هذا، وقد نص على هذا غير واحد من أهل العلم، بل ونص عليه غير واحد ممن انبهر بالمعتزلة .

يقول القاسمي رحمه الله :

(... الجهمية المعتزلة ليسوا في قلة، فضلا أن يظن أنهم انقرضوا، وأن لا فائدة للمناظرة معهم، وقائل ذلك جاهل بعلم تقويم البلدان، ومذاهب أهلها)[1] .

ويقول أحد العقلانيين المعاصرين :

(لقد انقضت المعتزلة كفرقة، ولكنها استمرت نزعة عقلية، وفكرا قوميا،وأصولا فكرية من خلال فرق تأثرت بها، ومن خلال البصمات التي طبعتها على المجرى العام الخالد والمتدفق والمتطور لفكر العرب والمسلمين)[2] .

٢/ إن الكثير ممن يطلق عليهم اليوم اسم المفكرين انبهروا انبهارا عجيبا بالمعتزلة، فصاروا يتباكون على اختفاء اسم المعتزلة، وذهاب فرقتهم، مع إقرارهم بوجود أفكارهم بين المسلمين، بل نجدهم قد شمروا عن ساعد الجد لإحياء كل ما له

---

(١) تاريخ الجهمية والمعتزلة ص : (٥٦) (مؤسسة الرسالة/ط٣/١٤٠٥) .

(٢) قاله محمد عمارة في كتابه تيارات الفكرالإسلامي ص : (٨٧-٨٨)، نقلته بواسطة كتاب علي حسن الحلبي " العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون " ص : (٦٢) .

علاقة بالاعتزال، فقد أنفقت أموال، وبذلت أوقات لتحقيق كتبهم وترويجها، وكتبت مؤلفات في الدفاع عنهم، والتنويه بهم، وذكر مفاخرهم !! والدعاية لمذهبهم، وقدمت رسائل علمية لإبراز جهودهم كما زعموا في إثراء الفكر الإسلامي[1] !!! حتى عد بعضهم اختفاء هذه الفرقة من أعظم المصائب التي أصابت المسلمين !! فقال :

(يحق لنا أن نتساءل : هل كان في مصلحة المسلمين موت الاعتزال وانتصار المحدثين ؟!

في رأيي أن ذلك لم يكن في مصلحتهم !! وأنه كان خيرا للمسلمين أن لا يدخل المعتزلة في أحضان الدولة، ...، فلو ساروا على هذا النهج، وسار المحدثون على النهج الذي وضعوه لأنفسهم !! لانتفع المسلمون من ذلك أكبر نفع !!، ولتغير تاريخ الإسلام، فحزب المعتزلة يمثل حزب الأحرار !! وحزب المحدثين يمثل حزب المحافظين !!! ومن مصلحة الأمة أن يكون الحزبان !!

يدفع المعتزلة الناس إلى إعمال العقل، وإطلاق الفكر ويتقدمون الناس بمشاعلهم وأضوائهم ينيرون السبيل أمامهم !!!، ويحافظ المحدثون على العادات والتقاليد الموروثة !! ويتعلقون بأذيال المعتزلة !!! يمنعونهم أن يندفعوا في السير حتى لا ينبتوا، فتسير الأمة سيرا هينا، ولكن إلى الأمام دائما، وإخلاء السبيل أمام طائفة من الطائفتين وفقدان الأخرى ضار ضررا بليغا ...)

إلى أن قال :

(في رأيي أن من أكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة !!!)[2].

٣/ تقدم بيان أن المتأخرين من الأشاعرة تأثروا بالمعتزلة إلى حد بعيد، فكثير من الآراء التي تنقم على المعتزلة قد ورثها منهم الأشاعرة، ولا أحد يجادل في كون

---

(١) بل ألف أحدهم كتابا في الجهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي !!! .

(٢) قاله أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام (٣/٢٠٢-٢٠٧) وانظر المصدر نفسه (٣/٧٠) .

الأشاعرة هم الذين يسيطرون على كثير من الجامعات والمعاهد العلمية في العالم الإسلامي اليوم .

وعليه فالقول بأنه لا وجود لأفكار الفرق القديمة مجرد كذب وادعاء، ومحاولة تضليل وإغواء، فأصول العقلانيين السابقين لا يزال العقلانيون المتأخرون يعضون عليها بالنواجذ، ويثنون عليها الخناصر، وفيما يلي أتعرض باقتضاب لبعض أصول المعاصرين التي ورثوها من سلفهم :

الأصل الأول : تقديم العقل على النقل :

يرى العقلانيون المعاصرون كأسلافهم ضرورة تقديم العقل على النقل عند التعارض، وأقوالهم في هذا أكثر من تحصى، أكتفي بإيراد نص واحد عن أحدهم يقول فيه :

(ألا فلنعلم أن ما حكم العقل ببطلانه يستحيل أن يكون دينا، ...، الدين الحق هو الإنسانية الصحيحة، والإنسانية الصحيحة هي العقل الضابط للحقيقة، المستنير بالعلم، الضائق بالخرافة، النافر من الأوهام، ...، ولا نزال نؤكد أن كل حكم يرفضه العقل، وكل مسلك يأباه امرؤ سوي، وتقاومه الفطرة المستقيمة يستحيل أن يكون دينا)[1] .

الأصل الثاني : الطعن في السنة عامة بشبهات واهية، ورد أخبار الآحاد جملة وتفصيلا، وعدم قبول الاحتجاج بها على مسائل الاعتقاد :

لست أبالغ إذا قلت إن السنة النبوية تعرضت في هذا العصر لهجوم عنيف لم يشهد له التاريخ مثيلا، فقد استؤجرت أقلام رخيصة سعت سعيا حثيثا للقضاء على السنة ومحاولة جعلها أثرا بعد عين، لولا أن لطف الله بعباده فيسر علماء تصدوا لتلك

(١) قاله الغزالي المعاصر في مجلة الدوحة القطرية، عدد ١٠١، رجب ١٤١٤ هـ، نقلته بواسطة كتاب العقلانيون أفراخ المعتزلة ص : (٦٤) .

الهجمات الشرسة، فكشفوا حقيقة من يقف وراءها، وبينوا زيف دعاويهم، وهتكوا سترهم، وأماطوا اللثام عن حقيقة هدفهم، ولعل الحديث في هذا يطول ذيله، لذا سأقتصر على ذكر أقوال لبعض العقلانيين المعاصرين تكشف موقفهم من السنة عموما، ومن أخبار الآحاد على وجه الخصوص .

يقول أحدهم :

(كان أئمة الفقه الإسلامي يقررون الأحكام وفق اجتهاد رحب يعتمد على القرآن أولا، فإذا وجدوا في ركام المرويات ما يتسق معه قبلوه، وإلا فالقرآن أولى بالاتباع)[1] .

فهذه دعوة إلى اعتماد القرآن وحده، ونبذ السنة بالكلية إلا ما اتسق مع القرآن، ولا يخفى على اللبيب الطعن المبطن في وصف السنة، وأحاديث المصطفى ﷺ بأنها ركام !!

وأما رد أخبار الآحاد وعدم قبول الاحتجاج بها في العقائد فقد سعى معتزلة العصر جاهدين أن يجعلوها مسألة مسلمة لم يخالف فيها إلا من شذ، حتى أفردها بعضهم بالتأليف[2] .

يقول أحدهم في هذه المسألة :

(البعد الذي لاحظناه عن منهج السلف يرجع إلى انتشار مقولة لم يكن لها رواج بين الفقهاء القدامى، وهي أن أحاديث الآحاد تفيد اليقين العلمي الذي يفيده المتواتر . قال لي أحد المتمسكين بأن خبر الواحد يفيد اليقين إن المدرس وهو رجل واحد يؤتمن على التعليم، وإن السفير وهو رجل واحد يؤتمن على أخبار دعوته ... .
قلت : إن العنعنات التي تنقل بها المرويات ليست مثل ما ذكرت من وقائع ..)[3] .

---

(١) قاله الغزالي المعاصر في كتابه السنة النبوية ص : (١٨) .

(٢) من الكتب التي بين يدي حول هذه المسألة رسالة لأحد الإباضية يدعى القنوبي عنون لها بـ (السيف الحاد في الرد على من أخذ بحديث الآحاد في مسائل الاعتقاد) !!! .

(٣) قاله الغزالي المعاصر في كتابه السنة النبوية ص : (٦٥) .

وقال أيضا :

(إنني آبى كل الإباء أن أربط مستقبل الإسلام كله بحديث آحاد مهما بلغت صحته !! كيف أجازف بعقائد ملة شامخة الدعائم عندما أقول : لا يؤمن بها من لا يؤمن بهذا الحديث)[1] .

الأصل الثالث : اعتبار فهم السلف وهم لا وجود له في الواقع :

يقول أحدهم :

(ليس في الكتاب والسنة دليل يفيد أنه يجب تعطيل العقول التي وهبنا الله سبحانه وتعالى إياها وفهم الكتاب والسنة بفهم غيرنا ما دام أن المرء وصل إلى درجة الفهم والاجتهاد !!)[2] .

وقال في معرض التشنيع على من يدعو إلى التمسك بمذهب السلف :

(.. هم في الواقع قد عدلوا عن الصراط المستقيم، والطريق السوي القويم؛ لأنهم تركوا الكتاب والسنة وفهم العرب لهما وراءهم ظهريا، مع اعتمادهم على سراب بقيعة اخترعوه للتمويه، واعتمدوه للخداع والتشويه، لا وجود له في الواقع البتة، بل هو خيال قائم في أذهانهم ويموهون به على البسطاء من غيرهم وهو قولهم : هذا مذهب السلف)[3] .

الأصل الرابع : محاولة تأويل النصوص أو ردها بدعوى أنها لا تلائم العصر.

ذكرت فيما سبق أن أهل الكلام قديما انبهروا بالفلسفة وتأثروا بالفلاسفة، الأمر الذي جعلهم يسلمون بكثير من أصولهم الفاسدة، ويردون ما خالفها من النصوص الشرعية، وفي هذا العصر انبهر أفراخهم بالحضارة الغربية الزائفة، فأورثهم

---

(١) الطريق من هنا للغزالي المعاصر ص : (٦٢) .

(٢) قاله المسمى حسين السقاف في كتابه صحيح شرح العقيدة الطحاوية !!! ص : (٢١٣) (دار الإمام النووي، الأردن/ط١/١٤١٦) .

(٣) المصدر السابق ص : (٢١٥-٢١٦) .

ذلك ضعفا في نفوسهم أمام التقدم المادي الغربي، وفتحوا قلوبهم لشبهات المستشرقين فكانت نتيجة ذلك كله السعي الحثيث لجعل الإسلام يتماشى مع مطلبات العصر، ولي أعناق النصوص الشرعية كي تتوافق مع آراء وأهواء أولئك الكفرة، وإن لم يكن لهم إلى ذلك سبيل فإنهم يردونها رأسا، فاسمع إلى أحدهم يقول :

(لست أحب أن أوهن ديني أمام القوانين العالمية بوقف لا يستند استنادا قويا إلى النصوص القاطعة)[1] .

والمقصود أن أصول العقلانيين القدامى لا يزال خلفهم يتمسك بها، ويسعى لبثها ونشرها بين صفوف الأمة .وعليه فإن علماء الأمة الذين يردون شبهات فرق الضلالة لا ينبشون القبور، ولا يقاتلون في ساحة ليس فيها أعداء، بل إن الساحة مليئة بهم .

(١) قاله الغزالي المعاصر في كتابه السنة النبوية ص : (٥٩) .

المطلب الثاني : ذكر بعض الأمثلة التي تبين خرمهم لقاعدة كمال الدين .

من المصائب التي أصابت المسلمين في هذه العصور أن الكثيرين راموا الشهرة، وسلكوا في سبيلها كل صعب وذلول، حتى إنهم جعلوا طريق الوصول إليها هو مخالفة أصول الدين، ورد أحكام الشريعة، فتجد الواحد منهم لأجل أن يذيع صيته يبيع دينه وينكر ما علم من الدين بالضرورة .

والشواهد على هذا كثيرة؛ وتتبع من هذه حاله والمسائل التي خالفوا فيها صريح الكتاب والسنة وإجماع الأمة يطول به الكلام؛ لذا سأقتصر على ذكر بعض النقول عن العقلانيين المعاصرين لها علاقة بالطعن في كمال الدين، وذلك في النقاط التالية :

١/ من الغريب حقا أن نجد ممن ينتسب إلى الدعوة، ويعتزي – كما يزعمون – إلى الفكر الإسلامي[١] من ينكر بطرق ملتوية كون الإسلام الصحيح صالحا لهذا العصر ويطالب بتجديده !! ويعد القول بكمال الدين مما يعرقل السير ويقف حجر عثرة في طريق نهضة الأمة؛ لذا يعلن الحرب بلا هوادة على من يعتقد ذلك، ويصرح من غير حياء ولا مواربة بأنه من الأوهام الشائعة، فقال، وبئس ما قال :

(ومن المعوقات : هناك من يقول بأن عندنا ما يكفينا من الكتاب والسنة، وهذا وهم شائع؛ إذ لابد أن ينهض علماء فقهاء، فنحن بحاجة إلى فقه جديد لهذا الواقع الجديد !!!)[٢] .

فهذا أحد كبار العقلانيين المعاصرين يعتبر القول بكمال الدين من المعوقات، ومن الأوهام الشائعات .

---

(١) الإسلام وحي منزل، وليس مجموعة أفكار تقبل الأخذ والرد؛ لذا فالقول بالفكر الإسلامي كالقول بالفلسفة الإسلامية .انظر معجم المناهي اللفظية لبكر بن عبد الله أبو زيد ص : (٣٧٢) .

(٢) قاله حسن الترابي في كتابه تجديد الفكر الإسلامي ص : (٢٦) بواسطة كتاب "العقلانيون أفراخ المعتزلة" ص : (٦٨) .

٢/ نجد كثيرا من العقلانيين المعاصرين الذين ألفوا في تاريخ المعتزلة يركزون على مسألة خطيرة يلزم من تقريرها الطعن في كمال الدين، وهي زعمهم بأنه لولا المعتزلة لما استطاع الإسلام أن يقف أمام الشبهات التي يلقيها الزنادقة وأهل الملل الأخرى خاصة الذين تسلحوا منهم بالفلسفة اليونانية، نظرا لظنهم عدم اشتماله على الحجج العقلية، والبراهين المقنعة !!

يقول أحدهم :

(في هذا العصر – أي العصر العباسي - نجد دعاة كثيرين يدعون إلى ثنوية الفرس، ومانوية الفرس، وبعض تعاليم اليهودية والنصرانية، وبعض تعاليم الهنود الأقدمين وبعض هؤلاء الدعاة تستروا بالإسلام، وبعضهم دعا دعوته علانية، وأبيح الجدل والمناظرة في أدق المسائل وأعمقها، **ولم يكن المحدثون والفقهاء يستطيعون أن يقفوا أمامهم؛ لأن المحدثين وأمثالهم مهرة في النصوص، والذي ينكر الإسلام لا يقنع بمجرد ذكر آية أو رواية حديث، إنما يريدون دلائل عقلية** على وجود الله، وعلى نبوة محمد ﷺ وعلى صحة أن القرآن من عند الله، وكان هؤلاء جميعا من ثنوية ويهود ونصارى قد تسلحوا بالفلسفة اليونانية، واستخدموا منطقها فكونوا منه براهين على مذاهبهم، واستخدموا اللاهوت اليوناني يدعمون به معتقداتهم فكان لابد لمن يقنعهم ويرد عليهم أن يتسلح بسلاحهم، وأن يكون على معرفة تامة بأساليبهم ومعرفة أسرار مذاهبهم، فيقرع حجة عقلية بحجة عقلية، ويحمي المسلمين من هجومهم، وبث دعاواتهم، فلم يقم بهذه المهمة، ويحمل هذا العبء في ذلك العصر إلا المعتزلة)[1].

فقوله بأن المحدثين الذين هم مهرة في النصوص لا يستطيعون الرد على الزنادقة يلزم منه أن تلك النصوص التي أتقنوا حفظها ودراستها لا تشتمل على الحجج العقلية الكفيلة بإفحام الأعداء، أي أن الدين قد قصر في هذا الجانب؛ لهذا احتاج المسلمون إلى زبالة أفكار المعتزلة كي يكملوا ذلك النقص !! .

---

(١) قاله أحمد أمين في ضحى الإسلام (٣/٢٠٥-٢٠٦) .

الفصل الثاني : موقف أرباب المنهج الباطني من قاعدة كمال الدين :

وفيه مدخل، وأربعة مباحث :

المدخل : في التعريف بالمنهج الباطني، ومدارسه :

(أ) الرافضة.

(ب) الصوفية.

(ج) الإسماعلية.

المدخل في التعريف بالمنهج الباطني :

المنهج الباطني منهج هدام يهدف إلى هدم الإسلام من أركانه، ويتخذ من تحريف النصوص والعبث بمعناها أهم وسيلة لذلك، فيزعم أهله أن النصوص الشرعية لا يراد بها ما يفهم من ظاهرها بل لها باطن يدعون أنهم وحدهم الذين يدركونه، وأما ظواهر النصوص فهي رموز وإشارات إلى تلك الحقائق !!

ولا شك أن المنهج الباطني تبنته عدة فرق، وله مدارس عدة منها : الإسماعيلية والرافضة، وغلاة الصوفية، وغيرها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(تجد بين **الرافضة، والقرامطة، والاتحادية** اقتران واشتباه يجمعهم أمور، منها: الطعن في خيار هذه الأمة، وفيما عليه أهل السنة والجماعة، وفيما استقر من أصول الملة وقواعد الدين، ويدعون باطنا امتازوا به واختصوا به عمن سواهم)[1].

وفيما يلي التعريف بالطوائف المشار إليها آنفا :

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/١٠٣-١٠٤).

(أ) تعريف الرافضة :

- لغة :

قال ابن فارس :

(الراء، والفاء، والضاد أصل واحد وهو الترك، ...، والروافض جنود تركوا أميرهم وانصرفوا)[1].

- اصطلاحا :

الرافضة لقب يطلق على كل من تبرأ من الشيخين، وسب أصحاب رسول الله ﷺ، وشتمهم، وسفههم، وأما من زعم بأنهم كفار مرتدون فهو من غلاتهم، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل[2] :

سألت أبي من الرافضة ؟ فقال : الذين يشتمون ويسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما)[3].

وقال أيضا :

(هم الذين يتبرءون من أصحاب محمد رسول الله ﷺ ويسبونهم وينتقصونهم)[4].

وقال الذهبي :

(من أبغض الشيخين واعتقد صحة إمامتهما فهو رافضي مقيت، ومن سبهما واعتقد أنهما ليسا إمامي هدى فهو من غلاة الرافضة أبعدهم الله)[5].

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٤٢٢/٢).

(٢) هو : عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الرحمن، الذهلي الشيباني، المروزي ثم البغدادي. ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين، وتوفي سنة تسعين ومائتين. كان صينا دينا صادقا، صاحب حديث واتباع وبصر بالرجال، لم يدخل في غير الحديث، وله مؤلفات منها : (كتاب السنة) و (كتاب الجمل) . انظر : الجرح والتعديل (٧/٥)، طبقات الحنابلة (١٨٠/١)، السير (٥١٦/١٣).

(٣) أخرجه الخلال في السنة (٤٩٢/١) رقم (٧٧٧)، وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١٨٢/١).

(٤) طبقات الحنابلة (٣٣/١).

(٥) السير (٤٥٧/١٦-٤٥٨).

والرافضة من فرق الشيعة، ومن أسمائهم أيضا : الإمامية، والاثنا عشرية، والجعفرية.

وكان التشيع قد بدأ بتفضيل علي ﷺ على عثمان ﷺ مع الإقرار بتقدم أبي بكر ﷺ وعمر ﷺ في الفضل والخلافة، ثم آل بهم الأمر إلى تكفير جل الصحابة؛ لهذا فالشيعي إذا أطلق في زمن السلف ليس هو الشيعي في اصطلاح المتأخرين.

قال الذهبي رحمه الله :

(الشيعي الغالي في زمن السلف وعرفهم هو من تكلم في عثمان، والزبير، وطلحة، ومعاوية، وطائفة ممن حارب عليا ﷺ وتعرض لسبهم.

والغالي في زمننا وعرفنا هو الذي يكفر هؤلاء السادة ويتبرأ من الشيخين أيضا، وهذا ضال معثر)[1].

وقد ذكر العلماء في سبب تسميتهم بالرافضة عدة أمور منها :

- أنهم سموا بذلك لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[2].

- وقيل : بل لرفضهم زيد بن علي[3] لما سئل عن أبي بكر ﷺ، وعمر ﷺ فأثنى عليهما وترحم عليهما، وهذا هو الذي رجحه جمع من المحققين منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[4].

---

(١) ميزان الاعتدال (٦/١).

(٢) مقالات الإسلاميين ص : (١٦).

(٣) هو : زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسين، الهاشمي العلوي المدني، الذي تنسب إليه الزيدية من طوائف الشيعة. قتل لخروجه على هشام بن عبد الملك، قتله يوسف بن عمر يوم ثاني صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة، وقيل سنة عشرين ومائة، وصلب و لم يزل مصلوبا أربع سنين.
انظر : تهذيب الكمال (٩٥/١٠)، السير (٣٨٩/٥).

(٤) كما في مجموع الفتاوى (٣٥/١٣-٣٦)، ومنهاج السنة (٣٤/١)، وانظر : تهذيب الكمال (٩٧/١٠)، والسير (٣٩٠/٥).

(ب) تعريف الصوفية :

- لغة :

الصوفية جمع صوفي، وقد تباينت آراء العلماء في الأصل الذي اشتقت منه هذه الكلمة، وذكروا في ذلك أقوالا عدة لا تسلم من الاعتراض، ولعل الراجح من تلك الأقوال أن الصوفي ينسب إلى الصوف[1]؛ لأنه أصح لغة، وأدل على حال القوم، فهم مشغوفون بلبس الصوف، حتى جعلوا ذلك شعارا لهم، بل بلغ بهم الأمر إلى أن يقدسوه ويعظموا من لبسه ولو كان كلبا !!! ؛ إذ ذكر الشعراني[2] عن بعض الصوفية أنه رأى في عنق كلب خرقة من صوف فقام له إجلالا لخرقة الصوف[3] !!!.

- اصطلاحا :

اختلف العلماء في تعريفه من حيث الاصطلاح، فنقل عن الصوفية أنفسهم أقوال عدة، قيل بأنها تبلغ أكثر من ألف قول !! أورد منها ما يلي :

- قيل : التصوف ترك كل حظ النفس.
- قيل : أن تكون مع الله بلا علاقة.
- قيل : التصوف عقدة لا صلح فيها.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١١) و (١٩٥/١١).

(٢) هو : عبد الوهاب بن أحمد بن علي، أبو المواهب، الحنفي نسبة إلى ابن الحنفية، الشعراني، ويقال الشعراوي. ولد سنة (٨٩٨ هـ)، وتوفي سنة (٩٧٣ هـ)، كان من كبار الصوفية بمصر في القرن العاشر، له مؤلفات عدة، وهي مليئة بشطحات الصوفية وترهاتهم منها : (إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين) و(الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية) وغيرهما.

انظر : الأعلام (١٨٠/٤).

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني (١٢٠/٢).

- وعرفه بعض الباحثين بقوله :

(التصوف مجموعة من العقائد المطلقة، والرسوم العملية المخترعة تكونت من مناهج كثيرة، وتأثرت بعوامل عديدة، ثم تفرقت إلى طرائق ومذاهب لا يعلم عددها إلا الله، وعلى رأس كل طريقة شيخ مطاع)[1].

وقيل غير ذلك [2].

(١) قاله محمد أحمد لوح في كتابه جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية ص : (٤٨٢).

(٢) انظر : عوارف المعارف لعمر بن محمد السهروردي ص : (٣٧-٤١) (تصحيح الخالدي/دار الكتب العلمية/ط١/١٤٢٠)، وكتاب التصوف المنشأ والمصدر للشيخ إحسان إلهي ظهير ص : (٣٦-٣٩).

(ج) تعريف الإسماعيلية :

الإسماعيلية فرقة من غلاة الشيعة، ورأس الفرق الباطنية، افترقت عن الإمامية بعد موت جعفر الصادق[1] نظرا لاختلافهم في الإمام بعده، فقالت الإمامية بإمامة موسى الكاظم[2]، بينما يرى الإسماعيلية أن الإمام هو إسماعيل بن جعفر[3] الذي مات وهو شاب في حياة والده جعفر !!!.

وعليه فالإسماعيلية سموا بهذا نسبة إلى إسماعيل بن جعفر.

ولهم ألقاب أخرى منها :

- **الباطنية** : وهو من أشهر ألقابهم، سموا بذلك لقولهم بأن لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلا[4]، قال الغزالي :

(لقبوا بالباطنية لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معينة ...)[5].

---

(١) هو : جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، أبو عبد الله، القرشي، الهاشمي، العلوي المدني، الملقب بالصادق. ولد سنة ثمانين، وتوفي سنة ثمان وأربعين ومائة. قال عنه الذهبي : (أحد الأعلام،..، كان يغضب من الرافضة، ويمقتهم إذا علم أنهم يتعرضون لجده أبي بكر ظاهرا وباطنا، هذا لا ريب فيه، لكن الرافضة قوم جهلة قد هوى بهم الهوى في الهاوية فبعدا لهم).

انظر : الجرح والتعديل (٤٨٧/٢)، السير (٢٥٥/٦).

(٢) هو : موسى بن جعفر بن محمد، أبو الحسن، العلوي، المدني ثم البغدادي، الملقب بالكاظم. ولد سنة ثمان أو تسع وعشرين ومائة، وتوفي في رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة. كان سخيا كريما حليما، صاحب عبادة واجتهاد ومروءة.

انظر : تاريخ بغداد (٢٧/١٣)، البداية والنهاية (٢٣٧/١٠).

(٣) هو : إسماعيل بن جعفر بن محمد، الهاشمي القرشي، توفي في حياة والده، إلا أن من الإسماعيلية من يرى بأنه لم يمت، وإنما أظهر أبوه موته خوفا عليه من بطش خلفاء العباسيين !!

انظر : الأعلام (٣١١/١).

(٤) انظر : الملل والنحل للشهرستاني (١٩٢/١).

(٥) فضائح الباطنية ص : (٩) (دار البشير، الأردن/ط١/١٤١٣).

- **التعليمية** : ولقبوا به لقولهم بأن العلم يؤخذ من الإمام المعصوم، وأبطلوا النظر والاستدلال.

- **السبعية** : لأنهم يعتقدون بأن أدوار الإمامة سبعة، وكثيرا ما يدندنون على العدد سبعة.

ولهم ألقاب أخرى تركت إيرادها اختصارا[1].

(١) انظر : فضائح الباطنية ص : (٩-١٢).

المبحث الأول : موقف الرافضة من قاعدة كمال الدين :

وفيه مدخل ومطلبان :

المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة .

المطلب الثاني : موقفهم من كمال الدين في المسائل العلمية والعملية .

المبحث الأول : موقف الرافضة من قاعدة كمال الدين

المدخل :

إن المنصف إذا اطلع على شيء من عقائد الروافض لا يرتاب في أن غـــرض القوم من وضعهم نحلة الرفض هو محاولة إسقاط الدين، ومحاربة أهله، لأنهم ما تركـوا شيئا مما علم ثبوته بالضرورة من دين المسلمين إلا حاولوا نفيه وإنكاره، وما تركـــوا شيئا مما علم نفيه إلا حاولوا إثباته، فدينهم مبني على مكابرة العقـــول، والتكذيـب بالمنقول، ولزوم التقية في الفعل، والكذب في القول، وديدنهم ســب خيـار الأمـة، واقتحام كل بلية، وركوب الفاحشة بدعوى جواز المتعة، كما جعلوا الحق في قصـد مخالفة أهل السنة لا فيما دلت عليه الأدلة[1].

والمسائل التي تثبت صحة ما أسلفت، وتقرر ما ذكرت أكثر مـن أن تحصـر فتذكر؛ لذا سأقتصر على ذكر مسألة واحدة تعنينا في هذا المقام أكثر من غيرهـا، ألا وهي حقيقة موقف الرافضة من كمال الدين وإتمام النعمة، فموقفهم صريح لا يحتـاج إلى زيادة بيان وتفصيل، وعبارات أئمتهم في إنكار كمال الدين واضحـة لا تقبـل التأويل، وقد سبق ذكر عبارة أكبر إمام لهم في هذا العصر والتي فيها التصريح بأن النبي ﷺ لم يبلغ أمر الإمامة التي يكمل بها الدين.

ولا يصح قطعا أن يقال أو يظن بأن الرجل ربما انفرد وشذ بهذه المقالة عـن أبناء نحلته، لأن العكس هو الصحيح، فمن قال منهم بضدها هو الشاذ فيهم. ولكـي نقف على هذه الحقيقة، ولتبرئة الذمة أسوق بعض الروايات من كتبـهم المعتمـدة، وأذكر أقوال من يذكر منهم في سلك العلماء والأئمة فيها التصريح بهذا الكفر، الـذي هو للرافضة فضيحة الدهر، وقاصمة الظهر، وذلك في النقاط التالية :

---

(١) في أصول الكافي (٦٧/١) عن أبي عبد الله أنه قال : (ما خالف العامة ففيه الرشاد).

أولا : من عقائد القوم التي هي من ضرورات مذهبهم أن النبي ﷺ بلغ جـــزء من الدين، وأودع الجزء الآخر عند الأئمة لكي يبلغوه متى سنحت الفرصة، وظـهرت لهم المصلحة، وما ورد من الروايات عن أئمتهم، والنقول عن علمائهم لإثبات هـــذا الأمر لا يعد ولا يحصى :

يقول أحد المعاصرين منهم :

(... بقيت أحكام كثيرة لم تحصل الدواعي والبواعث لبيانها، إما لعدم اقتضاء المصلحة لنشرها، والحاصل أن حكمة التدريج اقتضت بيان جملة من الأحكام وكتمان جملة، ولكنه سلام الله عليه –أي النبي ﷺ– أودعها عند أوصيائه، كل وصي يعهد بها إلى الآخر، لينشرها في الوقت المناسب لها حسب الحكمة من عام مخصص، أو مطلـق مقيد، أو مجمل مبين إلى أمثال ذلك، فقد يذكر النبي عاما ويذكر مخصصه بعد برهـة من حياته، وقد لا يذكره أصلا، بل يودعه عند وصيه إلى وقته)[1].

ويقول آخر :

(لما كان الكتاب العزيز متكفلا بالقواعد العامة دون الدخول في تفصيلاتهـا، احتاجوا إلى سنة النبي، ...، **والسنة لم يكمل بها التشريع**؛ لأن كثيرا من الحـوادث المستجدة لم تكن على عهده ﷺ احتاج أن يدخر علمها عند أوصيائه ليؤدوها عنـه في أوقاتها)[2].

فمع أن هؤلاء الطغام قد جعلوا التقية توازي تسعة أعشار دينـهم إلا أن الله ابتلاهم بقلة الكتمان ليهتك سترهم، ويكشف لكل ذي بصيرة خبيئة نفوسهم؛ فـهم لم يقنعوا بالتلميح حتى صرحوا بمثل هذا البهتان، واتهموا النبي ﷺ بعدم تبليغ جملة من الأحكام، ولا شك أن ذلك يعد اتهاما صريحا للدين بعدم الكمال، فهم يعتقـدون أن

---

(١) أصل الشيعة وأصولها لمحمد آل كاشف الغطا ص : (٧٩) (مكتبة الثقافة الإسلامية).

(٢) مصابيح الأصول لعلاء الدين بحر العلوم !! ص : (٤) (تقرير الخوئي/المكتبة الإسلامية طهران).

فيه مجموعة من النصوص وردت عامة، وأخرى مطلقة، وثالثة مجملة سيتولى الأئمة تخصيصها، أو تقييدها، أوتبيينها ولو بعد زمن النبوة، بل يعتقدون أن الأئمة سينسخون بعضها !!، ولتغطية هذه السوءة زعموا أن الأئمة يستندون في ذلك إلى علم أودعه النبي ﷺ عندهم، وخصهم به دون سائر الأمة، فهم لا ينطقون عن الهوى، بل عن علم ورثوه عن سيد الورى !!!.

والمقصود أن هذا الكلام فيه اتهام صريح للنبي ﷺ بعدم تبليغ الدين كاملا، وأن الدين الذي بين أيدينا ليس هو كل ما أنزله الله، بل إن قسطا كبيرا منه لا يزال مع الإمام في السرداب !!! فالدين عندهم لم يكمل في عهد النبي ﷺ، ولن يكمل إلا إذا من الله بالفرج على المهدي، وقد صرح بهذا أحد علمائهم فقال :

(... هذا الإمام عليه السلام الذي جعل كمال الدين به، وعلى يديه، وتمحيص الخلق وامتحانهم وتمييزهم بغيبته. .)[1].

وإذا علم أن المهدي المزعوم أسطورة مختلقة، وأنه لم يخلق أصلا، ولا حقيقة له البتة، فمن علق كمال الدين بخروجه من السرداب فهو كمن يركض وراء السراب.

ثانيا : زعموا أن القرآن لا يكون عندهم حجة إلا بقيم –والقيم لا يمكن أن يكون إلا أحد الأئمة–، وأنه لا يكفي وحده في هداية الأمة ما لم يؤخذ تفسيره عن علي ﷺ، ورووا عن النبي ﷺ أنه قال :

(إن الله أنزل علي القرآن وهو الذي من خالفه ضل، ومن يبتغي علمه عند غير علي هلك)[2].

كما رووا عن أبي عبد الله جعفر الصادق أنه قال في خبر طويل :

(إن الناس يكفيهم القرآن لو وجدوا له مفسرا، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله فسره لرجل واحد، وفسر للأمة شأن ذلك الرجل وهو علي بن أبي طالب)[3].

---

(١) كتاب الغيبة لمحمد النعماني ص : (١٨٣) (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت/ط١/١٤٠٣).

(٢) وسائل الشيعة للحر العاملي (١٨/١٣٨) (دار التقريب بين المذاهب، القاهرة/١٩٧٥م).

(٣) أصول الكافي للكليني (١/٢٥) (تعليق علي أكبر الغفاري/دار الكتب الإسلامية، طهران/١٣٨٨).

فالقرآن لا يكفي عندهم لهداية الناس إلا إذا أضيفت إليه تلك الأكاذيب التي افتراها جماعة من الزنادقة والملاحدة وألصقوها بآل بيت النبوة زورا وبهتانا.

ثالثا : لم يقنعوا بالذي مضى حتى صرحوا بما سيبقى وصمة عار في جبين نحلة الرفض أبد الدهر، فقالوا بأن كيان الإسلام لم يستقم بما جاء به النبي ﷺ حتى كمل بجهود علي ﷺ، وجهود الحسين بن علي ﷺ، فقال قائلهم :

(كما أن كيان الإسلام كان يحتاج إلى جهود محمد، وعلي، والحسين حتى يستقيم، كذلك الإسلام لا يكمل في قلب ليس فيه محمد، وعلي، والحسين معا؛ لأن تعاليم محمد إنشائية، وتعاليم علي تربوية، وتعاليم الحسين إمدادية، وإذا لم تتفاعل هذه العناصر الثلاثة لا يبرز الإسلام إلى الوجود)[1].

وهذا كلام في غاية الصراحة، ولا أظن أنه يحتاج إلى التعليق والتوضيح.

(١) قاله حسين الشيرازي في الشعائر الحسينية ص : (١٣-١٤) (دار صادر بيروت).

المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة، والرد عليها :

إن الذين تولوا كبر وضع ملة الرفض أصلوا أصولا عدة لا ليهدموا بها قاعدة كمال الدين فحسب، بل إنهم أصلوها محاولة منهم لاستئصال قاعدة الشرع من أصلها، وهدم الدين من أساسه؛ لأن تصديقها والتزامها يؤول بالمرء إلى عدم حصول الثقة عنده بالآيات القرآنية، وعدم الالتفات إلى الأحاديث النبوية، وإلى الوقيعة في أعيان الأمة، وثلب حملة الشريعة، وبالتالي إبطال النقل جملة وتفصيلا.

كما أنهم فتحوا باب الأساطير، واستطاعوا بتلك الأصول أن يحملوا الناس على تصديقها والإيمان بها، وفي ذلك إبطال للعقل أيضا، وإذا لم يبق للقوم عقل ولا نقل فيسهل على الزنادقة أن يدخلوا عليهم من كل باب، ويروجوا لكل مذهب !!.

وفيما يلي أذكر بعض أصولهم المشار إليها آنفا :

الأصل الأول : الطعن في القرآن، والقول بنقصانه وتحريفه :

يعتقد الرافضة أن القرآن الموجود عند المسلمين اليوم قد تناولته أيادي عابثة فزادت فيه ونقصت، وقدمت فيه وأخرت، وبدلت فيه وحرفت، وغيرت في نظمه ونظامه، حتى إنها أسقطت منه آيات كثيرة وسورا برمتها.

وإيغالا منهم في الضلال، ومبالغة في الإضلال، ومحاولة لتثبيت ما افتروه من الباطل والمحال أوردوا روايات كثيرة تعين من باشر التحريف والتبديل، وتبين مقداره، وتوضح موضعه، وموضوعه، وفي النقاط التالية بيان ذلك :

أولا : زعموا أن مقدار السقط يصل إلى الثلثين !!، وافتروا على أبي عبد الله أنه قال :

(إن القرآن الذي جاء به جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ سبعة عشر ألف آية)[1].

---

(١) أصول الكافي للكليني (٢/٦٣٤).

فإذا علم أن عدد الآيات التي يحويها المصحف المتداول بين المسلمين لا تتعدى ثلث هذا العدد إلا بقليل حكم على ما يقارب الثلثين بالسقط !!

ثانيا : لعل عجب الإنسان لا يكاد ينقضي إذا عرف أن الرافضة الذين هم أكذب من دب ودرج يتهمون بالتحريف والتبديل أبا بكر وعمر وعثمان وسادات المهاجرين والأنصار الذين قام الإسلام على أكتافهم وبذلوا في سبيل نصرته المهج، ويزعمون أنهم هم الذين تولوا كبر ذلك وأمروا به، فيروون عن أبي ذر الغفاري ﷺ أنه قال :

(لما توفي رسول الله ﷺ جمع علي عليه السلام القرآن، وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرضه عليهم لما قد أوصاه رسول الله ﷺ، فلما فتحه أبو بكر خرج في أول صفحة فتحها فضائح القوم، فوثب عمر وقال : يا علي اردده فلا حاجة لنا فيه، فأخذه عليه السلام وانصرف، ثم أحضروا زيد بن ثابت -وكان قارئا للقرآن- فقال له عمر : إن عليا جاء بالقرآن وفيه فضائح المهاجرين والأنصار، وقد رأينا أن تؤلف القرآن، وتسقط منه ما كان فضيحة وهتكا للمهاجرين والأنصار. فأجابه زيد إلى ذلك. .. فلما استخلف عمر سأل عليا أن يدفع إليهم القرآن فيحرفوه فيما بينهم)[1].

ثالثا : أما ما ورد من الأقوال والروايات في بيان المواضع التي يزعمون أنه وقع فيها السقط والتحريف فيطول تتبعها، لذا سأقتصر على إيراد بعض الأمثلة :

- يدعون أن ثلث القرآن أسقط من ثنايا قول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾[2].

---

(١) الاحتجاج على أهل اللجاج للطبرسي (١/٢٢٥-٢٢٨) (تعليق الخرساني/دار النعمان النجف/١٣٨٦).

(٢) سورة النساء، الآية (٣).

ويستدلون على هذا الإفك بما افتروه على علي ﷺ أنه قال لأحد الزنادقة :

(... وأما ظهورك علي تناكر قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾

وليس يشبه القسط في اليتامى نكاح النساء، ولا كل النساء يتامى، فهو ما قدمت ذكره من إسقاط المنافقين من القرآن بين القول في اليتامى وبين نكاح النساء من الخطاب والقصص أكثر من ثلث القرآن)[1].

- يزعمون أنه أسقط من سورة البينة اسم سبعين رجلا من قريش، فعن أحمد ابن محمد بن أبي نصر[2] قال :

(دفع إلي أبو الحسن عليه السلام مصحفا، وقال : لا تنظر فيه، ففتحته وقرأت فيه ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[3]، فوجدت فيه اسم سبعين رجلا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم، قال فبعث إلي : ابعث إلي بالمصحف)[4].

- وردت روايات كثيرة تعين موضع التحريف المزعوم في كل سورة سورة، وتبين ما يزعمون أنه النص الحقيقي الذي أنزله الله على النبي ﷺ، ومما لا شك فيه أن تتتبعها مما يطول به الكلام بلا فائدة تذكر.

رابعا : وأما موضوع الآيات التي يزعمون أنها بدلت وحرفت فمداره على ثلاثة أمور :

---

(١) الاحتجاج لأحمد بن علي الطبرسي (١/٣٧٧).

(٢) هو : أحمد بن محمد بن عمرو، أبو جعفر، وقيل أبو علي، البزنطي، المعروف بابن أبي نصر .كوفي لقي الرضا، وأبا جعفر. له كتب منها (الجامع) و (كتاب النوادر) وغيرهما، وهو رافضي كذاب إلا أنه عند القوم ثقة جليل القدر، هلك سنة إحدى وعشرين ومائتين .

انظر : تنقيح المقال في علم الرجال (١/٧٧-٧٩) (انتشارات جهان، طهران).

(٣) سورة البينة، الآية (١).

(٤) أصول الكافي (٢/٦٣١).

١/ الآيات التي فيها ذكر فضائل آل البيت، وما يتعلق بإمامتهم.

٢/ الآيات التي فيها ذكر فضائح أعداء آل البيت من الصحابة وغيرهم كما يزعمون.

وهذان النوعان يزعمون أنهما يشكلان ثلث ما أسقط من القرآن، ويستدلون على هذا بما افتروه من الكذب على علي ﷺ أنه قال :

(نزل القرآن أثلاثا : ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام)[١].

ووجه الدلالة منه أن المتصفح للقرآن الذي لا يعرف عامة المسلمين غيره لن يجد فيه التنصيص على هذا الثلث المزعوم فالنتيجة أنه أسقط من القرآن !!.

يقول الجزائري[٢] :

(لا تعجب من كثرة الأخبار الموضوعة، فإنهم بعد النبي ﷺ، قد غيروا وبدلوا في الدين ما هو أعظم من هذا، كتغييرهم القرآن وتحريف كلماته، وحذف ما فيه من مدائح آل الرسول، والأئمة الطاهرين، وفضائح المنافقين وإظهار مساويهم)[٣].

٣/ آيات فيها بعض القصص والخطاب، وتشكل أكثر من ثلث القرآن أيضا ويدل على هذا النوع ما ورد في ثنايا تلك المناظرة الموضوعة بين علي ﷺ وبين بعض الزنادقة، والتي ذكرتها قبل قليل.

والمقصود أن الرافضة يعتقدون أن القرآن لم يسلم من التبديل والتحريف، وهذه العقيدة ليست رأيا شاذا لبعض من ينتسب إلى هذه النحلة الباطلة، بل تكاد أن تكون من ضرورات مذهبهم، ومحل إجماع علمائهم، ويدل على ذلك الأمور التالية :

---

(١) أصول الكافي (٦٢٨/٢).

(٢) هو : نعمة الله بن عبد الله بن محمد، الجزائري، نسبة إلى جزائر البصرة ،ولد سنة (١٠٥٠هـ) وتوفي سنة (١١١٢هـ)له مؤلفات عدة منها : (الأنوار النعمانية في معرفة النشأة الإنسانية) وهو من أقبح كتب الرافضة وأقذرها، و (مقصود الأنام في شرح تهذيب الأحكام) وغيرهما .

انظر : أمل الآمل للحر العاملي (٣٣٦/٢)، الأعلام (٣٩/٨) .

(٣) الأنوار النعمانية (٩٧/١) (مطبعة شركة جاب التبريز، إيران) .

١/ أن منهم من حكى الاتفاق على هذا البهتان، فهذا أحد علمائهم يحكي مذاهب الإمامية ويقول :

(... واتفقوا على أن أئمة الضلال خالفوا في كثير من تأليف القرآن وعدلوا فيه عن موجب التنزيل وسنة النبي ﷺ)[١].

٢/ كثرة الروايات التي نسبوها زورا وبهتانا إلى أئمة أهل البيت لترويج هذه العقيدة :

وقد صرح غير واحد من أئمتهم بأنها مستفيضة، بل منهم من قال بتواترها، وأنها تضاهي أخبار الإمامة !!

يقول المجلسي[٢] :

(وعندي أن الأخبار في هذا الباب متواترة معنى، وطرح جميعها يوجب رفع الاعتماد عن الأخبار رأسا، بل ظني أن الأخبار في هذا الباب لا تقصر عن أخبار الإمامة)[٣].

٣/ أنه لم يظهر خلاف هذا المعتقد إلا عدد قليل جدا من علمائهم، ومع قلة عددهم فقد ظهر عند التحقيق أنهم إنما فعلوا ذلك تقية لا اعتقادا.

٤/ أنهم ذكروا هذه العقيدة في ثنايا المؤلفات المعتمدة عندهم فأصلوا أصولها، وقرروا صحتها، بل وأفردوها بمؤلفات خاصة تبقى وصمة عار في جبينهم إلى يوم

---

(١) أوائل المقالات للمفيد ص : (١٣) (دار الكتاب الإسلامي، لبنان/١٤٠٣).

(٢) هو : محمد بن باقر بن مقصور علي ،الشهير بالمجلسي. ولد سنة (١٠٣٧هـ)، وتوفي سنة (١١١٠) وقيل سنة (١١١١هـ)، وهو من أئمة الرافضة وعلمائهم له مؤلفات عدة منها : (بحار الأنوار) و(مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول) وغيرهما.

انظر : الكنى والألقاب لعباس القمي (١٤٧/٣) (المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٨٩هـ) .

(٣) مرآة العقول (٥٣٦/٢).

القيامة[1]، و لم يسمع من الرافضة إلى اليوم من يتبرأ من أولئك المؤلفين ويرميهم بالكفر، بل إنهم لم يقابلوهم إلا بالتبجيل والإطراء، والغلو في المدح والثناء، مما يدل على قبول تلك العقيدة، والتواطؤ على ذلك الإفك.

وبهذا يتبين أن ابن حزم الأندلسي رحمه الله قد قال في أرباب هذه النحلة كلمة الفصل وحكم بالعدل حين قال في ثنايا رده على اعتراض النصارى بقول الروافض في القرآن :

(وأما قولهم في دعوى الروافض تبديل القرآن، **فإن الروافض ليسوا من المسلمين**، إنما هي فرقة حدث أولها بعد موت رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، وكان مبدؤها إجابة ممن خذله الله تعالى لدعوة من كاد الإسلام، **وهي طائفة تجري مجرى اليهود**[2] **والنصارى في الكذب والكفر**، ....، وكل من لم يزجره عن الكذب ديانته أو نزاهة نفس أمكنه أن يكذب ما شاء، وكل دعوى بلا برهان فليس يشتغل بها عاقل، سواء كانت له أو عليه، ونحن إن شاء الله نأتي بالبرهان الواضح الفاضح على كذب الروافض فيما افتعلوه من ذلك :

ثم قال رحمه الله :

(... مما يبين كذب الروافض في ذلك أن علي بن أبي طالب ﷺ -الذي هو عند أكثرهم إله خالق، وعند بعضهم نبي ناطق، وعند سائرهم إمام معصوم مفترضة طاعته- ولي الأمر وملك فبقي خمسة أعوام وتسعة أشهر خليفة مطاعا، ظاهر الأمر ساكنا بالكوفة، مالكا للدنيا، حاشا الشام ومصر والفرات، والقرآن يقرأ في المساجد وفي كل مكان، وهو يؤم الناس به، والمصاحف معه وبين يديه، فلو رأى فيه تبديلا

---

(١) من أشهر الكتب المؤلفة في ذلك كتاب فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب للأفاك الأثيم المسمى النوري الطبرسي، وقد ذكر في كتابه هذا ص : (٢٩-٣٠) أسماء من سبقه إلى التأليف في هذا الموضوع، وأسماء مؤلفاتهم فبلغت عشرة كتب !!! وإلى الله المشتكى.

(٢) انظر : كتاب (بذل المجهود في إثبات مشابهة الرافضة لليهود) للجميلي (مكتبة الغرباء/ط٢/١٤١٤).

كما تقول الرافضة أكان يقرهم على ذلك. . ؟ ثم ولي ابنه الحسن ﷺ، وهو عندهم كأبيه فجرى على ذلك.

فكيف يسوغ لهؤلاء النوكى أن يقولوا : إن في المصحف حرفا زائدا، أو ناقصا، أو مبدلا مع هذا ؟ ولقد كان جهاد من حرف القرآن وبدل الإسلام، أوكد عليه من قتال أهل الشام الذين إنما خالفوه في رأي يسير رأوه، ورأى خلافه فقط. فلاح كذب الرافضة ببرهان لا محيد عنه)[1].

إذا ثبت أن هؤلاء الزنادقة يعتقدون فيما تولى الله حفظه بنفسه هذا البهتان، فلا غرابة بعد ذلك أن يتهموا الدين بالنقصان؛ لأن الدين إنما يؤخذ من القرآن والسنة، فإذا نقص أحدهما، أو بدل فالدين ينقص تبعا لذلك لا محالة.

ولعل هذا الاعتقاد المشين في القرآن الكريم هو الذي اضطر هؤلاء الزنادقة بأن يدعوا بأن عندهم كتبا أخرى !! منها يأخذون العقائد والأحكام؛ لأنهم فقدوا الثقة في القرآن، كما صرح بذلك أحدهم فقال :

(لم يبق لنا اعتماد على شيء من القرآن؛ إذ على هذا يحتمل كل آية منه أن يكون محرفا ومغيرا، ويكون على خلاف ما أنزل الله فلم يبق لنا في القرآن حجة أصلا، فتنتفي فائدته وفائدة الأمر باتباعه والوصية بالتمسك به إلى غير ذلك)[2].

وفيما يلي سأتناول بالدراسة حقيقة هذه الكتب المزعومة.

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٢١٣-٢١٧) (تحقيق عميرة، ومحمد نصر/عكاظ/ط١/١٤٠٢).

(٢) مقدمة تفسير الكاشي المسمى بالصافي (١/٣٣) (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت/ط١/١٣٩٩).

الأصل الثاني : ادعاء أن لهم كتبا أخرى مقدمة على القرآن :

إن ادعاء الرافضة بأن عندهم كتبا مقدمة على القرآن ليست فريـــة افتراهـــا عليهم أهل السنة للدعاية ضد مذهبهم المشوه، بل هي عقيدة سطرتها أيديهم، وذكرتها كتبهم، ونقلها رواتهم منسوبة إلى أئمتهم، وتلقاها بـــالقبول والتســـليم علمـــاؤهم وعوامهم، وفيما يلي ذكر لبعضها، وبعض الروايات التي يستدلون بها علـــى صحـــة وجودها عند الأئمة :

١/ الجامعة : يزعمون أنها عبارة عن صحيفة طولها سبعون ذراعا كتبها علـــي ﷺ وأملاها عليه رسول الله ﷺ، وأن فيها تفاصيل الأحكام من الحلال والحـــرام، و لم تغفل حتى أرش الخدش !!!

٢/ الجفر : يزعمون أنه وعاء من أدم، أو جلد ثور مليء علما[1]؛ إذ فيه علـــم النبيين والوصيين، وعلم علماء بني إسرائيل !! ففيه زبور داود، وتوراة موسى، وإنجيـــل عيسى، وصحف إبراهيم، وفيه علم الحلال والحرام ... [2].

روى الكليني[3] عن جعفر الصادق أثرا يصف فيه هذه الكتب المزعومة بعد أن بـــوب عليه بابا سماه :

(باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها الســـلام) ثم روى بسند مظلم عن أبي بصير قال :

---

(١) انظر : أصول الكافي (٢٤١/١).

(٢) انظر : بحار الأنوار (٣٧/٢٦) (مؤسسة الوفاء، بيروت/ط٢/١٤٠٣).

(٣) هو : محمد بن يعقوب بن إسحاق، أبو جعفر، الرازي، ثم البغدادي، الكليني –بضم الكاف وكسر اللام نسبة إلى كلين وهي قرية بالري– سكن بغداد ومات بها سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. كان من فقـــهاء الرافضة وعلمائهم المصنفين في مذهبهم، من مؤلفاته : (الكافي) وهو عندهم كصحيح البخاري عنـــد أهل السنة، و (رسائل الأئمة) وغيرهما.

انظر : تاريخ دمشق (٢٩٧/٥٦)، السير (٢٨٠/١٥)، معجم المؤلفين (١١٦/١٢) (مكتبة المثنى بلبنان، ودار إحياء التراث العربي، لبنان/دت)، الكنى والألقاب للقمي (١٢٠/٣).

(دخلت على أبي عبد الله فقلت له جعلت فداك، إني أسألك عن مسألة، ههنا أحد حتى يسمع كلامي ؟! قال : فرفع أبو عبد الله (ع) سترا بينه وبين بيت آخر فاطلع فيه، ثم قال : يا أبا محمد سل عما بدا لك.

قال قلت : جعلت فداك، إن شيعتك يتحدثون أن رسول الله ﷺ علم عليا بابا يفتح له منه ألف باب ؟!!

قال : فقال : يا أبا محمد علم رسول الله ﷺ عليا (ع) ألف باب، يفتح من كل باب ألف باب !!

قال : قلت هذا والله العلم.

قال : فنكت ساعة في الأرض، ثم قال : إنه لعلم وما هو بذلك.

قال : ثم قال : يا أبا محمد وإن عندنا الجامعة، وما يدريهم ما الجامعة ؟

قال : قلت جعلت فداك وما الجامعة ؟

قال : صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع رسول الله، وإملائه من فلق فمه، وخط علي بيمينه فيها كل حلال وحرام، وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الأرش في الخدش، وضرب بيده إلي وقال : أتأذن لي يا أبا محمد ؟

قال : جعلت فداك، إنما أنا لك فاصنع ما شئت.

قال : فغمزني بيده، وقال حتى أرش هذا، كأنه مغضب. قال قلت : هذا والله العلم.

قال : إنه لعلم وليس بذاك، ثم سكت ساعة، ثم قال : وإن عندنا الجفر، وما يدريهم ما الجفر ؟

قال : قلت وما الجفر ؟ قال : وعاء من أدم فيه علم النبيين والوصيين، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل ...)[1].

---

(١) أصول الكافي (١/٢٣٩-٢٤٠).

٣/ مصحف فاطمة : وهو عبارة عن قصص وأخبار أنـزلت على فاطمة بعد موت النبي ﷺ تسلية لها، فيها الإخبار عما سيكون في المستقبل، كتبـها علـي ﷺ فجاءت ثلاثة أضعاف القرآن وليس فيها ولا حرف واحد منه.

قلت : لعلها كتبت بالفارسية لغة أولئك الزنادقة الذين طمـس الله قلوبهـم، وأعمى أبصارهم فوضعوا مثل هذه الترهات التي هي أخس مـن أخبـار النوكـى والمجانين !!

وقد ورد في تتمة الخبر السابق عن أبي عبد الله ما يلي :

(... وإن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام، وما يدريهم مـا مصحـف فاطمة عليها السلام ؟ ... مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد)[١].

٤/العبيطة : ويزعمون أنها صحيفة تحوي مثالب العرب !!

ينسبون إلى علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال :

(وأيم الله إن عندي لصحفا كثيرة قطائع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته، وإن فيها لصحيفة يقال لها العبيطة !وما ورد على العرب أشد عليهم منها، وإن فيها لستين قبيلة من العرب مبهرجة، ما لها في دين الله نصيب)[٢].

بمثل هذه الخرافات يعلم القارئ مصدر هذه الافترآت التي تنسـب إلى أهـل البيت، فهي بلا شك من وضع الشعوبيين الذين أكل بغض العرب قلوبهم، وسـاءهم انتشار الإسلام وسقوط دولهم على أيدي أولئك الأبطال من العرب المسلمين.

٥/ وصية الحسين : وهي عند الأئمة تحوي جميع ما يحتاجه الناس منذ كـانت الدنيا إلى أن تفنى [٣].

---

(١) أصول الكافي (١/٢٣٩-٢٤٠) .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي (٢٦/٣٧).

(٣) انظر : أصول الكافي (١/٣٠٤)، بحار الأنوار (٢٦/٥٤).

٦/ صحيفة صغيرة في ذؤابة سيف علي ﷺ : يزعمون أن عليا دفعها إلى الحسن ودفع إليه سكينا، وقال له افتحها فلم يستطع أن يفتحها، ففتحها له، ثم قال له : اقرأ. فقرأ الحسن عليه السلام : الألف والباء والسين واللام وحرفا بعد حرف!!! ثم طواها فدفعها إلى الحسين ثم فعل معه مثل ما فعل مع الحسن، ثم دفعها إلى ابن الحنفية[١] الذي لم يستطع أن يستخرج منها شيئا، ثم أخذها وطواها وعلقها بذؤابة سيفه.

ثم زعموا أن أبا عبد الله سئل عما فيها فقال : بأن فيها الأحرف التي يفتح كل حرف ألف باب !! وأنه لم يخرج منها إلا حرفان الساعة !!! [٢].

٧/ زعموا أن كل إمام ينزل عليه من السماء صحيفة فيها عهده، وما يعمل به !!!

فعن أبي عبد الله قال :

(إن الله جل اسمه أنزل من السماء إلى كل إمام عهده وما يعمل به، وعليه خاتم فيفضه ويعمل بما فيه)[٣].

وعنه أيضا قال :

(دفع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى علي عليه السلام صحيفة مختومة باثني عشر خاتما، وقال فض الأول واعمل به، وادفعها إلى الحسن عليه السلام يفض الثاني ويعمل به، ويدفعها إلى الحسين عليه السلام يفض الثالث ويعمل بما فيه، ثم إلى واحد واحد من ولد الحسين عليه السلام)[٤].

---

(١) هو : محمد بن علي بن أبي طالب، أبو القاسم، ويقال أبو عبد الله، القرشي، الهاشمي، المدني، المعروف بابن الحنفية، ولد في العام الذي توفي فيه أبو بكر ﷺ، وتوفي سنة ثمانين، وقيل سنة إحدى وثمانين. كان ورعا كثير العلم من كبار التابعين.
انظر : تاريخ دمشق (٥٤/٣١٨)، السير (٤/١١٠).

(٢) انظر : بحار الأنوار (٢٦/٥٦).

(٣) كتاب الغيبة للنعماني ص : (٥٥).

(٤) المصدر السابق ص : (٥٤).

فكأن ما جاء به النبي ﷺ، وما شرعه لأمته، وعمل به لا يكفي حتى صار الأئمة يحتاجون إلى مثل هذه الصحائف المزعومة !!

ثم إن التناقض في هذه الحكايات الملفقة واضح جدا، فمرة يزعمون أن كل إمام تنزل عليه من السماء صحيفة مختومة، ومرة يزعمون أن رسول الله ﷺ دفعها إلى علي ﷺ، وأمره أن يدفعها كل إمام إلى الذي بعده !!

وهكذا أحاديث الكذبة لابد وأن تحمل في طياتها أسباب سقوطها، وعلامات زيفها، لكن المصيبة حقا أن لا يدرى أين يذهب بعقول من يصدق مثل هذا الهراء ؟!.

٨/ ما يسمى بالرقاع والتوقيعات : وهي عبارة عن أوراق يزعمون أن فيها خط الإمام الغائب بالجواب عن أسئلة المستفتين، وتلبية طلباتهم !! أتتهم عن طريق نوابه، وهي كثيرة جدا، ولها عندهم منزلة عظيمة في التشريع، حتى إنهم يقدمونها على ما صح عندهم إسناده عن الأئمة !!، فهي عندهم (من أقوى دلائلهم، وأوثق حججهم، فثبا لقوم أثبتوا أحكام دينهم بمثل هذه الترهات، واستنبطوا الحرام والحلال من نظائر هذه الخزعبلات)[1].

ولا شك أن القوم لو كانت عقيدة كمال الدين راسخة في قلوبهم لما راجت عليهم هذه الأساطير؛ لأن من اعتقد كماله يستغني بالكتاب والسنة، ولا يستشرف إلى أي شيء يذكر بأنه مصدر الهداية غيرهما، فيكون بذلك عزيزا لا ينقاد إلا للدليل، ولا يستأسر لمثل هذه الأباطيل.

---

(١) قاله محمود شكري الألوسي في كتابه صب العذاب على من سب الأصحاب ص : (٣٠٠) (تحقيق البخاري/أضواء السلف/ط١/١٤١٧) .

الأصل الثالث : الطعن في الصحابة، وتكفير أكثرهم :

من العقائد الراسخة عند الرافضة، والتي لا يصير رافضيا من لا يعتقدها عقيدة الولاء والبراء، بل بتعبير أدق لا ولاء إلا ببراء، ومرادهم بذلك عدم كفاية موالاة أهل البيت إلا بالبراءة من خيار الصحابة، خاصة الخلفاء الثلاثة ومن تولاهم وأحبهم، فكل من لم يتبرأ من هؤلاء الذين يسمونهم أعداء أهل البيت لا يكون قد دخل في سلكهم ولا يحسب منهم حتى وإن أحبهم.

بهذه العقيدة فتحوا الباب على مصراعيه للنيل من صحابة خير الورى، الذين هم أفضل من وطئ الثرى بعد الأنبياء، فرشقوهم بشتى أنواع السباب، وصنوف الشتائم، حتى رموهم بالكفر والردة -عياذا بالله- لا لجرم اقترفوه، ولا لذنب ارتكبوه إلا أنهم -كما يزعم الرافضة- غصبوا عليا ﷺ الخلافة، وأنكروا النص على إمامته !!.

قال الذهبي رحمه بعد فراغه من ذكر تراجم العشرة المبشرين بالجنة :

(... أبعد الله الرافضة، ما أغواهم وأشد هواهم، كيف اعترفوا بفضل واحد منهم وبخسوا التسعة حقهم، وافتروا عليهم بأنهم كتموا النص في علي أنه الخليفة، فوالله ما جرى من ذلك شيء، وأنهم زوروا الأمر عنه بزعمهم، وخالفوا نبيهم، وبادروا إلى بيعة رجل من بني تيم يتجر ويتكسب، لا لرغبة في أمواله ولا لرهبة من عشيرته ورجاله.

ويحك !! أيفعل هذا من له مسكة عقل ؟!

ولو جاز هذا على الواحد لما جاز على جماعة، ولو جاز وقوعه من جماعة، لاستحال وقوعه -والحالة هذه- من ألوف من سادة المهاجرين والأنصار، وفرسان الأمة، وأبطال الإسلام، لكن لا حيلة في برء الرفض فإنه داء مزمن، والهدى نور يقذفه الله في قلب من يشاء)[1].

---

(١) السير (١/١٤٠-١٤١).

ولحمل العوام والرعاع -وكلهم من الرعاع- على اقتحام هذه البليـــة، فقـــد وضعوا لهم أحاديث كثيرة فيها الترغيب في الإكثار من السب والشتم، وأن ذلك مـــن أفضل الأعمال التي يتقرب بها إلى الله جل وعلا، بل ويسروا لهم ذلك بوضع أدعيـــة زعموا أنها مأثورة فيها من السب البذيء ما يترفع عن قوله وسماعه كل عاقل عنـــده خلق ودين، فصرت لا ترى كتابا من كتبهم -خاصة الكتب الـــتي يقـــررون فيـــها مذهبهم بلا تقية- إلا وتجد فيه من السب لخيار الأمة ما يندى له الجبين، وأصبح همهم وديدنهم في مجالسهم ومجامعهم ومآتمهم الانبساط في ذاك الفعل المشين ...

ونظرا لأن جمع تلك الروايات، وتتبع كل ما افتروه من الأكاذيب للنيل مـــن خيار الأمة من الصعوبة بمكان، أكتفي بإيراد أمثلة تدل على أخواتها :

١/ الحكم بالردة على جميع الصحابة، و لم يستثنوا إلا النفر اليســـير منـــهم، فيروون في كتبهم عن حمران بن أعين[1] قال :

(قلت لأبي جعفر[2] (ع) : جعلت فداك ما أقلنا ! لو اجتمعنا على شاة مـــا أفنيناها !!

فقال : ألا أحدثك بأعجب من ذلك، المهاجرون والأنصار ذهبوا إلا -وأشـــار بيده- ثلاثة)[3].

---

(١) هو : حمران بن أعين، أبو الحسن، وقيل : أبو حمزة ،الشيباني مولاهم، أخو زرارة، رافضي كوفي، ثقـــة عندهم .

انظر : تنقيح المقال للمامقاني (١/ ٣٧٠) .

(٢) هو : محمد بن علي بن الحسين، أبو جعفر، العلوي، المدني، الملقب بالباقر. ولد سنة ست وخمســـين، ومات سنة أربع عشرة ومائة، وقيل سنة سبع عشرة. وهو تابعي جليل، كبير القدر، كان ذاكرا خاشعا صابرا، رفيع النسب، عالي الحسب، كثير البكاء والعبرات، معرضا عن الجدال والخصومات، وقد أثرت عنه كلمات عدة في غاية الحسن يتولى فيها أبا بكر وعمر، ويتبرأ ممن يسبهما.

انظر : السير (٤/ ٤٠١)، البداية والنهاية (٩/ ٣٨٥).

(٣) معرفة أخبار الرجال للكشي ص : (٥) (المطبعة الصفوية بمبئ باي دوهوني) .

وعنه أيضا قال :

(كان الناس أهل الردة بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة.

فقلت : ومن الثلاثة ؟

فقال : المقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، ... وذلك قول الله عز وجل :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ ﴾[1])[2].

وعن أبي عبد الله أنه قال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ﴾[3] :

(فلان، وفلان، وفلان ارتدوا عن الإيمان في ترك ولاية علي أمير المؤمنين عليه السلام)[4].

ويعنون بفلان وفلان وفلان : أبا بكر ﷺ، وعمر ﷺ، وعثمان ﷺ.

ففي هذه الروايات يحكمون عليهم بالردة، أي أنهم كانوا مؤمنين في عهد النبي ﷺ ثم ارتدوا بعد وفاته ﷺ رغبة في الخلافة وتفضيلا لها على الإيمان، وفي روايات أخرى يذكرون أنهم ما آمنوا ساعة من زمان، وإنما كانوا يبطنون الكفر والنفاق ويظهرون الإيمان !! فقال أحدهم في حق أبي بكر الصديق ﷺ :

(نقل في الأخبار أن الخليفة الأول قد كان مع النبي ﷺ وصنمه الذي كان يعبده زمن الجاهلية معلق بخيط في عنقه ساتره بثيابه، وكان يسجد، ويقصد أن سجوده لذلك الصنم إلى أن مات النبي ﷺ فأظهروا ما كان في قلوبهم)[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٤٤) .

(٢) معرفة أخبار الرجال للكشي ص : (٤) .

(٣) سورة محمد، الآية (٢٥) .

(٤) أصول الكافي (٢/٣٨٨) .

(٥) الأنوار النعمانية للجزائري (٢/١١١).

٢/ أنهم يحملون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما آثام جميع الخلائق من لدن آدم إلى قيام الساعة؛ لأنهما غصبوا عليا الخلافة !!.

يروون عن أبي جعفر أنه قال :

(ما أهريق دم ولا حكم بحكم غير موافق لحكم الله، وحكم رسوله صلى الله عليه وآله، وحكم علي إلا وهو في أعناقهما)[١].

يعني أبا بكر وعمر رضي الله عنهما.

وفي رواية :

(ما أهريق في الإسلام محجمة من دم، ولا اكتسب مال من غير حله، ولا نكح فرج حرام إلا وذلك في أعناقهما إلى يوم يقوم قائمنا، ونحن معاشر بني هاشم نأمر كبارنا وصغارنا بسببهما والبراءة منهما)[٢].

يقول الجزائري :

(قد وردت في روايات الخاصة[٣] أن الشيطان يغل بسبعين غلا من حديد جهنم، ويساق إلى المحشر فينظر ويرى رجلا أمامه يقوده ملائكة العذاب، وفي عنقه مائة وعشرون غلا من أغلال جهنم، فيدنو الشيطان إليه، ويقول ما فعل الشقي حتى زاد علي في العذاب، وأنا أغويت الخلق وأوردتهم موارد الهلاك، فيقول عمر للشيطان: ما فعلت شيئا سوى أني غصبت خلافة علي بن أبي طالب !!!.

ثم قال معقبا :

(والظاهر أنه قد استقل سبب شقاوته ومزيد عذابه، **ولم يعلم أن كل ما وقع في الدنيا إلى يوم القيامة من الكفر والنفاق واستيلاء أهل الجور والظلم إنما هو من فعلته هذه**)[٤].

---

(١) معرفة أخبار الرجال للكشي ص : (١٣٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المراد بالخاصة عندهم كل من على دينهم ونحلتهم، وأما أهل السنة فيطلقون عليهم اسم العامة.

(٤) الأنوار النعمانية (١/٨١-٨٢)، والنقمة هذا فاق أهل ملته فيما يكنه لأصحاب النبي ﷺ من الحقد والبغض؛ إذ إنه رماهم في كتابه هذا بأشياء يقف منها شعر الإنسان، نسأل الله أن يجزيه بما يستحق.

ويؤكد هذا في تلك القصة الخرافية التي أوردها يصور فيها رحلة مهديهم المزعوم إذا خرج !!! وفيها أن قائمهم يأتي المدينة ويحيي أبا بكر، وعمر، ويأمر الخلائق بالاجتماع، ثم يقص عليهم قصص فعالهم في كل كور ودور، حتى يقص عليهم قتل هابيل بن آدم، وجمع النار لإبراهيم وطرح يوسف في الجب، وحبس يونس في بطن الحوت !!، وقتل يحيى، وصلب عيسى، ...، وإراقة دماء آل محمد، وكل دم مؤمن، وكل فرج نكح حراما، وكل ربا أكل، وكل خبث وفاحشة وظلم منذ عهد آدم إلى يومهم ذلك، كل ذلك يعدده عليهما ويلزمهما إياه، ويعترفان به، ثم يأمر بهما فيقتص منهما في ذلك الوقت مظالم من حضر ثم يصلبهما على الشجرة ويأمر نارا تخرج من الأرض تحرقهما والشجرة، ثم يأمر ريحا فتنسفهما في اليم نسفا [1] !!!.

٣/ وصل بهم بغض الصحابة إلى حد التصريح بالكفر بالرب الذي خليفة نبيه هو أبو بكر الصديق ﷺ !!!

يقول الجزائري :

(... إن ربهم –أي أهل السنة– هو الذي كان محمد ﷺ نبيه، وخليفته بعده أبو بكر، ونحن لا نقول بهذا الرب، ولا بذلك النبي !! بل نقول : إن الرب الذي خليفة نبيه أبو بكر ليس ربنا ولا ذلك النبي نبينا !!!)[2].

ويقول مؤسس دولتهم في هذا العصر :

(إننا نعبد إلها تقوم أعماله على أساس من الحكمة، ولا يعمل ما يناقض العقل !!!.

إننا لا نعبد إلها يقيم بناء شامخا للعبادة والعدالة والتدين ثم يقوم بهدمه بنفسه، ويجلس يزيدا، ومعاوية، وعثمان وسواهم من العتاة في مواقع الإمارة على الناس، ولا يقوم بتقرير مصير الأمة بعد وفاة نبيه)[3].

---

(١) الأنوار النعمانية (٨٩/١).

(٢) المصدر السابق (٢٧٩/٢).

(٣) قاله الخميني في كتابه كشف الأسرار ص : (١٢٣) .

٤/ الحكم بكفر كل من اعتقد أن لأبي بكر وعمر نصيبا في الإسلام، ومن رواياتهم في ذلك ما رووه عن أبي عبد الله أنه قال :

(ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : من ادعى إمامة من الله ليست له، ومن جحد إماما من الله، ومن زعم أن لهما في الإسلام نصيبا)[1].

والإشارة في قوله (لهما) إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

والحق الذي لا مرية فيه أن هؤلاء الأشرار الذين كفروا أولئك الأخيار أولى بالكفر والزندقة، بل إن من شك في كفرهم وجب إلحاقه بهم وحكم بكفره.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(... من زعم أنهم –أي الصحابة– ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرا قليلا لا يبلغون بضعة عشر نفسا، أو أنهم فسقوا عامتهم، فهذا لا ريب في كفره، فإنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضى عنهم والثناء عليهم، بل من يشك في كفر مثل هذا فإن كفره متعين، فإن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفار أو فساق، وأن هذه الأمة التي هي :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[2].

وخيرها هو القرن الأول، كان عامتهم كفارا أو فساقا، ومضمونها أن هذه الأمة شر الأمم، وأن سابقي هذه الأمة هم شرارها، وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام؛ ولهذا تجد عامة من ظهر عنه شيء من هذه الأقوال فإنه يتبين أنه زنديق، وعامة الزنادقة إنما يستترون بمذهبهم، وقد ظهرت لله فيهم مثلات، وتواتر النقل بأن وجوههم تمسخ خنازير في المحيا والممات)[3].

---

(١) أصول الكافي (١/٣٧٢).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١١٠).

(٣) الصارم المسلول (٢/١١١٠-١١١٢)، وانظر : مفتاح دار السعادة (٢/١٧٩-١٨٠).

الأصل الرابع : الطعن في السنة إما بالكذب أو التكذيب :

لعل بعض المعالم في موقف الرافضة من السنة النبوية قد ظهرت مما سبق بيانه في موقفهم من الصحابة رضوان الله عليهم، فلا بد بعد الحكم عليهم بالكفر أن يقابلوا كل ما نقل عن طريقهم بالرد والرفض؛ إذ لا يتصور أن يحكموا بكفرهم ثم يأخذوا منهم الدين، ويقبلوا ما نقلوه عن النبي الأمين؛ لذا فهم يصرحون بأن ما نقله غير أهل البيت فهو مردود لا يلتفت إليه، وأن (كل ما لم يخرج من عند الأئمة فهو باطل)[1].

قال أحدهم :

(إنهم – أي الإمامية - لا يعتبرون من السنة إلا ما صح لهم من طرق أهل البيت عن جدهم، أما ما يرويه مثل أبي هريرة، وسمرة بن جندب، ...، وعمرو بن العاص، ونظائرهم فليس لهم عند الإمامية من الاعتبار مقدار بعوضة !! وأمرهم أشهر من أن يذكر ! كيف وقد صرح كثير من علماء السنة بمطاعنهم، ودل على جائفة جروحهم !!!)[2].

فبأسلوب التكذيب هذا استطاعوا أن يسقطوا معظم ما ورد عن النبي ﷺ من السنن والأحكام.

ثم إنهم أكثروا من الكذب على أهل البيت حتى أفسدوا حديثهم، وصار كثير من الناس لا يعرفون ما صح مما نقل عنهم وما لا يصح، فقد قيل بأنهم وضعوا في فضائل علي ﷺ وأهل البيت نحو ثلاث مائة ألف حديث !![3]، وكذبوا على جعفر الصادق ما لم يكذب على أحد؛ لذا عرفوا بأنهم أكذب الطوائف التي تنتسب إلى الإسلام.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(١) أصول الكافي (١/٣٩٩).

(٢) قاله محمد حسين آل كاشف الغطا في كتابه أصل الشيعة وأصولها ص : (٧٩).

(٣) قال ابن القيم رحمه الله في المنار المنيف ص : (٩٣) : (ولا تستبعد هذا، فإنك لو تتبعت ما عندهم من ذلك لوجدت الأمر كما قال).

(إن جعفرا كذب عليه ما لم يكذب على أحد؛ لأنه كان فيه من العلم والدين ما يميزه الله به، وكان هو وأبوه –أبو جعفر– وجده علي بن الحسين من أعيان الأئمة علما ودينا، ولم يجئ بعد جعفر مثله في أهل البيت فصار كثير من أهل الزندقة والبدع ينسب مقالته إليه ...)[1].

وقد حاولوا إفساد حديث غير أهل البيت أيضا باتباع الأسلوب نفسه، فوضعوا أحاديث كثيرة، حرموا فيها الحلال، وأحلوا فيها الحرام، وسعوا في ترويجها بين أهل السنة كي يزعزعوا ثقتهم بالحديث ونقلته.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(الرافضة عمدتهم السمعيات، لكن كذبوا أحاديث كثيرة جدا راج كثير منها على أهل السنة، وروى خلق كثير منها أحاديث، حتى عسر تمييز الصدق من الكذب على أكثر الناس، إلا على أئمة الحديث العارفين بعلله متنا وسندا)[2].

فحاصل موقفهم من السنة يتلخص في الأمور التالية :

١/ تكذيب كل ما لم ينقل عن طريق أهل البيت ولو كان متواترا.

٢/ قبول كل ما نقل عن أهل البيت، وعدم الاعتناء بالإسناد، وعلم الجرح والتعديل؛ لذا يصدقون بما علم أنه كذب صراح، وإفك مفترى.

٣/ تعمد وضع الحديث بغية التشويش على أهل السنة، والسعي في زعزعة ثقتهم بالحديث ونقلته.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(يصدقون من المنقول بما يعلم العلماء بالاضطرار أنه من الأباطيل، ويكذبون بالمعلوم من الاضطرار، المتواتر أعظم تواتر في الأمة جيلا بعد جيل، ولا يميزون بين نقلة العلم ورواة الأحاديث والأخبار بين المعروف بالكذب أو الغلط أو الجهل بما ينقل، وبين العدل الحافظ الضابط المعروف بالعلم والآثار)[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/٥٨١).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٢٨٩).

(٣) منهاج السنة (١/٨).

فقطعوا الصلة بين المخدوعين بهم وبين الوحي الذي لا غنى لهم عنه مما اضطرهم إلى أن يبحثوا لهم عن البديل فلم يجدوا بغيتهم إلا في الكذب على الأئمة ثم إعطاء هذا الكذب قدسية لا تقل عن قدسية النصوص الشرعية، وإطراء الأئمة والغلو في تقديسهم حتى يقبل كل ما ينسب إليهم.

وهذا ما سأبينه فيما يلي :

الأصل الخامس : الغلو في أئمتهم، وإعطاؤهم حق التشريع :

لما رد الروافض الكتاب وادعوا فيه بأنه ناقص ومحرف، وكذبوا بالسنة إذ طعنوا في خيار نقلتها ورموهم بالردة والكفر، أقفرت أيديهم من الوحي، فلم يجدوا معهم من مصادر الهداية ما يرجعون إليه، ولا ما يعولون عليه، الأمر الذي اضطر صناديدهم إلى التفكير في الحل الكفيل بإخراجهم من المأزق، ففزعوا إلى الافتراء على الأئمة، ووضعوا على لسانهم كثيرا من الأحاديث في أصول الدين وفروع الشريعة، وقد أقروا بأنهم كانوا قبل مجيء أبي جعفر يحتاجون في معرفة الحلال والحرام وبقية الأحكام إلى الذين أطلقوا عليهم اسم العوام، وكفروهم بالبهتان.

يقول الكليني :

(كانت الشيعة قبل أن يكون أبو جعفر وهم لا يعرفون مناسك حجهم وحلالهم وحرامهم، حتى كان أبو جعفر ففتح لهم وبين لهم مناسك حجهم وحلالهم وحرامهم، حتى صار الناس يحتاجون إليهم من بعد ما كانوا يحتاجون إلى الناس)[1].

ونظرا لأن تلك الروايات من وضع البشر، وافتراء عدد كبير من الزنادقة فلا بد والحال هذه أن يعترض طريق قبولها أمران :

أحدهما : أن فيها من الاختلاف والتناقض ما يكشف حقيقتها، وحقيقة واضعيها.

الثاني : أنها لن تقبل كما تقبل نصوص الوحي.

لذا أوجبوا طاعة الأئمة طاعة عمياء، وألزموهم بتصديق الأقوال التي تنقل عنهم، وقبول الأخبارالتي تؤثر عنهم ولو كانت من الكذب الصراح الذي لا يختلف فيه اثنان، ولا ينستطح فيه عنزان، وقرروا بأن ردها من باب الرد على الإمام، (والرد على الإمام رد على الله، والراد على الله يقع في حد الشرك بالله)[2].

ويروون أنه قيل لأبي عبد الله : إن رجلا يأتينا من قبلكم يعرف بالكذب، فيحدث بالحديث فنستبشعه، فقال أبو عبد الله :

---

(١) أصول الكافي (٢/٢٠).

(٢) قاله الخميني في كشف الأسرار ص : (٢٠٧).

(يقول لك إني قلت لليل نهار، أو للنهار إنه ليل !!!
قال : فإن قال لك هذا إني قلته فلا تكذب به فإنك إنما تكذبني !!!)[1].

ولكي تقبل تلك الأخبار بلا جدال ولا روية فقد نـزلوها منـزلة وحي رب البرية، وقالوا بأن مصدرها الوحي أيضا، بل إن منـزلتها عندهم أفضل من منـزلة ما جاء به النبي ﷺ، كما غالوا في تقديس الأئمة، فادعوا فيهم العصمـة، وفضلوهـم وأعطوهم منـزلة لا يصلها نبي مرسل ولا ملك مقرب، بل بلغ بهم الغلو إلى حـد أن يصفوهم بصفات الربوبية.

وفيما يلي عرض لبعض مظاهر غلوهم في أئمتهم :

أولا : القول بعصمتهم :

من العقائد التي تعد من ضروريات مذهب الرافضة الإيمان بعصمة الأئمة، فـلا يتصور عندهم أن يقع منهم السهو والغفلة بله الخطأ والمعصية، وقد حكى المجلسـي إجماعهم على هذه العقيدة فقال :

(إن أصحابنا الإمامية أجمعوا على عصمة الأئمة -صلوات الله عليـهم-[2] من الذنوب الصغيرة والكبيرة عمدا، وخطأ، ونسيانا، من وقت ولادتهم إلى أن يلقـوا الله عز وجل)[3].

ويروون في إثبات ذلك عن أهل البيت آثارا عدة، منها ما رووه عن أبي عبـد الله أنه قال : (نحن خزان علم الله، ونحن تراجم أمر الله، نحن قوم معصومون، أمـر الله بطاعتنا ونهى عن معصيتنا ...)[4].

---

(١) بحار الأنوار (٢/٢١١-٢١٢).

(٢) من المعلوم أن تخصيص علي ﷺ بالصلاة صار شعارا للرافضة ؛ لذا قرر علماء السلف كراهة ذلك؛ لأن فيه هضما لحق بقية الصحابة خاصة الخلفاء الثلاثة، ومثله قولهم (كرم الله وجهه)، ولا يغتر بذكـر شيء من ذلك في بعض كتب السلف فهو من فعل النساخ كما قرره الحافظ ابن كثير رحمه الله .انظر : تفسير ابن كثير (٣/٤٩٥)، المناهي اللفظية ص : (٣٤٨) .

(٣) بحار الأنوار (٢٥/٣٥٠-٣٥١)، وانظر : المصدر نفسه (٢٥/٢١١).

(٤) أصول الكافي (١/١٤٩).

وهذه هي عقيدتهم إلى عصرنا هذا، يقول مؤسس دولتهم في هذا العصر :

(الأئمة لا نتصور فيهم السهو والغفلة، ونعتقد فيهم الإحاطة بكل ما فيه مصلحة المسلمين)[1].

وهذه الدعوى الكاذبة والعصمة المفتعلة لم يكن يتمتع بها حتى الأنبياء، ويردها أول ما يردها روايات كثيرة، وأخبار متظافرة وردت في كتب القوم المعتمدة فيها التصريح من الأئمة بأنهم يخطئون، ويذنبون ثم يستغفرون، ونظرا لكثرتها فقد أوقعت القوم في حيص بيص، حتى قال المجلسي الذي نقل إجماعهم :

(المسألة في غاية الإشكال لدلالة كثير من الأخبار والآيات على صدور السهو عنهم، وإطباق الأصحاب إلا من شذ منهم على عدم الجواز)[2].

ومما ورد من الأخبار مما يبطل هذه الأكذوبة ما رووه عن أبي عبد الله أنه قال وقد ذكر له السهو :

(أو ينفلت من ذلك أحد، ربما أقعدت الخادم خلفي يحفظ علي صلاتي)[3].

وما رووه عنه أيضا أنه قال :

(إنا لنذنب ثم نتوب إلى الله متابا)[4].

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(من جعل بعد الرسول معصوما يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة، وإن لم يعطه لفظها)[5].

---

(١) قاله الخميني في الحكومة الإسلامية ص : (٥٢) (المكتبة الإسلامية الكبرى، طهران) .

(٢) بحار الأنوار (٣٥١/٢٥).

(٣) المصدر السابق (٣٥١/٢٥).

(٤) المصدر السابق (٢٠٧/٢٥).

(٥) منهاج السنة (١٧٤/٣).

ثانيا : اعتقاد أن أئمتهم يوحى إليهم، وتنـزل عليهم كتب إلهية :

مع أن الأمة قد أجمعت على أن النبي ﷺ هو خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده ﷺ، وصار ذلك معلوما من دين المسلمين بالضرورة، إلا أن الرافضة –أذلهم الله– لا يبالون بخرق الإجماع، ولا بمخالفة المعلوم من الدين بالضرورة، فقد وقعوا في الكفر الصراح لما زعموا بأن الأئمة يوحى إليهم، وتنـزل عليهم كتب إلهية، والأعجب من هذا أن يجدوا على هذا الباطل أتباعا وأشياعا، لكن الأمر كما قال ابن قتيبة رحمه الله: (الناس أسراب طير يتبع بعضها بعضا، ولو ظهر لهم من يدعي النبوة –مع معرفتهم بأن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، أو من يدعي الربوبية– لوجد على ذلك أتباعا وأشياعا)[1].

ولقد مهد القوم لهذه الفرية العظيمة بأن قرروا بأن كلام الأئمة كله منقول عن النبي ﷺ، وكلام النبي من وحي الله جل وعلا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(وأما دعوى المدعي أن كل ما أفتى به الواحد من هؤلاء فهو منقول عنده عن النبي ﷺ فهذا كذب على القوم رضي الله عنهم، فإنهم كانوا يميزون بين ما يروونه عن النبي ﷺ وبين ما يقولونه من غير ذلك، وكان علي ﷺ يقول : " إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فوالله لأن أخر من السماء إلى الأرض أحب إلي من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة " [2].

ولهذا كان يقول القول ويرجع عنه، ولهذا كانوا يتنازعون في المسائل كما يتنازع غيرهم، وينقل عنهم الأقوال المختلفة كما ينقل عن غيرهم، وكتب السنة والشيعة مملوءة بالروايات المختلفة عنهم)[3].

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص : (٢٠-٢١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم (٤/٢٨٠-٢٨١) رقم (٦٩٣٠)، ومسلم في صحيحه : كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج (٢/٧٤٦) رقم (١٠٦٦).

(٣) منهاج السنة (٢/٤٦٢-٤٦٣).

ثم بعد ذلك قرروا أن الإمامة (منصب إلهي كالنبوة)[1]، وأنها (كانت منذ اليوم الأول وحتى آخر أنفاس رسول الإسلام صنوا للنبوة)[2]، وأن الملائكة تغدوا وتروح على الأئمة، بل لا شغل لها إلا خدمتهم وتبليغ أخبار الغيب إليهم.

قال أبو عبد الله -كما يزعمون- :

(إن الملائكة لتنزل علينا في رحالنا وتتقلب على فرشنا، وتحضر موائدنا، وتأتينا من كل نبات في زمانه رطب ويابس، وتقلب علينا أجنحتها، وتقلب أجنحتها على صبياننا، وتمنع الدواب أن تصل إلينا، وتأتينا في وقت كل صلاة لتصليها معنا، وما من يوم يأتي علينا ولا ليل إلا وأخبار أهل الأرض عندنا وما يحدث فيها، وما من ملك يموت في الأرض ويقوم غيره إلا وتأتينا بخبره وكيف كانت سيرته في الدنيا)[3].

ثم لم يجدوا بدا من التصريح بأن الأئمة يوحى إليهم، وافتروا على أبي عبد الله الذي ينسبون إليه كل داهية أنه قال :

(إن منا لمن ينكث في أذنه، وإن منا لمن يؤتى في منامه، وإن منا لمن يسمع الصوت مثل صوت السلسلة يقع في الطست، وإن منا لمن يأتيه صورة أعظم من جبريل وميكائيل)[4].

ولما اطمأنوا إلى قبول شيعتهم مثل هذه الترهات قالوا بأن الملائكة أوحت إلى الأئمة في أيام يسيرة ما لم ينزل على النبي ﷺ في أعوام دعوته الطويلة، إشارة إلى تفضيل ما زعموا أنه أنزل على الأئمة على ما أنزل على خير البرية ﷺ، فقد رووا عن أبي عبد الله أنه قال :

---

(١) أصل الشيعة وأصولها آل كاشف الغطا ص : (٥٩).

(٢) قاله الخميني في كشف الأسرار ص : (١٧٣).

(٣) بحار الأنوار (٢٦/٣٥٦).

(٤) بصائر الدرجات باب (٧) ج (٥) بواسطة الشيعة والسنة لإحسان إلهي ظهير ص (٧١) (إدارة ترجمان السنة باكستان) .

(. . إن الله تعالى لما قبض نبيه صلى الله عليه وآله، دخل على فاطمة عليها السلام من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فأرسل الله إليها ملكا يسلي غمها ويحدثها فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال : إذا أحسست بذلك وسمعت الصوت قولي لي، فأعلمته بذلك فجعل أمير المؤمنين عليه السلام يكتب كل ما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفا.

ثم قال : أما إنه ليس فيه شيء من الحلال والحرام ولكن فيه علم ما يكون)[1].

وقد تقدم أن هذا المصحف يعدل القرآن ثلاث مرات !!

ثم إنهم قرروا بكل صراحة ووقاحة أن مهديهم الغائب إذا خرج سيبايع الناس على كتاب جديد وسنة جديدة، فرووا عن أبي عبد الله أنه قال :

(إذا خرج يقوم بأمر جديد، وكتاب جديد، وسنة جديدة، على العرب شديد، وليس شأنه إلا القتل، لا يستبقي أحدا، ولا تأخذه في الله لومة لائم)[2].

وعن الباقر قال :

(. . إذا تحرك متحركنا فاسعوا إليه ولو حبوا، والله لكأني أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس على كتاب جديد، على العرب شديد !! قال : ويل للعرب من شر قد اقترب)[3].

ففي هذه الأساطير التي افتراها هؤلاء الشعوبيون التصريح بأن مهديهم لا يكفيه ما جاء به النبي ﷺ، ولا يصلح لأن يحكم به في ذلك الزمان؛ لذا فإنه سينزل عليه كتاب جديد وسنة جديدة ينسخ بهما شرعة الإسلام !!

---

(١) أصول الكافي (١/٢٤٠).

(٢) الغيبة للنعماني ص : (٢٥٥).

(٣) المصدر السابق ص : (٢٤٣).

ومثل هذه الروايات لا تدع مجالا للشك في أن مصدر هذه الروايات هم جماعة من الزنادقة والشعوبيين الذين أخذوا على أنفسهم محاربة الإسلام وأهله، ومحاولة القضاء على الدين وتقويض أركانه، ومثل هذه الأساطير تكفي في إيقاظ ضمير من عنده ذرة عقل ممن انخدع بدعاة الرفض وانطلت عليه الحيلة، أو دخل في سلكهم بحكم الإلف والنشأة، واستجابة لدواعي الحمية، أو رغبة في تحقيق بعض الشهوات الزائلة؛ إذ لابد للعاقل أن يتساءل عن ذنب العرب حتى يكون مصيرهم القتل بلا هوادة ؟! فإن كانوا إنما حكم عليهم بالقتل لذنب ارتكبوه، أو كفر وقعوا فيه، فلماذا خصوا بالقتل من دون العصاة والكفرة ؟! ولماذا التنصيص على العرب دون غيرهم ؟! أم أن هذا مصيرهم لأنهم عرب بغض النظر عن الإيمان والكفر، وهل هذا هو العدل الذي يؤمله الروافض من خروج مهديهم المزعوم ؟!

وقد ورد في بعض رواياتهم توعد العرب عن بكرة أبيهم من غير استثناء أحد حتى الشيعة منهم، ففي بحار الأنوار :

(اتق العرب !! فإن لهم خبر سوء، أما إنه لم يخرج مع القائم منهم واحد)[1].

ثم لماذا سيحتاج إلى كتاب جديد وسنة جديدة، أليس في الإسلام ما يكفيه ويغنيه ؟! وما المقصود بالجديد، هل هو شيء مستحدث لم يعرف من قبل عند سائر الأمم ؟ أم أنه جديد عند المسلمين فقط ؟! ولعل الاعتبار الأخير هو الصحيح؛ إذ قد ورد في أصح كتبهم عن أبي عبد الله أنه قال :

(إذا قام قائم آل محمد حكم بحكم داود وسليمان، ولا يسأل بينة !!)[2].

ولا إخال عاقلا بعد إيراد هذه الرواية يشك في مصدر نحلة الرفض، وأنها يهودية المصدر والمورد، كما لا أظنه يسأل لإثبات هذا عن بينة !!.

---

(١) بحار الأنوار (٥٢/٣٣٣).

(٢) أصول الكافي (١/٣٩٧).

ثالثا : أن منـــزلتهم فوق منـــزلة الأنبياء والملائكة :

بعد أن قرر الروافض أن الأئمة كالأنبياء، وأنه يوحى إليهم لم يقنعـــوا حـــتى رفعوهم وقدموهم على الملائكة المقربين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

يقول الجزائري :

(اعلم أنه لا خلاف بين أصحابنا، ...، في أشرفية نبينا ﷺ على سائر الأنبياء عليهم السلام للأخبار المتواترة، وإنما الخلاف بينهم في أفضلية أمير المؤمنين والأئمـــة الطاهرين عليهم السلام على الأنبياء ما عدا جدهم ﷺ.

فذهب جماعة إلى أنهم أفضل من باقي الأنبياء ما خلا أولي العزم؛ فإنهم أفضـــل من الأئمة عليهم السلام، وبعضهم إلى المساواة، وأكثر المتأخرين إلى أفضلية الأئمـــة عليهم السلام على أولي العزم وغيرهم، وهو الصواب)[1].

وقال إمامهم في هذا العصر :

(إن للإمام مقاما محمودا، ودرجة سامية، وخلافة تكوينية، تخضع لولايتـــها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون، وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل)[2].

ومما افتروه من الأخبار لترويج هذا البهتان ما يلي :

عن أبي عبد الله أنه قال :

(ورب الكعبة، ورب البنية – ثلاث مرات – لو كنت بين موسى والخضـــر لأخبرتهما أني أعلم منهما ولأنبأتهما أني أعلم منهما، ولأنبأتهما بما ليس في أيديـــهما؛ لأن موسى والخضر أعطيا علم ما كان و لم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حـــتى تقوم الساعة، وقد ورثناه من رسول الله ﷺ وراثة)[3].

---

(١) الأنوار النعمانية (١/٢٠-٢١).

(٢) قاله الخميني في الحكومة الإسلامية ص : (٥٢).

(٣) أصول الكافي (١/٢٦١).

ونسبوا إلى النبي ﷺ أنه قال :

(أعطيت ثلاثا وعلي مشاركي فيها، وأعطي علي ثلاثة و لم أشاركه فيها !!! فقيل يا رسول الله : وما الثلاثة التي شاركك فيها علي ؟

قال : لواء الحمد لي وعلي حامله، والكوثر وعلي ساقيه، والجنة والنار وعلي قسيمهما.

وأما الثلاث التي أعطي علي و لم أشاركه فيها : فإنه أعطي شجاعة و لم أعط مثلها !!! وأعطي فاطمة الزهراء زوجة و لم أعط مثلها، وأعطي الحسن والحسين و لم أعط مثلهما)[1].

(١) نقلته بواسطة إحسان إلهي ظهير في كتابه الشيعة وأهل البيت حاشية ص : (١٩١) (إدارة ترجمان السنة، باكستان).

رابعا : زعموا أنهم وحدهم الذين يعلمون المعاني الباطنة للقرآن :

لقد حاول الرافضة أن يجدوا في القرآن ما يتمسكون به مما يساند أصولهم الكاذبة، ويعطي بعض المصداقية لعقائدهم الباطلة، إلا أنه بعد التعب المضني لم يظفروا بشيء يذكر، فعلموا أن اطلاع الأتباع على هذه الحقيقة يعد خطرا يهدد مذهبهم، ويزلزل كيانهم؛ إذ لا يتصور أن يذكر القرآن ما يتعلق بفروع الشريعة، ومسائل الآداب والأخلاق ولا يعرج على ذكر الأصل الذي يزعمون أن الله لا يقبل من أحد صرفا ولا عدلا إلا بتحقيقه، والذي عليه مدار الدين كله، أعني الإيمان بإمامة الأئمة !!

وقد حاولوا الخروج من هذا المأزق، وراموا الانفكاك من هذا الإشكال العويص فادعوا من أجل ذلك في القرآن أمرين باطلين :

أحدهما : زعموا أن الأئمة قد نص عليهم القرآن الكامل الذي جمعه علي ﷺ، وذكر فضائلهم، إلا أن الخلفاء الثلاثة -رضي الله عنهم وأرضاهم وأذل من عاداهم- قد حرفوا القرآن، وأسقطوا منه الآيات الدالة على ذلك، على النحو الذي تقدم ذكره.

الثاني : زعموا أن لكل آية من القرآن ظهرا وبطنا، وزاد بعضهم على ذلك فزعم أن لكل آية سبعة أبطن، بل استفاضت الروايات بأن لكل آية سبعين بطنا[1].

وعليه فهم يزعمون أن ما سلم من القرآن من التحريف والتبديل وإن لم ينص ظاهره على الأئمة، ولم ينوه بفضائلهم فإن باطنه كله يدور عليهم إما مدحا لهم ولمن شايعهم، وإما ذما لمن عاداهم وحاربهم !!

فذكروا أن موسى الكاظم سئل عن قول الله عز وجل :﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[2]، فقال :

---

(١) انظر : أصول مذهب الشيعة الإمامية للقفاري (١/١٥٠ وما بعدها) ففيه بيان هذه المسألة بتفصيل.

(٢) سورة الأعراف، الآية (٣٣).

(إن القرآن له ظهر وبطن، فجميع ما حرم الله في القرآن هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الجور !! وجميع ما أحل الله تعالى في الكتاب هو الظاهر والباطن من ذلك أئمة الحق)[1].

فقرروا أن القرآن له باطن، وأن ذلك الباطن ليس في مقدور كل أحد معرفته والاطلاع عليه، بل لا يعلمه إلا من اصطفاه الله وأهله لذلك.

ولا شك أن لا أحد يؤهل عندهم لتلك المنزلة إلا الأئمة، فهم الذين اختارهم الله وفضلهم بأمور جعلتهم يحيطون بما في الوجود علما !!! ولا يعزب عنهم شيء مما في السماوات والأرض، سواء قل أو كثر، وسواء صغر أم كبر !!!

فيروون عن أبي عبد الله أنه قال :

(والله لقد أعطينا علم الأولين والآخرين !!!

فقال له رجل من أصحابه : جعلت فداك ! أعندكم علم الغيب ؟!!

فقال له : ويحك، إني لأعلم ما في أصلاب الرجال، وأرحام النساء، ويحكم وسعوا صدوركم، ولتبصر أعينكم، ولتع قلوبكم، فنحن حجة الله تعالى في خلقه، ولن يسع ذلك إلا صدر كل مؤمن قوي قوته كقوة جبال تهامة[2] إلا بإذن الله، والله لو أردت أن أحصي لكم كل حصاة عليها لأخبرتكم !!وما من يوم وليلة إلا والحصى تلد إيلادا، كما يلد هذا الخلق !!! والله لتتباغضون بعدي حتى يأكل بعضكم بعضا)[3].

---

(١) أصول الكافي (٣٧٤/١)، والغيبة للنعماني ص : (١٣١).

(٢) تهامة بكسر التاء، مكان معروف في جزيرة العرب، اختلف في حدوده فقيل : هي مكة إلى أسياف البحر إلى الجحفة بذات عرق، وقيل غير ذلك .وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها، ويقال سميت بذلك لتغير هوائها .انظر : أخبار مكة للفاكهي (٣٥٣/٣) (تحقيق ابن دهيش/مكتبة النهضة الحديثة، مكة/ط١/١٤٠٧)، ومعجم البلدان (٦٣/٢).

(٣) بحار الأنوار للمجلسي (٢٧/٢٦-٢٨).

وقد أعدوا الجواب لمن حاول معرفة مصدر تلك العلوم كلها وسأل عن كيفية وصول الأئمة إليها، فزعموا أن الواحد منهم متى ما أراد أن يعلم أي شيء فإن الله يتولى تعليمه، فيروون عن أبي عبد الله أنه قال :

(إذا أراد الإمام أن يعلم شيئا أعلمه الله ذلك)[1].

ولما رأوا أن بعض الأتباع لا يستسيغون مثل هذه الأكاذيب المفضوحة حاولوا التلبيس عليهم بأكذوبة أخرى، فزعموا أنهم علموا ذلك من القرآن، وافتروا عن أبي عبد الله أنه قال :

(إني لأعلم ما في السماوات وما في الأرض، وأعلم ما في الجنة، وأعلم ما في النار، وأعلم ما كان وما يكون !!! ثم مكث هنيهة فرأى أن ذلك كبر على من سمعه، فقال علمت ذلك من كتاب الله عز وجل !! إن الله عز وجل يقول : (فيه تبيان كل شيء)[2])[3].

وقد أراد الله أن يفضح هذا الكذاب الذي افترى هذه الفرية وزعم أن جعفرا الصادق يدعي أنه علم تلك العلوم من باطن القرآن، فاستشهد بالآية وأخطأ في لفظها وتأويلها !!

والمقصود أنهم قرروا أن القرآن له ظهر وبطن، وأن المعاني الباطنية أشرف من المعاني الظاهرة، وقد خص الله بمعرفتها الأئمة فلا يعلمها إلا هم؛ لذا يزعم الرافضة أنهم لا يحتاجون إلى القياس لمعرفة الأحكام، فالأئمة الذين عندهم علم الباطن قد كفوهم المؤنة، و لم يحوجوهم إلى القياس ولا إلى غيره.

يقول أحدهم ناعيا على أهل السنة قولهم بحجية القياس :

---

(١) أصول الكافي (١/٢٥٨).

(٢) هكذا ذكرها واضع هذه الفرية، ولفظ الآية الصحيح : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ سورة النحل، الآية (٨٩).

(٣) أصول الكافي (١/٢٦١).

(... ثم أعجب من هذا ادعاء هؤلاء الصم العمي أنه ليس في القرآن علم كل شيء من صغير الفرائض وكبيرها، ودقيق الأحكام والسنن وجليلها، وأنهم لما لم يجدوه فيه احتاجوا إلى القياس والاجتهاد في الرأي والعمل في الحكومة بهما، وافتروا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكذب والزور بأنه أباحهم الاجتهاد ...

إلى أن قال : ولعمري لقد صدقوا عن أنفسهم وأئمتهم الذين يقتدون بهم في أنهم لا يجدون ذلك في القرآن؛ لأنهم ليسوا من أهله، ولا ممن أوتي علمه، ولا جعل الله لهم فيه نصيبا، **بل خص بالعلم به كله أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، الذين آتاهم العلم ودل عليهم، والذين أمر بمسألتهم ليدلوا على موضعه من الكتاب الذين هم خزنته، وورثته، وتراجمته** ...)[1].

(١) كتاب الغيبة للنعماني ص : (٤٩-٥٠)، وانظر لرد هذه الفرية كلام شيخ الإسلام في المنهاج (٣/٤٠٠-٤١٠).

المطلب الثاني : موقفهم من كمال الدين في المسائل العلمية، والمسائل العملية :

مما سبق يتبين أن الإمامة هي قطب الرحى عند الرافضة؛ لذا فإن هذه المسألة قد أثرت تأثيرا واضحا وخطيرا على جميع مسائل الدين عندهم سواء منها العلمية، أو العملية، فقد طفحت الكتب المعتمدة عند الرافضة بالروايات المكذوبة على أهل البيت والتي تنص على ضرورة الإيمان بولايتهم واعتقاد إمامتهم، فبلغت من الكثرة ما يصعب معه العد والحصر، وكلها تدندن على جعل الإمامة هي أهم أركان الدين، وزبدة رسالة الأنبياء والمرسلين، وأنها الأصل الذي يشترط تحققه لقبول الأعمال، فكل من لم يحققه فإن عمله يكون هباء منثورا، حتى كلمة التوحيد لا تنفعه، لأن قبولها متوقف أيضا على ذلك؛ لذا نجد علماء القوم يحرفون النصوص الشرعية الواردة في ذم الشرك، والتي فيها الوعيد لأهله، ويصرفونها عن ظاهرها، ويقولون بأن المراد منها كل من اعتقد غير ولاية أهل البيت، أو أشرك مع الأئمة غيرهم !! [1]. كما يحرفون النصوص الواردة في إثبات التوحيد والأمر به، ويحملونها على توحيد الأئمة بالولاية [2].

فهم يرون أن (الجاحد لولاية علي كعابد الوثن)[3]، وأن الإمامة هي الركن الوحيد من أركان الإيمان الذي لا رخصة لأحد في تركه !!

عن أبي عبد الله قال :

(إن الله افترض على أمة محمد خمس فرائض : الصلاة والزكاة والصيام والحج وولايتنا، فرخص لهم في أشياء من الفرائض الأربعة، و لم يرخص لأحد من المسلمين في ترك ولايتنا، لا والله ما فيها رخصة)[4].

---

(١) انظر : أصول الكافي (١/٤٢٧).

(٢) هذه الأمور التي ذكرتها هنا مختصرة تجدها بتفصيل مع ذكر الروايات من كتبهم المعتمدة في كتاب القفاري أصول مذهب الشيعة الإمامية (٢/٤٢٥ وما بعدها) (ط٢/١٤١٥) .

(٣) بحار الأنوار (٢٧/١٨١).

(٤) أصول الكافي (٢/٢٢).

والمقصود أن الغلو في مسألة الإمامة، وتقديس الأئمة كانت له نتائج خطيرة وآثار سلبية على جميع أمور الدين عندهم، ومن تلك النتائج السلبية ما يلي :

١/ إفلاسهم في المسائل العلمية، واضطرارهم للأخذ بمنهج المتكلمين في أكثرها :

سبق وأن بينت أن الذين وضعوا نحلة الرفض استطاعوا بمكر ودهاء أن يحولوا بين من تبعهم وبين الوحي، كما استطاعوا أن يروجوا من الأساطير ما أدى إلى طمس عقول أولئك الأتباع، فتركوهم بلا عقل ولا نقل[١]، ثم وضعوا لهم من الروايات في الولاية، وتقديس الأئمة ما جعلهم يعتقدون بأن الواحد من الأئمة يعلم كل ما يحدث في الدنيا، ويتصرف في الكون فينزل الغيث، ويشفي المرضى، ويقضي حوائج الناس ... الخ، فوصفوهم بصفات الربوبية، واتخذوهم أربابا من دون الله.

ثم أدخلوا عليهم شبه المتكلمين فأفسدوا عليهم البقية الباقية من المسائل العلمية، وصاروا فيها تبعا للفلاسفة وأذنابهم المعتزلة؛ إذ إن المتأخرين من علماء الرافضة أصبحوا يعتمدون في النظر والعقليات على كتبهم، فوافقوهم في مسائل الصفات والقدر وغيرها [٢]؛ لذا قال البغدادي بعد ذكره لموقف واصل من علي بن أبي طالب ﷺ وأهل الجمل :

(ولقد سخنت عيون الرافضة القائلين بالاعتزال بشك شيخ المعتزلة في عدالة علي وأتباعه)[٣].

٢/ تفشي الشركيات، والبدع في النواحي العملية عندهم :

مما لا شك فيه أن المسائل العملية تتأثر تبعا لما تتأثر به المسائل العلمية لما بينهما من الارتباط والتلازم، وعليه فقد أثرت مسألة الإمامة على الأمور العملية عند الرافضة إلى حد بعيد، ويظهر ذلك في عدة أمور منها :

---

(١) يقول شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (٢٧/٥٤) عن الرافضة : (هم أمة مخذولة ليس لهم عقل ولا نقل، ولا دين صحيح ولا دولة منصورة).

(٢) انظر : منهاج السنة (١/٧٠).

(٣) الفرق بين الفرق ص : (١١٧).

(أ) المبالغة في تعظيم قبور الأئمة : وقد تجاوزوا في تعظيمها كل الحدود حتى اتخذوها أوثانا تعبد من دون الله جل وعلا، وجعلوا زيارتها حجا، وألفوا في فضل ذلك تواليف مفردة، ووضعوا على لسان الأئمة أحاديث كثيرة فيها تفضيل تلك المزارات والمشاهد على الكعبة، وتفضيل الحج إليها على الحج الذي هو مشروع وفريضة، ورتبوا لزيارتها أدعية معلومة، وآدابا مرعية، وقوانين متبعة، وزينوا للدهماء شد الرحال لزيارتها، والطواف بها، واستقبالها، والصلاة إليها، ودعاء من فيها لكشف الكربات، وسد الفاقات، والاستغاثة بهم، وطلب المدد منهم، وتقديم القرابين، والنذر لهم ... .

ولعل المقام لا يتسع لسرد كل ما افتروه من الكذب على النبي ﷺ وأهل بيته لنشر هذه الشركيات بين صفوف المسلمين؛ لذا سأمثل بما يلي :

يروون أن النبي ﷺ قال لعلي رضي الله عنه :

(إنك ستنتقل إلى العراق وتدفن في أرضه.

فقال : يا رسول الله ! وما هو أجر من يزور قبورنا ويقيمها ويجدد العهد معها ؟!!!

فقال : يا أبا الحسن ! إن الله جعل قبرك وقبور أولادك بقعة من بقاع الجنة وصحنا من صحونها، وإن الله أدخل في قلوب المختارين من خلقه حبكم، وجعلهم يتحملون الأذى والذل من أجلكم، ويقومون بإعادة بناء قبوركم، ويأتون لزيارتكم تقربا إلى الله وزلفى إلى رسول الله، وهؤلاء مشمولون بشفاعتي يا علي ... !!!

إن من يسبني قبوركم ويأتي إلى زيارتها يكون كمن شارك سليمان بن داود في بناء القدس !!! ومن يزور قبوركم يصيبه ثواب سبعين حجة غير حجة الإسلام، وتمحى خطاياه، ويصبح كمن ولدته أمه توا !!!

إني أبشرك بذلك وبشر أنت محبيك بهذه النعمة التي لم ترها عين، و لم تسمعها أذن، و لم تطرأ على بال أحد !!! ألا إن هناك توافه من الناس يلومون زائري قبوركم كما يلومون المرأة الزانية، إن هؤلاء هم أشرار أمتي، والله لا يشملهم بشفاعتي)[1].

ويقول مؤسس دولتهم في هذا العصر :

(الشرك هو طلب الشيء من غير رب العالمين **على أساس كونه إلها**؛ وإن ما دون ذلك ليس بالشرك، ولا فرق في ذلك بين حي وميت !!، فطلب الحاجة من الحجر أو الصخر ليس شركا، وإن يكن عملا باطلا، ثم إننا نطلب المدد من الأرواح المقدسة للأنبياء والأئمة ممن قد منحهم الله القدرة !!!)[2].

وما أحسن ما قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(إن الذي ابتدع دين الرافضة كان زنديقا يهوديا أظهر الإسلام وأبطن الكفر ليحتال في إفساد دين المسلمين، ...، سعى في الفتنة بين المسلمين حتى قتل عثمان،..، ثم إنه لما تفرقت الأمة ابتدع ما ادعاه في الإمامة من النص والعصمة، وأظهر التكلم في أبي بكر وعمر، وصادف قلوبا فيها جهل وظلم وإن لم تكن كافرة فظهرت بدعة التشيع التي هي مفتاح باب الشرك، ثم لما تمكنت الزنادقة أمروا ببناء المشاهد وتعطيل المساجد محتجين بأنه لا تصلى الجمعة ولا الجماعة إلا خلف المعصوم، ورووا في إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب ما لم أجد مثله فيما وقفت عليه من أكاذيب أهل الكتاب، حتى صنف كبيرهم ابن النعمان كتابا في (مناسك حج المشاهد) وكذبوا فيه على النبي ﷺ وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه، وغيروا ملته، وابتدعوا الشرك المنافي للتوحيد، فصاروا جامعين بين الشرك والكذب. .)[3].

---

(١) نقله الخميني في كشف الأسرار ص : (٨).

(٢) كشف الأسرار للخميني ص : (٤٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/١٦١-١٦٢).

(ب) تكريس أن اعتقاد صحة إمامة أهل البيت يسقط اللوم عن المذنب :

وهذا فيه فتح الباب على مصراعيه لاقتحام الموبقات، وركوب المعاصي والمنكرات دون خوف أو وجل؛ إذ كل من سولت له نفسه، أو زين له الشيطان ركوب شيء من المعاصي لن يتردد أو يتوانى، فقد أمن من العقاب، وضمن أن تغفر ذنوبه ولو بلغت عنان السماء بمجرد توليه أهل البيت، أو بمجرد زيارة مشهد من مشاهدهم، أو بسب أعدائهم، بل إنه بقضاء وطره عن طريق المتعة يأمن من سخط الجبار، ويحشر مع الأبرار، وينال أعلى درجات الجنان ...!!!

فيروون عن النبي ﷺ أنه قال لعلي ﷺ :

(يا علي ! إن شيعتك مغفور لهم على ما كان فيهم من ذنوب وعيوب)[1].

ويروون عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال لرسول الله ﷺ :

(يا أبتاه ! ما جزاء من زارك ؟

فقال رسول الله ﷺ : يا بني من زارني حيا أو ميتا، أو زار أباك أو أخاك، أو زارك كان حقا علي أن أزوره يوم القيامة فأخلصه من ذنوبه)[2].

وعن جعفر أنه قال :

(. . إن من أساء منكم إساءة مشينا إلى الله تعالى يوم القيامة بأقدامنا فنشفع له !! والله لا يدخل النار منكم ثلاثة رجال، والله لا يدخل منكم رجل واحد)[3].

وعنه أيضا قال :

(إن لله ملائكة يسقطون الذنوب عن ظهور شيعتنا كما تسقط الريح الورق من الشجر في أوان سقوطه)[4].

---

(١) بحار الأنوار (٦٨/٧).

(٢) المصدر السابق (١٠٠/١٠٤).

(٣) بحار الأنوار (٦٨/١١٧).

(٤) روضة الكافي للكليني (٨/٣٠٤).

وهذا هو السر في تسيب الرافضة، وسوء فعالهم وأخلاقهم حتى تبرم منهم أهل البيت، وضجر بعضهم من بعض فصاروا يشتكون إلى الأئمة كما جاء مصرحا بذلك في كتبهم المعتمدة، فعن علي ﷺ قال :

(لو ميزت شيعتي لما وجدتهم إلا واصفة، ولو امتحنتهم لما وجدتهم إلا مرتدين، ولو تمحصتهم لما خلص من الألف إلا واحد)[1].

(١) روضة الكافي (٨/٣٣٨).

(هذا صحيح لو قام دليل على أن كل ما بينه النبي ﷺ ودل عليه نقل عنه، وبلغنا، لكن الصحابة رضي الله عنهم قد اعترفوا بأنهم نسوا كثيرا !! وأخفوا شيئا كثيرا رأوا المصلحة في إخفائه ... !!!)[1].

وهذا طعن في الدين الذي تولى الله حفظه واختاره ليكون آخر الأديان، واتهام له بالنقصان، وطعن في الصحابة الذين اختارهم الله لمقام الصحبة، وتبليغ الدين للأمة، واتهام لهم بالتقصير في أداء الأمانة، ولا شك أن هذا شعبة من الرفض، وثلب لخيار الأمة من غير بينة، فهو بمنزلة من يتهمهم بكتمان النص على خلافة علي ﷺ، وإلا فأين اعترفوا بأنهم أخفوا شيئا مما يحتاجه الناس في صلاح دينهم أو دنياهم ؟!، ومحاولة تغطية هذه التهمة بأنهم فعلوا ذلك للمصلحة أكذوبة لا تروج إلا على الجهلة؛ إذ أي مصلحة في إخفاء شيء فيه الخير للأمة.

وأما ما زعم من اعترافهم بالنسيان، فغاية ما سيستطيع أن يثبته هو اعتراف الآحاد منهم بنسيان شيء مما يتذكره الآخرون، وأما أن يثبت اتفاق الصحابة كلهم على نسيان شيء من الدين فمما لا يتصور بحال، ولا يمكن وقوعه؛ لوعد الله بحفظ دينه، ووعد الله لا يخلف.

والمقصود أن الشعراني يرى أن الدين وصل إلينا ناقصا؛ لأن الصحابة لم يبلغوه كاملا فقد نسوا مسائل عدة، كما كتموا أشياء كثيرة للمصلحة !!، وعليه فطريق الوصول إلى العلم بما لم يبلغنا، وسبيل إكمال النقص في رأيه هو الكشف والإلهام والوحي؛ لذا نجده يصرح بأن التنزيل بالعلم بالأحكام الشرعية لم يغلق بابه بموت النبي ﷺ، بل لا يزال مفتوحا على مصراعيه للأولياء !!!، فيقول :

(أغلق الله باب التنزيل بالأحكام المشروعة، وما أغلق باب التنزيل بالعلم بها عن قلوب أوليائه، فالتنزيل الروحاني بالعلم بها باق لهم ليكونوا على بينة من دعائهم إلى الله تعالى ...)[2].

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (٢/٥٧) (المكتبة التوفيقية، مصر) .

(٢) الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية للشعراني بهامش الطبقات الكبرى (١/٧).

فهو يرى أن جبريل ما يزال ينـــزل بالوحي على الأولياء، بل وحـــتى علـــى بعض العوام متى أذن الولي بذلك وأمر به !!، فقد ذكر عن بعضهم أنـــه إذا شـــاوره إنسان عن شيء قال : أمهلني حتى أستأذن لك فيه جبريل عليه السلام، وأنه كـــان إذا قال لعامي يا فلان تكلم على العلماء فيتكلم عليهم في معاني الآيات والأحاديث حـــتى لو كان هناك عشرة آلاف محبرة لكلت عنه !! ثم يقول له اسكت فلا يجـــد ذلـــك العامي معه كلمة واحدة من تلك العلوم[1] !!.

٢/ من المقولات المشهورة عندهم قولهم :

(النبي مشرع للعموم، والولي مشرع للخصوص !!!)[2].

وظاهر هذه المقولة يفيد أن ما جاء به النبي ﷺ لا يصلح إلا للعوام فقط، أما ما يصلح للخواص فلم يأت به النبي ﷺ؛ لذا احتاجوا إلى شريعة أخرى تناسبهم تنـــزل علـــى الأولياء، وهذا كلام صريح أيضا في اتهام الدين بعدم الكمال.

وقد حاول بعضهم أن يجد لهذه الزلة مخرجا فزعم أن المراد منها هو :

(أن النبي مبين للعوام برسالته، ومبين للخواص بولايته، لا أن الولي يشـــرع الأحكام الشرعية؛ فإنه ليس له ذلك، وإنما له تبيين الحقائق الكشفية بطريـــق الـــولاء والوراثة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أن الأولياء ﷺ تبين ما أجمل في الســـنة، والنبي يبـــين ما أجمل في القرآن)[3].

وهذا الذي حمل عليه هذا القائل تلك المقولة بعيد جدا، وهو وإن حـــاول أن يصرفها عن ظاهرها لكي لا يكون فيها التصريح بأن الأولياء يشرعون ففـــي ثنايـــا كلامه ما يدل على المعنى نفسه، وبيان ذلك فيما يلي :

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للشعراني (١/١٣٥).

(٢) انظر : المصدر السابق (٢/٦٣).

(٣) قاله محمد أبو المواهب الشاذلي كما في المصدر السابق.

(أ) زعم أن الأولياء لهم تبيين الحقائق الكشفية، فهو إما أن يزعم بأن هـذه الحقائق الكشفية من الدين أم لا، فإن زعم أنها ليست من الدين، فلا فائدة منـها؛ إذ أغنانا الله بالدين عما سواه، وإن زعم أنها من الدين فقد اتهمه بالنقصان، ووقع فيما فر منه.

(ب) زعم أن الأولياء يبينون ما أجمل من السنة، أي أن النبي ﷺ مات وترك من السنة أشياء مجملة تحتاج إلى كشوفات الصوفية لبيانها، ولازم ذلك أنه ﷺ لحـق بالرفيق الأعلى وما أدى الأمانة على وجهها، وما بين الأمور كما أمره الله !!! وهـذا أيضا صريح في اتهام الدين بالنقصان، واتهام للنبي بالتقصير والكتمان.

٣/ من الصوفية من اتهم النبي ﷺ بعدم تبليغ جميع ما أنـزل عليه من العلـوم والحقائق !! وعللوا ذلك بأن الصحابة لم يكونوا يطيقون تحملها !!.

فقال قائلهم :

(إن حقائق رسالة محمد ﷺ وما خصه الله تعالى به من العلم، لو وضعت على الجبال لذابت إلا أنه كان يظهرها لهم على مقاديرهم)[1].

وهذه أيضا من السموم التي نفثها الرافضة وتلقفها أرباب التصوف، وهي مـن أبين الكذب وأصرحه، ومما يبين كذبها وزيفها أنه إذا فرض جدلا صحة كون تلـك العلوم بتلك المنـزلة، وأن الصحابة الذين هم خير قرون الأمة لا تتحمـل طاقـاتهم سماعها فأن لا يتحملها أحد ممن جاء بعدهم من باب أولى فلا تكون مما تتوقف عليـه سعادة الناس لا في الدنيا ولا في الآخرة، ثم قبل ذلك من أين لهذا المدعـي أن العلـم الذي أنـزل على النبي ﷺ كان على تلك الصورة التي يصورها ؟! وأيـن الدليـل الصحيح على صحة هذه الدعوى ؟! أم هو التستر وراء أسلوب التهويل للطعـن في تبليغ النبي ﷺ للأمانة، وتسهيل طرق نشر البدعة والضلالة ؟! بـل وفتـح البـاب

(١) اللمع للسراج الطوسي ص: (١٥٩) (تحقيق محمود، وسرور/دار الكتب الحديثة، القاهرة/١٩٦٠م) .

أن من لم يسع لتحقيق علم الحقيقة فهو غافل عن الله جل وعلا، مفرط فيما به نجاته يوم القيامة، وأن اشتغاله بالعلوم الشرعية اشتغال بظاهر الحياة الدنيا، فقال :

(كل من اشتغل بالعلوم الظاهرة، و لم يعتقد أن وراء ما هو ساع في تعلمه من الفقه والحديث والتفسير حقائق وعلوم باطنة رمزها الشارع تحت ما أظهره من هذه الرسوم هي مقصودة له؛ **لأنها المنجية عند الله تعالى، فهو غافل عن الله تعالى، جاهل بدين محمد ﷺ داخل تحت قوله تعالى :** ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾[1])[2].

ومما يدل على ذلك التفضيل أيضا ما صرح به ابن عربي[3] في قوله :

(إذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو ولي عارف؛ ولهذا مقامه من حيث هو عارف أتم وأكمل من حيث هو رسول أو ذو تشريع وشرع)[4].

فأهل الحقيقة أفضل وأكمل من علماء الشريعة، بل وأعلم، ولو كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة كما هو شأن كثير من شيوخ الطرق.

ولا بد من لفت الانتباه إلى شيء مهم في هذا النص وهو قوله (يتكلم بكلام خارج عن التشريع) فلازم هذا الكلام أن علم الحقيقة خارج عن التشريع، ومخالف

---

(١) سورة الروم، الآية (٧).

(٢) قاله عبد الغني النابلسي في الفتح الرباني والفتح الرحماني ص : (١٣٣).

(٣) هو : محمد بن علي بن محمد، أبو بكر، الحاتمي، الأندلسي، المرسي المعروف بابن عربي، الصوفي. ولد سنة ستين وخمسمائة، وتوفي بدمشق سنة ثمان وثلاثين وستمائة، من مؤلفاته : (الفتوحات المكية) و (فصوص الحكم) وفيه الكفر الصريح ؛لذا قال الذهبي رحمه الله : (إن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر).
انظر : السير (٢٣/٤٨)، ونفح الطيب للمقري (٢/١٦١) (تحقيق إحسان عباس/دار صادر/١٤٠٨)، وجزء فيه عقيدة ابن عربي وحياته لتقي الدين الفاسي (تحقيق الحلبي/مكتبة ابن الجوزي/ط١/١٤٠٨).

(٤) فصوص الحكم (١/١٣٥) (مطبعة الحلبي، القاهرة/ط٢/١٩٦٦م).

لظاهر الشريعة، ولهذا يزعمون أن النبي ﷺ لم ينـزل عليه هذا العلم إلا بعد استقرار الشرائع وثبوتها، فلتأخره في النـزول يقدم إذا تعارض مع علم الظاهر؛ لأنه كالناسخ له.

يقول أحدهم :

(إن جبريل عليه السلام نـزل إلى رسول الله أولا بالشريعة، فلما تقـررت ظواهر الشريعة واستقرت نـزل إليه بالحقيقة المقصودة.

والحكمة المرجوة من أعمال الشريعة هي الإيمان والإحسان، فخص رسول الله ﷺ بباطن الشريعة بعض أصحابه دون البعض. وكان أول من أظهر علم القوم وتكلم فيه سيدنا علي كرم الله[1] وجهه عن رسول الله ﷺ ...)[2].

وربما أوردوا للاستدلال على تفضيل علماء الحقيقة على علماء الشريعة أقوالا مزخرفة كقولهم (نهاية الفقيه مبدأ الفقير. .)[3]، وقصصا خرافية كتلك التي ذكرها الشعراني عن إبراهيم الرقي[4] وفيها أنه قال :

(قصدت أبا الخير التيناتي[5] مسلما عليه، فصلى المغرب، **فما قرأ الفاتحة مستويا !!!** فقلت في نفسي : ضاعت سفرتي، فلما سلمت خرجت للطهارة، فقصدني السبع فعدت إليه، وقلت له : إن الأسد قصدني.

فخرج وصاح عليه وقال : ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني ؟! فتنحى الأسد !! ومضيت أنا وتطهرت فلما رجعت قال لي : اشتغلتم بتقويم الظواهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد)[1].

---

(١) انظر ص : (٥٠٠) من هذا البحث .

(٢) جمهرة الأولياء لأبي الفيض المنوفي (١/١٥٩) (مطبعة المدني، القاهرة /١٩٦٧م).

(٣) الأنوار القدسية (١/٢٢).

(٤) لم أقف له على ترجمة في المصادر التي اطلعت عليها .

(٥) يقال اسمه حماد بن عبد الله، أبو الخير، التيناتي، المغربي، الأقطع لقب به لأنه أخذ مع لصوص بات معهم في غار فقطع، وكان أسود مملوكا فأعتق. توفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، وقيل غير ذلك.
انظر : حلية الأولياء (١٠/٣٧٧)، تاريخ دمشق (٦٦/١٦٠).

كما استدلوا بعبارة ينسبها الباطنية والرافضة إلى النبي ﷺ وهي موضوعة أيضا، وهي :

(إن لكل آية ظاهرا وباطنا، وحدا ومطلعا إلى سبعة أبطن، وإلى سبعين)[٢].

ويحكون عن عمر ﷺ أنه قال :

(كان النبي ﷺ وأبو بكر إذا تخاطبا كنت كالزنجي بينهما) [٣].

أي أنهما إذا تكلما بعلم الحقيقة يكون عمر ﷺ كالزنجي لا يفهم من كلامهما شيئا ! فلو ثبت لقيل لهؤلاء المدعين إذا كان عمر ﷺ -وهو المحدث الملهم- لا يفهم هذا العلم ويكون كالزنجي فألا يفهمه جهال الصوفية أولى وأحرى.

والمقصود أن الصوفية لما أخذوا بهذا المبدأ الباطني أنتج عندهم نتائج خطيرة أجملها فيما يلي :

١/ اعتقادهم أن النبي ﷺ لم يبلغ كل ما أمر بتبليغه لسائر الأمة، فقد خص بعض الصحابة بأمور لم يطلع عليها غيرهم، بل إن الله جل وعلا خصه بعلوم لم يبلغ منها لا القليل ولا الكثير !!

٢/ أنهم فضلوا ترهات الصوفية، وتأويلاتهم الباطنية على العلوم الشرعية الموروثة عن النبي ﷺ.

٣/ أن من يقول بتقسيم الدين إلى الحقيقة والشريعة يدور كلامه بين أمرين :

أحدهما : أن يزعم أن علم الحقيقة مما أنزل على النبي ﷺ، فإما أن يدعي أنه ﷺ لم يبلغه لأحد وفي هذا اتهام للنبي ﷺ بعدم التبليغ، ورميه بالخيانة وعدم أداء الأمانة، أو أن يدعي بأنه بلغه لبعض الصحابة دون بعض، وهذه دعوى تحتاج إلى

=

(١) الجيش الكفيل بأخذ الثأر لمحمد التشيتي بهامش بغية المستفيد بشرح منية المريد للعمري التحاني ص : (١١٠) (مطبعة البابي الحلبي، القاهرة/١٩٥٩م).

(٢) أورده الشعراني في الطبقات الكبرى (٦/١) منسوبا إلى النبي ﷺ.

(٣) انظر :مجموع الفتاوى (٢٦١/٢) فقد حكم عليه شيخ الإسلام رحمه الله بالوضع، وقال بأنه كذب باتفاق أهل المعرفة.

الأصل الثاني : تقديس المشايخ وإعطاؤهم حق التشريع :

من الأصول التي خرم بها الصوفية قاعدة كمال الدين تقديسهم مشايخ الطرق، وإعطاؤهم حق التشريع، فالشيخ أو الولي عند الصوفية له مكانة سامية، ومنزلة رفيعة تحتم على المريد أن يبالغ في تقديسه، ويغلو في إطرائه، ويجهد في طاعته ولو أمره بمعصية الله، ويسلم له ولا ينكر عليه حتى بقلبه، ويسلس له القياد ويكون بين يديه كالميت بين يدي مغسله فلا يعترض بـ (لم) ولا (كيف)، لأن الاعتراض عليه ذنب قد لا يغتفر، ويجب أن يكون دائم الذكر له؛ إذ الغفلة عن ذكر الشيخ معصية كبرى، وبلية عظمى، وعليه أن يتأدب معه ويعتقد فيه ما أمكن[1]، ويعد نفسه من خدمه لا من مريديه، بحيث (إذا سئل عن شيخه فليقل كنت خادمه، ولا يقل كنت صاحبه فإن مقام الصحبة عزيز !!!)[2].

يقول القشيري[3] :

(من صحب شيخا من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة، على أن الشيوخ قالوا : عقوق الأستاذين لا توبة عنه[4])[5].

---

(١) انظر الأنوار القدسية للشعراني (٦/٢).

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني (١٤١/٢).

(٣) هو : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، أبو القاسم، القشيري، الخراساني، النيسابوري، الشافعي، شيخ خراسان في التصوف. ولد سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، وتوفي سنة خمس وستين وأربعمائة. صنف كتاب (عيون الأجوبة في فنون الأسولة) و(الرسالة) وغيرهما.
انظر : تاريخ بغداد (٨٣/١١)، السير (٢٢٧/١٨).

(٤) من نعم الله على المسلمين أن الله لم يقل ذلك، و لم يقله رسوله ﷺ، وإلا للزمهم من العنت ما الله به عليم.

(٥) الرسالة القشيرية ص : (٦٣٣-٦٤٤) (تحقيق عبد الحليم محمود/دار الكتب الحديثة، القاهرة) .

(ب) دعوى أنهم يقابلون الرسول يقظة لامناما :

يزعم الصوفية أن رؤية النبي ﷺ عيانا بعد موته أمر ممكن وقوعه، بل متيسر لمن رفع عنه الحجاب؛ لأن النبي ﷺ سائر في كل مكان وجدت فيه شريعته، فقد ذكر الشعراني عن أحد الصوفية زعمه بأنه يجتمع بالنبي ﷺ يقظة أي وقت أراد، فقال معلقا :

(وهو صادق !! لأنه ﷺ سائر في كل مكان وجدت فيه شريعته، وما منع الناس من رؤيته إلا غلظ حجابهم !!)[1].

لهذا فالرؤية المنامية ليست لها عندهم أهمية كبرى، فقد حكى الشعراني عن أحد شيوخهم أنه كان يرى النبي ﷺ كثيرا في المنام فيخبر بذلك أمه فتقول : يا ولدي إنما الرجل من يجتمع به في اليقظة !! فلما صار يجتمع به في اليقظة ويشاوره على أموره قالت : له الآن قد شرعت في مقام الرجولية)[2].

ولكي يوصد الصوفية الباب في وجه المنكرين للرؤية في اليقظة فقد زعموا أن النبي ﷺ حكم على من لم يؤمن بها بسوء الخاتمة، والموت على غير الملة الإسلامية، فحكى الشعراني عن أحدهم أنه كان كثير الرؤيا لرسول الله ﷺ، وأنه كان يقول :

(قلت لرسول الله ﷺ إن الناس يكذبوني في صحة رؤيتي لك.

فقال رسول الله ﷺ : وعزة الله وعظمته من لم يؤمن بها، أو كذبك فيها لا يموت إلا يهوديا، أو نصرانيا، أو مجوسيا !!!)[3].

والمقصود أنه لا يكاد كتاب من الكتب التي تحكي أحوال الصوفية يخلو من هذه الدعوى الكاذبة؛ إذ ما من أحد منهم يحدث بدعة، ثم يروم ترويجها بين الأمة إلا

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (٢/١٦٨) وذكر هذا في ترجمة شيخه محمد الصوفي نزيل مدينة الفيوم.

(٢) حكاه في الطبقات الكبرى (٢/٧٧) عن إبراهيم المتبولي الذي زعم أن لا شيخ له إلا رسول الله ﷺ.

(٣) الطبقات الكبرى (٢/٦٧).

ويجعل هذه الدعوى ملجأه، فيزعم أنه التقى بالنبي ﷺ يقظة وعلمه ذلك، وأوصاه بأن يبلغه للأمة !!!، فابن عربي زعم أنه رأى النبي في اليقظة فأعطاه كتاب فصوص الحكم وأمره أن يبلغه للناس، وكذلك صاحب كتاب جواهر المعاني رأى النبي ﷺ يقظة فأمره بتأليفه[1].

وإنما أراد صناديد الصوفية من وراء هذا كله أن يقتلوا في نفوس الأتباع عقيدة كمال الدين، التي تقف عقبة كئودا وسدا مانعا أمام بدعهم وترهاتهم، فصاروا يحاولون إثبات عدم انقطاع الوحي، واستمرار التشريع، وأن النبي ﷺ حتى بعد موته يرجع إلى الدنيا ليلتقي بالخاصة فيعلمهم ما لم يعلمه للعامة !! وقد صرح أحدهم بهذا فقال :

(. . إنه ﷺ كان يلقي الأحكام للعامة في حياته، يعني إذا حرم شيئا حرمه على الجميع، وإذا افترض شيئا افترضه على الجميع، وهكذا سائر الأحكام الظاهرة، ومع ذلك كان ﷺ يلقي الأحكام الخاصة للخاصة،. .، فلما انتقل إلى الدار الآخرة وهو كحياته ﷺ في الدنيا سواء صار يوحي إلى أمته الأمر الخاص للخاص، ولا مدخل للأمر العام فإنه انقطع بموته ﷺ ...)[2].

وأكتفي لرد هذا البهتان بإيراد حديث أنس ﷺ الذي فيه أن أبا بكر ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ قال لعمر ﷺ :

(انطلق بنا إلى أم أيمن[3] نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهيا إليها بكت.

---

(١) انظر جواهر المعاني (٥٣/١) (مطبعة الحلبي، القاهرة/١٩٦٣) .

(٢) قاله التجاني جوابا عن سؤال حول تفضيله لورده على القرآن الكريم !! انظر : جواهر المعاني (١٤١/١).

(٣) هي الصحابية الجليلة : بركة بنت ثعلبة بن عمرو، أم أيمن، وكان يقال لها أم الظباء، الحبشية مولاة رسول الله ﷺ، وحاضنته أعتقها حين تزوج خديجة، وهي أم أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ .ماتت في خلافة عثمان ﷺ ،وقيل غير ذلك .

=

الأصل الثالث : التنفير من العلم والدعوة إلى الجهل.

من الأساليب الماكرة التي يسلكها الصوفية لترويج مذاهبهم الهدامة صرف الناس عن العلم الشرعي حتى لا يعترض عليهم بالوحي، فزعموا أن من انشغل بالعلم لا يفلح، وأن الاعتماد على وساوس النفوس أولى من الاعتماد على المنقول، كما زعموا أن كثيرا من المشايخ وصلوا مع كونهم أميين لا يعرفون الكتابة ولا القراءة؛ إذ الكشف والفتح للجاهل أيسر حتى قال الشعراني :

(إن الأمي الذي لم يتقدم له اشتغال بعلم الظاهر والنقل أقرب إلى الفتح من الفقيه والمتكلم اللذين يعملان بعلمهما، كما قال شيخنا ﷺ أنه لما كان لا فاعل إلا الله، وجاء هذا الفقيه والمتكلم ليدخلا إلى الحضرة الإلهية بميزانهما ليزنا على الله ردا !! وما عرفا أنه تعالى ما أعطاهما تلك الموازين إلا ليزنا بها لله لا على الله !! فحرما الأدب فعوقبا بالجهل بالعلم اللدني الفتحي فلم يكونا على بصيرة من أمرهما !!! فإن كان من وقع له ذلك وافر العقل علم من أين أتي عليه.

فمنهم من دخل الحضرة وترك ميزانه على الباب حتى إذا خرج أخذها ليزن بها لله تعالى، وهذا أحسن حالا ممن دخل بها على الله، وأحسن منه من كسر ميزانه وأحرقه أو ذوبه حتى زال كونه ميزانا ...)[1].

ولا إخالهم إلا صادقين في هذا، فمن رام الفتح الصوفي، والعلم الذي يسمونه بالعلم اللدني فعليه أن يكسر ميزان الشرع أو يحرقه؛ لأن الشياطين لا تتنزل إلا على كل أفاك أثيم، عري من الفقه، صفر اليدين من العلم.

وقد نقل عن الجنيد[2] أنه قال :

---

(١) الأنوار القدسية للشعراني (١/٨٠-٨١).

(٢) هو : الجنيد بن محمد بن الجنيد، أبو القاسم النهاوندي، ثم البغدادي، القواريري. ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، وتوفي سنة سبع وتسعين ومائتين، عرف بشيخ الصوفية وسيد الطائفة.
انظر : حلية الأولياء (١٠/٢٥٥)، السير (١٤/٦٦)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/٨٤).

(المريد الصادق غني عن علم العلماء، وإذا أراد الله بالمريد خيرا أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء)[1].

ونقل الشعراني عن الدقاق[2] أنه كان يقول :

(آفة المريد ثلاثة أشياء : التزويج، وكتابة الحديث، ومعاشرة الضد)[3].

ويحكي عن نفسه –أي الشعراني– أنه سأل شيخه قائلا :

(هل أعتمد على النقول ؟!

فقال له : لا !! بل اعتمد في نفسك على ما يظهره الله فيك من العلوم؛ فإن نفسك أقرب إليك ممن تنقل عنه، ... فلا يعتمد على النقل إلا لمن يطلب النقول)[4].

ويقول جعفر الخلدي[5] :

(لو تركني الصوفية لجئتكم بإسناد الدنيا لقد مضيت إلى عباس الدوري[6] وأنا حدث فكتبت عنه مجلسا واحدا، وخرجت من عنده فلقيني بعض من كنت أصحبه من الصوفية فقال : إيش هذا معك ؟ فأريته إياه فقال : ويحك تدع علم الخرق وتأخذ علم الورق، ثم خرق الأوراق فدخل كلامه قلبي فلم أعد إلى عباس)[7].

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (١/٧٣).

(٢) هو نصر بن أحمد بن نصر، أبو بكر الدقاق الكبير، كان من أقران الجنيد، ومن كبار متصوفة مصر.
انظر : الطبقات الكبرى للشعراني (١/٨٩).

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني (١/٧٦).

(٤) دررالغواص للشعراني ص : (٢٤).

(٥) هو جعفر بن محمد بن نصير، أبو محمد، البغدادي، الخلدي. وصفه الحافظ ابن كثير بأنه (كان ثقة صدوقا دينا)، توفي في رمضان سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.
انظر : حلية الأولياء (١٠/٣٨١)، البداية والنهاية (١١/٣٠٧).

(٦) هو : عباس بن محمد بن حاتم، أبو الفضل، الدوري ثم البغدادي، مولى بني هاشم. ولد سنة خمس وثمانين ومائة، وتوفي سنة إحدى وسبعين ومائتين، كان إماما ثقة حافظا ناقدا.
انظر : تاريخ بغداد (١/١٤٤)، السير (١٢/٥٢٢).

(٧) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص : (٣٦٩)، والذهبي في السير (١٥/٥٥٩).

المطلب الثاني : موقفهم من كمال الدين في تقرير المسائل العلمية والعملية :

ثمت حقيقة مهمة أكدها غير واحد ممن له عناية بتاريخ التصوف، وتطور عقائده، أرى من المناسب أن أذكرها هنا كتوطئة لهذا المطلب، ألا وهي أن أرباب التصوف أخذوا أفكارهم وعقائدهم من فلسفات عدة، وديانات مختلفة ثم مزجوا بين ذلك الخليط وأصبغوه بصبغة إسلامية، وروجوه بين الأمة على أساس أنه طريق الوصول إلى الله جل وعلا [1]، وممن ذكر هذه الحقيقة بعض المعاصرين ممن أمضى قسطا من حياته في زوايا الصوفية ثم من الله عليه بالتوبة والأوبة بعد أن عرفها حق المعرفة، فقال :

(الصوفية لها مدد من كل نحلة ودين إلا دين الإسلام، اللهم إلا حين نظن أن للباطل اللئيم مددا من الحق الكريم ...)[2].

والذي يهمنا هنا هو معرفة التيار الفكري الذي تأثرت به الصوفية في مسألة السعادة ونظرتها إلى أهمية العلم والعمل وضرورتهما لبلوغ ذلك، ويظهر هذا من خلال النقاط الآتية :

١/ بيان إهمال الصوفية للمسائل العلمية وإفلاسهم فيها :

من الطبيعي جدا أن تكون ثمرة ما سبق إيراده من تنفير الصوفية من العلم ونتيجته الحتمية هو انتشار الجهل بين الأتباع والإفلاس في المسائل العلمية، الأمر الذي جعل المناخ مهيأ لمن دخل في التصوف ممن نشأ وترعرع في أحضان الفلاسفة، وتربى على كتبهم أن ينفث سمومه، وينشر دين الأوائل بين صفوفهم، لذا اعترف الصوفية أنفسهم بأن كثيرا من شيوخهم تأثروا إلى حد بعيد بالفلاسفة وأذنابهم، وقرروا أن كثيرا من كلامهم لا يقبل إلا على قواعد أولئك، فنقل الشعراني عن بعضهم أنه قال :

---

(١) انظر مثلا كتاب : (التصوف المنشأ والمصادر) للشيخ إحسان إلهي ظهير ص : (٩٧ وما بعدها).

(٢) قاله الشيخ عبد الرحمن الوكيل في كتابه هذه الصوفية ص : (١٩) (دار الكتب العلمية/ط٤/١٩٨٤) .

(كثير من كلام الصوفية لا يتمشى ظاهره إلا على قواعد المعتزلة والفلاسفة، فالعاقل لا يبادر إلى الإنكار بمجرد عزو ذلك الكلام إليهم، بل ينظر ويتأمل في أدلتهم التي استندوا إليها، فما كل ما قاله الفلاسفة والمعتزلة في كتبهم يكون باطلا، وإنما حذر بعضهم عن مطالعة كتبهم خوفا من حصول شبهة تقع في قلب الناظر لا سيما أهل الإنكار والدعاوى)[1].

ومن المسائل التي تبرز هذا التأثر نظرة الفريقين إلى حقيقة السعادة وما تتم به، فكل من الفريقين يرى أن السعادة تكمن في الوقوف على الحقيقة، والوصول إلى خالص المعرفة. بيد أن بينهما فرقا في الطريق الموصل إلى ذلك، فبينما يرى الفلاسفة أن الطريق هو العقل، إلا أن الصوفية يرون أن السبيل هو الرياضة والمجاهدة على يد شيخ مربي، ولعل ما سبق ذكره عن موقف الفلاسفة من هذه المسألة فيه الغنية والكفاية فلا داعي لتكراره وإعادته، وأما موقف الصوفية فهو الذي سأتطرق لبيانه وكشفه فيما يلي :

أولا : وردت نقول كثيرة عن أئمة الصوفية فيها التصريح بأن السعادة مرهونة بأن يصل الإنسان إلى أعلى مقامات المعرفة بحيث تنكشف له الحجب، ويدخل الحضرة الإلهية، ويتصل بالله مباشرة، ويعلمه من لدنه علما، فتتجلى له العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقف على أسرار الكائنات، ويطلع على تفاصيل الأمور المغيبات، ويعلم الجزئيات، من غير أن يسلك طريق العلماء، ثم يترقى في تلك المنازل حتى يصل إلى مرتبة الفناء !!!؛ لذا يسمون من علت منزلته عندهم بالعارف، ويزعمون أن من حصل له هذا الأمر فقد بلغ مناه، ولا يطلب شيئا آخر سواه، لا نعيم الجنة ولا ما دونه، حتى قال أحدهم :

(الجنة لا خطر لها عند المحبين)[2].

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (١/١٠).

(٢) حلية الأولياء (١٠/٣٦).

٢/ بيان إخلالهم بالجوانب العملية، وتفشي الشرك والبدع عندهم :

تبين مما سبق أن غاية ما يصبوا إليه الصوفية هو الترقي إلى أعلى درجات المعرفة، وأن ذلك لا يتم إلا على يد شيخ واصل، وبقي بيان موقفهم من العمل، وأهميته عندهم للوصول إلى ذلك، وهذا ما سأتطرق إليه في النقاط التالية :

(أ) كثيرا ما يدندن الصوفية على أن طريقتهم لا مجال فيها للقيل والقال، بل هي مبنية على الأعمال والأحوال، وأن أول ما يبدأ به السالك تصفية القلب، وتخليصه من العلائق، وتطهير النفس من الأخلاق المذمومة، والصفات الخبيثة، وذلك بالمواظبة على الذكر والفكر، ولزوم فعل الخير ....

إلا أن المطلع على حقيقة مذهبهم يجد أن العمل عندهم لا يعدو أن يكون شرطا في السلوك لبلوغ غاية منشودة، فهو وسيلة لتحقيق المعرفة.

حكى الشعراني عن أبي سعيد الخراز[1] أنه قال :

(إذا أراد الله أن يوالي عبدا من عبيده فتح له باب ذكره، فإذا استلذ بالذكر فتح عليه باب القرب، ثم رفعه إلى مجلس الأنس، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحجب، فأدخله دار الفردانية، وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا وقع نظره على الجلال والعظمة بقي بلا هو، فحينئذ صار العبد فانيا فوقع في حفظ الله وبرئ من دعاوي نفسه)[2].

فإذا وصل السالك إلى هذه الدرجة استغنى عن العمل، فربما فرط في بعض الواجبات، وربما استحل ارتكاب المحرمات، وركوب المعاصي والمنكرات، حتى قال أبو يزيد البسطامي :

---

(١) هو : أحمد بن عيسى، أبو سعيد، الخراز البغدادي، شيخ الصوفية، قيل بأنه أول من تكلم في الفناء والبقاء؛ لذا قال الذهبي : (أي سكتة فاتته، قصد خيرا، فولد أمرا كبيرا، تشبث به كل اتحادي ضال). توفي سنة سبع وسبعين ومائتين، وقيل غير ذلك.

انظر : حلية الأولياء (١٠/٢٤٦)، السير (١٣/٤١٩)، البداية والنهاية (١١/٧٨).

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني (١/٧٩).

وقد حاولوا أن يجدوا في الشرع شيئا يمكن الاستدلال به على تصحيح دعوى سقوط التكليف عن العارف، فلم يجدوا بغيتهم إلا في قصة الخضر مع موسى عليه السلام !!.

يقول أحدهم :

(إن رأيت من الشيخ ما يتراءى عندك أو غيرك أنه غير مشروع فاتهم نفسك، واحمله على قصور علمك ونظرك؛ فإن الشيخ يكون له دليل وبرهان قصر فهمك عن إدراكه، واعلم أن الشيخ أولى برعاية الشريعة وأشد اهتماما بها من غيره، وكلما خطر لك شيء من هذا الجنس تذكر قصة موسى والخضر عليهما السلام ليندفع عنك الاعتراض ...)[1].

وقد بين غير واحد من أهل العلم أن القصة لا تدل على ما يصبوا إليه الصوفية البتة، وأنه لا يجوز لمكلف أن يخرج عن الشريعة بأي حال من الأحوال.

٢/ إن العمل الذي يدندن عليه الصوفية، ويجعلونه ضروريا في سلوك الطريق، وشرطا للوصول إلى السعادة لا يقتصر على امتثال ما ورد في الكتاب والسنة من الفرائض والمستحبات، بل لهم أصناف مختلفة من الرياضات، وألوان عدة من المجاهدات، تختلف باختلاف ما يمليه الشيخ المربي، فكل طريقة لها أوراد خاصة بها يتحتم على مريديها التزام فعلها، وهذه الأفعال التي يلتزمونها تجمع بين أمور عدة مخالفة للشريعة، منها :

- أن الغالب فيها البدعة؛ لعدم ورودها في الكتاب والسنة، فأكثر أورادهم عبارة عن اجتهادات شخصية، وأحسن أحوالها أن يزعم صاحبها أنه أخذها عن النبي ﷺ يقظة، أو مناما !! أو أخذها عن الخضر !! أو تعلمها بواسطة هاتف أتاه من الله جل وعلا ... !!.

---

(١) قاله الفوتي في كتابه رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم ص : (٣٢٤) (دار الفكر، بيروت/ ١٤١٥).

- أن فيها من التعب والمشقة ما لا يقره ديننا الحنيف، فهي إلى الرهبانية أقرب منها إلى الإسلام؛ إذ إن من القوم من يمكث أربعين يوما وأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، ويظل طول نهاره وليله قائما شاخصا ببصره إلى السماء حتى ينقلب سواد عينيه إلى حمرة تتوقد[1] !!،ومنهم من يكتحل بالملح كي يعتاد السهر[2] !!، ومنهم من يمكث نحو أربعين سنة في خلوة مسدود بابها ليس لها غير طاقة يدخل منها الهواء[3] !! ومنهم من يأوي إلى المقابر والصحاري ويخرج إلى السواحل فيقيم فيها[4] !!، ومنهم من يبحث عن الكلاب والقطط الميتة فيضعها داخل دكانه فلا يستطيع أحد أن يجلس عنده[5] !!!، ومنهم من مكث نحو أربعين سنة يأكل كل يوم زبيبة واحدة حتى لصق بطنه على ظهره [6] !!، ومنهم من يمكث الخمسة شهور أو أكثر لا يضع جنبه بالأرض لا ليلا ولا نهارا[7] !!، ويقولون : (الجوع سحاب، فإذا جاع العبد مطر القلب الحكمة)[8] !! ...إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

٣/ يعتقد الصوفية أن الأعمال الشرعية لا توصل إلى المعرفة ولو اجتهد الإنسان في فعلها إلى أبلغ الحدود !! فالعبادات الشرعية شرعت للعوام، وأما الخاصة فقد سبق قريبا ذكر شيء من أعمالهم، ومما يدل على عقيدتهم هذه أمور عدة منها :

(أ) تلك الحكاية التي ذكرها أبو حامد الغزالي ومفادها (أن رجلا عظيما من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد البسطامي، فقال لأبي يزيد مرة :

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للشعراني (١٥٩/٢).

(٢) انظر المصدر السابق (٨٩/٢).

(٣) انظر المصدر السابق (٨٠/٢).

(٤) انظر المصدر السابق (٤٠/١).

(٥) انظر المصدر السابق (١٣٠/٢).

(٦) انظر المصدر السابق (١٣٣/٢).

(٧) انظر المصدر السابق (١٦٣/٢).

(٨) قاله أبو يزيد البسطامي كما في حلية الأولياء (٣٩/١٠).

٣ / لا بد في طريق الوصول من تحمل أنواع الرياضات، وشتى صنوف المجاهدات.

٤ / يعتبر الصوفية العمل وسيلة إلى المعرفة، فإذا حصلت استغني عنه، وسقط عن الواصل التكليف.

٥ / أن الإنسان لو أنفق جميع لحظات حياته في اكتساب علوم الكتاب والسنة، والعمل بالعبادات الشرعية لن يصل إلى تلك المعرفة ما لم يسلك الطريق الذي رسمه شيوخ الصوفية.

وعليه فما جاء به الشارع الحكيم من العلوم والأعمال لا يوصل إلى السعادة الحقيقية !! وهذا طعن مبطن في كمال الدين.

المبحث الثالث : موقف الإسماعيلية من قاعدة كمال الدين :

وفيه مدخل، ومطلبان :

المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة :

المطلب الثاني : موقفهم من المسائل العلمية والعملية :

المبحث الثالث : موقف الإسماعيلية من قاعدة كمال الدين

مدخل :

مما لا شك فيه أن الذين احتالوا لوضع دين الباطنية قوم تأصلت جذور الكفر والزندقة في قلوبهم، ثم غذيت بالحقد الدفين لدين الإسلام، خاصة بعدما سقطت دولهم، وأدبرت أيامهم، وظهر بطلان دينهم، وزيف عقائدهم على أيدي المسلمين، فمنهم من كان شعوبيا شديد الغيظ للإسلام وأهله، يتعصب للمجوسية، ويأمل في رجوع دولتها، فكان يبذل كل ما في وسعه لردها .

ومنهم من كان يهوديا هاله اتساع رقعة الإسلام، وكثرة أتباعه، وخاف من اندثار دينه .

ومنهم من كان نصرانيا رأى في انتشار الإسلام ضياع مصالحه، وذهاب ملته .

ومنهم من ألف حياة التسيب والانحلال فرأى أن الإسلام قد حال بينه وبين تحقيق رغباته وشهواته ... .

وقد أيقن الجميع أن لا قبل لهم بجند الإسلام، ولا مطمع لهم في إسقاطه بمحاربته علانية، وأنه لا شيء يجدي معه إلا الكيد ومحاولة هدمه من داخله .

قال البغدادي :

(ذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم، و لم يجسروا على إظهاره خوفا من سيوف المسلمين ..)[1] .

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص : (٢٥٣) .

وقال الغزالي :

(مما تطابق عليه نقلة المقالات قاطبة أن هذه الدعوة لم يفتتحها منتسب إلى ملة، ولا معتقد لنحلة معتضد بنبوة، فإن مساقها ينقاد إلى الانسلال من الدين كانسلال الشعرة من العجين ...) [1] .

وقد استعملوا في سبيل تحقيق هدفهم كل شيء في متناول أيديهم، فسلكوا في دعوتهم طريقة متقنة من حيث تنظيمها، وبالغوا في الحرص على سريتها، فاتبعوا لأجل ذلك أسلوب الأيمان المغلظة، وأخذ العهود والمواثيق من الأتباع على عدم إفشاء الأسرار، وشددوا على ضرورة ذلك فقال قائلهم :

(تكون معاملة المفيدين للمستفيدين !! في خلوة وستر فيما يلقونه إليهم ويحدثونهم به من العلم والحكمة ويزيلونه عنهم بذلك مما كانوا عليه من الكفر والشرك والنفاق والمعاصي !!! فلا يكون أخذهم العهود عليهم وإلقاؤهم ما يلقونه إليهم وتعريفهم ما به يعرفون إلا في ستر)[2].

ووضعوا على لسان أئمتهم روايات كثير ة في الحث على كتمان أسرار الدعوة والتحذير من إذاعتها وإظهارها للأعداء، ومن ذلك ما رووه عن جعفر الصادق أنه قال :

(... عليك بكتمان سر الله ولا تطلع عليه إلا وليا مخلصا، فإن فشيته إلى أعدائنا فقد أعنت على قتل نفسك !!!.

قلت : إنني سأفعل ذلك !! وإنني يا مولاي رأيت العجب من كتمان هذا الخلق والبشر، وكيف توصينا وتأمرنا بكتمانه ..؟!!

قال : إن الله عز وجل أحب سبحانه أن يعبد سرا !!!)[3] .

---

(١) فضائح الباطنية ص : (١٣) .

(٢) قاله النعمان في تأويل الدعائم (٨٣/١) (تحقيق محمد الأعظمي/دار المعارف ،مصر) .

(٣) أورده الجعفي في الهفت الشريف ص : (١٠٢) (تحقيق مصطفى غالب/دار الأندلس/ط٣/ ١٩٨٠م) .

كما أنهم أخذوا يلفقون ويجمعون بين مختلف الآراء، فكونوا منها مزيجا متناقضا لا يربط بعضه ببعض رابط، فتسلحوا بحشو كلام الفلاسفة [1]،(فمن بواطن غيهم كان استمدادهم؛ فإنهم بين مذاهب الثنوية والفلاسفة يترددون، وحول حدود المنطق في مجادلاتهم يدندنون)[2]، كما استعملوا التصوف مطية لبلوغ أغراضهم، فكان دعاتهم يتسترون بالزهد والمبالغة في العبادة للتغرير بمن كان ميله إلى الصلاح، وأتقنوا استعمال السحر والشعبذة ، والتنجيم والكهانة، وسلكوا كل الطرق التي في وسعهم حتى يلبوا رغبات ومعتقدات الذين يحاولون دعوتهم واصطيادهم، ويتمكنوا من الدخول على كل قوم من الجانب الذي يميلون إليه .

قال الغزالي :

(سبيل دعوتهم ليس بمتعين في فن واحد، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منهم بالانقياذ لهم والموالاة لإمامهم : فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ويقرونهم عليها)[3] .

وهذا ما صرح به أحدهم فقال :

(ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم، فمن آنست منه رشدا !! فاكشف له الغطا)[4] .

ودخلوا على المسلمين من باب الرفض لا حبا في علي ﷺ وآل بيته، ولكن بغضا في الإسلام وحملته، فحقيقة (مذهبهم ظاهره الرفض، وباطنه الكفر المحض)[5] .

---

(١) قال الغزالي في المنقذ من الضلال ص : (٥٥) : (المحكي في كتاب إخوان الصفا على التحقيق حشو الفلسفة) .

(٢) قاله الغزالي في كتابه فضائح الباطنية ص : (٥) .

(٣) المصدر السابق ص : (٢٥) .

(٤) من رسالة عبيد الله بن الحسين القيرواني إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي ذكر طرفا منها البغدادي في الفرق بين الفرق ص : (٢٦٠) .

(٥) قاله الغزالي في كتابه فضائح الباطنية ص : (٢٥) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(غالب أئمتهم زنادقة، إنما يظهرون الرفض؛ لأنه طريق إلى هدم الإسلام)[1].

والمقصود أنهم راموا هدم الدين بأي وسيلة؛ لذا فقد كنت عزمت على أن أضرب عنهم صفحا، وأعرض عنهم كشحا، فلا أذكرهم أصلا، ضنة بالبياض أن يسود بذكر ترهاتهم وخرافاتهم؛ إذ إن القوم لا ينكرون كمال الدين فحسب، بل ينكرون كون الدين حقا، ولا يؤمنون بصلاحيته أصلا، ويحاولون كما أسلفت اجتثاثه من أصله، وقطع دابر أهله، لكن لما خفت أن يعترض علي بعدم ذكرهم –خاصة وأنهم رأس الباطنية – حاولت أن أشير باختصار إلى ما يتم به القصد، وأن أبين باقتضاب أصولهم التي أصلوها لبث مذهبهم الهدام، وذلك بعد بيان موقفهم من كمال الدين، الذي سأتناوله في النقاط التالية :

١/ يرى الإسماعيلية أن المراد بإكمال الدين هو انتهاء مهمة النبي ﷺ بإقامة وصيه علي بن أبي طالب ﷺ، وزعموا (أن النبي ﷺ انقطعت عنه الرسالة في حياته في اليوم الذي أمر فيه بنصب علي بن أبي طالب عليه السلام بغدير خم[2]، فصارت الرسالة في ذلك اليوم في علي بن أبي طالب، واعتلوا في ذلك بقول رسول الله ﷺ : (من كنت مولاه فعلي مولاه)[3] وأن هذا القول منه خروج من الرسالة والنبوة

---

(١) مجموع الفتاوى (٤٨٣/٢٨) .

(٢) خم واد بين مكة والمدينة عند الجحفة، قيل هو على ثلاثة أميال من الجحفة، وقيل هو دونها على ميل، وبه غدير .انظر : معجم البلدان (٣٨٩/٢) .

(٣) ورد هذا الحديث عن عدة من الصحابة، وله طرق كثيرة يطول تتبعها؛ لذا حكم عليه غير واحد من العلماء بأنه متواتر، منهم الذهبي في السير (٣٣٥/٨) حيث قال : (هذا حديث حسن عال جدا ،ومتنه فمتواتر)، ونقل عنه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢٤٧/٥) أنه قال : (صدر الحديث متواتر أتيقن أن رسول الله ﷺ قاله) ،وممن حكم عليه بالتواتر أيضا الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٣٤٣/٤) .

ونظرا لكثرة طرقه فقد ألف بعض العلماء مؤلفات خاصة جمعوا فيها ما وقفوا عليه منها، منهم الإمام الطبري المفسر كما ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩٧/٥٢-١٩٨)، وابن كثير في البداية والنهاية (٢٤٠/٥) ،وممن أفرده بالتأليف أيضا ابن عقدة كما في السلسلة الصحيحة(٣٤٣/٤) .

=

وتسليم منه في ذلك لعلي بن أبي طالب بأمر الله عز وجل، وأن النبي ﷺ بعد ذلك كان مأموما لعلي محجوجا له)[1] .

قال أحدهم :

(كان رسول الله ﷺ في وقته مثله مثل الشمس، ..، من وقت بعثه الله تعالى فيه إلى أن أكمل دينه الذي ابتعثه لإقامته، وإكماله بإقامة وصيه، وذلك قول الله تعالى الذي أنزل عليه في اليوم الذي قام فيه بولاية علي عليه السلام بغدير خم :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[2] [3].

=

وقد حاول الرافضة أن يتمسكوا بهذا الحديث لتأييد دعواهم النص على إمامة علي ﷺ لكن الأمر كما قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥/٢٤١) : (لا حظ للشيعة فيه ولا متمسك لهم ولا دليل)، إذ الحديث ورد لبيان فضله وبراءة عرضه مما رماه به بعض من كان معه بأرض اليمن، و لم يقصد به الخلافة البتة، ولو كان فيه دليل على ذلك لكان الصحابة سباقين إلى تنفيذ أمر رسول الله ﷺ ،قال ابن عساكر في ترجمة نصر الله بن علوان : (بلغني عنه أنه سمع بعض الرافضة يذكر أن النبي ﷺ نص على علي بالخلافة يوم غدير خم، وأن الصحابة لم ينفذوا ذلك بعد النبي ﷺ فقال له : العجب أن أبا بكر الصديق لما نص على عمر بن الخطاب لم يختلف فيه اثنان ،والنبي ﷺ لما نص على علي لم يقبل نصه !! أفكان أمر أبي بكر أنفذ من أمر رسول الله ﷺ ؟!! فأفحمه) اهـ من تاريخ دمشق (٨/٦٢) .

(١) انظر المقالات للقمي ص : (٨٣) (تحقيق محمد مشكور/مكتبة حيدري، طهران/١٩٦٣م).

(٢) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٣) لم ينفرد الإسماعيلية بادعاء أن آية المائدة هذه نزلت يوم غدير خم، بل أجمعت الإمامية عن بكرة أبيهم على ذلك كما حكاه عبد الحسين !! الأميني النجفي في كتابه (الغدير في الكتاب والسنة والآداب) (١/٢٣٠) (دار الكتب الإسلامية، طهران/ط٢/١٣٧٢)، وقد نسب إلى أهل السنة أن منهم من يقول بذلك !!! ولا شك أن هذا من الترويج لمذهب الرفض بمحض الكذب والافتراء، فقد قال شيخ الإسلام رحمه الله في منهاج السنة (٧/٣١٥) : (من قال إن المائدة نزل فيها شيء بغدير خم فهو كاذب مفتر باتفاق أهل العلم) .

وغاية ما في الأمر أن بعض العلماء أوردوا حديث الغدير من رواية أبي هريرة وفيه أن آية المائدة نزلت ذلك اليوم !! ولا يعني هذا أنهم يقولون بذلك؛ إذ عادة المحدثين أنهم يروون كل ما وقع لهم في الباب

=

فلما فعل ذلك ﷺ مال إلى النقلة عن دار الدنيا إلى معاده، فكان بين ذلك وبين وفاته سبعون ليلة)[1] .

٢/ يعتقد الإسماعيلية أن الدين لا يكمل إلا بعلم الباطن، وأن الأئمة هم الذين اختصوا بمعرفته، فلا يمكن الوصول إليه إلا من طريقهم، فليس عند أحد من الأمة شيء منه؛ إذ إن النبي ﷺ أخفاه وستره ووكل به من هو من جنسه وشكله، وأمن بإقامته ليكون ذلك للمؤمنين أمنا وأمانا من العذاب الذي هو الشك والحيرة [2] .

قال النعمان بن محمد [3] :

(العلم الباطن لا يوجد إلا عند الأئمة صلى الله عليهم وسلم، وهم خزنة علمه وألفائه وقرنائه (كذا)، وهو معجزتهم أبانهم الله بعلم التأويل كما أبان جدهم محمدا ﷺ بالتنزيل، وجعله معجزته، وأعجز الخلق جميعا أن يأتوا بمثله، وكذلك أعجزهم عن علم التأويل وجعله في أئمة دينه من آل الرسول !!)[4] .

=

من غير تمييز بين الصحيح والضعيف، والغث والسمين، وقد حكم غير واحد من أهل العلم على حديث أبي هريرة هذا بالكذب، ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢٤٧/٥) حيث قال : (هذا حديث منكر جدا ،بل كذب لمخالفته لما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن هذه الآية نزلت في يوم الجمعة يوم عرفة ،...، وقد قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي بعد إيراده هذا الحديث : هذا حديث منكر جدا ...) اهـ .

(١) انظر مقدمة كتاب تأويل الدعائم للنعمان بن محمد (٣٨/١)، والتقديم بقلم محمد حسن الأعظمي .

(٢) نقلت هذا التعليل العليل بتصرف من كتاب الافتخار للسجستاني ص : (١١٢) (تحقيق مصطفى غالب/ دار الأندلس/ط١/١٩٨٠م) .

(٣) هو : النعمان بن محمد بن منصور، أبو حنيفة، التميمي المغربي، من دعاة الإسماعيلية، يعرف بقاضي القضاة، وداعي الدعاة، عاصر أربعة من خلفاء الدولة العبيدية، له مؤلفات عدة مليئة بالأباطيل والخرافات منها (دعائم الإسلام) و (تأويل الدعائم) وغيرهما، هلك سنة ثلاث وستين وثلاثمائة .
انظر : مقدمة تأويل الدعائم (١٢/١-١٣)، أعلام الإسماعيلية لمصطفى غالب ص : (٥٨٩) (دار اليقظة العربية، بيروت/١٩٦٤م) .

(٤) تأويل الدعائم (٦١/١) .

وقال السجستاني[1] :

(ظهر أن دعوة الرسول كانت إلى التنـــزيل والشريعة، ودعوة الوصـــي إلى التأويل والحقيقة)[2] .

وقال أيضا :

(أصل مذهبنا أن علم التأويل كان من الأساس وصي الرسول صلـــوات الله عليه)[3] .

وقد استدلوا على هذا الإفك والبهتان بحديث وضعوه على لسان النـــبي ﷺ وفيه أنه قال :

(أنا صاحب التنـــزيل، وعلي صاحب التأويل)[4] .

فالنبي ﷺ عندهم لم يأت إلا بالظاهر، ودعوته كانت مقتصرة على الشـــريعة، وأما التأويل وعلم الباطن فهو من اختصاص الأئمة، ورثوه من علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وعليه فالدين الذي جاء به النبي ﷺ عند هؤلاء الزنادقـــة لم يكـــن كـــاملا، ودعوته كانت قاصرة !!!؛ لأنه لم يشتغل إلا بتعليم التنـــزيل والظاهر، وأمـــا علـــم التأويل فقد أغفله وترك تعليمه لسائر الأمة !!!.

وإذا علم أن علم الباطن عند القوم أشرف من علم الظاهر فعمر النبي ﷺ قـــد صرفه في دعوة الناس إلى المفضول، وكتم عنهم ما هو أفضل .

---

(١) هو : إسحاق بن أحمد، أبو يعقوب، السجزي، أو السجستاني، الملقب بدندان، أحد دعاة الإسماعيلية في بلاد فارس ، ينحدر من أسرة رستم الفارسي . ولد سنة إحدى وسبعين ومائتين في سجستان ، وقتـــل حوالي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، وقيل غير ذلك .له مؤلفات في تقرير مذهبه الباطل منها : (كتاب الافتخار) و (كتاب الينابيع) وغيرهما .

انظر : مقدمة كتابه الافتخار لمصطفى غالب ص : (١١-١٤) ،وأعلام الإسماعيلية ص : (١٥٤) .

(٢) كتاب الافتخار ص : (٧١) ، وانظر المصدر نفسه ص : (١١٦-١٢٠) .

(٣) المصدر السابق ص : (١٠٠) .

(٤) انظر مقدمة تأويل الدعائم (٣٨/١) .

٣/ مما لا شك فيه ولا مرية أن رسائل إخوان الصفا رسائل إسماعيلية أصبغت بصبغة فلسفية، وقد تقدم في بيان موقف الفلاسفة من القاعدة أن إخوان الصفا صرحوا بأن الكمال لا يحصل بالشريعة المحمدية وحدها فهي بحاجة إلى أن تكمل بالفلسفة اليونانية، فقالوا :

(متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال)[1] .

وخلاصة القول : أن الدين عند الإسماعيلية لم يكمل على المفهوم الذي سبق ذكره في الباب الأول .

(١) رسائل إخوان الصفاء (٣/٨٧) .

المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة :

لولا ما أصله هؤلاء الزنادقة من الأصول لتقرير مذهبهم الباطل، وما وضعوه من خطط دقيقة ومتقنة لبثه بين الرعاع لما استطاعوا أن يعبثوا بعقائد الناس، ولما كان لهم ذكر بين صفوف المسلمين، بل لولا ذلك لن يجابهوا إلا بالتكفير والتضليل، ولن يقابلوا إلا بالتشريد والتقتيل، ولكن تأصيلهم لباطلهم مكنهم من تنفيقه، وبثه بين الدهماء والطغام، حتى استطاعوا أن يتسلموا زمام الأمور، ويتحكموا في رقاب المسلمين برهة غير يسيرة من الزمان !! فعاثوا في الأرض فسادا، وذاق المسلمون منهم الأمرين، إلى أن من الله بزوال دولتهم، ورحم العباد بأفول نجمهم .

وفيما يلي سأتناول بعض أصولهم التي تكشف القناع عن حقيقة مذهبهم، وتزيل اللثام عن قصدهم وهدفهم .

الأصل الأول : إنكار وجود الله :

من الأصول التي حاول هؤلاء الزنادقة أن يبثوها بين الرعاع، ويؤصلوها في نفوس الأتباع إنكار وجود الله؛ إذ متى وصلوا إلى إقناعهم بذلك سهل عليهم الوصول إلى ما بعده مما يطمحون إليه من إبعادهم عن الدين، وحملهم على محاربة أهله .

قال البغدادي :

(الذي يصح عندنا من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة، يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها؛ لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع)[1] .

وهذا الأمر لا يصرحون به ابتداء، بل يزعمون أنهم يؤمنون بأن لهذا العالم مبدعا قد أبدعه، وأنهم يؤمنون بالله وينزهونه، وكل ذلك من باب التقية، ومن أساليب الدعاية .

---

(١) الفرق بين الفرق ص : (٢٦٠) .

قال ابن الجوزي :

(محصول قولهم تعطيل الصانع[1] ، وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث ولكنهم لا يظهرون هذا في أول أمرهم، بل يزعمون أن الله حق، وأن محمدا رسول الله، والدين صحيح لكنهم يقولون لذلك سر غير ظاهر)[2] .

ومما يدل على أن هذا هو حقيقة دينهم ما يلي :

١/ أن أهل العلم ظفروا بنقول فيها تصريحهم بذلك، منها قول أحدهم :

(.. إذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة معولنا، وإنا وإياهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء، وعلى القول بقدم العالم، لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبرا لا نعرفه ...)[3] .

٢/ أنهم أنكروا أسماء الله الحسنى، وجردوه عن كل صفة سواء كانت ثبوتية، أو سلبية، فقالوا بأن الله لا يوصف بالصفة ولا بضدها، فلا يقال موجود، ولا غير موجود، لا في مكان ولا لا في مكان [4]، فتوحيدهم هو التعطيل المطلق ويسمونه التجريد [5]، وصر ح السجستاني بأن (إثبات الله تعالى ذكره لا يفارق النفي طرفة عين)[6] .

---

(١) لفظ الصانع لم يرد في أسماء الباري جل وعلا، وأسماء الله توقيفية، فلا يطلق عليه لفظ الصانع على أنه اسم من أسمائه، لكن قد يتجوز في إطلاقه من باب الإخبار لثبوت ما يدل عليه من الأخبار كحديث : (إن الله يصنع كل صانع وصنعته) صححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٨١/٤رقم ١٦٣٧) .
انظر : شفاء العليل لابن القيم (٣٣٣/١)، معجم المناهي اللفظية ص : (٣٣٠) .

(٢) تلبيس إبليس ص : (١١٩) .

(٣) من رسالة عبيد الله بن الحسين القيرواني إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي التي سبق وأن أشرت إلى أن البغدادي ذكر طرفا منها في الفرق بين الفرق ص : (٢٦٠) .

(٤) انظر كتاب الافتخار للسجستاني ص : (٢٣ وما بعدها) .

(٥) في مقدمة تأويل الدعائم (٢١/١) : (إن التوحيد هو معرفة الحدود، والتنزيه نفي الإلهية عنهم، والتجريد سلب الأسماء والصفات عن الله تعالى) .

(٦) قاله السجستاني في كتاب الافتخار ص : (١٠٦) .

وقال أحد دعاتهم :

(الباري لا يجوز أن يقال له فوق ولا تحت، ولا دون ولا غير ذلك)[1] .

قال الغزالي :

(قالوا : السابق لا يوصف بوجود ولا عدم؛ فإن العدم نفي، والوجود سببه، فلا هو موجود ولا هو معدوم، ولا هو معلوم ولا هو مجهول، ولا موصوف ولا غير موصوف، وزعموا أن جميع الأسامي منتفية عنه، وكأنهم يتطلعون في الجملة لنفي الصانع؛ فإنهم لو قالوا : إنه معدوم لم يقبل منهم، بل منعوا الناس من تسميته موجودا، وهو عين النفي مع تغيير العبارة، لكنهم تحذقوا فسموا هذا النفي تنزيها، وسموا مناقضه تشبيها حتى تميل القلوب إلى قبوله)[2] .

٣/ أن الإله الحقيقي عندهم هو العقل، فهو الذي يوصف بصفات الكمال، وقد صرح بعضهم بهذا فقال :

(إن الموصوف بصفات الذات هو العقل الذي هو الاسم الحق، وذلك لأنه الأول الذي لا جوهر له، ومنه أبدع، والاسم الذاتي لا انشقاق له، والعالم الذي لا علم له منه عُلم، ...، فهو إذا الأول الذي أبدع لا من شيء، والقادر الذي قدر لا من شيء، والحي الذي حي لا من شيء، أول بذاته، واسم بذاته، وعالم بذاته، ولو لم يكن كذلك لكان محتاجا إلى علم به يعلم وإلى قدرة بها يقدر، ...)[3] .

---

(١) قاله الداعي القرمطي عبدان في كتابه شجرة اليقين ص : (٩١) (تحقيق عارف تامر/دار الآفاق الجديدة، بيروت/ط١/١٤٠٢) .

(٢) فضائح الباطنية ص : (٢٦) .

(٣) قاله عبدان في شجرة اليقين ص : (٩٠) .

الأصل الثاني : الطعن في الأنبياء :

لقد نقل غير واحد ممن كتب عن هؤلاء الملاحدة أنهم ينكرون النبوات ويطعنون في الأنبياء، ولعل اعتمادهم في ذلك على أمور عدة، منها :

١/ أنهم وقفوا على بعض النصوص التي فيها تصريحهم بهذا الضلال، كقول أحد دعاتهم :

(.. ينبغي أن تحيط علما بمخاريق الأنبياء !! ومناقضاتهم في أقوالهم، كعيسى ابن مريم قال لليهود : لا أرفع شريعة موسى، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلا من السبت، وأباح العمل في السبت، وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها، ولهذا قتلته اليهود لما اختلفت كلمته .

ثم قال : ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة !! حين سألوه عن الروح فقلل : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[1] لما لم يعلم، ولم يحضره جواب المسألة !!! .

ولا تكن كموسى في دعواه التي لم يكن له عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعبذة، ولما لم يجد المحقق في زمانه عنده برهانا قال : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى ﴾[2] ،وقال لقومه : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[3] ؛لأنه كان صاحب الزمان في وقته)[4] .

٢/ نظرتهم للنبوة كنظرة الفلاسفة؛ لذا أنكر السجستاني على أهل السنة موقفهم من النبوة !! وذكر أن القول بنزول الملائكة على الرسل كنزول الطير من السماء، ومخاطبتهم معهم بالأسماع والأصوات كل هذا قول من لا صحبة بينه وبين العقل بوجه من الوجوه !!! ثم بين مذهبه فقال :

---

(١) سورة الإسراء، الآية (٨٥) .

(٢) سورة الشعراء، الآية (٢٩) .

(٣) سورة النازعات، الآية (٢٤) .

(٤) من رسالة القيرواني سليمان بن الحسن انظر : الفرق بين الفرق ص : (٢٦٢) .

(إن الرسالة منه من منن الله تعالى ذكره معلقة بالنفس الكلية التي هي مجمع الكلام .والأنفس الجزئية المستعدة لقبول العلم تصعد بلطافتها وصفائها زمانا بعد زمان لتبلغ إلى تلك المنة، فيتعذر عليها سلوكها إلا أنها قد ذللت بعض المسالك، فإذا بلغ الأمر زمان المصطفى سهل عليه سلوكه وبلوغه إلى قبول تلك المنة مما تقدمه من سلوك الأنفس الجزئيات من الأزمنة الماضية، فإذا تمرنت نفسه على قبولها والاستنارة منها، تحرك بها جده، فلا يزال يصحبه الوقت بعد الوقت، ولا يزال ينزل على قلبه من الإفادات العلمية التي فيها مصلحة دوره وتمام شريعته، ولا تزال تجري على لسانه من الألفاظ العذبة السهلة الجزلة التي إن حركت على ما ينبغي نتج عنها من الكلام البين الشافي على مقدار صفوة محركها ما يتعجب منه السامعون !!)[1] .

وهذا هو قول الفلاسفة بعينه كما تقدم بيانه في موقفهم من القاعدة، لذا قال الغزالي رحمه الله :

(المنقول عنهم قريب من مذهب الفلاسفة، وهو أن النبي عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق بواسطة التالي قوة قدسية صافية مهيأة لأن تنتقش عند الاتصال بالنفس الكلية بما فيها من الجزئيات ..)[2]

٣/ إنكارهم لمعجزات الأنبياء وتأويلها بما يصرفها عن كونها معجزة، والغرض من ذلك التشكيك في صدق الأنبياء والطعن في نبوتهم .

قال البغدادي رحمه الله :

(الباطنية يرفضون المعجزات، وينكرون نزول الملائكة من السماء بالوحي والأمر والنهي، بل ينكرون أن يكون في السماء ملك، وإنما يتأولون الملائكة على دعاتهم إلى بدعتهم، ويتأولون الشياطين على مخالفيهم، والأبالسة على مخالفيهم، ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلبا للزعامة بدعوى النبوة والإمامة)[3] .

---

(١) كتاب الافتخار ص : (٥٧-٥٨) .

(٢) فضائح الباطنية ص : (٢٧) .

(٣) الفرق بين الفرق ص : (٢٦١) .

الأصل الثالث : اعتقادهم أن النصوص الشرعية لها ظاهر وباطن :

من العقائد المشهورة والتي هي قطب الرحى في دين الإسماعيلية أن للنصوص الشرعية ظاهرا وباطنا، وأن الأخذ بالظاهر دون الباطن خروج عن روح الإسلام، وتنكب عن جادة الطريق، وغفلة عما تحصل به السعادة الحقيقية .

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله :

(لقبوا بالباطنية لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صورا جلية، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معينة ..)[1] .

وقد حاول السجستاني أن يعلل قول أهل نحلته بأن للنصوص ظاهرا يفهمه العامة، وباطنا هو المقصود الحقيقي للشارع ولا يفهمه إلا الخاصة فأتى بما يضحك العقلاء؛ إذ زعم أن النبي ﷺ قد جاء من عالم الروحانيات، وأنه دائم الاتصال به ويستمد منه فلا بد إذن أن يكون كلامه معبرا في الحقيقة عن ذلك العالم لا عن عالم الجسمانيات !!! .

يقول السجستاني :

(نسبة النفس إلى عالم العلم أقرب منها إلى عالم الحس، ولا شك أن للناطق[2] نفسا قد بلغت من العلم المبلغ العالي الذي عجز عنه أقرانه وأشكاله فلم تنكر عبارته عن عالمه وعن صورته الروحانية النورانية ... .

إن الناطق عليه السلام مجيئه من ذلك العالم، واتصاله بذلك العالم، واستمداده من ذلك العالم، ونظره إليه، وتحجبه وفخره به، ومرجعه ومعاده إليه .وإذا ثبت ذلك !! ثبت أن أكثر ما في القرآن من الأسماء المعلومة المعروفة الواقعة على الجسمانيات فإنما وجه تأويلها إرادة الصورة الروحانية، سواء أشجارها وأنهارها

---

(١) فضائح الباطنية ص : (٩) .

(٢) الناطق في اصطلاحهم يراد به الرسول ﷺ، يقول السجستاني في كتاب الافتخار ص: (٦١) : (فأما علة تسميتنا الرسول ناطقا؛ لأن الناطق اسم محمود شريف لا يفارقه الحق ولا يضاده) .

وثمارها، وسواء سماءها وأرضها وبحارها ومياهها وجبالها ونيرانها وحيوانها، وجميع الأصناف المذكورة في القرآن ...)[1] .

وأصح تعليل لقولهم إن للنصوص ظاهرا وباطنا، وأن الباطن هو المراد هو أنهم عجزوا عن إبطال القرآن والسنة، وإسقاط هيبتهما من نفوس الناس فاتخذوا هذه الحيلة مطية لبلوغ ذلك، وسعوا إلى أن يجعلوا النصوص الشرعية ألفاظا جوفاء لا يمكن الاستفادة منها في شيء، بل حاولوا أن تدل بهذه الحيلة على معتقداتهم الباطلة، ومن اطلع على تأويلاتهم للنصوص رأى من التلاعب بالشريعة شيئا عجيبا لا يصدقه عقل ولا يقره شرع، بحيث لو تبعهم على تأويلاتهم أحد فنهاية أمره أن ينسلخ من الدين كما تنسلخ الحية من جلدها .

قال الغزالي رحمه الله :

(القول الوجيز أنهم لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها، واستفادوا بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ إبطال معاني الشرع، وبما زخرفوه من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعة والموالاة، وأنهم لو صرحوا بالنفي المحض، والتكذيب المجرد لم يحظوا بموالاة الموالين، وكانوا أول المقصودين المقتولين)[2] .

---

(١) الافتخار ص : (٩٨) .

(٢) فضائح الباطنية ص : (٣٥) .

الأصل الرابع : تقديس الأئمة :

من عقائد الإسماعيلية التي أرادوا بها هدم الدين وتقويض أركانه الغلو في تقديس أئمتهم إلى درجة تأليههم وإعطائهم صفات الربوبية، والتصريح بأن أحدهم هو الله الذي لا إله إلا هو !!! وقد سلكوا للوصول بالأتباع إلى اعتقاد هذا الكفر الصراح الخطوات التالية :

١/ زعموا أنه لا بد أن يكون في كل زمان إمام يعلم الناس أمور دينهم، ويهديهم إلى ما فيه يختلفون، وأن حفظ الدين موكول إليه، فقالوا :

(واجب إقامة الأئمة في الأزمنة لهداية الخلق، ولحفظ الدين)[١] .

٢/ ثم زعموا أنه يجب على الخلق طاعتهم، ولا يسع أحدا الخروج عن ذلك فقالوا :

(يجب على الخلق طاعتهم وولايتهم) [٢] .

٣/ ثم زعموا أن طاعتهم وموالاتهم من دعائم الإسلام فقالوا :

(بني الإسلام على سبع دعائم : الولاية وهي أفضلها وبها وبالولي ينتهى إلى معرفتها، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد)[٣] .

بل جعلوا هذا من أهم دعائم الإسلام وأن من لم يتول أئمتهم فلا يقبل منه عمل ولا تكتب له حسنة، ولا يصح إقراره بالنبوة .

قال النعمان بن محمد :

(من لم يتول أولياء الله الذين افترض ولايتهم على العباد لم يقبل له عمل)[٤].

وقال أيضا :

(لا يصح إقرار بنبوة محمد ﷺ إلا لمن أقر بأن عليا عليه السلام وصيه من بعده)[٥] .

---

(١) كتاب الافتخار ص : (٧١)، وانظر : ص : (١١٤) منه .

(٢) المصدر السابق ص : (١١٦) .

(٣) أورده النعمان بن محمد في كتابه تأويل الدعائم (٥١/١) .

(٤) تأويل الدعائم (٨٥/١) .

(٥) المصدر السابق (٣٦/١) .

٤/ وأولوا كثيرا من فروض الشريعة بطاعة الأئمة فقالوا مثلا :

(الحج إلى البيت كان الغرض منه معرفة الأئمة، ...، وشرطه الاستطاعة في قضاء هذه الفريضة إعلامه الأمة أن معرفة الأئمة أصعب من معرفة سائر الحدود العلوية والسفلية؛ لأنهم ليسوا بأصحاب شرائع، فيوقف بشرائعهم على مراتبهم، ولا بأصحاب حقائق يستدل بها على منازلهم، وإنما هم وسائل بين الخلق وبين الله، ومنازل أنوار كلمة الله الممتدة من غيبة صاحب الشريعة إلى طلوع صاحب الشريعة ...)[1] .

٥/ ثم زعموا أن الأئمة عندهم علوم لا يعلمها غيرهم، ولهم أسرار لا يطلع الناس عليها، بل زعموا أنهم يعلمون كل شيء ولا يعزب عن علمهم شيء، فقالوا :

(الإمام لا يحجب الله عنه شيئا لا أرضا ولا سماء ولا جبل ولا بر ولا بحر حيث ما كان يراه، ولا يجهل أمر الله عز وجل، وذلك أن الجهل منقصة، وليس في الإمام منقصة، والجهل ضلالة، وليس عند الإمام ضلالة، وإنما عنده الهداية)[2] .

٦/ ثم إنهم في آخر المطاف يصرحون لمن أنسوا منه القبول بتأليه الأئمة، وجعل حساب الخلق في أيديهم !!! والنقول عنهم في هذا كثيرة، منها :

- ما افتروه عن جعفر أنه قال :

(إن الحسين لما خرج إلى العراق وكان الله محتجب (كذا) به، وصار لاينزل منزلا صلوات الله عليه إلا ويأتيه جبريل فيحدثه حتى إذا كان اليوم الذي اجتمعت فيه العساكر عليه واصطفت الخيول لديه، وقام (كذا) الحرب، حينئذ دعا مولانا الحسين جبريل وقال له يا أخي من أنا ؟

قال : أنت الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم والمميت والمحيي !! أنت الذي تأمر السماء فتطيعك، والأرض فتنتهي لأمرك، والجبال فتجيبك، والبحار فتسلرع إلى طاعتك، وأنت الذي لا يصل إليك كيد كائد،ولا ضرر ضار ... !!!)[3] .

---

(١) كتاب الافتخار ص : (١٢٩) .

(٢) الهفت الشريف ص : (٤٣) .

(٣) المصدر السابق ص : (٩٧) .

- ما صرح به السجستاني في قوله :

(أضيف إلى القائم عليه السلام حرف الراء[1] الذي هو أقصى الإفاضات العقلية الموفورة على البشر، فنال بحرفه مرتبة الربوبية !!!، ...، فصار بنيله تلك المرتبة السنية ربا للأرض ومن عليها، وجعل إليه مجازات الأنفس كلا على مقدار سعيها وكسبها)[2] .

- قال البغدادي رحمه الله :

(حكى لي بعض من كان دخل في دعوة الباطنية ثم وفقه الله تعالى لرشده وهداه إلى حل أيمانهم أنهم لما وثقوا منه بأيمانه قالوا له :

إن المسلمين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة، فخدعوهم بنيرجات[3]، واستعبدوهم بشرائعهم !!

قال الحاكي : ثم ناقض الذي كشف لي هذا السر بأن قال له : ينبغي أن تعلم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الذي نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال له : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾[4] !! .

قال فقلت له : سخنت عينك تدعوني إلى الكفر بالرب القديم الخالق للعالم ثم تدعوني مع ذلك إلى الإقرار بربوبية إنسان مخلوق، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلها مرسلا لموسى !!! فإن كان موسى عندك ممخرقا، فالذي زعمت أنه أرسله أكذب .

فقال لي : إنك لا تفلح أبدا !!! وندم على إفشاء أسراره إلي، وتبت من بدعتهم)[5] .

---

(١) من ترهات الإسماعيلية أنهم يزعمون أن هناك حروفا سبعة بها تنبجس من الأصلين رموزات نفسية وكلمات عقلية، وعبروا عنها بقولهم (كوني قدر) فكل نبي أضيف إليه حرف منها، وآخرها حرف الراء وقد أضيف إلى القائم أي مهديهم المنتظر !!! .

(٢) كتاب الافتخار ص : (٥٠) .

(٣) النيرجات أخذ كالسحر وليس به .انظر القاموس المحيط (٣١٨/١) .

(٤) سورة طه، الآية (١٢) .

(٥) الفرق بين الفرق ص : (٢٦٧-٢٦٨) .

الأصل الخامس : إنكار المعاد :

بعد الذي تقدم بيانه من كفر الإسماعلية برب العباد، وإنكارهم للنبوات، وسعيهم في إبطال الشريعة الإسلامية لا يستغرب منهم أن ينكروا المعاد، ويكفروا بالبعث الذي تظافرت النصوص على ذكره، وبيان أحواله، فقد قال أحدهم لا رحم الله فيه مغرز إبرة :

(أخبرهم --أي النبي ﷺ- بكون ما لا يرونه أبدا من البعث من القبور والحساب والجنة والنار، حتى استعبدهم بذلك عاجلا، وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولا، واستباح بذلك أموالهم بقوله :

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[1].

فكان أمره معهم نقدا، وأمرهم معه نسيئة، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون، وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج ؟!)[2] .

فهذا حقيقة مذهبهم الذي يسعون إلى بثه ونشره وأما ما في كتبهم من ذكر العذاب والنعيم فلا يقصدون به ما أخبرت به الرسل، بل عندهم للبعث والعذاب والنعيم تفسير خاص نجمله في النقاط التالية :

١/ أن اليوم الآخر عندهم هو يوم بروز القائم، وظهور مهديهم، وقد صرح بهذا السجستاني فقال :

(... إذا بطل أن تكون القيامة متوهمة كما توهمها أهل الظاهر من تبديل الخلقة وتعطيلها كان ذلك وجوب خلافه (كذا)، ووجوب خلافه حدوث شرف في حاصل الخلقة، ولب الفطرة الذي هو البشر، ولا يمكن حدوث هذا الشرف في هذا

---

(١) سورة الشورى، الآية (٢٣) .

(٢) من رسالة القيرواني إلى سليمان بن الحسين انظر الفرق بين الفرق ص : (٢٦٣) .

اللب إلا من جهة قيام أفضلهم وأشرفهم وأقومهم في زمان مسعود، يكون بقيامه لموع آثار نفسانية تلحق بمن آمن به وانتظره، ويحرم عنها من جحد به و لم ينتظره، فهذا بالمجمل اعتقاد أهل الحقائق في القيامة)[1] .

٢/ يصرحون بأن الذي ينعم ويعذب هو الروح دون الجسد، وأن (العالم الروحاني هو بيت الخلود الذي لا عدد له ولا انتهاء)[2] .

فهذا السجستاني ينعى على أهل الظاهر إيمانهم بالبعث على الصفة التي أخبر الله بها، وأخبر بها رسوله ﷺ ويقول :

(إنهم يقولون : إن الله يجمع العظام البالية المتبددة المتمزقة التي انتشرت في الأقطار، واضمحلت عن الآثار بنفخ ملك في قرن فإذا طولبوا بالبرهان عليه، وعلى كيفية هذا الفعل البديع الذي لم تأت به فطرة حولوه على قدرة الله .فسبحان الله وتعالت قدرته عن مثل هذا المحال !!! ويحكم متى ضاقت خزائن الله عن إحياء الموتى حتى اشتغلت قدرته في جمع الأجزاء المتبددة لإحياء الموتى ؟ أم لأي علة وجب بعث الخلق في ساعة واحدة ؟ وقد تفاوتت خرجاته فلم لا تتفاوت البعثات، كما تتفاوت الخرجات ؟!! ولعل البعث قد ظهر مرارا وأنتم عنه ساهون)[3] .

٣/ أن الثواب عندهم هو التنعم بأخذ العلوم الخفية التي بها شرفه ورفعته، و (العقاب هو شقوة تلحق النفس، ويكون لها بها ضيق جوهر النفس وسقوطها عن نيل درجاتها، ووقوعها في الدركات لسهوها وغفلتها عن عالمها النوراني، وتعلقها واغترارها بالأشياء الهيولانية الدنيئة التي تورثها الدناءة والضعة، فلا تزال ساقطة عن السعادة مرتكبة في الشقوة، وأية شقاوة أبين من شقاوة الجهال الذين يصبحون ويمسون)[4] .

---

(١) كتاب الافتخار ص : (٧٥)، وانظر شجرة اليقين لعبدان ص : (١٤٤) .

(٢) انظر شجرة اليقين لعبدان ص : (٤١) .

(٣) المصدر السابق ص : (٨٥-٨٦) .

(٤) قاله السجستاني في كتاب الافتخار ص : (٩٦) .

٤/ أنهم يصرحون بالتناسخ أي أن روح الإنسان تنتقل بعد موته إلى إنسان آخر، أو إلى حيوان، فالمؤمن ينتقل من بدن إلى بدن حتى تصير روحه ملكا، والكافر تنتقل روحه كذلك حتى يصير شيطانا !! وقد افتروا على جعفر أنه قال :

(إن لكل كافر سبعة أبدان آدمية يركب فيها ويعذب، ....حتى ينتهي في الكفر، فحينئذ يعادي الله عز وجل ويعادي أولياءه، ويصير بابا من أبواب الكفر، فإذا بلغ هذا المبلغ فقد انتهى، وصار إبليسا ملعونا، فحينئذ يركب في المسوخية بذنوب سلفت منه انتابه هموم وغموم وسم وتعب، وإنما يكون ذلك ليصفو ولا يكون لأحد قبله مثل تعاسته ...)[1] .

والمقصود أن هؤلاء الملاحدة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا باليوم الآخر .

(١) الهفت الشريف ص : (٤٤-٤٥) .

الأصل السادس : الطعن في الشرع :

سبق أن بينت أن غاية ما يصبوا إليه الإسماعيلية، وهدفهم الذي يسعون لتحقيقه هو إسقاط الدين، والطعن في الشرع وزعزعت ثقة المسلمين بمصداقيته وصلاحيته؛ لذا حاولوا إبطال النقل بطرق شتى :

فلإنكار القرآن طعنوا في النبوة، وحاولوا بطرق ملتوية أن يثبتوا أنه من تـأليف النبي ﷺ لا أنه منزل من عند الله، كما حاولوا إبطال معانيه وذلك بتأويله تأويلا باطنيا يصرفه عن المراد به .

وأما السنة فقد طعنوا في نقلتها، فكفروا الصحابة [1] وساروا في ذلك سير الرافضة حدو القذة بالقذة [2] .

كما حاولوا التأكيد على أن الشريعة الإسلامية سيأتي عليها يوم من الأيام تنسخ فيها، وتبدل بغيرها، بل وحاولوا الاستدلال على ذلك ببعض الآيات، فقالوا مثلا :

(قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾[3] .

يعني نطوي الشريعة وننسخها، ولو كان المراد طي هذه السماء لم يكن لطيها معنى؛ لامتناع طيها.

وكذلك قوله : ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[4] ،يعني الشرائع مطويات ببيانه)[5].

---

(١) انظر : الهفت الشريف ص : (٦٠ وما بعدها) و (٨٩) و (١٠٣ وما بعدها) .

(٢) لقد صرح مصطفى غالب بأنه أسقط بعض الأسطر من كتاب الافتخار زاعما الحرص على وحدة الصف الإسلامي، ومراعاة للشعور العام !! كما في ص : (٦٨ و ٧٢)، والكلام الذي أسقطه بلا شك مما فيه التصريح بالنيل من الصحابة خاصة الصديق ﷺ وعمر ﷺ وعثمان ﷺ، لأن الكلام الذي أسقط من خلاله تلك الأسطر كان في تفضيل علي ﷺ وأحقيته بالخلافة، وتفضيل جماعة من عبد المطلب على تيم وعدي وأمية !! .

(٣) سورة الأنبياء، الآية (١٠٤) .

(٤) سورة الزمر، الآية (٦٧) .

(٥) كتاب الافتخار ص : (١٠٣) .

فدل هذا على أن القوم لا يؤمنون بأن النبي ﷺ هو خاتم النبيين، وبأن شريعته هي آخر الشرائع .

كما أنهم أولوا أفعال الشريعة بما يؤول إلى إبطالها، فأولوا الوضوء والصلاة والزكاة والحج والجهاد بتأويلات سخيفة قصدوا من وراء ذلك تزهيد الناس في امتثال الأوامر الشرعية وصرفهم عنها .

كما أباحوا لأتباعهم الخروج عن الشريعة إذا وصلوا إلى المرحلة التي تكشف لهم فيها الحقائق !! وسيأتي بيان ذلك في المبحث التالي .

والمقصود أن هؤلاء الزنادقة سلكوا شتى السبل لإبعاد الناس عن الدين وإطفاء أنوار الشريعة الإسلامية، ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون .

المطلب الثاني : موقفهم من المسائل العلمية والعملية :

يرى الإسماعيلية أن النفس لا تسمو إلى الكمال المطلق، ولا تصل إلى السعادة الحقيقية إلا بالمعرفة، فإذا حصلتها تفلت صاحبها من كل خلق ودين، واستغنى عن الأحكام الشرعية، وأبيح له فعل كل ما تشتهيه نفسه، فلا يراعي حلالا ولا حراما، ولا يأبه لدين ولا يرفع به رأسا، بل يعبد هواه، ويسعى في تحقيق رغباته وشهواته، حتى إنهم أباحوا أن ينكح الواحد منهم أخته وبنته فقال قائلهم :

(وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعي العقل ثم يكون له أخت، أو بنت حسناء، وليست له زوجة في حسنها فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبي، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبي !!! وما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات !!!، وخوفهم بغائب لا يعقل، وهو الإله الذي يزعمونه ..)[1] .

يقول أحد دعاتهم المعاصرين :

(الحقيقة العرفانية التوحيدية قد وهبت الإنسان العارف الإشراقات الروحية السرمدية التي سمت بنفسه إلى الكمال المطلق الذي أعطاه مفهوما قاطعا ينسجم مع مناهجه في معرفة الحقيقة الماورائية، ومع نظرته إلى الوجود والموجودات العلوية والسفلية)[2] .

وقد بوب صاحب الهفت الشريف بابا قال فيه :

(باب في معرفة الصفا والاصطفاء، وما يسقط عن المؤمن من الأعمال الظاهرة إذا ارتقى إلى هذه المنزلة) ثم ذكر أن الصادق قال :

(... من عرف هذا الباطن فقد سقط عنه عمل الظاهر، وما دام لا يعرف هذه الدرجات، ولا يبلغها بمعرفته، فإذا بلغها وعرفها منزلة منزلة، ودرجة درجة،

---

(١) من رسالة القيرواني التي تقدم النقل منها، انظر الفرق بين الفرق ص : (٢٦٢-٢٦٣) .

(٢) قاله مصطفى غالب في تقديمه لكتاب الافتخار ص : (٥) .

فهو حينئذ حر قد سقطت عنه العبودية، وخرج من حد الملوكية إلى حد الحرية باشتهائه ومعرفته !!!

قلت : يا مولاي ! فهل ذلك في كتاب الله ؟!!

قال : أما سمعت قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١).

فإذا عرف الرجل ربه فقد انتهى للمطلوب، ولا شيء أبلغ إلى الله من الوحدانية والمعرفة، وإنما وضعت الأصفاد والأغلال على المقصرين، وأما من قد بلغ وعرف هذه الدرجات التي قرأتها لك فقد أعتقه من الرق ورفعت عنه الأغلال والأصفاد وإقامة الظاهر، ثم تلا قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾(٢).

وقرأ مولاي !!: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾(٣).

قلت : ما تعني هذه يا مولاي ؟!

قال : يعني رفعة في المعرفة وارتفاعا في الدرجات !!!)(٤) .

قال الغزالي رحمه الله :

(المنقول عنهم الإباحة المطلقة، ورفع الحجاب، واستباحة المحظورات، واستحلالها، وإنكار الشرائع، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم، وإنما الذي يصح من معتقدهم فيه أنهم يقولون : لا بد من الانقياد للشرع في تكاليفه على

---

(١) سورة النجم، الآية (٤٢) .

(٢) سورة المائدة، الآية (٩٣) .

(٣) سورة النور، الآية (٢٩) .

(٤) الهفت الشريف ص : (٤١-٤٢) .

التفصيل الذي يفصله الإمام، من غير متابعة الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما، وإن ذلك واجب على الخلق والمستجيبين إلى أن ينالوا رتبة الكمال في العلوم، فإذا أحاطوا من جهة الإمام بحقائق الأمور، واطلعوا على بواطن هذه الظواهر انحلت عنهم القيود، وانحطت عنهم التكاليف العملية؛ فإن المقصود من الجوارح تنبيه القلب لينهض لطلب العلم !! فإذا ناله استعد للسعادة القصوى، فيسقط عنه تكليف الجوارح !!

وإنما تكليف الجوارح في حق من يجري مجرى الحمر التي لا يمكن رياضتها إلا بالأعمال الشاقة، وأما الأذكياء والمدركون للحقائق فدرجتهم أرفع من ذلك .

وهذا فن من الإغواء شديد على الأذكياء، وغرضهم هدم قوانين الشرع، ولكن يخادعون كل ضعيف بطريق يغويه ويليق به)[1] .

(١) فضائح الباطنية ص : (٣٠-٣١) .

المبحث الرابع : موقف المتأثرين بالمنهج الباطني في هذا العصر من القاعدة

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة .

المطلب الثاني : ذكر أمثلة لخرمهم القاعدة .

المبحث الرابع : موقف المتأثرين بالمنهج الباطني في هذا العصر من القاعدة

المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة :

سبق أن ذكرت عن بعض العقلانيين المعاصرين تشنيعهم على علماء الأمة بسبب ردهم البدع، ومحاربة أهلها، وفي هذا المدخل أود التنبيه على أن بعض المتمسكين بأذيال المنهج الباطني سلكوا المسلك نفسه فاتهموا العلماء بافتعال أقوال وبدع لا وجود لها !! ثم طعنوا في نواياهم، ورموهم بأنهم يفعلون ذلك لإشغال الأمة، وإيهام الناس أنهم أنصار الدين وحماته !!! .

يقول أحدهم :

(يسأل الشباب ولا من يجيب عن أسباب الخواء الروحي، وضعف الإيمان؛ لأن الذين ينتظر منهم أن يجيبوا عن الأسئلة الحائرة (هكذا) منهمكون في مطاردة البدع وتكفير المسلمين !!! يختلقون البدع جهلا، أو ضيق عطن، فينازلون خيالات صنعوها ليوهموا أنفسهم والناس أنهم حماة الدين !!)[1].

ويشبه هذا محاولة بعض الرافضة المعاصرين إنكار وجود فرق الشيعة الغالية قائلا :

(لا أحسب أن في رقعة الأرض منهم اليوم نافخ ضرمة)[2] .

فلا شيء أغرب في هذا العصر من محاولة هؤلاء المساكين مكابرة العقول والاستخفاف بالعقلاء، وسعيهم في تضليل الأمة، وذلك بإنكار الحقائق الثابتة !!

وعليه فكما بينت أن أصول العقلانيين لم تمت بموت أهلها، كذلك أود أن أبين أن أصول المنهج الباطني لاتزال إلى يوم الناس هذا تجد رواجا، وأن لها أنصارها وحماتها !!

---

(١) قاله المسمى عبد السلام ياسين المغربي في كتابه الإحسان (١١٨/١) .

(٢) قاله محمد حسين آل كاشف الغطا في كتابه أصل الشيعة وأصولها ص : (٣٢) .

وفيما يلي ذكر ما يدل على ذلك :

١/ مما لا يجادل فيه أحد من المنصفين أن الرافضة المعاصرين لم يحدثوا على أصول أسلافهم أي تغيير، بل ضموا إليها كثيرا من أصول الغلاة وجعلوها من ضرورات مذهبهم، حتى قال أحد الباحثين :

(إن التشيع الحالي قد استوعب خلاصة الاتجاهات الشيعية بكل ما فيها من غلو وتطرف، حتى رأينا النزعة السبئية بكل غلوها في علي تطل علينا من خلال روايات الاثني عشرية، يدرك هذا من راجع مجرد عناوين أبواب الكافي والبحار .

كما أن الاتجاه الباطني واضح في كتب الاثني عشرية من خلال تأويلهم لآيات القرآن وأركان الإسلام، وما قالوه في التقية والكتمان .

فأصبحت الاثنا عشرية هي المصب الأخير لكل الروافد الشيعية بكل ما فيها من شطحات، ويجد كل صاحب غلو وتطرف بغيته وما يؤيد مذهبه في كتب هذه الطائفة)[1] .

٢/ أن وجود الإسماعيلية وكذا باقي فرق الباطنية لا يجادل فيه إلا جاهل أو مبطل، وقد نشط كثير من إسماعيلية العصر في نشر تراثهم المأفون أكثر من أي وقت مضى، وبذلوا قصارى جهدهم لإخراجه من سراديب السرية والكتمان، كما لا ينال المعاصرون من الإسماعيلية يتمسكون بأصول أسلافهم، ويطبقون تعاليم أئمتهم السابقين تطبيقا حرفيا .

٣/ أما الصوفية فقد طبقت الأرض، وملأت فرقها أرجاء العالم الإسلامي، حتى لا تكاد بلاد من بلاد المسلمين — إلا ما رحم الله - تخلو من فرق شتى تنتحل التصوف، وتتبنى أفكار الصوفية .

---

(١) قاله الدكتور ناصر بن عبد الله القفاري في كتابه أصول مذهب الشيعة الإمامية (٣/٩٨١) .

إذا ثبت هذا وعلم أن الأصول التي رضيها المتأخرون وتمسكوا بها هي التي أصلها أئمتهم المتقدمون فلا فائدة في تكرار الكلام عليها؛ لذا سأقتصر فيما يلي على ذكر بعض أصول تلك الفرق التي تبناها من يتزعم الدعوة، وينتسب إلى السنة :

أولا : من الأصول التي وجدت عند بعض الدعوات المعاصرة وأخذوها من أرباب المنهج الباطني طاعة الكبير في الجماعة طاعة عمياء، والتسليم لأوامره، وإسلاس القياد له .

يقول حسن البنا :

(نظام الدعوة في هذا الطور صوفي بحت من الناحية الروحية، وعسكري بحت من الناحية العملية، وشعار هاتين الناحيتين دائما أمر وطاعة من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج)[1] .

ويقول آخر :

(إن التسليم لغير المرشد الكامل والالتزام المطلق بغير جماعة المسلمين وإمامهم خطآن كبيران ...)[2] .

وقصده بجماعة المسلمين وإمامهم جماعته التي ينتمي إليها كما يدل على ذلك تتمة كلامه !!

ثانيا : تقديس المناهج الصوفية وتبني كثير من أفكارهم .

يقول أحدهم :

(إنه بدون الاستفادة من التجربة الصوفية قد لا نستطيع أن نعالج الكثير من أمراض النفس التي عقدتها مسيرة الحياة وطبيعة العصر)[3] .

وهذا الكلام يلزم منه إما الطعن في كمال الدين؛ أو الجهل بما اشتمل عليه الدين الصحيح من الحلول لمشاكل العصر المعقدة، فبحمد الله وفضله يوجد في كتاب

---

(١) في آفاق التعاليم ص : (٦٦) .

(٢) قاله سعيد حوى في كتابه تربيتنا الروحية ص : (٢٣٩-٢٤٠) .

(٣) قاله سعيد حوى في كتابه تربيتنا الروحية ص : (٢٠) .

الله وسنة رسوله ﷺ ما يغني المسلمين عن التجربة الصوفية وغير الصوفية، وما على المسلمين إلا الاتباع وترك الابتداع .

ومن أقبح أفكار الصوفية التي تبناها بعضهم الغلو في الأولياء إلى حد القول بعصمتهم !!

يقول أحدهم :

(إن إسلاس القياد لولي مرشد يدلك على الطريق شرط في السلوك، وما كان لولي أن يأمر إلا بالحق)[1] .

ثالثا : الإعجاب بالرافضة والدفاع عنهم، بل والثناء عليهم والاقتناع ببعض أصولهم، وادعاء الكثيرين بأن الخلاف بين أهل السنة والرافضة خلاف تاريخي لا يمس أصول الإسلام .

يقول أحدهم :

(إن الصدام التاريخي فرق بين شقي الأمة : سنة وجماعة في جهة، وهم جسم الأمة وكلها، وشيعة، وهم عضو منها !! يحاول بعض أهل الغرة تكفيرهم ونبذهم وكأنهم دخيل على الأمة)[2] .

رابعا : من بدع الباطنية التي تسللت إلى بعض من ينتسب إلى الدعوة تقسيم الدين إلى قشور ولباب .

يقول أحدهم :

(شرع أنصاف وأعشار المتعلمين يتصدرون القافلة ويثيرون الفتن بدل إطفائها، وانتشر الفقه البدوي، والتصور الطفولي للعقائد والشرائع !!! وقد حاولت في " كتابي دستور الوحدة الثقافية " أن أوقف هذا الانحدار !!بيد أن الأمر يحتاج إلى جهود متضافرة وسياسة علمية محكمة .

---

(١) قاله عبد السلام ياسين في كتابه الإحسان (٥٢/١) .

(٢) المصدر السابق (١٠٠٦/١) .

وفي هذا الكتاب جرعة قد تكون مرة للفتيان الذين يتناولون كتب الحديث النبوية، ثم يحسبون أنهم أحاطوا بالإسلام علما بعد قراءة عابرة أو عميقة، ولعل فيه درسا لشيوخ يحاربون الفقه المذهبي لحساب سلفية مزعومة عرفت من الإسلام قشوره ونسيت جذوره)[1] .

(١) قاله الغزالي في كتابه السنة النبوية ص : (١١) .

خاتمة

الخاتمة

لعل الصفحات السابقة أبانت عن أمور عدة، أود أن أشير في هذه الخاتمة إلى أهمها حتى يكون ذلك عونا على تذكرها، وسأجملها في النقاط التالية :

١/ بينت –بحمد الله وتوفيقه– أن كمال الدين نعمة عظيمة اختص الله بها هذه الأمة من بين سائر الأمم .

٢/ يعد الإيمان بكمال الدين أصلا عظيما من أصول الاعتقاد، وقد ورد في تقريره أدلة كثيرة من الكتاب والسنة والآثار السلفية، حتى صار عند السلف من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، يكفر من أنكره وجحده .

٣/ أن الإيمان بكمال الدين لا يكون إلا بالإيمان بثلاثة أمور :

(أ) أنه كمل من حيث التنزيل، أي أن الله جل وعلا أنزله كاملا على رسوله ﷺ، فلا مطمع لأحد في خبر السماء بعد رسول الله ﷺ .

(ب) أن النبي ﷺ بلغه كما أمره ربه كاملا و لم يكتم منه قليلا ولا كثيرا، بل بلغ ألفاظه ومعانيه إلى جميع الأمة و لم يفرق في ذلك بين ذكي وبليد، ولا بين قريب وبعيد .

وعليه فمن زعم أن النبي ﷺ خص بعض الصحابة ببعض الأحكام التي تحتاجها الأمة في صلاح دينها أو دنياها فقد اتهم النبي ﷺ بالكتمان، والدين بالنقصان .

(ج) أن الدين وصل إلينا كاملا، وأن الله جل وعلا تولى حفظه بنفسه، وهيأ لذلك عوامل عدة، أسهمت في حفظ الكتاب والسنة .

٤/ أن من مظاهر كمال الدين اشتماله على جميع ما يحتاجه الناس لصـــلاح دينهم ودنياهم، فقد اشتمل على العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، وجميع أســـباب الفلاح والسعادة .

٥/ أن سلف الأمة رسخ اعتقاد كمال الدين في قلوبهم؛ لذا حرصوا على دفـع كل ما يقدح في ذلك، فوقفوا من البدع موقف الرافض، كما وقفوا من أهلها موقـف العدو المحارب .

٦/ أن جميع البدع يلزم منها الطعن في كمال الدين، وأن الأصول التي أصلـها المبتدعة لتقرير بدعهم مما خرموا به قاعدة كمال الدين .

٧/ أن من أهل البدع من يصرح باتهام الدين بالقصور والنقصان، وفيما يلـي الإشارة إلى شيء من هذا :

(أ) يرى الفلاسفة أن الدين لم يشتمل على العلوم الدقيقة التي تناسب عقـول أهل الذكاء والفطنة !! ويصرحون بأنه يعتمد أسلوب التخييل والإقناع العاطفي، وأنه عري من الأدلة العقلية البرهانية !!! .

(ب) يرى بعض أهل الكلام أن الأدلة الشرعية لا تثلج الصدور، ولا تفيـد اليقين، كما يرون أن ثمت مسائل من أصول الدين لا يمكن معرفتها إلا من جهة العقل وحده ولا تستفاد من الشرع !!!

(ج) يصرح الرافضة بعدم كمال الدين على النحو الذي ذكرته سابقا؛ فـهم يعتقدون أن النبي ﷺ خص أئمة أهل البيت بعلوم كثيرة لا توجد عند غـيرهم، وأن الدين لا يكمل إلا بخروج آخرهم، وهو المهدي عندهم، كما صرح بعضـهم بـأن المسألة التي يكمل بها الدين عندهم وهي مسألة الإمامة لم يبينها النبي ﷺ و لم يبـذل المساعي الكافية في ذلك !!!

(د) صرح بعض الصوفية أن الدين وإن كمل من عند الله، وبلغه النـــبي ﷺ كاملا إلا أنه لم يصلنا كاملا؛ لأن الصحابة نسوا أشياء كثيرة ، وكتموا أمورا عـــدة رأوا المصلحة في كتمانها !!!

(هـــ) صرح الإسماعيلية بأن المراد بكمال الدين هو انتهاء مهمة النـــبي ﷺ بإقامة وصيه علي بن أبي طالب يوم غدير خم، كما صرحوا بأن النبي ﷺ لم يـأت إلا بالشريعة، أوعلم الظاهر، أما التأويل والحقائق الباطنية فهي من اختصاص الأئمة !!!

٨/ بينت أن كثيرا من أصول أهل البدع القديمة لا تزال رائجة إلى اليوم عنـــد كثير من الفرق، فهي لم تمت بموت مؤصليها، و لم تندثر بذهاب واضعيها .

هذا ما أردت أن أشير إليه إشارة مقتضبة في هذه الخاتمة، وأحمـــد الله الـــذي وفقني لإكمال هذا البحث، فله الحمد والشكر من قبل ومن بعد، كما أسأله أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وصلى الله على رسول الله وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين .

الفهارس العلمية العامة

فهرست الآيات القرآنية:

نص الآية	رقمها	الصفحة
سورة الفاتحة		
اهدنا الصراط المستقيم ...	٦-٧	٢٥٠
سورة البقرة		
ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ...	٧٨	٢٢٨
وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ...	١٢٧	١٧
يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ...	١٨٥	٢٣٩
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ...	١٩٣	٢٤
كان الناس أمة واحدة فبعث الله ...	٢١١	١٠٣
قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ...	٢١٩	٢٥٦
ومن يتعد حدود الله فأولئك هم ...	٢٢٩	١٠٠
لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ...	٢٨٦	٢٣٩
سورة آل عمران		
هو الذي أنزل عليك الكتاب	٧	٤٣٠
فإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ...	٢٠	١١٢
قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ...	٣١	٢٥٣
يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ...	١٠٢	١
واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم ...	١٥٣	٣٩
كنتم خير أمة أخرجت للناس ...	١١٠	٤٩٣
وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل	١٤٤	٤٩٠

سورة النساء		
يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم ...	١	١
وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى	٣	٤٧٧
فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله ...	٥٩	٩٥
فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك ...	٦٥	٣٥١، ٥٧
أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من غير الله ...	٨٢	١٣٠
ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى...	١١٥	٢٨٣،١٦٦،١٥٧،٥٧
لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل	١٦٥	٧١
يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ...	١٧٤	٢٦٤
سورة المائدة		
اليوم أكملت لكم دينكم ...	٣	٣، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٦٥، ٩١، ٩٥، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ٣١٧، ٥٦٥
ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ...	٦	٢٣٩
كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ...	٨	٢٨٠
يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا ...	١٩	١٢٧
يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ...	٦٧	١٢٢،١٠٨
ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ...	٨٧	٢٤٤
وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ...	٩٢	١١٣
ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ...	٩٣	٥٨٥
سورة الأنعام		
وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ...	٢٥	٣٨٥

وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ...	٣٦	٦٦
وما من دابة في الأرض ولا طائر ...	٣٨	٦٤،٦٥
وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين ...	١١٢	٣١٦
وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ...	١٥	٥٣،٧٢
وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ...	١٥٣	٨٨
سورة الأعراف		
فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن ...	٦	١٠٤
قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ...	٣٢	٢٤٤
قل إنما حرم ربي الفواحش ...	٣٣	٥٠٨
ثم استوى على العرش	٥٤	٤٣٧
ألا له الخلق والأمر تبارك الله ...	٥٤	٦٧
يا قوم ليس بي ضلالة ولكني ...	٦١	١٠٤
يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ...	٧٩	١٠٥
يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ...	٩٣	١٠٥
ولما جاء موسى لميقاتنا ...	١٤٣	٤٣٧
الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ...	١٥٧	٢٦١،٢٦٤
لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم ...	١٦٤	٢٨١
سورة الأنفال		
لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم	٦٣	٤٠
سورة التوبة		
يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ...	٣٢	١٧٢
منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ...	٣٦	٢٢
وقالوا لا تنفروا في الحر ...	٨١	٢٤٣

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ...	١٠٠	١٥٩
وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم ...	١١٥	٢٨٢،٧١
ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولانصب ...	١٢٠	٢٤١
لقد جاءكم رسول من أنفسكم ...	١٢٨	٢٨٨،٢٦١
سورة يونس		
يا أيها الناس قد جاءكم موعظة ...	٥٧	٢٦٣
سورة يوسف		
إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ...	٢	١٣١
ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ...	٧٦	٢٣
ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي ...	١١١	٧٠
سورة الرعد		
وإما نرينك بعض الذي نعدهم ...	٤٠	١١٣
والله يحكم لا معقب لحكمه	٤١	٣٥١
سورة الحجر		
إنا نحن نزلنا الذكر ونا له لحافظون ...	٩	١٩٥،١٩٤،١٧٣،١١٣
سورة النحل		
وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها	١٨	٢
فأتى الله بنيانهم من القواعد ...	٢٦	١٨
فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ...	٣٥	١٠٤
ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ...	٣٦	١٠٣
وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ...	٤٤	١٦٧،٦٤،١٢٨
وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم ...	٦٤	١٢٦
فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ...	٨٢	١١٣

ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ...	٨٩	١٥٣،٦٤،٥٦
ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ...	١٠٣	٨٢
ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ...	١٢٥	٢٨٩
سورة الإسراء		
إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ...	٥	٢٦٠
وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ...	١٥	٢٨٢
وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبينك ...	٤٥	٢٨٤
وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ...	٦٠	١١١
وننـــزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة ...	٨٢	٢٦٢
قل الروح من أمر ربي ...	٨٥	٥٧٢
قل لئن اجتمعت الإنس والجن ...	٨٨	١٩٣
وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس ...	١٠٦	١٧٩
سورة الكهف		
فلعلك باخع نفسك على آثارهم ...	٦	٧٥
فمن كان يرجو لقاء ربه ...	١١٠	٢٣٨
سورة مريم		
فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ...	٦٥	٢٤١
سورة طه		
إني أنا ربك فاخلع نعليك ...	١٢	٥٧٨
ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ...	٤٥	١١٠
ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى ...	١١٣	١٧٦
سورة الأنبياء		
يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب	١٠٤	٥٧٢

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين	١٠٧	٢٦١
سورة المؤمنون		
أفلم يدبروا القول ...	٦٨	١٣٠
سورة النور		
ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة..	٢٩	٥٨٥
والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة...	٣٩	٢٣٨
وإن تطيعوه تهتدوا ...	٥٤	٧٨
فليحذر الذين يخالفون عن أمره ...	٦٣	٢٣٣،٢٣٢
سورة الفرقان		
وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ...	٥	٨٢
وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه ...	٢٣	٢٣٨
وكفى بربك هاديا ونصيرا .	٣٨	٢٩١
وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة ...	٣٢	١٨٠،١٧٩
سورة الشعراء		
لئن اتخذت إلها غيري ...	٢٩	٥٧٢
سورة النمل		
إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل ...	٧٦	٢٦٢
سورة القصص		
ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم ...	٦٥	١٠٤
سورة العنكبوت		
وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ...	٥٠	٦٧
سورة الروم		
يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ...	٧	٥٢٥

سورة السجدة		
وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا ...	٢٤	١٦١
سورة الأحزاب		
وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت ...	٣٧	١٢٢
الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ...	٣٩	١٠٥
يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ...	٧٠-٧١	٢
سورة سبأ		
ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل ...	٦	١٣٧،١٣٨
سورة فاطر		
ومكر أولئك هو يبور ...	١٠	١٧٢
وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ...	٢٤	١٠٣
ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ...	٤٣	١٧٢
سورة ص		
كتاب أنزلناه إليك ليدبروا آياته ...	٣٩	١٣٠
سورة الزمر		
قرآنا عربيا غير ذي عوج ...	٢٨	١٥٣
والسموات مطويات بيمينه	٦٧	٥٨٢
سورة فصلت		
حم تنـــزيل من الرحمن الرحيم ...	١ - ٢	٢٦٢
وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل ...	٤١	١٧٤
سورة الشورى		
شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ...	٢١	١٠٠

قل لا اسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى	٢٣	٥٧٩
وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ...	٥٢	٢٦٤
سورة الزخرف		
حم والكتاب المبين ...	١ — ٢	٥٦
إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ...	٣	١٣١،١٥٣
بل متعت هؤلاء وآباءهم ...	١٩	١٢٧
سورة الدخان		
أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ...	١٣	١٢٦
سورة الأحقاف		
ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ...	٢٦	٢٧٨
سورة محمد		
ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا ...	١٦	١٣٧
أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ...	٢٤	١٣٠
إن الذين ارتدوا على أدبارهم ...	٢٥	٤٩٠
سورة الفتح		
هو الذي أرسل رسوله بالهدى ...	٢٨	٢٢٠
محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ..	٢٩	٣٣٥
سورة الذاريات		
كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول ...	٥٢- ٥٣	٣٧٧
فتول عنهم فما أنت بملوم ...	٥٤	١٠٧،١٠٨
وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ...	٥٦	١٠٣

سورة النجم		
والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم ...	١ — ٢	١٦١
وإن الظن لا يغني من الحق شيئا	٢٨	٣٩٥
وأن إلى ربك المنتهى	٤٢	٥٨٥
سورة القمر		
ولقد يسرنا القرآن للذكر ...	١٧	١٩٢
سورة المجادلة		
أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون	٢٢	٢١١
سورة الحشر		
وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا	٧	٥٦،٦٤
سورة الصف		
يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ...	٢ - ٣	١٢١
سورة نوح		
رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا ...	٥ — ٩	١٠٥
سورة الجن		
عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ...	٢٦	١١٠
سورة القيامة		
لا تحرك به لسانك لتعجل به ...	١٦- ١٩	١٧٦،١٧٧
سورة الإنسان		
فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة ...	١١	١٩٦
سورة النازعات		
قال أنا ربكم الأعلى	٢٤	٥٧٢

سورة المطففين		
تعرف في وجوههم نضرت النعيم ...	٢٤	١٩٦
سورة الأعلى		
قد أفلح من تزكى ...	١٤	٢٣٠
سورة الغاشية		
وجوه يومئذ خاشعة ...	٣	٣٣٨
سورة الشمس		
قد أفلح من زكاها ...	٩	٢٣٠
سورة البينة		
لم يكن الذين كفروا	١	٤٧٨
سورة التكاثر		
لتسئلن يومئذ عن النعيم ...	٨	٢٤٦
سورة العصر		
والعصر إن الإنسان لفي خسر ...	١ - ٣	٢١٨
سورة النصر		
والعصر إن الإنسان لفي خسر ...	١ — ٣	١١٤

فهرست الأحاديث النبوية

لفظ الحديث	الصفحة
أتدرون أي يوم هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم	١١٧
اتقي الله واصبري فإنه نعم السلف أنا لك	٤٣
أجرك على قدر نصبك	٢٤٠
أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة	٢٤٢
إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له	٢٠٤
استأذن رجل على رسول الله ﷺ	٣٠٧
أما بعد فإن خير الحديث	٢٩٤،٩٢
أما بعد فما بال العامل نستعمله	١١٦
أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب	٨١
إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا	٢٣٢
أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجال منكم	٩٢
إن بني إسرائيل تمزقوا على ثنتين وسبعين	١٦٢
أنتم الذين قلتم كذا وكذا ،...،فمن رغب عن سنتي	٢٣٢
إن العلماء ورثة الأنبياء	٢٨٨
إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين ...	١٨٥
إنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين	٢٤١
إنما مثلي ومثل أمتي	٢٨٨
إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه	٧٤

أي هؤلاء أكثر أخذا للقرآن	١٨٥
بعثت بجوامع الكلم	٦٣
بلغوا عني ولو آية	١٢٠
حولها ندندن	٥٥٢
خيركم من تعلم القرآن وعلمه	١٨٢
خير الناس قرني ثم الذين يلونهم	٣٧
الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له	١٨٣
ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق	٣١١
قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها	٨٩
قد زوجتكها بما معك من القرآن	١٨٥
كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع	١٩٧
الكفارات إسباغ الوضوء على المكاره	٢٤٣
كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى	٧٨
الكيس من دان نفسه	٢٢
لا ألفين أحدكم يوم القيامة	١١٥
لا تكتبوا عني، فمن كتب عني غير القرآن	١٧٨
لا حسد إلا على اثنتين	١٨٣
لقد ظننت يا أبا هريرة	٢٠١
لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون ...	٨٥
اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع	٢٥٢
اللهم هل بلغت	١١٦
لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك	٢٤٠
ليبلغ الشاهد الغائب	١٢٠،١٩٦

ليس من البر الصيام في السفر	٢٤٠
ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله	١٣٢
ما أحد أحب إليه العذر من الله	٢٨٢
ما بال دعوى الجاهلية	٤٦
ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد عن النار ...	٢٣١،٧٧
ما تركت شيئا مما أمركم الله به	٧٨
ما من رجل يحفظ علما فيكتمه	١٢١
ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات	١٧٦
مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم ...	٢٥١
مروه فليجلس	٢٤٣
من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد	٣١١
من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه	٩٢
من أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله	٢٩٥
من حدث عني بحديث يرى أنه كذب	١٩٧
من عمل عملا ليس عليه أمرنا	٢٣١
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر	٢٤٤
من كذب علي متعمدا فليتبوأ	٢٠٢،١٩٧
من كنت مولاه فعلي مولاه	٥٦٤
نضر الله امرء سمع مقالتي	١٩٦،١٢٠
هذا سبيل الله مستقيما	٨٨
هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد	٢٤٢
يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون ...	٢٤٧
يا عبد الله !! ألم أخبر أنك تصوم النهار	٢٤٨

يا معشر يهود أسلموا تسلموا	١١٩
يؤم القوم أقرأهم لكتاب الله	١٨٥
يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق ...	٢٥١
يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله	٢١٢،٢٧٧
يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا	٢٤٢
يقال لصاحب القرآن يوم القيامة : اقرأ وارقه ...	١٨٣
اليهود مغضوب عليهم	٢٥٠

فهرست الآثار :

الأثر	الراوي	الصفحة
الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ ...	أحمد بن حنبل	١٦٦
اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم	ابن مسعود ﷺ	٩٧
اتقوا الله يا معشر القراء وخذوا ...	حذيفة بن اليمان ﷺ	١٦٤
أخبرهم أني بريء منهم	عبد الله بن عمر ﷺ	٣٠٣
إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فوالله لأن أخر ...	علي بن أبي طالب	٥٠٢
إذا رأيت الرجل يخبرك	ابن سيرين	١٥٢
إذا رأيت الرجل ينتقص	أبو زرعة الرازي	٤٩٤
إذا كان يأتم بمن قبله فهو إمام ...	سفيان الثوري	١٤٣
أسر إلي النبي ﷺ أن جبريل ...	فاطمة بنت رسول	١٨١
الإسناد من الدين ،ولولا الإسناد ...	ابن المبارك	٢٠٧
اصبر نفسك على السنة	الأوزاعي	١٦٥
أصحاب رسول الله ﷺ لا يقاس بهم أحد...	حماد بن أسامة	١٥٢
أصول السنة عندنا التمسك	أحمد بن حنبل	١٦٥
افتخر الحيان الأوس والخزرج ...	أنس بن مالك ﷺ	١٨٨
أما إني لم أفارقه	الزبير بن العوام ﷺ	٢٠٢
إن أبغض الأمور إلى الله تعالى البدع...	ابن عباس ﷺ	٢٩٥
انطلق بنا إلى أم أيمن	أبو بكر ﷺ	٥٣٧
إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه ...	عبد الله بن مسعود	١٤٣

إن الله تعالى ذكره لم يدع شيئا أن يبينه لكم ...	عبيد بن عمير	٩٨
إنما أخشى من ربي يوم القيامة	أبو الدرداء ﷺ	٢٥٢
إنما العلم بالآثار	سفيان الثوري	٢٢٣
أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ...	أنس بن مالك ﷺ	٢٠٠
أن النبي ﷺ كان يحدث حديثا لو عده ...	عائشة رضي الله عنها	٢٠٠
إن هذا العلم دين فانظروا ...	محمد بن سيرين	٢١٠
إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثا كثيرا ...	أنس بن مالك ﷺ	٢٠٣
إني أخشى عليك الفتنة	مالك بن أنس	٢٣٣
إني لأحسب عمر قد ذهب بتسعة أعشار ...	عبد الله بن مسعود	١٤٨
إني لأعلم أي يوم نـــزلت هذه الآية ...	عمر بن الخطاب	٥١
أوصيك بتقوى الله عز وجل والاقتصاد ...	عمر بن عبد العزيز	١٦٤
إياكم أن تكتبوا عن أحد من أصحاب الأهواء	أحمد بن حنبل	٣٠٨
إياكم والتبدع، إياكم والتنطع ...	عبد الله بن مسعود	١٦٣
إياكم وهذه الأهواء	أبو العالية	٢٩٨
أيها الناس إنكم ستحدثون ويحدث لكم ...	عبد الله بن مسعود	١٦٣
أيها الناس إنه لا عذر لأحد بعد السنة ...	عمر بن الخطاب	٩٦
أيها الناس قد سنت لكم السنن ...	عمر بن الخطاب	٩٦
البدعة أحب إلى إبليس من المعصية	سفيان الثوري	٢٩٦
بيننا وبين القوم القوائم	ابن المبارك	٢٠٨
تركنا رسول الله وما طائر	أبو ذر الغفاري	٩٧
تعيش لها الجهابذة	ابن المبارك	٢١٢
ثلاثة احفظوهن عني	يونس بن عبيد	٣٠٨
جئتكم من عند أصحاب رسول الله	عبد الله بن عباس	١٤٩،١٥٤

حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ	عبد الرحمن السلمي	١٢٨
حكمي في أصحاب الكلام	الشافعي	٣١١
خذوا من الرأي ما يوافق من كان قبلكم ...	عمر بن عبد العزيز	١٥١
خصلتان لا يستقيم فيهما حسن الظن ...	ابن مهدي	٢١١
ذلك الذي أقعدني مقعدي هذا	عبد الرحمن السلمي	١٨٢
(الذين أوتوا العلم) الصحابة ...	ابن زيد	١٣٧
العلم بالخصومة والكلام جهل	أبو يوسف	٢٢٤،٣٤١
العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ...	الأوزاعي	٢٥٢
عرضت المصحف على ابن عباس ...	مجاهد	١٥١
العلماء أصحاب محمد ﷺ ...	مجاهد	١٥١
قام فينا رسول الله ﷺ مقاما ...	حذيفة بن اليمان	٩٧
قبض رسول الله ﷺ وقد تم هذا الأمر ...	مالك بن أنس	٩٨
كان أحب العمل إلى رسول الله ﷺ ...	عائشة ﵂	٢٤٧
كان جهم بن صفوان على معبر ترمذ...	خالد البلخي	١٤٥
كان جهم صفة بلا معنى	ابن أبي سلمة	١٤٥
كان جهم فيما بلغنا لا يعرف بفقه ولا ورع ..	البيكندي	١٤٥
كان رسول الله ﷺ أجود الناس	عبد الله بن عباس	١٨٠
كان رسول الله ﷺ عبدا مأمورا	عبد الله بن عباس	١٢٣
كان رسول الله ﷺ يعالج من التنـــزيل شدة ..	عبد الله بن عباس	١٧٧
كان سفيان الثوري يبغض اهل الأهواء	شعبة	٣٠٢
كان القراء أصحاب مجلس عمر ...	عبد الله بن عباس	١٥٠
كانوا إذا أرادوا أن يأخذوا عن الرجل ...	إبراهيم النخعي	٢١٠
كانوا -أي الصحابة- أحرص شيء ...	أبو هريرة	١٣٩

كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة...	عبد الله بن عمر	٢٩٤
كل حديث ليس فيه حدثنا وأخبرنا ...	شعبة بن الحجاج	٢٠٨
كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله...	حذيفة بن اليمان	٩٧
كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا ...	علي بن أبي طالب	٢٠٤
كنت أنا وجار لي من الأنصار نتناوب ...	عمر بن الخطاب	٢٠١
كنت في مجلس من مجالس الأنصار ...	أبو سعيد الخذري	٢٠٤
لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من أهله ...	عبد الله بن مسعود	١٤٢
لأن يبتلى المرء بكل ما نهى الله عنه ما عدا ...	الشافعي	١٢٤
لا يؤخذ هذا العلم إلا عمن شهد له ...	عبد الله بن عون	٢١٠
لبث النبي ﷺ عشر سنين	عائشة وابن عباس	١٧٩
لقد أدركت بهذا البلد —المدينة- مشيخة ...	مالك بن أنس	٢١٠
لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة ...	سلمان الفارسي	٧٩
ليس الدين بالرأي ولكنه بالسمع	عطاء بن أبي رباح	٢٢٣
ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد	محمد بن سلام	٢٠٩
ليكن الذي تعتمد عليه الأثر	ابن المبارك	٢٢٤
لو بلغني عنهم أنهم لم يجاوزوا بالوضوء ظفرا ...	إبراهيم النخعي	١٦٤
لو فكر الناس في سورة العصر لكفتهم ...	الشافعي	٢١٩
لو كان الكلام علما لتكلم فيه الصحابة ...	مالك بن أنس	٢٢٤
لو كان محمد ﷺ كاتما شيئا ...	عائشة	١٢٢
ما ازداد صاحب بدعة اجتهادا	أيوب السختياني	٢٩٦
ما أعطاكم الله خيرا خبئ عنهم	إبراهيم النخعي	١٣٩
ما أنا من شيء أخوف مني أن يدخلني النار ...	شعبة	٤٢٧
مات النبي ﷺ و لم يجمع القرآن غير أربعة...	أنس بن مالك	١٨٧

ما حدثوك عن أصحاب محمد فخذ به	الشعبي	١٦٥
ما شيء أبغض إلي من علم الكلام	الدارقطني	٢٢٤
ما جعل الله في شيء منها مثقال ذرة من خير...	النخعي	٢٩٤
ما خير رسول الله بين أمرين قط أخذ أيسرهما ..	عائشة	٢٤٠
ما كان رسول الله ﷺ يسرد	عائشة	٢٠٠
ما لم يعرفه البدريون	سعيد بن جبير	١٥١
ما نحن فيمن مضى إلا كحبة بقل	أبو عمرو بن العلاء	١٢٩
من أحدث في هذه الأمة شيئا لم يكن عليه ...	مالك بن أنس	٩٨
من حدثك أن محمدا كتم شيئا مما أنـــزل عليه..	عائشة رضي الله عنها	١٢٢
من كان متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ ...	عبد الله بن مســـعود	١٤١،١٦٣
من الله عز وجل الرسالة، ومن النبي ﷺ البلاغ	ابن شهاب الزهري	١٢٣
نعم الترجمان للقرآن ابن عباس	عبد الله بن مسعود	١٤٨
هكذا ذهاب العلم	عبد الله بن عباس	١٥٠
هكذا يفعل بالعلماء والكبراء	عبد الله بن عباس	١٥٠
هم فوقنا في كل علم واجتهاد	الشافعي	١٦٥
هي لكل مبتدع من هذه الأمة	أبو قلابة	٢٩٦
وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحي...	عبد الله بن عباس	١٤٨
والذي لا إله غيره ما نـــزلت آية ...	عبد الله بن مسعود	١٤٨
والله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا ...	أبو سفيان بن حرب	٢٠٥
وليت المظالم بمرو مدة اثنتي عشرة سنة ...	أحمد بن عمر الوكيعي	٩٩
(ويرى الذين أوتو العلم) أصحاب النبي	مجاهد	١٣٨
(ويرى الذين أوتو العلم) هم أصحاب النبي	قتادة	١٣٧
ويل للمتفقهين لغير العبادة	الأوزاعي	٢٥٣

فهرست الأعلام:

اسم العلم المترجم له	الصفحة
إبراهيم بن سيار النظام	٤٤٣
إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري	٣٦
إبراهيم محمد بن الحارث الفزاري	٢١٤
إبراهيم بن موسى الشاطبي	٥٢
إبراهيم بن يزيد النخعي	١٣٩
الآجري = محمد بن الحسين .	
أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي الجرجاني	٢٩٢
أحمد بن إسحاق الصبغي	٢٠٩
أحمد بن الحسن بن محمد البزاز	١٠٠
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني	٢٤
أحمد بن علي الخطيب البغدادي	١٥٨
أحمد بن عمر بن حفص الوكيعي	٩٩
أحمد بن فارس	١٩
أحمد بن محمد بن الحسن المعروف بابن الشرقي ...	٢١٣
أحمد بن محمد بن حنبل	٣٥
أحمد بن محمد الطحاوي	٣٥٤
أحمد بن محمد بن عمرو ابن أبي نصر (رافضي) ...	٤٧٨
أرسطو طاليس	٣٣٨

إسحاق بن إبراهيم بن راهويه	٣٦
إسحاق بن أحمد السجستاني (إسماعيلي)	٥٦٧
أسد بن الفرات	٣٠١
أسد بن موسى	٣٠١
إسماعيل بن جعفر بن محمد	٤٦٩
إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد الصابوني	٣٠٠
إسماعيل بن عمر بن كثير	٥٣
إسماعيل بن يحيى المزني	٢٩٩
الآمدي = علي بن أبي علي .	
أنس بن مالك بن النضر	٢٠٣
الأوزاعي = عبد الرحمن بن عمرو .	
أم أيمن = بركة بنت ثعلبة .	
الباجوري = إبراهيم بن محمد بن أحمد .	
البخاري = محمد بن إسماعيل .	
بركة بنت ثعلبة أم أيمن رضي الله عنها	٥٣٧
البزاز = أحمد بن الحسن بن محمد .	
البغدادي = عبد القاهر بن طاهر بن محمد .	
أبو بكر الإسماعيلي = أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل .	
البهراني = محمد بن محمد بن المفضل .	
البيكندي = محمد بن سلام .	
التناتي = حماد بن عبد الله .	
ابن تيمية = أحمد بن عبد الحليم	
الثوري = سفيان بن سعيد .	

الجاحظ = عمرو بن بحر .	
الجزري = محمد بن محمد بن محمد .	
الجعد بن درهم	٣٠٥
جعفر بن محمد بن علي (الصادق)	٤٦٩
جعفر بن محمد بن نمير الخلدي	٥٤٦
جماعة إخوان الصفا	٣٦٠
جندب بن جنادة أبو ذر الغفاري	٧٧
الجنيد بن محمد بن الجنيد	٥٤٥
جهم بن صفوان الراسبي	١٤٤
الجويني = عبد الملك بن عبد الله بن يوسف .	
الحارث بن أسد المحاسبي	٣٠٨
الحاكم = محمد بن عبد الله .	
ابن حبان = محمد بن حبان .	
الحجاج بن يوسف الثقفي	١٨٢
حذيفة بن اليمان رضي الله عنه	٩٧
ابن حزم = علي بن أحمد .	
الحسن بن أبي الحسن البصري	١٤٦
الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي	٢١٥
الحسين بن عبد الله بن الحسن ابن سينا	٣٤٠
الحسين بن علي الكرابيسي	٩٤
الحكيم الترمذي = محمد بن علي بن الحسن .	
ابن الحنفية = محمد بن علي بن أبي طالب .	
حماد بن أسامة بن زيد	١٥٢

حماد بن عبد الله التناتي الأقطع	٥٢٦
حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي	٩٩
حمران بن أعين (رافضي)	٤٨٩
خالد بن سليمان البلخي	١٤٥
ابن خزيمة = محمد بن إسحاق .	
الخطابي = حمد بن محمد .	
الخطيب البغدادي = أحمد بن علي .	
الخلدي = جعفر بن محمد .	
الخليل بن أحمد الفراهيدي	١٧
الدارقطني = علي بن عمر بن أحمد .	
الدباغ = عبد العزيز بن مسعود .	
الدقاق = نصر بن أحمد بن نصر .	
الدوري = عباس بن محمد بن حاتم .	
أبو ذر الغفاري = جندب بن جنادة .	
الذهبي = محمد بن أحمد بن عثمان .	
الرامهرمزي = الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد .	
ابن راهويه = إسحاق بن إبراهيم بن مخلد .	
ابن رجب = عبد الرحمن بن أحمد .	
ابن رشد الحفيد = محمد بن أحمد بن محمد .	
زبان بن العلاء أبو عمرو المقرئ	١٢٩
أبو زرعة الرازي = عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد .	
زياد بن معاوية النابغة الذبياني	٢٠
زيد بن ثابت الضحاك	١٤٧

زيد بن علي بن الحسين	٤٦٦
زيد بن وهب الجهني	٤٢٨
سعد بن مالك بن سنان أبو سعيد الخدري	٢٠٣
ابن سعدي = عبد الرحمن بن ناصر .	
سعيد بن جبير بن هشام	١٥١
السفاريني = محمد بن أحمد بن سالم .	
سفيان بن سعيد الثوري	١٤٣
سلمان الفارسي ﷺ	٧٩
السلمي = عبد الله بن حبيب .	
سمرة بن جندب	٤٤٣
السمرقندي = نصر بن محمد .	
ابن سينا = الحسين بن عبد الله بن الحسن .	
الشاطبي = إبراهيم بن موسى بن محمد .	
الشافعي = محمد بن إدريس .	
أبو شامة المقدسي = عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم .	
ابن الشرقي = أحمد بن محمد بن الحسن .	
شعبة بن الحجاج بن الورد	٢٠٨
الشعبي = عامر بن شراحيل .	
الشعراني = عبد الوهاب بن أحمد بن علي .	
الشهرستاني = محمد بن عبد الكريم بن أحمد .	
الصابوني = إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد .	
الصالحي = محمد بن مسلم .	
الصبغي = أحمد بن إسحاق .	

صبيغ بن عسل	٣١١
صخر بن حرب بن أمية أبو سفيان ﷺ	٢٠٥
ابن الصلاح = عثمان بن صلاح الدين .	
الطحاوي = أحمد بن محمد بن سلامة .	
ابن طفيل = محمد بن عبد الملك بن محمد .	
عامر بن شراحيل الشعبي	١٥٠
عباس بن محمد بن حاتم الدوري	٥٤٦
عباس بن مرداس السلمي.....	٢٠
ابن عبد البر = يوسف بن عبد الله بن محمد .	
عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي	٣٥
عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي	٢٩٣
عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري	١٣٧
عبد الرحمن بن سعد أبو حميد الساعدي	١١٥
عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي	١٥٢
عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن أبي حاتم	١٦٦
عبد الرحمن بن مهدي بن حسان	٢١١
عبد الرحمن بن ناصر السعدي	٥٤
عبد الرحمن بن يحيى المعلمي	١٩٥
عبد العزيز بن أبي سلمة	١٤٥
عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم	٢٥٥
عبد العزيز بن مسعود الدباغ	٥٣١
عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي	٤٠
عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري ...	٥٣٠

عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل	٤٦٥
عبد الله بن أبي زيد القيرواني	١٦٧
عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة	٣٠٩
عبد الله بن حبيب أبو عبد الرحمن السلمي	١٢٨
عبد الله بن عباس ﷺ	٦٥
عبد الله بن عدي بن عبد الله الجرجاني	٢٠٢
عبد الله بن عمرو بن العاص	٧٤
عبد الله بن عون	٢١٠
عبد الله بن محمد الهروي	١٠٠
عبد الله بن مسعود ﷺ	٨٨
عبد الله بن مسلم بن قتيبة	١٨٦
عبد الملك بن عبد الله الجويني	٤١٧
عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني	٤٦٧
عبيد بن عمير بن قتادة	٩٨
عبيد الله بن عبد الكريم أبو زرعة الرازي	٣٠٨
عثمان بن صلاح الدين الشهرزوري	٢٢٥
ابن عدي = عبد الله بن عدي بن عبد الله .	
العرباض بن سارية رضي الله عنه	٨٩
ابن العربي الصوفي = محمد بن عبد الله بن محمد .	
ابن عربي الحاتمي = محمد بن علي بن محمد .	
العز بن عبد السلام = عبد العزيز بن عبد السلام .	
ابن أبي العز = علي بن علي بن محمد .	
عطاء بن أبي رباح	٢٢٣

عقبة بن عمرو بن ثعلبة	١٨٥
العلاف = محمد بن الهذيل بن عبيد الله .	
علي بن أبي علي الآمدي	٣٧٢
علي بن أحمد بن سعيد بن حزم	٩٩
علي بن أحمد بن محمد الواحدي	٦٠
علي بن إسماعيل أبو الحسن الأشعري	٤٢
علي بن عقيل الحنبلي	٣٥٨
علي بن علي بن محمد بن أبي العز	٥٤٣
علي بن عمر بن أحمد الدارقطني	٢١٣
عمر بن عبد العزيز بن مروان	١٥١
عمرو بن بحر الجاحظ	٤١٠
عمرو بن عبيد أبو عثمان البصري	١٤٦
عمرو بن كلثوم	٢٣
عمير بن شييم القطامي	٢٣
الغزالي = محمد بن محمد بن محمد .	
غيلان بن مسلم القدري	٣٠٥
ابن فارس = أحمد بن فارس .	
فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ	١٨١
الفزاري = إبراهيم بن محمد بن الحارث .	
الفضيل بن عياض	٢٩٩
القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي	١٧
القاضي عبد الجبار = عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار.	
قتادة بن دعامة السدوسي	١٣٧

ابن قتيبة = عبد الله بن مسلم .	
ابن قدامة المقدسي = عبد الله بن أحمد بن محمد .	
القرطبي = محمد بن أحمد .	
القشيري = عبد الكريم بن هوازن .	
القطامي = عمير بن شييم .	
القيرواني = عبد الله بن أبي زيد .	
ابن القيم = محمد بن أبي بكر .	
ابن كثير = إسماعيل بن عمر .	
الكرابيسي = الحسن بن علي .	
كعب بن مالك ﷺ	٣٠٣
الكليني = محمد بن يعقوب بن إسحاق .	
اللالكائي = هبة الله بن الحسن بن منصور .	
المازري = محمد بن علي .	
المجلسي = محمد بن باقر .	
محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم	٢٦
محمد بن باقر المجلسي (رافضي)	٤٨٠
محمد بن أحمد ابن رشد الحفيد	٣٥٨
محمد بن أحمد بن سالم السفاريني	٣٦
محمد بن أحمد بن عبد الهادي	١٦٨
محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي	٤٤
محمد بن أحمد القرطبي	٢٦
محمد بن إدريس الشافعي	٣٥
محمد بن إسحاق بن خزيمة	٢١٣

محمد بن إسماعيل البخاري	٥٧
محمد الأمين الشنقيطي	٢٦٥
محمد بن جرير الطبري	٥٢
محمد بن حبان البستي	٢٠٨
محمد بن الحسين الآجري	١٤٠
محمد رشيد رضا	١١٢
محمد بن سلام البيكندي	١٤٥
محمد بن سلام البلخي	٢٠٩
محمد بن سيرين	١٤٦
محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني ...	٣٤٢
محمد بن عبد الله الحاكم	١٦٧
محمد بن عبد الله ابن العربي المالكي	٤١٢
محمد بن عبد الملك بن طفيل	٤٠٧
محمد بن عبد الوهاب التيمي	٢٨٤
محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية)	٤٨٦
محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي	٥٤١
محمد بن علي بن الحسين (الباقر)	٤٨٩
محمد بن علي المازري	١٨٩
محمد بن علي بن محمد ابن عربي الحاتمي	٥٢٥
محمد بن عمر بن الحسين الفخر الرازي ...	٦٦
محمد الطاهر بن عاشور	٢٧
محمد بن محمد بن أحمد المقري	٢٨٦
محمد بن محمد بن محمد الجزري	٤٦

محمد بن محمد بن محمد الغزالي	٣٦
محمد بن محمد بن المفضل البهراني	٤٥
محمد بن مفلح الحنبلي	٢٤٥
محمد بن الهذيل العلاف (معتزلي)	٤٢٢
محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني (رافضي)...	٤٨٣
المزني = إسماعيل بن يحيى .	
المعلمي = عبد الرحمن بن يحيى .	
ابن مفلح = محمد بن مفلح .	
المقري = محمد بن محمد بن أحمد .	
موسى بن جعفر بن محمد الكاظم	٤٦٩
ميمون بن قيس المعروف بالأعشى ...	٢٢
النابغة الذبياني = زياد بن معاوية .	
نصر بن أحمد بن نصر الدقاق	٥٤٦
نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي ...	٥٩
النظام = إبراهيم بن سيار .	
النعمان بن محمد بن منصور (إسماعيلي) ...	٥٦٦
نعمة الله بن عبد الله الجزائري (رافضي) ...	٤٧٩
النووي = يحيى بن شرف .	
هارون الرشيد بن محمد بن جعفر	٢١٣
هبة الله بن الحسن اللالكائي	٤١٢
الواحدي = علي بن أحمد بن محمد .	
واصل بن عطاء الغزال	١٤٦
الوكيعي = أحمد بن عمر .	

يحيى بن شرف النووي	٧٩
يعقوب بن إبراهيم بن حبيب أبو يوسف ...	٢٢٤
يعقوب بن إسحاق الكندي	٣٤٠
يوسف بن أسباط الشيباني	٢٨١
يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر	١٦٨
يونس بن عبيد	٢٩٧

فهرست المصطلحات والكلمات الغريبة

الكلمة أو المصطلح	رقم الصفحة
استحر	١٩٢
الاستقراء	٢٥٨
الالتزام	٦٨
البجدة (ابن بجدتها)	١٣٢
التضمن	٦٨
الجوهر	٣٥٩
الخنذيذ	١٣٢
الدين	٢١
الرقعة (الرقاع)	١٧٨
الزق	٣١٠
السفرة	١٨٣
السلف	٣٢
العرض	٣٥٩
العسب	١٧٨
العقل	٣٣٤
العقل الفعال	٣٨٣
غتمة (غتم)	٣٩٤
القاعدة	١٧
قتب (الأقتاب)	١٧٨
كتف (الأكتاف)	١٧٨

الكمال	١٩
لخفة (اللخاف)	١٧٨
المساوقة	٣٨٤
المصقع	١٣٢
المطابقة	٦٨
المنهج	٣٣٢
الناطق	٥٧٤
الناموس	٢٧٣
الهيولي	٣٧٣
الوضر (الأوضار)	٤١٢
الوضين	٢٤

فهرست الأبيات الشعرية:

صدر البيت	القافية	اسم الشاعر	ل
مضوا سلفا قصد السبيل عليهم	تقلب	طفيل الغنوي	٣٣
فحسبكم هذا التفاوت بيننا	ينضح	سعيد بن محمد	٤٢
فكملت مائة فيها حمامتها	العدد	النابغة الذبياني	٢٠
إذا الأمور اعرورت الشدائدا	القواعدا	ـــــ	١٨
وبعد فالعون من الله المجيد	تفيد	ابن عاشر	٤٤٨
نحن منعنا منبت النصي	عنبري	ـــــ	٣٢
من الناس من لفظه لؤلؤ	إذ يلفظ	أبو العلاء المعري	١٩٩
وبعضهم قوله كالحصى	ولا يحفظ	أبو العلاء المعري	١٩٩
ولاقت مناياها القرون السوالف	الخوالف	ـــــ	٣٢
يقول راجي عفو رب رؤف	السلفي	محمد بن الجزري	٤٦
لو عرجوا ساعة نسائلهم	السلف	قيس بن الخطيم	٣٢
لئن حللت بجو في بني أسد	فدك	زهير بن أبيسلمه	٢٣
في عقد الأشعري وفقه مالك	السالك	ابن عاشر	٤٤١
نهاية إقدام العقول عقال	ضلال	الفخر الرازي	٢٢٨
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	ووبال	الفخر الرازي	٢٢٨
و لم نستفد من بحثنا طول عمرنا	قالوا	الفخر الرازي	٢٢٨
هو دان الرباب إذ كرهوا الدين	صيال	الأعشى	٢٢
ثم دانت بعد الرباب وكانت	الأقوال	الأعشى	٢٢
كدينك من أم الحويرث قبلها	بمأسل	امرؤ القيس	٢٤

أرسى قواعده وشيد فرعه	سبيل	ـــــ	١٨
على أنني بعد ما قد مضى	كميلا	ابن مرداس	٢٠
واعلم يقينا أن ملكك زائل	تدان	ـــــ	٢١
رمت المقاتل من فؤادك بعدما	الأديانا	القطامي	٢٣
وأيام لنا ولهم طوال	أن ندينا	عمرو بن كلثوم	٢٣
بهن أدين من يأتي أداتي	فليدني	النابغة الذبياني	٢١
تقول إذا درأت لها وضيني	ديني	المثقب العبدي	٢٤
يوما يمان إذا لقيت ذا يمن	فعدناني	عمران بن حطان	٤٠٧
وكل نص أوهم التشبيها	تنـــزيها	إبراهيم اللقاني	٤٣٠

ثبت المصادر والمراجع

-أ-

الإبانة عن أصول الديانة :

لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ت (٣٢٤) ،تحقيق : بشير محمد عيون ، مكتبة المؤيد ،الرياض ،الطبعة الرابعة ١٤١٣ هـ .

الإبانة الصغرى المسمى بـ (الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة ومجانبة المخالفين ،ومباينة أهل الأهواء المارقين :

لابن بطة العكبري ت (٣٨٧) ،تحقيق رضا بن نعسان معطي ،المكتبة الفيصلية ، مكة .

الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية المعروف بالإبانة الكبرى:

لأبي عبدالله عبيد الله بن بطة العكبري ،دار الراية ، الرياض ،الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ .

أبجد العلوم (الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم) :

لصديق حسن خان ت (١٣٠٧) ،تحقيق زكار ،دار الكتب العلمية ،١٩٧٨ م.

الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز :

لأحمد بن مبارك ،المطبعة الأزهرية ،القاهرة ،١٣٠٦ هـ .

الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان :

لبكر بن عبد الله أبو زيد ،دار العاصمة ،الرياض ،الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ .

أبو زرعة الرازي وجهوده في السنة النبوية :

لسعدي الهاشمي ،من مطبوعات الجامعة الإسلامية ،الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ .

إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة :

لأحمد بن علي ابن حجر ت (٨٥٢) ،من مطبوعات مجمع الملك فهد ،تحقيق مجموعة من الباحثين ،الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .

اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية :

لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية ،تحقيق عواد عبد الله المعتق ،مكتبة الرشد ،الرياض ،الطبعة الثانية ، ١٤١٥ هـ .

الإحاطة في أخبار غرناطة :

لابن الخطيب ،تحقيق محمد عبد الله عنان ،دار المعارف ،مصر ،١٣١٩ هـ .

الاحتجاج على أهل اللجاج :

لأبي منصور الطبرسي ،تعليق محمد باقر الخرساني ،دار النعمان ،النجف ،١٣٨٦ هـ.

الإحسان :

لعبد السلام ياسين، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م .

أحكام القرآن :

لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ،جمعه أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ،تعليق عبد الغني عبد الخالق ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٣٩٥ هـ .

إحياء علوم الدين :

لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ت (٥٠٥) ،دار صادر .

أخلاق العلماء :

لأبي بكر الآجري ت (٣٦٠) ،مطبعة دار نشر الثقافة ،مصر .

إخوان الصفاء :

لعمر الدسوقي ،دار نهضة مصر للطبع والنشر ،الطبعة الثالثة ،بدون تاريخ .

آداب الشافعي ومناقبه :

لابن أبي حاتم ت (٣٢٧) ،تحقيق عبد الغني عبد الخالق ،مكتبة الخانجي ،القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ .

الآداب الشرعية :

لأبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي ،تحقيق : شعيب الأرنؤوط ،وعمر القيام ، مؤسسة الرسالة ،الطبعة الثانية ، ١٤١٧ هـ .

الأدب المفرد :

لمحمد بن إسماعيل البخاري ،تحقيق : سمير بن أمين الزهيري ،مكتبة المعارف ، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ .

آراء أهل المدينة الفاضلة :

لأبي نصر الفارابي ،تحقيق ألبير نصر نادر ،المطبعة الكاثوليكية ،لبنان ،الطبعة الأولى ١٩٥٩م.

إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي ﷺ :

لمحمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠) ،تحقيق مشهور حسن ،دار المنار للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل :

للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ،المكتب الإسلامي ،الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ .

أساس التقديس في علم الكلام :

لأبي عبد الله محمد فخر الدين الرازي (٦٠٦) ،تصحيح أحمد سعد علي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر،١٣٥٤هـ .

الاستقامة :

لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية ت (٧٢٨ هـ) ،تحقيق : محمد رشاد سالم ،مكتبة ابن تيمية ،القاهرة ،بدون تاريخ .

الاستيعاب في معرفة الأصحاب :

لابن عبد البر (٤٦٣) ،تحقيق علي محمد البجاوي ،مكتبة نهضة مصر .

أسد الغابة في معرفة الصحابة :

لابن الأثير ،تحقيق محمد إبراهيم البنا ،ومحمد أحمد عاشور ،دار الشعب القاهرة .

أسرار البلاغة :

لعبد القاهر الجرجاني (٤٧١) ،تحقيق محمود محمد شاكر ،نشرته دار المدني بجدة ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ .

الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة :

لمصطفى حلمي ،دار الدعوة ،الإسكندرية ،الطبعة الثالثة ،١٤٠٦ هـ .

إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين :

لعبد الباقي عبد المجيد اليماني (٧٤٣) ،تحقيق عبد المجيد دياب ،مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ،الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ .

الإشارات والتنبيهات مع شرح الطوسي :

لأبي علي ابن سينا ،تحقيق سليمان دنيا ،دار المعارف بمصر ،الطبعة الثانية ،بدون تاريخ .

الإصابة في معرفة الصحابة :

لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ،تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ،بيروت ،الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .

أصل الشيعة وأصولها :

لمحمد حسين آل كاشف الغطا ،مكتبة الثقافة الإسلامية للطبع والنشر .

إصلاح المساجد من البدع والعوائد :

لمحمد جمال الدين القاسمي ،تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ،المكتب الإسلامي ، بيروت ،الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ .

الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم في الصفات ،والرد عليها من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

لعبد القادر بن محمد عطا صوفي ،مكتبة الغرباء الأثرية ،المدينة النبوية ،الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ .

أصول السنة:

للإمام أحمد ت (٢٤١) ،رواية عبدوس العطار ،تحقيق الوليد بن محمد نبيه ،مكتبة ابن تيمية ،القاهرة ،الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .

أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية :

لناصر القفاري ،الطبعة الثانية ١٤١٥هـ .

أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن :

لمحمد الأمين الشنقيطي ت (١٣٩٣) ،مكتبة ابن تيمية ،القاهرة ،١٤١٣ هـ .

الاعتصام :

لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ت (٧٩٠) ،تحقيق : سليم بن عيد الهلالي ، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ .

اعتقاد أئمة الحديث :

لأبي بكر الإسماعيلي ت (٣٧١) ،تحقيق محمد الخميس ،دار العاصمة ،الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ .

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية :

لمصطفى صادق الرافعي ،دار الكتاب العربي بيروت ،١٤١٠ هـ .

الأعلام :

لخير الدين الزركلي ،دار العلم للملايين ،بيروت ،الطبعة الثالثة عشر ، ١٩٩٨ م .

أعلام الإسماعيلية :

لمصطفى غالب، دار اليقظة العربية، بيروت، ١٩٦٤م .

إعلام الموقعين عن رب العالمين :

لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية ،تحقيق عبد الرحمن الوكيل ،مكتبة ابن تيمية ،القاهرة .

إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان :

لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية ت (٧٥١) ، تحقيق محمد عفيفي ،المكتب الإسلامي ،الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ .

اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم :

لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية ،تحقيق : ناصر بن عبد الكريم العقل ،دار المسلم ،الرياض ،الطبعة الخامسة ، ١٤١٥ هـ .

إلجام العوام عن علم الكلام :

لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ،تحقيق : محمد المعتصم بالله البغدادي ،دار الكتاب العربي ،الطبعة الأولى ،١٤٠٦ هـ .

الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء :

لابن عبد البر (٤٦٣) ،تحقيق أبي غدة ،دار البشائر الإسلامية ،بيروت ،الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ .

الأنساب :

للسمعاني (٥٦٢) ،تحقيق عبد الرحمن المعلمي ،مطبعة دائرة المعارف العثمانية ،حيدر آباد ،الدكن ،الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ .

الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل :

لعبد الكريم الجيلي ،الطبعة الرابعة ١٩٨١ م .

الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية :

لعبد الوهاب الشعراني ،طبع بهامش الطبقات الكبرى له ،المكتبة التوفيقية بمصر .

الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة :

لعبد الرحمن المعلمي ،عالم الكتب ١٤٠٣هـ .

الأنوار النعمانية :

للجزائري ،مطبعة شركة جاب التبريز ،إيران .

أوائل المقالات في المذاهب المختارات :

للمفيد ،دار الكتاب الإسلامي ،لبنان ١٤٠٣ هـ .

إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد :

لابن الوزير اليماني ت (٨٤٠) ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ

إيضاح المكنون في الذيل على كشف الضنون :

لإسماعيل باشا ،دار الفكر ،بيروت ،مطبوع مع كشف الضنون .

-ب-

الباعث الحثيث اختصار علوم الحديث :

لأحمد شاكر (١٣٧٧) ،تعليق الألباني ،وتمم حواشيه علي الحلبي ،دار العاصمة، الرياض ،الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .

الباعث على إنكار البدع والحوادث :

لشهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل ،المعروف بأبي شامة المقدسي ،تحقيق: مشهور حسن سلمان ،دار الراية ،الرياض ،الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ .

بحار الأنوار الجامعة لدور أخيار الأئمة الأطهار :

للمجلسي ،مؤسسة الوفاء بيروت ،الطبعة الثانية ،١٤٠٣ هـ .

بحر العلوم :

لأبي الليث السمرقندي (٣٧٥) ،تحقيق علي محمد معوض ،وعادل أحمد عبد الموجود ،وزكريا عبد المجيد النوتي ،دار الكتب العلمية ،الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .

بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن :

للساعاتي (١٣٧٨) ،مكتبة الفرقان ،القاهرة ،الطبعة الثانية ،١٤٠٣ هـ .

البداية والنهاية :

لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير ت (٧٧٤)،دار أبي حيان ،القاهرة ،الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ .

بذل المجهود في إثبات مشابهة الرافضة لليهود :

لعبد الله الجميلي ،مكتبة الغرباء الأثرية ،المدينة ،الطبعة الثانية ،١٤١٤ هـ .

البرهان في أصول الفقه :

لأبي المعالي الجويني (٤٧٨) ،تحقيق : عبد العظيم الديب ، دار الوفاء ،بالمنصورة ، الطبعة الأولى ،١٤١٢ هـ .

بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد :

لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية ت (٧٢٨ هـ) ،تحقيق موسى الدويش ،مكتبة العلوم والحكم ،الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .

بغية المستفيد بشرح منية المريد :

لمحمد العربي السائح ،مطبعة البابي الحلبي ،القاهرة ،١٩٥٩ م .

بيان إعجاز القرآن :

للخطابي ت (٣٨٨) ،طبع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ،تحقيق محمد خلف ،ومحمد زغلول ،دار المعارف ،مصر ،الطبعة الثالثة .

بيان تلبيس الجهمية في تأسيسس بدعهم الكلامية أو (نقض تأسيس الجهمية) :

لابن تيمية ت (٧٢٨) ،تعليق محمد بن قاسم ،مؤسسة قرطبة للنشر والتوزيع .

البيان والتبين :

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ،تحقيق عبد السلام محمد هارون ،مكتبة الخانجي بالقاهرة ،الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ .

تاج العروس من جواهر القاموس :

للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ،تحقيق عبد الستار أحمد فراج ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت ،بدون تاريخ .

تاريخ الأدب العربي :

لصادق الرافعي ،دار الكتاب العربي ،بيروت ،الطبعة الرابعة ١٣٩٤ هـ .

تاريخ بغداد (مدينة السلام) :

للخطيب البغدادي (٤٦٣) ،دار الكتاب العربي ،بيروت .

تاريخ دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردیها وأهلها :

لابن عساكر ت (٥٧١) ،تحقيق محب الدين عمر العمري ،دار الفكر ،الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ .

تاريخ الفلسفة اليونانية :

ليوسف كرم ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ،الطبعة الرابعة، بدون تاريخ .

تأويل دعائم الإسلام المسمى : كتاب تربية المؤمنين بالتوفيق على حدود باطن علم الدين في تأويل دعائم الإسلام :

للنعمان بن محمد ت (٣٦٣) ،تحقيق محمد حسن الأعظمي ،دار المعارف بمصر .

تأويل مختلف الحديث :

لابن قتيبة الدينوري (٣٧٦) ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،الأولى ،١٤٠٥هـ .

تأويل مشكل القرآن :

لابن قتيبة (٢٧٦) ،تحقيق أحمد صقر ،المكتبة العلمية ،بيروت ،الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ .

التحصيل من المحصول :

للأرموي ،تحقيق عبد الحميد علي أبي زنيد ،مؤسسة الرسالة ،الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .

التحف في مذاهب السلف :

لمحمد بن علي الشوكاني ت (١٢٥٣) ،تحقيق سيد عاصم ،دار الصحابة للتراث ، مصر ،الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ .

تذكرة الحفاظ :

للذهبي (٧٤٨) ،دار المعارف العثمانية ،الهند .

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك :

للقاضي عياض (٥٤٤) ،حققه جماعة ،نشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب .

التسعينية :

لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية ت (٧٢٨) ،تحقيق محمد العجلان ،مكتبة المعارف ،الرياض ،الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ .

التصوف المنشأ والمصدر :

لإحسان إلهي ظهير ،إدارة ترجمان السنة ،باكستان ،الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ .

التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح :

للباجي (٤٧٤) ،تحقيق أحمد البزار ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ،المغرب .

التعريفات :

لعلي بن محمد الجرجاني (٨١٦) ،دار الكتب العلمية ،الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ .

تفسير التحرير والتنوير :

لمحمد الطاهر بن عاشور (١٣٩٣) ،الدار التونسية ،تونس ،١٩٨٤ م .

تفسير الصافي :

للكاشاني مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،بيروت ،الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ .

تفسير القرآن العظيم :

لابن كثير (٧٧٤) ،مكتبة العلوم والحكم ،المدينة ١٤١٣ هـ .

التفسير الكبير المسمى بـ (مفاتيح الغيب) :

للفخر الرازي ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت ،الطبعة الثالثة بدون تاريخ .

تفسير المنار المسمى بـ (تفسير القرآن الحكيم) :

لمحمد رشيد رضا ،دار المعرفة ،بيروت ،الطبعة الثانية .

تفسير النسفي المسمى بـ (مدارك التنـزيل وحقائق التأويل) :

لأبي البركات النسفي ت (٧١٠) ،تحقيق يوسف علي بديوي ،دار الكلم الطيب ، بيروت ،الطبعة الأولى ،١٤١٩ هـ .

التفكير الفلسفي الإسلامي :

لسليمان دنيا ،مكتبة الخانجي بمصر ،الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ .

تقديس الأشخاص في الفكر الإسلامي :

لأحمد لوح، دار الهجرة، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .

تقريب التهذيب :

لابن حجر (٨٥٢) ،تحقيق محمد عوامة ،دار ابن حزم ،الطبعة الأولى ،١٤٢٠ هـ .

تقريب الوصول إلى علم الأصول :

لابن جزي المالكي (٧٤١) ،تحقيق محمد المختار الشنقيطي ،مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، الأولى ١٤١٤ هـ .

تقييد العلم :

للخطيب البغدادي ت (٤٦٣) ،تحقيق يوسف العش ،دار الوعي حلب ،الطبعة الثالثة ١٩٨٨ م .

تلبيس إبليس :

لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ،دار الكتب العلمية ،الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ .

تلخيص الإستغاثة :

لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية ت (٧٢٨ هـ) ،تحقيق محمد علي عجال ،مكتبة الغرباء ،الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ .

تمام المنة في التعليق على فقه السنة :

للشيخ الألباني ت (١٤٢٠) ،دار الراية ،الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ .

تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل :

للباقلاني تحقيق عماد الدين أحمد حيدر ،مؤسسة الكتب الثقافية ،بيروت ،١٤٠٧هـ.

التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد :

لأبي عمرو يوسف بن عبد الله بن عبد البر ،تحقيق مجموعة من الباحثين ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ،الطبعة الثانية ،١٣٩٩ هـ .

تهافت الفلاسفة :

لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ،تحقيق سليمان دنيا ،دار المعارف ،الطبعة السابعة ، بدون تاريخ .

تهذيب الآثار وتفصيل معاني الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار :

للطبري ت (٣١٠) ،مطابع الصفا ،مكة ،١٤٠٤ هـ .

تهذيب الكمال في أسماء الرجال :

لجمال الدين أبي الحجاج المزي ،تحقيق بشار عواد ،مؤسسة الرسالة ،بيروت ،الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ .

تهذيب اللغة :

لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ،تحقيق علي حسن هلالي ومحمد علي النجار ، الدار المصرية ،مطابع سجل العرب ،القاهرة ،بدون تاريخ .

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان :

لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ،مركز صالح بن صالح الثقافي ،عنيزة ،الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ .

-ث-

الثبات عند الممات :

لابن الجوزي (٥٩٧) ،تحقيق عبد الله الليثي الأنصاري ،مؤسسة الكتب الثقافية ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ .

- ج -

جامع بيان العلم وفضله :

لابن عبد البر (٤٦٣) ،تحقيق سمير الزهيري ،دار ابن الجوزي ،الطبعة الرابعة ، ١٤١٩ هـ .

جامع البيان عن تأويل القرآن :

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠) ،مطبعة مصطفى البابي الحلبي ،مصر ، الطبعة الثالثة ،١٣٨٨ هـ .

الجامع لأحكام القرآن :

للقرطبي (٦٧١) ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت ،الطبعة الثانية .

جامع العلوم والحكم :

لابن رجب الحنبلي (٧٩٥) ،تحقيق عوض الله ،دار ابن الجوزي ،الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .

الجرح والتعديل :

لابن أبي حاتم الرازي (٣٢٧) ،تحقيق المعلمي ،دائرة المعارف ،الهند ،الطبعة الأولى .

جزء علي بن حجر عن إسماعيل بن جعفر المديني :

تحقيق عمر بن رفود السفياني ،مكتبة الرشد ،الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ .

جمهرة الأمثال :

لأبي هلال العسكري ،تحقيق محمد أبي الفضل ،وعبد المجيد قطامش ،المؤسسة العربية الحديثة ،الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ .

جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف :

لأبي الفيض المنوفي ،مطبعة المدني ،القاهرة ١٩٦٧ م .

جمهرة اللغة :

لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري ،مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ،الطبعة الأولى ،جمادى الأولى سنة ١٣٤٥ هـ .

جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية :

محمد أحمد لوح ،دار ابن عفان ،الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح :

لابن تيمية (٧٢٨) ،تحقيق مجموعة من الباحثين ،دار العاصمة ،الرياض ،الطبعة الثانية ،١٤١٩ هـ .

جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب :

لأحمد الهاشمي ،مطبعة السعادة ،مصر ،الطبعة الحادية والعشرون ١٣٨٤ هـ .

الجواهر المضية في طبقات الحنفية :

لابن أبي الوفاء الحنفي (٧٧٥) ،تحقيق عبد الفتاح الحلو ،مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ،١٣٩٨ هـ .

جواهر المعاني في فيض أبي العباس التجاني :

علي حرازم برادة ،مطبعة الحلبي القاهرة ،١٩٦٣ م .

جوهرة التوحيد :

إبراهيم اللقاني ت (١٠٤١) ،مطبعة الحلبي ،القاهرة ١٣٥٨ هـ ،معه تحفة المريد للبيجوري .

- ح -

حاشية الدسوقي على أم البراهين :

لمحمد الدسوقي ،دار إحياء الكتب العربية ،بيروت ،بدون تاريخ .

حاشية الصاوي على الجلالين :

لأحمد بن محمد الصاوي المالكي ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت ،بدون تاريخ .

الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة :

لقوام السنة الأصبهاني (٥٣٥) ،تحقيق محمد ربيع ،ومحمد أبو رحيم ،دار الراية ، الطبعة الثانية ،١٤١٩ هـ .

الحدائق في المطالب العالية الفلسفية :

لأبي محمد عبد الله بن محمد البطليوسي ت (٥٢١) ،دار الفكر ،دمشق ،الطبعة الأولى ١٩٨٨ م .

حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية :

لبكر بن عبد الله أبو زيد ،دار ابن الجوزي ،السعودية ،الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ .

الحكومة الإسلامية :

للخميني ،المكتبة الإسلامية الكبرى ،طهران .

حلية الأولياء :

لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (٤٣٠)،مطبعة السعادة ،القاهرة ،١٤١٢هـ.

الحيوان :

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥) ،تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مطبعة مصطفى بابي الحلبي ،مصر ،الطبعة الثانية ،١٣٨٥ هـ .

- خ -

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب :

لعبد القادر بن عمر البغدادي ،تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ،مكتبة الخانجي، القاهرة ،الطبعة الثالثة ،١٤٠٩ هـ .

خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل :

لمحمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦) ،تحقيق البسيوني ،مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة .

- د -

درء تعارض العقل والنقل :

لابن تيمية (٧٢٨) ،تحقيق محمد رشاد سالم ،توزيع مكتبة ابن تيمية ،القاهرة .

دراسة حديث نضر الله امرء سمع مقالتي رواية ودراية :

عبد المحسن العباد ،مطابع الرشيد ،المدينة النبوية ،الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ .

درر الغواص على فتاوى سيدي علي الخواص :

لعبد الوهاب الشعراني ،مطبوع بحاشية الإبريز .

الدرة فيما يجب اعتقاده :

لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ت (٤٥٦) ، تحقيق : أحمد بن ناصر الحمد ،وسعيد بن عبد الرحمن القزقي ،مطبعة المدني ،والمؤسسة السعودية بمصر ،الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .

الدر المنضد في ذكر أصحاب الإمام أحمد :

للعليمي الحنبلي ت (٩٢٨) ،تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ،مكتبة التوبة السعودية ،الطبعة الأولى ،١٤١٢ هـ .

دقائق التفسير :

لابن تيمية ت (٧٢٨) ،تحقيق محمد السيد الجليند ،مؤسسة علوم القرآن ،دمشق ، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ .

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب :

لابن فرحون المالكي ت (٧٩٩) ،حققه محمد بن أحمد أبو النور ،دار التراث ، القاهرة ،بدون تاريخ .

ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس :

شرحه مهدي محمد ناصر الدين ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،الطبعة الثانية ، ١٤١٣ هـ .

ديوان امرؤ القيس :

ضبطه مصطفى عبد الشافي ،دار الكتب العلمية ،بيروت

ديوان زهير بن أبي سلمى ت (١٣ ق هـ) :

تحقيق حنا نصر الحتي ،دار الكتاب العربي .

ديوان المتنبي :

شرح ناصيف اليازيجي ،دار بيروت للطباعة والنشر ،لبنان ،١٤٠٤هـ .

ديوان المثقب العبدي القيسي :

تقديم وشرح حسن حمد ،دار صادر بيروت ،١٩٩٦ م .

ديوان النابغة :

تحقيق أبي الفضل إبراهيم ،دار المعارف القاهرة ،الطبعة الثالثة ،بدون تاريخ .

- ذ -

ذم الكلام وأهله :

لأبي إسماعيل الهروي ت (٤٨١) ،تحقيق عبد الرحمن الشبل ،مكتبة العلوم والحكم ، المدينة ،الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .

وكذا الطبعة التي نشرتها مكتبة الغرباء ،بتحقيق أبي جابر الأنصاري .

ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي :

للحسين الدمشقي ت (٧٦٥) ، دائرة المعارف ،الهند .

ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي :

للسيوطي ت (٩١١) ،دائرة المعارف العثمانية ،الهند .

ذيل طبقات الحنابلة :

لابن رجب الحنبلي ت (٧٩٥) ،دار المعرفة ،بيروت .

الذيل على العبر في خبر من غبر :

لأبي زرعة العراقي ت (٨٢٦) ،تحقيق صالح مهدي عباس ،مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ .

- ر -

الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله :

للإمام أحمد ت (٢٤١) ،بعناية إسماعيل الأنصاري ،نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ،السعودية .

الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر :

لابن ناصر الدين الدمشقي ت (٨٤٢) ،تحقيق زهير الشاويش ،المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ١٤١١ هـ .

الردود :

بكر أبو زيد ،دار العاصمة ،الرياض ،الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ .

رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا :

لجماعة من الإسماعيلية الباطنية ،تقديم بطروس البستاني ،دار صادر ،بيروت .

رسائل الجاحظ :

تحقيق عبد السلام هارون ،دار الجيل ،الطبعة الأولى ،١٤١١ هـ .

الرسائل السلفية في إحياء سنة خير البرية :

للشوكاني ت (١٢٥٠) ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٣٤٨ هـ .

رسائل الكندي الفلسفية :

حققه محمد عبد الهادي أبو ريدة ،مطبعة الاعتماد ،مصر ١٣٦٩ هـ .

رسالة أضحوية في أمر المعاد :

لابن سينا ت (٤٢٨) ،تحقيق سليمان دنيا ،دار الفكر العربي ،القاهرة ،الطبعة الأولى ١٣٦٨ هـ .

الرسالة الفقهية :

لابن أبي زيد القيرواني ت (٣٨٦) ،تحقيق الهادي حمو ،ومحمد أبو الأجفان ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ،ومعها غرر المقالة في شرح غريب الرسالة لابن جماعة المغراوي .

الرسالة القشيرية :

لأبي القاسم القشيري ،تحقيق عبد الحليم محمود ،دار الكتب الحديثة ،القاهرة .

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني :

لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي ،،عنيت بنشره إدارة الطباعة المنيرية ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت ،بدون تاريخ .

الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية :

لأبي عذبة ،تحقيق عبد االرحمن عميرة ،عالم الكتب ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ .

زاد المسير في علم التفسير :

لابن الجوزي (٥٩٧) ،المكتب الإسلامي ،الطبعة الرابعة ،١٤٠٧ هـ .

زاد المعاد في هدي خير العباد :

لابن قيم الجوزية ت (٧٥١) ،تحقيق عبد القادر الأرنؤوط ،وشعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ،الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ .

الزهد :

لأحمد بن حنبل ت (٢٤١) ،تحقيق محمد جلال شرف ،دار النهضة العربية ،١٩٨١ هـ .

الزهد :

لابن المبارك ت (١٨١) ،تحقيق أحمد فريد ،دار المعراج الدولية ،الرياض ،الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .

الزهد :

لوكيع ،تحقيق الفريوائي ،مكتبة الدار ،المدينة النبوية .

السحب الوابلة على أضرحة الحنابلة :

لابن حميد ت (١٢٩٥) ،تحقيق بكر أبو زيد ،وعبد الرحمن العثيمين ،مؤسسة الرسالة ،الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .

سلسلة الأحاديث الصحيحة :

لمحمد ناصر الدين الألباني ت (١٤٢٠) ،مكتبة المعارف ،الرياض ،١٤١٥ هـ .

سلسلة الأحاديث الضعيفة :

لمحمد ناصر الدين الألباني ت (١٤٢٠) ،مكتبة المعارف ،الرياض ،الطبعة الخامسة ١٤١٢ هـ .

السنة :

لابن نصر المروزي ت (٢٩٤) ،تحقيق سالم بن أحمد السلفي ،مؤسسة الكتب الثقافية ،بيروت ،الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .

السنة :

لعبد الله بن الإمام أحمد ت (٢٩٠) تحقيق محمد سعيد القحطاني ،دار عالم الكتب ، الطبعة الرابعة ١٤١٦ هـ .

السنة :

لابن أبي عاصم ت (٢٨٧) ،تحقيق باسم الجوابرة ،دار الصميعي ،الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ .

السنة :

للخلال ت (٣١١) ،تحقيق عطية الزهراني ،دار الراية ،الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ .

السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث :

لمحمد الغزالي السقا ،دار الشروق ،الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ .

سنن ابن ماجه ت (٢٧٥) :

تحقيق خليل شيحا ،دار المعرفة ،لبنان ،الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ .

سنن أبي داود ت (٢٧٥) :

تحقيق محمد محيي الدين ،المكتبة العصرية ،بيروت ،١٤١٦ هـ .

سنن الترمذي ت (٢٧٩) :

تحقيق أحمد شاكر ،دار الكتب العلمية ،بدون معلومات الطبع .

سنن الدارمي أو مسند الدارمي ت (٢٥٥) :

تحقيق حسن سليم الداراني ،دار المغني الرياض ،الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ .

السنن الكبرى :

للبيهقي ت (٤٥٨) ،دار المعرفة ،بيروت ،مصورة عن الهندية .

سنن النسائي ت (٣٠٣) :

دار المعرفة ،بيروت ،الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ .

سير أعلام النبلاء :

للذهبي ت (٧٤٨) ،تحقيق مجموعة من الباحثين ،مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ .

- ش -

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية :

لمحمد المخلوف ت (١٣٦٠) ،دار الفكر للطباعة والنشر ،بيروت .

شجرة اليقين :

لعبدان القرمطي ،تحقيق عارف تامر ،دار الآفاق الجديدة ،بيروت ،الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ .

شخصيات ومذاهب فلسفية :

لعثمان أمين ،دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٦٤ هـ .

شذرات الذهب في أخبار من ذهب :

لابن العماد الحنبلي ت (١٠٨٩) ،دار الآفاق الجديدة ،بيروت .

شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم :

لأبي القاسم اللالكائي ت (٤١٨)،تحقيق : أحمد بن سعد الغامدي ،دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الخامسة ١٤١٨ هـ .

شرح الأصول الخمسة :

للقاضي عبد الجبار المعتزلي ت (٤١٥) ،تعليق أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، تحقيق عبد الكريم عثمان ،مكتبة وهبة ،القاهرة ،الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ .

شرح البيجوري على الجوهرة المسمى (تحفة المريد على جوهرة التوحيد) :

لإبراهيم البيجوري ت (١٢٧٧) ،دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ .

شرح حديث النـــزول :

لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية ،تحقيق محمد بن عبد الرحمن الخميس ، دار العاصمة ،الطبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ

شرح السنة :

للمزني ت (٢٦٤) ،تحقيق جمال عزون ،مكتبة الغرباء ،المدينة ،الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ .

شرح السنة :

للبغوي ت (٥١٦) ،تحقيق شعيب الأرنؤوط ،ومحمد زهير الشاويش ،المكتب الإسلامي ،الطبعة الثانية ،١٤٠٣هـ .

شرح صحيح مسلم :

للنووي ت (٦٧٦) ، تحقيق خليل شيحا ،دار المعرفة ،الطبعة الخامسة ١٤١٩هـ .

شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) :

لشرف الدين الطيـــبي ت (٧٤٣) ،تحقيق مجموعة من الباحثين ،إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ،كراتشي ،الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .

شرح العقيدة الأصفهانية :

لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية ت (٧٢٨ هـ) ،مكتبة الرشد ، الرياض ،الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ .

شرح العقيدة الطحاوية :

لابن أبي العز الحنفي ت (٧٩٢) تحقيق شعيب الأرنؤوط ،مؤسسة الرسالة ،الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .

شرح القصيدة النونية لابن القيم :

لمحمد خليل الهراس ،دار الكتب العلمية ،بيروت ١٤٠٦ هـ .

شرح الكوكب المنير :

للفتوحي المعروف بابن النجار ت (٩٧٢) ،تحقيق محمد الزحيلي ،ونزيه حماد ، مكتبة العبيكان ،١٤١٣ هـ .

شرح مختصر ابن الحاجب المسمى (بيان المختصر) :

لأبي الثناء محمود الأصفهاني ت (٧٤٩) ،تحقيق محمد مظهر بقا ،مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ،الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ .

شرح مختصر الروضة :

للطوفي ت (٧١٦) ،تحقيق التركي ،مؤسسة الرسالة ،الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ .

شرح مشكل الآثار:

للطحاوي ت (٣٢١) ،تحقيق شعيب الأرنؤوط ،مؤسسة الرسالة ،الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .

شرح المعلقات السبع الطوال :

لأبي عبد الله الزوزني ،تحقيق عمر فاروق الطباع ،دار الأرقم ،بيروت ،الطبعة الثانية ١٩٦٧ م .

شرف أصحاب الحديث :

لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ت (٤٦٣) ،عمرو عبد المنعم ، مكتبة ابن تيمية ،القاهرة .

الشعائر الحسينية :

لحسن الشيرازي، دار صادر بيروت .

الشعر والشعراء :

لابن قتيبة ت (٢٧٦) ،تحقيق محمود شاكر ،دار التراث العربي ،الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ م .

الشفا :

لابن سينا ،تحقيق : محمد يوسف موسى ،وسليمان دنيا ،وسعيد زايد ،ومراجعة ابراهيم مدكور ،الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ،القاهرة ، ١٣٨٠ هـ .

شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل :

لابن قيم الجوزية ت (٧٥١) ،تحقيق مصطفى الشلبي ،مكتبة السوادي ،جدة ،الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ

الشيعة وأهل البيت :

لإحسان إلهي ظهير ،إدارة ترجمان السنة ،باكستان .

الشيعة والسنة :

لإحسان إلهي ظهير ،إدارة ترجمان السنة ،باكستان .

- ص -

الصارم المسلول على شاتم الرسول :

لابن تيمية ت (٧٢٨) ،تحقيق محمد الحلواني ،ومحمد كبير شودري ،دار الرمادي ، الدمام ،الطبعة الأولى ،١٤١٧ هـ .

الصارم المنكي في الرد على السبكي :

لابن عبد الهادي ت (٧٤٤) ،تحقيق عقيل المقطري اليماني ،مؤسسة الريان بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ .

صب العذاب على من سب الأصحاب :

لمحود شكري الألوسي (١٣٤٢) ،تحقيق عبد الله البخاري ،أضواء السلف، الطبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ .

الصحاح المسمى بـ (تاج اللغة وصحاح العربية) :

للجوهري ت (٣٩٣) ،تحقيق أحمد عطار ،دار العلم للملايين ،الطبعة الثانية ، ١٣٩٩ هـ .

صحيح ابن خزيمة ت (٣١١) :

تحقيق محمد مصطفى الأعظمي ،المكتب الإسلامي ،بيروت ،الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

صحيح البخاري المسمى بـ (الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه :

للبخاري ت (٢٥٦) ،تحقيق محب الدين الخطيب ،ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، المطبعة السلفية ،القاهرة ،الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ .

صحيح الترغيب والترهيب :

لمحمد ناصر الدين الألباني ،مكتبة المعارف ،الرياض ،الطبعة الثالثة ،١٤٠٩ هـ .

صحيح الجامع الصغير :

لمحمد ناصر الدين الألباني ،المكتب الإسلامي ،بيروت ،الطبعة الثالثة ،١٤١٠ هـ .

صحيح سنن أبي داود :

لمحمد ناصر الدين الألباني ت (١٤٢٠) ،المكتب الإسلامي ،الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ .

صحيح شرح العقيدة الطحاوية !! أو المنهج الصحيح في فهم عقيدة أهل السنة والجماعة مع التنقيح !!! :

لحسن السقاف ،دار الإمام النووي ،الأردن ،الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .

صحيح مسلم المسمى بـ (المسند الصحيح) :

لمسلم بن الحجاج ت (٢٦١) ،تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ،دار إحياء التراث العربي ،الطبعة الثانية ١٩٧٢ م .

صفة صلاة النبي ﷺ :

لمحمد ناصر الدين الألباني ت (١٤٢٠) ،مكتبة المعارف ،الرياض .

الصفدية :

لابن تيمية ت (٧٢٨) ،تحقيق محمد رشاد سالم ،مكتبة ابن تيمية ،القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ .

الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة :

لابن قيم الجوزية ت (٧٥١) ،تحقيق علي الدخيل الله ،دار العاصمة ،الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .

صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام :

للسيوطي ت (٩١١) ،تعليق سامي النشار ،مكتبة الخانجي بمصر .

صيد الخاطر :

لابن الجوزي ت (٥٩٧) ،تحقيق عبد الرحمن البر ،دار اليقين ،مصر ،الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .

- ض -

ضحى الإسلام :

لأحمد أمين ،دار الكتاب العربي ،بيروت ،الطبعة العاشرة ،بدون تاريخ .

ضعيف سنن ابن ماجه :

لمحمد ناصر الدين الألباني ،المكتب الإسلامي ،بيروت ،الطبعة الأولى ،١٤٠٨ هـ .

ضوابط الجرح والتعديل :

لعبد العزيز آل عبد اللطيف ت (١٤٢٢) ،مطبعة الجامعة الإسلامية ،المدينة النبوية ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ .

- ط -

طبقات ابن سعد ت (٣٢٠) :

دار صادر ،بيروت ،لبنان .

الطبقات الكبرى المسمى بـ (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار) :

لعبد الوهاب الشعراني ،المكتبة التوفيقية ،مصر .

طبقات الحنابلة :

لابن أبي يعلى ت (٥٢٦) ،دار المعرفة ،بيروت .

طبقات الشافعية الكبرى :

لابن السبكي ت (٧٧١) ،تحقيق محمود الطناحي ،وعبد الفتاح الحلو ،مؤسسة هجر ،الطبعة الثانية ،١٤١٣ هـ .

طبقات فحول الشعراء :

لمحمد بن سلام الجمحي ت (٢٣١) ،تحقيق محمود شاكر ،دار المدني بجدة .

الطرق الحكمية في السياسة في السياسة الشرعية :

لابن قيم الجوزية ت (٧٥١) ،تحقيق محمد حامد الفقي ،دار الكتب العلمية ، بيروت .

طريق الهجرتين وباب السعادتين :

لابن قيم الجوزية ت (٧٥١) ،تحقيق يوسف بديوي ،دار ابن كثير دمشق ، الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ .

العبودية :

لأحمد ابن تيمية ت (٧٢٨) ،تحقيق علي بن حسن الحلبي، دار الأصالة، الإسماعيلية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ .

العدة في أصول الفقه :

لأبي يعلى ت (٤٥٨) ،تحقيق أحمد علي المباركي ،الطبعة الثانية ،١٤١٠ هـ .

العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون :

لعلي حسن الحلبي ،مكتبة الغرباء ،المدينة ،الطبعة الأولى ،١٤١٣ هـ .

العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية :

لابن عبد الهادي ت (٧٤٤) ،تحقيق الفقي ،مكتبة المؤيد ،الرياض .

عقيدة السلف أصحاب الحديث :

للصابوني ت (٤٤٩) تحقيق ناصر الجديع ،دار العاصمة ،الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.

العقيدة الطحاوية (المتن) :

لأبي جعفر الطحاوي ت (٣٢١) مكتبة ابن تيمية ،الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .

العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية :

لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني ت (٤٧٨) ،تحقيق : محمد زاهد الكوثري ،المكتبة الأزهرية للتراث ،مصر ،١٤١٢ هـ .

العلم والبحث العلمي (دراسة في مناهج العلوم) :

لحسين عبد الحميد رشوان ،المكتب الجامعي ،الإسكندرية .

علماء نجد خلال ستة قرون :

لعبد الله بن عبد الرحمن آل بسام ،دار العاصمة ،الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ .

عنوان المجد في تاريخ نجد :

لعثمان بن بشر النجدي الحنبلي ت (١٢٨٨) ،دار الرياض الحديثة، بدون تاريخ .

عوارف المعارف :

لعمر بن محمد بن عبد الله السهروردي ت (٦٣٢) ،صححه محمد عبد العزيز الخلدي دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٠ .

- ف -

فتاوى ومسائل ابن الصلاح في التفسير والحديث والأصول والفقه :

لابن الصلاح ت (٦٤٣) ،تحقيق القلعجي ،مكتبة المعارف ،الرياض ،الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.

فتح الباري بشرح صحيح البخاري :

لابن حجر العسقلاني ت (٨٥٢) ،تعليق الشيخ ابن باز ،دار الريان ،الطبعة الثانية ، ١٤٠٩هـ .

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير :

للشوكاني ت (١٢٥٥) ،تحقيق سيد إبراهيم ،دار زمزم ،الرياض ،الطبعة الإولى ، ١٤١٣ هـ .

الفتوى الحموية الكبرى :

لابن تيمية ت (٧٢٨) ،تحقيق حمد بن عبد المحسن التويجري ،دار الصميعي ،الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ .

الفتوحات المكية :

لابن عربي ت (٦٣٨) ،تحقيق عثمان يحى ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٧٢ م.

الفرق بين الفرق :

لعبد القاهر البغدادي ت (٤٢٩) ،تعليق إبراهيم رمضان ،دار المعرفة بيروت ،الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ .

الفصل في الملل والأهواء والنحل :

لأبي محمد ابن حزم ت (٤٥٦) ،تحقيق محمد إبراهيم نصر ،وعبد الرحمن عميرة ، شركة مكتبات عكاظ ،الرياض ،الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ .

فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال :

لأبي الوليد محمد بن محمد بن رشد الحفيد ت (٥٩٥) ،تعليق : أبو عمران الشيخ ،و أحمد جلول البدوي ،مطابع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ،بدون تاريخ .

فصوص الحكم :

لابن العربي ت (٦٣٨) ،مطبعة الحلبي ،القاهرة ،الطبعة الثانية ،١٩٦٦ م .

فضائح الباطنية :

لأبي حامد الغزالي ت (٥٠٥) ،دار البشير ،الأردن ،الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .

فضائل القرآن :

لأبي عبيد القاسم بن سلام ت (٢٢٤) ،تحقيق مروان العطية ،محسن خرابة ،دار ابن كثير دمشق ،الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .

فضائل القرآن :

لابن كثير ت (٧٧٤) ،تحقيق الحويني ،مكتبة ابن تيمية ،الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .

فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة :

للقاضي عبد الجبار ت (٤١٥) ،الدار التونسية ،تونس ،١٣٩٣ م .

فضل علم السلف على علم الخلف :

لابن رجب الحنبلي (٧٥٩) ،تحقيق محمد عبد الحكيم القاضي ،دار الحديث ١٩٨٩ م .

الفقيه والمتفقه :

لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ،تحقيق : خالد بن يوسف العزازي ،دار ابن الجوزي ،الطبعة الثانية ،١٤٢١هـ .

الفهرست :

لابن النديم ت (٤٣٨) ،نشرته دار المعرفة للطباعة والنشر ،بيروت .

الفوائد البهية في تراجم الحنفية :

لأبي الحسنات اللكنوي ت (١٣٠٤) ،علق عليه : محمد بدر الديـــن النعـــاني ،دار الكتاب الإسلامي ،القاهرة

فوات الوفيات والذيل عليها :

لمحمد بن شاكر الكتبي ت (٧٦٤) ،تحقيق إحسان عبـــاس ،دار صـــادر ،بـــيروت ١٩٧١ م .

في الفلسفة الإسلامية :

لإبراهيم مدكور ،دار المعارف ،مصر ،الطبعة الثالثة ،بدون تاريخ .

فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة :

لأبي حامد الغزالي ت (٥٠٥) ،تحقيق سليمان دنيا ،دار إحياء الكتـــب العربيـــة ، القاهرة ،١٩٦١ م .

– ق –

قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة :

لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية ت (٧٢٨ هـــ) ،تحقيـــق ربيـــع المدخلي ،دار لينة ،الطبعة الأولى ١٤١٢ هـــ .

القاموس المحيط :

للفيروزآبادي ت (٨١٧) ،إعداد المرعشلي ،دار إحياء التراث العربي ،الطبعـــة الأولى ١٤١٧هـــ .

قانون التأويل :

للغزالي ت (٥٠٥) ،بعناية أحمد شمس الدين دار الكتب العلميـــــة ،الطبعـــة الأولى ١٤٠٩ هـــ .

قصة الحضارة :

لول ديورانت ،ترجمة محمد بدران ،اختارته وأنفقت على ترجمته الإدارة الثقافيـــة في جامعة الدول العربية ،مطابع الرجوى بالقاهرة ،الطبعة الثالثة ، ١٩٧٤ م .

القواعد :

للمقري ت (٧٥٨) ،تحقيق أحمد بن حميد ،معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى ، مكة .

قواعد الأحكام في مصالح الآنام :

للعز ابن عبد السلام ت (٦٦٠) ،مؤسسة الريان ،بيروت ،١٤١٠ هـ .

قوت القلوب في معاملة المحبوب :

لأبي طالب المكي ت (٣٨٦) ،دار صادر بيروت .

- ك -

الكافي :

لمحمد بن يعقوب الكليني ت (٣٢٨) ،تعليق علي أكـبر الغفـاري ،دار الكتـب الإسلامية ،طهران ،١٣٨٨ هـ .

الكامل في التاريخ :

لابن الأثير ت (٦٣٠) ،دار صادر ،بيروت ،١٩٦٨م .

الكامل في ضعفاء الرجال :

لابن عدي الجرجاني ت (٣٦٥) ،دار الفكر ،بيروت ،الطبعة الثالثة ،١٤٠٩ هـ .

الكبائر :

للذهبي ت (٧٤٨) ،تحقيق أبي عبد الرحمن السلفي ،مكتبة السنة ،القاهرة ،الطبعـة الأولى ١٤١٣ هـ .

كتاب الافتخار :

لأبي يعقوب السجستاني ت (٣٥٣) ،تحقيق مصطفى غالب ،دار الأندلس ،الطبعة الأولى ١٩٨٠ م .

كتاب التعيين في شرح الأربعين :

للطوفي ت (٧١٦) ،تحقيق أحمد حاج عثمان ،مؤسسة الريان بيروت ،الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ .

كتاب الحدود في الأصول :

لأبي الوليد الباجي ت (٤٧٤) ،تحقيق نزيه حماد ،طبعة بيروت ١٣٩٢ هـ .

كتاب الشريعة :

لأبي الحسين الآجري ت (٣٦٠) ،تحقيق الدميجي ،دار الوطن ،الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ .

كتاب الضعفاء الكبير

لمحمد بن موسى العقيلي، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ .

كتاب العلم :

لأبي خيثمة، تحقيق الشيخ الألباني ،المكتب الإسلامي .

كتاب العين :

للخليل بن أحمد الفراهيدي ت (١٧٥) ،تحقيق المخزومي والسامرائي ،دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد ١٩٨٦ م .

كتاب ما جاء في البدع :

لابن وضاح القرطبي ت (٢٨٧) ،تحقيق بدر البدر ،دار الصميعي ،الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .

كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين :

لابن حبان ت (٣٥٤) ،تحقيق حمدي السلفي ،دار الصميعي ،الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ .

كتاب الرد على المنطقيين :

لابن تيمية ت (٧٢٨) ،إدارة ترجمان السنة ،لاهور ،باكستان ،١٣٩٦ هـ .

كتاب المواقف للإيجي :

للإيجي ت (٧٥٦) ،عالم الكتب بيروت لبنان .

كتاب النبوات :

لابن تيمية ت (٧٢٨) ،تحقيق عبد العزيز الطويان ،أضواء السلف ،الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ .

كشاف اصطلاحات الفنون :

للتهانوي ت (١٠١٥٨) ،تحقيق لطفي البديع ،مكتبة النهضة المصرية ،١٣٨٢ هـ.

كشف الأسرار :

للخميني ،تقديم محمد أحمد الخطيب ،ترجمة البنداري ،تعليق سليم الهلالي ،دار عمار ، الأردن ،الطبعة الثالثة ١٩٨٨ م .

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون :

لحاجي خليفة ت (١٠٦٧) ،منشورات مكتبة المثنى بغداد .

الكفاية في علم الرواية :

للخطيب البغدادي ت (٤٦٣) ،تحقيق أحمد عمر هاشم ،دار الكتاب العربي ،الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ .

الكنى والألقاب :

لعباس القمي ت (١١١٠) ،المطبعة الحيدرية النجف ١٣٨٩ .

- ل -

لسان العرب :

لابن منظور ت (٧١١) دار صادر ،بيروت .

اللزوميات :

للمعري ت (٤٤٩) ،تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي ،مكتبة الخانجي ،القاهرة .

لسان الميزان :

لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت (٨٥٢) ،دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن ،الطبعة الأولى ١٣٣٠

اللمع :

للسراج الطوسي ،تحقيق عبد الحليم محمود ،وطه سرور ،دار الكتب الحديثة ،القاهرة ١٩٦٠ م .

لمعة الاعتقاد :

لابن قدامة المقدسي ،مع شرح الشيخ محمد صالح العثيمين رحمه الله .

لوائح الأنوار السنية :

للسفاريني ت (١١٨٨) ،تحقيق البصيري ،مكتبة الرشد الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .

لوامع الأنوار البهية :

للسفاريني ،المكتب الإسلامي ،الطبعة الثالثة ،١٤١١ هـ .

- م -

متشابه القرآن :

للقاضي عبد الجبار ت (٤١٥) ،تحقيق عدنان زرزور ،دار التراث ،القاهرة .

مجموع أشعار العرب :

تحقيق وليم ابن الورد البروسي ،مكتبة ابن قتيبة ،حولي ،الكويت .

مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية :

لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية ت (٧٢٨ هـ) ،جمع وترتيب ابن قاسم النجدي ،طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف ،١٤١٦ هـ .

مجموعة الرسائل والمسائل :

لابن تيمية ت (٧٢٨) ،تعليق وتصحيح جماعة من العلماء ،دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ .

محاسن التأويل :

لجمال الدين القاسمي ،صححه محمد عبد الباقي ،دار إحياء الكتب العربية .

المحدث الفاصل بين الراوي والواعي :

للرامهرمزي ت (٣٦٠) ،تحقيق محمد عجاج الخطيب ،دار الفكر ،بيروت ،الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ .

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز :

لابن عطية الأندلسي ت (٥٤٦) ،تحقيق المجلس العلمي لفاس ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ،المغرب ،الطبعة الثانية ،١٣٩٥ هـ .

محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين :

لأبي عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي ،تحقيق :حسين أتاي ،مكتبة دار التراث ،القاهرة ،الطبعة الأولى ،١٤١١هـ .

المحكم و المحيط الأعظم :

لابن سيده ت (٤٥٨) ،تحقيق النجار ، المكتبة التجارية لمصطفى الباز ،الطبعة الأولى ، ١٣٩٣ هـ .

المحلى :

لابن حزم ت (٤٥٦) تحقيق : أحمد شاكر ،دار التراث ،القاهرة .

مختار الصحاح :

للرازي ت (٦٦٦) ،باعتناء يوسف الشيخ محمد ،المكتبة العصرية ،الطبعة الثانيـــة ١٤١٧ هـــ .

مختصر الحجة على تارك المحجة :

لأبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي ت (٤٩٠) ،تحقيق محمد إبراهيم محمد هارون ، وهو رسالة دكتوراة في الجامعة الإسلامية لم تطبع بعد .

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين :

لابن قيم الجوزية ت (٧٥١) ،تحقيق محمد المعتصم بالله البغـــدادي ،دار الكتـــاب العربي ،الطبعة السادسة ١٤٢١ هـــ .

المدخل إلى السنن الكبرى :

للبيهقي ت (٤٥٨) ،تحقيق محمد ضياء الرحمن الأعظمي ،أضواء السلف ،الطبعـــة الثانية ١٤٢١هـــ .

مذكرة في أصول الفقه :

لمحمد الأمين الشنقيطي ت (١٣٩٣) ،مكتبة ابن تيمية ،الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـــ .

مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات :

لأحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي ،دار العاصمة ،الطبعة الأولى ١٤١٦ .

المرشد المعين :

لعبد الواحد بن عاشر ،المكتبة الثقافية ،بيروت ،١٤٠٨ هـــ .

المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز :

لأبي شامة المقدسي ت (٦٦٥) ،تحقيق وليد الطبطبائي ،مكتبة الإمـــام الذهـــبي ، الكويت ،١٤١٤ هـــ .

مسائل الإمام أحمد :

برواية ابنه عبد الله ت (٢٩٠) ،تحقيق زهير الشاويش ،المكتب الإسلامي ،الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ .

المستدرك على الصحيحين :

للحاكم ت (٤٠٥) ،دار الفكر ،بيروت ،١٣٩٨ هـ .

المستصفى :

لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ت (٥٠٥) ،تحقيق سليمان الأشقر ،مؤسسة الرسالة ،الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ .

المسند :

للإمام أحمد بن حنبل ت (٢٤١) ،المكتب الإسلامي ،بيروت ،الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ .

المسند :

للإمام أحمد بن حنبل ،تحقيق : مجموعة من الباحثين ،مؤسسة الرسالة ،الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .

مسند البزار المسمى بـ (البحر الزخار) :

للبزار ت (٢٩٢) ،تحقيق محفوظ الرحمن زين الله ،مؤسسة علوم القرآن ،الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ .

المسودة في أصول الفقه :

لآل تيمية ،جمعها وبيضها شهاب الدين أحمد بن محمد الحراني الدمشقي ت (٧٤٥) ، مطبعة المدني ،القاهرة .

مشكاة الأنوار :

لأبي حامد الغزالي ت (٥٠٥)، تحقيق أبي العلاء عفيفي ،دار القومية القاهرة ١٣٨٣.

مصابيح الأصول :

لعلاء الدين بحر العلوم ،تقرير الدرس الخوئي ،المكتبة الإسلامية ،طهران .

المصنف :

لعبد الرزاق ت (٢١١) ،تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ،المكتب الإسلامي ،الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

المضنون به على غير أهله :

للغزالي ت (٥٠٥) ،ضبطه رياض العبد الله ،الحكمة ،دمشق ،الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ .

المصنف في الأحاديث والآثار :

لابن أبي شيبة ت (٢٣٥) ،تحقيق سعيد اللحام ،دار الفكر ،الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ .

المطالب العالية :

لأبي عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي ت (٦٠٦) ،تحقيق أحمد حجازي السقا ، دار الكتاب العربي ،الطبعة الأولى ،١٤٠٧هـ .

معالم التنزيل :

لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ت (٥١٦) ،تحقيق : محمد عبد الله النمر ، وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش ،دار طيبة للنشر والتوزيع ،الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ .

المعجم الفلسفي :

لجميل صليبا ،دار الكتاب اللبناني ،بيروت ،١٩٨٢ م .

المعجم الفلسفي :

إعداد مجمع اللغة اللغة العربية بمصر ،نشرته الهيئة العامة لشـــؤون المطـــابع الأميريـــة ١٣٩٩ هـــ .

معجم البلدان :

لياقوت الحموي ت (٦٢٦) ،دار صادر ،بيروت .

المعجم المختص بالمحدثين :

للذهبي ت (٧٤٨) ،تحقيق محمد الحبيب الهيلة ،مكتبـــة الصديـــق ،الطبعـــة الأولى ١٤٠٨ هـــ .

معجم الشيوخ أو (المعجم الكبير) :

للذهبي ت (٧٤٨) ،تحقيق محمد الحبيب الهيلة ،مكتبـــة الصديـــق ،الطبعـــة الأولى ١٤٠٨ هـــ .

معجم مقاييس اللغة :

لابن فارس ت (٣٩٥) ،تحقيق عبـــد الســـلام هـــارون ،دار الجيـــل ،بـــيروت ، ١٤٢٠ هـــ .

المعجم الكبير :

للطبراني ت (٣٦٠) ،تحقيق حمدي السلفي ،دار إحياء التراث العربي .

معرفة أخبار الرجال أو (رجال الكشي) :

لمحمد بن عمر الكشي ،المطبعة الصفوية ،ببمبئ باي دوهوني .

معرفة علوم الحديث :

للحاكم ت (٤٠٥) ،تصحيح معظم حسين ،دار الكتب العلمية ،بيروت .

المعلم بفوائد مسلم :

للمازري ت (٥٣٦) ،تحقيق محمد الشاذلي النيفر ،دار الغـــرب ،الطبعـــة الثانيـــة ١٩٩٢ م .

معيار العلم :

لأبي حامد محمد الغزالي ،تحقيق سليمان دنيا ،دار المعارف ،مصر ،الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة :

لابن القيم (٧٥١) ،تحقيق علي الحلبي ،دار ابن عفان ،الأولى ١٤١٦ هـ .

المفسرون بين التأويل والإثبات لآيات الصفات :

لمحمد المغراوي ،دار طيبة ،الرياض ،الطبعة الأولى .

مقاصد الشريعة الإسلامية :

لابن عاشور ت (١٣٩٣) ،تحقيق محمد الطاهر الميساوي ،دار النفائس ،الأردن ، الطبعة الثانية ١٤٢١ هـ .

مقاصد الفلاسفة :

للغزالي ت (٥٠٥) ،تحقيق سليمان دنيا ،مكتبة المعارف ،مصر .

المقالات والفرق :

لسعد بن عبد الله القمي ،تحقيق محمد جواد مشكور ،مكتبة ،حيدري ،طهران ١٩٦٣ م .

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين :

لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ،عني بتصحيحه :هلموت ريتر ،دار إحياء التراث العربي ،الطبعة الثالثة ،بدون تاريخ .

المقصد الأرشد في معرفة أصحاب الإمام أحمد :

لابن مفلح ت (٨٨٤) ،تحقيق عبد الرحمن العثيمين ،مكتبة الرشد ،الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ .

الملل والنحل :

للشهرستاني ت (٥٤٨) ،تحقيق محمد سيد الكيلاني ،دار المعرفة بيروت .

المنار المنيف في الصحح والضعيف :

لابن القيم ت (٧٥١) ،تحقيق عبد الرحمن المعلمي ،إعداد منصور السـماري ،دار العاصمة ،الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ .

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم :

لابن الجوزي ت (٥٩٧) ،تحقيق محمد عبد القادر عطا ،ومصطفى عطا ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ .

المنقذ من الضلال :

لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ،تحقيق أحمد شمس الدين ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ،١٤٠٩ هـ

منهاج السنة في نقض كلام الشيعة والقدرية :

لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية ت (٧٢٨ هـ) ،تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى١٤٠٦ ـ١٩٨٦ م

منهج إمام الحرمين في دراسة العقيدة عرض ونقد :

أحمد بن عبد اللطيف بن عبد الله آل عبد اللطيف ،مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ،الطبعة الأولى ،١٤١٤ هـ .

منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل :

لمحمد السحيباني ،دار الوطن ،الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ .

المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل :

للقاضي عبد الجبار الهمذاني ت (٤١٥) ،جمعه أحمد بن يحيى بن المرتضى ،تحقيق علي سامي النشار ،وعصام الدين محمد ،دار المطبوعات الجامعية ،مصر ، ١٩٧٢ م .

الموافقات :

لأبي إسحاق الشاطبي ت (٧٩٠) ، تحقيق مشهور حسن سلمان ،دار ابن عفان ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ .

موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول :

لابن تيمية ت (٧٢٨) ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ .

موقف ابن تيمية من الأشاعرة :

لعبد الرحمن صالح المحمود ،مكتبة الرشد ،الطبعة الأولى ،١٤١٥ هـ .

موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع :

لإبراهيم بن عامر الرحيلي ،مكتبة الغرباء ،الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ .

موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية :

للأمين الصادق الأمين ،مكتبة الرشد ،الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

موضح أوهام الجمع والتفريق :

للخطيب البغدادي ت (٤٦٣) ،تحقيق عبد الرحمن المعلمي ،دائرة المعارف العثمانية ،الهند .

الموضوعات من الأحاديث المرفوعات :

لابن الجوزي ت (٥٩٧) ،تحقيق نور الدين بوياجيلار، أضواء السلف ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ .

ميزان الاعتدال في نقد الرجال :

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ت (٧٤٨) ،تحقيق علي محمد البيجاوي ، دار المعرفة ،بيروت .

- و -

نثر الورد على مراقي السعود :

لمحمد الأمين الشنقيطي ت (١٣٩٣) ،تحقيق محمد ولد سيدي الشنقيطي ،دار المنارة الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .

النجاة :

لابن سينا ت (٤٢٨) ،مطبعة السعادة ،القاهرة ١٣٣١ هـ .

النصيحة بالتحذير من تخريب (ابن عبد المنان) لكتب الأئمة الرجيحة وتضعيفه لمئات الأحاديث الصحيحة :

لمحمد ناصر الدين الألباني ،دار ابن عفان ،القاهرة ،الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ .

النعت الأكمل لأصحاب أحمد بن حنبل :

لمحمد كمال الدين الغزي ت (١٢١٤) ،تحقيق محمد مطيع ،ونزار أياظة ،دار الفكر.

نقض تأسيس الجهمية :

انظر : بيان تلبيس الجهمية .

نكت الانتصار لنقل القرآن للبقلاني :

اختصار الصيرفي ،تحقيق محمد زغلول سلام ،منشأة المعارف بالإسكندرية ،مصر .

النكت والعيون :

للماوردي ت (٤٥٠) ،تعليق ابن عبد المقصود ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ .

النهاية في غريب الحديث والأثر :

لابن الأثير ت (٦٠٦) ،تحقيق طاهر الزاوي ،والطناحي ،دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

- هـ -

الهداية في علوم الرواية :

لابن الجزري ت (٨٣٣) ،حققه أبو موسى عبد العزيز بن محمد المكي ،مكتبة العلم بجدة ،الطبعة الأولى ١٤١٣ .

هدي الساري مقدمة فتح الباري :

انظر فتح الباري .

هذه هي الصوفية :

عبد الرحمن الوكيل ،دار الكتب العلمية ،الطبعة الرابعة ١٩٨٤ م .

الهفت الشريف من فضائل مولانا جعفر الصادق :

رواه المفضل بن عمر الجعفي ،تحقيق مصطفى غالب ،دار الأندلس ،الطبعة الثالثة ١٩٨٠ م .

- و -

وسائل الشيعة ومستدركاتها :

للحر العاملي محمد بن الحسن ،دار التقريب بين المذاهب ،القاهرة ،١٩٧٥ م .

الوضع في الحديث :

عمر حسن فلاتة ،مؤسسة مناهل العرفان ،دمشق ١٤٠١ هـ .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :

لابن خلكان ت (٦٨١) ،تحقيق إحسان عباس ،دار صادر بيروت .

فهرست الموضوعات:

المقدمة ..... ١_١٥

توطئة ١

أسباب اختيار الموضوع ٥

خطة البحث ٧

المنهج المتبع ١٤

شكر وتقدير ١٥

المدخل في بيان قاعدة كمال الدين ١٦-٢٩

المطلب الأول : تعريف القاعدة ١٧

المطلب الثاني : تعريف الكمال ١٩

المطلب الثالث : تعريف الدين ٢١

المطلب الرابع : المراد بقاعدة كمال الدين إجمالا ٢٩

الباب الأول : في تقرير السلف لقاعدة كمال الدين ٣٠-٣١٢

التمهيد : في التعريف بالسلف ،وحكم الانتساب إليهم ٣٠-٤٦

المطلب الأول : تعريف السلف ٣١

المطلب الثاني : حكم الانتساب إلى السلف ٣٩

الفصل الأول : تقرير السلف للقاعدة من حيث التأصيل ٤٧-٢١٦

المبحث الأول : أدلة كمال الدين ٤٨-١٠١

المطلب الأول : الأدلة من القرآن ٤٩

المطلب الثاني : الأدلة من السنة ٧٣

المطلب الثالث : الآثار السلفية ٩٤

المبحث الثاني : في بيان أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين ١٠٢-١٦٩

المطلب الأول : في ذكر الأدلة على ذلك ١٠٢
أولا الأدلة من القرآن ١٠٣
ثانيا : الأدلة من السنة ١١٥
ثالثا : الآثار السلفية ١٢٢
المطلب الثاني : بيان أن بلاغ النبي يشمل تبليغ الألفاظ وتوضيح المعان ... ١٢٤
المطلب الثالث : وجوب الأخذ بفهم الصحابة ١٣٦
الوجه الأول ١٣٧
الوجه الثاني ١٣٨
الوجه الثالث ١٤١
الوجه الرابع ١٥١
المبحث الثالث بيان أن الله تكفل بحفظ الدين ١٧١-٢١٦
المطلب الأول : عوامل حفظ القرآن الكريم ١٧٣
المطلب الثاني : عوامل حفظ السنة ١٩٤
الفصل الثاني : تقرير السلف للقاعدة من حيث التطبيق ٢١٧-٢٧٤
المبحث الأول : تقرير السلف لكمال الدين في بابي العلم والعمل ٢١٨
المطلب الأول : في الجانب العلمي ٢٢١
المطلب الثاني : في الجانب العملي ٢٣٠
المطلب الثالث : ضرورة الجمع بين العلم والعمل ٢٥٠
المبحث الثاني : تقرير السلف اشتمال الدين على مصالح الدارين ٢٥٤
المطلب الأول : ذكر الأدلة الدالة على أن الدين أريد به مصالح العباد.. ٢٥٨
المطلب الثاني : في بيان أن المصالح المعتبرة هي التي دل عليها الشرع.... ٢٦٨
المطلب الثالث : ٢٧٢
الفصل الثالث : في حماية السلف للقاعدة ٢٧٥

المبحث الأول : في بيان السلف للحق وإقامتهم الحجة على الخلق... ٢٨٠
المطلب الأول : البيان الوافي المزيل لكل لبس وإشكال ٢٨٢
المطلب الثاني : الحرص على هداية الناس ٢٨٨
المبحث الثالث : في تحذير السلف من البدع وأهلها ٢٩٢-٣١٢
المطلب الأول : تحذير السلف من مغبة البدع ٢٩٢
المطلب الثاني : تحذير السلف من أهل البدع ٢٩٩
الباب الثاني : موقف الطوائف المخالفة من القاعدة ٣١٢-٥٩٢
المدخل : ٣١٦
المطلب الأول : طرق أهل البدع لخرم القاعدة ٣١٩
المطلب الثاني : في بيان المراد بالطوائف المخالفة ٣٢٦
الفصل الأول موقف العقلا نيين من القاعدة ٣٢٨-٤٦٢
المدخل ٣٢٩-٣٥٥
المطلب الأول : التعريف بالمنهج العقلاني ومدارسه ٣٢٩
المسألة الأولى : التعريف بالمنهج العقلاني ٣٢٩
المسألة الثانية : التعريف بمدارس هذا المنهج ٣٣٦
المطلب الثاني : موقف الطوائف من العقل ٣٤٩
المبحث الأول : موقف الفلاسفة من القاعدة ٣٥٧
المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة ٣٦٦
الأصل الأول ٣٦٦
الأصل الثاني ٣٧٠
الأصل الثالث ٣٨٠
المطلب الثاني : ٣٨٦
موقفهم من المسائل العلمية ٣٨٦

موقفهم من المسائل العلمية ٣٩٨
المبحث الثاني موقف المتكلمين من القاعدة ٣١٠
المدخل ٤٠٥
المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة ٤١٠
الأصل الأول ٤١٠
الأصل الثاني ٤١٥
اللأصل الثالث ٤٢٢
الأصل الرابع ٤٤١
المطلب الثاني : ٤٤٢
المبحث الثالث : المتأثرون بالمنهج العقلاني في هذا العصر ٤٥٢
المدخل ٤٥٣
المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة ٤٥٥
الأصل الأول ٤٥٧
الأصل الثاني ٤٥٧
الأصل الثالث ٤٥٩
الأصل الرابع ٤٥٩
المطلب الثاني : ذكر أمثلة لخرمهم القاعدة ٤٦١
الفصل الثاني : في بيان موقف الباطنية من القاعدة ٤٦٣
المدخل ٤٦٤
موقف الرافضة من القاعدة ٤٧١-٥١٧
المطلب الأول : الأصولهم التي خرموا بها القاعدة ٤٧٦
الأصل الأول ٤٧٦
الأصل الثاني ٤٨٣

الأصل الثالث ٤٨٨
الأصل الرابع ٤٩٦
الأصل الخامس ٤٩٩
المطب الثاني : ٥١٢
المبحث الثاني : موقف الصوفية من القاعدة ٥١٨-٥٥٩
المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة ٥٢٤
الأصل الأول ٥٢٤
الأصل الثاني ٥٣٠
الأصل الثالث ٥٤٥
المطب الثاني : ٥٤٩
المبحث الثالث : موقف الإسماعيلية من القاعدة ٥٦٠
المدخل ٥٦١
المطلب الأول الأصول التي خرموا بها القاعدة ٥٦٩
الأصل الأول ٥٦٩
الأصل الثاني ٥٧٢
الأصل الثالث ٥٧٤
الأصل الرابع ٥٧٦
الأصل الخامس ٥٧٩
الأصل السادس ٥٨٢
المطب الثاني : موقفهم من المسائل العلمية والعملية ٥٨٤
المبحث الرابع : موقف المتأثرين بالمنهج الباطني في هذا العصر من القاعدة .. ٥٨٧
الخاتمة ٥٩٣
الفهارس العامة ٥٩٧

المبحث الثاني : موقف الصوفية من قاعدة كمال الدين، والرد عليهم .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :الأصول التي خرموا بها القاعدة .

المطلب الثاني : موقفهم من تقرير المسائل العلمية والعملية .

المبحث الثاني : موقف الصوفية من قاعدة كمال الدين

مقدمة :

من الحقائق التي قررها المحققون من العلماء أن الصوفية للرافضة هي الأخت الرضيعة، فهما يشتركان في كثير من العقائد الفاسدة التي تخرج من الملة، ويلتقيان في أصول كثيرة، ومسائل عديدة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(غلاة جهال النساك بينهم وبين الرافضة قدر مشترك في الغلو، وفي الجهل، والانقياد لما لا يعلم صحته، والطائفتان تشبهان النصارى في ذلك)[1].

ومن بين المسائل التي تتفق فيها الصوفية مع الرافضة موقفهما من كمال الدين، وتشابه بعض الأصول التي خرمت بها كل فرقة منهما القاعدة.

فكما أن من الرافضة من صرح بعدم كمال الدين فكذلك وجد من الصوفية من تردى في هذه الهوة الساحقة، فأعلن بكل وقاحة أن الدين لم يكمل وأن باب التنزيل لم يوصد، وفيما يلي ذكر بعض النقول عن بعض المنتسبين إلى نحلة التصوف تبين حقيقة موقفهم من قاعدة كمال الدين :

١/ أعلن الشعراني عقيدته في ذلك بصراحة ووضوح، وقرر أن الدين كمل من عند الله جل وعلا، إلا أن الصحابة لم يبلغوه كما سمعوه من رسول الله ﷺ كملا !! فقد أورد مقولة بديعة مضمونها أن (كل شيء لا يوجد في القرآن ولا في السنة فليس بخير) ثم علق عليها قائلا :

---

(١) منهاج السنة (٢/٤٥٣).

(هذا صحيح لو قام دليل على أن كل ما بينه النبي ﷺ ودل عليه نقل عنه، وبلغنا، لكن الصحابة رضي الله عنهم قد اعترفوا بأنهم نسوا كثيرا !! وأخفوا شيئا كثيرا رأوا المصلحة في إخفائه ... !!!)[1].

وهذا طعن في الدين الذي تولى الله حفظه واختاره ليكون آخر الأديان، واتهام له بالنقصان، وطعن في الصحابة الذين اختارهم الله لمقام الصحبة، وتبليغ الدين للأمة، واتهام لهم بالتقصير في أداء الأمانة، ولا شك أن هذا شعبة من الرفض، وثلب لخيار الأمة من غير بينة، فهو بمنزلة من يتهمهم بكتمان النص على خلافة علي ﷺ، وإلا فأين اعترفوا بأنهم أخفوا شيئا مما يحتاجه الناس في صلاح دينهم أو دنياهم ؟!، ومحاولة تغطية هذه التهمة بأنهم فعلوا ذلك للمصلحة أكذوبة لا تروج إلا على الجهلة؛ إذ أي مصلحة في إخفاء شيء فيه الخير للأمة.

وأما ما زعم من اعترافهم بالنسيان، فغاية ما سيستطيع أن يثبته هو اعتراف الآحاد منهم بنسيان شيء مما يتذكره الآخرون، وأما أن يثبت اتفاق الصحابة كلهم على نسيان شيء من الدين فمما لا يتصور بحال، ولا يمكن وقوعه؛ لوعد الله بحفظ دينه، ووعد الله لا يخلف.

والمقصود أن الشعراني يرى أن الدين وصل إلينا ناقصا؛ لأن الصحابة لم يبلغوه كاملا فقد نسوا مسائل عدة، كما كتموا أشياء كثيرة للمصلحة !!، وعليه فطريق الوصول إلى العلم بما لم يبلغنا، وسبيل إكمال النقص في رأيه هو الكشف والإلهام والوحي؛ لذا نجده يصرح بأن التنزيل بالعلم بالأحكام الشرعية لم يغلق بابه بموت النبي ﷺ، بل لا يزال مفتوحا على مصراعيه للأولياء !!!، فيقول :

(أغلق الله باب التنزيل بالأحكام المشروعة، وما أغلق باب التنزيل بالعلم بها عن قلوب أوليائه، فالتنزيل الروحاني بالعلم بها باق لهم ليكونوا على بينة من دعائهم إلى الله تعالى ...)[2].

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (٢/٥٧) (المكتبة التوفيقية، مصر) .

(٢) الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية للشعراني بهامش الطبقات الكبرى (١/٧).

فهو يرى أن جبريل ما يزال ينـــزل بالوحي على الأولياء، بل وحـــتى علـــى بعض العوام متى أذن الولي بذلك وأمر به !!، فقد ذكر عن بعضهم أنـــه إذا شـــاوره إنسان عن شيء قال : أمهلني حتى أستأذن لك فيه جبريل عليه السلام، وأنه كـــان إذا قال لعامي يا فلان تكلم على العلماء فيتكلم عليهم في معاني الآيات والأحاديث حـــتى لو كان هناك عشرة آلاف محبرة لكلت عنه !! ثم يقول له اسكت فلا يجـــد ذلـــك العامي معه كلمة واحدة من تلك العلوم[1] !!.

٢/ من المقولات المشهورة عندهم قولهم :

(النبي مشرع للعموم، والولي مشرع للخصوص !!!)[2].

وظاهر هذه المقولة يفيد أن ما جاء به النبي ﷺ لا يصلح إلا للعوام فقط، أما ما يصلح للخواص فلم يأت به النبي ﷺ؛ لذا احتاجوا إلى شريعة أخرى تناسبهم تنـــزل علـــى الأولياء، وهذا كلام صريح أيضا في اتهام الدين بعدم الكمال.

وقد حاول بعضهم أن يجد لهذه الزلة مخرجا فزعم أن المراد منها هو :

(أن النبي مبين للعوام برسالته، ومبين للخواص بولايته، لا أن الولي يشـــرع الأحكام الشرعية؛ فإنه ليس له ذلك، وإنما له تبيين الحقائق الكشفية بطريـــق الـــولاء والوراثة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أن الأولياء ﷺ تبين ما أجمل في الســـنة، والنبي يبـــين ما أجمل في القرآن)[3].

وهذا الذي حمل عليه هذا القائل تلك المقولة بعيد جدا، وهو وإن حـــاول أن يصرفها عن ظاهرها لكي لا يكون فيها التصريح بأن الأولياء يشرعون ففـــي ثنايـــا كلامه ما يدل على المعنى نفسه، وبيان ذلك فيما يلي :

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للشعراني (١/١٣٥).

(٢) انظر : المصدر السابق (٢/٦٣).

(٣) قاله محمد أبو المواهب الشاذلي كما في المصدر السابق.

(أ) زعم أن الأولياء لهم تبيين الحقائق الكشفية، فهو إما أن يزعم بأن هـذه الحقائق الكشفية من الدين أم لا، فإن زعم أنها ليست من الدين، فلا فائدة منـها؛ إذ أغنانا الله بالدين عما سواه، وإن زعم أنها من الدين فقد اتهمه بالنقصان، ووقع فيما فر منه.

(ب) زعم أن الأولياء يبينون ما أجمل من السنة، أي أن النبي ﷺ مات وترك من السنة أشياء مجملة تحتاج إلى كشوفات الصوفية لبيانها، ولازم ذلك أنه ﷺ لحـق بالرفيق الأعلى وما أدى الأمانة على وجهها، وما بين الأمور كما أمره الله !!! وهـذا أيضا صريح في اتهام الدين بالنقصان، واتهام للنبي بالتقصير والكتمان.

٣/ من الصوفية من اتهم النبي ﷺ بعدم تبليغ جميع ما أنـزل عليه من العلـوم والحقائق !! وعللوا ذلك بأن الصحابة لم يكونوا يطيقون تحملها !!.

فقال قائلهم :

(إن حقائق رسالة محمد ﷺ وما خصه الله تعالى به من العلم، لو وضعت على الجبال لذابت إلا أنه كان يظهرها لهم على مقاديرهم)[1].

وهذه أيضا من السموم التي نفثها الرافضة وتلقفها أرباب التصوف، وهي مـن أبين الكذب وأصرحه، ومما يبين كذبها وزيفها أنه إذا فرض جدلا صحة كون تلـك العلوم بتلك المنـزلة، وأن الصحابة الذين هم خير قرون الأمة لا تتحمـل طاقـاتهم سماعها فأن لا يتحملها أحد ممن جاء بعدهم من باب أولى فلا تكون مما تتوقف عليـه سعادة الناس لا في الدنيا ولا في الآخرة، ثم قبل ذلك من أين لهذا المدعـي أن العلـم الذي أنـزل على النبي ﷺ كان على تلك الصورة التي يصورها ؟! وأيـن الدليـل الصحيح على صحة هذه الدعوى ؟! أم هو التستر وراء أسلوب التهويل للطعـن في تبليغ النبي ﷺ للأمانة، وتسهيل طرق نشر البدعة والضلالة ؟! بـل وفتـح البـاب

(١) اللمع للسراج الطوسي ص: (١٥٩) (تحقيق محمود، وسرور/دار الكتب الحديثة، القاهرة/١٩٦٠م) .

للزنادقة كي يروجوا أفكارهم الهدامة، وادعاء أنها من تلك العلوم التي لم يبلغها النبي ﷺ إلا لبعض أفراد الأمة، وأنها مما يضن به على غير أهلها ؟!.

٤/ من مظاهر عدم إيمان الصوفية بكمال الدين ما يزعمونه من اتصالهم بالخضر، وتعلم العلم اللدني منه، وأخذ الأوراد عنه [١]؛ إذ لو رسخت عقيدة كمال الدين في نفوسهم لاستغنوا بما جاء به النبي ﷺ من الخير والهدى عن الخضر وعن غيره.

فلو ثبتت إمكانية اتصالهم بالخضر حقيقة – وهي دعوى لن تثبت البتة – فلا يجوز أخذ الأوراد عنه؛ لأن ذلك يعد طعنا في كمال الدين، فما ورد في ديننا من الأذكار والأوراد وغيرها من صنوف العبادات يكفي المسلمين في جميع أحوالهم، ولا يحتاجون معه إلى ما جاء به بقية أولي العزم من الرسل فضلا عن غيرهم.

وهناك أمور أخرى تبين موقفهم من كمال الدين بجلاء سترد عند دراسة أصولهم التي خرموا بها القاعدة، والتي سنتطرق إليها بنوع من التفصيل فيما يلي :

---

(١) انظر الميزان الخضرية للشعراني (تحقيق عبد الوارث محمد علي/دار الكتب العلمية/ط١/١٤٢٠) .

المطلب الأول : الأصول التي خرموا بها القاعدة :

أصل الصوفية أصولا عدة لتأييد باطلهم، وبث مذهبهم، وفيما يلي أذكر بعضها :

الأصل الأول : تقسيم العلم إلى علم الحقيقة وعلم الشريعة، أو تقسيم الدين إلى ظاهر، وباطن :

من البدع المشهورة عند الصوفية تقسيمهم العلم إلى علم الحقيقة وعلم الشريعة، أو تقسيم الدين إلى ظاهر وباطن، ثم يعرفون الظاهر أو علم الشريعة بأنه كل ما جاء به النبي ﷺ وبلغه لجميع الناس، وأما الباطن أو علم الحقيقة فهو ما يدركه صناديد الصوفية من تأويل نصوص الشريعة عن طريق الكشف والعلم اللدني !!

وزعم بعضهم أن (الشريعة ما ورد به التكليف، وأن الحقيقة ما حصل به التعريف، فالشريعة مؤيدة بالحقيقة، والحقيقة مقيدة بالشريعة ...)[1].

فالفقهاء والمحدثون والمفسرون ونحوهم يطلق عليهم عند الصوفية أهل الظاهر، أو علماء الشريعة، وأما زعماء الطرق الصوفية، ومن وصل منهم إلى أن تكشف له الحقائق —بزعمهم— فهم علماء الحقيقة وأهل الباطن.

يقول أحدهم :

(أهل الظاهر هم أهل الخبر واللسان، وعلماء الباطن هم أرباب القلوب والعيان ...

وعلم الظاهر حكم، وعلم الباطن حاكم، والحكم موقوف حتى يأتي الحاكم بحكم فيه)[2].

ويظهر من هذا النص تفضيلهم ما يسمونه علم الحقيقة على علم الشريعة، بل الادعاء بأن علم الشريعة لا يفيد ما لم يكن هناك عالم بالحقيقة !!، بل زعم بعضهم

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (١/١٢٥).

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/١٥٨) (دار صادر بيروت) .

أن من لم يسع لتحقيق علم الحقيقة فهو غافل عن الله جل وعلا، مفرط فيما به نجاته يوم القيامة، وأن اشتغاله بالعلوم الشرعية اشتغال بظاهر الحياة الدنيا، فقال :

(كل من اشتغل بالعلوم الظاهرة، و لم يعتقد أن وراء ما هو ساع في تعلمه من الفقه والحديث والتفسير حقائق وعلوم باطنة رمزها الشارع تحت ما أظهره من هذه الرسوم هي مقصودة له؛ **لأنها المنجية عند الله تعالى، فهو غافل عن الله تعالى، جاهل بدين محمد ﷺ داخل تحت قوله تعالى :** ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾[1])[2].

ومما يدل على ذلك التفضيل أيضا ما صرح به ابن عربي[3] في قوله :

(إذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو ولي عارف؛ ولهذا مقامه من حيث هو عارف أتم وأكمل من حيث هو رسول أو ذو تشريع وشرع)[4].

فأهل الحقيقة أفضل وأكمل من علماء الشريعة، بل وأعلم، ولو كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة كما هو شأن كثير من شيوخ الطرق.

ولا بد من لفت الانتباه إلى شيء مهم في هذا النص وهو قوله (يتكلم بكلام خارج عن التشريع) فلازم هذا الكلام أن علم الحقيقة خارج عن التشريع، ومخالف

---

(١) سورة الروم، الآية (٧).

(٢) قاله عبد الغني النابلسي في الفتح الرباني والفتح الرحماني ص : (١٣٣).

(٣) هو : محمد بن علي بن محمد، أبو بكر، الحاتمي، الأندلسي، المرسي المعروف بابن عربي، الصوفي. ولد سنة ستين وخمسمائة، وتوفي بدمشق سنة ثمان وثلاثين وستمائة، من مؤلفاته : (الفتوحات المكية) و (فصوص الحكم) وفيه الكفر الصريح ؛لذا قال الذهبي رحمه الله : (إن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر).
انظر : السير (٢٣/٤٨)، ونفح الطيب للمقري (٢/١٦١) (تحقيق إحسان عباس/دار صادر/١٤٠٨)، وجزء فيه عقيدة ابن عربي وحياته لتقي الدين الفاسي (تحقيق الحلبي/مكتبة ابن الجوزي/ط١/١٤٠٨).

(٤) فصوص الحكم (١/١٣٥) (مطبعة الحلبي، القاهرة/ط٢/١٩٦٦م).

لظاهر الشريعة، ولهذا يزعمون أن النبي ﷺ لم ينـزل عليه هذا العلم إلا بعد استقرار الشرائع وثبوتها، فلتأخره في النـزول يقدم إذا تعارض مع علم الظاهر؛ لأنه كالناسخ له.

يقول أحدهم :

(إن جبريل عليه السلام نـزل إلى رسول الله أولا بالشريعة، فلما تقـررت ظواهر الشريعة واستقرت نـزل إليه بالحقيقة المقصودة.

والحكمة المرجوة من أعمال الشريعة هي الإيمان والإحسان، فخص رسول الله ﷺ بباطن الشريعة بعض أصحابه دون البعض. وكان أول من أظهر علم القوم وتكلم فيه سيدنا علي كرم الله[1] وجهه عن رسول الله ﷺ ...)[2].

وربما أوردوا للاستدلال على تفضيل علماء الحقيقة على علماء الشريعة أقوالا مزخرفة كقولهم (نهاية الفقيه مبدأ الفقير. .)[3]، وقصصا خرافية كتلك التي ذكرها الشعراني عن إبراهيم الرقي[4] وفيها أنه قال :

(قصدت أبا الخير التيناتي[5] مسلما عليه، فصلى المغرب، **فما قرأ الفاتحة مستويا !!!** فقلت في نفسي : ضاعت سفرتي، فلما سلمت خرجت للطهارة، فقصدني السبع فعدت إليه، وقلت له : إن الأسد قصدني.

فخرج وصاح عليه وقال : ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني ؟! فتنحى الأسد !! ومضيت أنا وتطهرت فلما رجعت قال لي : اشتغلتم بتقويم الظواهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد)[1].

---

(١) انظر ص : (٥٠٠) من هذا البحث .

(٢) جمهرة الأولياء لأبي الفيض المنوفي (١/١٥٩) (مطبعة المدني، القاهرة /١٩٦٧م).

(٣) الأنوار القدسية (١/٢٢).

(٤) لم أقف له على ترجمة في المصادر التي اطلعت عليها .

(٥) يقال اسمه حماد بن عبد الله، أبو الخير، التيناتي، المغربي، الأقطع لقب به لأنه أخذ مع لصوص بات معهم في غار فقطع، وكان أسود مملوكا فأعتق. توفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، وقيل غير ذلك.
انظر : حلية الأولياء (١٠/٣٧٧)، تاريخ دمشق (٦٦/١٦٠).

فبيت القصيد من هذا التقسيم، ومكمن الخطر فيه، أن الصوفية اتخذوه ذريعة للخروج من الدين وتبرير اتباعهم الذوق، ووسيلة لتأويل النصوص حتى توافق أهواءهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(وهؤلاء قد يسمون ما أحدثوه من البدع حقيقة، . .، وطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، ولكن بما يراه ويذوقه ويجده ونحو ذلك)[٢].

ولقد حاولوا أن يجدوا لهذا التقسيم مستندا شرعيا فوضعوا في ذلك حديثا فقال أحدهم :

(أمر الله نبينا محمدا ﷺ بكتم أشياء مما لا يسعه غيره؛ للحديث المروي عنه ﷺ أنه قال : (أوتيت ليلة أسري بي ثلاثة علوم، فعلم أخذ علي كتمه، وعلم خيرت في تبليغه، وعلم أمرت بتبليغه)

ثم فسر هذه العلوم بما يلي :

العلم الذي أمر بتبليغه هو علم الشرائع، والعلم الذي خير في تبليغه هو علم الحقائق، والعلم الذي أخذ عليه في كتمه هو الأسرار الإلهية)[٣].

وفي رواية :

(أخذت ليلة أسري بي ثلاثة علوم، علم أخذ علي العهد أن أبلغه للخاص والعام، وعلم أخذ علي العهد أن لا أبلغه إلا لخواص أصحابي الذين يقدرون على حمله، وعلم لا يقدر على حمله غيري فأخذ علي العهد ألا أخبر به أحدا)[١].

=

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (١/٩٤)، وانظر تاريخ دمشق (٦٦/١٦٧).

(٢) العبودية ص : (١٥) (تحقيق الحلبي/دار الأصالة/ط٣/١٤١٩) .

(٣) الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي (١/١١٧) (ط٤/١٩٨١).

كما استدلوا بعبارة ينسبها الباطنية والرافضة إلى النبي ﷺ وهي موضوعة أيضا، وهي :

(إن لكل آية ظاهرا وباطنا، وحدا ومطلعا إلى سبعة أبطن، وإلى سبعين)[٢].

ويحكون عن عمر ﷺ أنه قال :

(كان النبي ﷺ وأبو بكر إذا تخاطبا كنت كالزنجي بينهما) [٣].

أي أنهما إذا تكلما بعلم الحقيقة يكون عمر ﷺ كالزنجي لا يفهم من كلامهما شيئا ! فلو ثبت لقيل لهؤلاء المدعين إذا كان عمر ﷺ -وهو المحدث الملهم- لا يفهم هذا العلم ويكون كالزنجي فألا يفهمه جهال الصوفية أولى وأحرى.

والمقصود أن الصوفية لما أخذوا بهذا المبدأ الباطني أنتج عندهم نتائج خطيرة أجملها فيما يلي :

١/ اعتقادهم أن النبي ﷺ لم يبلغ كل ما أمر بتبليغه لسائر الأمة، فقد خص بعض الصحابة بأمور لم يطلع عليها غيرهم، بل إن الله جل وعلا خصه بعلوم لم يبلغ منها لا القليل ولا الكثير !!

٢/ أنهم فضلوا ترهات الصوفية، وتأويلاتهم الباطنية على العلوم الشرعية الموروثة عن النبي ﷺ.

٣/ أن من يقول بتقسيم الدين إلى الحقيقة والشريعة يدور كلامه بين أمرين :

أحدهما : أن يزعم أن علم الحقيقة مما أنزل على النبي ﷺ، فإما أن يدعي أنه ﷺ لم يبلغه لأحد وفي هذا اتهام للنبي ﷺ بعدم التبليغ، ورميه بالخيانة وعدم أداء الأمانة، أو أن يدعي بأنه بلغه لبعض الصحابة دون بعض، وهذه دعوى تحتاج إلى

=

(١) الجيش الكفيل بأخذ الثأر لمحمد التشيتي بهامش بغية المستفيد بشرح منية المريد للعمري التحاني ص : (١١٠) (مطبعة البابي الحلبي، القاهرة/١٩٥٩م).

(٢) أورده الشعراني في الطبقات الكبرى (٦/١) منسوبا إلى النبي ﷺ.

(٣) انظر :مجموع الفتاوى (٢٦١/٢) فقد حكم عليه شيخ الإسلام رحمه الله بالوضع، وقال بأنه كذب باتفاق أهل المعرفة.

دليل يصححها، ولا دليل في ذلك إلا محض الافتراء؛ إذ الثابت أن النبي ﷺ أمر بأن يبلغ جميع الرسالة إلى جميع الأمة.

ثانيهما : أن يزعم أن علم الحقيقة لم ينزل على النبي ﷺ، وإنما وصلوا إليه بالكشف والمجاهدات، ولا شك أن هذا فيه اتهام صريح للدين بالتقصير والنقصان؛ إذ جاء بالعلم المفضول وأهمل العلم الفاضل.

٤/ أن ما يزعمونه من علم الحقيقة صار بابا يلج منه كل زنديق أراد مخالفة الشريعة.

الأصل الثاني : تقديس المشايخ وإعطاؤهم حق التشريع :

من الأصول التي خرم بها الصوفية قاعدة كمال الدين تقديسهم مشايخ الطرق، وإعطاؤهم حق التشريع، فالشيخ أو الولي عند الصوفية له مكانة سامية، ومنزلة رفيعة تحتم على المريد أن يبالغ في تقديسه، ويغلو في إطرائه، ويجهد في طاعته ولو أمره بمعصية الله، ويسلم له ولا ينكر عليه حتى بقلبه، ويسلس له القياد ويكون بين يديه كالميت بين يدي مغسله فلا يعترض بـ (لم) ولا (كيف)، لأن الاعتراض عليه ذنب قد لا يغتفر، ويجب أن يكون دائم الذكر له؛ إذ الغفلة عن ذكر الشيخ معصية كبرى، وبلية عظمى، وعليه أن يتأدب معه ويعتقد فيه ما أمكن[1]، ويعد نفسه من خدمه لا من مريديه، بحيث (إذا سئل عن شيخه فليقل كنت خادمه، ولا يقل كنت صاحبه فإن مقام الصحبة عزيز !!!)[2].

يقول القشيري[3] :

(من صحب شيخا من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة، على أن الشيوخ قالوا : عقوق الأستاذين لا توبة عنه[4])[5].

---

(١) انظر الأنوار القدسية للشعراني (٦/٢).

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني (١٤١/٢).

(٣) هو : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، أبو القاسم، القشيري، الخراساني، النيسابوري، الشافعي، شيخ خراسان في التصوف. ولد سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، وتوفي سنة خمس وستين وأربعمائة. صنف كتاب (عيون الأجوبة في فنون الأسولة) و(الرسالة) وغيرهما.
انظر : تاريخ بغداد (٨٣/١١)، السير (٢٢٧/١٨).

(٤) من نعم الله على المسلمين أن الله لم يقل ذلك، و لم يقله رسوله ﷺ، وإلا للزمهم من العنت ما الله به عليم.

(٥) الرسالة القشيرية ص : (٦٣٣-٦٤٤) (تحقيق عبد الحليم محمود/دار الكتب الحديثة، القاهرة) .

ويقول الدباغ[1] :

(الشيخ للمريد في درجة لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإيمانه متعلق به، وكذا سائر أموره الدينية والدنيوية.

فقال له تلميذه : إني أخاف من الله تعالى في أمور فعلتها.

فقال له : ما هي ؟!

فذكر له ما حصل.

فقال : لا تخف من هذه الأشياء، ولكن أكبر الكبائر في حقك أن تمر عليك ساعة ولا أكون في خاطرك، فهذه هي المعصية التي تضرك في دينك ودنياك)[2].

ويقول أيضا :

(من له عقل سليم، وطبع مستقيم لا يرضى سوى شيخه، ويدور معه حيث دار)[3].

ويقول أيضا :

(لا يعترض على المشايخ فيما يصنعون؛ فإنهم لا يتصرفون إلا عن إذن وبصيرة، وليس هم ممن يدخلون تحت جنس العالم الأول –أعني عالم الحجاب– الذين لم يتشوفوا إلى عالم الملكوت، ولم تعتن عقولهم إلا بالظواهر خاصة ...)[4].

ومن مظاهر هذا الغلو، وصوره الكثيرة ما يلي :

---

(١) هو : عبد العزيز بن مسعود بن أحمد، الإدريسي، الدباغ. ولد سنة (١٠٩٥هـ)، وتوفي سنة (١١٣٢هـ) كان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ومع ذلك يجعله الصوفية من كبار العارفين، ويزعمون أنه يتكلم في فنون العلم بكلام يعجز عنه الأئمة الجهابذة !!! .

انظر : الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز لأحمد بن المبارك، والأعلام (٤/٢٨) .

(٢) الإبريز (١/٢٤٠).

(٣) المصدر السابق (٢/٥٠).

(٤) المصدر السابق (٢/٥٠).

(أ) القول بعصمتهم :

من العقائد التي يلتقي فيها الصوفية مع الرافضة ادعاء العصمة لغير الأنبيـــاء، فكما تدعي الرافضة عصمة الأئمة، كذلك يدعي الصوفية عصمة الأولياء، وقد صرح بهذه العقيدة غير واحد من أقطابهم، من ذلك ما ذكره أبو القاسم القشيري في قوله :

(اعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيـــق للطاعـــات، والعصمة عن المعاصي والمخالفات)[1].

فجعل من كرامات الأولياء عصمتهم من المعاصي والذنوب، وأما ابن عـــربي فقد جعلها شرطا من شروط الولي الذي يسميه الإمام الباطن، فقال :

(إن من شرط الإمام الباطن أن يكون معصوما)[2].

وبعضهم يتحفظ من كلمة العصمة ويلجأ إلى لفظة أخرى تؤدي معناهـــا فيعـــبرون بالحفظ تدليسا وتمويها[3]، فيقولون :

(من شرط الولي أن يكون محفوظا، كما أن من شـــرط النـــبي أن يكـــون معصوما)[4].

وقد حاول بعضهم التمويه بالباطل فزعم أن المانع للولي من الوقوع في المعصية لا يصل إلى حد العصمة التي يتصف بها الأنبياء، ولما أراد التفريق بينـــهما لم يـــأت بطائل؛ إذ زعم أن ذلك المانع في الأنبياء ذاتي، وهو في الأولياء عرضي !!!

يقول الدباغ :

(امتاز الولي عن سائر الناس بأمر واحد، وهو ما خصه الله تعـــالى بـــه مـــن المعارف ومنحه من الفتوحات، ومع ذلك فالمخالفة إن ظهرت عليه فإنما هي بحســـب

---

(١) الرسالة ص : (٦٦٧).

(٢) الفتوحات المكية (٣/١٨٣) (تحقيق عثمان يحيى/الهيئة المصرية العامة للكتاب/١٩٧٢) .

(٣) انظر تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي لمحمد أحمد لوح (١/٢٢٢) (دار الهجرة/ط١/١٤١٦).

(٤) الرسالة القشيرية ص : (٦٦٩).

ما يظهر لنا لا في الحقيقة؛ لأن المشاهدة التي هو فيها تأبى المخالفة، وتمنع المعصية منعا لا ينتهي إلى حد العصمة حتى تزاحم الولاية النبوة، فإن المنع من المعصية ذاتي في الأنبياء، عرضي في الأولياء، فيمكن زواله في الأولياء، ولا يمكن زواله في الأنبياء ...)[1].

وهذه العقيدة الباطلة تلزم منها لوازم فاسدة ونتائج خطيرة منها اعتقاد أن المشايخ لا يأمرون إلا بالحق، ولا يحكمون إلا بالعدل، ولا يتكلمون إلا بالصدق، فيكون كلامهم ككلام الله ورسوله في وجوب طاعته، وضرورة التزامه، ولازم هذا أن يعتقد في أحكامهم وكلامهم وأفعالهم بل وتقريراتهم بأنها شريعة جديدة واجبة الطاعة والامتثال، ولا شك أن هذا طعن صريح في كمال الدين وتمامه.

فمن نتائج هذه العقيدة الفاسدة قبول كل ما يصدر عن المسمى عندهم بالولي والاذعان له من غير أدنى نكير، فإذا زلت به القدم، وأدركه ما يدرك بني آدم، فوقع في الزلل والخطل فعلى الأتباع ألا ينكروا ذلك حتى بقلوبهم، بل عليهم أن يسلموا للأولياء أحوالهم؛ لأن ما يظنونه خطأ، أو يرونه في الظاهر معصية لو كشف عنهم الحجاب لرأوه عين الصواب، وحق اليقين !!!.

---

(١) الإبريز (٢/٣٦).

(ب) دعوى أنهم يقابلون الرسول يقظة لامناما :

يزعم الصوفية أن رؤية النبي ﷺ عيانا بعد موته أمر ممكن وقوعه، بل متيسر لمن رفع عنه الحجاب؛ لأن النبي ﷺ سائر في كل مكان وجدت فيه شريعته، فقد ذكر الشعراني عن أحد الصوفية زعمه بأنه يجتمع بالنبي ﷺ يقظة أي وقت أراد، فقال معلقا :

(وهو صادق !! لأنه ﷺ سائر في كل مكان وجدت فيه شريعته، وما منع الناس من رؤيته إلا غلظ حجابهم !!)[1].

لهذا فالرؤية المنامية ليست لها عندهم أهمية كبرى، فقد حكى الشعراني عن أحد شيوخهم أنه كان يرى النبي ﷺ كثيرا في المنام فيخبر بذلك أمه فتقول : يا ولدي إنما الرجل من يجتمع به في اليقظة !! فلما صار يجتمع به في اليقظة ويشاوره على أموره قالت : له الآن قد شرعت في مقام الرجولية)[2].

ولكي يوصد الصوفية الباب في وجه المنكرين للرؤية في اليقظة فقد زعموا أن النبي ﷺ حكم على من لم يؤمن بها بسوء الخاتمة، والموت على غير الملة الإسلامية، فحكى الشعراني عن أحدهم أنه كان كثير الرؤيا لرسول الله ﷺ، وأنه كان يقول :

(قلت لرسول الله ﷺ إن الناس يكذبوني في صحة رؤيتي لك.

فقال رسول الله ﷺ : وعزة الله وعظمته من لم يؤمن بها، أو كذبك فيها لا يموت إلا يهوديا، أو نصرانيا، أو مجوسيا !!!)[3].

والمقصود أنه لا يكاد كتاب من الكتب التي تحكي أحوال الصوفية يخلو من هذه الدعوى الكاذبة؛ إذ ما من أحد منهم يحدث بدعة، ثم يروم ترويجها بين الأمة إلا

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (٢/١٦٨) وذكر هذا في ترجمة شيخه محمد الصوفي نزيل مدينة الفيوم.

(٢) حكاه في الطبقات الكبرى (٢/٧٧) عن إبراهيم المتبولي الذي زعم أن لا شيخ له إلا رسول الله ﷺ.

(٣) الطبقات الكبرى (٢/٦٧).

ويجعل هذه الدعوى ملجأه، فيزعم أنه التقى بالنبي ﷺ يقظة وعلمه ذلك، وأوصاه بأن يبلغه للأمة !!!، فابن عربي زعم أنه رأى النبي في اليقظة فأعطاه كتاب فصوص الحكم وأمره أن يبلغه للناس، وكذلك صاحب كتاب جواهر المعاني رأى النبي ﷺ يقظة فأمره بتأليفه[1].

وإنما أراد صناديد الصوفية من وراء هذا كله أن يقتلوا في نفوس الأتباع عقيدة كمال الدين، التي تقف عقبة كئودا وسدا مانعا أمام بدعهم وترهاتهم، فصاروا يحاولون إثبات عدم انقطاع الوحي، واستمرار التشريع، وأن النبي ﷺ حتى بعد موته يرجع إلى الدنيا ليلتقي بالخاصة فيعلمهم ما لم يعلمه للعامة !! وقد صرح أحدهم بهذا فقال :

(. . إنه ﷺ كان يلقي الأحكام للعامة في حياته، يعني إذا حرم شيئا حرمه على الجميع، وإذا افترض شيئا افترضه على الجميع، وهكذا سائر الأحكام الظاهرة، ومع ذلك كان ﷺ يلقي الأحكام الخاصة للخاصة،. .، فلما انتقل إلى الدار الآخرة وهو كحياته ﷺ في الدنيا سواء صار يوحي إلى أمته الأمر الخاص للخاص، ولا مدخل للأمر العام فإنه انقطع بموته ﷺ ...)[2].

وأكتفي لرد هذا البهتان بإيراد حديث أنس ﷺ الذي فيه أن أبا بكر ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ قال لعمر ﷺ :

(انطلق بنا إلى أم أيمن[3] نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهيا إليها بكت.

---

(١) انظر جواهر المعاني (٥٣/١) (مطبعة الحلبي، القاهرة/١٩٦٣) .

(٢) قاله التجاني جوابا عن سؤال حول تفضيله لورده على القرآن الكريم !! انظر : جواهر المعاني (١٤١/١).

(٣) هي الصحابية الجليلة : بركة بنت ثعلبة بن عمرو، أم أيمن، وكان يقال لها أم الظباء، الحبشية مولاة رسول الله ﷺ، وحاضنته أعتقها حين تزوج خديجة، وهي أم أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ .ماتت في خلافة عثمان ﷺ ،وقيل غير ذلك .

=

فقالا لها : ما يبكيك ؟ ما عند الله خير لرسول الله ﷺ.

فقالت : ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء.

فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها)[1].

=

انظر : السير (٢/٢٢٣)، الإصابة (١٣/١٧٧) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن رضي الله عنها (٤/١٩٠٧) رقم (٢٤٥٤) .

(ج) دعوى أنهم يتلقون عن الله بلا واسطة :

يزعم الصوفية أنهم يتلقون عن الله بلا واسطة، ويتبجحون بذلك، ويفتخرون على أهل الشريعة قائلين :

(أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت !!)[1].

ولبيان زيف هذا الكلام المتهافت يقال : هذا القرآن الكريم الذي هو منبع العلوم وأصل المعرفة قد بلغنا عن طريق الأموات أيضا شأنه شأن الحديث فهل أخذتموه أنتم عن الحي الذي لا يموت ؟!

فإن زعموا أنهم أخذوه عن طريق الأموات بطل تبجحهم، وسقطت حجتهم. وأما إن زعموا أنهم أخذوه عن الحي الذي لايموت فهذا بلا شك ادعاء سافرللنبوة؛ لذا نجد ابن عربي الملحد يسمي أصحابه بأنبياء الأولياء فيقول :

(وأما أنبياء الأولياء في هذه الأمة فهو كل شخص أقامه الحق في تجل من تجلياته وأقام له مظهر محمد ﷺ ومظهر جبريل عليه السلام فأسمعه ذلك المظهر الروحاني خطاب الأحكام المشروعة لمظهر محمد ﷺ حتى إذا فرغ من خطابه وفزع عن قلب هذا الولي، عقل صاحب هذا المشهد جميع ما تضمنه ذلك الخطاب من الأحكام المشروعة الظاهرة في الأمة المحمدية)[2].

---

(١) قاله أبو يزيد البسطامي كما في الفتوحات المكية (٣٦٥/١)، والطبقات الكبرى الشعراني (٥/١).

(٢) الفتوحات المكية (٣٥٧/٢).

فهذا تصريح جلي من هذا الملحد بأن النبوة لم تنقطع، وأن الأولياء يوحى إليهم كما يوحى إلى الأنبياء، وأما أبو حامد الغزالي فيحاول التلبيس باختراع فرق غير مؤثر البتة ثم يغاير بين الأسماء فيقول بأن النبي ﷺ أخبر عن الغيب وأمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن، وإذا جاز ذلك للنبي جاز لغيره؛ إذ النبي شخص مكاشف بحقائق الأمور، وشغل بإصلاح الخلق، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق، وهذا لا يسمى نبيا بل يسمى وليا[1].

فغاير بين اسم النبي والولي وفرق بينهما بأن النبي مع انشغاله بإصلاح الخلق فإنه يكاشف، بخلاف الولي الذي يكاشف أيضا لكن بشرط طرح العلائق كلها، لهذا صرح بأن في الأولياء من يكاد يستغني عن مدد الأنبياء فقال :

(في الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغني عن مدد الأنبياء)[2].

ونقل الشعراني عن بعضهم أنه قال :

(لا يحتاج السالك إلى الواسطة إلا وهو في الترقي فإذا وصل إلى معرفة الله عز وجل فلا يحتاج إلى واسطة)[3].

إذا تقرر هذا فالسؤال الذي ينبغي طرحه هنا هو : هل من يعتقد كمال الدين يقبل بأي وجه من الوجوه أن هناك بعد النبي ﷺ من يوحى إليه ؟!

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٢٨).

(٢) مشكاة الأنوار ص : (٤٠) (تحقيق عفيفي/دار القومية، القاهرة/١٣٨٣) .

(٣) الطبقات الكبرى (٢/٢٤٦).

لا شك أن الجواب سيكون بالنفي؛ لذا فإن القوم لا يعتقدون كمال الدين على النحو الذي قررته في الباب الأول من هذا البحث، وإلا لما وجد عندهم هذا الكفر سوقا ينفق فيها ويروج.

(د) تفضيلهم على الأنبياء :

سبق بيان أن ادعاء الصوفية التلقي عن الله بلا واسطة ادعاء سافر للنبوة، بل ادعاء لما هو أفضل من النبوة؛ إذ إن الأنبياء يوحى إليهم بواسطة الملك، وهؤلاء يزعمون أنهم يتلقون من الله مباشرة[1]، وقد صرح بهذا غير واحد من غلاتهم، فزعموا بأن خاتم الأولياء أفضل من النبي ﷺ، مما جعل علماء السنة ينبرون لرد هذا البهتان، ويذكرونه في ثنايا مصنفاتهم العقدية.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله :

(ولا نفضل أحدا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء)[2].

يقول ابن أبي العز رحمه الله معلقا على كلام الطحاوي :

(يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الاتحادية وجهلة المتصوفة)[3].

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله :

(من النساك من يزعم أن العبادة تبلغ بهم إلى أن يكونوا أفضل من النبيين والملائكة المقربين)[4].

---

(١) انظر : بغية المرتاد لشيخ الإسلام رحمه الله ص : (٣٨٦-٣٨٧).

(٢) العقيدة الطحاوية مع شرحها لابن أبي العز ص : (٧٤١).

(٣) المصدر السابق ص : (٧٤٢).

(٤) مقالات الإسلاميين ص : (٢٨٩).

وأول من ابتدع القول بختم الولاية وأظهر تفضيل خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء هو الحكيم الترمذي[1]، الذي حكم عليه علماء بلده بالكفر، وأخرجوه من ترمذ لذلك[2]، ثم تبعه عليه غلاة الصوفية كابن عربي وغيره.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(... يدعي أحدهم أنه خاتم الأولياء ظانا أن خاتم الأولياء أفضلهم، قياسا على خاتم الأنبياء، ثم يدعون لخاتم الأولياء ما هو أعظم من النبوة والرسالة.

وخاتم الأولياء كلمة لا حقيقة لفضلها ومرتبتها، وإنما تكلم أبو عبد الله الترمذي بشيء من ذلك غلطا لم يسبق إليه، ولم يتابع عليه، ولم يستند فيه إلى شيء)[3].

يقول ابن عربي :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي [4].

نقل الشعراني عن بعضهم أنه قال في معنى البيت :

(إن مقام النبوة يعطى الأخذ عن الله بواسطة وحي الله، ومقام الرسالة يعطى تبليغ ما أمره الله به للعباد، ومقام الولاية الخاصة يعطى الأخذ عن الله بالله من الوجه

---

(١) هو : محمد بن علي بن الحسن، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي، الشافعي، الصوفي. له مؤلفات عدة منها : (ختم الولاية)، و(دقائق التفسير) وغيرهما.
انظر : حلية الأولياء (٢٣٣/١٠)، السير (٤٣٩/١٣)، الطبقات الكبرى للشعراني (٧٨/١).

(٢) انظر : السير (٤٤١/١٣)، تذكرة الحفاظ (٦٤٥/٢)، طبقات الشافعية الكبرى (٢٤٥/٢)، الطبقات الكبرى للشعراني (١٤/١).

(٣) بغية المرتاد ص : (٣٩٢).

(٤) أورده الشعراني في الطبقات الكبرى (٦٢/٢) دون أن ينسبه !!.

الخاص !! وهذه الثلاثة كلها موجودة فيمن كان رسولا فافهم ولا تظن أن أحدا من أهل الله يعتقد تفضيل الولاية على النبوة والرسالة)[1].

ولا شك أن البيت واضح الدلالة على تفضيل الولاية على النبوة والرسالة، وهو ما فهمه منه غير واحد من أهل العلم، ويقتضيه كلام الشارح أيضا، فقوله بأن لا أحد من الصوفية يفضل الولاية على الرسالة تضليل وذر للرماد في العيون، ومن النقول الصريحة في هذا قول ابن عربي أيضا :

(لما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن، وقد كمل سوى موضع لبنة، فكان ﷺ تلك اللبنة، **غير أنه ﷺ لا يراها إلا كما قال لبنة واحدة**، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا، فيرى ما مثله به رسول الله ﷺ، **ويرى في الحائط موضع لبنتين**، واللبن من ذهب وفضة، فيرى اللبنتين اللتين ينقص الحائط عنهما **ويكمل بهما** لبنة فضة ولبنة ذهب، فلا بد أن يرى نفسه تنطبع في موضع تينك اللبنتين فيكون **خاتم الأولياء تينك اللبنتين فيكمل الحائط بهما**.

والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر، **وهو موضع اللبنة الفضية**، وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام، كما هو آخذ عن الله في السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه؛ لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلا بد أن يراه هكذا، **وهو اللبنة الذهبية في الباطن؛ فإنه أخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسل**)[2].

---

(١) قاله أبو المواهب الشاذلي كما في الطبقات الكبرى للشعراني (٢/٦٣).

(٢) فصوص الحكم (١/٤٢-٤٣) .

وهذا نص صريح جدا لا يحتمل التأويل في تفضيل هؤلاء الملاحدة لما يسمونهم بالأولياء على الأنبياء، وبيان ذلك فيما يلي :

١/ الولي عند ابن عربي هو الذي يرى الأمر على حقيقته لـــذا رأى موضـــع لبنتين، بخلاف النبي الذي رأى موضع لبنة واحدة، وهذا تنقص صريح للنبي ﷺ.

٢/ الولي عنده بمثابة اللبنة الذهبية، والنبي بمثابة اللبنة الفضية؛ لذا قال ابـــن أبي العز رحمه الله[١] :

(فمن أكفر ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب، وللرسول المثل بلبنة فضـــــة، فيجعل نفسه أعلى وأفضل من الرسول ؟! تلك أمانيهم : ﴿ إِن فِي صُدُورِهِم إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾[٢] وكيف يخفى كفر من هذا كلامه ؟!)[٣].

٣/ الولي يأخذ من المعدن مباشرة دون الحاجة إلى توسط الملك، بخلاف النـــبي ﷺ الذي يحتاج إلى ذلك.

والمقصود أن هؤلاء قطع عليهم طريق ادعاء النبوة بتصريح النبي ﷺ بأنه خـــاتم النبيين فأحدثوا القول بختم الولاية، وزعموا أن الولاية أفضل من النبوة والرســـالة، ثم خلصوا إلى أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء !!.

---

(١) هو : علي بن علي بن محمد، أبو الحسن، الأذرعي، الدمشقي الصالحي، الحنفي، المشهور بابن أبي العز. ولد سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، وتوفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة. كان صاحب سنة واتباع، لـه مؤلفات ماتعة منها : (شرح العقيدة الطحاوية) و(الاتباع) وغيرهما.
انظر : الدرر الكامنة (٨٧/٣) (تحقيق الكرنكوي/إحياء التراث العربي)، شذرات الذهب (٣٢٦/٦).

(٢) سورة غافر، الآية (٥٦).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص : (٧٤٥).

ولعل القصد من هذا هو السعي في أن يكون لهم ولكلامهم القدسية التي للنبي ﷺ فيقبل منهم كل ما قالوه وفعلوه من غير اعتراض، وأن لا يقابلوا إلا بقول النـــاس (التسليم أسلم !!)، فيتمكنوا بعد ذلك من نشر البدع والإلحاد، وبث عقيدة الحلول والاتحاد التي تمكنهم من ادعاء ما هو أكبر من النبوة ألا وهو مقام الربوبية !!

الأصل الثالث : التنفير من العلم والدعوة إلى الجهل.

من الأساليب الماكرة التي يسلكها الصوفية لترويج مذاهبهم الهدامة صرف الناس عن العلم الشرعي حتى لا يعترض عليهم بالوحي، فزعموا أن من انشغل بالعلم لا يفلح، وأن الاعتماد على وساوس النفوس أولى من الاعتماد على المنقول، كما زعموا أن كثيرا من المشايخ وصلوا مع كونهم أميين لا يعرفون الكتابة ولا القراءة؛ إذ الكشف والفتح للجاهل أيسر حتى قال الشعراني :

(إن الأمي الذي لم يتقدم له اشتغال بعلم الظاهر والنقل أقرب إلى الفتح من الفقيه والمتكلم اللذين يعملان بعلمهما، كما قال شيخنا ﷺ أنه لما كان لا فاعل إلا الله، وجاء هذا الفقيه والمتكلم ليدخلا إلى الحضرة الإلهية بميزانهما ليزنا على الله ردا !! وما عرفا أنه تعالى ما أعطاهما تلك الموازين إلا ليزنا بها لله لا على الله !! فحرما الأدب فعوقبا بالجهل بالعلم اللدني الفتحي فلم يكونا على بصيرة من أمرهما !!! فإن كان من وقع له ذلك وافر العقل علم من أين أتي عليه.

فمنهم من دخل الحضرة وترك ميزانه على الباب حتى إذا خرج أخذها ليزن بها لله تعالى، وهذا أحسن حالا ممن دخل بها على الله، وأحسن منه من كسر ميزانه وأحرقه أو ذوبه حتى زال كونه ميزانا ...)[1].

ولا إخالهم إلا صادقين في هذا، فمن رام الفتح الصوفي، والعلم الذي يسمونه بالعلم اللدني فعليه أن يكسر ميزان الشرع أو يحرقه؛ لأن الشياطين لا تتنزل إلا على كل أفاك أثيم، عري من الفقه، صفر اليدين من العلم.

وقد نقل عن الجنيد[2] أنه قال :

---

(١) الأنوار القدسية للشعراني (١/٨٠-٨١).

(٢) هو : الجنيد بن محمد بن الجنيد، أبو القاسم النهاوندي، ثم البغدادي، القواريري. ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، وتوفي سنة سبع وتسعين ومائتين، عرف بشيخ الصوفية وسيد الطائفة.
انظر : حلية الأولياء (١٠/٢٥٥)، السير (١٤/٦٦)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/٨٤).

(المريد الصادق غني عن علم العلماء، وإذا أراد الله بالمريد خيرا أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء)[1].

ونقل الشعراني عن الدقاق[2] أنه كان يقول :

(آفة المريد ثلاثة أشياء : التزويج، وكتابة الحديث، ومعاشرة الضد)[3].

ويحكي عن نفسه –أي الشعراني– أنه سأل شيخه قائلا :

(هل أعتمد على النقول ؟!

فقال له : لا !! بل اعتمد في نفسك على ما يظهره الله فيك من العلوم؛ فإن نفسك أقرب إليك ممن تنقل عنه، ... فلا يعتمد على النقل إلا لمن يطلب النقول)[4].

ويقول جعفر الخلدي[5] :

(لو تركني الصوفية لجئتكم بإسناد الدنيا لقد مضيت إلى عباس الدوري[6] وأنا حدث فكتبت عنه مجلسا واحدا، وخرجت من عنده فلقيني بعض من كنت أصحبه من الصوفية فقال : إيش هذا معك ؟ فأريته إياه فقال : ويحك تدع علم الخرق وتأخذ علم الورق، ثم خرق الأوراق فدخل كلامه قلبي فلم أعد إلى عباس)[7].

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (١/٧٣).

(٢) هو نصر بن أحمد بن نصر، أبو بكر الدقاق الكبير، كان من أقران الجنيد، ومن كبار متصوفة مصر.
انظر : الطبقات الكبرى للشعراني (١/٨٩).

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني (١/٧٦).

(٤) دررالغواص للشعراني ص : (٢٤).

(٥) هو جعفر بن محمد بن نصير، أبو محمد، البغدادي، الخلدي. وصفه الحافظ ابن كثير بأنه (كان ثقة صدوقا دينا)، توفي في رمضان سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.
انظر : حلية الأولياء (١٠/٣٨١)، البداية والنهاية (١١/٣٠٧).

(٦) هو : عباس بن محمد بن حاتم، أبو الفضل، الدوري ثم البغدادي، مولى بني هاشم. ولد سنة خمس وثمانين ومائة، وتوفي سنة إحدى وسبعين ومائتين، كان إماما ثقة حافظا ناقدا.
انظر : تاريخ بغداد (١/١٤٤)، السير (١٢/٥٢٢).

(٧) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص : (٣٦٩)، والذهبي في السير (١٥/٥٥٩).

فلا يستغرب بعد هذا التنفير إذا عدم في القوم من يجعل القرآن سميره، ولا علم التفسير ديدنه وهجيراه، ولا التفقه في الدين شعاره، ولا الحفظ للسنن والآثار عمـلده؛ إذ إن من آثر منهم السعي في طلب السنن، وكتابة الحديث، والاشتغال بالفقه استثقله أقرانه، وعاتبه مشايخه، وقضوا عليه بعدم الفلاح، والتأخر عن ركب أهل الصـــلاح، كما لا يتعجب ممن أنفق أمواله، وصرف برهة غير يسيرة من حياته في جمع الكتـــب فلما صحب القوم وعلق كلامهم بقلبه أتلفها بدفنها، أو بإلقامها التنور، أو برميـها في النهر أو البحر ... الخ.

فقد حكى الشعراني عن بعضهم أنه قال :

(رأيت القيامة قد قامت، ورأيت موائد الصوفية نصبت فأردت أن أجلـــس عليها فقالوا لي : هذه للصوفية !!

فقلت : أنا منهم.

فقال لي ملك : قد كنت منهم، ولكن شغلك عن اللحوق بهم كثرة الحديث، وحبك التمييز على الأقران !!!

فقلت : تبت إلى الله !! فاستيقظت فأقبلت على طريـــق القـــوم، وقلـــت : للحديث رجال غيري !!!)[1].

وذكر ابن الجوزي رحمه الله عن بعضهم أنه قال :

(كنت أنـــزل رباط الصوفية وأطلب الحديث خفيـــة بحيـــث لا يعلمـــون، فسقطت الدواة يوما فقال لي بعض الصوفية : استر عورتك !!)[2].

ثم علق ابن الجوزي قائلا :

(من أكبر المعاندة لله عز وجل الصد عن سبيل الله، وأوضح سبيل الله العلـــم؛ لأنه دليل على الله، وبيان لأحكام الله وشرعه، وإيضاح لما يحبه ويكرهه، فالمنع منـــه معاداة لله ولشرعه)[3].

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (١/٨٠).

(٢) تلبيس إبليس ص : (٣٧٠).

(٣) المصدر السابق.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

(كثير من هؤلاء ينفر ممن يذكر الشرع والقرآن أو يكون معه كتاب أو يكتب؛ وذلك لأنهم استشعروا أن هذا الجنس فيه ما يخالف طريقهم، فصارت شياطينهم تهربهم من هذا كما يهرب اليهودي والنصراني ابنه أن يسمع كلام المسلمين حتى لا يتغير اعتقاده في دينه ...)[1].

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٤١٢).

المطلب الثاني : موقفهم من كمال الدين في تقرير المسائل العلمية والعملية :

ثمت حقيقة مهمة أكدها غير واحد ممن له عناية بتاريخ التصوف، وتطور عقائده، أرى من المناسب أن أذكرها هنا كتوطئة لهذا المطلب، ألا وهي أن أرباب التصوف أخذوا أفكارهم وعقائدهم من فلسفات عدة، وديانات مختلفة ثم مزجوا بين ذلك الخليط وأصبغوه بصبغة إسلامية، وروجوه بين الأمة على أساس أنه طريق الوصول إلى الله جل وعلا [1]، وممن ذكر هذه الحقيقة بعض المعاصرين ممن أمضى قسطا من حياته في زوايا الصوفية ثم من الله عليه بالتوبة والأوبة بعد أن عرفها حق المعرفة، فقال :

(الصوفية لها مدد من كل نحلة ودين إلا دين الإسلام، اللهم إلا حين نظن أن للباطل اللئيم مددا من الحق الكريم ...)[2].

والذي يهمنا هنا هو معرفة التيار الفكري الذي تأثرت به الصوفية في مسألة السعادة ونظرتها إلى أهمية العلم والعمل وضرورتهما لبلوغ ذلك، ويظهر هذا من خلال النقاط الآتية :

١/ بيان إهمال الصوفية للمسائل العلمية وإفلاسهم فيها :

من الطبيعي جدا أن تكون ثمرة ما سبق إيراده من تنفير الصوفية من العلم ونتيجته الحتمية هو انتشار الجهل بين الأتباع والإفلاس في المسائل العلمية، الأمر الذي جعل المناخ مهيأ لمن دخل في التصوف ممن نشأ وترعرع في أحضان الفلاسفة، وتربى على كتبهم أن ينفث سمومه، وينشر دين الأوائل بين صفوفهم، لذا اعترف الصوفية أنفسهم بأن كثيرا من شيوخهم تأثروا إلى حد بعيد بالفلاسفة وأذنابهم، وقرروا أن كثيرا من كلامهم لا يقبل إلا على قواعد أولئك، فنقل الشعراني عن بعضهم أنه قال :

---

(١) انظر مثلا كتاب : (التصوف المنشأ والمصادر) للشيخ إحسان إلهي ظهير ص : (٩٧ وما بعدها).

(٢) قاله الشيخ عبد الرحمن الوكيل في كتابه هذه الصوفية ص : (١٩) (دار الكتب العلمية/ط٤/١٩٨٤) .

(كثير من كلام الصوفية لا يتمشى ظاهره إلا على قواعد المعتزلة والفلاسفة، فالعاقل لا يبادر إلى الإنكار بمجرد عزو ذلك الكلام إليهم، بل ينظر ويتأمل في أدلتهم التي استندوا إليها، فما كل ما قاله الفلاسفة والمعتزلة في كتبهم يكون باطلا، وإنما حذر بعضهم عن مطالعة كتبهم خوفا من حصول شبهة تقع في قلب الناظر لا سيما أهل الإنكار والدعاوى)[1].

ومن المسائل التي تبرز هذا التأثر نظرة الفريقين إلى حقيقة السعادة وما تتم به، فكل من الفريقين يرى أن السعادة تكمن في الوقوف على الحقيقة، والوصول إلى خالص المعرفة. بيد أن بينهما فرقا في الطريق الموصل إلى ذلك، فبينما يرى الفلاسفة أن الطريق هو العقل، إلا أن الصوفية يرون أن السبيل هو الرياضة والمجاهدة على يد شيخ مربي، ولعل ما سبق ذكره عن موقف الفلاسفة من هذه المسألة فيه الغنية والكفاية فلا داعي لتكراره وإعادته، وأما موقف الصوفية فهو الذي سأتطرق لبيانه وكشفه فيما يلي :

أولا : وردت نقول كثيرة عن أئمة الصوفية فيها التصريح بأن السعادة مرهونة بأن يصل الإنسان إلى أعلى مقامات المعرفة بحيث تنكشف له الحجب، ويدخل الحضرة الإلهية، ويتصل بالله مباشرة، ويعلمه من لدنه علما، فتتجلى له العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقف على أسرار الكائنات، ويطلع على تفاصيل الأمور المغيبات، ويعلم الجزئيات، من غير أن يسلك طريق العلماء، ثم يترقى في تلك المنازل حتى يصل إلى مرتبة الفناء !!!؛ لذا يسمون من علت منزلته عندهم بالعارف، ويزعمون أن من حصل له هذا الأمر فقد بلغ مناه، ولا يطلب شيئا آخر سواه، لا نعيم الجنة ولا ما دونه، حتى قال أحدهم :

(الجنة لا خطر لها عند المحبين)[2].

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (١/١٠).

(٢) حلية الأولياء (١٠/٣٦).

وقال آخر :

(منذ ثلاثين سنة تعرض علي الجنة بما فيها فما أعرها طرفي !!!)[1].

ويقول آخر :

(إلهي ! إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني من ذكرك)[2].

يقول الغزالي :

(مقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فهو قرة العين التي لا تعلم نفس ما أخفي لهم منها، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها، فلو ألقي في النار لم يحس بها لاستغراقه !!!، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه، وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية)[3].

ويقول أيضا :

(أغلب البواعث باعث البطن والفرج، وموضع قضاء وطرهما الجنة، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه –كالأجير السوء– ودرجته درجة البله، وأما عبادة ذوي الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنة؛ فإنهم لم يقصدوها، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه. . ويسخرون ممن يريدون الحور العين.

واستعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان، وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها، وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء.

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٤/٣٦٠) عن ممشاد الدينوري.

(٢) نقل عن إبراهيم بن أدهم كما في الإحياء للغزالي (٤/٣٦٠).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/٣١١).

فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء بأنها لا تشعر به أصلا ولا تلتفت إليه)[1].

ولا شك أن هذا الهذيان مخالف لهدي سيد الأنام؛ فقد ثبت عنهﷺ أنه قال لرجل : كيف تقول في الصلاة ؟

فقال الرجل : أتشهد، ثم أقول : اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ.

فقال النبي ﷺ : حولها ندندن)[2].

ومنشأ الغلط عندهم هو قصرهم اسم الجنة على ما ذكروه من التمتع بالشهوات، والملذات الحسية، واسم النار على ما فيها من العذاب، والألم الحسي.

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(من قال من هؤلاء : لم أعبدك شوقا إلى جنتك، ولا خوفا من نارك، فهو يظن أن الجنة اسم لما يتمتع فيه بالمخلوقات، والنار اسم لما لا عذاب فيه إلا ألم المخلوقات، وهذا قصور وتقصير منهم عن فهم مسمى الجنة، بل كل ما أعده الله لأوليائه فهو من الجنة، والنظر إليه من الجنة)[3].

والمقصود أن السعادة الحقيقية عند الصوفية ليست في الفوز بالجنة، ولا في النجاة من النار، بل السعادة الحقيقية عندهم تكمن في الترقي في درجات المعرفة بدء

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٣٧٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٥/٢٣٤ الرسالة) رقم (١٥٨٩٨)، وأبو داود في السنن : كتاب كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة (١/٢١٠) رقم (٧٩٢)، وابن ماجه في السنن : كتاب الصلاة، باب ما يقال في التشهد، والصلاة على النبي ﷺ (١/٤٩١) رقم (٩١٠)، وابن خزيمة في صحيحه (١/٣٥٨) رقم (٧٢٥)، وصححه الشيخ الألباني كما في صفة صلاة النبي ﷺ ص : (٢٠٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٢٤٠-٢٤١)، وانظر المصدر نفسه (١٠/٦٩٤).

بحب الله، وانتهاء إلى أن يرى الواحد منهم ذات الله في كل شيء، ويرى نفسه قادرا على التصرف في الكون، عندها يستحق أن يسمى عارفا !!

يقول ابن عربي :

(إن العارف من يرى الحق في كل شيء)[1].

ويقول أيضا :

(العارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه)[2].

ثانيا : يزعم الصوفية أن لا سبيل إلى الوصول إلى هذه المعرفة التي تحصل بها السعادة الحقيقية إلا على يد شيخ واصل، ومربي تقدم له السلوك، فلو جمع أحد علوم الكتاب والسنة، وعمل بمقتضاها لن يصل إلى تلك المعرفة إلا بذلك، حتى قال أحدهم :

(لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لايبلغ مبالغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من آمر له وناه يريه عيوب أفعاله، ورعونات نفسه لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات)[3].

وقال الشعراني :

(اعلم أنه لا يمكن لطالب العلم العمل بالعلم وآدابه ويصير عليه الأنس والخير إلا إن كان معتقدا في طائفة الفقراء مخالطا لهم فبذلك يثمر له العلم العمل؛ لأنهم ينبهونه على الدسائس المانعة للقلب عن قبول الخير؛ لأن العلم قوة للنفس، وكلما كثرت قويت وتكثرت وأبت على الخير !!)[4].

---

(١) فصوص الحكم (١/١٩٢).

(٢) المصدر السابق (١/١٩٥).

(٣) نقله الشعراني في الطبقات الكبرى (١/٩٢) عن أبي علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي.

(٤) الأنوار القدسية (١/٤٥).

فقد اشترطوا ضرورة وجود الشيخ المربي زاعمين أنه يدل المريد على عيوب أفعاله، ودسائس نفسه ...، وزاد الشعراني سببا آخر فزعم أن الفقير أو المريد يترقى إلى مقامات وأحوال بحسب حظه ونصيبه إلى أن يغيب عن ملاحظة نفسه، وأنه لا يزال في الترقي، وكلما ترقى إلى مقام تركه، وكل مترق في حال ترقيته لا يذوق أن فوق ما ترقى إليه مقام، فلزم أن يتخذ شيخا ممن سبق له السلوك قدوة، بحيث يعلمه إذا ترقى إلى مقام بأن وراءه كذا وكذا من المقامات، فهي طرق غيب لا تسلك إلا بدليل !!! [1].

والمقصود أن العمل بما في الكتاب والسنة لا يكفي عند الصوفية للوصول إلى السعادة الحقيقية، بل لابد من التربية على يد شيخ، والتلقي من عارف؛ حتى ولو كان ذاك العارف ممن لم ينتفع بمعارفه !! فقد ذكر الشعراني عن أحدهم أنه ادعى رؤية إبليس، وأنهما تناظرا فقطعه عدو الله، ثم قال :

(فهممت أن آخذ عن إبليس طريق المعرفة، وإن لم ينتفع هو بها !!! لقول بعضهم رضي الله عنهم : انظر ما قال، ولا تنظر إلى من قال)[2].

فلو أخذها منه لقلنا له : على الخبير سقطت؛ إذ كل معرفة لا يكفي للوصول إليها ما في الكتاب والسنة، فلا أحد أعرف بها من إبليس وأعوانه.

---

(١) انظر الأنوار القدسية (١/٢٢-٢٣).

(٢) المصدر السابق (٢/٦).

٢/ بيان إخلالهم بالجوانب العملية، وتفشي الشرك والبدع عندهم :

تبين مما سبق أن غاية ما يصبوا إليه الصوفية هو الترقي إلى أعلى درجات المعرفة، وأن ذلك لا يتم إلا على يد شيخ واصل، وبقي بيان موقفهم من العمل، وأهميته عندهم للوصول إلى ذلك، وهذا ما سأتطرق إليه في النقاط التالية :

(أ) كثيرا ما يدندن الصوفية على أن طريقتهم لا مجال فيها للقيل والقال، بل هي مبنية على الأعمال والأحوال، وأن أول ما يبدأ به السالك تصفية القلب، وتخليصه من العلائق، وتطهير النفس من الأخلاق المذمومة، والصفات الخبيثة، وذلك بالمواظبة على الذكر والفكر، ولزوم فعل الخير ....

إلا أن المطلع على حقيقة مذهبهم يجد أن العمل عندهم لا يعدو أن يكون شرطا في السلوك لبلوغ غاية منشودة، فهو وسيلة لتحقيق المعرفة.

حكى الشعراني عن أبي سعيد الخراز[1] أنه قال :

(إذا أراد الله أن يوالي عبدا من عبيده فتح له باب ذكره، فإذا استلذ بالذكر فتح عليه باب القرب، ثم رفعه إلى مجلس الأنس، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحجب، فأدخله دار الفردانية، وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا وقع نظره على الجلال والعظمة بقي بلا هو، فحينئذ صار العبد فانيا فوقع في حفظ الله وبرئ من دعاوي نفسه)[2].

فإذا وصل السالك إلى هذه الدرجة استغنى عن العمل، فربما فرط في بعض الواجبات، وربما استحل ارتكاب المحرمات، وركوب المعاصي والمنكرات، حتى قال أبو يزيد البسطامي :

---

(١) هو : أحمد بن عيسى، أبو سعيد، الخراز البغدادي، شيخ الصوفية، قيل بأنه أول من تكلم في الفناء والبقاء؛ لذا قال الذهبي : (أي سكتة فاتته، قصد خيرا، فولد أمرا كبيرا، تشبث به كل اتحادي ضال). توفي سنة سبع وسبعين ومائتين، وقيل غير ذلك.

انظر : حلية الأولياء (١٠/٢٤٦)، السير (١٣/٤١٩)، البداية والنهاية (١١/٧٨).

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني (١/٧٩).

(عجبت لمن عرف الله كيف يعبده !!!)[1].

وقال أيضا :

(اطلع الله على أوليائه فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا، فشغلهم بالعبادة)[2].

فلا يشتغل بالعبادة إلا من لم يقو على تحمل المعرفة، وأما العارف الواصل فهو مشغول بالمعرفة وأغناه ذلك عن الانشغال بالعبادة أو بشيء آخر غيرها كالدنيا وما فيها، والجنة ونعيمها؛ إذ المشغول لا يشغل !! [3].

قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله :

(وفي النساك قوم يزعمون أن العبادة تبلغ بهم إلى منزلة تزول عنهم العبادات، وتكون الأشياء المحظورات على غيرهم من الزنا وغيره مباحات لهم. .)[4].

وقال ابن حزم رحمه الله :

(من الصوفية من يقول : إن من عرف الله تعالى سقطت عنه الأعمال الشرعية، وزاد بعضهم : واتصل بالله تعالى)[5].

والذي يتصفح كتاب الطبقات للشعراني يجد فيه ذكر حكايات منكرة، ووقائع ساقطة لا تصدر إلا ممن حل عقد الشرع، وأسقط جلباب الحياء، ومما يزيد القلب حزنا وأسى أن تذكر تلك القبائح على أنها من كرامات الأولياء، وأن تحكى ضمن سيرة من يجعله الصوفية أهلا للاقتداء.

---

(١) نقله عنه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/٣٧).

(٢) حلية الأولياء (١٠/٣٩).

(٣) انظر الطبقات الكبرى للشعراني (٢/٦٢) فقد نقل بعض الكلمات الصريحة في هذا الموضوع كقولهم : (يصل الولي إلى حد يسقط عنه التكليف) وقولهم : (إن للربوبية سرا لو ظهر لعطل نور الشريعة) ثم نقل عن أبي المواهب الشاذلي كلاما حاول فيه أن يصرفها عن معناها الظاهر فلم يأت بطائل، والترقيع في مثل هذه الكلمات الصريحة لا يفيد ولا ينفع.

(٤) مقالات الإسلاميين ص : (٢٨٩).

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٥/٥٠).

وقد حاولوا أن يجدوا في الشرع شيئا يمكن الاستدلال به على تصحيح دعوى سقوط التكليف عن العارف، فلم يجدوا بغيتهم إلا في قصة الخضر مع موسى عليه السلام !!.

يقول أحدهم :

(إن رأيت من الشيخ ما يتراءى عندك أو غيرك أنه غير مشروع فاتهم نفسك، واحمله على قصور علمك ونظرك؛ فإن الشيخ يكون له دليل وبرهان قصر فهمك عن إدراكه، واعلم أن الشيخ أولى برعاية الشريعة وأشد اهتماما بها من غيره، وكلما خطر لك شيء من هذا الجنس تذكر قصة موسى والخضر عليهما السلام ليندفع عنك الاعتراض ...)[1].

وقد بين غير واحد من أهل العلم أن القصة لا تدل على ما يصبوا إليه الصوفية البتة، وأنه لا يجوز لمكلف أن يخرج عن الشريعة بأي حال من الأحوال.

٢/ إن العمل الذي يدندن عليه الصوفية، ويجعلونه ضروريا في سلوك الطريق، وشرطا للوصول إلى السعادة لا يقتصر على امتثال ما ورد في الكتاب والسنة من الفرائض والمستحبات، بل لهم أصناف مختلفة من الرياضات، وألوان عدة من المجاهدات، تختلف باختلاف ما يمليه الشيخ المربي، فكل طريقة لها أوراد خاصة بها يتحتم على مريديها التزام فعلها، وهذه الأفعال التي يلتزمونها تجمع بين أمور عدة مخالفة للشريعة، منها :

- أن الغالب فيها البدعة؛ لعدم ورودها في الكتاب والسنة، فأكثر أورادهم عبارة عن اجتهادات شخصية، وأحسن أحوالها أن يزعم صاحبها أنه أخذها عن النبي ﷺ يقظة، أو مناما !! أو أخذها عن الخضر !! أو تعلمها بواسطة هاتف أتاه من الله جل وعلا ... !!.

---

(١) قاله الفوتي في كتابه رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم ص : (٣٢٤) (دار الفكر، بيروت/ ١٤١٥).

- أن فيها من التعب والمشقة ما لا يقره ديننا الحنيف، فهي إلى الرهبانية أقرب منها إلى الإسلام؛ إذ إن من القوم من يمكث أربعين يوما وأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، ويظل طول نهاره وليله قائما شاخصا ببصره إلى السماء حتى ينقلب سواد عينيه إلى حمرة تتوقد[1] !!،ومنهم من يكتحل بالملح كي يعتاد السهر[2] !!، ومنهم من يمكث نحو أربعين سنة في خلوة مسدود بابها ليس لها غير طاقة يدخل منها الهواء[3] !! ومنهم من يأوي إلى المقابر والصحاري ويخرج إلى السواحل فيقيم فيها[4] !!، ومنهم من يبحث عن الكلاب والقطط الميتة فيضعها داخل دكانه فلا يستطيع أحد أن يجلس عنده[5] !!!، ومنهم من مكث نحو أربعين سنة يأكل كل يوم زبيبة واحدة حتى لصق بطنه على ظهره [6] !!، ومنهم من يمكث الخمسة شهور أو أكثر لا يضع جنبه بالأرض لا ليلا ولا نهارا[7] !!، ويقولون : (الجوع سحاب، فإذا جاع العبد مطر القلب الحكمة)[8] !! ...إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

٣/ يعتقد الصوفية أن الأعمال الشرعية لا توصل إلى المعرفة ولو اجتهد الإنسان في فعلها إلى أبلغ الحدود !! فالعبادات الشرعية شرعت للعوام، وأما الخاصة فقد سبق قريبا ذكر شيء من أعمالهم، ومما يدل على عقيدتهم هذه أمور عدة منها :

(أ) تلك الحكاية التي ذكرها أبو حامد الغزالي ومفادها (أن رجلا عظيما من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد البسطامي، فقال لأبي يزيد مرة :

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للشعراني (١٥٩/٢).

(٢) انظر المصدر السابق (٨٩/٢).

(٣) انظر المصدر السابق (٨٠/٢).

(٤) انظر المصدر السابق (٤٠/١).

(٥) انظر المصدر السابق (١٣٠/٢).

(٦) انظر المصدر السابق (١٣٣/٢).

(٧) انظر المصدر السابق (١٦٣/٢).

(٨) قاله أبو يزيد البسطامي كما في حلية الأولياء (٣٩/١٠).

أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد من العلم الـذي تذكر !!.

فقال أبو يزيد : لو صمت ثلاثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرة !!

قال : ولم ؟!

قال : لأنك محجوب بنفسك !!

قال : فلهذا دواء ؟

قال : نعم.

قال : قل لي حتى أعلمه.

قال : اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك **ولحيتك** !! وانـزع هذا اللباس، واتزر بعباءة، وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزا، واجمع الصبيان حولك وقل : كـل من صفعني صفعة أعطيته جوزة !! وادخل السوق، وطف الأسـواق كلـها عنـد الشهود، وعند من يعرفك وأنت على ذلك !!!

فقال الرجل : سبحان الله !! تقول لي مثل هذا ؟!

فقال أبو يزيد : **قولك " سبحان الله " شرك !!**

قال : وكيف ؟!

قال : لأنك عظمت نفسك فسبحتها، وما سبحت ربك !!!

فقال : هذا لا أفعله، ولكن دلني على غيره.

فقال : ابتدئ بهذا قبل كل شيء !!!

فقال : لا أطيق.

قال : قد قلت لك إنك لا تقبل)[1].

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٣٥٨).

(ب) تفضيلهم السماع على القرآن، والأوراد البدعية على الأذكار الشرعية، حتى قال الغزالي :

(اعلم أن السماع أشد تهييجا للوجد من القرآن من سبعة أوجه) ثم ذكرها [1].

وقال أيضا :

(في الوقت الذي صدقت فيه رغبتي لسلوك هذه الطريق شاورت متبوعا مقدما من الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن !! فمنعني !!! وقال :

السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية !!! بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال ووطن وعلم وولاية، بل تصير حتى يستوي عندك وجودها وعدمها، ثم تخلو بنفسك في زاوية، تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب، مجموع الهم، مقبلا بذكرك على الله تعالى، فلا تزال تقول : الله، الله، مع حضور القلب وإدراكه، إلى أن تنتهي إلى حالة لو تركت تحريك اللسان لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك، لكثرة اعتياده، ثم تصير مواظبا عليه إلى أن ينمحي أثر اللسان، فتصادف نفسك وقلبك مواظبين على الذكر من غير حركة اللسان، ثم تواظب إلى أن لا يبقى في قلبك إلا معنى اللفظ، ولا يخطر ببالك حروف اللفظ وهيآت الكلمة، بل يبقى المعنى المجرد حاضرا في قلبك على اللزوم والدوام)[2].

وبعد هذا فخلاصة موقف الصوفية من السعادة يمكن إجماله في النقاط التالية :

١ / السعادة الحقيقية عند الصوفية تكمن في الوصول إلى أعلى درجات المعرفة.

٢ / يشترط الصوفية أن يكون السير في طريق الوصول على يد شيخ واصل جرب الترقي في تلك المقامات حتى بلغ.

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/٢٩٨).

(٢) ميزان العمل ص : (٢٢٢).

كما أنهم أخذوا يلفقون ويجمعون بين مختلف الآراء، فكونوا منها مزيجا متناقضا لا يربط بعضه ببعض رابط، فتسلحوا بحشو كلام الفلاسفة [1]،(فمن بواطن غيهم كان استمدادهم؛ فإنهم بين مذاهب الثنوية والفلاسفة يترددون، وحول حدود المنطق في مجادلاتهم يدندنون)[2]، كما استعملوا التصوف مطية لبلوغ أغراضهم، فكان دعاتهم يتسترون بالزهد والمبالغة في العبادة للتغرير بمن كان ميله إلى الصلاح، وأتقنوا استعمال السحر والشعبذة ، والتنجيم والكهانة، وسلكوا كل الطرق التي في وسعهم حتى يلبوا رغبات ومعتقدات الذين يحاولون دعوتهم واصطيادهم، ويتمكنوا من الدخول على كل قوم من الجانب الذي يميلون إليه .

قال الغزالي :

(سبيل دعوتهم ليس بمتعين في فن واحد، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منهم بالانقياذ لهم والموالاة لإمامهم : فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ويقرونهم عليها)[3] .

وهذا ما صرح به أحدهم فقال :

(ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم، فمن آنست منه رشدا !! فاكشف له الغطا)[4] .

ودخلوا على المسلمين من باب الرفض لا حبا في علي ﷺ وآل بيته، ولكن بغضا في الإسلام وحملته، فحقيقة (مذهبهم ظاهره الرفض، وباطنه الكفر المحض)[5] .

---

(١) قال الغزالي في المنقذ من الضلال ص : (٥٥) : (المحكي في كتاب إخوان الصفا على التحقيق حشو الفلسفة) .

(٢) قاله الغزالي في كتابه فضائح الباطنية ص : (٥) .

(٣) المصدر السابق ص : (٢٥) .

(٤) من رسالة عبيد الله بن الحسين القيرواني إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي ذكر طرفا منها البغدادي في الفرق بين الفرق ص : (٢٦٠) .

(٥) قاله الغزالي في كتابه فضائح الباطنية ص : (٢٥) .